جنون المطرالجزء الأول (2)

للكاتبة/ برد المشاعر

~~~~~~~~~~~~~~~~~~~~

تجميع : فيتامين سي

شبكة روايتي الثقافية

~~~~~~~~~~~~~~~~~~~~

(جنون المطر) الجزء الأول

الفصل الواحد والعشرون

السلام عليكم ورحمة الله بركاته أنار الله أيامكم بذكره وشكره وحسن عبادته وجعلني وإياكم من المقربين له ليوم نلقاه ، أسعد الله مسائكم متابعات روايتي أينما وجدتم وأشكركم جزيل الشكر على كل كلمة وحرف وعبارة كتبتموها ، كانت ردودكم أكبر من داعم لي كانت تعليقات رائعة أرضتني حد الشبع وتمنيت أكون معاكم حرف بحرف وكلمة بكلمة لكن الكتابة أخذت كل وقتي خاصة مع طول الفصل يحتاج لخمس أيام لأنه صار بطول خمسين صفحة على الوورد وأتمنى ما أقصر في سرد الأحداث وما تفقد الرواية روعتها وحبكم لها .

أشكر من توجوا الردود بأشعارهم الحلوة وهذي أجمل مفاجأة لي لأني أحب الشعر وكنت أحب كتابته وعارفة الجهد والتعب فيها ومهما كانت الكلمات فهي رائعة لأنه متعوب عليها .

واتفاجأت بالغالية لمارا شاعرة متعددة المواهب الله يحفظك يا عمري وكل أشعار البنات كانت رائعة وشرف ليا ولروايتي إني أتوج فصولها بكلماتكم وأسمائكم .

وأشكر حبيبتي فيتامين سي لتعبها في جمع الأشعار وإضافتها للفصل ومهما شكرت وقلت في حقها قليل .

وأرحب طبعا بالجدد الي شرفوا روايتي بكلماتهم شكرا لكم من صميم أعماق قلبي .

وبالنسبة لتعليقات الفصل حاولت أجمع أهم النقاط فيه وعارفة إني مقصرة جدا معاكم لكن أملي كبير في قلوبكم الطيبة الرحبة وتابعت ردودكم أول بأول ابتسمت معاكم وضحكت معاكم الله لا يفرقنا ولا يحرمني تواجدكم الرائع.

الغالية نداء الحق حبيت أوضح لك إن ضرار وسلطان كانوا يساعدوا مطر أو جسر لشخصين خفيين

آيفا رمضان حبيبتي أثارت نقطة جدا مهمة وهي جمال المرأة ونظرة أغلب الناس لأنها المرأة الحائزة على كل شيء السعيدة دائما والجميع تحت أمرتها وهذا خطأ كبير يقع فيه الكثيرين فكم من جميلة تعيسة وكم من كره الناس

جمالها بسبب أفعالها وكل إنسان تحركه أقدار الله وطبعا كما ذكرتي جمال المرأة نابع من اهتمامها بنفسها كامرأة

حبيبتي الزوري عندك توقع رهيب ما بقوله طبعا

مطر وغسق طبعا الي توقع إن وضعهم بيستمر على هالمنوال لنهاية الجزء فلازم ينسى الفكرة لأن الأحداث بتاخد منحى مختلف جدا وما بطول عليكم في الشد والرد بينهم لتوصلوا لمرحلة الملل ولأن الجزء الثاني مختلف جدا فهالجزء جسر ليه ولازم تختلف الأحداث تباعا

مارية الجميع افتقدها وسأل عنها بتشوفوها اليوم إن شاء الله وأطفال الرواية وجودهم شيء عرضي بيقوى في فصول وابيضعف في فصول لأنهم بهالجزء مجرد تجهيز للجزء الثاني عشان ما يكون بدايته رجوع للماضي لفهم الشخصيات فتكون واضحة عرفتوها وعشتوا معاها وحبيتوها ولازال ينتظرهم أحداث وتغيرات في هالجزء وفيه أبطال قريبا تعرفوهم ولو بذكرهم فقط

الغالية ليلة طويلة شكرا لتوضيحك بالنسبة لمسألة الصفير في أحكام التجويد وأشوف البنات ماشاء الله فهمو الطريقة جعلنا الله جميعا من حملة كتابه وأعن كل من شد العزم عليه .

الحلوة روح هاربة كانت أول وأفضل من فسر حركة مطر ووضعه لأحمر الشفاه على رقبته ما أحتاج مع كلامك لتوضيح أبدا .

حبيبتي لامارا حركت أهم نقطة وهي حكم زواج مطر بغسق والمهر المؤجل وكلامها كان سليم جدا وأتمنى ما تثار هالنقطة لأن في حقائق بتظهر قريبا وتتوضح لكم الأمور فرجاءا الاكتفاء بكلام لامارا حاليا لأنها فتوى سليمة جدا أفتى بها الإمام إبن تيمية والشيخين ابن عثيمين وابن باز رحمهم الله جميعا وغسق لا تعد ولي نفسها طبعا

ريوو الحلوة ما فهمت القوات الخاصة وهي عبارة عن مجموعة أشخاص مدربين تدريب مميز يقوموا بأي مهمة توكل لهم من دون رفض أو اعتراض أو عجز ومهامهم سرية دائما أتمنى تكون وضحت الفكرة يا قمر وربي يمد في عمرك وتشوفي أولاد أحفادك ، طبعا شاي غسق من بنات أفكاري ما سبق وجربته ههههه لكن كل الأعشاب الي ذكرت تستخدم مع الشاي

فيه نقطة أخرى لحبيبتي لمارا وهي إلمام الكاتبة بالشيء الي تكتبه وتعذر بعض الكاتبات بالخيال في الكتابة وهذا خطأ كبير فكلنا بشر والبشر يخطئ وماهو عيب يعترف بخطأه وإنه سها عن الأمر مثلما سهيت أنا عن الرمان طبعا ههههه لكن إن تكون حجتنا هي الخيال في الرواية فهذا ينفر الكاتب المنسجم مع الأحداث لأنه يتصورها واقع أمامه

ومرض التوحد أنا ما سبق وشفت طفل مصاب بيه لكن حاولت أعرف عنه قبل أكتبه وأسأل الله إنه يضاعف أجر كل أم يعاني مع طفلها بسببه

أصابع مطر الست لهم نصيب من الأحداث كما سؤاله عن سبب دخول غسق للحالك وكل شيء في وقته حلو يا حلوات وأشكر وأثني على قوة انتباهكم

طبعا الحلوات هموس والزوري وكل الي يتقاسموا الأبطال أصبروا للجزء الثاني يمكن تغيروا رأيكم مع تغير الأحداث وانضمام الأبطال الجدد لأنه في بطلين مهمين ما بيظهروا إلا وقتها رغم وجودهم بهذا الجزء وفيه أحداث بتتحكم ببعض الشخصيات فخليكم على مطر بس

هههه ، لي لي لازم تنسي فكرة التفاحة لأنها ما بتاكلها ، أما الي بتصيبه الرصاصة ففيه وحدة توقعته برافوا عليها بنعرفها اليوم وشكرا لكم جميعا أطلت عليكم ومع ذلك قصرت جدا في حقكم

وختاما أركش أركش يا حلوات هههه ريوو هذي أجمل كلمة مقلوبة استعملتها .... وأترككم مع الفصل وصدمتكم من مقتطفات فيتو المختارة بعناية أنا انصدمت بيها هههه ربي يحفظك لينا يا عسل

المدخل ~

بقلم الغالية: نجـ"مـ"ـة المسـ✩ـاء

..كلمات متواضعة بمناسبة وسام التميز..اعتذر عن بساطتها فهي تعبير اللحظة

..مبارك لاجلك يا برد
..مبارك نقشته بالورد
..ولن ابارك المحبة
..فانت من اغلى الاحبة
..ففكرك كم داعب الخيالا

..وحط في رحالنا وجالا
..خيالك بظله قد عمنا
..ورقة،تواضع كم شفنا
..وكم اذكيتي عنبرا وعودا
..فازهرت حروفك ورودا
..وشكرنا موصولة به الجمل
..لكل من رد وكل من نقل

*****

أمسكت بذراعه موقفة له ولفته جهتها وهمست بغضب ناظرة لعينيه

" هل جننت ! ألست متضررا مثلي من هذا وأنت تخرج لهما ؟ "

نزل بنظره لذراعه وليدها الممسكة به بقوة فسحبت يدها سريعا

ولازالت نظراتها معلقة به ، هي لا تصدق ما يحدث أمامها ولم

تكن لتتخيل أن يفكر هكذا (ياله من داهية ما هذا الرجل ! هل هذا

من قيل عنه أنه لا يعرف النساء ! قسما أنهم كذبوا ، سحقا يريد

أن يربح مهما كانت النتائج ، هذا ما يسمى بجنون العظمة بالتأكيد)

لم تكن لتتوقع ذلك منه أبدا وبأن يناور بأي شيء ولا يفكر على

حساب من سيكون ذلك وإن كانت نفسه ؟ أم أنه يعلم بأنها ستضعف

ولن تسمح له بأن يضعها في ذاك الموضع وهي موقنة من أن التي

في الخارج لن تغادر حتى يخرج لها أو تدخل عليهما ؟ كان عليها أن

تفكر وتقرر وتحصي تبعات قرارها في وقت قياسي وهذا ما عجزت

عنه أمام صدمتها ، خرج صوتها وكأنه يخترق أشواكا منغرسة في

حنجرتها " لا تلعب بالنار يا ابن شاهين وكن نزيها أو أخرجت

" أنا أيضا أسلحتي وحاربتك من نفس المستوى

ابتسامة لعوب كانت جوابه الوحيد ورفع يده ناظرا للساعة الجلدية

في ساعده وقال ببرود " هذه أطول مدة عرف فيها الوقت صبر

" ابن شاهين فقرري الآن ولآخر مرة سأسألك ؟

ثم عاد بنظره لها متابعا " ماذا تريدين بدلا عن الأرض

" والحرب مهرا لك ؟

صرت على أسنانها بقوة ونظرت لعنقه ولأحمر الشفاه البارز

بوضوح في بياض بشرته وكرهت حينها نفسها وكرهته أضعافا

وهي تفكر ما الذي سيتوقعه من سيراه عليه ، وبدأ عقلها يصنع

أبعادا ثلاثية للمشهد الذي سيتخيلونه ، أغمضت عينيها بقوة

لبرهة ثم فتحتهما مجددا وقالت بهمس غاضب

" العمران "

وبنت أملا ضئيلا يحتضر في داخلها بأنه يستخدم هذا كضغط عليها

فقط ولن يقدم على فعله ويضع نفسه في ذاك الموقف المحرج

أمامهم وفكرت بأنه لن يفعلها إلا إن كان هذا الرجل على استعداد

لأن يخسر أي شيء في أي حرب يدخلها مقابل أن يخرج كاسبا

ومنتصرا على خصمه ، أم ما هذا الذي يجعله متمسكا

بعقد زواجه بها لهذا الحد !!

أولاها ظهره وتحرك مجددا وفي كل خطوة كان يخطوها جهة الباب

كانت تشعر بأنها تدوس كرامتها التي ستتحول لسجادة ما أن يخرج

وسيدوسها الجميع وهم يتصورون أنها السبب في ذاك اللون الأحمر

في عنقه ، حاربت باستماتة أي أفكار تثنيها عن عزمها فيما تريد

وهي ترى يده ترتفع لمقبض الباب (لا تضعفي يا غسق وكوني

مثله يجازف في حربه متجاهلا عواقب ذاك الأمر ولا يعنيه

(سوا النتائج المترتبة عنها

كان صوت ضربات قلبها يدوي في أذنيها ولم تعش حياتها مثل هذا

النوع من العبث بالأعصاب وهي تفقد أملها الضئيل ذاك شيئا فشيئا

بأن يكون يضغط عليها ليس إلا وهي ترى مقبض الباب يدور في

يده وكادت تهوي على الأرض تحتها فاقدة للوعي حين فتح الباب

على اتساعه لتظهرا الواقفتان خلفه ولم تتبين سوا وجه شقيقته التي

سرعان ما سقط نظرها على عنقه وبيبست مكانها مصدومة فأنزلت

رأسها للأسفل وأغمضت عينيها بقوة تلعنه وتلعن كل شيء حولها

حتى الهواء الذي تتنفسه ولم يتركها تموت ، وما زاد الأمر سوءا

خروجه من أمامهما دون أن يقول شيئا ولا حتى أن يعتذر من عمته

رفعت رأسها ما أن سمعت صوت تحرك عجلات الكرسي ليقع

نظرها على العينين التي كانت تنظر لها باشمئزاز واحتقار فها قد

أعطاها لها مجددا لتستصغرها شقيقته الكارهة لها بدون سبب كما

ترى هي ، لقد وضعها في موقف لا تحسد عليه وهي من بات الجميع

هناك يعلم أنها وضعت العمران مهرا لها وتصر عليها ، أنقدت العمة

الوضع أخيرا وقالت ناظرة لجوزاء فوقها " ألم تقولي أنك تريدينه

" في أمر مهم ؟

فتحركت حينها جوزاء قائلة ببرود ووجهتها الباب الذي دخلت منه

" أجل وما كنت أعرف أنه ثمة من يمسكه "

وخرجت تاركة خلفها أعصابا تكاد تحترق داخل التي طفح بها

الكيل وخرجت الحروف من بين أسنانها بغيظ وهي تقبض

" يديها جانبي جسدها " يا صبر أيوب

والجواب كان ضحكة صغيرة من الجالسة على الكرسي وتقدمت

منها به قائلة بابتسامة " لا تهتمي لكل ما يحدث حولك يا غسق

" يبدوا أنكما توصلتما لاتفاق وانتهينا من المشكلة ؟

أبعدت نظرها ووجهها عنها فكل ما كانت تتمناه وقتها أن تنشق الأرض

وتبتلعها ، كانت تعلم أن عمته لن تقتنص الفرصة لترميها بأي تعليق لاذع

وإن كان غرضها شريفا وأرادت تنبيهها على أن لا تغفل عن أحمر شفاهها

مجددا وتتركه يخرج هكذا لأنه لا يراه إنما تراه هي ، فكت يديها عندما

آلمها كفاها وأولتها ظهرها سريعا هربا من مواجهتها لما تشعر به

" من إحراج أمامها وقالت ببرود " لا يبدوا أنه ثمة حلول أبدا

وأضافت بنبرة قهر أكثر من كونها سخرية " لكني عملت بكلامك

عنه وخرجت رابحة وإن في جانب واحد بعيدا عن التفكير

" في كم الخسائر

لم تفهم الجالسة خلفها شيئا سوا أن مشكلة المهر لم تحل بينهما

فتنهدت بعجز وقالت مغيرة مجرى الحديث " يبدوا أنك جهزت

نفسك لاستقبال الضيوف معنا هذه المرة أم أنك ستغيرين

" رأيك بسبب المزاج المشتعل هذا ؟

مررت أصابعها في غرتها للأعلى وزفرت نفسا قويا وقالت

بالتأكيد سأكون هناك ومزاجي المشتعل سأحاول أن أتركه "

" هنا ، لا تقلقي سينجح الأمر ولن أزعج ضيوفكم عمتي

تحركت تلك بكرسيها للوراء لتخرج وقالت وهي عند الباب

جيد ، أنا أريد فعلا أن تستقبلي الضيوف معنا يا غسق وآسفة حقا "

لما حدث فجوزاء كانت مارة بي من هنا وقالت أنها تريد مطر في

أمر ضروري ورغم إصراري رفضت الرضوخ حتى كدت أتشاجر

معها عند الباب ولم تسمح لي ولا بالمغادرة وتركها ، كان تطفلا

" منا ويحق لك أن تتضايقي

أنزلت رأسها وعضت شفتيها بقوة تمنع ما تريد قوله من الخروج

وسب ابنة شقيقها أمامها بما تستحق ، ثم حررتهما بعدما أقنعت نفسها

بالعذل عن ذلك وقالت بشيء من الهدوء " لا عليك عمتي ، غضبي

" لم يكن منك أبدا وأعذرك تأكدي من ذلك

فلم تسمع بعدها سوا صوت الباب الذي أغلقته خلفها فتوجهت للمرآة

أخذت المشط وجلست على السرير وبدأت بتمشيط شعرها بقوة

" تفرغ غضبها فيه وتمتمت بغيظ " سحقا له ولشقيقته معه

*****

*****

ما أن اقترب من المنزل حتى ركض جهته وعقله يكاد يقفز من مكانه

" وقلبه يرتجف من قوة نبضاته صارخا " لا ليس والدتي

وركض جهته كالمجنون وهو يرى النسوة الداخلات من باب سوره

تباعا وصوت بكاء ونواح لأخريات من الداخل ، وصل الباب بسرعة

البرق ودخل فورا لغرفته ووالدته وسقط على ركبتيه مصعوقا وهوا

يرى سريرها فارغا فوقف من فوره وخرج راكضا جهة باب ذاك

المنزل الذي يخرج منه بكاء من فيه ووقف متسمرا مكانه وهوا يرى

والدته تخرج من باب المنزل وماريه تمسك يدها فتوجه نحوها راكضا

لا يصدق أن ما يراه أمامه حقيقة وهوا من ضن أنه فقد في لحظة آخر

شيء يربطه بالحياة ، حضن خصرها بقوة مخفيا وجهه فيه وقال بعبرة

" لم تسمع في صوته من قبل " أمي حمدا لله ظننتك تركتني وحيدا

مسحت دمعتها بطرف يدها وقالت بحزن ماسحة على شعره

" لا تبكي يا تيم أريدك رجلا لن يكسره رحيلي "

هز رأسه بلا ولازال يدفن وجهه في خصرها فخرج صوت

" ماريه المختلط بعبرتها " ما بك يا تيم ؟ لا تبكي

ودخلت في نوبة بكاء فضحكت والدته بتعب وقالت " ها قد

أبكيتها معك ، أسكتا هيا وخذاني للغرفة لا يمكنني

" الوقوف أكثر من هذا

ابتعد عنها يمسح دموعه وسار بها تسند يدها على كتفه وتبعتهم

" تلك تمسح عينيها بكفها الصغير قائلة " ظافر مات يا تيم

نظر لها خلفه بصدمة ثم لوالدته التي هزت رأسها بنعم بحزن وهم

يجتازون باب الغرفة ثم أجلسها على السرير قائلا " كيف ولا

" ! حروب مع الهازان حاليا

عدلت والدته ساقيها وقالت وهي تساعده في تغطيته لهما

" أصابته رصاصة خاطئة حين كان أحدهم ينظف سلاحه "

قالت ماريه من فورها " والدته قالت ليثه مات يقاتل وأنها شر

" قتلة فما معنى هذا ؟

نظر لها وقال ببرود " معناه أن جل ما يفكرون فيه أن يموت

" ابنهم بطلا في أعين الجميع

قالت والدته بضيق " تيم توقف عن قول هذا وترحم عليه

" الموت خسارة للجميع

ابتسم بمرارة ابتسامة قهر وقال " نعم معك حق يا أمي فأنا

أيضا سأخسر ثيابه التي ألبسها بعده "

هزت تلك رأسها بيأس متنهدة بأسى ثم نظرت لماريه التي

أمسكت رسغ تيم وقالت مستغربة " انظر تيم لقد جرحت

يدك مرة أخرى !! هذا غير الحرق "

فسحبها منها ونظر لوالدته التي قالت ناظرة له موجة كلامها

للواقفة بجانبه " ماريه عليك الرجوع للمنزل كي لا تعاقبك

زوجة عمك فهي منهارة وقد تبحث عمن تنفس فيه حرقتها "

هزت تلك رأسها بحسنا وشدت كم قميص الواقف بجانبها حتى

انحنى لها قليلا وهمست له في أذنه " تعالى تيم أريدك وحدنا "

فتبعها من فوره وما أن كانا في الخارج وقفت مقابلة له مضيقة

عينيها بسبب نور شمس بعد الظهر القوية وقالت تبعد شعرها

عن وجهها " امرأة أخبرت والدتك أنها رأتك عند عيادة

الطبيب في المقر ويبدوا أنها غاضبة منك "

أمسك وسطه بيديه ونظر جهة المنزل وشتم هامسا

" سحقا للثرثارة "

" ثم عاد بنظره لها وقال " وما أخبرتها أيضا

" هزت تلك رأسها بلا وقالت " هذا فقط ، هل هناك شيء آخر ؟

" استدار عائدا للغرفة وقال " لا شيء اذهبي أنتي الآن

ودخل الغرفة ووقف عند الباب يديه في جيوبه يتوقع ما سيسمع منها

وقد قالت مباشرة " مؤكد أخبرتك ماريه ، هي لا تخفي عنك شيئا

" بينما أنا أراها كل يوم وتسمع بذلك من الجميع ولم تقله لي

" تنفس بقوة وقال " أنا من أخبرتها أن لا تفعل

" قالت بجدية " تساعده كما يقول الجميع أم تعمل عنده يا تيم ؟

آثر الصمت ولم يعلق فقالت بحزم " قل الحقيقة فوالدك لم يربيك

" على الكذب ، هل هذا سبب إحضار الدواء لي دائما

" أبعد نظره عنها وأشاح بوجهه جانبا وقال ببرود " نعم

" .... قالت بضيق " لماذا يا تيم ؟ أنت صغير على كل هذا بني لـ

قاطعها بحرقة راميا يده " لن أرضى أن يعطيه لي مجانا ، أنتي

" لا تحتاجين لصدقات من أحد يا أمي

قالت بغضب " من هم في سنك يركضون بين الأشجار ويلعبون

الكرة وينامون ولا يشغلهم شيء ، لا تعطي عمرك أكبر من طاقته

وتقتل مشاعرك وأحلامك ، لا تجعلني أتمنى موتي وخلاصك

" مني يا تيم

ركض جهتها ورمى نصف جسده في حجرها صارخا " توقفي

" عن قولها ، لن تتركيني أنتي وعدتني

وضعت يدها على رأسه وغرست أصابعها في شعره الكثيف الناعم

وقالت بمرارة " لا أحد يعد أنه يعيش للأبد يا تيم فلا تحرق قلبي

عليك أكثر بني ، أريدك أن تكون كما أراد لك والدك بني فقد

" زرع كل أماله وأحلامه فيك

" ابتعد عنها وقال بضيق " وهذا ما أرادنا عليه يتحقق الآن

" قالت بحدة " يكفي يا تيم يكفيك لوما له

ضرب قدمه على الأرض وقال بحرقة " لا ليس يكفي ، أنا لست

ألومه على فراره من الهازان ودخوله تحت حمى ابن شاهين لكن

ما كان عليه أن يربطك به وأن يتركنا بعده نعاني ، لو أن زوجك

رجلا من الحالك ما كانوا يعاملونك هكذا ، ما كانوا استطاعوا أخذ

أرضك منك وطردك في هذه الغرفة والمنزل لوالدك مثلهم ، هل

لك أن تخبريني لما ليست إحدى النسوة من أحضرتك لغرفتك

" تساعدك على السير وليس ماريه الطفلة الصغيرة

جرت نفسا متعبا وهي تعجز عن الرد عليه فمعه حق في كل ما

يقول حتى أن موت ظافر إن كان على يد رجال الهازان لما رحمتها

تلك ولقالت بأن أهل زوجها قتلوه وسيؤذون ابنها أكثر ، توجه نحوها

مسرعا ووضع يده على صدرها وقال بخوف " أمي ما بك تنفسي

" أرجوك ، أنا آسف لن أقول هذا مجددا أقسم لك

ضمته لصدرها وقبلت رأسه وقالت بصوت متعب " الله لن ينساك

" يا تيم لن ينساك بني ودعائي لك كل صلاة لن يضيع أبدا

*

*

مرت بقرب الخادمة التي همست لها " كل شيء جاهز كما

سيدتي طلبت "

أشارت لها غسق برأسها مبتسمة برضا فعادت حبيبة للهمس

سائرة بجانبها " وأنا لست المسئولة طبعا لأن السيدة جوزاء

قد تطردنا بسبب هذا "

وقفت فوقفت تلك لوقوفها ونظرت جهتها مبعدة شعرها للخلف

بعد نزوله من كتفها وقالت بابتسامة رقيقة " لا تخافي يا حبيبة لن

تقول شيئا وإن تحدثت فأخبروها أني من أمر بفعل ذلك ، كلها

ضيافة لم أجرم في شيء وحقي هنا مثلها "

بادلتها حبيبة الابتسام دون أن تعلق وكانت سترجع أدراجها

لولا أوقفتها هامسة " حبيبة "

فالتفتت لها تنتظر ما تقول فقالت غسق بعد تردد وإصبعها

يصنع دوائر عشوائية على جانب فخذها حيث تستقر يدها

" هل خرج مطر ؟ "

نظرت لها حبيبة بصمت مفكرة لوقت ثم قالت " لم أره منذ كدت

أصطدم به خارجا من ممر مكتبه لكن السيدة جوزاء أخذت له

طعاما لغرفته وجلبت ثيابه لنغسلها فسيكون صعد ليأكل والمؤكد

أنه ليس هنا لكان في مكتبه أو أنه في مجلسه يستقبل الضيوف

مع عمه "

هزت رأسها بحسنا تأخذ نفسا بقوة وقالت وهي تخرج ذاك

النفس زفيرا " شكرا لك يا حبيبة "

ثم أولتها ظهرها متابعة طريقها حيث كانت قد اقتربت من صالون

الضيوف الداخلي وعلمت من استقبالهم لهم هناك أنهم كما قالت عنهم

حفصة نساء لكبار قبائل ليسوا من حوران وليست أي عائلات ، ما أن

وصلت الباب حتى دخلت دون أن تقف وتشجع نفسها أو تملأ رئتيها

شهيقا وزفيرا لتبدد توترها لما اعتادته من هذه الأجواء وكما علمتها

عمتها لسنين أن تكون واثقة من نفسها في أي وضع ووقت ، أن

تصنع من كلامها نسيجا لعمق تربيتها ولباقتها ومن صمتها سورا

. لا يستطيع تسلقه من حاول أن يتملق عليها

ما أن دخلت حتى انتقلت الأنظار جميعها للداخلة من الباب وعلى

محياها تلك الابتسامة الجميلة الواثقة لم تنقل نظرها بين الجميع

بوقاحة الفضوليين أو تنظر لشقيقة زوجها وعمته كمن تحاول أن

تستمد القوة أو الثقة ممن تعرفهم بين تلك النسوة الآتي يزيد عددهن

عن العشر نساء بقليل في أعمار تتفاوت بين من هم في سنها إلى سن

الستين عاما وكأنهم أقارب من عائلة واحدة ، وقوف كبيرات السن

بينهن جعل الباقيات يقفن فورا فمن المعلوم أنه لن تدخل واحدة غريبة

عن العائلة إلا الزوجة التي لم يراها أحد في ذاك الجزء من البلاد منذ

ولدتها أمها إلى أن صارت زوجة زعيمهم ، تقدمت منهم مبتسمة برحابة

وسلمت على الجميع مقبلة رأس من كانوا في سن عمة زوجها وينقص

قليلا والأعين جميعها تتبعها أينما انتقلت وكأن كل واحدة منهن قادمة

لخطبتها لقريبها ، ولأنها اعتادت كونها محط أنظار وهمس النسوة لم

يوترها ذلك وتصرفت كعادتها وكأن ذلك لا يحدث أمامها ، لكن الأمر

الذي لازالت تستصعبه نفسها هوا نظرة الناس لها على أنها ابنة صنوان أصبحت زوجة لزعيمهم ! أمران لا ينسجمان أبدا لا تعلم عقل ذاك الرجل ما أخبره وهوا يقرر هذا ويضع نفسه ويضعها وقبيلته في موقف يصعب وصفه ! فلها أن تتخيل أن والدها شراع مثلا يتزوج من جوزاء ويأخذها لصنوان ما ستكون نظرة الناس له ولها وما ستعانيه هي ؟ بددت أفكارها تلك التي ما أن جلست بجانبها حتى قالت " وهذه زوجة الزعيم مطر التي تسألن عنها "

ثم تابعت وقد نظرت لها مبتسمة " بارك الله فيمن رباها ، امرأة عقلها يزن دولة بأكملها ولا تليق إلا أن تكون زوجة لزعيم في البلاد "

ابتسمت لها غسق وعيناها تكادان تدمعان وهما تنطقان تقديرا وامتنانا لهذه المرأة التي شهدت لها وهي تعيش وسطهم وإن ظن الجميع أنها أيام معدودة لم تصل الشهر ، شهادتها تلك كانت داعما كبيرا لها وكانت تحتاجه من أجل جميع هواجسها تلك وكأنها قرأت أفكارها ومؤكد ستعلم فيما تفكر وما يقلقها من مقابلة الناس هنا وإن كانت لم تتجنبهم ولم يظهر

عليها شيء من أي ذلك ولم يروا سوا حسناء كما وصلهم وصفها ويزيد

قد توجت ذاك الحسن بلباقتها وثقتها العالية بنفسها وحسن تعاملها مع

من تراهم للتو ، انحنت جهة نصيرة قليلا فقربت تلك لها رأسها

وهمست لها غسق مبتسمة " لو أنهم رأوا شجاري وابن شقيقك

" قبل قليل لاتهموك بالخرف

فخرجت ضحكة نصيرة رغما عنها واستوت في جلستها قائلة

" وجه أبيك أبيض من اللبن إن قاسوه بتربيته لك "

ولم يخفى عن غسق نظرة جوزاء التي رمتها بها حينها دون أن

ينتبه لها أحد ، ما يحيرها واستحسنته فيها أنها لم تتعمد إهانتها أمام

النساء رغم أن الفرصة كانت سانحة لها في أكثر من موقف سواء

الآن أو في ذاك المجمع ثاني يوم زفافها بشقيقها ، وهي تعلم وموقنة

من أنها تفعل ذلك لأجل مظهرها أمام نساء قبائلهم ليس إلا كي لا

. تمثل المرأة الوقحة التي تعيش وسط عائلة زعيم قبيلتهم

عاد الجميع لحواراتهم السابقة مستمتعين بأحاديثهم عن بعض الأمور

التي تحدث معهم وقد فهمت أنهم من أقصى جنوب الحالك بعيدا عن

هنا ، واكتفت بالصمت أيضا هذه المرة وفضلت الاستماع مبتسمة

برحابة لكل متحدثة فهي لا تزال تحتاج وقتا لتعرف أكثر عن مدنهم

وعاداتهم فجلساتها القصيرة مع العمة لم تأخذ منها سوا رؤيا هيكليا

مبسطة لأبعاد حياتهم ، بعد قليل وقفت وتوجهت للمطبخ وما أن

كانت عند الباب حتى قالت مبتسمة " ماذا حدث معكن ؟ هل

كل شيء جاهز ؟ "

هزتا حبيبة وعزيزة رأسيهما بنعم وقالت حفصة تمسك ضحكتها

" أخشى أن حبيبة أفسدت الشاي سيدتي فهي أضافت له السكر

ثلاث مرات "

نظرت لها غسق بصدمة فقالت تلك مدافعة عن نفسها " هي من

اقترحت ذلك لأن الناس هنا يفضلون القهوة حلوة خاصة في جنوب

الحالك هم يشربونها وكأنها شراب عسل من كثرة السكر فيها "

قالت مبتسمة " حسنا إذا سيعجبهم الشاي مع زيادة في السكر

هيا اتبعاني بأكواب العصير "

وخرجت وهما خلفها بصينيات مليئة بأكواب عصير قد تم عصره

من فواكه قطفت من أشجارها مباشرة ، صنف منه مزجوا فيه التفاح

مع بعض العنب والآخر مع الفراولة وبعض أوراق النعناع والثالث

مزجوا فيه الخوخ والموز وقد اعتادوا هم على تقديم العصائر في

نهاية ضيافتهم وبدون مزج ومع بعض الكعك المخبوز لكنها غيرت

ذاك النظام كما قرأت عنه وبما سيتماشى مع صحة البعض .

دخلت المجلس لتنزلق الأعين لها مجددا هي تشرف بنفسها على

تقديم العصائر لهن حسب ذوق كل واحدة فيهن ومن يفضل السكر

المضاف لها أو أن تكون بسكرها الطبيعي ، وبعد حوالي الساعتين

دخلت الخادمات بالشاي المنكه بالقرنفل ونبتة المليساء مع أطباق من

فطائر اللحم المقدد وبعض المخبوزات وقد أشبعوا فضول من استغربوا

توزيع طاولات بينهم حيث امتلأت بتلك الأطباق وأكواب الشاي والأعين

تتبع تلك الحسناء التي تشرف على كل شيء ولأذواق ضيوفهم ، شعرها

الحريري الطويل يتمايل مع حركتها من يراها يحار من منهما أكثر نعومة

من الآخر ! واثقة فاتنة عروس هكذا ولدت وهكذا تموت دون الحاجة لرباط

مقدس بأي رجل ليعطيها ذاك الشرف ، كانت تمثل بالفعل سيدة تلك الجلسة

وسيدة ذاك المنزل ابنة ذاك الزعيم التي تنطق كل حركاتها حتى طريقة

إبعادها لشعرها بأصابعها عن أصل ذاك المنزل وتلك الحياة التي

. نعمت بها ، حتى أن وجودها الغريب بينهم لم يؤثر على كمالها

كانت ثمة أعين حاسدة كما تلك المعجبة تتبعها فهناك من يغبط كمالها

وكيف أنه لامرأة أن تكون هكذا جمعت كل شيء في آن واحد وزاد

على كل ذلك أنها حازت على ذاك وأنها امتلكته ليصبح زوجها ، الرجل

الذي يهز ذكره مجالس رجالهم وقلوب العذارى من نسائهم ، من حلمت

. كل شابة رأته أو سمعت عنه لو فقط يلامس كفه وأصابعه خصرها

وكان النصيب الأكبر من الحقد والبغض لمن لم تحسدها على ذاك الرجل

بل من رأتها تأخذ مكانها بكل قوة وهي من كانت تمثل سيدة هذه الجلسات

شقيقة الزعيم والأقرب له في أعين الجميع وكان مصدرا لفخرها وعزها

وها هي ترى الآن هذه الغريبة تسلبها كل شيء حتى قربها منه فهذه ومهما

كان أصلها ومن أين أتت هي باتت في أعين الجميع المرأة التي تنام

. بجواره وفي حضنه وأقرب له من أنفاسه مهما اختلف الواقع

جلست بعد مغادرة الخادمات ووجدت نفسها شيئا فشيئا تشارك في

بعض المواضيع الجانبية وكانت تلفت انتباه كبيرات السن أكثر من

الشابات في سنها والأكبر منها بقليل وذلك متوقع منهن ولم تستغربه

فكلما أثبتت مكانها أكثر كلما نفرت النساء منها أكثر واحترامهن

لها أمر هن مرغمات عليه كما تلاحظ ، انتبهت بسرعة للتي

قالت تحادث نصيرة " قالوا أنها خرجت لصنوان هل

" صحيح ذلك ؟

هزت نصيرة رأسها بنعم وقالت " أجل تلك العجوز عزيرة

" !! فرت في ليلة مظلمة ولا يعلم أحد لما

قالت المرأة بجدية متأكد " ابني قال أنه كان موجودا تلك الليلة

حين جاءتهم الأوامر بتطويق المنطقة منتصف الليل لكنهم لم

يمسكوها وكل ما تحصلوا عليه فتى كان مجتازا للحدود على

" ظهر حصان وقع جريحا وفرت هي

شعرت بالأرض تدور بها وعينيها بدأ يغشوها الدموع ، هل فعلت

كل ما فعلته ووضعت نفسها ووالدها وأخوتها في كل هذا وتلك المرأة

دخلت صنوان ليلة خروجها هي منها بحثا عنها ! كل ما هي فيه الآن

سببه امرأة كانت ستكون عندها هناك ! وقفت تكاد تتهاوى من رجفة

ساقيها وصدمتها وابتعدت فورا كي لا يلحظ أحد شحوب وجهها

واغروراق عينيها بالدموع وغادرت مجلسهم شاقة طريقها عبر بهو

المنزل الواسع تمسح عينها بيدها لم تجب الخادمة التي كانت تحدثها

ولم تنتبه للذي عاد بخطواته الواسعة خلفها وغير مساره حتى كانت

في ممر غرفتها ورسغها في قبضة يده ولفها بقوة جهته ورأسها

للأسفل تحجب وجهها عنه بشعرها فمد يده الأخرى ومررها بين

طيات ذاك الشعر الحريري حتى لامست أصابعه أذنها وبشرة رأسها

من بين ذاك الشعر ورفع وجهها له ليشاهد من جديد ذاك المشهد الذي

رسخ في ذاكرته لأيام وعينيها محتقنتان من حبس الدموع التي تلمع

على سطحها وكأنها قطعة من زجاج ، شد يده الممسكة لرسغها مقربا

لها خطوة أخرى منه وقد هربت بعينيها للأسفل حين حرك إبهامه

على خدها وكأنه يختبر ملمس النعومة التي لم يعرفها سابقا وقال

هامسا " ما الذي يخرجك شبه باكية من مجلس الضيوف في

كل مرة "

أشاحت بوجهها جانبا ولازالت تحاول تنظيم أنفاسها وضربات قلبها

المتسارعة من لمسته التي لن تستطيع الإفلات منها وخرجت

منها الحروف مبحوحة هامسة بالكاد تسمع " لا شيء "

أنزل إبهامه لتحت ذقنها ممسكا له بإحكام ورفع وجهها له أكثر

حتى أعاد نظرها لعينيه وقال بجدية " هل يضايقونك هنا ؟

هل قالت إحداهن شيئا ؟ "

زمت شفتيها حتى كانتا خطا واحدا ثم أفلتتها قائلة بحزم أنثوي

" لا ولن يؤثر بي ذلك حتى إن حدث ولن يعنيني "

انتقلت نظراته في تقاسيم وجهها بشبه ابتسامة ، لبوته القوية التي

ترفض الضعف تحت أي ضغط كان وهو يصدقها لكن ثمة ما كان

سيبكيها وعليه معرفته ، حاولت الإفلات منه مبتعدة لكنه عاد لشدها

ناحيته وقد أدار يدها لخلف ظهرها ولازال يمسك برسغها وأصبح

جسدها ملتصقا بجسده فأبعدت وجهها للأسفل ونفسها القوي يلفح

صدره من بين زر القميص المفتوح وأحشائها جميعها تتقلص حتى

كادت تشعر بأنها ستتحول لقطعة واحدة ، أغمضت عينيها بقوة عن

النظر لجسده لكن الشعور به هو ما لم تستطع الهرب منه ولا تخطيه

خرجت منها أنة صغيرة رقيقة محتجة حين ضغط جسدها عليه أكثر

بمساعدة يده الأخرى فقالت وقد لامست شفتيها قميصه الصيفي

الأزرق المزرر " مطر أتركني هل تريد أن يرانا أحد

" ويتأكد له مشهد الصباح أكثر

شد ذراعه عليها أكثر يستشعر جسها الغض بصلابة جسده ويده

تتحرك على ظهرها وقد دفن وجهه في شعرها وهمس من بين

" أسنانه بخفوت لم يصلها " سحقا لمطر

بينما قاومت هي مشاعرها باستماتة مصدرة أنينا محتجا آخر أقوى

من سابقه جعل شده لها يزداد قوة وهمس في أذنها وبحة صوته قد

" رافقتها رجفة خفيفة " ما الذي أخرجك باكية يا ابنة شراع ؟

حاولت التحدث من بين أنفاسها المطربة وجسدها تشعر به يُسحق

" بين ذراعيه " خبر سمعته عن صنوان أقسم لك فاتركني

أفلتها مبعدا يداه بسرعة عنها ومرر إحداهما على صدره ونظره

على بداية الممر حيث الخطوات المقتربة من هناك لحداء امرأة

ولولاها ما كان ليجزم أنه سيفعلها ، تحرك مبتعدا عنها وعائدا

من حيت جاء مارا بالخادمة التي كانت تنظر لوجهه المتوتر

باستغراب فلم ترى هذا الوجه ضمن وجوهه سابقا ، همس

" مجتازا لها " أخبري عمتي أني أريد رؤيتها حالا

وتابع طريقه وتلك تنظر له بعدم فهم فها هوا لثاني مرة يطلب

منها هي شيئا وليس شقيقته جوزاء ! رفعت كتفيها وتابعت سيرها

حتى كانت عند باب غرفة غسق النصف مفتوح وأطلت برأسها

منه ونظرت للجالسة على السرير تحضن نفسها بذراعيها بقوة

ورأسها للأسفل يخفي وجهها الشعر الطويل المنسدل عليه فأصدر

ذاك الباب صريرا بسيطا خافتا جعل الجالسة هناك ترفع رأسها

وجهك سيدتي مفزوعة فدخلت حبيبة وقالت بصدمة " ما بك

" مخطوف وكأن الموت دخلته ؟

رفعت شعرها عن وجهها بيديها وشدته بكفيها خلف رأسها

" وقالت برجفة " لا شيء يا حبيبة ، هل غادر مطر المنزل ؟

وقفت تنظر لها باستغراب وقالت " لا ، قال أن أخبر السيدة الكبيرة

" أنه يريدها وملامح وجهه لا يمكن وصفها ، ما بكما هل تشاجرتما ؟

مسحت أنفها بظهر كفها المرتجف ووقفت قائلة " لا لم نتشاجر

" سأستحم ولا أريد رؤية أحد ولا الضيوف قبل مغادرتهم

وبعد حمام طويل هدأ قليلا من روعها وارتجاف أطرافها خرجت

بالمنشفة الملتفة على جسدها وتوجهت فورا للباب الذي نسيت أن

تغلقه بالمفتاح قبل دخولها الحمام وما أن وصلت عنده حتى صعقت

حين لم تجده فيه وهي لم تنزعه أبدا ومتأكدة من ذلك ! توجهت للخزانة

لتخرج ثيابا تلبسها وشهقت بصدمة حين فتحتها وكانت فارغة تماما لا

شيء فيها ولا حتى منديل صغير ، أغلقت الباب بقوة هامسة من

" بين أسنانها " مطر شاهين ... هذا فوق احتمالي منك

لبست ثيابها التي خلعتها فلا حل غيرها حاليا وخرجت من الغرفة

وشعرها لازال مبللا وقطرات الماء تنزل منه فهي لم تجففه جيدا بعد

سارت جهة المطبخ ونادت حبيبة التي خرجت لها فورا تنشف يديها

لأنها كانت تغسل الأطباق مع حفصة ، وقفتا جانبا وقالت لها هامسة

" من دخل غرفتي وأنا في الحمام يا حبيبة هل رأيت ذلك ؟ "

" هزت رأسها بلا فهمست غسق بضيق " ومطر أين كان ؟

قالت حبيبة من فورها " تحدث مع السيدة نصيرة ثم

" خرج فورا رأيته بعيني سيدتي

" ! قالت بصدمة " من سيكون إذا

" ! قالت حبيبة مستغربة " من سيكون من

" همست غسق من بين أسنانها " ماذا عن جوزاء ؟

غابت تلك بنظرها مفكرة قليلا ثم نظرت لها وقالت " منذ قليل نادت

عزيزة وخرجت تلك خلفها ورأيتهما يتجهان للممر الشرقي حيث

غرفتك وبعدها لم أراهما وانشغلت وحفصة في تنظيف مجلس

" الضيوف فور مغادرتهم

مررت أصابعها في غرتها المبللة وهمست بغضب

" سحقا ، علمت الآن من ولما "

نظرت جهة السلالم خلفها بعيدا ثم نظرت لحبيبة وقالت

عليا الصعود لغرفة مطر ، هو ليس فيها أليس كذلك ؟ "

" هناك غرض عليا جلبه من هناك

قالت تلك من فورها " خرج من حوران وسمعته يقول للسيدة

الكبيرة أنه لن يرجع قبل منتصف الليل وغرفته ستكون مغلقة

" بالتأكيد فهوا لا يتركها مفتوحة فترة غيابه عن المنزل

" حركت يدها بحنق متمتمة " والحل في هذا الآن

قالت حبيبة مستغربة " الحل في ماذا ! السيدة جوزاء تملك

" مفتاحا للغرفة يمكنه أخذه منها

" غادرت من عندها متمتمة بحنق " يالا طيبتك يا حبيبة

وعادت جهة غرفتها تكاد تشتعل غضبا فتلك المرأة عرفت كيف

تنتقم منها على دخولها المجلس وتغيير نظام ضيافتهم اليوم فقد أخذت

ثيابها ووضعتها في غرفة شقيقها في الأعلى وهي تعلم أنها لن تستطيع

جلبهم إلا في وجوده وهوا سيفسر الأمر فورا على أنه متعمد منها وأنها

وضعتهم وقت وجوده في المكتب لترجع فيما بعد وتأخذهم متحججة

بأنها ليست من أخذها هناك ولن يصدقها أبدا وتكون في موقف سيئ

أمامه ، رفعت المنشفة وبدأت بتجفيف شعرها بعنف مفرغة غضبها

وحنقها فيه حامدة الله أن تلك الجوزاء لا تستخدم لسانها أيضا لكانت

علمت كيف تجعلها تكره حياتها فهي لاحظت أنها تتمسك ولو

بذرة من أصول عائلة زعيم القبائل

*

*

مسحت على خصرها بقوة وملامح متألمة بعد سقوط الحجر للأرض

ونظرت للخلف بعينين دامعة تزم شفتيها الصغيرة تنظر للواقف هناك

يتوعدها بأصابع يده ثم سرعان ما أبعدت نظرها عنه ورفعت رأسها

مجددا للواقفين بجانبها يتحدثان بانسجام وسرعان ما أصاب الحجر التالي

قدمها التي رفعتها عن الأرض دون أي ردة فعل متجاهلة الواقف هناك

عند الشرفة الأرضية الواسعة يضحك عليها بصمت حتى قفز مذعورا

حين شعر بالشيء الذي ضرب عنقه بقوة فقال بضيق ماسحا عليه

" أحمق لقد أفزعتني "

انحنى وقاص متكأ بساعديه على حافة الشرفة وقال ناظرا له بابتسامة

" ساخرة " وتضايق تلك الصغيرة لا بأس أما أنت فلا ؟

" دفع له كتفه قائلا بامتعاض " رفقا بنا يا جمعية حقوق الطفل

" انطلقت ضحكة وقاص وقال " والشقراوات تحديدا يا دبور

" عبست ملامح رواح وقال متوعدا إياه " قلها مجددا وسأقتلع عينيك

لم تتغير ملامحه ألا مبالية وقال بابتسامة مائلة " حتى تترك

" النحلات الشقراء أولا

تجاهله تماما وقلده في وقفته ناظران كليهما للطفلة ذات الشعر الأشقر

والعينان الخضراء تمسك بنطال والدها الواقف بجانبها بقوة تسرق

نظرها الخائف لهما كل حين وكأنها تترجى والدها بصمت أن يغادرا

وهوا منهمك تماما مع سلطان ولا يبدوا أنه يفكر في المغادرة

" قال رواح ناظرا لها " انظر لتلك القشة الصغيرة إنها عربية

نظر له وقاص بصدمة قبل أن ينفجر ضاحكا فقال رواح بضيق

" ما يضحكك يا أبله ؟ "

لكز مرفق الواقف بجانبه بمرفقه وهما فوق تلك الحافة وقال

" لذلك أنت معشش هنا من وقت "

كشر في وجهه ثم عاد بنظره لها وقال ببرود " تلك الحمقاء ملتصقة

بأبيها كالذبابة ولم تبتعد عنه ولا سنتيمترا واحدا ، كان غرضي شريفا

وأريد أخذها في نزهة صغيرة في الحديقة فقط واريها العصافير لكن

العربيات جبانات دائما ، لو كانت بريطانية لقفزت ناحيتي ما أن

" رأتني أناديها من بعيد

هز وقاص رأسه بيأس منه وقال ناظرا لها " وما أدراك أنها عربية ؟

حتى لون عينيها يبدوا لي أخضرا أو رماديا ، ثم أنا سمعت الواقف

معها وهوا ينزلها من السيارة عند وصولنا أنا وأبي وكان يناديها

" (ساندرين)

أشار رواح برأسه للذي تمسك يدها الصغيرة به بقوة وقال

" ذاك والدها وهوا قريب لزوجة خالي شاهر رحمه الله "

نظر له وقاص وقال مستغربا " تعني خالك الذي دخل للحالك

" !! وتزوج هناك من امرأة منهم

هز رأسه بنعم وقال " هذا يكون عم زوجته ويعيش هنا من زمن بعيد كما

أخبرتني والدتي وتلك الشقراء الصغيرة ابنته التي أخذت سمات والدتها

" على ما يبدوا فهي ليست عربية ، أما هذه فهي عربية منتمية لوالدها

سوى وقاص وقفته قائلا " أتركها وشأنها إذا المدينة مليئة بالشقراوات

" الصغيرات فلا يشعر بك والدي ويغضب منك

أخرج رواح من جيب بنطلونه الجينز حجرا آخر وقال وهوا يرميه

" جهتها مجددا " هذه مختلفة إنها بنكهة عربية جبانة وجميلة

رفع وقاص كتفيه وقال " إذا بما أنها كما قلت بنكهة عربية فحاذر

" من جبنها ذاك كما جميع العربيات

! أخرج حجرا جديدا لأن ذاك لم يصل لها قائلا " وما ستفعله برأيك

" هي لم تفكر حتى أن تبتعد للجانب الأخر خلف والدها

ورمى الحجر وأصابها هذه المرة فنظرت له مجددا فرفع سبابتيه يسخر

منها بثنيهما بجانب رأسه مخرجا لسانه قائلا " جبانة عربية صغيرة "

وفوجئ حينها بنزولها للأرض ورفعت حجرا من الحصى المرصوفة

تحتهم كممر فقال ساخرا ومحدثا للواقف بجانبه " أنظر قررت أن

ترسل ردا صغيرا ، حمقاء لن يصل ذاك الحجر ولا لأسفل الشرفة "

وما أن أنهى جملته حتى شهق مصدوما حين ضربت تلك الطفلة ساق

والدها بالحجر بقوة حتى نظر خلفه ثم لها تحته وفي حديث لم يصل

لسمعهما دار بينه وبينها وسلطان يراقبها رفعت إصبعها وأشارت

للشرفة ليرتفع نظر والدها وسلطان معا للواقفين فيها فانطلقت ضحكة

وقاص وأشار بأصبعه على رواح الذي ما أن التفت ليشير لوقاص

حتى وجد سبابته في وجهه فهوا أكثر من يفهمه فركض فورا جهة

باب الشرفة قائلا " الحمقاء الغبية ما أخبثها "

*

*

مسح قفا عنقه بيده مثبتا مرفق يده الأخرى على باب السيارة المفتوح

الذي نزل منه للتو وقال مخاطبا الواقفان أمامه " إن تعقدت الأمور

" مجددا اتصلا بي سأكون عندكما في أقرب وقت

قال أحدهما بضيق " وهل سنجلبك لـ (بينبان) في كل مرة لحل

" مشاكل الميناء التي لا تنتهي ؟ علينا إيجاد حل لتلك المجموعات فورا

أبعد يده عن عنقه ومررها في شعره قائلا " لقد حللتم الكثير من المشاكل

أنا أعتمد عليكم وإلا ما كنت وضعتكم هناك ، صحيح أنه على الموثوق بهم

تسيير بعض الأمور لأجد وقتا لغيرها لكني سأكون هناك كلما دعت الحاجة

فذاك الميناء هوا متنفسنا الحيوي ولا أريد له أن يدمر ويغلق فبالرغم من

مشاكله التي لا تنتهي هو يتحرك وإن قل استخدامنا له بسبب نفور

" الدول من المشاكل لدينا لكنه المدخل الشبه آمن للسلاح

هزا رأسيهما بالموافقة فأغلق باب السيارة وقال " غدا ستجتمعان

بالرجلين اللذان سيصلان صباحا وأريد نتائج ذلك حين عودتي

لحوران مجددا ومن ثم ترجعا لبينبان مجددا أما الآن فيمكنكما

" المغادرة بما أنكما ترفضان المبيت هنا الليلة في ضيافتي

ودعاه مغادران ونظر هوا لساعته التي كانت تشير للواحدة ليلا ثم

دخل من باب المنزل وأغلقه خلفه ونظر يمينا لذاك الممر وهوا

يضع مفاتيحه في الجيب الخلفي لبنطلونه الجينز ثم صعد السلالم

وما أن كان أعلاها حتى نظر مستغربا للواقفة بجانب باب غرفته

متكئة على الجدار بكتفها مكتفة يديها لصدرها بفستانها الذي تركها

به نهارا ، وما أن وقعت عينيها عليه حتى هربت بهما من مواجهة

عينيه المحدقة بها وهوا يقترب منها بخطوات واسعة واثقة يعدل

حواف قميصه القطني المغلق بعدما تبعثر بسبب وضع مفاتيحه في

جيبه ، مدققا النظر فيها وهي تشيح بوجهها عنه وقد امتزج

. الضيق والغضب والخجل في قسماته

أمال تلك الابتسامة التي ظهرت على طرف شفتيه وقد تذكر آخر

لقاء لهما قبل أن يغادر حوران من ساعات ، أفقدته عقله هذه

الصغيرة الجامحة ليفعل ما فعل في ذاك الممر دون أن يحسب

حسابا للمكان ولولا صوت الخطوات القوية لتلك الخادمة دونا

عن غيرها لا يعرف ما فعل أيضا وما الذي ستجدهما عليه ؟

لكن ما يعرفه الآن وموقن منه هوا أن دخوله للمنزل لم يعد بذاك

السوء السابق فقد أصبح يشبه جبهات القتال واجتماعاته برجاله

المحاربين لا يخلوا من التشويق فهوا يعلم بأنها لن تكون هنا

. إلا لتهاجم بشراسة مغلفة بتلك الرقة

ما أن وصل الباب حتى سوت هي وقفتها مبعدة كتفها عن الجدار

وكان هو في الطرف الآخر ومقابلا لها ، كم كرهت نفسها حينها

وأضعاف ما كان فهي السبب في وجودها في هذا المنزل وتحت

رحمة شقيقته تلك ، ففوق كرهها لمواجهته بعد ذاك الموقف

المخزي مع عمته وشقيقته نهارا ثم ما حدث في ممر غرفتها

هي مضطرة الآن أن تكون هنا بحجة أمر لا تستطيع تبريره

وستكون المدانة الوحيدة به ، غرس مفتاح الغرفة في الباب

" وقال ونظره عليه " هل غيرتِ رأيك أخيرا

صرت على أسنانها غيظا منه وقالت ببرود " بعدما حدث

" أمامهما نهارا لن أخسر شيئا ولن أغير قراري أبدا

فتح الباب وقال وهوا يدخل " إذا أفهم من وجودك هنا أنك

" ... قررتِ

قاطعته وهي تدخل خلفه قائلة بغضب أنساها حتى أنها تدخل

الغرفة وقد أغلقت الباب خلفها ضاربة له بقوة

" لم آتي لأنام معك طبعا "

لتدرك ذلك حين التفت لها ووجدت نفسها مجددا مع هذا الرجل

الذي يملأ وجوده الأماكن المفتوحة فكيف بالمغلقة ؟ وجه لها

" نظرة قاسية وقال " لا ترفعي صوتك يا ابنة شراع

بلعت غصة أحستها كالجمر ورفعت رأسها وقالت بكل شموخ

لم يربني شراع على رفع صوتي لكني ومنذ صرت هنا لم "

" أعامل كما يعاملني شراع وأخوتي

توجه لطاولة التزيين وقال وهوا يفرغ جيوبه متجاهلا ما قالت

" أجلبي لي أي شيء يؤكل من الأسفل "

تمنت تلك اللحظة أن قفزت عليه وغرست أنيابها في لحمه على

بروده وتعجرفه ذاك لكنه بدد كل ذلك وبحركة واحدة حين أمسك

أطراف قميصه ونزعه والقميص الداخلي معه راميا لهما على السرير

جعلها ذلك تجد نفسها خارج الغرفة دون أن تشعر وحرارة جسدها تصل

للاحتراق ، وصلت المطبخ وتنفسها الغاضب لا يساوي شيئا أمام أنفاسها

المتوترة من رؤيته عاري الصدر ، هذا فوق احتمالها حقا ... هي لم ترى

رجلا بهذا المظهر سابقا لتكون مشاهدتها الأولى لهذا الرجل بالتحديد

أغمضت عينيها بقوة تحاول طرد صورته تلك وجسده الذي فاق جسد

شقيقها الكاسر بالقميص الداخلي الضيق حين كان يتفاخر به أمامها

ممازحا ، نزلت للخزانة تخرج إناء الزيتون الكبير متمتمة

" تعالى لتكسر غرورك بنفسك يا كاسر "

وسرعان ما وقفت تمسح طرف عينها لتطمر تلك الدمعة الحزينة

في محجرها ، وضعت في صحن أطباق حوت على ما تركت له

الخادمات بأوامر منها من عشائهم رغم أنها ليست عادتهم لأنه لا

أحد يستطيع تخمين إن كان سيرجع أم سيبات خارج المنزل أو يتناول عشائه عند أحد من زارهم ، سكبت له من الشاي الذي تم تحضيره للضيوف نهارا وعصير فواكه تم حملت الصينية هامسة ببرود

" يكفيه هذا فلم يحلم به سابقا "

وأخذتها للأعلى وما أن دخلت حتى ضغطت قبضتيها على الصينية بقوة وهي تراه جالسا على طرف السرير لازال ببنطلونه الجينز الضيق فقط وحمدت الله أنه كان مشغولا بالسلاح الذي يثبته على الأرض ويسحب الرصاصات منه بحركة سريعة واحدة وتسمرت مكانها حين قال ولازال مشغولا بسحب باقي الرصاصات

" أغلقي الباب خلفك "

فعضت طرف شفتها بقوة تثبت يديها أكثر كي لا تقع الصينية منها للأرض (ما يخبر هذا الرجل عقله ؟ ولما إغلاق الباب ! سحقا لشقيقته تلك هي السبب في كل هذا ، أقسم أنها انتقمت لنفسها وبجدارة)

دفعت الباب بطرف مرفقها مغلقة له والتفتت لتقول أنها هنا لتأخذ

ما تريد وتغادر ففوجئت به يرفع سلاحه نحوها ينظر لها من خلال

عين التصويب فيه مغمضا العين الأخرى مدمرا بذلك جميع حواسها

وتماسكها ، قال دون أن يكترث لما يفعل " تعالي ضعيها هنا "

فشدت ظهرها متمالكة لأعصابها وقالت وقد تحركت نحوه

" لا يحتاج الأمر لترفع سلاحك نحوي سأحضره بدون أوامر "

قال وهوا يضعه جانبا ونظره عليها وهي تضع الصينية على

الطاولة أمامه " كنت أعدله فقط ، هل ستعتقدين بأني سأقتلك

كلما رأيته في يدي "

استوت في وقفتها وتنفست بقوة عبرت فيها عن كل استيائها من

سخريته منها وقالت تتجنب النظر له وهوا بذاك المنظر المعذب

لأي امرأة فكيف إن كانت مربكة أيضا " ثيابي في الخزانة هنا

أريد أخذها فالغرفة لا تكون مفتوحة إلا في وجودك "

رفع نظره المستغرب سريعا لها وتابعت هي قبل أن يسأل

" يبدوا أن أحدهم خمن أني سأنتقل هنا ونقل الثياب دون

" أن يأخذ رأيي

واتخذت بذلك أسلوبا هجوميا وكأنها تضعه أيضا ضمن حلقة

المتهمين وكأنها لا تعرف الفاعل الأساسي ، وظنت وقتها بأنه

سيتهمها بفعلها كما خططت شقيقته لكنه اكتفى بابتسامته ملتوية

وهوا يرى تجنبها النظر جهته وقال ببرود " ضننت أنك

" ستفضلين النوم عارية على القدوم هنا

ليسرق نظره ذاك اللون القرمزي الذي طغى على وجنتيها

خجلا قبل أن تقول بضيق " كنت أفضل النوم بفستاني طبعا

" لولا أني وجدت مفتاح غرفتي مختف مع ثيابي

سحب قطعة لحم ونظر لوجهها للأعلى ورماها في فمه وقال

" وهوا يمضغها " أفهم أنك لا تريدين المفتاح

صرت على أسنانها بقهر فها هوا يلعب مجددا بغير نزاهة ويجرها

للتحدث دون تفكير ، رفعت نظرها له وأرخت ملامحها المشدودة

لتجاريه وقالت ببرود " إن كنت ستساوم عليه فأعطني ثيابي

" وخذه بعدما تجلبه ممن أخذه طبعا

تراقصت السخرية في عينيه وهوا يراقب ملامحها وقال

إذا ستنامين على غير عادتك والغرفة بابها مقفل "

" دون مفتاح

نظرت له بصدمة لم تخفها (من أين علم أني أغلقها على نفسي ليلا

بل ومنذ متى يعلم !) قالت بحنق وهي تنظر له منشغلا بالطعام

أمامه " لن نمضي الوقت نتنافس من يكسر رأي الآخر لأني

سأرضى أن أبقى بهذا الفستان للأبد ولن أرضى

" مجددا باللعب بغير نزاهة

رفع نظره لها سريعا فشعرت بذاك الشعور الغريزي الذي يقول لها

أهربي لكنها ثبتت قدميها مكانهما تنظر لعينيه هربا من رؤية جسده

وقد قال ساخرا " أنا لم أذكر شيئا من ذلك يا ابنة شراع وأنتي

" من ذكره أم نسيتِ ؟

كتمت غيظها وحنقهما منه لأنه على حق وقالت ببرود

" ما معنى كلامك إذا ؟ "

استقام في جلسته مظهرا عضلات صدره العاري بوضوح وكأنه يدعوها للارتماء فيه وأدخل يده في جيبه وأخرج المفتاح منه وفي حركة سريعة رماه مطيرا يده للأعلى مع صوت شهقتها المرتفعة وهي تنظر له لامعا في الظلام يعكس نور المصابيح الجانبية للغرفة وقد حلق عاليا ليستقر على الثريا الزجاجية الصغيرة المرتفعة التي تزين السقف وقال ناظرا لوجهها المصدوم تنظر للأعلى " إذا ها هوا ابتعد عن ساحة المعركة كما اخترتِ "

قبضت يديها جانبا بقوة وقالت " كيف وجدته ؟ "

عاد بنظره لطعامه مجددا وقال ببرود " انظري لنفسك أين تركته لتجده جوزاء وتحظره لي "

شعرت بالأرض تحتها تتحول لنار مشتعلة فتلك المرأة يبدوا أنها تلعب على مستويات مرتفعة جدا ، فلا هي تستطيع اتهامها أمامه لأنه لم يسأل من جلبها وهذا ما تستغربه ! ولن تستطيع إخباره في كل الأحوال ، ولا أن تسأله أين وجدته لأنها مؤكد صاغت كذبة

جيدة لتعطيه له وليس لها ، نظرت جانبا جهة الخزانة الواسعة

متعددة الأبواب وقالت بجمود " سآخذ ثيابي وأنزل أم

" لديك طلبات أخرى ؟

أشار لها برأسه على الخزانة ودفع الصينية دون كلام فتحركت من

فورها وفتحت أبواب الخزانة بالتتابع تشعر بتوترها يتضاعف من

وجودها معه هنا تحديدا حتى وصلت للتي حوت على ثيابها جميعها

وكادت تحترق وهي تراها مرمية في كومة واحدة لتوضح للرائي

فورا أن من وضعها هنا قد رماها على عجل وقت وجود

. صاحب الغرفة هنا وغادر ولتتجه أصابع الاتهام لها طبعا

رفعت نظرها للخيال الذي ملأ المكان أمامها يقف في الجانب الآخر

من باب الخزانة المفتوح مكتفا ذراعيه القويتان لصدره العريض

العاري ومتكئ على باب الخزانة الأخرى ينظر لها بصمت

فنظرت لداخل الخزانة فورا وقالت " لا تنظر لي هكذا

" فلست من وضعها هنا

" قال من فوره " من أحضرها ؟

" نظرت له مجددا وقالت " لست أنا ولم أكذب

" نقل نظره منها لثيابها المبعثرة داخلها وقال " أعلم

لم تستطع سؤاله كيف علم ولما قال ذلك لأنها تعلمت شيئا مهما

وهوا أن هذا الرجل كلما حاولت فهمه تدثر برداء غموضه أكثر

نظرت ليده التي امتدت لها وللمفتاح وسط كفها ثم رفعت نظرها

لعينيه فقال ناظرا لعينيها " هذا مفتاح الغرفة وسآخذ الذي لدى

" جوزاء ولا تسلميه لأحد مهما كان ولا لها هي

نظرت للمفتاح في يده ثم لعينيه مجددا وقالت بهمس حذر

" لم أعني بكلامي أني أتهمها "

هز رأسه هزة خفيفة وقال بنعومة ظهرت في خشونة صوته

" الأبح " أعلم ما الذي لا تريدين قوله

أطلقت نفسا قويا متوترا لم يعبر أبدا عن راحتها بأنه يصدق براءتها

من هذا بل كان مشحونا بالخوف من عقل هذا الرجل الداهية ، مدت

يدها ببطء لكفه المفرود أمامها وهي تشعر بالارتجاف فقط من فكرة

. أن تلمس أصابعها ذاك الكف وهي تأخذ شيئا مسطحا من فوقه

شكرت الله سرا حين أدار يده في حركة خاطفة رشيقة ليصبح المفتاح

بين سبابته وإبهامه ومده ليدها قبل أن تصل لكفه ففتحتها له سريعا

ووضعه فيه فقبضت أصابعها الرقيقة عليه دون أن ترفع نظرها

له ومدت يدها للخزانة وسحبت فستانا لتنام فيه ووقفت متسمرة مكانها

وهي ترى أنه لا يفكر في الابتعاد فكيف ستخرج ملابسها الداخلية ! لن

تستطيع النوم بثيابها ذاتها التي تلبسها منذ الظهيرة وقد لا يغادر غدا

مبكرا لترجع وتأخذها ، كورت الفستان في يديها وقالت بارتباك

" ناظرة للخزانة " حسنا أريد إخراج ثيابي

" جاءها تعليقه الساخر دون أن يتحرك من مكانه " ومن منعك ؟

نظرت له بضيق ازداد أكثر بسبب تلك السخرية في عينيه وقد

" خالطتها التسلية فقالت بحنق " ابتعد هناك عند السرير

انزلقت نظراته على جسدها ثم انتقلت للخزانة وقال وكأنه

" يفتشها بعينيه " لا شيء يستدعي مني الابتعاد

" ثم عاد بنظره لعينيها وقال مميلا ابتسامته " أليس كذلك ؟

احترقا خديها بوهج حرارة الإحراج وشعورها بالرغبة في لكم هذا

!! الرجل يتعاظم أكثر فهل كان يسخر منها حين قال أنه يصدقها

نظرت له وقد حولت إحراجها لنظرة حانقة وقالت " ظننتك صادقا

" ولست تسخر مني ، لست من جلبها هنا وما كنت لأفعلها

قال بنبرة متزنة متفحصا ملامحها " قلت لك أعلم ، فلن تكذب

" ابنة رباها زعيم قبائل أبدا ، إن ابنتي كذبت أقتلع عينيها

شعرت بمشاعرها تتهاوى للصفر وهربت بنظرها منه

" وقالت بجفاء " ابتعد إذا

ظهرت الابتسامة اللعوب في بحة صوته وهوا يقول وقد أحنى

رأسه ليتفرس ملامحها التي تهرب بها منه " يبدوا أني أريد شيئا

" من أعلى الخزانة وعليا انتظارك لتخرجي ثيابك أولا

علمت فورا أنه يتعمد إحراجها وكانت ستبتعد مغادرة وتتركها له

وستتحمل البقاء حتى بفستانها هذا على أن تترك له الفرصة لينال

منها لكنها موقنة من أنه يتوقع منها هذا وسيسخر منها كما في المرة

السابقة وينعتها بالجبانة الهاربة ، رفعت رأسها ونظرها المتحدي

لعينيه وقالت " لن تربح أبدا حين سأتبع أسلوبك الغير نزيه في

اللعب يا ابن شاهين فاحذرني "

وما لا تعلمه أنها بذلك أشعلت نار التحدي التي يعشق داخله فمرر

لسانه على شفته السفلى في حركة سريعة وعفوية وقال يمسك

ابتسامته اللعوب " أرني ماذا صنع شراع صنوان من هذه

المرأة الواقفة أمامي قبل أن تتنازلي عن العمران طوعا "

لمع التحدي في عينيها وقد رفعت رأسها له وقالت " تذكر

فقط أنك من بدأ صباحا وجاء وقت رد الدين "

ضاعت نظرته المستغربة في عينيها وليس يعلم أن قلبها يكاد يتفجر

من ضغطها عليه وأوردتها ستتهتك وهي تجبر نفسها على فعل

ما تفكر فيه وقد مدت يدها لداخل الخزانة وأخرجت حمالة الصدر

ورفعتها تمسك طرفها لتتدلى على طولها وهي ترفع يدها عاليا

أمامه وقالت " هذه ليست مريحة للنوم "

ورمتها في حركة سريعة على كتفه لتستقر عليه وأخرجت

" أخرى وقالت وهي ترفعها أيضا " هذه نزعتها صباحا

وألحقتها بالأولى فلم تشعر بنفسها إلا وهي ترتفع عن الأرض

صارخة بذعر قبل أن ترتمي على السرير بقوة وشعرها قد

تناثر حولها على همسه الرجولي من بين أسنانه

" سحقا للنساء "

وتبت يديها بقبضتيه جانبي رأسها بقوة منحني فوقها لتبدأ عضلاتها

بالتقلص مجددا وأغمضت عينيها بقوة وهي تشعر بأصابعه تتخلل

أصابع يديها وكفاه القويان تسحقان كفيها ضاغطا عليهما وخرجت

شهقتها مرتجفة لا إراديا ما أن شعرت بانخفاض السرير بجانب

فخذها بسبب ضغط ركبته عليه وفتحت عينيها لتشهق شهقة

أخرى وهي ترى وجهه مقابلا لوجهها فقالت بنفس لاهث

" مطر ابتعد ، أنت تكسر قواعد لعبتك إن نسيت "

أصبح نفسه يلفح خدها بقوة وهوا يدير رأسه وانقبضت أحشائها

غريزيا وعضت طرف شفتها ما أن لامست شفتاه ذاك الخد الناعم

وهي تشعر بخشونة لحيته وشاربه رغم لمسته الخفيفة وقال هامسا

" أنتي من عبث بالقواعد يا نزيهة "

أشاحت وجهها جانبا تبعده عنه وأغمضت عينيها مجددا فيبدوا أنها

بالفعل لعبت لعبة لن تستطيع مجاراته فيها وباتت الطرف الأضعف

رغم موقفها القوي ، وكرهت نفسها التي تاقت إليه الآن بل يبدوا أن

ذلك حدث منذ رأته بدون قميص ، خرجت الكلمات من حنجرتها

متقطعة مبحوحة وهي تحاول سحب يديها " لن تستطيع فعل

هذا ، أنت لم توافق على المهر "

وخرجت أنتها مرتفعه في شهقة مكتومة خالطها أنين عميق حين

شعرت بشفتيه على عنقها وأصابعه تقبض على كفيها أكثر

فقالت برجاء هامس " ابتعد مطر أرجوك "

لكنه لم يستجيب لرجائها المخنوق ذاك وانتقلت قبلاته الخفيفة

لأعلى عنقها فأذنها مدمرا جميع حصونها وهمس فيها

" استرخي ولا تفسدي ما أردته بنفسك "

أدارت وجهها له وتحركت بعنف وإن لم تستطع الإفلات منه

قائلة بضيق " لم أرد هذا ، أنت السبب وحذرتك منذ البداية

" فاتركني أو كانت العمران الثمن ولا تنسى ذلك صباحا

نظر لعينيها وقال مبتسما بسخرية " يمكن اعتباره مهرا

" مؤجلا يا ابنة شراع

همست تشعر بقلبها يرتجف بقوة " لكن الطرف الآخر لم

" يوافق على التأجيل

ثم رطبت شفتيها بلسانها بسبب شعورها بذاك الجفاف في حلقها

" فأمال رأسه هامسا من بين أسنانه " سحقا توقفي عن هذا العبث

فانفتحت عينيها بصدمة من جملته ولم يترك لها مجالا للدفاع عن

نفسها وقد قبلها بعنف ضاغطا شفتيه على شفتيها في قبلة تحولت

للرقة تدريجيا حتى أبعد شفتيه وعيناها لازالتا متسعتان من صدمتها

ولم تفهم نظرته تلك لها وكأنه مصدوم مثلها أو ضائع في تفكير ما

وأنفاسهما القوية تسابق بعضها ، من صدرها الذي يعلو ويهبط

بانفعال شديد لصدره العريض الذي يتسع بقوة متناغمة مع إعصار

أنفاسه ، انزلقت نظراته مجددا لشفتيها الممتلئة بشكل مغري رغم

صغرها وبدأ ضغطه على كفيها يزداد فأغمضت عينيها وقد

تحركت تلك الشفتين المرتجفة بهمس ضعيف محتج بوهن

" لاااا "

لكنه تجاهل ذاك الرفض وانحنى طالبا الارتواء منهما مجددا وكانت

قبلة أرق من رقة سابقتها وقد أرخى قبضتيه عن كفيها وأخرج أصابعه

المتشابكة مع أصابعها وعاد لتمريرهم فوق تلك اليدين الرقيقة الناعمة

في حركة بطيئة تناغمت مع قبلته التي بدأت بهتك دفاعاتها وتدميرها

وهي تشعر بعزيمتها تتلاشى شيئا فشيئا درجة الا وعي ، كانت لتصمد

لو أن تلك القبلة كانت بعنف سابقتها ولو أنه اختارها كعقاب لها ، لكن

هكذا رقة وهكذا أسلوب ومن شفتي كهذا الرجل فالمقاومة عبثا ستجدي

خاصة ويداه تترك يديها وقد حضن بهما وجهها وانغرست أصابعه في

شعرها يعزز قبلته تلك أكثر فما كان أمامها من حل سوا الاستسلام ومن

أول مرة عرفت فيها هذا الأمر واختبرته ، ابتعد عنها أخيرا قاطعا ذاك

الوصال المفعم بالشغف ووقف على طوله وقال بهمس لاهث

" غادري يا غسق "

استندت بمرفقها ويدها الأخرى ورفعت جسدها الذي لم تشعر به متهالكا

كما الآن وخرج منها أنين متألم وهي تحاول إبعاد شعرها الطويل من

تحت مرفقها فابتعد عنها خطوتين وأولاها ظهره وهمس من بين

أسنانه " أخرجي بسرعة أو جعلتك تتنازلين مرغمة عن

" مهرك الأخرق ذاك .... غادري الآن

فابتعدت عن السرير ومرت بالفستان وحملته معها وخرجت من الغرفة

راكضة حتى وصلت لغرفتها وأغلقت الباب خفها واتكأت عليه وخبأت

وجهها في الفستان في يديها تمتمت بكلمات هامسة متقطعة وغير مفهومة

ولازالت تشعر بقلبها يرتجف وكأنه نافذة مكسورة تصفقها الريح في كل

اتجاه ، رمت الفستان على السرير ودخلت الحمام تكرر عبارات شتمها

لنفسها ولحماقتها ، فتحت المياه على أقواها ورمت ثيابها ووقفت تحت

ذاك الماء المتدفق ترتجف وكأنه ينزل عليها قطعا من الجليد ، مررت

ظهر يدها المرتجفة على شفتيها وأغمضت عينيها بقوة تسترجع ما حدث

ولازالت تشعر بملمس شفتيه عليهما ثم مررت يديها على رأسها ممسكة

شعرها والماء يتدفق عليه وهمست برجفة " تبا له من رجل مختلف

في كل شيء يفرض سيطرته على كل الأمور "

وليست تعلم كيف أنهت حمامها ذاك وغسلت شعرها وجسدها فلم

تكن واعية لشيء حولها ، لفت المنشفة حول جسدها وخرجت ووقفت

مكانها عند باب الحمام وعضت شفتها بقوة وهي ترى ثيابا لها على

طرف السرير فمؤكد هوا من أحضرها هنا فجميع ساكني المنزل

نيام ، توجهت نحوهم ورفعت المفتاحان المجموعين في حلقة حديدية

وكانا فوق الثياب وكان أحدهما مفتاح غرفتها والآخر مفتاح غرفته

الذي وقع منها هناك ولا تدري متى أو أين ، خبأتهما جيدا ليبتعدا

عن شقيقته ثم لبست ملابسها واندست في فراشها تحاول فقط

النوم وبأي طريقة لكن ذلك كان أبعد من مناها

*

*

رفع سلاح القنص عاليا وقال وهوا ينظر من عينه " اسمع

سأعطيك معلومة مهمة تذكرها دائما "

ثم أنزله ونظر للجالس بجانبه يستمع له بانتباه وتابع " أهم ما يرتكز

عليه القناص هوا طريقة تعديله لإحداثيات ومعدل سلاحه ، كلما كان

تعديله دقيقا كلما كان أمهر وأصاب أهدافه بسهولة ، ولا تعتمد على

خبرة غيرك لأنك ستحتاج لفعلها بنفسك في أي وقت "

عد تيم بأصابعه ونظره عليها وقال بعبوس " كلامك يعني أني

فشلت في تعديله للمرة الرابعة "

أزال عمير جهاز التصويب من فوق السلاح وقال

" لا تيأس يا فتى فالأمر لن يكون سهلا "

تنفس بضيق وضم ركبتيه مشبكا يديه حولهما وقال " لم أنجح في

تعديله فما سيحدث في التصويب ! لقد يئست "

ضحك ذاك وقال " التصويب أسهل مئة مرة "

نظر له تيم بصدمة فتابع بجدية " التصويب يحتاج ليدين ثابتة ونفس

منتظم ودهن صاف مها كان صاحبه معرضا للضغوط ثم أخيرا والأهم

قدرة الرامي على تركيز نظره في نقطة واحدة وهذه جميعها أجزم أنها

لديك وبتمارين بسيطة فقط ستتقنه أما تعديل التصويب فليس الجميع ملما

به وحتى بعض المهرة في الرماية يلجئون لغيرهم في فعلها ، ثم أنا

" لم أخبرك عن الأمر المهم في تعديل مثل هذه الأسلحة

هز له رأسه بنعم منتبه بشدة معه وتابع ذاك وهوا يرفع السلاح مشير

به لهدفهم المثبت بعيدا " اختر هدفا يوترك ، أكثر شخص يستطيع

أن يشوش انتباهك وهذا عليه أن يكون أمامك وليس أن تتخيله كما

في التصويب حين تتخيل هدفك أكثر شخص تكرهه ، هل

" فهمت هذه النقطة

حرك تيم عينيه بتفكير وقال " ما فهمته أنك تستطيع تثبيت

" إحداثيات سلاحك على شخص يوترك وجوده

" فرقع ذاك بإصبعيه قائلا بضحكة " هوا كذلك

نظر للفراغ وقال بتفكير عابس " ماريه هي أكثر شخص يوترني

" بسبب ثرثرتها التي لا تتوقف فلا أركز على شيء

ضحك عمير ضحكة عالية جعلت الجالس بجانبه ينظر له بضيق

" وقال " لو أعلم لما تضحك دائما دون سبب

أخذ عمير نفسا قويا قبل أن يعود للضحك قائلا

" لم أتخيل أبدا أنه لك حبيبة "

وقف تيم على طوله وركل الأرض بحدائه مثير الغبار حول قدمه

" وقال بغضب " ما هذا التعبير الأحمق ؟ أنا لم أقل أن لي حبيبة

حرك ذاك يده قائلا ببرود " لما الغضب هكذا ؟ وأنا لدي حبيبة

" أراها كلما كنت في إجازة

تحرك حينها تيم مبتعدا يتمتم بغضب وصوت عمير يتبعه صارخا

من خلفه " قد لا تكون ثرثرتها التي توترك يا أحمق ، أنا

" أريد أن نكون أصدقاء مقربين جدا

فالتفت له من بعيد وانحنى للأرض ورفع حجرا ورماه به وهو في

ضحكة واحدة على شكله الغاضب ثم وقف ينفض ثيابه متمتما

بابتسامة " فتى أحمق لو يعلم كم من رجال أدربهم

" يحترمون مركزي ليرميني هوا بالحجارة

*

*

طرقت باب الغرفة ودخلت وقالت بابتسامة مرتبكة

" صباح الخير عمتي "

بادلتها تلك الابتسام قائلة " صباح النور ، إن لم أرسل لك

" الخادمة لا تأتين ؟ هل غاضبة مني ابنة شراع ولا أعلم ؟

اقتربت منها تبعد خصلات شعرها خلف أذنيها وقالت

" أبدا ومن يغضب من قلبك الطيب ؟ "

ثم جلست على طرف السرير وقالت ناظرة ليديها في حجرها

" نمت فقط لأني لم أنم إلا فجرا "

قالت تلك مدققة على ملامحها " بعد مغادرة الضيوف لم أراك

وخمنت بأنك متعبة واستغربت أن لا تخرجي من غرفتك

" صباح اليوم

وتابعت تكتم ضحكتها " حتى ضننت أنك ستنزلين لنا من

غرفتكما في الأعلى "

نضرت لها بجزع قالت " من قال ذلك ؟ "

قالت نصيرة مستغربة " قلت أني ضننت فما بك يا غسق ؟ "

وقفت وقالت " لا شيء عمتي "

ثم نظرت خلفها وعادت بنظرها لها وقالت بتوجس

" هل غادر مطر ؟ "

قالت مستغربة " حد علمي سيغادر صباح اليوم للحدود إن لم

يجد شيء يجعله يؤجلها قليلا ، هل تريدينه في أمر ما ؟ "

هزت رأسها بلا بسرعة وقالت مغيرة مجرى الحديث " حكت لي

حبيبة عن أعشاش الدجاج في الحديقة هل تخرجين معنا ؟ "

قالت بضحكة " حبيبة والدجاج قصة لا تنتهي وكرسيي لا يساعد

في التنقل في تلك الجهة ، اجلسي نتسلى قليلا قبل ذهابك "

هزت رأسها بحسنا وعادت للجلوس تنتظر منها ما تتوقعه جيدا بعد

زيارة ابن شقيقها لها يوم أمس ، قالت محاولة تبديد ذاك التوتر

" ! لاحظت أنه لا أحد غير الموجودين في المنزل أقارب لكم "

هزت تلك رأسها بنعم بحزن وقالت " زوجي توفي منذ زمن بعيد

وابني اختفى منذ أكثر من سبعة أعوام ولا أحد يعلم حيا هو أو ميتا

ولم نجده رغم محاولات مطر الجادة ، أما عمك صقر فقد توفيت

زوجته وهي تلد ابنه ومنذ ذاك الوقت لم يتزوج ولم يفكر فيه أبدا

" مهما حاولنا معه

اجتازت غسق صدمتها بصعوبة وقالت وكأنها تحدث نفسها

" !! لكم أبناء "

ضحكت تلك رغم حزنها وذكرى ابنها الشاب وقالت " نعم ألسنا

" بشرا نتزوج وننجب الأبناء ؟

" ... قالت بتلعثم " لكني ظننت

ثم رفعت خصلاتها خلف أذنيها مجددا وقالت " ظننت أنه كما

" .... حكي وسمعت

" قاطعتها نصيرة مبتسمة " ما يحكى عن شقيقي شاهين طبعا ؟

" قالت غسق بصدمة " أليس حقيقيا ؟

خرجت ضحكة صغيرة منها وقالت " نصفه ونصفه الآخر مجرد

" كذب وافتراء فهل انعدمت الإنسانية لديه درجة أن يقتل أبناء عائلته

" همست بخفوت ناظرة لعينيها " ما الحقيقي في الرواية إذا ؟

قالت تلك بهدوء " الحقيقي هوا الابن الذي سيحكم البلاد وانتظار شاهين

رحمه الله له بفارغ الصبر وتربيته له بنفسه فقط والباقي لا صحة له

" وما كان ليقتل عائلته من أجل باقي كلام الرجل ذاك

" قالت غسق مستغربة " لكنه صدق نصفها الأول ؟

هزت رأسها بنعم وقالت " وابني اختفى بعد وفاة شقيقي شاهين وولد

قبلها وصقر ولدت زوجته وتوفت وابنها وشقيقي شاهين حي أيضا

" وقد زوج جوزاء وأنجبت طفليها في وجوده يا غسق

فتحت فمها لتسأل لكن تلك سبقتها قائلة بحزن " وشقيقي دجى

" توفي قبل وفاته وقد حاول شاهين جهده أن لا نفقده

" قالت غسق مستغربة " لك شقيق ميت ؟

هزت رأسها بنعم وقالت " كان شقيقا لنا من والدي رحمه الله

ولم نرى والدته أبدا فقد أحضره طفلا رضيعا ولولا الشبه

القوي بينه وبين والدي لما صدقنا أنه ابنه "

هذه العائلة قصص قالت غسق وقد شعرت بالفضول أكثر لمعرفة

" وكيف لم ترو والدته أبدا ؟ ... أعني لماذا ؟ "

تنهدت نصيرة بحزن وقالت وقد غابت بنظرها للفراغ " والدته من

الهازان كما أخبرنا والدي وأنها كانت من أجمل أجمل نسائهم ، وفي

ذاك اليوم الذي اكتشف فيه جدي الأمر هدده بطرده من القبيلة وإبعاده

عن الحدود معهم فطلقها كما أخبرنا وأحضر ابنه منها وربته والدتي "

هزت رأسها بحيرة وقالت " غريبة قصته ! تربى بعيدا عن

والدته وهي على قيد الحياة ثم مات و .... "

قالت مندفعة " لما قلت أن شقيقك شاهين حاول جهده كي لا

يموت شقيقه دجى ! ماذا حدث ؟ "

خيم الحزن على ملامح نصيرة وقالت " مات في محاولة

للفرار خارج الحدود "

ثم رفعت نظراتها بالجالسة أمامها تنظر لها بصدمة وقالت مبتسمة

يكفينا من الحديث عن البؤس والمآسي وأخبريني ما الجديد بينك "

وبين زوجك فقد جاء يسألني بالأمس إن كان ثمة من يضايقك

" من الضيوف

رطبت شفتيها بلسانها فها قد وصلا للب الموضوع وجل ما تخشاه أن

تكون أخبرته عن الحديث الذي خرجت بعده رغم كثرة الأحاديث وقتها

وهوا من الدهاء أن يكتشف بسرعة صلتها بالعجوز تلك ودخولها إلى

أراضيه من أجلها ، مررت أطراف أناملها على خصلات شعرها

وقالت بحذر " أخبرته أنه لم يضايقني أحد لكنه يبدوا مصرا

ثم أنتي تعلمين أنه زعيمهم ولن يرضى أن تهان زوجته

" مهما كانت مكانتها لديه

هزت تلك رأسها بنعم وقالت " وهذا ما سيحدث فلن يتجرأ أحد

على قول شيء في وجهك أو أمامنا أنا وجوزاء وما سيقال من

" وراء ظهرك لا تكترثي له

انفتح الباب حينها وأطلت منه حبيبة برأسها وقالت مبتسمة

" ؟ سيدتي يبدوا أنك نسيت موعدنا "

" وقفت وقالت مبتسمة " لا لم أنسى وقادمة حالا

ثم ودعت الجالسة على السرير بحركة من يدها مبتسمة لها وبادلتها

تلك نفس الحركة تراقبها مبتسمة حتى اختفت خلف الباب الذي أغلقته

ورائها وتمتمت بخفوت باسم " من التي قد تقتل مطر الذي صنعه

" شاهين إن لم تكن هذه ! سبحان من كملها في كل شيء

وما لبث أن انفتح الباب مجددا ودخلت منه جوزاء بوجه عابس

محتقن من الغضب فقالت نصيرة مبتسمة " بسم الله عليك

" ما بك وكأن وجهك قطعة من نار ؟

" قالت تلك بحنق تمسك وسطها بيديها " ليس وقت مزاحك عمتي

تنهدت العمة بضجر وقالت " ولأنه ليس وقت مزاح أردت أن

" أغير من هذا الوجه المكفهر

" قالت جوزاء وبدون مقدمات " مطر أخذ مفتاح غرفته مني

" قالت نصيرة بلامبالاة " وإن يكن ؟ مفتاح غرفته ويخصه

ازداد غضب تلك من برود عمتها وقالت بضيق

" وأعطاه لتلك "

هزت نصيرة رأسها بيأس وقالت " تلك زوجته ومن الطبيعي

أن تهتم بأموره ، ألست من كان يريد زواجه وأن تكون له

" زوجة تهتم به

نفخت جوزاء بقوة وغضب وقالت " سحرته تلك الصنوانية بجمالها

" الزائف ، سحقا للنساء ... لا أصدق أن الذي أمامي مطر

لم تستطع تلك إمساك ضحكتها وقالت تستعيد نفسها " أضحكك الله

يا جوزاء من أين جئت بالصنوانية هذه ؟ ثم لا أرى شقيقك تغير

" أبدا ولولا صبر ابنة شراع عليه لفرت هاربة مجنونة

حركت جوزاء يدها في حركة غاضبة قائلة " لا تبدي جهدا أبدا تضع

العمران مهرا لها تلك البلهاء ورأيتِ معي بعينك ما تفعل لتجعله

يستسلم ، حركات سوقيات لعينات ! لا أعلم لما مطر يجهل

" حقيقتها حتى الآن وهي واضحة أمامه كالشمس

ظهر الضيق جليا على وجه نصيرة وقالت حانقة من الواقفة

أمامها " جوزاء ما يحدث خلف الأبواب المغلقة لا أنتي ولا أنا

نعلم ما يكون وليس لنا حق الحكم عليه ، حياة شقيقك هوا الذي

يقرر فيها فتوقفي عن حركاتك أنتي التي لا أريد نعتها

" بالسوقية مثلك يا شقيقة زعيم الحالك

" قالت جوزاء بصدمة " حركاتي أنا ؟

علقت نصيرة بغضب " نعم ولا تضني أني عجوز خرفه لا

" أرى وألاحظ تعمدك إبعادها عن مجالس النساء

خرجت ضحكة ساخرة خالية من المرح من ثغر الواقفة عند

" الباب وقالت " لعبت بعقلك أيضا ، لا أستغرب ذلك

تنفست نصيرة بضيق ويئس من حقد ابنة شقيقها الا مبرر وقالت

" هي لم تخبرني بشيء وأجزم أنها لن تفعلها أبدا "

ضربت جوزاء بكفيها ثم أشارت بأحدهما وقالت ساخرة " نعم

والواقع أمامك فها هي جعلت مطر يأخذ مفتاح غرفته مني

" وهوا لم يفعلها سابقا

همست تلك مستغفرة الله وقالت " أقطع ذراعي إن فعلتها ، أقسم أن

تربية أسرة الزعماء متأصلة فيها لنخاع عظامها ولن تتحدث لا أمامه

ولا أمامي ، ولن يحتاج مطر لتخبره ليعرف بنفسه وأنتي تعرفيه

" جيدا كما هوا يعرف حقدك المبالغ فيه جهة صنوان جميعهم

كتفت جوزاء يديها لصدرها وقالت " ما معنى كلامك عمتي ؟

" هل أنا التي تخليت عن أصول تربيتي في أسرة زعيم الحالك

قالت عمتها ببرود " الجواب لديك وليس لدي واتركي شقيقك وشأنه

لتثبتي لنفسك قبلي أنه معك حق يا شقيقة زعيم الحالك ، وإن كان

لديك اعتراض على أخذه منك لقلته له بنفسك وأجزم أنك سلمته

" له دون حتى سؤال

أنزلت يديها وشدت قبضتيها قائلة بضيق " بلى سألته وقال بكل

صراحة أنه أعطى مفتاحه لها ، لا يهتم بأن ما يفعله

" يجرحني أنا شقيقته

هزت نصيرة رأسها بيأس ولم تعلق فتركتها تلك وغادرت

" متمتمة بغضب " أنا المخطئة جئت أتحدث معك

*

*

دخل الغرفة يزرر قميص بذلته العسكرية وهمس للمضجعة على

الفراش على الأرض تحضن جسد تلك الطفلة النائمة بسلام

" نامت أخيرا ؟ "

هزت تلك رأسها بنعم ثم استوت جالسة وقالت ناظرة له

" هل قررتم الرحيل للحدود ؟ "

هز رأسه بنعم وقال " اتصل الزعيم مطر وسنخرج بعد قليل ما

أن يصلوا هنا فتجمعنا كالعادة من بلدتنا هذه ولولا ضرورة

الأمر ما تركني أتيت "

هزت رأسها بحسنا وقالت " هل أخبرته انك ستأخذها للطبيب ؟ "

هز رأسه بلا وقال " لم أجد داع لذلك فلا شيء بيده يفعله لها

مثلي تماما لكان فضل عمته على الجميع "

نظرت بحزن للنائمة تحتها تحضن دمية قماشية مصنوعة باليد

وقالت " ضننت أنها لن تنام أبد ، لا زالت تذكر جدتها وتطلبها

خاصة وقت نومها وطعامها ، مسكينة هذه الصغيرة رأت

" ما لم يراه الكبار

تنهد ذاك بحزن مماثل وقال وهوا يدس قميصه في بنطلون بذلته

ستكبر وتشفى وتكون امرأة قوية وتأخذ بحقها من كل من تسبب "

لها بذلك تأكدي من ذلك يا فاطمة فالظروف هي من تصنع الإنسان

ولن يذهب ضرار سلطان ذاك بذنبها هباءً وستكبر له

" يوما وستري بعينك

وقفت وتوجهت نحوه وأمسكت يده وخرجت به من هناك قائلة

بابتسامة " الله أكبر هذه لن تكون امرأة بل دبابة ! أبعد أفكار

المحاربين هذه عن الصغيرة ولا تؤثر عليها ، أريدها شابة

" جميلة رقيقة فلا تفقدها سحر جمالها الإلهي

ضحك وحضن كتفيها وقبل رأسها قائلا سائرين جهة غرفتهما

من سيخرج بحقها من عائلة والدها إن كانت كما تريدين "

" رقيقة دقيقة ؟

ضحكت تمسك فمها بيدها وقالت " من أين جئت بكلمة دقيقة تلك ؟

ثم طبع الإنسان لا يؤثر عليه شيء فهل تقارن أنت بالزعيم مطر

" وأنتما تدربتما معا وخضتما المعارك سويا ؟

وقف فوقفت ونظرت له وقد أمسك وسطه بيديه وقال بضيق مازح

" ما قصدك بهذا ؟ ألا أعجبك مثلا تقارنيني بالزعيم ابن شاهين "

ضحكت وحضنته من خصره بقوة مخبئة وجهها في صدره العريض

وقالت " لا حرمني الله منك يا عكرمة ، قصدت أنك ألين منه بكثير

" وما كنت لأتمنى أن تكون مثله فلست أتحمل قسوتك أبدا

مسح بيده على شعرها وقبل رأسها قائلا " لا يعرف أحدا الزعيم

مطر مثلنا ورغم قسوته وقوته وشدته يحمل قلبا يحوي الجميع

" هوا فقط يحتاج من يفهمه ويعرف كيف يتعامل معه

*

*

كان صوت ضحكاتها الرقيقة وصرخاتها تملأ ذاك الجزء من الحديقة

خلف المنزل الواسع وهي تحاول مع حبيبة جمع الدجاج بركضهما

خلفهم لمحاصرتهم في مكان واحد وكلما تحرك أحد الديكين جهتها

بالخطأ صرخت هاربة على ضحكات حبيبة عليها ، وقد لبست هذه

المرة بنطلونا وقميصا طويلا نسبيا يساعدانها كما اقترحت عليها

وأخذت حجابها معها تحسبا لوجود أحد العمال وإن كان دخولهم

وحسب أوامر مطر لا يكون إلا للضرورة ، اقتربت من حبيبة

" مبعدة يديها عن جسدها قدر الإمكان وقالت " ها قد أمسكته خذيه

ضحكت تلك وأخذت منها الصوص الصغير قائلة " لا تقدرين

" إلا على أفراخها ، أمسكي دجاجة لأرى

" ضحكت وقالت مبتعدة " لا أستطيع ولا لمسها بيدي

وبعدما جمعوها جميعها داخل القن المخصص لها أغلقت حبيبة

الباب وقالت غسق وهي تمسح يديها ببعض ونظرها عليهما

لما تدخلينهم ؟ فحسب علمي الدجاج يحب حرية الحركة "

" طوال النهار

رفعت حبيبة سلة البيض المجموع وقالت " ثمة طبيب سيأتي

" من أجل مرض أصاب بعضهن

وانتقلت تبحث في كل مكان عن أي بيضة تأخذها أيضا وتلك تسير

خلفها تتبادلان أطراف الحديث حتى قالت ناظرة لساقيها وذراعيها

" أين يمكنني غسلهم قبل أن أدخل المنزل فقدماي مليئتان بالأتربة "

أشارت لها بإصبعها وهي تحاول الدخول لمكان ضيق مادة يدها

الأخرى فيه " الخرطوم موصول بصنبور المياه من أجل سقاية

" الأشجار تتبعيه وستجدينه مفتوحا

فتحركت من هناك من فورها تنفض طرف بنطلونها عند الركبة

وسارت تتبع الخرطوم الطويل الممتد الذي أوصلها لمقدمة الحديقة

فوقفت مكانها وعضت طرف شفتها بقوة تنظر للواقف هناك عند

سيارته المتوقفة جهة المنزل رافعا بنطلونه مثنيا حتى نصف ساقيه

وقميص قطني ضيق بأكمام قصيرة وكان شبه يوليها ظهره ينظف

السيارة بقطعة إسفنجه كبيرة مليئة بالماء في يده ، فوقفت تراقبه

بصمت وشعره الأسود يتوهج تحت أشعة الشمس ولازال في حركة

واحدة سريعة ينحني قليلا ثارة وهوا ينظف كل ما تمر به يده منها

ويستوي في وقفته تارة أخرى ، وحارت لما يقوم بذلك بنفسه ولديهم

عددا لا بأس به من العمال !! أم أن هذا الرجل يهوى التفتن بجسده

وبقوامه المختلف عن غيره ؟ ضحكت بصمت من أفكارها تلك

وغابت عيناها مجددا في حركات جسده وتقاسيمه وبدأت تشعر

بالحرارة تتسرب لجسدها وهي تتذكر ما حدث بينهما البارحة فقد

هربت اليوم من الجميع ولم تخرج من غرفتها كي لا تلتقي به

وكانت تضن بأنه غادر وليس هنا حتى الآن ووقت الظهيرة

بات يقترب ، رفعت إبهامها ومررته على شفتها السفلى ثم عضت

طرفها ولازالت تراقبه وفكرت ما كان سيحدث لو لم يطلب منها

أن تغادر ؟ ماذا إن لم تطاوعه وكانت أشجع مما تضن بنفسها ؟

هل كانت ستخرج كاسبة وستصبح العمران لها أحب ذلك أم

كرهه ؟ ارتجف قلبها من مجرد الفكرة فهزت رأسها بقوة

متمتمة " ما كنت لأفعلها ولو شنقوني وما ضننت أن

الأمر سيصل لذلك "

أبعدت نظرها عنه وانحنت وأمسكت الخرطوم بيدها ورفعته وبدأت

بغسل قدميها وساقيها ثم يديها ووجهها ثم رفعت رأسها باتجاهه فكان

ما يزال على حالته تلك منسجم تماما فيما يفعل فعادت بنظرها للخرطوم

في يدها ثم سوت وقفتها وبدأت بتحريكه في الحوض الواسع النصف

ممتلئ بالماء مستمتعة بمنظر تمايله وهوا ينسكب من فم الخرطوم يعكس

أشعة الشمس وكأنه عقد من ألماس ، حرّكته بشكل دائري تراقبه مبتسمة

بانسجام وسرعان ما ماتت تلك الابتسامة حين وصلها صوته من هناك

" لا تتركيه خارج الحوض ويملئ المكان بالمياه ، وتوقفي

عن اللعب به كالأطفال "

رمت الخرطوم من يدها في الحوض ونظرت له بحنق وهوا ينظف

زجاج سيارته وكأنه لم يقل شيئا ولم تتخيل أنه كان يراها وهو لم

يلتفت جهتها أبدا ! أخرجت لسانها لظهره وتركت المكان وتوجهت

للجهة التي ستُدخلها لباب المنزل وما أن خطت خطوات قليلة حتى

انزلق كعب قدمها من مؤخرة شبشبها المنزلي البلاستيكي وشعرت

بشيء اخترق لحمها فصرخت قافزة ورافعة قدمها عن الأرض وثنتها

بتألم تنظر ما حدث لها وسط تلك الأتربة التي علقت بها وسرعان ما

أمسكت يد بأصابع طويلة قوية معصمها ووصلها صوته الحازم

المنخفض بنبرته المبحوحة " ما بها ؟ أرني إياها "

أنزلتها فورا ودستها في شبشبها وسحبت يدها منه وتحركت

قائلة ببرود " لا شيء قد يكون مـ.... "

وصرخت رافعة لها مجددا حين شعرت بذاك الوخز القوي فيها

ولم تشعر بنفسها إلا وهي ترتفع عن الأرض وقد أصبحت بين

ذراعيه وقد حملها بخفة قائلا " عنيدة وعنادك هوا الذي يفسد

حياتك دائما "

زمت شفتيها بغضب من تعليقه اللاذع وهي تحاول إبعاد وجهها

عنه وحمدت الله أنه لن يسير بها كل تلك المسافة للمنزل بل أخذها

جهة سيارته التي باتت قريبة وأنزلها عند مقدمتها قائلا

" لا تضعي قدمك على الأرض "

رفعت رأسها ونظرت له وكانت ستتحدث لكن الكلمات علقت في

حنجرتها حين أمسك خصرها ناظرا له ورفعها في حركة واحدة خفيفة

وأجلسها على مقدمة السيارة المرتفعة ثم رفع قدمها يتفحصها بعينيه ثم

تركها وتوجه لباب السيارة وهي جامدة كالتمثال لازالت تشعر بضغط

أصابعه على خصرها تحاول استجماع طاقتها مجددا ، أخرج من سيارته

قارورة ماء وما أن وصل عندها حتى فتحها وسكب ما فيها على قدمها

فنزلت الأتربة من عليها ثم رمى القارورة جانبا ورفع قدمها مجددا

ونظر فورا للبقعة الحمراء الصغيرة بسبب تسرب الدماء الفاترة بسبب

امتزاجه مع الماء ، حرك إبهام يده الأخرى عليها فصرخت الجالسة

" فوق السيارة بتألم ممسكة ساقها " آآآآي

فقال ونظره على إبهامه الذي لازال يحركه عليها برفق

" تحملي قليلا إنها شوكة لازالت داخل قدمك "

ثم تركها مجددا وتوجه لباب سيارته التي جلس في كرسيها وفتح

الدرج يفتشه لوقت ثم عاد يحمل في يده ما يشبه ملقط الجراحين

ورفع قدمها مجددا ونظر لوجهها وقال " لقد انكسرت فيها لكن

رأسها ما يزال خارجا وهذا جيد ، سأحاول نزعه فلا تتحركي "

نظرت له بملامح متألمة وعينان مغرورقة بالدموع بسبب تألمها

السابق منها وقالت تمسك فخذها بقوة " بالرفق رجاء "

عاد بنظره لقدمها وقد خرجت منه ضحكة صغيرة مكتومة

وقال وهوا يرفعها أكثر لمستوى وجهه " تخافين من شوكة !

لا أصدق ذلك "

عضت شفتها قهرا من سخريته وقالت بنعومة مدمرة

" بل أخاف من يدك القاسية "

رفع نظره لوجهها سريعا وعلى طرف شفتيه ابتسامة غامضة لم

تفهمها ثم عاد بنظره لقدمها وعلق بجفاف " لا تخافي لن تكون

مهمة أصعب من إصلاح بندقية معطلة "

صرت على أسنانها بغيظ منه وقالت بضيق " لكني لست

" سلاحا ولا جماد تقارنني بها

قال وهوا يحرك الملقط حول تلك البقعة الحمراء في بياض كعب

قدمها " لم أتحدث عنك بل عن عملي أنا ، هلا توقفتِ عن

" اتهامك الدائم لي

سندت كفيها للخلف على السيارة وهمست بصوت كئيب رقيق

" أنا من باتت تتهمك ؟ "

قال بسخرية " لا تحلمي بأن أعتذر عما حدث صباح أمس

" لقد حذرتك من البداية وبأنك ستكونين المسئولة عما سيجري

قالت مندفعة بضيق " لم أتخيل أن تفعلها ، ظننتك تهددني فقط

" لا يمكنك تصور الموقف الذي وضعتني فيه أمامهما

أنزل قدمها ورفع نظره لوجهها قائلا بابتسامة ماكرة " ولا أنا

كنت لأتخيل أن تفعليها وتتركيني أخرج لهما بينما كان

" الخيار في يدك

هربت بنظرها من مواجهة عينيه وعاد صوتها للانخفاض

" مجددا وهمست بقهر " لا رحمة في قلبك أبدا

أمسك خصرها وقال وهوا ينزلها " لا بأس فها قد علمنا أننا

" نلعب من نفس المستوى

لم تعلق تنظر لقدميها وقد قال " دوسي عليها الآن فوق الحداء

" لابد وأن الألم قد زال

" وضعتها عليه وحركتها قائلة باستغراب " اختفت ! كيف ؟

ثم رفعت نظرها لوجهه القريب جدا منها وقد قال مبتسما

" بسخرية " نزعتها طبعا

خرجت شهقتها الرقيقة مصدومة وقالت وقد نزلت بنظرها لها

" ! وهي ترفعها لتراها " لم أشعر بأنك نزعتها

اقترب من جسدها دافعا له ليلتصق بالسيارة خلفها وحاصرها بيديه

اللتان وضعهما على الحديد خلفها يراقب نظراتها المصدومة مبتسما

" بمكر وهمس " الم أقل أنها مهمة سهلة جدا

تنفست بقوة تحاول الهرب بنظرها عنه وقالت تدفع صدره بكفها

" شكرا لك هلا تركتني أغادر "

خرجت منه ضحكة صغيرة وابتعد عنها قائلا

" جبانة "

نظرت له بحنق وقالت " لست جبانة ولا أسمع منك هذا مجددا

أو تحمل التبعات "

قال بمكر مركزا نظره على عينيها المدججة بالغضب الفاتن

" أريني قدراتك إذا "

لعنت لسانها الأحمق على ما قال وقد توهجت خديها بسرعة البرق

وقالت بخفوت أبح " أنا لست مثلك أستغل ضوء الشمس والأماكن

المكشوفة "

ونظرت بصدمة لوجهه حين رفعه للأعلى وملأت ضحكته أذنيها

الضحكة التي لم تسمعها سابقا منه بل ولا حتى من غيره ! ضحكة

رجولية عميقة مختلطة بتلك البحة الغريبة ، أنزل رأسه ونظر لها

وقال وابتسامته بسبب ضحكه ذاك ما تزال تزين شفتيه

" أجل فأنتي لا تلعبين إلا في الليل وفي الغرف المغلقة "

تصلبت ملامحها وكأن ثمة من حنطها فجأة وكادت تنفجر عيناها

دموعا فدفعته من صدره وتحركت قائلة بنبرة انكسار عجزت عن

إخفائها رغم محاولاتها " أعز الله والدي الذي لم يربني

لأكون ذليلة أو ليذلني أحد "

أوقفتها يده التي أمسكت ذراعها تمنعها من الابتعاد وهمس من

خلف أذنها " أنتي من حدني على هذا ، كنت أريد حقا الاعتذار

عما حدث البارحة وأنسيتني ذلك "

شعرت بالاحتراق من صدى كلماته بسبب ذكره لما حدث بينهما أكثر

من احتراق خدها وجانب وجهها من أنفاسه الساخنة ، ومر ذاك الموقف

أمامها وكأنه حدث الآن وهي من هربت من مواجهتها له بسببه ، لم تتمنى

حياتها أن تنقشع من الوجود كما تمنتها تلك اللحظة وحمدت الله في سرها

أنه لم يذكّرها بأنها السبب فيما حدث منذ البداية أو أن يتهمها بالرغبة

فيه ، سحبت يدها من ذراعه وتحركت في صمت وبخطوات

سريعة وجهتها باب المنزل البعيد قليلا عن نظرها

" غسق "

وقفت مكانها ودون شعور منها ما أن وصلت تلك الحروف لمسمعها

وأسمها الذي قد ميزه بطريقة لم يتقنها أحد غيره وقبله ، وقفت لكنها

لم تلتفت له فوصلها صوته مع صوت فتحه لباب سيارته " جهزي

" لي غيارين مريحين وبذلة عسكرية في حقيبة والحمام لأستحم

تحركت مجددا وقد وجدت الفرصة لرد الدين وكرامتها المهدورة

فلوحت بيدها وهي تسير بخطوات بطيئة متمايلة وقالت بنبرة

" رقيقة ساخرة " ولا تدخل الخادمات أبدا لعرين الأسد

فعض شفته بغيظ منها وقد فرت بخطوات سريعة جهة المنزل

ضاحكة فأغلق الباب بقوة بعدما رمى الملقط على الكرسي

" وتحرك خلفها هامسا بابتسامة " تلك الجنية سترى

*

*

راقبته من بعيد وقد ضرب سماعة الهاتف بقوة معيدا لها مكانها

ثم دفن رأسه بين يديه فاقتربت منه حتى وصلت عنده قائلة

" بتوجس " ماذا حدث يا شراع ؟ لا تقل أنها مصيبة جديدة

رفع رأسه وتأفف قائلا " ذاك المجنون جبران كلما علم أني

" أرسلت شخصا لمكانه فر مني ذاك الطفل

جلست وقالت بحزن " هوا أكبر أبنائك وكم كان أقربهم لك وتمدح

رجاحة عقله فلما تناديه بالطفل الآن ؟ هوا يحتاج فقط لدعمنا جميعا

" وللصبر وبعض الوقت حتى يتخطى صدمته وجرح مشاعره

قال بضيق صارخا فيها " توقفي عن الدفاع عنه ، طفل وألف طفل

وحكمي عليه كان خاطئا وظهر على حقيقته ما أن مر بموقف اختبر

فيه نفسه وقوة تحمله ، ولن يرتاح ذاك الولد حتى يفعل شيئا

" نندم عليه جميعنا

قالت بتوجس وخوف " ما هذا الكلام يا شراع ؟ هو مهما حدث

لن يقدم على شيء يضرها أو يضرك أنا أكيدة من ذلك

" ..... وسيحسب حسابا لكـ

قاطعها بضيق " ذاك الأحمق يتتبع جميع أخبار وتحركات ابن شاهين

" ولن تكون نواياه حسنة أبدا وعليه أن لا يصله ويتحدث معه

" قالت بصدمة " تعني أنه قد يخبره عن حقيقة غسق وأنها ابنة عمه ؟

" وقف شراع على طوله قائلا " لن تفهمي أبدا مهما شرحت

ثم نظر لها ونظرها معلق بوجهه فوقها باستغراب وقال بجدية

علمت ما السبب وراء ابن شاهين ، علمت ومن غبائي "

" لم أفكر به إلا متأخرا

" قالت بصدمة " علمت ماذا ؟

مسح وجهه بكفه مستغفرا الله بهمس ثم قال بصوت أجوف كئيب

" هوا يعلم أنها ابنة عمه ، يعلم ومن قبل أن تصل له هناك "

المخرج ~

بقلم الغالية : لامارا

غسق

لـ طالما عشقت النوافذ
عند الفجر والغروب والمساء
وفي فصل الربيع والخريف والشتاء
ففي الصيف تدخل أشعة الشمس بلا استحياء

***

لكن هذا المطر هادم الملذات
مفرق الجماعات لا يأتي وحيداً
بل تأتي معه الصواعق والغارات
والرعد والبرق كلٌ مرعبات

***

أما أنا أتيت لأرضه لا لضير
فقط أدرت معرفة الأنساب
لكن شاء الله مسبب الأسباب
أن يجدني مفرق الأحباب

***

فأخذني لبيته مصابة جريحة
قلبي مجروح وفي ساقي جبيرة
فأنا ابنة الصوان في حكم أسيرة
وأعلم أنا أحبابي في ألف حيرة

***

وتحايل ابن شاهين على أبي
فاتخذ مني زوجة بالخدعة والحيلة
ولم يملك أبي لخلاصي أي وسيلة
فقد حسبها ابن الحالك بمعادلةٍ طويلة

***

عرسي بلا فرحة ولا دفوف تزفني
نقوش حناء وشمت على جسدي
تحكي حكايات سبيي وقهري
فاللباس لباس عرسٍ وعروسٌ لا أجدني

***

ودخلت لبيته كعروس بلا مهر
فأين المهر يا ابن الحالك مطر
فأنت حتى في مهري تحتال
وحتي في حقي تراوغ وتختال

***

لا أريد ذهب وجواهر أو مال
أريد فقط أرض العمران
ولن أتنازل وأنا ابنة الصوان
فادفعها لي أو تسريحٌ باحسان

***

قلت لي كانت من كانت
لا امرأة هذا مهرها على مر الأزمان
فأجبت كانت من كانت غيري
فأنا غسق حسناء الصوان

***

أنا ابنة شراع إن كنت جاهله

أنا ابنة كريم عُرفت خصاله

أنا أنا ومن بعدي الطوفان

وأنت اخترت فتحمل الأوزان

***

الحرب خدعة لكن الزواج استقرار

بيت هانيء وسكن وأطفال

وحب ومودة كما ذكر في القرآن

أختم كلامي بامضائي أنا

غسق شراع آل صوان

***

نهاية الفصل ....موعدنا القادم مساء الثلاثاء إن شاء الله

السلام عليكم ورحم الله وبركاته

كل عام وأنتم بألف خير وعافية وسعادة جميع متابعي روايتي الأعزاء
يتقبل منا اسأل الله أن يجعل جميع أيامكم أعيادا وأن يجعل عيدنا في جنته وأن
. ومنكم ويغفر لنا ولكم

كان أرحب بكل الجدد الذين انضموا لركبنا وخرجوا من خلف الكواليس
انضمامهم وكلامهم شرف كبير لي

أغاني الوفاء ووردة علي والأميرة البيضاء والحمد لله وأرحب بعودة الغاليات
أنكم بخير
من غاب أسمه وكل من غاب ورجع لنا سالم وأساله الكريم أن يطمئننا عن كل
عن روايتنا

توقعاتي وهذا كانت الردود رائعة بدون منازع والفصل حاز على رضاكم فوق
ظنكم دائما كرم كبير منكم وأسال الله أن أكون عند حسن

أساسا طبعا من أهم النقاط التي تم مناقشتها هي تسليم العمران لغسق وهي
المناطق تقسم ليست ملك لمطر وطبعا حسب ما أعرف في بلادي أن جميع
للدولة وبالنسبة وتملك للمواطنين بيعا وشراء ولا توجد منطقة كلها ملك
يتم تقسيمهاوتمليكها للعمران كانت منطقة متغيرة الملكية ومتنقلة بينهم ولم
وتملك ولا ننسى أن غسق تعد كما في باقي مناطقهم لذلك من الطبيعي أن تقسم
مطر سلم حتى مناطق الهازان لأهلها من صنوان في نظر أهل صنوان وأن
وهذا ما استغلته غسق أكثر

بما إنها النقطة الثانية هي تحذير مطر لغسق من وجود صقر وهذا أمر طبيعي ليست على دراية بقرابته لها

فور والنقطة الثالثة هي عدة أميمه وهذا أمر طبيعي جدا ويمكن العقد عليها قريبا إن انتهائها بولادتها لأنه تزوجها بالفعل وباقي خبايا القصة ستعرفونه شاء الله

بالنسبة لدراسة غسق فهي سبق وذكرت أنها ستتقدم للامتحانات في صنوان خارج قبل نهاية العام والجامعات طبعا لا وجود لها عندهم ومن يتعلم يخرج البلاد

وفي فصل سبب ذكر غسق لعرين الأسد فكان مجرد سخرية من إسدائه للأوامر اليوم تفهموا أكثر إن شاء الله

بالنسبة لأعمار الأبطال فغسق 21 ومطر 34

الغالية ساريتا ميشيل تسأل عن زيزفون وساندرين وخلطها بينهم

زيزفون هي حفيدة ضرار تعيش حاليا في الحالك وهي الطفلة المريضة

ساندرين فهي ابنة عم والدة تيم وتعيش في بريطانيا أتمنى وضحت الفكرة أما

في الغالية لامارا صورة ماريه كانت رائعة أصبتي كل شيء فيها إلا شعرها باقي مخيلتي أقصر ولون العيون ما كان واضح لكن ماريه لونهم عسلي الملامح أصبتيها

لي لي حرام عليك ضيعت شخصية مطر بصورتك هههه
بالنسبة لمعرفة مطر لأصل غسق فما أصابه أي أحد منكم لحد الآن

ولي لي وزارا توقعكم فشنك والرواية محمية بحقوق النشر ههههه

أترككم مع الفصل وكل عام وأنتم بخير مرة أخرى

(جنون المطر) الجزء الأول

الفصل الثاني والعشرون

المدخل ~

بقلم الغالية : دندنة روح

حبيبي انا وانا حبيبك
وما بين انا وانا
حب وعشق وله وأمل
حبيبي اسقني من عشقك

حتى الثمل
ولا تبعدني عنك مهما حصل
وارأف بحالي
فلا تراني كما الجبل
فانا احبك كما يحب
الزهر المطر
فكن لحبيبك حنونا كما المطر
ولا تكن قاسيا كألسنه كثير من البشر
من غسق الى مطر

*****

أبعدت خصلات غرتها عن وجهها بعدما بعثرتها الرياح الرطبة

التي كانت تدخل من النافذة المطلة على الحديقة الخلفية في غرفتها

تجلس تسند ساعديها على حافتها ومتكئة بذقنها عليهما تراقب أشجار

الحديقة التي بدأ يظهر عليها اكتئاب بداية الخريف رغم أنها لم تفقد

لونها الأخضر البراق بعد لكن الحزن كان باديا على ملامح كل وريقة

فيها وكأنها تودع خضرتها مبكرا ، تنهدت بحزن عكسه تفكيرها في

تلك الأشجار ثم عدت بأصابعها وعبست بأسى مفكرة (أيعقل

(!! أني هنا منذ بداية الصيف

دست وجهها في ذراعيها وأغمضت عينيها برفق تخفي الدمعة التي سقطت من بين تلك الرموش ليرتشفها قماش فستانها بعطش ، لكم تشتاق لعائلتها ... لوالدها الذي رباها لإخوتها ولعمتها ، لعائلة والدتها جميعهم وخصوصا صديقتها جليلة ، لم تتخيل يوما أن تفصلها المسافات والحدود عنهم ، كم تتوق لسماع ولو أصواتهم ورؤيتهم وإن من بعيد رفعت رأسها ومسحت عينيها وسندت ذقنها بيدها ناصبه لمرفقها على ساعدها الآخر وسافرت بنظرها للسماء الزرقاء التي عكر صفائها بعض السحب البيضاء المتفرقة وتنهدت تخرج كل ذاك الهواء من رئتيها وكأنها تعصرهما عصرا ، كم تشعر بالممل أيضا في هذا المنزل ، سئمت من الوحدة ومن استقبال النساء والاستماع لهن فقط دون حلول ولا نتائج ، بل وحتى من زيارة غرفة ذاك الغائب منذ أكثر من أسبوعين فهي مضطرة لتنظيفها وإن بمسح الغبار عن خشب أثاثها فتجد نفسها في كل مرة منغمسة أكثر في تفاصيله ... حاجياته البسيطة ملابسه وأحذيته وحتى الخزانة الزجاجية المغلقة التي يرتب

فيها أنواعا مختلفة من الأسلحة ، عضت طرف شفتها بقهر وهي تتذكر

ذاك اليوم الذي غادر فيه حين استخدمت سلاح النساء الضعيف دائما

لكنه المفضل وهوا السخرية من طريقة الرجل في إسداء الأوامر على

من حوله وفرت هاربة منه للمنزل وراقبته من بعيد كي تتجنب الصعود

لغرفته إن رأته قادما كي لا يمسكها هناك وينتقم من سخريتها منه لكنه

توجه يسارا في تلك الحديقة ولم يقترب من المنزل بتاتا وخدعها بدخوله

من باب المطبخ الذي علمت من حبيبة سابقا أنه لا يستخدمه أبدا ولا

يدخل منه طبعا لأن أي مسلك يؤدي لهن يعتبره وباء لا يقترب منه

لذلك اطمأنت وضنت أنه توجه لمكان ما في تلك الحديقة الضخمة

المحيطة بكامل المنزل تحوي أماكن لا تعرفها ، ولم تتخيل أنه صعد

بعدها بقليل ولم تشعر ولا بخطواته وهوا يدخل الغرفة وهي مختفية

عنه خلف باب الخزانة التي كانت تخرج منها ثيابه تمتمت بسخرية محدثة

نفسها وغافلة تماما عن أنه يستمع لكل حرف من كلماتها وهي تنتقده

ساخرة " لا أعلم ما يفعل بهذه الثياب جميعها ! ولما سيأخذ غير البذل

العسكرية ؟ هه لابد وأنه يستعرض بها أمام النساء ، هذا إن لم يكن

" نصف جيشه منهن

ولم تعي للواقف وراء ذالك الباب المفتوح يسند يده على باب الخزانة

المجاورة لها حتى أغلقت الباب وفي يدها كومة ثياب لتشهق بقوة ما

أن رأته واقفا هناك ينظر لها بملامح رسمها بحرفية لتكون جادة جامدة

يخفي بها ابتسامته من طريقة تفكيرها به ، ودون أدنى تفكير أو انتظار

رمت الثياب وفرت هاربة رغم أنها تعي جيدا أن محاولتها تلك فاشلة

ولا أمل فيها ، ووجدت نفسها في قبضته بل خصرها النحيل في قبضة

ذراعيه القويتان مرتفعة عن الأرض وظهرها ملتصق بصدره وقد

" صرخت بخوف " مطر أنزلني أو قسما ملئت المنزل بصراخي

رماها على السرير دون اكتراث لتهديدها وما أن حاولت النهوض

من عليه حتى وجدت وجهها مقابلا لوجهه وقد أحكم قبضتيه على

ذراعيها منحن فوقها وكأن ليلة البارحة تعيد نفسها من جديد فقالت

بنفس منقطع تحاول التحرك وإفلات ذراعيها " أنت من بدأ

" بالسخرية مني لا تنسى ذالك

قال بكلمات متأنية زادت من فتنة ذالك الصوت الأبح ناظرا

" لعينيها بمكر " لذلك عليك أن تعاقبي كي لا تعيديها مجددا

أغمضت عينيها بقوة وكأنها تتوقع ما يرمي له وقالت

تجاهد ارتجافها " أعتقد أنه من يعتذر عن شيء يفترض

" بأن لا يكرره كتوثيق لاعتذاره ذاك

اتسعت ابتسامته وهمس وهوا يضغط على ذراعيها أكثر " ليس

مع واحدة مثلك ، يبدوا أنه عليا أن أحذر ممن رباهم شراع

" ! إن كانت الفتاة هكذا ودخلت الحدود وحدها فكيف بالرجال

فتحت عينيها فجأة ليسرق نظره ذاك اللمعان الزجاجي الذي ظهر

فيهما مجددا وقالت بلمحة حزن " لا تدخل والدي في أي

" حديث بيننا رجاءا وأبعده عن كل هذا

غاب نظره في تلك العينين الفاتنة اللامعة فها هوا يرى لحظات ضعف

تلك الأحداق التي لا ترسل إلا القوة والفتنة ، وطبعا لأن الأمر وصل

لوالدها الذي رباها ويعلم بأنها على استعداد لفعل أي شيء من أجله

ونسف كل شيء إن وصل الأمر لشراع صنوان ، تركت يداه ذراعيها

وأمسك بهما وجهها وأنزل وجهه مقربا له لوجهها حتى بات لا يفصله

عنه سوا القليل وأنفاسها المتوترة تلفح بشرة وجهه وهمس مركزا نظره

على عينيها " قد أغيب لوقت لذلك أريدك أن تفكري مجددا وجيدا

في قرارك المجنون ذاك وتطلبي مهرا كغيرك ما أن أرجع "

تحولت ملامحها للضيق وقالت بجمود وإن ظاهريا فقط

" .... أنــ "

وقطع كلماتها تلك بقبلة مباغتة لشفتيها لم تستطع صده عن فعلها

رغم رفعها ليديها وإمساك كمي قميصه القصير بهما ، ولا منع

أصابعه التي كانت تتحرك على جانبي وجهها وعنقها بكل أريحية

وكأنه يرسم حدوده وينسخها في دماغه حتى ابتعد من نفسه تاركا

تلك الشفاه ترتجف ارتجافا خفيفا ويداها لازالتا تمسكان كمي قميصه

بقبضتين قويتان وقد قال مميلا ابتسامة ساخرة " قلت لا حديث حتى

أرجع وتفكري جيدا ، ولاحظي فقط أني لم أحارب مجددا لتغيير

رأيك بالقوة "

لم تستطع قول شيء لأنها تعلم النتيجة جيدا ، انفكت قبضتاها عن

قميصه حين استوى واقفا مبتعدا عنها وقال وهوا يتوجه لحمام الغرفة

" ولن أعتذر عن هذه طبعا لأنك السبب فيها "

ودخل مغلقا الباب خلفه تاركا المرمية على سريره تقذفه بكل ما

. جاء على لسانها بهمس لم يصله ولن يصله وهي تعي ذلك جيدا

أغمضت عينيها وأخذت نفسا قويا وهي تعود من أفكارها تلك فها قد

مر عشرون يوما على غيابه عن المنزل ولم تقرر شيئا ولن تفعلها

رغم خوفها من تهديده الصريح بالضغط عليها مجددا لتغير قرارها

فهي ليست على استعداد لخوض تجربة أخرى كتلك التي أمام عمته

وشقيقته ولا تستبعد أن تكون القادمة أقوى وأمام عمه ، وقفت وجمعت

شعرها وأمسكته بمشبك وإن كانت تفشل في جمعه به جيدا كما كانت

تفعل لها عمتها بسبب كثافته وطوله ، خرجت من الغرفة بحثا عن

زوجها فهي وإن كانا خاضا جميع أنواع الأحاديث تعدها مصدر عمة

الوحيد تسليتها

بعد بحث طويل عنها أخبرتها حفصة أنها في الحديقة كعادتها

وجوزاء أغلب الأيام في وقت مغيب الشمس فقررت هذه المرة الخروج

لهما فهي رغم تجنب كل واحدة منهما للأخرى لا تنكر رغبتها في

فتح مجال للحديث الودي بينهما عل تلك الفجوة تتقلص ولو محاولة

أنها لا تؤذيها بلسانها إلا أنها تكره الجفاء الكبير قليلا فهي رغم

والله وحده يعلم كم ستعيشان معا بينهما وهي شقيقة زوجها

ما قصة أبنائها وأين هم ؟ ، فكرت وهي تخرج من باب المنزل (ترى

فعمتها لم تتطرق للحديث عنهم بعد تلك المرة وأنا

لا أريد التدخل والتطفل وسؤالها فقد يكونوا متوفين وإلا ما ابتعدوا عنها

أو أن زوجها طلقها وأخذهما منها) وصلت للطاولة القابعة تحت تجمع

الأشجار الخضراء المتشابكة بشكل رائع وهي لا تنكر ذكاء من جهز هذا

المكان واختاره لوفرة الظل فيه وقربه من أحواض نباتات النعناع والحبق

العطرية ، ما أن وصلت عندهما حتى قالت مبتسمة وهي تسحب

" الكرسي الثالث حول الطاولة الرخامية الثقيلة " مساء الخير

فرفعت نصيرة وجهها لها مبتسمة وقالت " مساء النور ، اجلسي

" لتشربي القهوة فهي ما تزال ساخنة

جلست تراقب بحزن وخيبة أمل التي وقفت مغادرة دون أن تتحدث

بشيء فتنهدت بيأس ثم نظرت للجالسة أمامها وقالت تحاول خلق

ابتسامة صغيرة " المكان هنا رائع ، عيبه الوحيد أنه في ممر

" باب المنزل وكل داخل لكم سيطل عليه

ضحكت نصيرة وقالت وهي تسكب لها القهوة " بل ميزته أنه

" برج مراقبة لا يفوت الجالس فيه شيء

شاركتها الضحك وهي تأخذ فنجان القهوة منها وقالت بعدما رشفت

منه رشفة صغيرة ووضعته على الطاولة تحتها " يبدوا أن عمي

" صقر لم يرجع حتى الآن ، هل ثمة مكروه أصاب بلدة ما ؟

هزت نصيرة رأسها بلا وقالت " تحركه هذه الفترة ضروري

" بسبب ما يحدث خلال هذه الأيام ومطر يعتمد عليه كثيرا

نظرت لها لبرهة وقد علا التردد ملامحها قبل أن يخرج صوتها

حذرا وكأنها تجبر الأحرف على الخروج " وما هذا الذي يحدث

مع مطر ؟ "

لطالما كانت تتجنب السؤال أو الحديث عنه ولا تهتم لأخبار قتاله

ورجاله وحدوده ولا تعلم ما أفلت ذاك السؤال وتلك الكلمات من

شفتيها المرتبكة وتمنت أنها بلعت الحروف قبل أن تخرج وما

وجدت نفسها تواجه سؤالا قاسيا وجهه لها عقلها (هل سؤالك

شوقا له أم افتقاد ! لأنه لن يكون فضولا أبدا)

هزت رأسها هزة خفيفة تمنع تلك الأفكار من التسرب له على

نظرات تلك المبتسمة تراقب تغير ملامح الجالسة أمامها وقد هربت

بنظرها عنها وشردت به بعيدا وتلك الحمرة التي تطفو على وجنتيها

الناعمتين تفضح مكنون أفكارها ، فتجنبت إحراجها أكثر وقالت مبتسمة

" لو أنك لا تكرهين سماع المذياع لعلمتِ فهو طوال الأيام الماضية كان

يؤمن ممرات للناس في الهازان للعودة أو اللجوء للمدن التي أخذها

من ابن راكان ، وتسيير الأمور هناك لن يكون بالأمر السهل "

رفعت نظرها المصدوم لها وأبعدت بضع خصلات طارت من غرتها

" !! على عينيها وقالت " يؤمن دخول الناس من الهازان

هزت تلك رأسها بنعم وقالت بابتسامة واسعة " وكثر دخلوا المناطق

من قبل زيارته السابقة لحوران هنا وهم في تزايد حسب الأخبار

ومطر ورجاله يسيّرون الأمور هناك من أجلهم وعملهم يبلي

" حسنا حتى الآن

لم تستوعب بعد ما سمعته ولم تصدقه فلم يخطر على بالها أن

يفكر هكذا وأن ينجح فيه حتى إن أقدم عليه !! قالت دون

" !!تفكير " وحقا تركوا الهازان ودخلوا هناك ؟

خرجت ضحكة طويلة من الجالسة أمامها وقالت وهي تضع فنجانها

في الصينية " بل خرجوا من مناطقهم لمناطقهم ومطر ورجاله يعاملوهم

كما يعاملون الناس في الحالك ، وبأذني سمعت لقاءات كثيرة أجريت مع

البعض ممن انتقلوا هناك وما فهمته من صقر أن مطر كان ينتظر أمراً

مهما هذه الأيام جعله مرابطا هناك مع رجاله ، والناس في وضع

" استعداد لحرب جديدة وشيكة

وقفت دون شعور منها وقالت بصوت مخنوق وعينان تبرق بوهج

الدموع الحبيسة " حرب من جديد ؟ هل سيغير على الهازان

" مجددا أم هم من سيهاجمون ؟

أجابت تلك بتوجس من ملامح الواقفة فوقها " لما تسميها

" بأنها إغارة ؟

قبضت قبضتيها بقوة وقالت بعبرة مكتومة " وبما

" !! أسميها إذا ؟ فتوحات

تنهدت الجالسة أمامها بعجز وقالت بهدوء " هذا كان سيحدث

يا غسق إن الآن أو في المستقبل وإن منا نحن أو من غيرنا

" والهازان تحتاج بالفعل لتنقية ممن يفسدونها وغيرها

صاحت باعتراض وقد سقطت أولى دمعاتها التي تمردت عليها

ليس هكذا عمتي ليس بهذه الطريقة ، ألا حلول أقل دموية وأكثر "

" سلما ؟ لما يشوه ابن شقيقك أفعاله الحسنة بأخرى تنسفها

" !! قالت نصيرة باستغراب " غسق

لكنها لم تتوقف بل مسحت خدها وأنفها بظهر يدها بقوة وقالت بغيظ

وحقد " وماذا بعدها ؟ صنوان طبعا ؟ فهل ستبررون بأنه هناك

" أيضا عليكم تخليصهم من شراع ورجاله المقربين

لم تعلق تلك فخرجت عبرتها بشهقة وقالت مغادرة من هناك

هل تزوجني لأرى ذلك يحدث أمامي ؟ هل لأجل هذا "

" اختار ابنة صنوان عن نساء الحالك ؟

وابتعدت بخطوات غاضبة فهزت نصيرة رأسها بأسى وحزن

وتمتمت محركة عجلات كرسيها " ولا أنا أفهم سبب زواجه

" بك وهوا لم يفكر في ذاك اليوم أبدا كما يبدوا

*

*

أمسك كتف الواقف جانبه بقوة وهوا يقبض على الأوراق مبتسما

" بنصر وقال تميم بابتسامة واسعة " وصلت أخيرا

أخذ بِشر الأوراق من يد مطر وقال وهوا يقلبها " أشعر بأني إن

بقيت أقرأها حتى يوم غد لن أصدق عيناي ، ثلاث مناطق ترسل

" !! خطابا بالتسليم السلمي والتأييد الكامل ما أن نصل لها

قال مطر بذهن شارد " وعلينا التحرك سريعا فهم وحسب كلامهم

محاصرون تماما وممنوع عنهم كل شيء ولا تفصلنا عنهم

" سوا منطقتين شمالا

" قال حيدر ناظرا لمطر " ألا تخشى أن يكون فخا منهم ؟

هز رأسه بلا وقال " لم أقرر الحراك إلا وأنا متيقن من صحة الأمر

وكنت أنتظره ومستعد للبقاء حتى الشتاء منتظرا له ، هذه خطوة

" مهمة في حربنا لهم يا رجال وعلينا استغلالها

ثم توجه للباب خارجا بخطوات واسعة ببذلته العسكرية وهم خلفه

وقال وهوا يتوجه للمبنى الآخر " أطلبوا لي باقي القادة فورا سنجتمع

لوقت قد يطول فثمة أفكار كثيرة سأشرحها لكم قبل أن نحققها

" على أرض الواقع

تفرق اثنان عنهم وتبعهما ثلاثة آخرين لتنفيذ الأوامر بينما دخل هو

ومن تبقي منهم لغرفة معينة في ذاك المقر الواسع والتي كانت تحوي

على تلك الخارطة الكبيرة المشتملة لكل تفصيل دقيق في تلك البلاد موضحا في خطوطها وتقاسيمها ، ومن تلك الغرفة وذاك المكان بدأت أولى خطواتهم بعدما أعطى كافة أوامره بتجهيز الفصائل والمعدات للقتال ، وهبت الحالك لمساندة أبنائها وجيوشها ككل مرة تقدم الأرواح والأرزاق آملين في الغد الموعود الذي يرونه أكثر إشراقا وزهوا ولا يريدون لأي شيء أن يؤخره أو يوقفه ، ومن هناك دخل ذاك الليل حاملا معه أحداث جدية تصرخ معبرة عن نفسها ، أسوارا جديدة تدك وأرواح جديدة تفارق الحياة ودماء تسفك من أجل قضية كم تمنى الجميع أن تنتهي بسلام أبدي وليس بدماء لن تتوقف وستراق للأبد.

*

*

جلست متأففة ثم نزلت من السرير وليس لأنها دخلته مبكرا من بعد صلاة العشاء جافاها النوم بل لأن ثمة أمر يشغل بالها ولن ترتاح قبل أن تزيل همه من على كاهلها ولن تنتظر حتى الصباح كما كانت قد

قررت ، خرجت من الغرفة ومشت وسط ممرات المنزل الشبه خالي

من كثرة السكون فيه ، بفستانها القصير الواسع بزهراته الصغيرة

المنتشرة على طوله وشعرها الحريري الطويل يغطي كتفيها

. وذراعيها كطفلة هربت من غرفة نومها

وصلت باب الغرفة التي قصدتها تحديدا وطرقته طرقات خفيفة

لتتأكد من أن الموجودة خلفه لازالت مستيقظة ، وتأكد لها ذلك حين

وصلها صوتها آذنة لها بالدخول ففتحت الباب ببطء ودفعته للداخل

فانفتح كاشفا عن الجالسة على سريرها والمصحف في يدها ومظهرا

الواقفة عند إطاره وقد اتكأت على حافته بيدها وأرخت خدها وجانب

وجهها عليه ناظرة للجالسة هناك بحزن وقالت بنبرة رقيقة بائسة

" وحزينة " عمتي أنا آسفة ، هلا سامحتني ؟

ابتسمت لها تلك من فورها وقالت " هل تتبعين هذه الطريقة مع كل

من تريدين الاعتذار منه ؟ أجزم أنه هكذا لن يغضب منك أحد

" ولن يستطيع إلا مسامحتك

كررت غسق وقد أبعدت وجهها عن يدها " ما كان عليا قول

" ما قلته ، اعذريني عمتي أنا آسفة حقا

وضعت تلك المصحف جانبا بعدما أغلقته وقالت " تعالي يا

" غسق ادخلي وأغلقي الباب خلفك

" قالت ولم تتحرك من مكانها " لن أدخل حتى تسامحيني

ابتسمت لها نصيرة بحب وقالت " لم أغضب منك يا غسق

" لأسامحك فأدخلي

أطاعتها من فورها ودخلت وأغلقت الباب خلفها وتوجهت نحوها

وقبلت رأسها قائلة " أستحق قطع لساني فاعذري ما بقلبي

" لأنه لا يشعر به أحد

" نظرت لها فوقها وقالت بتفهم " أفهمك يا غسق وأعذرك فاجلسي هيا

جلست على الكرسي القريب جدا من سريرها فقالت نصيرة من فورها

اسمعيني للنهاية يا غسق واحتفظي بما سأقوله لك واعملي به يا "

ابنتي كي لا تندمي مجددا كما اليوم وقد يكون الأوان حينها قد

" فات على الندم ولن يجدي شيء ولا الاعتذار

نظرت لها باستغراب تمسح بأطراف أنامل يدها اليمنى على ذراعها الأيسر وتابعت تلك بجدية " لا مقارنة بين الهازان وصنوان يا غسق ولا بين ابن راكان ووالدك شراع فشراع لا يستطيع أحد قول شيء سيء عنه ولا وسط الحالك تأكدي من ذلك ومطر نفسه قد صرح مرة بإعجابه بعقل والدك وحسن تدبيره للأمور وترويه وتفكيره فيما فيه صالح قبائله فلا تستعجلي الحكم على أي شيء قبل أوانه ، لا تنهاري وتخرجي غضبك في وجه أي أحد وأولهم زوجك بسبب أمر قد يحتاج لوقت طويل ليحدث ، اصبري حتى يحدث ذلك ثم أبدي رأيك فيه فقد لا يحدث أبدا فلا تخلقي فجوات أكبر بينك وبين مطر فهوا متريث وحكيم في كل شيء إلا الحرب ولا يحب أن ينتقده أو يناقشه فيها أحد أو يتهمه بشيء خاصة إن لم يكن قد قرر أو فكر في فعله ولا مجرد التفكير "

سكتت قليلا فعلمت الجالسة أمامها أن حديثها انتهى فهمست بحزن

" لكنه صرح في خطابه أنه من أرادها سلما أو كانت الحرب "

تنهدت تلك بحيرة وقالت " وإن يكن فالمستقبل سيحكم وحديث صقر

كان عن أن مطر لم يذكر يوما أفكاره حول صنوان فلا تسبقي

" الأحداث يا ابنتي وحاذري من مناقشة الأمر معه

غابت غسق بنظرها للأرض وشعرت بأن ذلك مستحيل ، كيف تنسى

الأمر الذي يشغلها طوال الوقت ؟ كيف تنسى كوابيسها كل ليلة بأنهم

قتلوا والدها وأخوتها وقبائلهم هناك وكل من عرفته ؟ كيف تتجاهل أن

يكون زوجها ومن قد يكون والد أبنائها هوا قاتلهم وعليها أن تصمت

وتصبر وكأن الأمر لم يكن !! وقفت دون أن تعلق بشيء فقالت نصيرة

ناظرة لها وبرجاء " فكري جيدا في كلامي يا غسق ولا تدمري

حياتك قبل قبائل أهلك التي قد لا يحدث لها شيء وتخرجي

" أنتي وحدك الخاسرة

لا تعلم لما شعرت حينها بقلبها يعتصر بقوة من تفكيرها فيما

" قالت فهزت رأسها هامسة " سأحاول

وخرجت من هناك بهم جديد جاثم على قلبها وعادت لغرفتها

واندست تحت اللحاف تفكر في كل ما قالته لها متسائلة (ترى

أألخسر أنا وتكسب صنوان ؟ هل يضعني مطر في خيار بينه

وبينهم قبل أن أضعه أنا في الخيار بينهم وبيني ؟؟ أم كما

(!! قالت عمته قد لا يحدث من ذلك أي شيء

وعلى تلك الأفكار غلبها النعاس ونامت

*

*

فتح باب الغرفة بقوة ودون طرق وتوجه من فوره للمذياع المغلق

على النظرات المستغربة للجالس على السرير يمسك كتابا في يده

شغّل رعد المذياع فورا قائلا بصوت مرتبك لاهث " انفجرت

" حدود الهازان من جديد يا كاسر

رمى الكاسر الكتاب من يده وقفز خارج السرير وتوجه جهة المذياع

حيث الجاثي على ركبتيه أمامه وعلقت نظراتهما ببعض ، نظرات

مصدومة من الكاسر تقابلها تلك الضائعة من رعد وهما يستمعان

للنقل المباشر من أرض المعركة حيث صوت القذائف المدوي

وصراخ الرجال بالتكبير والحماس ، همس الكاسر بصوت

" مصدوم " شنوا هجومهم على ماذا تحديدا ؟

خرجت الكلمات من حنجرة رعد جوفاء جافة قائلا بخفوت

من ريسوان ومنها لثَرْوان ثم لمدن قبائل جيروان الثلاثة وهم "

في انتظارهم وقد صرحوا بولائهم التام والتسليم لابن شاهين

" ولا تستغرب أن يقوموا بالتفاف عليهم مساندين له في حربه

هز الكاسر رأسه بلا وهمس مرعيا سمعه للمذياع " مستحيل أنت

تعرف سياسة ابن شاهين جيدا ، هو لا يقحم أحدا في حرب ضد

" قبائله مهما كانت الظروف

ثم جلس على طرف السرير ودوي تلك الأصوات بدأ يخف مدموجا

مع صوت أحد المحللين العسكريين موصولا بالقناة عن طريق الأقمار

الاصطناعية قائلا بصوت جهوري واثق مما يدلي به " الحرب حرب

قوة والتكتيك الحربي لابن شاهين ورجاله أصبح أمرا مسلما به فمن

كان سيتخيل طريقة التفافه على جنود ابن راكان وهم ينتظرون

أن يهاجم من بلدة الريسوان ، هذا إن بقي لابن راكان ما يسمى

بجنود بعد تخلي الكثيرين عنه ومن لم يقف ضده أصبح يقف

" في حياد

قاطعه المذيع قائلا " لكن ثمة أخبار عن استعانة الهازان بقوات

" خارجية ولا تنسى أنه مثلما لابن شاهين مناصرين فله أعداء أيضا

قال ذاك من فوره " وعود كاذبة وسترى ذلك بأم عينك ، والحقائق ها

هي أمام الجميع من التواجد الصحفي الضخم في جبهات القتال في قطر

ابن شاهين ، وابن راكان لن يحصل على أكثر من دعم لوجيستي

ضعيف قد يضره أكثر مما ينفعه ، والمدن الخمس ستكون في حوزة

" مطر شاهين خلال ساعات وهي مسألة وقت ليس إلا

مررا الكاسر أصابعه في شعره دافنا رأسه بين يديه وهمس من

" بين أسنانه " أين يريد أن يصل ذاك الرجل بالتحديد ؟

وقف رعد على طوله بعدما أخفض صوت المذياع وقال ناظرا للجالس

أمامه " أهالي منطقتي ريسوان وثروان فروا من الممر الآمن لريهوة

وصولا للحويصاء ثم لمدن جبال أرياح ليكونوا تحت حمى ذاك الرجل

فتخيل كيف يلجئون لعدو يشن حربا على مدنهم ويتركون زعيمهم

وقبائلهم !! "

رفع الكاسر رأسه وقال مكرها على الاعتراف " فروا لمن وعدهم

بالأمان وحققه لغيرهم أمام أعينهم أم تريدهم أن يفروا لحمى ابن

راكان بعد فعلته في خماصة ليضحي بهم من أجل حربه ؟ وزد عليه

يقينهم من أن ابن شاهين سيسلمهم مناطقهم ومنازلهم ما أن يؤمنها

أي أنهم الكاسبون في صفه الخاسرين المشردين في صف

ابن راكان فما ستتوقع منهم ؟ "

ثم وقف وقال متوجها للخزانة ليخرج ثيابه " على أحدنا أن يكون

مع والدي سألحق أنا به وأنت اتصل برماح لينتقل جهة حدود

الهازان والحق به أيضا "

*

*

ومن تلك الليلة السوداء الغائمة المنذرة بدنو فصل الشتاء منذ بداية

أيام ذاك الخريف اشتعلت الحرب محرقة كل شيء أمامها ، ورغم

أن الكفتان كانتا غير متساويتان ولا متكافئتان لكن الدماء كانت كثيرة

الصراخ والبكاء والنحيب ، حتى من فروا منها فروا وجلين خائفين

اختلط صوت بكاء بعض نسائهم ببكاء الأطفال المذعورين وبعضهن

صرخن بعويل (أوقفوا الدماء والنار) فالحرب تشبه الحب تماما

تدخلها الناس طوعا أغلب الأحيان ثم يصرخوا رافضين لها

طالبين الغوث منها .

مر يومان تقدمت فيهما جيوش الحالك ببطء متعمد سامحين لمن

لم يوفقه الحظ للهروب بأن ينجوا بنفسه ، وكي لا تتكرر مذبحة

خماصة درسوا تحركهم هذه المرة دراسة شاملة وقد ساعدهم من

خرج من هناك لاجئ لهم بمعلومات مهمة عن مدنهم أفادتهم كثيرا

فلا أحد يعرف القرى كساكنيها خاصة في بلاد قسمت لأقطار من

أجيال بعيدة لا أحد زار قطر غيره ولا يعرف عنه سوا ما رسم

على تلك الخرائط التي صنعتها أساسا أيادي الغرب ، وخلال يومان

آخران سقطت ريسوان لتلحقها ثروان ووصلت جيوشهم لمدن قبائل

جيروان الثلاثة ولم يدخلوها بأوامر من قائدهم الأعلى بل وقفوا على

تخومها كي لا يرعبوا أهلها الذين سلموهم مدنهم وأنفسهم ، طوقوها

لحمايتها من الخارج فكما توقع حاولت جيوش الهازان شن هجومها

عليها وهي التي لم تفعلها طوال حصارهم لها لكن بعد وقوعها في

قبضة ابن شاهين استباحوها أيضا ومن فيها ، لكن هجومهم ذاك لم

يفلح في شيء ولا في إرعاب الناس كي لا يسلم له غيرهم كما كانوا

يخططون ولم تسقط ولا قذيفة في أراضيهم ، ضمن لهم مطر سلامتهم

وسلموا هم سلاحهم وعتادهم الخفيف الذي اشتروه من مالهم لحماية

أنفسهم حال قرر ابن راكان الانتقام منهم وقت قرروا السلم والتسليم

ولولا المراقبة الدولية التي خنقته لكان فعلها دون تراجع فهم في

حسبة الخونة لديه والخائن عقابه الموت كما عرف عنه سابقا

*

*

وضعت صينية الطعام أمامه وجلست مقابلة له وقالت بهدوء

أين أنتم يا شراع ؟ يومين لا تفكرون ولا في الاتصال لأطمئن "

" عليكم ، قلبي كان يشتعل ولم أجد حلا لأعلم

رفع الملعقة لفمه قائلا " كنت عند حدودنا مع الهازان وفوجئت

" برعد والكاسر وحتى رماح لحقوا بي

ثم تابع وهوا يمضغ الأرز " هناك كانت الأوضاع تحتاج

" وجودي وكان رأيهم سليما في اللحاق بي

شعرت بنبضات قلبها تتوتر بخوف خاصة مع وجوم الجالس

" أمامها وقالت بتوجس " هل ساءت الأمور جهتنا هكذا ؟

شرب دفعة كبيرة من العصير ووضع الكوب قائلا " حدودنا مع

الهازان هشة جدا هذه الفترة فالهازان تتحطم من الداخل شيئا فشيئا

خاصة بعد دخول بعضهم لحمى ابن شاهين وتسليم قبائل جيروان

له ، ثمة أشخاص دخلوا لحدودنا طالبين العون يريدون أن يعبروا

للحالك وثمة أسر وأطفال فالأخبار داخل الهازان لا تسر أبدا

وبعضهم تحدث عن أن ابن راكان قام بإجبار بعض الرجال

للقتال وبعضهم هددوه بعائلته ، والناس جزعة من

الحقيقة ومن غيرها "

هزت رأسها بحيرة وقالت بضياع " ولما لم يدخلوا الحالك

وجاءوا هنا ؟ أليس أمرا غريبا !! "

مسح يديه بالمنديل حامدا الله بهمس وقال " البعض قد لا يتوفر له معبر

غيرنا ، سنحاول احتواء العائلات ومن أراد الذهاب للحالك ذاك خياره

سنوصله للحدود ويدخلونه هناك فابن شاهين يملك مناطقهم ومنازلهم

وأراضيهم ما سيفعلون لدينا هنا ونحن نستعين بمنازل بعض العائلات

الصغيرة لتضمهم لها أو مخيمات مؤقتة لا توفر أي عناية للأطفال

وكبار السن ، إن استمر ابن شاهين في زحفه على الهازان

سيستمر توافد العائلات علينا والحدود تحتاج

لتكثيف جهود منا "

نظرت له وهو يقف وقالت " هل وافق أهالي صنوان على كل هذا ؟

" هل يرضوا بأن يكونوا ممرا لابن شاهين لينفذ باقي مخططه

قال وهوا ينزع سترته الخريفية الخفيفة " رغما عنهم فلن أترك

العائلات تشرد على الحدود أو أرفض إدخالها ، فإما أن يوافقوا

هذا أو سأترك لهم الزعامة برمتها فأولئك الناس أبناء وطننا من

دمنا ولحمنا مهما حدث بيننا في الماضي ، ولن يلجأ لنا إلا

" من لم يكن له أي ضلع في تلك الحرب

وقفت أيضا وقالت " وغسق يا شراع ؟ أنت لم توضح لي معنى

ما قلته يومها وتركت الأفكار تنهشني ، كيف علمت أنه يعلم

" !عنها وكيف يصمت هكذا إن كان يعلم فعلا ؟

" فك أزرار قميصه قائلا بعبوس واجم " علمت منه هوا نفسه

انفتحت عيناها بصدمة عجزت عن التحكم بها وشهقتها تخرج

مرافقة لها وهي تضع كفها على فمها وتابع شراع متوجها

للخزانة يخرج ثيابه منها " أما لما سكت عن ذلك كل هذه

" السنوات فهذا ما لا أملك ولا أنا جوابا عنه

خرجت الكلمات منها جوفاء وكأن ثمة صاعقة ضربت

" أحرفها " ألم يخبرك شيئا ؟

هز رأسه بلا موليا ظهره لها واقفا أما باب الخزانة المفتوح وقال

كان اتصالا هاتفيا مختصرا كل ما قاله (أحفظ سر ابنة عمي "

وعزيزة إن لم تكن تضمن صمتها فأعدها لي وأنا أضمن لها حياتها

ولن يمسها أحد ولا أنا) ثم ختم محادثته بـ (وداعا) وأنهى الاتصال

دون أن يترك لي مجالا حتى لأفكر أن أسأل وما كان هناك شيء لأسأل

عنه فكل شيء واضح ، هو استغل دخولها وحدث كل شيء بعده كما

يخطط له ويريد موهما لي بأني أخفي الأمر عنه وأحميها وأحمي

نفسي بالكتمان وإطاعة أوامره وكان غرضه أن تصبح لديه دون

" أي شوشرة أو أن تفتضح حقيقتها

جلست تلك من وهن ساقيها اللتان لم تعودا تقويان على حملها

وقالت بصدمة " أتعني أنه هوا نفسه لا يريد أن يعلم أحد أنها

" ابنة عمه

أغلق باب الخزانة وقال متوجها جهة حمام الغرفة " أجل ويبدوا

" أن ثمة حقائق لم تخبر عنها والدتها وكتمتها عن الجميع

*

*

شعرت بقماش الوسادة يعيدها من خلف أحلامها وعالمها الغيبي

وشعرت بذاك الانفصال ما بين الوعي وألا وعي حين يبدأ جسدها

باستقبال إشارات دماغها للاستيقاظ فحركت كفها على اللحاف فوق

جسدها لتسحبه لشعور غريب تسلل لعظامها بسبب البرد الذي

لا تعرف من أين أتى وهي في غرفة مغلقة الباب والنوافذ

!! وهم في استقبال بداية الخريف

قفزت جالسة فجأة حين شعرت بثقل ما تحرك على السرير خلفها

ولم تصدق نفسها وهي ترى الجسد الممدد بجانبها ببذلته العسكرية

وبجوارب دون حذاء ، عيناه مغمضتان يضع إحدى يديه على صدره

وتنفسه لم يبدوا لها منتظما ، مررت أناملها الرقيقة في غرتها مبعدة

عن وجهها ونظرت جهة النافذة التي كانت مفتوحة على اتساعها لها فورا من فتحها لكنه لم يدخل منها طبعا لأنها تفتح وتغلق من وعلمت الداخل فقط

لذلك سيكون دخل من الباب فمتى عاد ولا أحد يعلم ! أخرجها من تلك وأعاد نظرها له تنفسه الذي خرج قويا وكأنه يحبسه في أفكارها أعوام وأخلى سبيله الآن ، شهقت بقوة ولم تشعر بنفسها إلا صدره من خارج السرير وقد دارت حوله حتى كانت عند رأس النائم وهي تقف للضمادة التي كانت تغطي جسده تظهر من تحت سترته عليه ونظرت المفتوحة

وما أن مدت يدها المرتجفة وأبعدت طرفها ببطء حتى انفتحت عيناها بصدمة وأمسكت فمها تخفي شهقتها وهي ترى الضمادات التي التفت حول كامل ذراعه وكتفه وصدره لتثبيتها وبقعة الدم الكبيرة التي كانت تغطيها وشعرت حينها بساقيها لم تعودا تقويان على حملها وبالأرض تدور تحتها ، مدت يدها المرتجفة لجسده لا تعلم توقظه أم تخرج وتنادي له أحدا ؟ وإن كان حقيقة ما تراه أم أنها نائمة وتحلم

" عودي للنوم يا غسق "

كلماته العميقة المنخفضة تلك جعلتها تجفل للخلف فلم تتوقع أنه كان

مستيقظا !! قالت بشفاه مرتجفة ونظرها على وجهه وهوا ما يزال

" مغمضا عينيه " مطر كتفك ينزف بشدة

خرج صوته المرتخي مجددا وكأنه يحارب للبقاء في وعيه

" نامي قلت لك ولا تفكري فيه "

مسحت عينيها بقوة قبل أن تنزل دموعها بسبب المشهد الذي لم

تراه سابقا فحتى في منزل والدها شراع كانت آخر من يخبروه

إن حدث مكروه لأي شخص منهم ، ركضت جهة باب الغرفة الذي

وجدته مفتوحا وعلمت فورا أنه استخدم مفتاحا آخر لفتحه وخرجت

تركض في الممر حافية القدمين حتى وصلت المطبخ وخرجت سريعا

بحقيبة الإسعافات الأولية التي لا تخلوا منها منازلهم وعادت لغرفتها

لتجد زائر آخر الليل ذاك جالسا هذه المرة قدماه خارج السرير ورأسه

للأسفل مسندا يداه عليه وكأنه ينوي الوقوف فتحركت جهته مسرعة

ورمت الحقيبة على السرير وأمسكت ذراعه قائلة " عليك تغيير

الضمادات وإيقاف نزيف الجرح قبل أن يقضي عليك "

رفع يده ومرر أصابعها في شعره الكث وقال بصوت خدر

" أتعرفين أنتي هذا أم أفعله بنفسي ؟ "

أبعدت شعرها للخلف كي لا يضايقها ووقفت على ركبتيها فوق

السرير وقالت وهي تمسك طرف ياقة سترته لتنزعها منه

" بلى أعرف ذلك وأتقنه "

طاوعها فورا وهي تنزعها عنه برفق حتى أصبح لا يغطي نصف

جسده سوا ذاك الشاش فدارت خلف ظهره تحاول تثبيت نفسها وتنفيذ

ما تعلمته دائما وهي تبحث عن نهاية ذاك الشاش الملفوف لتفتحه حتى

وجدتها بين كتفيه ، وبيدين مرتجفة بدأت بفكه ويكاد يغمى عليها

بسبب رائحة دمائه وقبلها رائحة جسده ووجوده وذاك الوضع الذي

هما فيه تشعر بأنفاسها وهي ترتد عليها بعد اصطدامها ببشرة جسده

القوي ، فكت الشاش عنه وكانت مضطرة في بعض المرات لأن تمرر

يدها أمام صدره وعنقه لتفكه دون أن يتحرك وهوا كان يساعدها بيده

الأخرى وفي صمت تام منهما سوا من أنفاسها القوية المتوترة وأنفاسه

القصيرة المتعبة ، أزالت الشاش وقطع القطن الغارقة في الدماء حتى

كان لا يظهر من بياضها شيء ونظرت بقلب مرتجف للغرز في كتفه

والجرح الذي كان ينزف واللحم يظهر لونه منه ، وضعت عليه قطعة

" كبيرة من القطن وقالت " أمسكها حتى أرجع

ثم نزلت من السرير ما أن تبثها بيده الأخرى وخرجت من الغرفة راكضة

مجددا ودخلت المطبخ تبحث في جميع الأدراج عن التي رأتها هنا سابقا

وكانت تنتقل من واحد للآخر للخزانات حتى وجدتها أخيرا وتوجهت بها

للموقد وأشعلته ثم قربتها منه وما أن اشتعلت تلك الأعواد وضعتها في

صحن حديدي ثم وضعته على الطاولة وتركتها تحترق فيه وتوجهت

للخزانة وأخرجت قنينة الخل وسكبت منها قليلا في إناء وما أن انطفأت

تلك النار مخلفة خلفها رمادا لأعواد ذاك الحصير مزجته مع الخل سريعا

ثم خرجت بالإناء مسرعة وعادت للغرفة لتفاجئ بقطع القطن التي تنتشر

حول قدميه على الأرض حيث كان يرميها الواحدة بعد الأخرى ملطخة

بالدماء فتوجهت نحو الكرسي وسحبته حتى جلست مقابلة له فأبعد يده

ورفعت هي ذاك المزيج بأصابعها المرتجفة وسمت بالله هامسة وبدأت

بوضعه على الجرح ببطء ورفق ولاحظت تغير أنفاسه فهي تعلم أن

الخل السبب لأنه يولد شعورا مؤلما على الجروح وما كانت لتتخيل من

رجل وخصوصا صاحب هذا الجسد القوي الصلب المليء بالعضلات

أن يصرخ بتألم أو حتى أن يخرج منه أنينا بسيطا ، كانت تضع المزيج

وتكرر حتى كان طبقة فوق الجرح فمسحت بظهر كفها على جبينها

وأخرجت زفيرا قويا وقالت ناظرة للجرح في كتفه " سيتوقف

النزيف خلال دقيقتين فقط فلا تحرك كتفك "

امتدت يده الأخرى وأمسكت يدها النظيفة في حركة كانت مفاجأة

ومجفلة لها فنظرت له بصدمة وكان ينظر لأصابعها البيضاء الرقيقة

في يده وقال هامسا وهوا يفركها بأصابعه الطويلة " يدك ترتجف

لقد أفزعتك "

سحبت يدها منه تنقذ المتبقي من مشاعرها المضطربة وقالت وهي

ترفع بها خصلات غرتها التي بدأ بعضها بالالتصاق بجبينها

" هذا فقط لأنها المرة الأولى التي أطبق فيها الأمر عمليا "

" ثم هربت بعينيها ونظرت لكتفه مجددا وقالت " كيف أصبت ؟

" نظر لكتفه أيضا وقال بصوت منخفض " رصاصة وأخرجوها

وقفت وعادت لتنظيف الدماء التي تسربت وأخرجت لفافة شاش

كبيرة وبدأت بلف كتفه به بطريق متقنة تشعر بتلك القشعريرة

الغريبة كلما لامست أصابعها بشرته فقال وهوا يراقب حركتها

" السريعة " من أين تعلمت كل هذا ؟

قالت وهي تلف الشاش حول صدره متجنبة النظر لعينيه

" في المدرسة فهذا منهج أساسي يتعلمه الجميع في صنوان "

" قال ونظره لازال على ملامحها " أحسن شراع في قراره

لم تعلق ولم تنظر لوجهه أبدا حتى ربطت الشاش وأنهت مهمتها

ولازالت تجاهد لتبقى ثابتة رغم أن كل شيء فيها كان يرتجف وبدأ

يخذلها ما أن أنهت لفه له فأمسك ذراعها بيده السليمة رغم جلوسها

جهة يد الكتف المصاب وقال " هيا غسق كنتي شجاعة طوال

" الوقت لا تنهاري الآن

وكانت كلماته تلك كمن أعطاها الضوء الأخضر مصرحا فأخفت عينيها

في كف يدها فورا وانهارت باكية وجسدها قد زاد ارتجافه فمد يده

لوجهها ومسح على يدها وأبعد شعرها ممررا أصابعه فيه وهمس

وتنفسه لازال يخرج متقطعا " يكفي يا غسق .... ما الذي

يبكيك الآن ومنذ قليل كنت ممرضة ناجحة "

قال ذلك وهوا موقن من انهيارها هذا في أي لحظة وإمساكها لنفسها

كان فقط لتنهي عملها بقلب ثابت ولا تتوتر ، وقفت تمسح عينيها في

صمت فوقف أيضا وقال وهوا يرفع قميص بذلته من فوق سريرها

" آسف ما كان عليا إزعاجك وإخافتك "

نظرت له ولوجهه المصفر الشاحب رغم ملامحه الصامدة المحتفظة

بقوتها وقالت " هل قدت السيارة بنفسك إلى هنا ؟ "

قال وهو يرمي السترة على كتفيه دون إدخال يديه في كميها

" نعم "

قالت بضيق وهي تساعده في تغطية جسده بها " لهذا نزف جرحك

هكذا ، أي طبيب غبي هذا الذي تركك تفعلها ؟ "

قال وهوا يدخل يده السليمة في كم السترة " أنا من قرر ذلك

" وليس الطبيب

همست بضيق وهي تفتح زر كم السترة لتساعده في

" إدخال يده " متهور دائما

فخرجت منه ضحكة صغيرة مكتومة ومتعبة وهمس مثلها

" وأنتي جبانة دائما "

نظرت له بحنق وقالت " ما جاء بك للجبانة إذاً ؟ هل

" جئت لتخيفها ؟

رفع يده ومررها خلف رأسها ملامسا لشعرها الحريري وقال ناظرا

لعينيها " بل جئت لأن ثمة دراسة تقول أن الرجل إن دنى من الموت

" في لحظة ما أول من يفكر فيه هو أكثر شخص يحتاجه

زمت شفتيها بحنق وقالت من فورها محاولة تجاهل أصابعه التي

" تتحرك في شعرها كي لا يظهر ارتباكها " أنا لا أحتاجك

ظهرت ابتسامة مائلة على طرف شفتيه القاسية وقال " بلى أنتي فقط

" من يحتاجني وأنتي وحدك من لو مت لن أموت مطمئنا عليها

نظرت له باستغراب من معنى كلامه ومن غموضه الذي لم تفهم

منه شيء ، ولم يترك لها مجالا للتحدث ولا السؤال رغم يقينها

من أنه لن يجيب فقد شدها ناحيته وقبل خدها قبلة صغيرة رقيقة

" وهمس بخفوت " شكرا على كل هذا

ثم غادر من أمامها خارجا من باب الغرفة بخطوات ثابتة رغم بطئها

حتى كان خارجه فانهارت حينها جالسة على السرير وزفرت هواء

" !! حارا من رئتيها متمتمة بعبوس " لو فقط أفهم هذا الرجل

ثم مسحت عينيها سريعا هامسة بضيق " توقفي عن البكاء

" يا حمقاء ما بك ؟

لكن دموعها لم تزدد إلا انهمارا فارتمت على السرير تخفي وجهها

وبكائها فيه فالموقف كان أقوى من تحملها مهما كانت قوية أو أقنعت

نفسها بذلك ، سحبت اللحاف على جسدها وفكرت أن النوم قد يغزوا

جفنيها مجددا لكنها كانت كمن يحارب الريح ويركض خلف السراب

والدقيقة تلحق الأخرى وهي على حالتها تلك تتقلب في سريرها

كالسمكة في المقلاة وكأنه أشواك تحتها فلم تشعر بنفسها إلا وهي

خارج السرير وخارج غرفتها تسلك الممر بخطوات وجلة وصعدت

السلالم ستوافق عقلها فورا إن قال لها (ارجعي) لكنه لم يفعل بل

أقنعها بأنها ستطمئن فقط إن لم يسبب له الجرح أي حمى أو عاد

للنزيف مجددا رغم يقينها من أن رماد أعواد الحصير ومفعول

الخل سيكون لهما تأثير كبير وإن كان يستخدم للجروح السطحية

التي تقطع فيها الشعيرات الدموية فقط لكن بما أن الجرح مخاط

والكمية التي وضعتها لم تكن قليلة فقد ينجح ما تعلمته سابقا وتدربت

عليه ، وصلت باب الغرفة ثم أرعت سمعها جيدا فلم يكن يخرج من

داخلها أي صوت فمدت يدها لمقبض الباب وفتحته ببطء حتى ظهر

لها السرير الواسع والنائم فوقه ببنطلون بذلته العسكرية فقط ينصب

أحد قدميه وإحدى يديه مرمية جانبا والأخرى يريحها فوق صدره

تنفسه يبدوا قويا لكنه ليس متقطعا كالسابق وكانت عيناه مغمضتان

وخمنت أن يكون نائما لكان شعر بها ، اقتربت منه بحذر حتى كانت

عند رأسه ومدت يدها لجبينه متجاهلة ضربات قلبها المجنونة حتى

لامسته أطراف أصابعها وسرعان ما أبعدتها وضمت قبضتها

" لصدرها هامسة " يا إلهي إنه مشتعل

نظرت لذراعه المفرود فور وبحثت فيه على طوله حتى وقع نظرها

على مكانين لوخز حقن فعلمت أن الطبيب الذي خاط له جرحه حقنه

بمسكن للآلام وخافض حرارة لكن الحمى تبدوا تغلبت عليه ، غادرت

الغرفة ونزلت السلالم وسرعان ما عادت تحمل تلك الحقيبة وحمدت الله

أن خافضات الحرارة موجودة لديهم رغم انعدام الحقن المسكنة ، حقنته

بسرعة وخفة بالجرعة الخفيفة التي وجدتها وهوا لا يشعر بشيء حوله

وحمدت الله في سرها أنها تعلمت كل هذا وكم دعت وقتها لوالدها شراع

أنزلت الحقيبة وعادت له وقد أحضرت معها ماء بارد وفوط صغيرة

نظيفة وجلست على الأرض عند سريره وبدأت بوضعها تباعا على

جبينه وذراعه وكتفه السليم وكانت تغيرها كلما تغيرت حرارتها حتى

كادت تنام جالسه على طرف السرير فوقفت كي لا يغلبها النعاس لأن

حرارته بدأت بالانخفاض تدريجيا ، جلست في الجانب الآخر من السرير

واتكأت على ظهره الخشبي تنظر لوجه النائم تحتها واضطربت نبضات

قلبها وهي تنقل نظرها من رموشه الكثيفة لأنفه المستقيم للحيته وشفتيه

وفي حركة مجنونة منها رفعت أصبعها ومررته على طرف لحيته

المشذبة بعناية وكأنها ترسمها به (ما به هذا الرجل مختلف في كل

شيء ! حتى وهو متعب ونائم تشعر بهالة السيطرة حوله وقوته

المتفجرة حتى من أنفاسه)

ثم سرعان ما أعادت يدها لحجرها وعادت من أفكارها وتأملها

وأبعدت نظرها عن وجهه وعضت طرف شفتها وكأنها توبخ نفسها

ثم رفعت الكمدات عنه وأعادت تبريدها بالماء ووضعت واحدة على

جبينه واثنتين على قدميه اللتان يبدوا أنه نزع الجوارب منهما فور

صعوده ، حضنت نفسها بذراعيها وشعرت بأن عظامها بدأت تخونها

ولم تعد تقوى ولا على الجلوس فاتكأت ببطء وحذر بجانبه لترتاح

لوقت قصير قبل أن تغير الكمدات مجددا لكن عقلها غاب سريعا

عما حولها وعيناها سافرتا في سواد قاتم ما أن وضعت رأسها

على الوسادة وكأنها تنتظر تلك اللحظة التي تسترخي فيها

*

*

نزل السلم العريض المغطى بالبساط الأحمر الفاخر وهو ينظر لوالدته وضيفتها زوجة قريب زوجة شقيقها شاهر ذات الشعر الأشقر الذي يكاد يكون أبيضا من قوة صفرته ، من لاحظ فرحة والدته الغامرة بانتقالهم للعيش في لندن من وقت قريب تاركة هذه الأمريكية بلادها هناك ، وسرعان ما ظهرت له الجالسة بجوارها ما أن وصل نهاية السلالم ، الشقراء الصغيرة ببنطلونها الجينز الصغير مثلها وقميص أبيض مزين ببعض القطع الملونة ، أرسل لها نظرة متوعدة مبتسما بمكر فاختبأت من فورها خلف والدتها لا يظهر من وجهها سوا العين التي تراقبه بها وتوجه هو ناحيتهم من فوره حتى وقف خلف الأريكة الجلسة عليها والدته التي نظرت له للخلف وقالت مبتسمة

" وهذا الفتى ابني رواح الذي أخبرتك عنه "

قالت تلك مبتسمة وبعربية متقنة " قولي رجل ، مشاء الله أخذ

" لون شعرك وعينيك

لكز والدته من ظهرها وهمس " تعلمي منها ليست مثلك

" لازلت تعاملينني كطفل

" ضحكت رقية وقالت " بل رجل وها قد وجدنا لك عروسا

ثم تابعت ناظرة للجالسة بجانب والدتها " عليكم تزويجنا

" ابنتكم بما أننا عائلة

وضحكت للكز رواح لها مجددا وضحكت تلك لانكماش ابنتها

خلفها تشد قميص والدتها بقوة فقال رواح بضيق " أمي لو

" تتوقفي عن توزيعي على بنات صديقاتك ؟

" فضحكت رقية وقالت " لا هذه المرة اتفقنا

وضحكت هي وإيمليا التي انحنت لابنتها حين شدت لها كم قميصها

الحريري بقوة وحدثتها تلك في أذنها فقالت ضاحكة " لا تخافي

" لن يتركك أحد هنا وأولهم والدك يا مدللته

نظر لها رواح ببرود وقال مستفزا " ولا أنا أريد عربية ومن

" الحالك أيضا يع ، سأتزوج من بريطانية نحيلة طويلة وشقراء

وغادر على ضحكهما عليه وما أن كان خلف الأريكة التي تجلسان

عليها همس مارا من خلفها وقد انحنى جهتها " عربية شقراء جبانة "

وتابع طريقه حتى وصل أحد الأبواب والتفت جهتهم وكانت تنظر له

من خلف ظهر الأريكة لا يظهر منها سوا عينيها وشعرها الأشقر ويديها

الممسكة بالأريكة فنظر لوالدته وتأكد من انشغالها مع ضيفتها ثم عاد سريعا

بنظره لها وأرسل لها قبلة بشفتيه ليحرجها وينتقم منها لكنها رفعت وجهها

قليلا فوق ظهر الأريكة وأخرجت له لسانها ساخرة فصر على أسنانه

بغيظ يتوعدها بأصابعه وغادر متمتما " من يراها لا يتخيل أنها

بكل هذا الخبث "

*

*

توجه جهة الضحكات الصغيرة المختلطة الخارجة من خلف أشجار

وشجيرات حديقة المنزل الذي يعيش فيه حتى وصل لذاك المصدر

ووقف فوقهما يحجب ضوء الشمس عنهما وقال مزمجرا ويداه

" وسط جسده " ماريه ما الذي تفعلينه هنا ؟

وقفت من فورها ترتعد خوفا من ملامحه وغضبه بينما بقى تيم جالسا

على الأرض مستندا بيديه عليها في وضع السجود حيث كانا يراقبان

ما تحت الألواح الخشبية المصفوفة نهاية تلك الحديقة ، قالت بخوف

وكلمات رقيقة تضم يديها الصغيرتان ببعض عند صدرها

" كنا نراقب السلحفاة من تحت الأخشاب "

خرجت منه ضحكة هازئة خالية من أي مشاعر ونظر جهة تيم

(نظرة فهم ذاك معناها فورا (لماذا يموت ابني الوحيد وتبقى أنت

أمسكها من يدها بقوة وقسوة مزمجرا فيها وقد نفضها كقطعة

ثياب " لا أراك معه في أماكن كهذه بعيدة عن الأنظار أو

" حرمتك من الخروج من المنزل أتفهمين ؟

ولم يكن ردها سوا كلمات متقطعة من بين بكائها لا يفهم منها سوا

كلمة (حاضر) ونقل نظره بعدها للجالس على الأرض وقال بحقد

وأنت ما أن يبدأ الزعيم مطر بزحفه على مدن وقرى صنوان "

ستنظم لجيوشه بما أنك ممنوع من القتال الآن ، فلعلك تفعل

" شيئا ينفع غيرك

وتحرك من هناك يجر معه تلك الطفلة وكأنها دمية لم يرف جفنه

ولا لبكائها الموجع تاركا خلفه تلك العينين التي تنظران له بحقد وكره

لو وزع على أهل الأرض لكفاهم ، وقف ينفض التراب عن يديه

هامسا بحنق " هل هذا ما تريده أن يأخذ فتى في الحادية عشرة

" للقتال ؟ ألم تجد غيرها ليكون مصيري كابنك ؟

وتحرك من هناك عائدا جهة غرفة والدته فبما أن اليوم جمعة لم

يكن لديه أي التزامات في مقر الجنود وهوا يوم إجازة بالنسبة له

دخل الغرفة بملامح عابسة واجمة ونظر للجالسة على سريرها

وقال بضيق " لما لا نغادر الآن لعمك أو عمي أو عمتي رقية ؟

" لماذا نبقى هنا تحت رحمة هؤلاء الناس

تنهدت بعجز وقالت " وكيف يا تيم ؟ فحتى إن أرسلوا لنا المال

فلن أستطيع مغادرة الغرفة ، اذهب أنت يا تيم مادمت تريد

" ذلك وتحدثت عنه أخيرا

هز رأسه بلا من فوره وقال " وأتركك هنا ؟ أموت ولا أفعلها

"يا أمي ، ما نفع حياتي من دونك ، ثم لا أستطيع المغادرة وحدي

" ...ابتسمت بحب وقالت " أنا لا مستقبل لي يضيعه أحد لكن أنت لا و

قاطعها منهيا النقاش في الأمر " لا أريد الذهاب فانسي الأمر

" برمته أمي أرجوك

*

*

وخز أشعة الشمس القوي على عينيها وبشرة خدها الناعمة كانت

كفيلة بإرجاعها لعالم الواقع الذي فارقته من ساعات ففتحتهما ترمش

بهما بقوة ثم وضعت كفها عليهما تسترجع ما حدث شيئا فشيئا وأين

هي الآن وما تفعل ثم سرعان ما قفزت جالسه تسحب فستانها الذي

وصل لأعلى فخذيها من حركتها وهي نائمة ونظرت فورا للشيء

الذي وقع من يدها لتنتبه وقتها لطرف السرير الآخر الفارغ تماما

ولا وجود لمن كان عليه ليلة البارحة ولا شيء سوا الوسائد المبعثرة

والملاءة المجعدة ، مدت طرف أناملها للورقة التي سقطت من كفها

وقت جلوسها السريع ذاك وفتحتها حيث كانت قصاصة مطوية على

اثنتين وكان مكتوبا فيها (لنا حديث حين أعود) ولم تحتج لأن تنظر

للاسم المرسوم تحتها بحرفية مشابها لذاك النقش على سلاحه لمعرفة

صاحب الورقة فقد علمت قبلها من وجودها في يدها وفي غرفته ومن

سياق الحديث فيها ، وقفت وجعدتها في قبضتها وكأنها تحاول إخفاء

توترها من الموضوع الذي كانت تتهرب من التفكير فيه طوال المدة

الماضية وها هوا يتطرق له ما أن عاد ورغم إصابته ، فتحتها مجددا

ونظرت للحروف فيها وكأنها لم تقرأها ثم سرعان ما عبست ملامحها

مكشرة فبالرغم من أن إصابته كانت في كتفه الأيسر خطه منسق وكأنه

لم يكتبها بيده اليسرى ، تحركت من مكانها جهة الباب مسرعة متمتمة

" أحمق ما يعني بحين أعود ! "

نزلت السلالم راكضة شعرها يتطاير مع خطواتها حتى كانت أسفله

ووجدت جوزاء تقف قرب الكرسي الذي تجلس عليه عمتها وهما

تنظران لها باستغراب وهي تتقدم نحوهما وقالت ناظرة للجالسة

" أين مطر ؟ هل غادر ؟ "

ابتسمت لها قائلة " اسألي نفسك قبلنا فنحن لم نراه ولم ننم

معه في غرفته "

شعرت بأنها تقلصت حتى تحولت لقزم تحتهما وخطفت نظرها

سريعا لجوزاء التي كانت تنظر لها بنظرة لم تفهم أهي نظرة عدم

فهم أم استغراب أم استهجان تام لما فكرن فيه ، خرجت الحروف منها

متوترة وكأن ثمة موجات مغناطيسية اعترضت طريقها أمام

شفتيها " لقد كان مصابا كيف يغادر هكذا ؟ "

شهقت جوزاء بينما قالت نصيرة بجزع " مصاب ؟ "

قالت من فورها وهي ترى الخوف على ملامحهما " كانت الإصابة

في كتفه لكن الجرح كان ينزف بشدة وتمكنت من إيقافه لكن الحمى

لم تتركه طوال الليل ولم أتخيل أن يغادر ما أن يستيقظ فجرا فقد

غلبني النعاس ولم أشعر به "

تحركت حينها جوزاء قائلة بضيق " لا يتوقف عن التهور والجنون

أبدا ، ظننا أنه ما أن يتزوج سيتغير لكن نساء هذا الوقت لا

" نفع منهن

وتوجهت جهة باب جناح عمها بينما نظرات غسق المصدومة تتبعها

ثم نظرت للجالسة أمامها وقالت بعبوس " لماذا تكرهني ابنة

" شقيقك فلست أفهم ؟

" هزت تلك رأسها بحزن وقالت " هي لا تكرهك يا غسق ثقي من ذلك

كانت ستتحدث لولا رجوع جوزاء التي قالت بضيق مقتربة من عمتها

لقد خرج من حوران وذهب لبزاخة وعمي يقول بكل برود (هوا أعلم "

" بحالته وصحته فابتعدن عنه أنتن النساء) لا أسوء منه سوا عمه

تحركت غسق حينها وتركت المكان قاصدة غرفتها فلا تريد سماع إهانة

أخرى من المدعوة جوزاء فيكفيها ما سمعته منها فهي لا تضمن صبرها

عليها ولا تريد رد كلامها فهي لم تتربى على ذلك وتبقى جوزاء شقيقة

زوجها وأكبر منها بكثير ، دخلت الغرفة وفتحت درج طاولة التزيين

ورمت الورقة فيه متمتمة " معه حق هوا أدرى بنفسه فليسافر حتى

للمريخ ما علاقتي أنا بهم ؟ والأحمق لم يوقظني ولا لصلاة الفجر

" جيد أني لا أصلي وإلا ضاعت عليا طبعا

وكانت تعلم أنها مجرد خدعة تخدع بها عقلها فقد وجدت نفسها مرارا

تنساق للتفكير فيه وفي لو أنه قاد السيارة بنفسه كالبارحة وانفتح جرحه

ونزف مجددا ولم تستطع نسيان ذلك وتجاهله رغم مرور الساعات

الواحدة تلحق الأخرى ولم ينجح إشغالها لنفسها بالاستحمام وتجفيف

شعرها وتمشيطه وقراءة الكتاب الذي أحضرته من مكتبته كما غيره

بعدما استأذنت عمه فهي أصبحت تمضي وقت فراغها الطويل في

هوايتها المحببة تقرأ كل ما تجده باستمتاع مادام بعيدا عن السياسة

والحروب ، خرجت من الغرفة بعد العصر بقليل ووجدت الجميع

يستعدون لاستقبال ضيوف بعد المغرب لكنها لم تحب المشاركة

في شيء ولا تفكر حتى في التواجد معهم ، بحثت عن عمتها

فوحدها ستجد لديها جوابا لسؤالها ، وجدتها سريعا لأنها قصدت

غرفتها أولا وكانت كما توقعت تقرأ في المصحف ولازالت

بلباس الصلاة وقد أغلقته ما أن دخلت عليها وقالت غسق من

فورها " هل اتصل مطر أو اتصلتم به ؟ "

وأردفت من قبل أن تعلق تلك " قد يكون قاد السيارة بنفسه

وسينزف جرحه مجددا بالتأكيد "

هزت نصيرة رأسها بلا وقالت " لم يتصل وليست عادته أبدا إلا

إن أراد شيئا من عمال المنزل أو عمه حال تعطل هاتفه فهذه

طباعه التي عرفناه عليها "

قالت غسق باستغراب وهي تدخل وتغلق الباب خلفها

" ولا حتى حين يكون مصابا !! "

قالت وهي تنزع رداء الصلاة من رأسها " لم يصب سابقا رغم

تواجده الدائم في الخطوط الأمامية للقتال ويبدوا أن طباعه

لن تتغير فها هوا يتمسك بطبعه القديم "

لوت شفتيها بعبوس وتمتمت وهي تجلس على الكرسي قرب

السرير " هل يضن نفسه يعيش لوحده أم ماذا ؟ "

ضحكت نصيرة وقالت " ستعتادين على طباعه فيبدوا

" أن حياتك في عائلة والدك لم تكن هكذا

تنهدت غسق بحزن فقد نكأت تلك جرحها المفتوح وقالت " كنا

مقربين لبعضنا كثيرا ، كنت أتصل بأخوتي يوميا وهم في الحدود

ولا يمكنني أن أنام دون أن أرى والدي أو أحدثه إن كان سيبات

خارج المنزل ، نتناول الطعام معا أغلب الأحيان وإن أنا وعمتي

نجلس ونتسامر ونتحدث وحتى حديثهم عن الحروب وخطط

القبائل هناك لا أكون غائبة عنها إلا إن أردت أنا ذلك ، كنت

" جزءا من تلك العائلة ولست منبوذة كما هنا

ابتسمت نصيرة وقالت ببعض الضيق ممازحة " في وجهي تقوليها

" يا غسق ؟ أقسم أن يومي أصبح كئيبا إن لم أراك فيه

" قفزت من فورها وقبلت رأسها قائلة " لم أقصدك عمتي أقسم لك

" قالت تلك مبتسمة " أعلم وأنا ما كنت إلا أمازحك

عادت للجلوس على الكرسي وقالت ناظرة لها بهدوء " أخبريني

عن ابنك عمتي ، كيف اختفى ولما لم تجدوه حتى الآن ؟ إن

" كان الحديث لا يزعجك طبعا

هزت تلك رأسها بلا وقالت " لن يزعجني يا غسق فإن كان حيا

" سيرجع وإن كان ميتا فلست أول أم ثكلى فقدت وحيدها

ثم تنهدت بحزن وقالت " أرأيت ضيوف الجنوب الذين

" زارونا من قرابة الشهر

هزت غسق رأسها بنعم فورا وقالت " أذكرهم جيدا فهم كانوا

" من مجموعة أكابر من استقبلتموهم

هزت نصيرة رأسها وقالت " أولئك يكونون عائلة زوجي رحمه

" الله وبعض نساء رجال في عائلته

قالت غسق بصدمة " تزوجت من هناك ؟ تلك البلدة بعيدة

" جدا كما فهمت منهم

قالت نصيرة وقد شردت بنظرها بعيدا وكأنها تبحث في صندوق

ذكرياتها المنسي " بل كان يعيش هنا وقتما خطبني وتزوجنا ولم

نرزق بأبناء لسنوات حتى أنجبت أبني (قاسم) وتوفي زوجي في

كمين للهازان عند الحدود وابني عمره عشر سنين وحين كان

في الخامسة عشرة اختفى بشكل مفاجئ ومريب لم يستطع

أحد تفسيره وإيجاد سبب له ولم نجده رغم محاولات

" مطر الحثيثة

" قالت غسق بصدمة " اختفى صغيرا في السن ! كيف ذلك ؟

هزت تلك رأسها بنعم وقالت ونظرها لازال شاردا مع عقلها " كثر

اختفوا يا غسق ، كم من رجال وأطفال لم يجدهم ذويهم حتى الآن

واغلبهم جاءتهم جثثهم أو خبر عن أسرهم عند الحدود بسبب أو

بدونه ، لكن قاسم لم يكن هناك حين اختفى ، لم يكن عند الحدود

ولم يكن له ولا أعداء ، حتى والده كان رجلا عظيما

" يحبه كل من كان يعرفه

تهدرج صوتها وهي تتابع بحزن " إن كان حيا سيكون في الثانية

والعشرين الآن ، ليتهم فقط يأتوني ولو بخبر موته ليرتاح قلبي

" من التفكير في مكانه وما يحدث معه

وقفت غسق من فورها والدموع وجدت من عينيها مسلكا وجلست

بجانبها على السرير وضمت كتفيها بقوة قائلة بعبرة " لابد أن يرجع

" يوما بما أن خبر موته لم يصلكم فالأموات وحدهم من لا يرجعون

مسحت تلك دموعا خانتها على أعتاب عينيها وقالت مبتسمة تمسح

على خدي الجالسة بجوارها وقد احتقنتا بحمرة شديدة " أرأيت ؟

" الحديث أتعبك أكثر مني لذلك علينا تغييره

هزت رأسها بنعم ونامت به على كتف عمتها قائلة بحزن

" أتمنى من الله أن أراه هنا عندك قريبا "

مسحت تلك على شعرها الحريري الذي تمسكه في الخلف بشريطه

طويلة قليلا وقالت بحنان " الله لا ينسى أحدا يا غسق ولا يختار

" لنا إلا ما فيه خيرنا وصالحنا

*

*

رفع هاتفه مجددا وهوا يرفع يده وذراعه الأيسر للطبيب الذي كان

يفتح الشاش عنها وقال مخاطبا من في الطرف الآخر " أعطوني

بضع ساعات فقط ، لا تفعلوا شيئا حتى آتي وسأراهم بنفسي

" كما يطلبون

أجل أعلم ، أمنوا انتم حدودهم جيدا ولا أريد أن يتدخل أحد منهم "

" في شيء ولا أن يحمل سلاحا ولا يحرس شيئا أكثر من منزله

اشتدت نبرته حدة وهوا يقول " أعلم أن الوضع يحتاج وجودي يا

تميم ولا يؤخرني عنكم سوا أمر يكاد يكون أهم منه فثمة تغر كثيرة

يجب تغطيتها قبل فعل أي شيء هناك ، أمنوا الحدود ودافعوا عنها

بأرواحك كما طلبت ولنا حديث ما أن أصل لكم ولن يكون فجر

" يوم غد إلا وأنا عندكم إن شاء الله

ثم أنهى الاتصال ونظر للذي بدأ بتنظيف الجرح من بقايا ذاك

المزيج الذي لم يزله من عليه منذ ليلة البارحة وقال ذاك مبتسما

هلا أبعدت هاتفك قليلا يا زعيم لنتحدث عن جرحك ، فهم لا "

" يتركونك أبدا وإن نسوك لحظة اتصلت أنت بغيرهم

وضع الهاتف جانبا وقال " ها قد أبعدته وأعطيك عشر

" دقائق فقط لا غير

ضحك وقال وهوا يعيد تنظيف الجرح بالمطهر الطبي للمرة

" الرابعة " حسنا تكفيني ويزيد

وتابع بجدية " الجرح حالته جيدة نسبيا رغم أنه في موضع خطير ولو

انحرف قليلا لأصاب أحد الأربطة أو القلب ، كان تهورا منك أن تقود

به وأنت حديث إصابة ، من وضع لك هذا المزيج يستحق منك وساما

فرماد أعواد الحصير أقوى شيء ممكن أن يوقف نزيف جرح مخاط

بدون وجود طبيب أما الخل فقد عمل معه على تطهير الجرح لذلك لم

يصبه أي التهاب وأنت تأتيني بعد نصف يوم من وضعه لك ، أي أنه

" لولاه بعد الله لالتهب جرحك ولاحتجنا لفك الخياطة والعناية المكثفة به

حرك رأسها للأعلى ثم جانبا وكأنه يمرن عظامه المتعبة وقال " كنت

على يقين من مفعول ذاك المزيج لذلك لم أزر أي طبيب حتى الآن فكل

ما أريده منك أي شيء لا يجعله يعيقني فأمامي أمور كثيرة ، سأتحمل

" ألمه ووخزه القوي ذاك المهم لا يعرقل تحركاتي

خرجت ضحكة صغيرة من ذاك الطبيب وقال وقد بدأ بلف الشاش

حول كتفه وصدره " أنت تطلب ذلك من مارد مصباح وليس طبيبا

الجرح يحتاج للراحة ليومين على الأقل أو حافظ على إبقاء يدك في

وضع مسترخي ولا تحركها قدر الإمكان ولا تقد السيارة حتى يندمل

لحم الجرح على الأقل ثم يمكنك تحريكها للضرورة فقط وبذلك

يمكنك التحرك أو لن تضر إلا نفسك سيدي وقد تخسر

" ذراعك للأبد

هز رأسه بحسنا وهوا يراقب حركته السريعة المتقنة في لف

" الشاش وهمس " سأحاول جهدي

ثم وقف بعدما أنهى له تثبيته جيدا وبدأ بارتداء قميصه المزرر من

الأمام وقال الطبيب " عليك أخذ المضادات الحيوية أيضا وبانتظام

كبسولة واحدة كل ست أو ثمان ساعات كحد أقصى ولا تنسى

" أهم شيء أن لا تحركها كثيرا

هز رأسه بحسنا دون تعليق ثم خرج من عنده وهاتفه على أذنه

اليمنى كما دخل له فجسده هنا وقلبه هناك مع المدن الخمس التي

انضمت لحدوده مؤخرا فعليهم أن لا يخسروها ويضروا أهالي

قبائل جيروان اللذين سلموا أنفسهم ومدنهم لهم طوعا

*

*

أنهت ظفر شعرها كجديلة منتهية عند خاصرتها ثم رفعت خصلات

غرتها خلف أذنها وقد لبست بيجامة نوم خريفية جمعت الدفء مع

خفة القماش والبساطة مع أناقة المظهر حيث كانت بأكمام طويلة

وبنطلون طويل مزررة من الأمام بأرضية بيضاء وحواف عنبرية

وقد ملأتها رسومات صغيرة جدا بالكاد ترى تفاصيلها بذات ذاك

اللون العنبري الزاهي ، طرقات خفيفة على الباب جعلتها تخرج من

بحر الأفكار التي كانت تسافر بها مترنحة في الأيام التي قضتها في

هذا المنزل حتى أنها شعرت للحظة بأنها لازالت في صنوان وأنها

ليست هنا ولا زوجة لذاك ، تنهدت تنهيدة طوية وقالت بصوت

" واضح " تفضلي

فانفتح الباب ودخلت منه حبيبة مبتسمة تلك الابتسامة الودود التي

تنسيها جزئا من همومها وأغلقته خلفها فسألتها من فورها

" هل غادر الضيوف ؟ "

هزت تلك رأسها إيجابا وقالت " منذ أكثر من ساعة ، والسيد

" مطر عاد من لحظات

شعرت بذاك الناقوس يدق أجراسه في قلبها حتى رن في أذنيها

فشدت أناملها على تلك الضفيرة الطويلة بلا شعور منها وهمست

" عاد ؟ "

هزت حبيبة رأسها بنعم وقالت " والسيدة جوزاء صعدت خلفه

لغرفته وسمعتها تقول للسيدة نصيرة بأنه سيغادر ما أن يغير

" ثيابه عائدا للحدود وكانت متضايقة من ذلك جدا

أرخت قبضة أصابعها عن جديلتها وقالت وهي تمسح بكفها

" عليها نزلا وبنعومة " أمازال متعبا لتتضايق هكذا ؟

رأيته من مسافة , سيدتي رفعت حبيبة كتفيها وقالت " لا علم لي

بعيدة ولم يبدوا لي يشتكي شيئا ، مشيته وحركته طبيعيه حتى

" أنه صعد السلالم مسرعا كعادته

هزت غسق رأسها بحسنا وأراحت يديها في حجرها دون تعليق

فقالت تلك مبتسمة " لما لا تذهبي للاطمئنان عليه بنفسك سيدتي ؟

" هوا زوجك ويحق لك ذلك أكثر من أي شخص

أرخت نظرها للأسفل ولاذت بالصمت لوقت حتى كانت الواقفة هناك

قد قررت أن تغادر ورأت أنها أحرجتها بكلامها وهي كعادتها تفضل

الصمت كاتمة لجرحها على أن تجرح غيرها لكن الرد جاء منها بشبه

همس خافت ولازالت عيناها السوداء الواسعة تعانق الأرض مسدلة

جفنيها ورموشها للأسفل " لو أراد أن نطمئن عليه لاتصل ، قد يكون

ممن يزعجهم الاهتمام الزائد فهكذا هم الرجال من نوعه لذلك أفضل

" أن لا أراه ، شكرا لك يا حبيبة

هزت تلك رأسها بتفهم وغادرت مغلقة الباب خلفها دون تعقيب

على كلامها بينما راقبت الجالسة في الداخل الباب بملامح عابسة

وهمست " هذا الرجل ليس بغبي وسيفسر صعودي له

" بألف تفسير وأغلبها صحيحة

رتبت وسادتها تضع عليها الأخرى متأففة بحنق وليست تعلم ما

سبب انزعاجها الحقيقي ! هل هوا عدم تفكيره بهم وبأن يطمئنهم

عليه خاصة هي التي سهرت الليل بجواره ؟ أم من تجاهله الدائم

لها وكأنها شيء غير موجود إلا إن وجده أمامه ؟ أم الحقيقة الأفظع

وهي أن تكون منزعجة لغيابه مجددا لوقت لن يعلمه أحد وفي مصير

لا يعلمه أحد أيضا ؟ وطبعا لا يحق لهم ولا الاتصال والسؤال عنه

ولن يفكر هوا في فعلها ، اضطجعت على السرير تخفي وجهها في

الوسادة تنام على بطنها ويداها تحتها ولا تعلم سببا واضحا لكل ما

يخالجها ! ما يضايقها وما يزعجها هكذا !! تحاول الهرب من تفسير

أي شيء وعقلها لا يفعل شيئا سوا تحليل تلك الأشياء وكأنه يتمرد

على سيطرتها ، قفزت جالسة حين انفتح باب الغرفة بعد طرقتين

متتاليتين وكاد الهواء ينعدم حولها وانتفض قلبها وتوقف عن الخفقان

للحظة طويلة قبل أن ينبض من جديد بسرعة مضاعفة وهي ترى

صاحب الطول والأكتاف العريضة الذي ملئه يقف ببذلته العسكرية

وسلاحه على كتفه الأيمن ، ذاك الوسيم حد دنوه من الكمال وكأنه

خرج من أحلام جميع الفتيات متجسدا في واقع هذا الرجل وتلك

. الطاقة المنبعثة من داخله متمثلة في تلك الهالة المسيطرة حوله

أدارت إصبعها السبابة خلف الوسطى وشدته به بقوة وكأنها تريد

كسره وهي تعاقب نفسها على انجرارها في تلك الأفكار فما أن

يظهر هذا الرجل أمامها حتى يبدأ عقلها بمقارنة جميع رجال

. الأرض به لينتصر عليهم وبكل سهولة

أما رد فعل الواقف هناك على تلك النظرة الباردة في عينيها

والتي عكست له أمورا لا تحكي أبدا عما يحدث في داخلها وهي

تستعل كالنار في الهشيم ، كان ذاك الرد ابتسامة بطيئة مثيرة كانت

كفيلة بتدمر أي امرأة وإن كانت تمثالا من الجليد فكيف بمن لم تكن

تحتاج إلا لأن يخطو خطوة للداخل ليطفوا ذاك الاشتعال على

ملامحها ووجنتيها ، تنهيدة طويلة خرجت منها وقد أرخت كتفيها

كقطة أمسكوا بها تسرق شيئا ودفنت وجهها في يدها مفرودة

الأصابع منزلة لرأسها للأسفل وقالت بعبوس " لا مطر لن

" نتحدث الآن أرجوك

كانت تعلم أنها هشة تلك اللحظة أنها سهلة العطب بشكل لم تتخيله

من قبل وكل ذرة في جسدها تصرخ مستنكرة (لا يا إلهي لا تدع

هذا يحدث لي) لن تحبه أبدا ليس هذا الرجل الخالي من المشاعر

ليس كتلة الصخر ذاك ، ليس الدموي الذي قد يقتل عائلتها دون أن

يرف له جفن ، صوت اقتراب خطواته الثقيلة في تلك اللحظة بحدائه

العسكري الأسود الطويل كان كفيلا بجعلها ترتد مجفلة حتى تلتصق

بأقرب جدار لها لكن قبضته القوية على ذراعا ما كانت لتسمح لها بأن

تفكر في ذلك ولا مجرد التفكير ، رفعت رأسها ونظرها له ورسمت

على ملاحها وتلك العينين الفاتنة نظرة مستجدية حزينة كانت كفيلة

بتدمير جيش بأكمله فكيف برجل وقالت بذاك الصوت الرقيق

" الناعم " أنت ذاهب الآن ولن نتشاجر مطر أرجوك

ابتسامة أخرى كسولة ساحرة على طرف شفتيه كانت الجواب هذه

المرة ويده تنتقل من ذراعها ليدها وأمسك بأصابعها وهمس ساحبا

" لها لتخرج من السرير " تعالي هنا أيتها الساحرة الصغيرة

زمت شفتيها بضيق وهي تطاوعه منزلة قدميها على الأرض حتى

وقفت على طولها وكادت تفقد وعيها حين وجدت نفسها محاصرة

بين ذراعيه فجأة مدفونة في صدره وهمسه الساخن يلفح أذنها في

نعومة مغرية لصوت له تلك البحة والرنين الأجش " من أخبرك

" أني جئت لنتشاجر أو نتحدث عن ذاك المهر الغبي

لم تكن استعادت سيطرتها على نفسها بعد ، لم ترجع نبضات قلبها

التي تبعثرت عند قدميه لمكانها لتستطيع التنفس واستجماع أفكارها

من جديد ، كان ذلك أقوى من تحمل جسدها الرقيق الطري ، وبعد

جهاد مستميت مع نفسها استطاعت أن تستجمع قواها رغم أن صوتها

خرج ضعيفا كحفيف أوراق شجرة صغيرة حركها الريح الخفيف

" لماذا جئت إذا ؟ "

والجواب كان شده لجسدها بقوة بيده وذراع اليمنى على ذاك الجسد

الصلب ثم ابتعد عنها مبعدا لها لكن يده كانت ترتاح على كتفها بينما

كان يبقي الأخرى بجانب جسده وهمس وقد صعدت أصابعه لعنقها

" وجانب وجهها " قد أكون جئت لأشكرك على ما فعلته البارحة

الابتسامة الماكرة على شفتيه والنظرة اللعوب في تلك العينين الساحرة

المسيطرة أكدت لها أنه كان يريد الهرب من جواب كانت تنتظره منه

عن سبب أكثر حميميه معززا لغرورها كأنثى لذلك ناور وهرب بحرفية

جعلت دفاعاتها الخامدة منذ دخل عليها تتنبه وتستيقظ من سباتها مخرجا

تلك اللبوة الشرسة مجددا وقد قالت ببرود محركة عينيها وحدقتيها

السوداء عاليا " آه أجل يبدوا أنك نسيت بأنك شكرتني

البارحة "

خرجت منه ضحكة صغيرة وكأنها لم تستأذنه وقال وأصابعه

تتغلغل أكثر في شعرها المجموع في تلك الجديلة جانبا

" لم أقصد الشكر بالكلمات يا ابنة شراع "

حقيقة ما جعلتها تجفل جديا هذه المرة فأبعدت يده مرتدة خطوة

للوراء وقالت بنبرة تحذير وكأنها تهدده بفعل ما يفكر فيه وأوضحه

بكلامه " شكرتني بالطريقتين أم أن ذاكرتك أصابها شيء "

ثم سرعان ما نقلت نظرها لكتفه وقالت قبل أن يعلق على كلامها

" كيف هوا جرحك ؟ هل زرت طبيبا ؟ "

لمس كتفه بأصابعه ونظره لازال يتفرس ملامحها قائلا

" نعم قبل عودتي لحوران "

" نقلت نظرها لعينيه وقالت بتشكيك " ماذا قال عنه ؟

تحولت لهجته للسخرية وقال مبعدا يده عن كتفه

" هل يعنيك حقا ما قال ؟ "

عبست ملامحها الجميلة بطريقة رقيقة لم تزدها إلا فتنة وهمست

" برقة " من أخبرك أنه لا مشاعر إنسانية لدي ؟

أخفى شفتيه ما بين شاربه ولحيته وكأنه يخفي انفعالا ما فيهما

وهوا يزممهما للداخل ثم سرعان ما أخلى سبيلهما وقال ببرود

لا شيء مهم ، أعطاني لائحة طويلة من التوصيات وقال "

" إن لم ألتزم بها سأخسر ذراعي

كادت تخرج منها شهقة مستنكرة لولا أنها كبحت جماح نفسها

لكنها لم تستطع إخفاء الصدمة من ملامحها وعينيها السوداء

الواسعة وقالت وقد تحولت لهجتها للجدية " وقدت السيارة

" إلى هنا بنفسك ؟

هزة خفيفة بلا من رأسه كانت جوابه فقالت مضيقة عينيها

" لا أصدقك ، لما لا تريني كتفك إن كان جرحك نزف أم لا ؟ "

حرك رأسه للأعلى في حركة خاطفة واثقة وقال " اسمعي يا ابنة شراع

فأنا لا أحب كثرة الاستجواب والإجابة عن أي شيء ولقد أشعرتني

بأني في محكمة منذ دخلت ، ولأني لا أحب أن يكذبني أحد ... "

وتابع وهوا يفتح الأزرار العلوية لسترته بأصابع يده اليمنى فقط

" أنظري بنفسك وتأكدي "

أبعد ياقته بعدما فتح نصف الأزرار تقريبا ونظرت هي من مكانها

للشاش النظيف تماما ثم نقلت نظرها لعينيه دون تعليق متجنبة النظر

لأي تفاصيل أخرى غير ذاك الشاش الأبيض ، وتركت أصابعه ياقته

قائلا بجدية " أخبرتني جوزاء أنها تريد استئناف خروجها في بعض

الزيارات فهي وعمتي لم تخرجا منذ تزوجنا فإن أردت الخروج أيضا

لك ذلك وإن أردت البقاء في المنزل فلا تبقي وحدك فيه إلا إن كان

معك عمي أو حتى عمتي فهي لا تخرج اغلب الأحيان ، وحين تخرجين

للحديقة أخبري إحدى الخادمات تخبر العمال كي لا يدخل أحد ولا

للضرورة ، لا أريدهم أن يتجمعوا كالدبابير حول مكانك وهم

" يسمعون ضحكاتك وأنتي تطاردين الدجاج

عضت شفتها السفلى في حركة حانقة ولا إرادية فها قد ظهر

سبب الزيارة المفاجئة ، حررت شفتها وقالت ببرود " حاضر

" هل من أوامر أخرى ؟

" قال بتهكم واضح " نعم

وتابع بجدية مركزا نظره على عينيها " في حال موتي سيأخذك

عمي من هنا ويدخلك صنوان وترجعي لأبيك من قبل دفني

" ومن دون نقاش ولا سؤال

نظرت له باستغراب ونبضاتها ترجع للرفع من مستوياتها ولم

تستطع سؤاله لأنها تعلم جيدا بأنه لن يجيب ، تحرك حين لم

يصدر عنها أي تعليق ووجهته باب الغرفة فقفزت راكضة

" جهته " مطر توقف

وقف والتفت لها فوقفت مكانها على بعد خطوتين فقط منه وقالت

" أغلق أزرار سترتك فورا ، هل تريد الخروج بها هكذا ؟ "

النظرة اللعوب التي أرسلتها عينيه جعلتها تتراجع خطوة للوراء

وقد اشتد وهج خديها وقالت وقد فرت بنظرها بعيدا عن وجهه

وجسده " لا ينقصني إحراج آخر رجاءا ، ولن تفكر هذه المرة

في الضغط عليا بها بالتأكيد فأنت لا تستخدم ذات السلاح

مرتين كما أضن "

نظرة إعجاب واضحة كانت تلك التي مسح بها تفاصيل وجهها الناعم

حتى كاد يشعر بأنه يلمسه دون أن يرفع يده له ، يعجبه في هذه المرأة

أنها تفاجئه دائما .. تعرف متى تتحداه ومتى تناوره وأيضا متى تتلاعب

به ، نظر لسترته ولأزرارها المفتوحة ثم رفع نظره وكانت تنظر لعينيه

هذه المرة فرفع يده اليمنى جانبا وقال " ما لا تعلميه أني أعسر ويدي

اليمنى لا تفلح في شيء وحدها سوا الأكل أما باقي الأعمال فتقوم بها

بضعفي مجهود تلك ، ولن أجلس هنا نصف ساعة أحاول إدخال كل

زر لمكانه فكما تعلمين إغلاق الأزرار ليس كفتحها خاصة هذا النوع

من الثياب المتقنة الصنع سميكة الخيوط ، ولن أضيع مزيدا من الوقت

وبعض رجالي ينتظرونني في الخارج ، فقد كنت سأقوم بذاك

" العمل في الطريق لأني لن أقود طبعا

قالت بعبوس العاجز عن إيجاد حل وعن الرضا بالواقع المرير

" والحل الآن ؟ "

أمال ابتسامة صغيرة على طرف شفتيه وقال " سأخرج طبعا فأنا لا

" يعنيني رأي أحد فأنتي زوجتي ، أو أغلقيها أنتي بما أن الأمر يقلقك

أنزلت رأسها وغرست أصابع يدها اليمنى في غرتها وكأنها تخفي

وجهها عنه وعضت طرف شفتها بقوة متنهدة بعجز فلن تتركه

يخرج هكذا من جهة ممر غرفتها ، هذه فضيحة أسوء من سابقتها

الحق عليك يا حمقاء هل كان عليك أن تطلبي منه أن يريك إياه ؟)

صحته وهوا أعلم بها يقود السيارة أو طيارة ينزف جرحه أو

(حتى يتفجر تلك مشكلته

رفعت رأسها سريعا حين سمعت خطواته تتحرك مبتعدة وتوجت

نحوه دون شعور منادية " هيه أين ستذهب ؟ انتظر سأغلقها

وأمري لله "

وقف واستدار جهتها وقال بابتسامة ساخرة " لا أفهمك حقا ! هل

إغلاق أزرار سترة زوجك عمل يحتاج كل هذا التردد والخوف ؟

سبق وأخبرتك أني لن آكلك "

اقتربت منه حتى وقفت أمامه تكاد تكون ملتصقة به وقالت بحنق

ناظرة للسترة التي رفعت لها يديها ببطء " لما لا تتوقف عن

السخرية مني طوال الوقت ؟ "

اكتفى بالنظر لملاحها في صمت وهي تغلق تلك الأزرار وكأنها تدخل

حبلا في خرم إبرة من تصلب أصابعها وارتباك أنفاسها التي كان يشعر

بها ساخنة على بشرته ، أمسك ابتسامته وهوا يراقبها ومدركا بأنها لا

تره مدققا على ملامحها ويديها المرتجفة فهوا يعلم أن خجل الأنثى كان

سيلعب دوره مهما كانت تتسلح بالقوة ، لم يستطع مقاومة تلك الفكرة في

إزعاجها وهوا يمرر أصابع يده فوق خصرها في لمسة خفيفة جعلتها

تبتعد عنه مجفلة كضبيه شعرت بالخطر فجأة ، فهو إن لم يفعل ذلك

لتبتعد ما كان ليضمن نفسه ، نظرت له بعبوس قابله بضحكة صغيرة

وتوجه للباب من فوره ، فتحه وخرج قائلا وهوا يسحبه خلفه

" اعتني بنفسك جيدا "

وسار مجتازا الممر بخطوات ثابتة واسعة وما أن كان خارجه حتى

مد يده وأخذ الحقيبة الموضوعة على أحد الأرائك وتوجهت جوزاء

جهته وهو متابعا طريقه للباب على صوتها من خلفه وهي تتبعه

" اعتني بنفسك يا مطر واتصل بنا "

" همس دون أن يتوقف " حسنا ، استودعتكم الله

وخرج من فوره واجتاز تلك الحديقة الواسعة حتى كان خارج

سورها وركب السيارة التي كانت في انتظاره ملقيا السلام على

الجالسان فيها ورفع يده يغلق الزر الذي تركته تلك ونظر بطرف

عينه للجالس بجانبه خلف المقود ينظر له مبتسما ويعلم أنه لا يفوت

شيئا وإلا قتله كتمانه له ، قال بذات تلك الابتسامة الشيطانية

" تأخرت ثلث ساعة وليست عادتك "

هوا يعلم بأنه لن ينجى من تعليقاته فبِشر يهوى استفزازهم دائما

وهم اعتادوا على كونه واحد منهم وليس زعيمهم أو قائدهم الحربي

بينما فصل معهم وقت الجد لوحده ووقت الهزل لوحده فكانوا بذلك قرابة

الثلاثون رجلا بكلمة واحدة ورأي واحد وعقول راجحة تفكر في مصلحة

غيرها قبل نفسها ، نظر تحته ورفع الحقيبة ورماها في الكرسي خلفه

حيث كان شاغر وألحقها السلاح وقال ببرود " تحرك بلا كثرة

حديث ، وإن واحد منكما تحدث في هذه الرحلة الطويلة المملة

" عن النساء رميته خارج النافدة أتفهما ؟

ضحك بِشر وقال وقد انطلق بالسيارة " أوامرك سيدي ، رأيت

" فقط مزاجك أفضل من يوم أمس فأردت أن ألطف الجو أكثر

قال الجالس خلفهما " تحدث معي حيدر منذ قليل وقال أن مشكلة

" خزان المياه في ريسوان يوشكون على حلها

وانخرطوا في حديث طويل بطول طريقهم ذاك عن مستجدات ما

حدث وعن أكثر المشاكل تعقيدا حتى طغى الظلام على رحلتهم

كاشفا أضواء سيارتهم وهي تشق الطرق التي كان أغلبها ترابيا

. فالجنوب كان الأقل حظا في أعمار ذاك المستعمر لتلك للبلاد

وما أن وصلوا هناك حتى وجد مئات المسائل والمشاكل العالقة في

انتظاره ، فرغم تكثيف رجاله لجهودهم وربطهم لليل بالنهار لكنهم

لم يستلموا قبلا مناطق سلمت نفسها طوعا فالوضع أكثر حساسية

وكان يحتاج لوجوده بالفعل كداعم قوي لأي أمر يقرروه مع أهالي

تلك البلدات ففي البداية سيحتاج الناس رؤيته وهم يتفقون على

كل شيء ومن الطبيعي أن يطالبوا بالاتفاق معه تحديدا

*

*

دخلت تدفع عجلات كرسيها من باب الغرفة المفتوح فرمت غسق

الكتاب من يدها جانبا وتوجهت نحوها قائلة " عمتي لو أرسلت لي

" إحدى الخادمات لأتيتك بنفسي

رفعت نظرها لها فوقها وهي تسحب بها الكرسي جهة الطاولة

المستديرة نهاية الغرفة عند تلاقي النافذتين الطويلتين في الزاوية

وقالت مبتسمة " فكرت أن أزورك أنا فأنتي لا تخرجين من

غرفتك إلا قليلا وقد تكوني تعتقدين أنك تزعجينني "

جلست مقابلة لها على الكرسي وراء الطاولة وقالت تبادلها ابتسامة

أصدق وألطف منها " أنا معتادة على هذا عمتي فقد كنت الفتاة الوحيدة

في منزل والدي وعمتي كانت مشغولة أغلب الوقت أو في زيارة خارج

المنزل وأخوتي ذكور منذ كبروا وأصبحوا شبانا لم نعد نلعب ونمرح

معا وأصبح أغلب وقتهم خارج المدينة وكنت أتسلى بالكتب وحدي "

هزت تلك رأسها بتفهم وقالت " الرجال دائما نصف موجودين

وإن عاتبت المرأة اتهموها بالنكران "

ضحكت المقابلة لها وقالت " عمتي جويرية كانت تقول ذلك دائما "

انطلقت ضحكة نصيرة وقالت " وأكبر دليل لديك هنا طبعا "

لم تستطع مشاركتها الضحك ولا بابتسامة صغيرة مهما جاهدت نفسها

فالأيام القليلة لغيابه لم تبدد مخاوفها ولم تستطع فيها فهم نفسها فلازالت

كلما تذكرت قبلاته تلك تشعر بملمس شفتيه على شفتيها وكأن الأمر

يحدث الآن ، باتت تكره تلك الذكرى بمقدار ما تحرقها وتشعل

مشاعرها وكرهت أكثر قوته المسيطرة وخروجه الكاسب

دائما لتبقى وحدها تغوص في دوامة فهم ألغازه ودواخله

" غسق أين وصلت ؟ "

صوت عمتها المبتسم أعادها من أفكارها التي لم تتركها منذ غادر

" فأطلقت تنهيدة حارة بائسة وقالت " شردت قليلا آسفة عمتي

قالت تلك بذات ابتسامتها " لقد اتصل بالأمس وهو بخير وسأل

" عنك أيضا

رفعت نظرها وعلى وجهها ملامح استنكار واضح فسبقتها عمتها

قائلة بعد ضحكة صغيرة " أعلم أنك لا تفكرين فيه ولا تريدين سماع

أخباره لكني خمنت أن تكوني على الأقل تريدين الاطمئنان على

" صحته ولتعلمي أنه لا يدخل هناك ناسيا كل شيء خلفه هنا

لعبت بأصابعها تحت الطاولة ونظرها عليها وقالت بكلمات حذرة

وكأنها تخرجها من أوردتها مرغمة " وسأل عني لماذا فلم يفعلها

" سابقا ؟

قالت تلك من فورها " هو لم يتصل قبل هذه المرة ، أما لماذا فلا

" (أعلم فكل ما قاله (كيف حال غسق

شعرت بقشعريرة تسري في بدنها وقد صور لها عقلها صوته

الجهوري ونبرته المبحوحة وهو يقولها وكان وكأنه أمامها فانتفضت

واقفة تطرد تلك الأفكار من السيطرة عليها ووقفت أمام النافذة قائلة

ما أجمل نوافذكم هنا فهي طويلة وواسعة تشعرك بأن الطبيعة "

" موجودة حولك

لكن الجالسة خلفها يبدوا أنها لم تحب انسحابها من حديثهم السابق

" فقد قالت " غسق ألم تتفقا على شيء أبدا حين كان هنا ؟

تنفست بعجز وقلة حيلة فلن يجدي إغلاقها لموضوعه أبدا على ما

يبدوا ، التفتت لها واستندت بحافة النافدة خلفها وقالت بتوجس

" هل تحدثتما عن الأمر وقت اتصاله ؟ "

قالت بجدية " سألته فقط حتى متى سيهمل وجود زوجة في حياته

وأنه لم يعد حرا كما في السابق وحين ضغطت عليه كثيرا بتوبيخي

(قال باختصار (لتقبل بي هي في حياتها أولا ثم عاتبيني عليها

" فأسكتني بذلك ولم أستطع قول شيء

كانت ستتحدث لكنها سبقتها قائلة " أعلم ما تريدين قوله يا غسق

وبأن الاختيار في يده مثلك لكن ألا تري معي أنه يسكت عن الأمر

بإرادته وليس المهر ما يمسكه عنك ؟ بل شهامته كرجل لا يريد

" الدخول بامرأة لم يعطها حقها

حركت رأسها باستنكار وقالت وهي تبعد خصلات غرتها المتطايرة

عن وجهها " المهر من حقي عمتي وشرط أساسي لتحقق العقد

" فلما يكون شهامة منه ؟

تنهدت نصيرة بصبر وقالت " لأن الأمر ليس كله بيدك يا غسق فكل

ما تستطيعيه تحديد مهرك وغفلت عن أنه ثمة شيء يسمى شرعا بالمهر

المؤجل ويكون برضا الولي أي والدك جدك عمك أو خالك أقربهم حيا

وأنتي لك والد وحتى إن لم يكن فلابد لك عم أو خال والعقد صحيح

وأنتي زوجته أو ما كان ليختلي بك ولا لدقيقتين وأنتي لا

"تحلين له وهو ابن شقيقي وأعرفه

لم تستطع استيعاب تلك الحقيقة ولا تصدق أن والدها شراع قد يوافق

أن يترك مهرها مؤجلا حتى يتفقا وإن بعد عشرة أعوام ليتبجح عليها

ذاك الرجل بأنه يتركها تقرر شهامة منه ليس إلا ! همست باستياء

" واضح " لا هذا ليس عدلا أبدا

قالت عمتها بتأنيب " هذا شرع الله يا غسق هل ستعترضين عليه ؟

" ثم لا تنسي أنك بمنع نفسك عنه تخالفين حدوده

أولتها ظهرها مجددا تنظر لتلك الأشجار التي غطى أوراقها اللون

النحاسي المائل للاصفرار وقالت بضيق " لما أنتي في صفه عمتي ؟

هل لأنه ابن شقيقك وأنا ابنة شراع ؟ لما ينسى الجميع أن هذا الزواج

حدث رغما عني وعن والدي ؟ بأني أجبرت على أن أعيش وسط

قبائل تستنكرني وأنه عليا أن أصفق لهم بحرارة يوم تغزوا جيوشهم

ودباباتهم أهلي هناك ؟ أقليل في حقي أن أطلب مهرا يساوي

" نصف ما لقيت وسألقى ؟

هزت تلك من خلفها رأسها بيأس وقالت " أنا لا أقف في صفه ضدك

يا غسق وإلا ما كنت عاتبته عليك ، أنا أفكر في مصلحتك قبله لأنك

ستكونين الخاسر الوحيد إن أبقى الزواج معلقا هكذا أو تزوج بغيرك

أو أرجعك لوالدك مطلقة ففكري فيه وفي أخوتك على الأقل وحاولي

التفاهم معه على ما يرضي كليكما ، وأؤكد لك أنه لن يظلمك أبدا لا

بزواجه منك ولا بمهرك ولا أي شيء فلم نعرفه ظالما يوما وكان

يعطي كل ذي حق حقه حتى إن كان لا يعرفه ، فحتى ورثتي من

والدي يحفظها رغم تنازلي عنها وقال أنها حق ابني وإن لن نجده

أبدا ، وكذلك أرض جوزاء شقيقته وقد صرح بأنه حتى إن ماتت

فلن يلمسها أحد وهي لأبنائها من بعدها وهم ليسوا منا ، بل حتى

أرض دجى رحمه الله وماله لم يقربه أحد ولم يقسمه على الورثة

ومؤكد يضع احتمالات لأن يظهر له زوجة أو ابن لا نعلم عنه

ولا يريد أكل حقه ، فأخبريني كيف لرجل مثله أن يظلمك يا

" غسق وينكر حقك ؟

مررت أصابعها في شعرها ونظرت للأعلى ثم تنهدت قائلة بعجز

أعدك أن أفكر في الأمر وأن أتناقش معه فيه عمتي فلا تغضبي "

" من كلامي ولنترك هذا الحديث برمته أرجوك

ثم مدت رأسها ونصف جسدها خارج النافذة وقالت مبتسمة

هذا صوت حبيبة تتشاجر مع الدجاج ، جربي أن تخرجي "

" لتلك الجهة عمتي ستحبينها بالتأكيد

ابتسمت تلك بود ناظرة للجسد الذي تدلى الشعر مغطي نصفه تحار

في قلب هذه الفتاة الذي لا يحمل شيئا على أحد وقد نست في لحظة

كل حديثهما الذي بدت فيه مستاءة جدا وحانقة من كل شيء حولها

وهذا ما لاحظته عليها إن غضبت لا تغضب من أجل نفسها وسرعان

ما تعتذر ، وإن جرحتها الكلمة لا تردها على صاحبها أبدا وسرعان

ما تنساها له ، حركت عجلات كرسيها ما أن التفتت لها تلك وقالت

اذهبي أنتي وغيري من مزاج الصباح ، أنا سأذهب لجوزاء "

" ستمشط لي شعري وتظفره بما أنه جف أخيرا

تحركت من فورها تساعدها بسحب الكرسي لها وقالت وهما

تخرجان من الغرفة " شعرك محتفظ بجماله عمتي وطريقة

" ظفر جوزاء له تجعله أكثر تميزا

قالت مبتسمة وهما تسلكان الممر وتدخلان تقاطعه مع الممر الغربي

" الشعر من سمات قبيلتنا وبسببه سميت الحالك "

قالت غسق وقد وصلتا باب الغرفة " قبيلة والدتي أيضا تميزت

بالشعر الطويل الكثيف لذلك سميت بقبيلة غزير "

مدت نصيرة يدها لمقبض الباب قائلة " أجل سمعت عنها وهي

كما قلتِ سابقا تنحدر جذورها من الحالك "

وما أن أدارت مقبض الباب حتى قبّلت تلك خدها وهي لازالت

تقف خلفها وقالت مغادرة " سأخرج لحبيبة وأراك لاحقا عمتي "

وغادرت تتحاشى ملاقاة جوزاء تجنبا لتجنب تلك لها وخرجت للحديقة

من باب المطبخ الخلفي قريبا من قن الدجاج الواسع هناك وجلست على

حافة مقعد حجري قد وضع مع بناء المنزل ، جلست على ظهره وقدماها

على مقعده تراقبها مبتسمة حتى انتبهت تلك لوجودها وقالت تحدثها

من بعيد وبصوت مرتفع " لقد فقصت بيضات الدجاجة الحمراء "

قفزت من الكرسي قائلة بحماس " حقا !! أرني إياها فكم

" أعشق أفراخها الصغيرة جدا

وتوجهت نحوها تراقبانها في المكان الوعر الذي كانت تنام فيه

فوق البيض وقالت حبيبة " أنظري لرأسه من تحت جناحها

" يبدوا أنهم أربعة أو خمسه من انتفاخ جناحيها

قالت بحماس وهي تراقبهما " متى ستخرج بهم ؟ أريد

" رؤيتهم وهم يركضون خلفها

" سوت حبيبة وقفتها قائلة " يوم أو يومين وستخرج بهم

ابتعدت عنها ووقفت عند جذع شجرة السنديان التي لم تفقد خضرتها

ولونها الزاهي مع تقدم أيام الخريف تراقب حبيبة وتتشاركان الأحاديث

فهي تعرف كيف تصوغ الجملة العادية بحيث تصبح مضحكة واعتادتا

على ممازحة بعضهما وكأنهما صديقتان وليس خادمة وزوجة سيدها

" حبيبااااا "

كان ذاك الصوت الرجولي الصارخ الغاضب القادم من خلفها قد

جعلها تبتعد عن الجذع منتصبة في وقفتها ولم تتجرأ على الالتفات

للخلف وهي ترى نظرة الرعب في عيني تلك الخادمة وقد وضعت

" يدها على رأسها متمتمة " يا مصيبتي لقد نسيته

قالت غسق بتوجس وهي تسمع الخطوات المقتربة منهما

" ما هوا الذي نسيته ؟ "

بلعت تلك ريقها وقالت منزلة يدها " خرطوم المياه ولابد وأنه غمر

المكان ، وهو أكثر ما يكرهه إهداره هكذا وسأسمع منه الآن

" محاضرة أعرفها جيدا

وما هي إلا لحظات ومر ذاك الجسد الطويل بجانبها بذات تلك المشية

الواثقة الثقيلة والرشيقة في ذات الوقت حتى وقف على بعد خطوات

بينها وبين تلك التي تكاد تقطع شفتها من عضها تنظر للواقف أمامها

وقد أمسك خصره بيديه صارخا فيها " إن كنا لا نحتاج الماء فغيرنا

لا يجده ، كنت تركت أحد العمال تولى المهمة مادام عقلك

" ليس معك

همست تلك بلا حيلة " آسفة سيدي ولن أتولى ذلك مجددا ، أنا

" ... فقط أردت أن

" قاطعها بحدة " لا عذر يشفع لك أبدا

وعاد يذكرها بأنها تهدر شيئا إن فقدوه ما استطاعوا العيش بدونه وكانت

هي تتلقى التعنيف بصمت بينهما الواقفة خلفه قد تاهت عينها في شعره

المبلل وكان يرتدي بنطلونا من الجينز وقميصا أبيض وسترة سوداء

خفيفة مخصرة ولم تكن تفكر سوا في متى جاء واستحم ولا تعلم عنه !

عضت طرف شفتها وهربت بنظرها بعيدا عنه موبخة نفسها (سحقا

لك يا غسق ما الذي تركته عيناك فيه أيضا ؟ كادتا تدخلان تحت ثيابه)

عادت بنظرها لشعره الأسود الرطب اللامع المصفف بعناية كعادته

يحف ياقة قميصه الأبيض من تحت السترة ثم أغمضت عينيها متأففة

من نفسها (بماذا تسمين هذا يا حمقاء ؟ أتشتاقين له لهذا الحد وهوا

من لا يهتم حتى لوجودك في هذا العالم !!)

ولم تنتبه أن حديثه الغاضب ذاك توقف وأن الواقفة هناك اختفت أيضا

حتى فتحت عينيها وتيبست مكانها وقد وجدته أمامها بعد أن دار بجسده

لها تنظر لعينيه قاتمة السواد من الغضب ولازال يمسك خصره بيديه

" فرفعت كفيها بجانبي وجهها وقالت ببراءة " لم أفعل شيئا طبعا

اقترب منها عدة خطوات حتى كان أمامها مباشرة وقد تحولت

نظرته من الغضب للجمود التام فعضت طرف شفتها وأنزلت

رأسها للأسفل وقالت بصوت منخفض ناعم " آه نعم هي تولت

مهمة السقاية لأني سأخرج معها هنا ، لكن لا تصرخ بي

" بتلك الطريقة أخشى أن لا أتحمل مثلها

خرج صوته صلدا وكأنه يسحب فوق قطعة حديد

" لماذا تغمضين عينيك ؟ أتكرهين رؤيتي لهذا الحد ؟ "

رفعت نظرها له بسرعة وقد انفتح فمها من الصدمة ولم تعرف بما

تعلق فلم تتخيل أن يكون هذا السبب وأن يفسر الأمر هكذا ! شعرت

بأنها في مأزق حقيقي فإن قالت الحقيقة فضحت نفسها وذلك ما لن

تفعله أبدا فهل ستعترف بأنها أغمضتهما لأن مشاعرها تغلبت عليها

وخشيت أن تركض جهته وتحضنه من ظهره ! هزت رأسها بلا بقوة

رافضة الفكرة فقرب حاجبيه وغضن جبينه وقال بحزم

" لماذا إذا ... هل لي أن أفهم ؟ "

عضت شفتها مجددا فحتى تلك الإشارة برأسها لم تقصد بها جوابا

لسؤاله ، قربت مثله حاجبيها الرقيقان لكن في نظرة عابسة صغيرة

ورقيقة زادت عينيها طولا مقربة صفي الرموش الحالكة الكثيفة

وهمست برقة " لا تفرغ باقي غضبك بي مطر أقسم لم

أقصد ما فهمت "

مد يده وسندها على الجذع خلف رأسها وأحنى رأسه ناظرا لعينيها

(وهو ينظر لوجهها الدائري الجميل وعيناها السوداء والواسعة وخداها

المتوردان وتلك الخصلات التي طارت متمردة على الوشاح الذي

وضعته على رأسها ، عابثة صغيرة فاتنة وخطر على أي رجل

ذاك ما اعترف به وإن لم يقله لأنه قال بدلا عنه وبصوت متزن

لم يحمل الغضب هذه المرة لكنه لم يعبر عن أي شيء غيره

" أنتي أتتبعين هذه السياسة كلما كنت في مأزق يا لعوب ؟ "

نظرت لعينيه بصدمة لبرهة ثم رفعت حدقتيها للسماء وقالت بتفكير

حين كنت صغيرة وكان والدي يعاقب أحد أشقائي كنت "

" أستلم أنا عنه مهمة البكاء

ظهرت ابتسامة ساخرة على طرف شفتيه من تهربها من السؤال

" وقال ببرود ساخر " لم أراك بكيت الآن ؟

نظرت لعينيه مجددا وخشيت فورا على نفسها من سحرهما فأبعدت

نظرها مرخية له للأسفل وقالت " لأنك لم تضربها طبعا فأنا لم

" أكن أبكي إلا حين يضرب أحدهم

أبعد يده مسويا وقفته وقال ببرود " من هذا الكاذب الذي

" أخبرك أني أضرب النساء ؟

ولم يعطها مجالا للرد لأنه غادر مجتازا لها قائلا " لفي وشاحك

" جيدا والحقي بي عند السيارة

المخرج ~

بقلم الغالية : سما 23

غسق الدجى الخجولة* بها لا تستهين
لن ترضخ لك بسهولة*يا مطر شاهين
فهي تربية شراع* ذاك الرجل الأمين
وهي امرأة ذكية* رغم الحسن المبين
وهي امرأة قوية* رغم ظلم السنين
جاءت ديار الحالك* لكشف السر الدفين
فصارت سيدة القصر* وعاشت كالسجين
متى تفك قيدها * وتعاملها بلين
متى نراكما معاً * يا أجمل عاشقين

*****

نهاية الفصل ..... موعدنا القادم مساء الأحد إن شاء الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

طابت أوقاتكم بكل حب أعزائي متابعي جنون المطر في كل أرض

وبلاد ومنتدى

النقاط التي ثم إثارتها هذه المرة قليل وانحصرت في موضوعات

معينة ، كان النقاش محتد بين الحلوات عن معرفة مطر لغسق

وقرابتها منه وهالشيء بتعرفوه في البارت القادم إن شاء الله

أما سبب هروب أميمة وإخفائها الحقيقة عن شراع وزواج دجى

بيها بيتضح أيضا في الفصل وتعرفون من مطر تحديدا حل ألغاز

الحكاية المتشابكة وطبعا قربتوا منها في لحظات كثيرة لكن ترجعوا

تبتعدوا وما شاء الله عليكم ما تركتوا توقع ما قلتوه وأصبتوا في

بعض النقاط لكن الأغلب كان خطأ ، بالنسبة لسؤال غسق أو طلبها

من مطر تشوف والدها وأخوانها فهي عارفة استحالة هذا الشيء مع

التنازعات والعاداوات القبلية وإنقطاع أخبار الجميع عن بعض ورسم

حدود مغلقة وبعدهم عنها ولا ننسى إن غسق تخشى من إمساك مطر

ليدها الي توجعها في مسألة العمران

الأخت الغالية أيلول تسأل ليش أهملت شراع وأبنائه في الأحداث

والفصول الأخيرة وطبعا غاليتي لأن غسق كانت بينهم فهل المطلوب

مني الآن نقل حي ومباشر لحياتهم اليومية في سيناريوا ممل ؟؟؟

بالتأكيد ما حد منكم بيحب يقرأ هالخربشات وقتها وابتعرفوا في

الجزء الثاني إن شاء الله ليش ما كان لرعد ورماح وحتى جبران

قصص في هالجزء وبطلات

بالنسبة لتيم وسبب إهتمام مطر بيه نعرف جوابه في الجزء الثاني

الي بيكشف لكم أسرار كثيرة ، لي لي حبيبتي تستحقي تاج على تفاعلك

القوي حبيت جدا كل ردودك ، وأشكركم جميعا على ردودكم وتعليقاتكم

الرائعة وتوقعاتكم كل حبيباتي إلي يسعدني رؤية أسمائهم في كل

فصل وكل الجدد الي شرفوني برؤية حروفهم ورايهم في روايتي

المتواضعة .... أحبكم في الله جميعا

(جنون المطر) الجزء الأول

الفصل الثالث والعشرون

المدخل ~

بقلم الغالية : همس الريح

فديتني و كنت تتلهف لرؤيتي
و في يوم افترقنا و صار سلوتي بكائي
اهذا حبك لي ام انني احلم
ففراقك اصعب من حرب باوطاني
حلمت بان اكون لك عشا فيه تحتمي
و لكن بيوم حبست في مكاني
لن تنساني ابدا وعدتني
و قلت ستكتب في قلبك عنواني
اذا ضاقت بك الدنيا لحظةً
تاتي لحقلي كي تشكو حرماني
لن اغفر لمطر جرح قلبي
يا ليتني استطيع كيه بنيراني

من حبيبة / زوجة الكاسر

*****

! تحركت من تحت تلك الشجرة ولازالت تحاول استيعاب ما قال

نظرت لثيابها لبنطلونها الجينز الأنثوي وللقميص الأبيض المغلق

مع فتحات جانبية بسيطة وبه نقوش تحف حوافه جميعا وبذات

اللون وكان طوله لنصف فخذيها تقريبا ، حمدت الله أنها لبست

هذه الثياب فيبدوا أنه جلب شيئا يريد أن تنزله هي تحديدا أو لعله

سيستخدمها كعامل لديه لذلك طلب أن تلف حجابها لوجود العمال

هناك ، كشرت بعبوس من تلك الفكرة وتخيلت أن يذلها بالفعل

أمام عمالهم ، لكن ما أن اقتربت من السيارة المتوقفة في الباحة

الأمامية الواسعة اكتشفت أنه لا وجود ولا لعامل واحد أو لظله

حتى ولم يكن هناك سوا ذاك الرجل الذي يقف منحنيا على سيارته

فاتحا باب صندوقها الأمامي يتفقد شيئا ما فيها وكان بالقميص دون

السترة ، أبعدت نظرها عنه وتنفست بقوة فلم تفهم حتى الآن السبب

وراء وجودها هنا ، وكم أصبحت تكره مواجهة هذا الرجل المنتصر

عليها دائما وإن بسخريته ، عدت بأصابعها ونظرها عليهم وهي

تقترب من جهته ثم فكرت بعبوس ... مرت عشرة أيام على

غيابه الأخير ولا تعلم ما قررت وما ستقول ولم تنجح في أي

شيء ولا في إقناع نفسها أن هذا الرجل آخر من قد تجرها

. عاطفتها نحوه وأنها تكره وجودها في حياته

وصلت السيارة وكان منشغلا تماما بها فاتكأت بظهرها على بابها

مكتفة يديها لصدرها تنظر لقدميها على الأرض وللحذاء المسطح

الذي تلبسه ، كانت جميع حواسها منتبهة لوجوده لصوت تحريكه

لأي شيء ولذاك الهواء الذي ينفخه من شفتيه منظفا به جزء ما

من تلك القطع المعقدة في سيارته ، قد تتجاهل أي شيء حتى

تفكيرها فيما قد يصلان له بسبب خلافهما لكن تجاهل حضور هذا

الرجل في وجوده ذاك ما لن تحلم بتحقيقه ، عضت طرف شفتها

تنظر للجانب الآخر حيث الحديقة الواسعة ولعنت نفسها مئة

مرة على أفكارها السخيفة تلك ، بعد وقت قصير قالت ونظرها

" على حركة قدمها على الأرض " كيف أصبح جرحك الآن ؟

لم يصلها رده حتى خيل لها أنه لم يسمعها ثم قال وهوا يغلق

" صندوق السيارة بضربة واحدة قوية " أفضل بكثير

" وتابع وقد تحرك نحوها " أم تريدين التأكد بنفسك ؟

نظرت له بغيظ من سخريته منها ولم تعلق لأنه لم ينظر لها بل مد

يده لمقبض الباب فابتعدت عنه حينها ففتحه ومد يده لرسغها وأمسكها

منه وسحبها جهته وهي تتحرك نحوه مستغربه فأمسك خصرها ورفعها

مجلسا لها على كرسي تلك السيارة المرتفعة وأغلق الباب بعدما عدلت

ساقيها تنظر له باستغراب فلم تتوقع أن يخرجا من المنزل ! لف هو

للكرسي الآخر وركبه مغلقا الباب خلفه قائلا " لم تأخذي

من صنوان سوا قصر قامتهم "

رمقته بنظرة جانبية حانقة وهوا يدير مفتاح السيارة وقالت بضيق

" دماء صنوان تجري في عروقي بأكملها ، ثم لو أنك رأيت

قصر قامة نسائهم عني ما قلت هذا "

وضع يده وذراعه على ظهر كرسيها ينظر للخلف متراجعا

بالسيارة للوراء وقال " حسنا فقط لا تغضبي يا ابنة صنوان "

فتنفست بقوة ولم تعلق فهي ليست بمزاج شجار مع هذا الرجل

تحديدا ، خرج بالسيارة حتى كانا خارج سور المنزل المرتفع وأدار

المقود بقوة في حركة سريعة ودار بالسيارة وانطلق جانبا وهمس

مسميا بالله ولم يفتها همسه بعدها بدعاء تعرفه جيدا وكم سمعت والدها

شراع يقوله كلما خرجا بالسيارة لمكان بعيد وعلمت فورا أنه دعاء

السفر رغم أنه كان يتمتم به بهمس خافت وهوا يعدل الكرسي وطريقة

جلوسه عليه ثم المرآة أمامه لكن حواسها المنتبهة له جيدا استطاعت

فهم تلك التمتمة الهامسة ، نظرت جانبا حيت نافذتها المغلقة تفكر أين

يريد هذا الرجل أخذها ! وأين سيذهبان لمسافة بعيدة وهوا عاد من

حدودهم مع الهازان للتو ! بل لما هي تحديدا معه وإلى أين ؟

وما كانت طبعا لتوجه له هذا السؤال وهي تعلم جيدا رد الرجال عليه

فكم كانت تسمع تلك الردود من الكاسر ورماح كلما سألت (أين

سنذهب ؟) ويكون الجواب دائما (ستعلمين حين نصل أو اصبري

وستعرفين بنفسك) لذلك فضلت الصمت على سماع إجابة مشابهة

منه ، أو لعل قلبها الصغير المشتاق تمنى أن يكون فكر بأن يعيدها

لأهلها ولصنوان لأنه ذاق ذرعا منها ومن مهرها ، قبضت أصابعها

دون شعور منها وهي تفكر أن يكون فكر فعلا في فعلها ، أن يرميها

لهم لتتقاذف الألسن والدها وأشقائها هناك ولن يرحمهم أحد ولن يرحمها

(هي ، عبست مفكرة بوجوم (هل هذا هوا سبب قلقك حقا يا غبية ؟

هزت رأسها تطرد منه تلك الأفكار وغابت بنظرها في مدينة حوران

وشوارعها التي لم تراها سابقا فهي قد جيء بها هنا لا تعي شيئا حولها

وخروجها الوحيد من ذاك المنزل كان يوم زواجها وقد أخرجها عمه

قبل بزوغ الفجر ودخلتها في الظلام ولا تذكر أنها رأت في ذلك

. اليوم شيئا سوا ذاك الكابوس الذي أفاقت عليه

سرقت نظرة سريعة جهته وكان نظره على الطريق أمامه فعادت

بنظرها للنافذة من جديد وبسبب احتكاكها بأشقائها الرجال هي تعلم

جيدا كم يبغضون ثرثرة النساء في السيارة وهي لا تحتاج لتوبيخ منه

أو لسخرية لاذعة يعرف كيف يرميها بها كالرصاصة الموجهة للقلب

مباشرة لذلك قررت الصمت والتمتع بمناظر الأشجار التي تحولت لما

يشبه قبب من الذهب المتوهج تحت الشمس وتلك الحمرة النحاسية ليعطيا

معا منظرا لا تنساه العقول بسهولة فالحالك رغم أنها كانت الأقل عمرانا

إلا أنها الأكثر خضرة والأوفر مياها في تلك البلاد بأكملها ، أنزلت زجاج

النافذة سامحة للهواء بالدخول ولعينيها بالسفر في تلك المناظر الخلابة

دون عائق بما أن الطريق أصبح خال من المباني وقد خرجا من حوران

ومن مدينتين بعدها تشبهانها كثيرا وكأن يداً واحدة تلك التي بنت المنازل

جميعها ، ورغم أن الحركة كانت شبه معدومة لأن الوقت كان مبكرا

. جدا فقد فضلت أن لا تنزله حتى يخرجوا منها

أما الجالس خلف ذاك المقود يسلك الطرق بمهارة من حفظها شبرا

شبرا وحتى الحفر فيها يتخطاها بمهارة لمعرفته لأمكنتها فقد كانت

تسبح أفكاره في ذات السياق وإن بشكل مختلف فلم يتوقع صمتها

وأن لا تسأل عن وجهتهما وهما يجتازان حوران ومجاوراتها دون

توقف أو تخفيف في سرعة السيارة ولا شيء يصدر عنها سوا حركتها

الخفيفة وهي تثبت طرف وشاحها الذي كانت تتلاعب به الريح القوية

الداخلة من النافذة وهي في ذات الجلسة منذ وقت تنظر للخارج ولا

. صوت ولا لأنفاسها مع ضجيج تلك الرياح في محيط السيارة

لا ينكر أنه يعشق الصمت وهوا يقود وكم كان يسلك الطرق مجتازا

المناطق الواحدة تلو الأخرى ولا يمل من صمته وصمت كل شيء

حوله إلا إن كان معه أحد رجاله أو مجموعة منهم وكان حديثهم

طوال رحلاتهم تلك يدور حول مشاكل القبائل والحروب وخطط

المستقبل ولم يكن يرى ذاك الوضع مختلفا عن جلوسه وحيدا صامتا

خلف مقود السيارة فحتى في ذاك الوقت يستغل الهدوء والوحدة للتفكير

في أمور كثيرة ودراسة الخطط ومستجدات الأمور أما الآن ورغما

عنه لم يشعر بحاجته لذاك الهدوء والصمت لا يريد رفقة امرأة تثرثر

طوال الطريق بما يفيد ولا يفيد لكن صمتها المميت هذا لم يجده مريحا

ولم يعد يتخيل أن تستمر رحلتهما هكذا كل تلك المسافة مثلما لا يريد

أن يمضيها معها يتشاجران ويتعاندان في الرأي ... فما يريد إذا ؟

سؤال طرحه عليه عقله ولم يجد له جوابا فما سيتوقع من عنيدة جامحة

مثلها سوا أن تخالفه في رأيه وإن قال لها بأن الشمس تشرق من جهة

الشرق ، أرخى مرفقه على حافة النافذة مخللا أصابعه في شعره ثم

حركهم فيه بعشوائية مشعثا له ثم سرعان ما عاد وسرحه بهم معيدا له

كما كان وأنزل يده مع الأخرى تمسكان المقود بقوة وثبات وما أن

لف يمينا حتى قال " المدينة التي سندخلها الآن تسمى في

" مثل هذا العام بالمحرقة

نظرت له باستغراب ليس بسبب ما قال بل لأنه قال شيئا أساسا

وهو من آثر الصمت طوال ذاك الوقت حتى شعرت وكأنها وحدها

في السيارة ، تابع ونظره ما يزال على الطريق " ستري مساحات

" شاسعة من حقول الشعير المحترقة

وما هي إلا لحظات وشهقت بصدمة وهي تنظر من النافذة لما شرح

عنه منذ قليل وقد فاق ما وصف وهي ترى أرضا تمتد على طول النظر

وكلها سوداء متفحمة وكأنها قطعة من الليل ، قالت بصدمة تمسك

" إطار النافذة بيديها " كل هذا كان حقولا ؟

ظهرت ابتسامة صغيرة على طرف شفتيه فكما توقع هي تعلم بإحراق

الحقول بعد حصادها وقطع السيقان وما فاجأها فقط هوا تلك المساحة

الممتدة لكيلوا مترات طولا وعرضا ، قال بنبرته المتزنة " نعم كل هذا

كان حقولا للشعير والقمح فهذه القرى هي رئة الحالك وهي الداعم

الأساسي لها لإنتاج الشعير والدقيق ونحن نستعد الآن لحرثها

" وغرسها من جديد مع بداية الشتاء

همست ونظرها لازال على تلك الأرض السوداء التي لم تنتهي بعد

" يا الله ما أوسعها ! كيف ستكون في الربيع ؟ "

نظر جانبا حيث تنظر ثم عاد بنظره للطريق وقال " تكون بساطا

أخضر يتمايل مع الريح ومشهدا رائعا "

كانت لتسأل ملايين الأسئلة كيف يزرعونها كلها وكيف يجنونها وكم

يكلفهم ذلك ولمن ترجع ملكيتها ؟ وووو .... لكنها لن تفرح بمبادرته

بالحديث لتنطلق كالمذياع فلازالت تجهل هذا الرجل تجهل أغلب طباعه

ولازال يمثل ذاك الغامض بالنسبة لها ففضلت أن تكتفي بذاك القدر من

الأسئلة وتسبح في خيالها لمشهدها وكيف ستبدو فهي سبق ورأت مثل

ذاك المشهد لكن في مساحات معينة ومحدودة من الأراضي في طريق

مدرستها لكنها لم تكن بهذا القدر من الاتساع ولم يتم ضمها هكذا في

مدن كبيرة ، أراحت ذراعها على النافذة المفتوحة واتكأت بذقنها عليها

وهامت بنظرها في تلك الحقول المحترقة وأولئك الأشخاص البعيدين

هناك حيث أنها لم تكن تستطيع تمييز ما يفعلونه من كبر المساحة

وسرعة السيارة ، بعد مسافة كانا يشقان طريق ترابي لمنطقة أخرى

وقد مرا بمبنى لم يتبقى منه سوا نصفه وكان من الارتفاع والغرابة أن

رفعت نظرها له عاليا فوصلها صوته قائلا " هذا ما تبقى من قصر بني

بالطوب وهوا يعود للعهد العثماني وقد شيد منذ أكثر من أربعة قرون

وكان يسكن فيه فوق الثلاثة آلاف شخص يحوي حتى مستشفا بداخله

" لكن ما تبقى منه مجرد أعمدة وهذا الجزء الذي لم يأكله الزمن

نقلت نظرها من ذاك المبنى الطيني المغمور نصفه بالتراب للجالس

بجانبها حين تغيرت نبرته للسخرية المفعمة بالقهر ونظره على الطريق

أمامه قائلا " لو كان في بلاد غير بلادنا هذه لتم ترميمه منذ عقود ولم

يكن ليتهاوى هكذا مع مرور الزمن كحال الكثير من الآثار خاصة

مدن الساحل ولاجتذب السياح من كل مكان لكن لأننا أرض موبوءة

" يرفضون حتى حماية هذه المباني التي أنشأوا جمعية خاصة من أجلها

لم تعلم ما تقول وبما تعلق فهي لم تطلع كثيرا عن الحكم العثماني وتلك

الدولة الإسلامية العظيمة التي صمدت لقرون قبل أن تنهار ، كانت

تتجنب كتب التاريخ والسياسة لبغضها للقراءة عن الدماء والحروب

ولا تعلم عنها إلا القليل ونبرة الأسى في صوته وحدها ما جعتها

تتأمل جانب وجهه في صمت كصمته وقد لاحظت اشتداد قبضتيه

على المقود بتلك اليدين القوية والأصابع الطويلة وكانا ساعداه مكشوفان

لأن كمي قميصه كانا مثنيان لمرفقيه ، عادت بنظرها لأصابعه وقد

جمدت مكانها من الصدمة وهي تنظر لما في الأصبع البنصر ليده اليمنى

وكانت دبلة زواج رجالية من الفضة ! شيء لم تراه في يده سابقا ولا في

ذاك اليوم الذي عاد فيه مصابا ولا قبله ! وبدأ عقلها يتقاذف الأفكار ، هل

تزوج ليلبسه الآن تحديدا أم تذكر الآن فقط أنه تزوج أم ما السبب ؟ رفعت

نظرها من يده لوجهه وكان لازال نظره على الطريق وقد عاد لصمته

اتكأت بظهرها على زاوية الكرسي بينه وبين باب السيارة بحيث كانت

جالسة وجانبه مقابلا لها تماما وكأنها تواجهه بنظراتها فخطف نظره

لها ثم عاد به للطريق وعلق بسخرية " هل مللت من مشاهدة

الطبيعة أخيرا ؟ "

لم تعلق على سخريته اللاذعة تلك حين عاد بنظره لها بل مدت يدها

اليسرى ليده الممسكة بالمقود ونظرها عليها وحركت الخاتم بسبابتها

ونقلت نظرها له وكان حينها ينظر لها لأن الطريق الممتد أمامهم كان

ترابيا مستقيما تقريبا ، همست وهي تحركه بإصبعها للأمام والخلف

" في مكانه " هل تزوجت أم تضعه للزينة فقط ؟

نقل نظره من وجهها ليده ولإصبعها الذي لازال على خاتمه الفضي

ثم نظر للطريق قائلا بسخرية " قد يكون لأحمي به نفسي من

نصف جيشي الأنثوي ذاك "

زمت شفتيها قهرا منه وقد أبعدت يدها تنظر له بحنق (كم أتمنى

أن أخرج منه بجواب واحد مرة واحدة ويبعد كلمة قد هذه التي

يتهرب بها دائما وها هوا يسخر من كلامي يومها فهوا لن ينساها

لي أبدا) عدلت جلستها وكتفت يديها لصدرها ونظرت جهة النافذة

قائلة ببرود صقيعي " أعتقد أنه لم يبقى شخص في الحالك لم يعلم

بزواجك الغريب من ابنة زعيم صنوان ولست بحاجة لخاتم لتؤكده "

قال متجاهلا كل ما كانت تقول " سندخل الآن لأحليل وهي إحدى

" أكبر مدن الحالك فأغلقي النافذة

عضت شفتها غيظا منه وأغلقتها بعنف متمتمة بصوت لم يصله

" ما أروعه من مرشد سياحي "

وغابت بنظرها تراقب المباني وحركة الناس رغم أن غبار السيارة

لم يتركها تستمتع بشيء وهي تسرع على ذاك الطريق الترابي الذي

يشق منتصف البلدة لكنها سرعان ما عادت تسرق نظرها ليده ولذاك

الخاتم الفضي المدور وأخذها عقلها لأفكار أخرى أشد فتكا من سابقتها

سافر بها (للهزان) للعائلات التي عادت لتدخل تحت حماه ، لكل

الأحاديث التي سمعتها من النسوة اللاتي زرن مجلسهم وحديثهن

عما يفعل من أجل تلك المدن واللاجئين إليها وصيته الذي أصبح

يرن وسط تلك المدن كقطعة النقود على الأرضية الرخامية

عضت طرف شفتها بقوة وعينيها على ذاك الخاتم وتذكرت كلام

عمته عن زواجه بأخرى فماذا إن فعلها الآن وتركها هي لا زوج

ولا العمران وزد على ذلك كلام الناس حين يتزوج على ابنة شراع

! فكيف إن كانت تلك الزوجة واحدة من الهازان وزواج شهامة

حاولت كبت مشاعرها والسيطرة عليها مجددا فعليها أن لا تبالي

أن لا تعطيها له وأن لا تفرحه بذلها وانكسارها وانكسار والدها

لكن ذلك كان يذهب أدراج الرياح كمن شيد قصرا من رماد في

مواجهة الريح القوية ، كانت تشعر به وكأنه خاتم من نار

يتدحرج في حجرات قلبها حتى سقط في قعر كبدها

" لا تفكري فيه كثيرا "

رفعت نظرها لوجهه بسرعة وصدمة فكان نظره على الطريق لم

يزحه أبدا وشعره يتمايل مع الريح رغم قصره بسبب النافذة النصف

" مفتوحة ، نظرت جهة نافذتها مجددا وقالت ببرود " لا أفكر فيه

وغيرت سريعا مجرى الحديث قبل أن يرميها بتعليق لاذع

" حفظت المصحف في المدرسة أم في المنزل ؟ "

ابتسم ينظر للمرآة الجانبية قبل أن يعود بنظره للطريق قائلا

" ومن هذا الذي أخبرك أني أحفظه ؟ "

" حركت كتفيها قائلة " لاحظت وحدي

ففهم فورا أنه لم تخبرها عمته ولا شقيقته وكانت حركة واضحة

لتهرب من حديثهم السابق ، همس لنفسه (لا بأس بها كفكرة للخروج

" من صمتها المميت) قال باختصار " في الكتاتيب ثم والدي

! نظرت له وقالت باستغراب " هل كانت لديكم كتاتيب

" !لما ألغيتها إذا ؟

قال بعد صمت برهة " لأني حرمت من الدراسة بسببها

" واعتمدها والدي لأتعلم بدلا عنها

فتحت فمها بصدمة ثم عادت وأغلقته حين عجزت عن الكلام

" قبل أن تهمس " لم تدرس !! لا يبدوا لي ذلك

خطف نظره لها ثم عاد به للطريق وقال " لم أدرس كثيرا كان

والدي يرى أني لا أحتاجها فاعتمدت مثلك السباحة في عالم

" الكتب

" رمقته بنظرة باردة وقالت " فعلها عمك إذا ؟

فانطلقت ضحكته الجهورية المبحوحة مالئة السيارة فصرت أسنانها

بغيظ ثم قالت ببرود تنظر له بطرف عينها " أعتقد أن تفكيرك صائب

في أن تجنب الأطفال ما عانيته أنت لكن أن تحرم كبار السن من

حفظ القرآن أمر خاطئ "

" نظر لها وقال بابتسامة جانبية " لن تنتقمي مني بهذه أبدا

التفتت جهته بجسدها وقالت " ومن قال أنه انتقام ، أنت لا تستمع

لمشاكل النساء ولا أحد يوصلها لك إنك منقطع تماما عن نصف

شعب قبائلك ولم تسمع حديثهن وهن يتمنين أن يدرسن في دور

تحفيظ القرآن فأين هذه المدرسة التي ستقبل بهن من أجل

تعلمه ؟ "

" قال ونظره للطريق " رأي هذا أم أعتبره انتقادا لي ؟

تنهدت بضيق من سخريته وعادت لجلوسها السابق وقالت ناظرة

جهة النافذة " الحق علي أخبرتك "

*

*

فتحت باب الخزانة وأخرجت الصندوق من تحت الأغراض

المرتبة فوقه وفتحته ببطء بأصابع مرتجفة وكأنها لم تعرفه من

قبل ولم تحفظ تفاصيله التي تسكن حتى أحلامها رغم أنها لم تفتحه

منذ عام كامل .. منذ اثنا عشر شهرا بأيامها ولياليها ، أخرجت منه

قطع الثياب التي لم تبلى مع مرور السنين وظلت مثل ذكراها تتجدد

كل عام ، الجوارب الصغيرة والقفازات وتلك البذل ناعمة الملمس

ضمتهم لصدرها بقوة ونزلت تلك الدموع الواحدة تلحق الأخرى وهي

تدس وجهها فيهم وتكتم عبراتها بهم تستنشق رائحة ابنيها اللذان حرمت

منهما لإحدى عشر عاما وقد انتشلوهما من حضنها ليأخذوا معهما كل

شيء حتى ابتسامتها الصادقة وضحكتها النابعة من القلب ، إحدى عشر

عاما لم ترى أو تسمع شيئا أو شخصا يبرد نار جوفها وإن بخبر عنهما

إحدى عشر عاما من الحرمان وقد أخذوهما وأحدهما حديث ولادة

والآخر تعلم المشي للتو ، لا تعلم تبكي فقدها لهم أطفالا أم نموهما

بعيدا عنها ، تتخيل كل ليلة كيف أصبحا ... ؟ كل عام تتساءل كيف

أصبح طولهما وشكلهما ؟ مسحت عينيها سريعا بتلك القطع الناعمة

الباردة كقلبها الذي تحول لقطعة جليد منذ فقدتهم وأعادتهم مكانهم

حين انفتح باب الغرفة دون طرق فوقفت تغلق باب الخزانة وتعلم

جيدا من الذي فتحه دون أن تلتفت للباب ولا أن تراه

علمت أنك لن تنسي تعذيب نفسك بهم اليوم ، ارحمي قلبك "

" يا جوزاء فما كتبه الله لنا لا مفر منه

أغلقت الباب واتكأت عليه بيديها مرخية جبينها عليهما وقالت بعبرة

تساقطت معها دموعها مجددا " قلبي نار عليهما لا تزداد إلا اشتعالا

عاما بعد عام فكيف تريدين مني نسيانهما عمتي ؟ هل تنسي أنتي قاسم

وأنتي التي لا تعلمين إن كان حيا أو ميتا ؟ ما ستتوقعينه مني وأنا أعلم

أنهما موجودان في هذه الحياة ومحرومة حتى من سماع صوتهما وإن

" من بعيد وإن كلمة واحدة فقط

مسحت تلك عينيها والدموع التي غلبتها وقالت ببحة لم تستطع

" إخفائها في صوتها " وكلي أمرك لله هو لن ينساك يا ابنتي

حضنت وجهها بكفيها ولم تزدد إلا بكاء وعبرات وقد خرجت الكلمات

منها متقطعة بسبب بكائها الموجع " مثل اليوم عمتي .. مثل هذا اليوم

أخذوهم مني فلذة كبدي ، قد أنسى أي شيء قد أتناسهم في أي وقت إلا

هذا ، لما لم يراعوا تضحيتي بالزواج من ابنهم ؟ كانوا تركوني معهم

على الأقل وكنت سأعيش وأتحمل ذل صنوان جميعها ولا يبتعدا عن

حضني ، كانوا راعوا قلب الأم لكنهم كالجدران وكالصوان "

تقدمت تلك بكرسيها وقد كرهت عجزها عن مواساتها على الأقل

عن احتضنها وتخفيف دموعها التي تحجبها عنهم دائما ، قالت

بصوت مكسور كئيب ونظرها معلق بابنة شقيقها الباكية

" حلفتك بالله يكفي يا جوزاء أنتي تعذبين نفسك

وتعذبيني معك وبلا نتيجة "

مسحت عيناها وأنفها بكميها بقوة وتوجهت جهتها قبلت رأسها

وقالت بحزن " آسفة عمتي أعذري كلامي وما قلت لك "

مسحت نصيرة على يدها التي تمسك بها كتفها وقالت بحنان

" لا شيء تعتذري عنه يا جوزاء وأنا لست غاضبة منك

" وأعلم شعورك جيدا وأقدره

قالت متوجهة جهة سريرها وقد جلست على طرفه " لأنك

تعلمين شعوري وسبق وجربته مثلي ما كان عليا قول

" ذلك فمصابنا واحد

هزت عمتها رأسها متنهدة بحزن وقالت " أحمدي الله أنهما على

قيد الحياة والله قادر على جمعكما مجددا ولا أحد يعلم الغد

" ما فيه يا ابنتي

قالت وقد عادت دموعها للنزول رغما عنها " حتى إن مات

أحدهما فمن سيخبرنا ؟ الله وحده يعلم ما حدث معهما ولابد

وأن جدتهما لم تبقي جهدا لتكرههما بي هي لم تحبني يوما

" ولم توافق زواج ابنها مني

تقدمت نصيرة بكرسيها جهتها قائلة " وكنت تركت مطر تفاوض

" معهم حين استلم الزعامة ، لماذا عارضته في ذلك يا جوزاء ؟

مسحت تلك عينيها وهزت رأسها بأسى وقالت " ما كان سيكون

حلا عمتي أنتي تعلمي أن مطر لا يمكنه تفضيل شخص من أهله

على أي أحد في نفس وضعه من الحالك وكان سيفاوض على جميع

الأسر التي تعاني كمعاناتي ليكون عادلا بين الجميع وذاك يعني مقابلا

كبيرا جدا فلن يرضيهم أرضا أو أسرى مقابل ذلك وسيستغلون

" الأمر وأعلم ما ستكون النتائج

" هزت نصيرة رأسها بتفهم وهمست " لنا الله يا ابنتي لنا الله

فكت تلك شعرها وعادت لجمعها قائلة " عزيزة أخبرتني أن

" مطر عاد ، هل أخذت له زوجته فطوره أم أذهب لأراه ؟

" قالت عمتها بهدوء " بل غادر ما أن استحم فقد زارني قبل ذهابه

أنزلت جوزاء يديها من شعرها وقالت " تجدين أمورا عدة هنا في

" انتظاره فهوا غائب عن حوران من أكثر من شهر

" هزت عمتها رأسها بلا وقالت " بل خرج خارجها وأخذ زوجته معه

" نظرت لها باستغراب وصدمة قائلة " خرج أين وأخذها لما ؟

حركت تلك كتفيها قائلة بلامبالاة " وما علاقتنا بذلك ؟ هوا قال لي

" فقط أنهما خارجان من حوران ولن يعودا قبل يوم غد

تنهدت تلك بضيق قائلة " ويخرج بها وهوا عاد للتو من

الحدود ومتعب ولم يأكل شيئا ؟ "

واجهتها نصيرة بذات ضيقها قائلة " زوجان ويفعلان ما يحلو

لهما ومن حقهما الخلو ببعض متى أرادا ، جوزاء عليك أن

لا تنفثي نيران حقدك بالفتاة فهي لا ذنب لها لتكرهيها "

نفضت يديها قائلة بحنق " لست أكرهها عمتي فارحميني "

ثم تابعت بقهر وهي تمسك ياقة قميصها بقبضتها بقوة " اشعروا بي

وأنا أحترق أقسم أن جرحي ينفتح كلما رأيت أحدا من صنوان أمامي

تخيلي أن يقتل أحدا من الهازان ابنك قاسم أو تكتشفي أنهم

سبب اختفائه ما سيكون شعورك نحوهم ؟ "

تنهدت المقابلة لها بيأس منها وقالت " لن ألقي لومي على

الجميع مهما كان الأمر "

علقت تلك بحرقة " كلام عمتي ... مجرد كلام وأقسم أن يتغلب

عليك ذاك الشعور الحارق واسألي كل من فقدت لها شخصا

" بسبب أي قبيلة كانت وإن في ذات بلدتهم

تحركت بكرسيها للخلف قائلة " لكنها أصبحت زوجته عليك تقبلها

من أجله على الأقل فهي لا ذنب لها فيما حدث ولا تعلم حتى من

" يكونا ابنيك أو أنك تزوجت من صنوان

وخرجت مغادرة من حيث أتت تاركة خلفها التي تمسح وجهها

بكفيها ومررتهما على شعرها الأسود الحريري المجموع للخلف

" متمتمة بأسى " ليتني أقدر عمتي يا ليت

*

*

آخر ما تذكره تلك الطريق المعبدة المحفوفة بأشجار السرو والبلوط

والبساتين التي تخفيها على جانبيها وتلك المكالمات التي وردته ولم

يجب عن بعضها والبعض أخبرهم أنه خارج حوران ولن يرجع قبل

صباح الغد فعلمت أنها رحلة ستطول ليوم وليلة كاملة لا تعلم حتى إن

كانا سيقضيانها يسيران هكذا أم لا ؟ فقد سحبها النوم إليه بقوة ولم تفق

إلا على توقف السيارة وفتحت عينيها مبعدة رأسها عن زجاج النافذة

الذي كانت تتكئ عليها لتجد أن السيارة توقفت في مكان لم يمرا بمثله

في طريقهما الطويل ذاك وكانت تلفه الأشجار من كل جانب ، لا طرق

ولا حتى ترابية لا مباني ولا بشر !! نظرت للجالس بجانبها وهو

يطفئ محرك السيارة وقد قال وهوا يفتح بابه " تنزلين وحدك

أم تحتاجين لمساعدة ؟ "

نظرت حولها وقالت " أين نحن ؟ "

أنزل إحدى قدميه في الهواء ونظر لها وقال مبتسما بسخرية

" هذا السؤال يفترض أنه كان منذ ست ساعات وليس الآن "

وتابع وهوا ينزل " انزلي وستعرفين بنفسك "

فتحت الباب ولا تفهم شيئا مما يجري حولها وأين هما وما يفعلان

هنا !! وفكرت أنها ست ساعات سيرا بالسيارة أي أن الوقت الآن

تجاوز الظهيرة بكثير ، نظرت للأسفل ولارتفاع السيارة ثم بحثث

بنظرها عنه وكان في الجانب الآخر يبدوا يتفقد إحدى إطارات

سيارته منشغلا تماما عنها فعادت بنظرها للأرض وعضت طرف

شفتها ، عليها أن تقفز الآن لن تطلب مساعدته أبدا فأقل ما قد يفعله

أن يسخر من قامتها التي كانت تحسدها عليها نساء صنوان وهو

يراها مثلهم !! ولن تتخيل أن يفكر أنها تتعمد فعل ذلك كي ينزلها

أغمضت عينيها وقفزت ووجدت نفسها أخيرا على الأرض وبسلام

فنظرت حولها وهي تغلق باب السيارة وقالت وصوت خطواته

" تقترب من خلفها " لا أفهم أين نحن وما سر هذه الرحلة الطويلة ؟

كاد قلبها يقع من مكانه حين وضع كفيه على كتفيها وسار بها بضع

خطوات للأمام بين تلك الجذوع العالية للأشجار وقرب رأسه من

رأسها وهمس وطرف جبينه يتكأ على صدغها " أغمضي عينيك

" وأصغي جيدا وستعلمين أين نحن

أغمضت عينيها وبلعت ريقها بصعوبة لكن ليس لأجل ما طلب منها فلم

يكن بإمكانها سماع شيء سوا نبضات قلبها المجنونة تضرب في أذنيها

من اقترابه منها ومن ملامسة جبينه لها وهمسه الذي داعب أطراف خدها

أخذت نفسا طويلا وحاولت أن تسترخي وتتجاهل وجوده وأنفاسه وجسده

القريب من جسدها لتفعل ما طلب منها وتجنب نفسها كشفه لتوترها بقربها

منه ، فتحت عينيها فجئه حين استطاعت سماع ذاك الخرير الرقيق

المنتظم للمياه وصرخت غير مصدقة وهي تلتفت جهته

" !! العمران "

هز رأسه هزة خفيفة بنعم وعلى طرف شفتيه ابتسامة صغيرة

ناظرا لعينيها فدارت حول نفسها تنظر لما حولها قائلة بغير

" تصديق " قل قسما أنها العمران مطر وأني فيها الآن ؟

" جاءها جوابه من خلفها قائلا بهدوء " بلى أنتي في العمران الآن

ركضت دون شعور منها حيث كان يتناهى لها صوت خرير المياه

وتوقفت فجأة ثم التفتت للذي كان واقفا مكانه فقال وقد اتكأ بظهره

على السيارة خلفه مكتفا يديه لصدره " لا أحد هنا غيرنا ، الجنود

" جميعهم على حدودها جهة صنوان منذ البارحة

ابتسمت له دون تعليق ولقراءته أفكارها وما خشيت ثم أولته ظهرها

وتقدمت مجددا تجتاز تلك الأشجار والشجيرات تتبع صوت الماء

القادم من جهة الشرق ويطمئنها صوت الخطوات التي كانت خلفها

وعلى مبعدة منها أي أنه هنا ولن تضيع وسط الأشجار ... العمران

حلم كم تمنت أن تراه حقيقة مجددا فهي لم تراها منذ تلك المرة

الوحيدة حين كانت في السادسة من عموها قبل أن تأخذها الهازان

لا تتذكر جميع تفاصيلها لكنها تذكر جيدا جمالها وروعتها وجداول

الماء العذب التي تشقها لتجتمع في تلك البحيرة التي تتلألأ تحت

ضوء الشمس كالألماس ، تذكر أنها خضراء جميلة لم تعبث بجمالها

أيدي البشر وأنها تصلح لكل شيء كما كان يخبرها والدها فيمكن أن

تكون أراض زراعية في مساحات كبيرة منها حيث الخصوبة ويمكن

تحويلها لمدينة سكنية من حيت انبساط الأرض في أكثر من نصف

مساحتها ، ولن يفسد جمالها حال بقيت كما هي هكذا ، وصلت أخيرا

لذاك الجدول الصغير وابتسمت بسعادة ما أن وقعت عيناها على الماء

الذي يشق طريقه من بين الصخور المحفوف بها وعلمت من ارتفاعه

أن الأمطار زارتها لأكثر من مرة في بداية هذا الخريف فرش المطر

الخفيف بالكاد لا يتركها طوال العام وشتائها شديد الأمطار والضباب

رائعة بجمالها كما يعرفها جميع من في تلك البلاد فهي أجمل مدنها

على الإطلاق ، اقتربت من المياه البيضاء النقية التي تظهر تفاصيل

الصخور المنحوتة من تحتها ثم التفتت للخلف حيث الواقف على بعد

خطوات منها يديه في جيوب بنطلونه وينظر لها بصمت وقال هذه

المرة أيضا وبدون أن تتحدث " يمكنك دخولها حافية لكن

حاذري فبعض الصخور زلقة "

ابتسامة أخرى صادقة نقية ما أهدتها له دون أن تتحرك شفتيها مطلقة

أي كلمة ورفعت يديها لوشاحها أولا ونزعته بما أنه لا أحد هنا كما قال

ومؤكد بأوامر منه أخلى الجميع المكان ، فكت شعرها الذي كانت تجمعه

تحت ذاك الوشاح الحريري الناعم لينسدل على ظهرها ثم مررته من تحته

بينه وبين عنقها وعقدته به في الخلف تحت مؤخرة رقبتها ولم يبقى للريح

سوا خصلات غرتها تتلاعب بها بكل رقة ، انحنت وخلعت حدائها فلم تعد

تستطيع مقاومة إغراء تلك المياه النقية التي لا يشوهها سوا بعض الوريقات

الصفراء التي تتراقص مع جريانها وكم من حكايات سمعتها عن مصادر

تجمع هذه المياه نقية هكذا عذبة تجري فوق أرض صخرية ، أنزلت قدمها وشعرت بدفء ذاك الماء بسبب شمس الظهيرة رغم أن الصخور كانت باردة ترسل قشعريرة في الجسد تزيد الأمر روعة ، سارت مع تيار الماء ثم عكسه ونسيت كل شيء حولها تستمتع بصوته وغناء العصافير من حولها ، نزلت وغرفت من مياهه بيديها ورفعتها لوجهها ورشتها عليه مبتسمة لن تبالي إن سخر منها مجددا بلعبها به ولم تتساءل حتى الآن لما أحضرها هنا ، ما تعلمه فقط ومتأكدة منه أنه إن أراد بهذا أن تغير رأيها فهي برؤيتها لها لم تزدد إلا تعلقا بها ، رفعت جسدها واستقامت في وقفتها تنظر له حيث نزل مستندا بقدميه عند طرف الجدول على بعد خطوات عديدة منها وبدأ بالوضوء بمياهه فتذكرت حينها أنهما لم يصليا الظهر ، تذكر أنه أوقف السيارة ونزل في طريقهما لكنها لم تنزل طوال تلك الرحلة ولم تدخل الحمام ، نظرت خلفها لامتداد جدول الماء واختفائه بين الأشجار ثم عادت بنظرها له وكان يمسح رأسه فقالت " مطر "

نظر جهاتها فأبعدت نظرها عنه وقالت " سأبتعد قليلا فقط وأرجع

" لأتوضأ ونصلي معا

قال وهو ينزع فردة حدائه اليمنى " لا تبتعدي كثيرا ولا تتأخري أو

لحقت بك "

تحركت من فورها تكتم ابتسامتها وتلك الشهقة المصدومه وهي

تتخيل أن يلحق بها فعلا

*

*

جلس على مقدمة السيارة التي قربها من مكانهما بعدما أخرج سلاحه

ووضعه بجانبه يراقب التي لازالت لم تكتفي من تلك المياه تجلس

على حافة إحدى الصخور العالية وقدماها في الماء مولية ظهرها

له متكئة للخلف قليلا مسندة نفسها بيديها خلفها على الصخرة تراقب

كل شيء حولها ثم رفعت رأسها عليا ليظهر أنفها المستقيم الصغير

وجبينها ورموشها الكثيفة وأعلى جفنيها حين طارت غرتها للخلف

بسبب رفعها لرأسها تراقب حتى السماء التي رسمت فيها السحب

البيضاء مسارات طويلة مخفية أشعة الشمس القوية خلفها لتعطيها

جوا خريفيا معتدلا ورائعا ، انزلق نظره نزولا من وجهها وغرتها

الحريرية المتطايرة لخصرها النحيل وشعرها الذي تلاعبت الريح

ببضع خصلات منه رغم أنها تربطه بوشاحها وقد تذكر حديث عمته

حين سألها عن سبب خروجها من مجلس الضيوف في تلك الحالة وقد

قالت له ((" الأحاديث كانت كثيرة ولا أعلم السبب الحقيقي فقد كنت

منشغلة مع شقيقة زوجي رحمه الله وهي تحكي لي عن وجود سليمان

مع من طوقوا حدود حجور ليلة هربت تلك العجوز ووجدتم فتى

مصاب هناك "

هز رأسه بحسنا دون أن يعلق وها قد علم ما يكون ذاك الخبر الذي

تحدثت عنه وتابعت عمته تنظر له بحيرة " هل من مشكلة يا مطر ؟ "

هز رأسه بلا ولم يعلق فتنهدت بحزن وقالت " هي سبق وخرجت فجأة

صباح زواجكما من مجلس الضيوف حين سمعت لأول مرة عن مذبحة

خماصة ، الفتاة كتومة جدا ورقيقة لحد لا يمكنك تخيله يا مطر وأرى أن

ظروف زواجكما تؤثر عليها سلبا وإن لم تكن تظهر ذلك ، هي بحاجة

لبعض الرقة والرفق مثلما بحاجة لبعض الوقت ولا تنخدع أنت مطر

الرجل بقوتها وعنادها فالمرأة تبقى امرأة مع بعض اللين تحصل

منها على ما تريد فراعي غربتها وبعدها عن أهلها بني "))

أبعد نظره عنها وهز رأسه هزة خفيفة وكأنه يطرد فكرة ما من

رأسه وهمس بضيق " النساء النساء .... بل هذه تحديدا ! "

رفع سلاحه ومرر الرصاصة من المخزن بدفعة واحدة ورفعه متمتما

" شراع صنوان لو أنك لم تتهور في رعايتها منذ عامين ما كانت هنا

الآن وما اضطررتني لما فعلت وكنت أمسك نفسي عنه من أعوام "

ثم تأفف قافزا من فوق مقدمة السيارة واقفا وأعاد السلاح مكانه عليها

ثم اقترب منها حتى وقف بجانبها يديه في جيوبه ينظر جانبا لجريان

الماء وقد سوت هي جلستها تنظر للجانب الآخر وكأن كل واحد منهما

يتهرب من قول شيء ما ، هي تخشى من فتحه للموضوع الذي لازالت

تتهرب منه وتخشاه وهو يفكر في شيء آخر مختلف تماما ، خرج صوته

أخيرا منهيا ذاك الصمت وقال وقد عاد بنظره للجدول تحتهما ولقدميها

البيضاء الناعمة وسط مياهه " هذا المكان يشعرك بأنك بعيد

عن كل مشاكل البلاد ونزاعاتها "

رفعت نظرها له وعيناه لازالت شاردة مكانها فنظرت للأسفل أيضا

وهمست " نعم معك حق "

ثم عادت لرفع رأسها مجددا والنظر له فكان هذه المرة ينظر لذاك الجانب

مجددا فأبعدت نظراتها عنه تفكر في هذا الرجل الشديد الصمت والغموض

لا أحد ولا عائلته يعلمون شيئا عن خصوصياته ! ما يريد ؟ فيما يفكر ما هي

أحلامه الشخصية وطموحاته ؟ ما يقرر لأجل الغد ؟ ومن هو مطر القلب

والمشاعر وليس مطر العقل ؟ مررت أصابعها في غرتها ترفعها

للأعلى ثم أعادت يدها في حجرها وقالت ونظرها على

الماء تحتها " مطر "

جاءها رده في همهمة خافتة دلت على انخراط عقله في أفكار ما

فقالت ولم ترفع نظرها عن الأسفل " هل أسألك سؤالا وتجيبني عليه ؟ "

نظر لها تحته فكانت على حالها ذاك تنظر للماء تحتها فجلس أيضا

وكان لا يفصلهما سوا مسافة بسيطة جدا ناصبا إحدى ركبتيه ومنزلا

قدمه الأخرى للأسفل وقال بهدوء " إن كان لما تزوجتك فلا جواب

عندي عليه وغيره اسألي "

نظرت لجانب وجهه مستغربة وكان ينظر أماما للأشجار البعيدة قليلا في

الجانب الآخر يريح ذراعه على ركبته المنصوبة أما الأخرى التي في جهتها

فيسندها على الحجر الكبير الذي يجلسان عليه ولم تفهم لما هو على استعداد

للجواب عن أي سؤال دون خوف أو تردد بينما ذاك السؤال لا !!

قالت " لن أسأل عن ذلك لأني أعلم بأنك لن تجيب "

ثم أبعدت نظرها عنه ناظرة للأمام مثله عندما لم يعلق وقالت بهدوء

حذر " إلى من تحن أكثر ؟ لمنزلك وأنت في جبهات القتال أم

للجبهات وأنت في منزلك وسط عائلتك "

هو من نظر لجانب وجهها هذه المرة وكأنه يحاول فك رموز سؤالها ذاك

ومغزاها من طرحه فحركت قدميها في الماء بعشوائية ونظرها عليهما

وقالت " ليس لأي غاية في نفسي أطرح هذا السؤال يا مطر ولست

" أعني الوقت الحاضر أيضا فلا تلعب الظنون بك

أبعد نظره عنها وقد أراحته من نصف استنتاجاته عن سؤالها

" ثم قال مبتسما " هوا الفضول إذا ؟

نظرت للجانب الآخر بعيدا عنه وقالت مبعدة خصلات غرتها لخلف

أذنيها " لما لا تسميه تعارف بين شخصين لا يعرفان بعضهما وهما

" زوجان من أكثر من شهرين

نظر مبتسما لجانب وجهها الذي لا يظهر منه إلا القليل لإبعاده عنه

وقال " ولن نلعب لعبة سؤال بمثله طبعا لأن سؤالي سيكون

" لما دخلت أراضي متسللة ؟

شعرت بجسدها تيبس وتنفسها توقف وفكر عقلها بسرعة البرق بأنه

لم يطرح هذا السؤال سابقا رغم أنها كانت تتوقع أنه أول ما سيقوله

ما أن يراها ويتحدث معها ، نظرت ليديها في حجرها ما أن اجتازت

صدمتها تلك وقالت بهدوء " لا فأنا لا أحب تلك اللعبة ولن أجيب

" عن السؤال أيضا

عض طرف شفته يمسك ابتسامته ورفع يده من على الصخرة وأمسك

بها يدها من حجرها متجاهلا ارتجافها من حركته المفاجئة وقال ناظرا

لأصابعها وهو يحركها بين أصابعه وكلاهما على فخذها " حين أكون

في منزلي أو في جبهات القتال ، في نومي ويقظتي وفي أي مكان أكون

فيه لا أحن إلا لوطن واحد لبلاد لها حريتها وسيادتها ولشعب يعيش

فوق أرضه بكرامة وينام مرتاح البال ، لا أحن إلا لمستقبل أفضل

لأبنائي لأهلي ولأبناء وطني ، لا أحن يا غسق إلا لليوم الذي

أعيش فيه على هذه الأرض لا أسمع أخبارا عن الموت

والحروب والنزاعات القبلية "

ثم رفع نظره لوجهها ولعينيها التي لازالت معلقة بوجهه ولنظرة الحيرة

والضياع فيهما وقد تشابكت نظراتهما في حديث مبهم طويل وغامض

فرفع يده التي يرخيها على ركبته المنصوبة لوجهها مبعدا خصلات

غرتها جانبا وأصابعه قد لامست جانب خدها وصدغها ويده الأخرى

لازالت تمسك أطراف أصابعها ليبدأ قلبها بعزف سيمفونيته المعهودة

حين قرب وجهه من وجهها حتى اتكأ بجبينه على جبينها وتلامست

أنوفهما وأصابعه تتغلغل في شعرها تشعر بدفء كفه على خدها

وقد همس برقة " آسف يا غسق أعلم أنه جواب ما كانت لتحبه أي

امرأة من زوجها لكني لا أعرف قول غير الحقيقة ويوم تتوحد بلادي

ويعيش أهلها عليها بكرامة سأحن لأمور أعلم أنها أهم بكثير لدى

غيري من الحروب أما قبل ذلك فلا أستطيع مهما عاندتني نفسي "

أنزلت نظرها مرخية جفنيها للأسفل رغم أن وجهها ما يزال ملاصقا

لوجهه حتى أغمضتهما برفق وهمست " إذا أنت ملك للجميع إلا

أهلك يا مطر "

لم تفتح عينيها ولم تشعر سوا بأنفاسه على شفتيها حين همس مثلها

" لا تقارني يا غسق فلكل ذي حقٍ حقه "

فتحت عينيها ونظرت لعينيه مجددا فابتسم هامسا بخفوت أكثر

" مثلما من حقك أنتي وحدك أن أقول لك بأنك أجمل امرأة رأتها

عيني في هذه البلاد وخارجها "

هربت بنظرها منه مجددا وقالت مبتسمة " ألانها الحقيقة أم لأني

" الأحق بسبب عقد الزواج والحلال والحرام يا ابن شاهين ؟

خرجت ضحكة صغيرة رغما عنه ورفع يده الأخرى تاركا أصابع

يدها وحضن بها وجهها أيضا وقال ضاغطا أنفه على أنفها مقربا

وجهيهما أكثر من قربهما القريب ذاك وقال مبتسما " الجواب

" لديك طالما تنظرين للمرأة كل يوم يا ابنة شراع

لم تستطع السيطرة على مشاعرها أكثر ، كان قربه معذبا وموجعا والشعور

بأنفاسه كان يحرقها مهما هربت من النظر له ، كانت تنجرف للهاوية ولا

يعلم ما يحدثه فيها بكل هذا ، رفعت نظرها له مجددا ورفعت يدها في حركة

بطيئة ونظراتهما المتشابكة تحكي قصصا كثيرة من الصمت ، لامست بها

جانب وجهه وما أن شعرت بملمس بشرته ولحيته نزلت سريعا بأصابعها

حتى عنقه وكأنها استفاقت لنفسها ولما فعلت ولم تكن من قرر فعله ولا

وافق عليه ، أمال رأسه قليلا وأصبح أنفه ملامسا لخدها بدل أنفها وحركه

عليه برقة مقربا شفتيه من شفتيها وأشعرها ذاك التلامس الخفيف بينهما من

حركته تلك بتقلص أحشائها وقد نزلت يدها من عنقه ممسكة لياقة قميصه

بقوة وكأنها الشيء الوحيد الذي قد يساندها وقد تجد فيها العون والشجاعة

ارتخت يداه فجأة وأخرج أصابعه من شعرها وابتعد عنها حاملا معه أنفاسه

التي كانت ترتشفها حد الخدر ووقف فجأة وابتعدت خطواته عنها تاركا

جسدها يتلاشى من تلاطم مشاعرها المتقدة تلك وهي تصطدم بجدار هروبه

المفاجئ تتنفس بقوة ممررة يدها على عنقها تحت شعرها متمنية أن ترتفع

تلك المياه حتى تأخذها معها ، لم تفهم لما فعل ذلك ! كانت تعلم ما كان يريد

فعله ولم ترفضه بل شجعته منساقة خلف ذاك الهيجان في مشاعرها ، هو

! لم يتراجع عن فعلها سابقا بل كان يقبلها دون حتى تردد فما حدث الآن

ذات الأسئلة تلك التي كانت تدور في رأسها لحظتها حتى شعرت بأنه

يغلي كالبركان الذي لا تجد حممه فوهة تخرج منها ، انحنت للماء فورا

وغرفت منه بيديها ورمت ذاك الماء على وجهها ومسحت بيديها على

شعرها للأعلى وأخرجت قدميها من الماء هامسة بسخرية قهر

" شرحها لك منذ قليل يا حمقاء لا تعنيه في شيء "

" غسق "

التفتت له من فورها برأسها فقط فكان عند مقدمة السيارة يمسك

" سلاحه في يده وقال وهوا يصوبه جهة أعلى الأشجار " تعالي

عادت برأسها للأمام مثبتة نفسها لتتصرف مثله وكأن ما كان قبل

قليل لم يكن ووقفت تمسح يديها ببعض ثم لبست حدائها دون أن تنزل

بنطلونها المثني لنصف ساقيها كي لا يتبلل بالماء منهما وتوجهت

نحوه فقال ولازال ينظر بعين واحدة من عين التصويب في سلاحه

للأعلى " الجو أصبح يبرد هنا والماء كذلك وبقاء قدميك

" فيه سيمرضك

هزت رأسها بحسنا وكأنه يراها وسرعان ما دوى صوت الرصاصة

في الأجواء ودون شعور منها أغلقت أذنيها صارخة بذعر فنظر

لوجهها الذي شحب وكأن الماء تجمد في عروقها ومد لها السلاح

" قائلا " ستعتادين صوته هيا دورك سأريك كيف تستخدمينه

نظرت له بصدمة ولازالت تغلق أذنيها بكفيها ثم هزت رأسها بلا

وقالت متراجعة خطوة للخلف " لا أستطيع ذلك ولا تفعلها

" مجددا مطر أرجوك

" عقد حاجبيه وقال بضيق " هيا لا تكوني جبانة عليك أن تتعلميه

حركت يدها أمام وجهها قائلة " لا ليس عليا ذلك أنا لا أحب تعلمه

" ولا أريده ولست أحتاجه أيضا ، أليس الرجال من يحمون النساء ؟

ولم تكن تستطيع شرح سبب خوفها منه ، سبب كرهها لكل ما يربط

له بصلة وأنها أضعف ما يكون أمام الموت والقتل والدماء التي

تنزف من الناس فهل سيتخيل بأن تفعلها هي يوما !

تحرك ناحيتها وأمسك ذراعها قائلا بحزم " ليس عليك استخدامه

بل تعلمه للضرورة يا غسق فلا تعاندي وتغضبيني منك "

حاولت إفلات ذراعها منه قائلة بضيق " لا أريد ، هل جلبتني

هنا من أجل هذا ؟ لو سألتني ما تركتك تتعب نفسك "

أفلت ذراعها بقوة وقال بغضب " لم أجلبك لأجله فالفضاء واسع

في مدن الحالك فاتركي عنادك جانبا يا امرأة "

شعرت بكلمته كالخنجر في صدرها رغم أنها ليست كلمة تهان بها

أي امرأة لكنها شعرت بها من فمه وكأنه يصفعها

بالنكرة وهوا من لم ينادها يوما إلا باسمها أو بابنة شراع ، كم

كرهت ذاك الشعور وتلك المشاعر الخانقة فهل وصل بها الحال

أن تتضايق من نطقه لأي كلمة قد لا تعجبها وإن كانت عادية ؟

هل انجرفت خلف مشاعرها لهذا الحد ! سؤال لم تجد أي جواب

عليه ليتحول لعبرة تجمعت في حلقها وكأنها كتلة متحجرة كتمها

لها كان يكاد يفجر الدموع من عينيها وهي ترى نظرته الغاضبة

فخرج صوتها الناعم يائسا منخفضا تجاهد ملامحها التي تنذر

" لوشوك انفجارها " مطر لا أستطيع

حرك رأسه بقوة برفض قاطع وهوا يمد لها السلاح وقال بحزم

لن تجدي معي هذه المرة نظرتك الساحرة هذه يا غسق "

" وستفعلينها وإن مرغمة

صاحت باعتراض وقد ضربت قدمها بالأرض " ولما تجبرني على

" ما لا أريد ؟ هل على كل امرأة في منزلك أن تحمل السلاح مثلك

صر على أسنانه يستغفر الله هامسا وكانت تدرك أنه يمسك نفسه بصعوبة

عن ضربها بأخمس ذاك الرشاش أو رميها به وقد علا تنفسه الغاضب من

حركة أضلع صدره العريض من تحت ذاك القميص الأبيض الحريري

وخرجت الحروف من بين أسنانه " أنتي شيء آخر وعليك أن تتعلمي

الدفاع عن نفسك بأي طريقة ولا أفضل من السلاح في مثل هذه البلاد "

تراجعت خطوة أخرى للوراء تهز رأسها برفض وبدأت الدموع بالتجمع

في عينيها ولم تستطع فهم إصراره القوي لتتعلم هذا الشيء ومعنى كلامه

عن حاجتها للدفاع عن نفسها !! قالت بعناد أقوى " الله يدافع عني

دون قتل أو دماء ، هو من يحمي البشر "

" غســــــــق "

تلك الصرخة الغاضبة باسمها فجرت آخر حاجز وضعته لتلك الدموع

كي لا تتسرب من عينيها فتساقطت تباعا كحبات اللؤلؤ وقد زمت شفتيها

المرتجفة بسبب بكائها ذاك وقد لاحظت من خلال تلك الغشاوة والدموع

ملامحه التي بدأت تلين ببطء ، ولم ترفع ولا يدها لمسح تلك الدموع

المتناثرة على وجنتيها وهمست بصوت ضعيف مرتجف " كنت أثق

في حماية والدي وأشقائي لي والآن أثق من أنه لن يمسني ظفر

إنسان وأنا تحت حمايتك فلما أتعلم هذا الشيء ؟ "

مرر أصابعه في شعره ناظرا للسماء وأخرج زفيرا قويا ثم أغمض

عينيه بقوة يتذكر كلام عمته مجددا عن اللين في التعامل معها لكنه

لم يعتد ذلك لم يعتد مخالفة ما يأمر به ولم يعرف بديلا أبدا عن

إلقاء الأوامر لكن هذه المرأة تعرف جيدا كيف تتسلل للنخاع حين

تريد شيئا أو ترفض شيئا ويعلم أن دموعها لا تنزل سدا فهي بالكاد

تتغلب عليها لتملأ محاجرها دون نزول ، وضع السلاح على السيارة

وتوجه نحوها وهي تمسح دموعها بطرف كم قميصها ، وهذا أمر

آخر يعجز عن التصرف فيه ... المرأة الباكية التي قد لا يسكتها

" شيء ، أمسك يدها وأبعدها عن وجهها هامسا " أش يكفي الآن

ثم مسح بيده الأخرى على خدها مبعدا غرتها عنه وهي لازالت تسدل

رموشها للأسفل مبعدة نظرها عنه وقال مبعدا خصلات غرتها خلف

" أذنها " ما السبب يا غسق ؟ أعتقد كان عليك ذكره من البداية

أشاحت بوجهها جانبا فابتعدت يده عنه وقالت ببحة ووجنتين مشتعلتان

احمرارا " حين كان عمري سبع سنين استوقفتنا مجموعة مسلحة ، كنا

في السيارة أنا ورماح والكاسر ووثاب وخالي وزوج خالتي ، كنا صغارا

وقتها وكانوا رجالا مخيفين وبيدهم أسلحة ، كانوا مجموعة وتشاجروا

أمامنا ورفعوا السلاح على خالي وكانوا سيقتلونه أمام أعيننا دون

" اكتراث لصراخنا وبكائنا الهستيري

ارتجفت يدها بوضوح شعر به من معصمها الذي لازال في قبضته

وتابعت وقد عادت دموعها للجريان على خديها تمسحها بيدها الأخرى

اعترضهم مجموعة أخرى في الوقت المناسب لكانوا قتلوه لكن الأبشع "

أنهم قتلوا رجلين منهم أمام عيني وبدم بارد ونجونا منهم بأعجوبة وقد

أصيب زوج خالتي ونزف طوال الطريق حتى كاد يموت ، كان ذاك

الحدث سببا لكوابيسي لأعوام وأصبت بحالة هلع من أي موقف يستخدم

فيه السلاح وإن كان سلميا ، وقد حرص والدي لأعوام أن لا أراه

في منزلنا حتى كبرت لكن خوفي منهم ومن القتل والدماء

" لم أتخطاه لليوم

تنفس حينها بتفهم وهز رأسه بحسنا وإن لم تكن تراه ، ها قد علم

الآن سبب تلك النظرة حين رأت السلاح على كتفه وحين مده لها

لتحمله لغرفته ، سار بها جهة السيارة يسحبها من رسغها قائلا

" لا بأس لن أطلب منك ذلك مجددا "

وتابع وهوا يفتح لها الباب " كان عليك إخباري من البداية

" بدلا من أن تعاندي وتغضبيني

لم تعلق وهذا ما توقعه منها فهي كانت ترفض إظهار ضعفها أمام

أي كان وكانت ستكتفي بالرفض فقط وما كانت لتتحدث لولا دموعها

التي استغرب حتى أن سمحت لها بالنزول أمامه ، رفعها من خصرها

مجلسا لها على الكرسي وأخرج قارورة الماء من تحته ومدها لها

وأغلق الباب ما أن أخذتها منه ودار حولها وركب في كرسيه

وأدار مفتاحها فوصله همسها المبحوح قائلة

" أنا آسفة "

نظر لها وكان نظرها على القارورة في حجرها تقبض عليها بيديها

بقوة وقد أخفت غرتها أغلب ملامحها فتراجع بالسيارة للخلف قائلا

كنت أريد ذلك من أجل مصلحتك يا غسق ولو أخبرتني بحالة "

" الخوف تلك ما عرضت عليك الأمر

وتابع وقد انطلق بالسيارة في الطريق الذي شقته إطارات السيارات قبلها

في المكان " لن أتوانى عن حمايتك أبدا ولن يمسك أحد بسوء وأنا حي

أتنفس لكن المستقبل لا يضمنه أحد ولاحظت من ليلة زواجنا أنك لا

تتقنين استخدام السلاح وأنا من ضن أنك ستكونين تدربت

" عليه جيدا في منزل والدك

نظرت جهة النافذة وخرج صوتها خفيضا لازال يؤثر عليه بكائها

السابق وسجنها لعبرتها كل ذلك الوقت " علمني عليه الكاسر نظريا

وفي يديه هو دون أن ألمسه وقال أن الضرورة قد تجعلني أستخدمه

" متغلبة على خوفي لكني لم أستطع إمساكه والرمي به مهما حاولت

خطف نظره لها ثم عاد به للطريق الترابي الذي وصلاه أمامه وقال

لكنك تصرفت بشجاعة وثبات يوم أصبت ، ألم يذكرك ذلك بذاك "

" الموقف ؟

نظرت له سريعا فقال من قبل أن تتحدث " لا أقصد تكذيبك ولا

" تستعجلي الحكم على كلامي فهذا مجرد سؤال

نظرت ليديها في حجرها وهمست ببحة " قد يكون مما حكا عنه

" الكاسر وكانت شجاعة لحظية فقط

أغمض عينيه لبرهة متنفسها بضيق فكلامها يدل على أمر واحد أنها

قضت تلك الليلة تبكي ، وصله صوتها مجددا " في منزل والدي لم

يكونوا يخبروني عن أي إصابة لأحد أشقائي ولا أراه إلا وجرحه

مضمد منذ حالات الهلع تلك في طفولتي ، وأنا نفسي لم أتخيل أن

" أتحمل منظر الدماء ورائحتها تلك الليلة

وتابعت بهمس حزين " أنا أثق في حمايتك لي يا مطر وإن عجزت

" أنت فالله يحميني وإن كنت أجهل سبب خوفك هذا

لم يتحدث ولم يعلق على كلامها وقال وقد أوقف السيارة مجددا

لننسى كل ذلك الآن فلم أجلبك هنا لأجله أنا فقط رأيت أن "

" المكان والوقت مناسبين

" وتابع وهو يفتح بابه " هيا انزلي أريد أن ريك شيئا مهما

ونزل ونظرها يتبعه مستغربة ثم نظرت حولها وكانت تعلم أنهما لازالا

في العمران ولم يغادراها ، فتحت الباب وقفزت مجددا تثبت نفسها بالتمسك

بحافة الباب ثم أغلقته ودارت حول السيارة حيث كان واقفا ينتظرها فأمسك

بيدها وقال يسحبها منها " لن تكرريها مجددا يا غسق وستخبرينني حين

يكون لديك مخاوف من أمر ما اتفقنا "

نظرت له سائرا أمامها ... لظهره وأكتافه العريضة لشعره الأسود

اللامع وتنهدت بأسى (أعظم مخاوفي منك أنت يا مطر شاهين

فكيف أخبرك عنها بالله عليك ؟؟)

صعد بها ذاك المرتفع الذي ظننته جبلا صغيرا لكنهما ما أن بدأ بتسلقه

حتى اكتشفت أنه ضخم ولن يصلا لنهايته ، كانا يصعدان برفق ممسكا

بيدها ينظر كل حين لقدميها وحركتهما كي لا تنزلق ، وما أن كانا

أعلاه ووقفت بجانبه حتى نظرت حولها بدهشة فاغرة فاها الصغير

الممتلئ وهمست بدهشة " ما هذا ؟ "

حيث كان بإمكانها رؤية تلك المنطقة من أعلاه وكأنها تركب طائرة

مروحية تطير بها فوقها ، جلس حيث وصلا وقال ناظرا لها فوقه

اجلسي لتستمتعي بالمشهد مسترخية فمن هنا يمكنك مشاهدة "

" كل شبر في العمران

نظرت تحتها وجلست برفق لتكتشف أنها كانت تكاد تلتصق به ولم

تكن تستطيع الزحف بعيدا ستكون حركة سخيفة ومكشوفة ، ضمت

ساقيها مطوقة لهما بذراعيها ونظرها يهيم في كل شيء أمامه وخصلات

شعرها وغرتها تتطاير مع ذاك الهواء الذي اشتد بسبب وجودهما على

ذاك الارتفاع ، لم تستطع منع عينيها من التنقل في كل اتجاه انبهارا بما

ترى أمامها فحتى بحيرة رقراق كانت تراها من مكانها هناك ، وبينما كان

نظرها يتنقل في كل شبر من المكان كان الجالس بجانبها يستند بإحدى يديه

خلفه مدققا النظر على ردة فعلها وملامحها من بين ذاك الشعر الحريري

الذي كان يعزف على وتر الرياح وهي تكاد تنسى كل شيء حولها وحتى

وجوده ، نظر أمامه ثم عاد بنظره لها وقال " هذا الجبل يسميه البعض

بجبل غضنفر فقد اكتشف هذه النقطة فيه رجل كان يلقبه الناس بالغضنفر

لما يحكى عن شجاعته ومبارزته للحيوانات المفترسة حيث كان يرجع

" في كل رحلة بحيوان منها مطعون بسكينه وكان يعشق حياة البراري

أشارت بإصبعها لنقطة بعيدة وقالت هامسة " أنظر مطر تلك

المساحة جميعها منبسطة وكأنها بساط "

ابتسم لطريقتها الطفولية في وصف المشهد ورفع يده وأدارها حول

رأسها وسند مرفقه بكتفها وأشار بإصبعه على كل تلك المساحة قائلا

" تلك تسمى عينقوق إنها أرض خصبة بشكل لا يمكنك تصوره حتى

أن الأعشاب البرية الضارة والسامة لا تنبت فيها "

ثم حرك أصبعه يمينا وتابع " أما تلك الجهة المرتفعة قليلا فصخرية لا

تنفع إلا لتكون عمرانية وقد كانت الهازان تريد بناء مستعمرة عسكرية

في كل تلك المساحات حتى حيث الأشجار بمسح تلك الأرض أيضا

لتكون نقطة قوة لها لا يقهرها فيها أحد ، كانوا يخططون لسحب حتى

مياه البحيرة ولإنشاء سد للمياه "

كانت تريد قول الكثير كانت لتعلق على كل ما قال لكن جسدها بأكمله

خانها وهو بهذا القرب منها بعدما وضع ذراعه على كتفها وأصبحت

شبه محتجزة في جسده ، كانت تشعر بنبضاتها تتسرب في عروقها

حتى قدميها اللتان لم تعد تشعر بهما ، لم تشعر سوا بجسده وبرائحته

وبأنفاسه وصوته القريب من أذنها ، كانت تشعر بقربه فقط بقربه حد

الوجع المؤلم ، وخشيت من تكرار موقف الجدول ذاك ومن ضعفها

وخيانة مشاعرها لها مجددا ومن هروبه وتركها تتهاوى للقاع مرة

أخرى ، رطبت شفتيها التي جففتهما الرياح تحاول تنظيم ضربات

قلبها بالتحكم في أنفاسها المتوترة وخرجت منها تلك الكلمات

بصعوبة بالغة " كانوا يريدون تدمير هذه الطبيعة الخلابة ! "

أبعد ذراعه عن كتفها وأمسك ذراعها برفق مطوقا لكتفيها بذراعه قائلا

بهدوء " نعم كان مشروع قرار يتم مناقشته جديا لولا الطعن القوي الذي

قدمه شراع صنوان ولم أترك ذراعا لي في تلك البلاد لم أحركها لتساند

طعنه ذاك ليوقفوا جنون ابن راكان الذي يريد أن يطبقه على هذه

المنطقة منقطعة النظير والتي لا مثيل لها في كل بلادنا "

نظرت لوجهه القريب منها وقد تابع ونظره لازال هناك " هذا المكان

لن يكون جبهة قتال وأنا حي أتنفس ولن يفعلها رجالي من بعدي ، لن

تراق الدماء فيها ولن تدمرها المدافع والصواريخ ولن تفسد تربتها تلك

السموم التي تنبعث من الأسلحة ، العمران سقطت في يد الهازان سلما من

أعوام طويلة وأخذناها منهم دون إراقة نقطة دم واحدة منذ أشهر وستكون

" هكذا دائما حتى تتوحد هذه البلاد وتتحول لمدينة تكون من أجمل مدنها

كانت نظراتها تتعمق في عينيه ونظرته الحانية لتلك المروج والجداول

والأشجار ، لم تتخيل أن يتشابه تفكيرهما هكذا ! هي كانت تعلم جيدا أن

العمران ليست سبيله الوحيد لصنوان فإن أراد الهجوم عليهم فسيكون

لديه حدود واسعة تجمعه بهم من جهة الحالك والهازان ولن يؤثر أخذها

منه في فعلها أبدا إن أراد لكنها أرادت ما قاله الآن أرادت حمايتها من

الجميع حتى من صنوان ، تمنت أن تبقى محتفظة بجمالها ولا تشوهها

الحروب وتتحول لمستعمرات ولأرض بور وطبيعة محترقة وأسلاك

شائكة في كل مكان وأرض مليئة بالألغام لذلك أرادت أن تخرج من

ملكيته المؤقتة لها فلن تعترض صنوان إن أخذتها وهي ابنة زعيمهم

ولن تعارض الحالك لأنها أساسا ليست لهم وهو من أعطى الهازان

. مدنهم مسلما لها لأهلها ما أن دخولها وهي تحت قبضته

لم تفهم هل قال هذا عفويا أم أراد أن يوصل لها رسالة واضحة على أن ما تخشاه لن يحدث أبدا وأنه قرأ أفكرها ككل مرة وعلم السبب وراء اختيارها للعمران وإصرارها عليها ؟ فكرت في كل ما قال لها وكل ما سمعته عنه من نساء قبائله ، عن أهل مدن الهازان وما يفعل من أجلهم

رفعت نظرها لوجهه وهو ينظر للبعيد في صمت وترقرقت تلك الدموع في عينيها وهي تراقب ملامحه الوسيمة التي تنطق رجولة وحزما وصلابة وتمنت من كل قلبها أنه لا يحمل فكرة توحيد البلاد في رأسه حد أنها تجري في شرايينه لتراه يقتل أهلها وقبائلها وأولهم قبيلة والدتها التي تسكن مدينتين من حدوده ، تمنت رجلا آخر غيره من ينفذ ذلك فهي أيضا تريد للبلاد أن توحد لكنها لا تنكر أنها لا تريد أن يكون ذلك على يدي هذا الرجل ، أن لا يكسر صورته في أعماقها تمنت أن كان رجلا عاديا يزرع الأرض ويرعى الأغنام لكانت ارتمت الآن في حضنه تشكره على كل ما قال ، لكنها وفي ذات الوقت لم تستطع نكران إعجابها بما يقول ، هو لم ينكر أن الطعن كان من والدها

وهو سانده فيه فقط ، لم يفكر كابن راكان في تحويلها لمنشئة عسكرية

لحمايته ولتنفيذ هجماته ، بل لا يفكر حتى في إنشاء مقر عسكري ولو

صغيرا على الحدود وترك جنوده يحمونها هكذا في الخيام وفي العراء

أبعدت نظرها عنه ومسحت عينيها بظهر كفها بقوة تشعر بتلك العبرة

تتجمع في حنجرتها مجددا لكنها لن تخرجها أبدا فلا عذر تقدمه له الآن

مسحت تلك الدموع ومسحت معها تلك الأفكار الغبية التي سمحت لها

أن تصل لعمق أن تتخيل حياتهما كزوجين طبيعيين ، أن تجلس بجانبه

الآن ذراعيها حول خصره متكئة برأسها على كتفه ويتمازحان ويتبادلان

الكلام العاطفي ، ضحكت على نفسها وأفكارها فذاك أبعد ما قد يفعله

. هذا الرجل أو ما تتخيله

شعرت بأصابعه ترتخي عن ذراعها حتى ابتعدت ذراعه عنها فأنزلت

يدها وسندت بها نفسها على الأرض وكأنها تحمي نفسها من الانهيار

وسؤال واحد يتكرر في ذهنها (ما عذرك الآن لطلب العمران ؟ فها

قد قد سقط المهر يا غسق ، المهر الذي تركك من نفسه تتمسكين به

وتضعيه حاجزا بينكما فهل ستتصرفين الآن كالأطفال وتعجزيه

(بغيره ؟

علمت أنه لم يعد ذلك بإمكانها وأنها من ليلة غد ستكون لهذا الرجل

كاملة لتسلمه جسدها أيضا وطوعا ليمتلكها جميعها وهي من لا تملك

منه شيئا سوا أسمه بجانب اسمها في عقد زواجهما ، رجل قد يسرقه

منها أي شيء وأولها الحروب والموت ، انتفض جسدها بقوة حين

شعرت بملمس أصابعه على خدها ووصلها صوته منخفضا

" ما بك يا غسق ؟ هل تشعرين بشيء ؟ "

هزت رأسها بلا منزلة له للأسفل فلم تتخيل أن شحوب ملامحها

وتجهمها كان واضحا هكذا ! خرجت الكلمات منها بصعوبة وأصابعه

تبعد خصلات غرتها عن عينيها وقالت بهمس " أشعر ببعض

الدوار وقد يكون بسبب الريح "

وقف حينها موقفا لها من يدها قائلا " لننزل إذا فالهواء قوي وتنفسه

بدفعات كبيرة يسبب مثل هذه الحالة "

وقفت دون أن تعترض على كلامه أو تعلق عليه وسارا نزولا حيث كان

الأمر أسهل من الصعود وما أن كانا في الأسفل حتى ترك يدها وسبقها

جهة السيارة قائلا " لا تتعبي نفسك بالتفكير يا غسق أنا لم أقل ما قلت

" لأقيدك وأحاصرك تأكدي من ذلك

وقفت مكانها وعضت شفتها بقوة تخفي ملامحها في الأسفل تناشد المساندة

من غرتها لتخفيهم عنه فها هو علم فورا فيما كانت تفكر وسبب ردة فعلها تلك

وكما توقعت هو قال ما قاله ليبدد مخاوفها بشأن هذه المنطقة ويعلم بأن حجتها

ستسقط ما أن تعلم بكل ذلك وقد جلبها لترى الأمر بأم عينها وتتأكد من أنه

مصمم عليه وينفذه من الآن ، تحركت حين سمعت صوت محرك السيارة

ووصلت لها تتجنب النظر له وهو يلف حولها وقد فتح لها الباب وساعدها

على صعودها ككل مرة لارتفاع بابها ولم تكن ثمة عتبة حديدية تساعد

على الصعود لها كما في سيارات أشقائها وهذه قد فاقتهم ارتفاعا بإطاراتها

المخيفة ، ركب كرسيه وتحركا قائلا " كنت أود أن أصطاد أرنبا لتتناولي

شيئا لكني أعلم الآن أن ذلك مستحيل فهل يمكنك التحمل قليلا حتى وقت

" العشاء لأنه ينتظرنا عشاء ضخم سيغنينا عن أكل باقي اليوم

نظرت له مستغربة وهوا ينظر أمامه وفكرت (هل سيغادران العمران

لمكان آخر قبل عودتهما أم ماذا ؟) قال والسيارة بدأت تتحول سرعتها

" للجنونية " هل سبق وسمعت عن قبائل تنان الحدودية ؟

" !! نظرت له بصدمة وهمست " التنانيون

*

*

أغلق باب غرفته خلف الخادمة المزعجة التي تكرر ذات العبارة

من ساعة وتوجه لسريره جلس عليه متربعا وفتح جهاز الكمبيوتر

المحمول واضعا له في حجره وفتح بريده ليجد ما كان ينتظره من

أسابيع وهي رسالة ابن خالته الذي خرج من الهازان ومن البلاد لأجل

الدراسة وأخبره بأن لديه شخص يعرفه من الحالك ومقرب له كثيرا

ووعده أن يتقصى لهما عن أمر الطفلة التي نجت من مذبحة خماصة

رغم أن كلمات الرسالة كانت مختصرة لكنه قرأها أكثر من مرة وكأنه

يبحث بين أسطرها ((كل ما تحصل لي صديقي عليه أن أسمها زيزفون

وأنها تعيش حاليا مع أحد رجال ابن شاهين المقربين وتحت حمايته هو

((شخصيا وهناك معلومة تقول بأنها مريضة ولا تفاصيل أكثر لديه

أغلق حاسوبه متمتما باسمها بهمس ثم غادر سريره والغرفة بذهن شارد

يفكر إن كان مرضها ذاك ما سمعه عنها من جده ووالده أم غيره وإن

كانت هي بالفعل فهما لم يذكرا أسمها ؟ طرق بأصابعه على الباب الذي

وقف عنده ثم فتحه ودخل مغلقا له خلفه واقترب من الجالس خلف

طاولة المكتب يجري مكالمة جعلته يجلس لأكثر من ربع ساعة

ينتظر حتى أغلق جده سماعة الهاتف الأرضي وقال ناظرا له

وبابتسامة واسعة " سيبدأ دوامك في أفضل مدرسة ثانوية

اخترتها لك ، إنها بريطانية وستحصل على جميع

امتيازاتهم ، وأريدك متفوقا كما عهدتك "

لم يبدوا الحماس على ملامح المقابل له وقد قال بوجوم " لو كانت

مدرسة عربية كان أفضل جدي ، أنت تعلم ما يحدث في مدارسهم

إنها ملهى ليلي وموزع للمخدرات ذات الوقت ، لا أحب

الاحتكاك بتلك الفتيات ولا الشبان أيضا "

هز ضرار رأسه برفض قاطع وقال " العناية بالتعليم فيها أفضل

والفتيات لن يجبرك أحد على الاحتكاك بهن أما المخدرات فلا أراك

غبيا بل ناضجا ذكيا تعلم أنه عليك أن لا تأخذ من أحد شيئا ولا

" كوب ماء

نظر وقاص لأصابعه على طاولة المكتب بجانبه وقال ببعض التردد

" وتخصصي بعد أن أنهيها ؟ أنت لم تطرح هذا من قبل "

" قال ضرار من فوره " لك ما تختار يا وقاص أنا أثق في اختياراتك

" ! نظر له بتفاؤل وحماس وقال " حقا يمكنني الاختيار بنفسي

ما كان ليخالف جده وكان سيرضى بما سيختاره له عن طيب نفس

لأنه يعلم بأنه لن يختار له إلا ما سيكون فيه مصلحة مستقبله لكن

طموحه يبقى حلما لا يمكنه تجاهله أبدا ، قال ضرار مبتسما

" أجل إن لم يكن فنانا أو أديبا طبعا "

وضحكا معا وقد علق وقاص " لا موهبة لدي في أي منهما

" كما تعلم

" قال ضرار " إذا ما يكون اختيارك ذاك ؟

قال بحماس " محامي ... أريد أن أكون محاميا ولم أتمنى

حياتي إلا أن أكون واحدا منهم "

هز ضرار رأسه بتفهم وقال " كنت أتمنى أن تختار الاقتصاد

ليساعدك فيما أريدك أن تمسكه مستقبلا لكن لا بأس فالقضاء

يساعد أيضا ولا أضنك ستختاره وحده على أعمالنا وتجارتنا "

هز رأسه بنعم مؤكدا وقال " بالتأكيد جدي أنا سأكون يمينك كما

والدي الآن أما المحاماة فهي الشيء الذي سأجد نفسي فيه وإن

فقدتها قد أفقد أي رغبات وطموحات أخرى "

هز ضرار رأسه وقال " أنهي الثانوية أولا ثم لكل حادث حديث "

ورفع سماعة الهاتف ليجري اتصالا آخر فقال وقاص مندفعا قبل

أن ينشغل عنه " جدي ما أسم حفيدتك تلك ؟ "

نظر له ضرار نظرة فهم وقاص معناها من دون أن يتكلم ولولا خوفه

من انشغال جده بالمكالمات ما ضن أنه سيستطيع نطقها وسؤاله ذاك

السؤال ، قال بتوجس حذر خوفا من ملامح الجالس خلف الطاولة

" هوا مجرد سؤال جدي لا علاقة له بشيء "

ضغط ذاك أرقام الهاتف ونظره على أصبعه وقال ببرود وهو يضع

السماعة على أذنه " دراستك ستبدأ الأسبوع القادم فكن جاهزا "

فوقف منصاعا وتنهد بيأس مغادرا من هناك في صمت وخرج مغلقا

الباب خلفه متمتما " علمت أني لن أخرج منه بجواب ولم يبقى

سوى والدي "

*

*

احتاجت لوقت لترجع للحديث مجددا والسيارة تشق بهما تلك

الطريق الوعرة بسرعة وقالت ناظرة للجالس بجانبها

" هل هم قريبون من هنا ؟ "

قال دون أن ينظر لها " ليس بعيدا سنصلها مقربة العشاء

إنها عند حدودنا الغربية "

ثم خطف نظره لها قبل أن يرجع به للطريق الترابي المليء

" بالصخور قائلا " هل سبق وسمعت عنهم ؟

" همست من فورها " نعم .. قليلا

قال ونظره لازال للأمام " هم يعيشون على حدودنا وحدود الدولتين

المجاورة لنا إنهم من الشعوب التي لم تعترف بهم أي دولة وعاشوا

مهمشين عند الحدود لا هوية لهم ولا بلاد ، إنها معاناة يلقاها

" البعض ودون أن يجدوا لها حلا

" هزت رأسا بحيرة وقالت " كيف يكونون هكذا ؟ هذا ظلم في حقهم

هز رأسه بنعم قائلا " تلك القبائل تكونت عند الحدود وتجمعت لتكون

ثقافة وعادات وحدها وأقصت نفسها حتى نبذها العرب ، إنهم لا

يدينون بالإسلام يا غسق ومن اعتنقه دخل المدن وعاش فيها

" وإن كان دون هوية أو مجنسا فقط

نظرت له من جديد وقالت بفضول " أتقصد أنهم مختلفون عنا

" في كل شيء ؟

حرك كتفه قائلا " تقريبا فهم يسكنون منازل مصنوعة من القصب والطين

لكنها متينة ومبهرة ومن الروعة أن تشعري بنفسك أنك في منزل من طوب

عاداتهم مختلفة وأطعمتهم أيضا ، يتحدثون العربية بطلاقة مع لغتهم الأم

عاداتهم تختلف عنا في كل شيء تقريبا وستري بعينك اليوم فزواج ابن

زعيم قبائلهم الليلة ونحن مدعوان "

نظرت له بصدمة وقالت " أليسوا تحت حكمك ومن ضمن الحالك ! "

هز رأسه بنعم وقال " بلى لكن ليس كما في باقي الحالك ، هذه القبائل

مستقلة بنفسها والدول الأخرى حاربتها لرفضها الرضوخ لأحكامهم وهم

لا يعترفون بانتمائهم لهم أما هنا فالأمور تسير بعقد الهدن والاتفاقيات بيننا

ولهم زعيمهم يدير شؤونهم جميعها لكن لا يخالف قوانيني والاتفاق بيننا

عليها أي لهم السيادة والحرية فيما يريدون الحرية فيه ووجدت أني بذلك

أكسب السلم معهم وأحفظ لهم دمائهم ومن أراد أن يدخل الحالك شرطي

الإسلام وأنا أدعمهم كما أدعم باقي المدن خاصة وأن المبالغ التي يقدمها

البنك الدولي من عائدات البلاد لا يحسبون فيها فنحن نوفر لهم حاجاتهم

الأساسية وأبحث مع زعيمهم سبل المساعدة دوما ليتمكنوا من العيش

بسلام وأمان ولتتوفر لهم سبل العيش تلك دون أن ننبذهم كما أنهم

" يعترفون بي زعيما لهم وفوق زعيمهم

غابت بنظرها في الأفق الذي بدأ يشوبه حمرة الشفق مفكرة في كل ما قال

هو يعني الأمان لهذه القبائل المنبوذة فكر في كل شيء لمصلحتهم ولسلام)

دائم معهم ولابد وأن الكثيرين أمثالهم من الدول المجاورة انضموا لهم هنا

هذا الرجل لم يترك حقا أي شيء لم يفكر فيه ، لقد تجنب أن يظلم أي أحد

بينما كان يمكنه محاربتهم أو رسم حدود وهمية بينهم أو محاولة طردهم

(من المناطق التي يعدها الجميع ليست لهم وليست من حقهم

خرج صوتها هامسا أجوفا حين قالت " وهل أرضاهم أن تمنعهم من

" تخطي مناطقهم إلا معتنقي الإسلام ؟

قال بعد برهة " لا يحق لهم الاعتراض فهم أيضا يرفضون عيش غيرهم

بينهم وأنا لا أريد أن تتسرب ديانتهم بيننا وأن تكثر المشاكل بسبب تعصب

البعض فمن حقهم العيش في الأرض التي ولدوا فيها من أجيال ومن حقي

فرض الإسلام على من أراد أن يكون منسوبا لنا ليعيش بيننا فحتى جيشي

بينه عدد كبير منهم ، هم جزء من هذه البلاد يا غسق لا أنا ولا

" غيري يحق له نكران ذلك

هزت رأسها بالموافقة في صمت فهي تعلم بأن قضية تلك القبائل معقدة

جدا ولا يمكن فهم ومناقشة جميع أبعادها فكم عانى أمثالهم ونبذوا لمناطق

الصحراء والعراء حيث لا تستفيد تلك الدول منها وليست بحاجتها وعاشوا

بلا أرض ولا هوية ولا جنسية تقريبا ، توقفا قليلا من أجل صلاة المغرب

وبعدما أنهت الصلاة خلعت العباءة التي وجدتها هنا في السيارة بعدما انطلقا

صباحا ولم تستغرب أن أحضرها بنفسه فهوا خطط لكل هذا ، تركت الحجاب

وأحكمت لفه بما أنهما سيدخلان مدن تلك القبائل قريبا فقد بدأ ابيضاض الشفق

والظلام يلتف حول كل شيء حاضنا له معطيا لسكون ذاك البر الواسع صمتا

مخيفا ما أن تنظر الظلام حولك وكأنك رميت في الفراغ ، واصلا السير سريعا

وبدأ نور السيارة القوي الطويل يشق تلك الطرق الترابية الوعرة ملقيا نوره

على الأشجار لترسم ظلالا تشبه الأشباح ولولا وجود الجالس بجانبها ممثلا

كل معنى للأمان بالنسبة لها ذاك الوقت لفقدت عقلها رعبا من ذاك المكان

الموحش المنقطع ، التفتت للخلف بريبة ثم نظرت له وقالت

" ! مطر ثمة سيارات خلفنا "

قال دون أن ينظر لها ولا في المرآة " نعم تلك لبعض رجالي سيرافقوننا

حتى نصل ويرجعوا فلن نغادر من هناك قبل الفجر ، لو كنت وحدي ما

احتجت وجدهم لكن بوجودك معي عليا أن أوفر حماية أكبر فالمكان خال

" وقطاع الطرق لا أحد يستطيع إيقاف شرهم في بلاد تعاني كبلادنا

عادت للجلوس مستوية ولاذت بالصمت فلن تستطيع أن تقول بأن وجوده

يكفي لأمانها وهي موقنة من أنه لن يتوانى عن الدفاع عنها لكن وكما قال

الأمر لا يمكن الاستهانة به في بلاد كبلادهم ، رفعت نظرها للسماء التي

هجرها ضوء القمر آخذا لمعان النجوم معه وتمنت من الله أن يعم الأمان

بلادها ، أن تصبح كغيرها من البلدان وأن يحقن دماء أبنائها وأن يكون

. ذلك بأقل خسائر في البشر ، أمنية لطالما أرسلتها للسماء بكل أمل

بعد مسافة لا بأس بها تراءت لها أضواء تلألأت من بعيد في الظلام

وأصبح عددها يزداد كلما اقتربا حتى فتحت فمها مندهشة لرؤية تلك

الأسراب المضيئة التي التفت حول المنازل البعيدة وفي كل مكان لتعبر

عن بهجتهم بالمناسبة التي يحتفلون بها ولتحول واجهة تلك القرية لأشبه

بمهرجان ضخم ، ما أن وقفت سيارتهم ونزلا منها حتى تقدم منهما

أربعة رجال يترأسهم رجل يبدوا تجاوز الستين من عمره ، كانوا بثياب

عادية كالتي تراها وتعرفها فكادت تضحك أمامهم على أفكارها حين

ظنت أنها سترى أناسا بملابس تشبه تلك التي يلبسونها في العصور

الوسطى ، صافح الرجل مطر بحرارة وفهمت من حديثهما أنه ذاك

الزعيم الذي تحدث عنه ولفت نظرها فورا الحراسة حول القريبة

وركض الأطفال من بعيد ، شد مطر يدها من خلفه لتقف بجنبه

" وقال " وهذه زوجتي وأسمها غسق

قال ذاك مبتسما وبإيماءة بسيطة من رأسه " مرحبا بزوجة

" الزعيم مطر

" ابتسمت له هامسة " سررت بمعرفتك

حدّث ذاك الزعيم مطر بلغته الأم ونظرت له بصدمة حين أجابه بذات تلك

اللهجة وضحكا معا وقد نظرا لها وسار حينها ذاك وهما بجانبه ورجاله

" خلفهم فشدت يده وهمست بخفوت لا يسمعه غيره " ماذا قلتما عني ؟

خرجت ضحكة صغيرة مكتومة منه وهمس " يالا فضول النساء

" من قال أننا تحدثنا عنك

" قالت من بين أسنانها " مطـــر

قال مبتسما " خشي فقط أن يغير ابنه رأيه بعروسه لأنه يراها أجمل

" نساء البلاد

" بقي نظرها معلقا به فقال ناظرا لها " لا أضنك تكذبينني

" هزت رأسها بلا وهمست " وما كان ردك أنت ؟

شد يدها أكثر مقربا لها منه وقال ونظره على الطريق الذي شقاه

" بين المنازل " من غير اللائق أن نتهامس أمامهم كما أعتقد ؟

صرت أسنانها بغيض منه ونقلت نظرها لكل شيء حولها ، كانت المنازل

كما قال عنها قوية وكبيرة ومتماسكة لا يمكنك أن تصدق أنها بنيت من

القصب !! نظرت لثيابها وعبست مفكرة في مظهرها فلم يكن يليق أبدا

بحضور حفل زواج (لو أنه أخبرني لأحضر شيئا ألبسه ؟ هل كانت

(!! جريمة تلك كي لا يفعلها وأنا لا أعلم ما يلبسون هنا

وانفتحت عيناها بصدمة ما أن رفعت نظرها وكانوا وسط ساحة واسعة لم

تساوي تلك الزينة التي كانت حول البلدة شيئا أمام الموجودة والمعلقة هناك

وحركة الناس في تجهيز تلك المنصة المرصعة بالورود والمقاعد على صفين

أمامها ! لكن ذلك لم يكن وحده ما صدمها بل النساء اللاتي كن يتحركن هناك

من تربط الزينة ومن تجز الأقمشة المصنوعة من الشيفون ، لا ليس ذلك

ما صدمها بل لباسهن !! كان عبارة عن فساتين من الشيفون الثقيل طويلة

مخصرة بدون أكمام مفتوحة الرقبة ، جميعها ذات الطراز مع اختلاف

التفصيلات وطرق تزيينها ، من تمسك شعرها ذيل حصان ومن تتركه

مفتوحا متموجا على كتفيها وظهرها ومن ترفعه للأعلى وكل واحدة

تنافس الأخرى في بياض بشرتها وقوامها الممشوق وأناقتها وتذكرت

وقتها أنه أخبرها أنهم لا يدينون بالإسلام ولباس نسائهم هذا سيكون

طبيعيا لكنها لم تتخيل أن يكون موحدا رغم اختلاف الألوان والأشكال

وأن لا يكون محافظا هكذا !! تمتمت لنفسها بعبوس (نقص فقط أن

يقصصنه من الأسفل لأعلى الركبتين ليكتمل مهرجان الحسن ذاك)

وعلمت حينها لما لم يخبرها لتجهز نفسها فالزواج هنا كما يظهر عليه

مختلط بين الرجال والنساء ، نظرت له فسرعان ما سحب نظره ممن

كان يحدثه ونظر لها فقالت تجاهد ملامحها المشدودة لتكون طبيعية

" هل تحظر حفلات زواجهم دائما وتزورهم باستمرار ؟ "

وتابعت بضيق قبل أن ترى تلك السخرية ترتسم على ملامحه

" وهو يجيب " مطر أجب دون أن تسخر مني رجاءا

شعرت بالارتياح حين ابتسم دون أن تعلوا شفتيه تلك الابتسامة الساخرة

القاتلة وقال " لا فهذا الثالث منذ توليت زعامة الحالك لأنه لثالث أبناء

زعيمهم ، ومرات معدودة جدا تلك التي زرتهم فيها فزعيمهم من

" يزورني في حوران كلما أراد شيئا ، هل ثمة سؤال آخر ؟

أبعدت نظرها عنه وقالت ببرود " ضننت فقط أنك تشاركهم هذا

" الاستهتار دائما

ضحكة عالية كانت ردة فعله فلم يزدها ذاك إلا احتراقا وهوا يلفت نظر

الفتيات القريبات منهم بضحكته الجهورية المبحوحة تلك ليبدأ التهامس

هناك وكل واحدة تكز الأخرى لتنظر لهم تحديدا ، تمنت لو عادت أدراجها

تجره خلفها رغما عنه ويغادرا هذا المكان ففوق مظهرها الذي لم يساويهن

رغم أنها ما كانت لتلبس مثلهم أمام الرجال ها هي عليها مواجهة كل تلك

الأعين الواسعة الجميلة المحدقة به وهذا ما لم تحتمله ولن تستطيع نكران

ذلك مهما حاولت ، تفرق الرجال من حولهما ما أن اقتربت منهم امرأة قد

قاربت الخمسين من عمرها تتبعها فتاتين إحداهما تبدوا لم تتجاوز الخامسة

عشرة والأخرى تبدوا حاملا ، اقتربت مبتسمة بحبور وقالت مخاطبة مطر

" شرف كبير لنا أن تحضر زواج ابني سيدي فنحن لم نراك منذ

حفل زواج ساجي منذ ثلاث سنين "

رد عليها بأدب مبتسما " وأنا أتشرف بحضوري هنا "

ثم أحاط كتفي الواقف بجانبه بذراعه وقال " أقدم لكن زوجتي غسق "

نظرت لها تلك من فورها بينما الفتاتان لم تفارقها عيناهما منذ وقفن

أنتي , أمامهما وقالت والدتهما مبتسمة " زيارتك شرف لناسيدتي

إذا ابنة شراع صنوان ؟ "

نظرت لمطر من فورها وكان ينظر لها فعادت بنظرها لتلك سريعا

وقالت مبتسمة قدر استطاعتها " وأنا كان لي عظيم الشرف ، أجل

" أنا هي ابنة شراع

" هزت تلك رأسها بحسنا مبتسمة وقالت " كما قيل عنك ويزيد

ثم نقلت نظرها لمطر وأعادت حركة زوجها بان حدثته بلغتهم تلك وهو

أجابها ضاحكا ولم يزدها ذاك إلا اشتعالا متمتمة لنفسها (هذا كيف تعلم

لغتهم المعقدة وهوا لا يزورهم كما يبدوا !!) كم تمنت وقتها أن بحثت

عن هذه الطلاسم من قبل وحفظتها عن ظهر قلب لتفهم ما يقال عنها هنا

وهذا يرفض القول ، نظر لها وقال " يمكنك الذهاب معهن للجلوس

" في مقاعد النساء

نقلت نظرها منه لهن وتمتمت بدون أن يسمعها أحد متحركة من مكانها

" تسحب نفسها من ذراعه " جيد على الأقل لن يجلسوك وسطهن

وسارت معهن حيث تلك المقاعد المنظمة كالمدرجات على جانبي تلك المنصة

كل جهة مكونة من ثلاث صفوف من المقاعد وكل صف أعلى من سابقه قليلا

ليتسنى للجميع رؤية كل شيء ، ولاحظت تجمع الناس يزداد ما أن تقدم زعيمهم

برفقته مطر وزوجته وابنتيها وهي برفقتهم جهة تلك المقاعد الكثيرة

المتراصة

على الجانبين ، وبعد رفض قاطع منها جلست في الصف الثاني من المقاعد

رافضة بكل أدب الجلوس بجوار زوجة الزعيم في المقدمة فلا تريد أن تكون

مقابلة للرجال تماما ، بينما جلس مطر بجوار زعيمهم في أول مقعدين جهة

المنصة في الصف الأول وأبنائه بجانبه وامتلأت تلك المقاعد بسرعة بالناس

أطفالا ونساء ورجال وجلس الصبية جهة الرجال بينما الطفلات جهة النساء

وانطلقت تلك المعازف والتصفيق الحار ما أن اقترب ابن زعيمهم وزوجته

التي كانت تلبس فستانا يشبه فساتينهن لكنه كان باللون الأبيض ، اللون الذي

لم تراه على أي واحدة منهن وخمنت أنه محتكر للعروس وحدها في أعرافهم

وكانت ترفع شعرها الذي زين بأزهار بيضاء جميلة وتضع على رأسها طرحة

شفافة مزينة ببعض الأحجار الملونة والنفيسة ، كانت مميزة بثوبها وبجمالها

وقد سرقت نظر الجميع وهي تمسك بذراع الشاب الطويل بني الشعر السائر

بجانبها مبتسمان حتى جلسا أعلى تلك المنصة المزينة بإتقان مبهر تأخذ شكل

أقواس من الأزهار تتدلى أقمشة الشيفون الخفيف الملونة من جوانبها

. لتعقد في مجموعات تمسكها باقات من الزهور الملونة

نقلت نظرها لمطر وكان منشغلا بالحديث مع والد العريس وابنه الجالس في

الطرف الآخر ويضحكون باستمتاع وبدأن بعض الفتيات بتوزيع أكواب مليئة

بشراب أحمر اللون فنظرت لمطر فورا إن أخذ منه أولا فهي لا تعرف ما

يحويه شرابهم هذا وما المباح في ديانتهم ، لكنها لاحظت أنه أخذ الكوب فورا

دون أن يسأل عنه فأخذته هي أيضا لأنهم قدموا لها لوحدها ولم تنتظر دورها

مع البقية ، وما أن شربت منه قليلا اكتشفت أنه مجرد شراب رمان بارد محلى

بالسكر ، غابت بنظرها عن كل ما حولها للأضواء الملتفة حولهم في كل مكان

جاعلا من تلك الساحة وكأنها تحت ضوء الشمس وليسوا في ليلة سوداء مظلة

لا وجود ولا للقمر فيها واستغربت حياة هؤلاء القبائل وكأنهم منفصلين عن العالم

حتى أنها لاحظت عند وصولهم أنهم يعتمدون على الخيول ولم ترى سوا عددا

قليلا جدا من السيارات بالكاد يعد على الأصابع ، نزلت بنظرها سريعا حين وقفن

ثلاث نساء من بين الجلوس ودخلن تلك المساحة بين صفي المقاعد وبدأن بالرقص

بفساتينهن الطويلة المكشوفة في حركات متمايلة مع الأنغام التي تعزف من نهاية

تلك الساحة ليلحق بهن اثنان أخريات وعلا تصفيق وتصفير الرجال والشبان في

الجهة الأخرى ففغرت فاها تشعر بأنها في حلم وليس في شيء يحدث واقعا

أمامها فإن ألفت كتابا عن هذه القبائل للقي رواجا كبيرا كما ترى أمامها الآن

نقلت نظرها سريعا للجالس هناك بجانب زعيمهم وعضت طرف شفتها بقوة

وغيظ وهي ترى كيف يجلس ناصبا ساق على الأخرى يتكئ بمرفقه عليهما

مسندا ذقنه على قبضته ناظرا لما سرق أعين جميع الرجال في تلك الجهة

وهن تلك النسوة الراقصات بمهارة على تلك الأنغام المتناسقة وقد تقدمت

عليهن واحدة تلتف حول نفسها وشعرها الطويل المموج يتطاير حولها

مع حركتها الدائرية المتقنة والمغرية ذات الوقت ، عادت بنظرها له

وكان على حالته تلك ينظر لهن فشعرت بتلك الجمرة تشتعل في قلبها

مجددا وتمنت أن صفعته ليبعد نظره عنهن ويحترم زوجته الجالسة في

الطرف الآخر ترى كل شيء يجري أمامها ، تأففت من نفسها وأفكارها

وأبعدت نظرها عنه مستغفرة الله بهمس وحاولت أن تشغل تفكيرها بالنظر

لهن لكن ذلك لم يزدها إلا اشتعالا وهي ترى ما هي موقنة من أنه

. يراه الآن ونسي كل شيء حوله فلم يبتعد نظره عنهن لحظة

ضربت بطرف حدائها على الخشب المثبت به مقاعد ذاك الصف لرفعها

عن التي أمامها في حركة متوترة تحاول بها الحفاظ على أعصابها

وليست تعلم ما بها ولما لا تتحمل نظرة منه لغيرها ! فكيف إن تزوج

حقا !! وليست تعلم أن تفكيره كان بعيدا عنهن تماما يفكر ما الطريقة

لجمع هذه القبائل وثقافتهم ضمن مدن الحالك وحتى صنوان والهازان

كيف يمكن دمجهم وإقناعهم بالتخلي عما لا يتماشى مع القبائل في تلك

البلاد فهم من إحدى أهم الأمور التي تشغل ذهنه في توحيد البلاد

. كي لا يعانوا الظلم مجددا ومهما طال الزمن

زفرت الهواء بعنف ونظرت ليديها في حجرها متمتمة " لا تكترثي

يا حمقاء أنتي أجمل من خمستهن بما فيهن المتقدمة عليهن وأجملهن

" فإن لم يشبعه حسنك فلن يشبعه شيء فلا تكترثي له

تنفست بارتياح قليلا حين قدمت لنفسها تلك الدفعة من الثقة التي ما أن

رفعت رأسها حتى تلاشت في لحظة وهي ترى جلوس الفتيات الأربع لتبقى

تلك وحدها تنظر جهة الرجال المصفقين لها بحرارة وكل واحد يشير لها

رافعا يده للأعلى وكأنه يطلب أن تختاره هو ، وما فهمته أنها ستختار شريكا

للرقص بما أنها ترأست مجموعة الراقصات تلك وأنها كما لاحظت ذات

جمال نافست به جميع النساء في قبيلتهم ، وما دمرها نهائيا كان اقترابها

بخطوات واثقة دون أن تلتفت لتلك الأيدي الملوحة لها متوجهة للجالس

هناك عنوة وقد مدت يدها له تحديدا وسط تصفيق النساء وصراخ الرجال

الغليظ الجهوري ، كانت تعلم أمرا واحدا فقط أنه إن فعلها الآن سيدمر

آخر ما تبقى من أعصابها التالفة ، كانت تتمنى أن ينظر لها قبل أن يقرر

وما كانت لتوافق ذلك أبدا وليفهم ما يحلوا له من رفضها وإن اضطرها

الأمر أن تنزل من كرسيها وتسحبه من هناك مبتعدة به لتعلم تلك الوقحة

التي اختارته من بين رجال قبيلتها أنه ملك لأخرى لن تتركه لها

تيبس عمودها الفقري مشدودا بتوتر وخرجت شهقتها رغما عنها وقد

غطتها الموسيقى والهتاف المرتفع من الوصول لمسامع الجالسين بقربها

حين رفع يده وأمسك بيدها ووقف يتبعها وهي تسحبه لوسط تلك المساحة

وعلى شفتيها ابتسامة واسعة ، ابتسامة يفهم كل من يراها أنها تنم عن الانتصار وعن الرضا بل وعن البهجة وكأنها حققت حلما عظيما أغمضت عينيها من شدة إحساسها بالألم قبل أن تفتحهما مجددا وقد عاد الجميع للصمت تاركين صوت الموسيقى وحده يعبر عن ذاك المشهد وتلك ترقص حوله وعيناها لا تفارق عينيه تلمس يدها صدره كلما سمحت لها الفرصة بذلك وهوا واقف مكانه ينظر لها وابتسامة خفيفة تعلوا شفتيه يعبر بوقفته تلك وثقته وجسده عما يحمله من صفات الرجل الذي ستتمنى أن تكون كل واحدة من ذاك الحضور مكان تلك التي بدأت تتعمد الاقتراب منه أكثر في رقصها ذاك متجاهلة أن له زوجة تجلس هناك تحترق بصمت كتلك الشموع التي زينوا بها أطراف منصة عروسيهم وتكاد تتفجر الدموع المسجونة في عينيها وهي تراقب عبث تلك المرأة بما

هوا حق لها وحدها لا يفترض بأي أنثى أن تشاركها فيه ، كانت تفهم جيدا تلك النظرات التي ترميه بها فلم تكن نظرات امرأة تراقص رجلا عابرا ، ولا تعمدها الاحتكاك بجسده وإن كانت لمسات طفيفة عابرة

ولم يؤثر بها أنه لا يشاركها رقصها ذاك سوى بنظراته التي تتبعها

وكانت كافية لامرأة لم تطمع بأكثر من موافقته على عرضها

للرقص وكافية أكثر لقتل قلب الجالسة هناك وعليها فقط

. أن تراقب بصمت وتحترق

وكانت الضربة القاسمة لقلبها المرتجف كسعف نخيل حين ألصقت تلك

ظهرها بصدره مواصلة رقصها المتمايل رافعة رأسها للأعلى ناظرة لعينيه

فنزلت تلك الدمعة التي جمدتها بكل قواها عن النزول ولم تستطع رفع نظرها

عنهما وتلك تحرك شفتيها في أول حديث بينهما جعله رفع نظره جهتها من

فوره وعلمت حينها أن ما قالته تلك يخصها هي تحديدا ، ثم تحدث لا ترى

سوا حركة شفتيه ونظره على عينيها الدامعة المحطمة التي لا يراها من

هناك ولاحظت تصلب جسد تلك وتوقفها عن الرقص وتجمد ملامحها

الذي سرعان ما نجحت في إعادته كما كان ، وعلمت أن ما قاله سبب

حالتها تلك وقد عاد بنظره لها تحته ، فوقفت حين فقدت آخر ذرة

للتماسك فلن تسمح بأن تشهد نساء هذه القبيلة دموعها وتحطمها

. على يد امرأة منهم

اجتازت المقاعد وأرجل الجالسات بخطوات سريعة متعثرة أحيانا بسبب

اصطدامها بأقدام بعضهن حتى كانت خارج ذاك الصف الطويل وتحركت

بخطوات سريعة غاضبة للجهة التي جاءوا منها تحاول سجن الدموع التي

ترفض الرضوخ وجل ما تتمناه أن تصل للسيارة بسرعة لكن اليد التي

أمسكت ذراعها منعتها من التقدم أكثر وقد لفها جهته قائلا

" غسق ما بك ؟ أين تنوين الذهاب ؟ "

رفعت نظرها له وعيناها المحمرة ترسل ذاك الشرر الغاضب المتطاير

" وقالت بضيق " للسيارة طبعا فهل لديك أي اعتراض

سحبها جهته يراقب تلك الدموع التي تعرف كيف تسجنها بالقوة رافضة

" نزولها أمام أي أحد ، أمسك وجهها بكفيه وقال " ما يبكيك يا حمقاء ؟

أبعدت يديه عنها بعنف وقالت " لا شيء طبعا فعد لذاك الحفل وللرقص

" وحين ينتهي تذكر أني في السيارة لترجعني من حيث جئت بي

مسح على طرف وجهه بكفه ثم مرره على قفا عنقه ممررا أصابعه في

نهاية شعره الأسود وكأنه يهدئ نفسه وكلام عمته عاد يطرق في رأسه

مسببا ألما طفيفا جهة صدغيه فها هو يبكيها لثاني مرة خلال يوم واحد

اجتمعا فيه وحدهما ، أمسك أطراف أصابع يدها وقال باتزانه المعهود

" عودي هناك هيا ولا تصنعي مشكلة من أمر تافه فتلك

مجرد عادات لديهم "

كادت تضربه بكل قواها على لامبالاته وبروده وتجاهله لجرحه الغائر

لمشاعرها ، خرجت منها الحروف بصعوبة وهي تقول بسخرية

معذبة " أنا أصنع مشكلة من أمر تافه ؟ "

ثم أشارت بيدها الحرة حيث المكان الذي تركاه خلف تلك المنازل فيما

تكسر صوتها بشكل مؤلم وهي تتكلم " كنت تركتها نامت في حضنك

أكثر وبعد قليل كانت ستقبلك أمام الجميع حسب أعرافهم أليس كذلك ؟ "

شد على أصابعها أكثر وهمس بخفوت " غسق يكفي "

لكن ذلك لم يزدها إلا اشتعالا وتحول كل إمساكها لصوتها عن الارتفاع

لحدة وقد صاحت بعنف ساحبة يدها منه " لا لا يكفي فقل أني أحلم أو

أتخيل ما كانت تفعل ، أقسم لولا مكانتك كزعيم لهم لكنت جررتها

" من شعرها لتبتعد وتفكر ألف مرة قبل أن تفعلها مجددا

كان يرى أمامه وجها آخر لتلك الفاتنة الجامحة الغاضبة بعينان تكاد

تحرق كل شيء ولبوة تخرج من أعماقها مجددا مدافعة عن ممتلكاتها

وعلم حينها ما كان يقوله رجاله عن عجز الرجال مجتمعين في فهم

امرأة واحدة ، شدها من ذراعيها مقربا لها منه حتى كان وجهه في

وجهها وهمس " توقفي عن إيذاء نفسك فتلك المرأة لا تعنيني "

علا صدرها وهبط بقوة وقالت بحدة " ولا أنت تعنيني ففكر في

صورتي أمامهم على الأقل وأنت تبتسم لتلك الوضيعة مشجعا "

أمسك وجهها مجددا وقال مبتسما وكأنه يستمتع باشتعالها " قولي

أن كل ما يعنيك مظهرك أمامهم ولست تغارين يا كاذبة "

أنزلت نظرها تهرب من فضحه لعينيها ودفعت صدره بيدها بقوة

قائلة بغضب " من حقي أن أشعر بالتملك ناحية من يفترض بأنه

زوجي وأيا كان ، أو اتركني ارقص الآن مع أحد الرجال هناك

وأمام الجميع "

رفع وجهها له للأعلى ليقابله مجددا وهمس من بين أسنانه

"أقتلك قبلها "

" ابتعدت عنه قائلة بغضب أشد " وغيرة هذه أم حب تملك ؟

شدها من ذراعها مجددا ووجدت نفسها هذه المرة في حصنه وقد طوقها

بذراعيه بقوة، كانت يداه قويتان دافئتان وكانتا ستشعرانها بالطمأنينة

والمساندة في موقف غير هذا الموقف والمكان والزمان ، قال هامسا

توقفي عن الجنون هيا فتلك المرأة لا تعنيني يا غسق ، أنتي زوجتي "

" وأنا ملكك فقط أتفهمين

كانت ستحاول الإفلات منه أو لكم صدره بقوة تبرد بها قليلا من نار

غيرتها ومن بروده ولامبالاته بالأمر لكنها كانت أضعف من ذلك وقد

استنزفت كل طاقتها منذ بدأ مهرجان الرقص ذاك لكانت أحرقت لهم

الآن عرسهم ومن فيه ، خرج صوتها ضعيفا يعبر عن احتراقها

ولازالت سجينة ذراعيه " لم تكن نظرات شخصين لا يعرفان

" بعضهما يا مطر فلا تكذب في هذا

أبعدها عن حضنه ممسكا لها من ذراعيها بقسوة وقال بحزم

" ما هذا الجنون ؟ لا شيء بيني وبين تلك المرأة قلتها مرارا "

اقتراب تلك الخطوات منهما حينها أنهى كل ذاك الجدال بينهما فأنزلت

رأسها تمسح عينيها بقوة بكم قميصها وقد وصل زعيم القبيلة وزوجته

" الذي قال ما أن وصلا " ما بكما سيدي هل حدث لزوجتك شيء ؟

لم ترفع رأسها ولم تتحدث فسحبها لتتكئ على صدره وقال بهدوء

" لا شيء هي تضايقت من جوانا فقط وأنت تعرف تلك المرأة "

ضحك ذاك من فوره ضحكة عالية شاركته فيها زوجته وقالت تلك

جوانا ... جوانا !! تلك المرأة لا تتوقف عن إثارة المشاكل أبدا "

" ويبدوا لم تتعلم الدرس من توبيخك لها أمام الملأ من ثلاث سنين

وقال زوجها بعدها مباشرة " العربيات شرسات جدا ناحية

" سيدتي أزواجهن لكن ذلك عادي عندنا فلا تهتمي

أخفت وجهها في طيات صدره مديرة له جانبا فلا ينقصها أن تكون في

موقف محرج معهما أيضا ولن يفهما هما ولا تلك المرأة معنى ما كانت

تشعر به وتلك تتكئ عليه منحنية بظهرها وهو يشعر بجسدها على جسده

لن يفهموا هم ذلك .. فليس لأنها عربية ولا مسلمة بل لأنها امرأة تعلم أنها

تملك رجلا تمنته أغلب النساء ، رجل علم كيف يتسرب في عروقها كالدماء

وكيف يكسر كل تلك الصور البشعة التي صورتها عنه في الماضي فكيف

لا تغضب وتثور وتحتج بل وتدمر لهم قريتهم بأكملها وتلك المرأة تقترب

منه بذاك الشكل ، شعرت بيده وهي تمسح على رأسها يدس وجهها في

صدره أكثر وقد وصلتها كلماته الهادئة المبحوحة محدثا لهما " لم أكن

أريد أن أفسد زواج ابنكم بسببها كما حدث في زواج ساجي ، هي ليلة

" كان على الجميع تحملها لتمضي على خير ولا نفسدها على العروسين

وصول خطوات أخرى جعلها تبتعد عنه تعدل حجابها وتهرب بنظرها

للأرض ولم تعلق بشيء على ما قيل ووصلت ابنتهم الكبرى وزوجة

ابنهم الأكبر فقالت زوجة الزعيم من فورها " سنقدم الطعام الآن

ولا رقص الليلة أكثر ومن أراد أن يسهر راقصا فالساحة شاغرة

" له فلينتقل الجميع لمآدب الطعام

أشارتا لها بالطاعة وعادتا من حيث جاءتا وقال الزعيم من فوره

" مآدب الطعام فصلنا فيها بين الرجال والنساء بسبب حضورك

" ككل مرة وستتولى زوجتي ضيافة زوجتك بكل طيب خاطر

قال مطر ناظرا للواقفة بجانبه تتجنب النظر لهم جميعا " أفضل أن

" ترتاح زوجتي وتأكل لوحدها فهي لم تأكل شيئا منذ الصباح

حمدت الله أن طلب منهم هذا فهي لا تريد أن ترى أحدا ولا تريد

شيئا وكل ما تمنته أن يخرجا من هذا المكان فورا ، تحدثت زوجته

قائلة " تعالي معي سيدتي سيعجبك طعامنا كثيرا وسنوفر كل ما

" سيريحكما الليلة

سارت معها في صمت دون حتى أن تنظر للذي تبعتها نظراته حتى

اختفتا وشعر بيد على ظهره وذاك الزعيم يحثه على السير معه قائلا

عشائنا على شرفك الليلة فعلينا أن لا ندع الرجال ينتظرون طويلا "

" وآسف حقا بشأن ما حدث بسبب جوانا

*

*

نظرت حولها بدهشة واستغراب من المنزل الذي كان داخله مخالفا

لخارجه تماما حيث كان مصقولا بالطين ومطليا وقد اهتموا بتغطية

نوافذه بالستائر وتوزيع الأواني الفضية على طاولات متفرقة فيه

كان كما أخبرها منزلا حقيقيا قد دعموه بالقصب من أجل مناخهم

ولم تنقصه أيا من مقومات الحياة وكأنهم يقولون لمن حولهم نحن

نعيش على طريقتنا وإن استنكرتموها ، نظرت للأبواب المغلقة

المطلة على تلك الصالة الواسعة ولم يكن عددها كبيرا فعلمت فورا

أنهم يستقبلون ضيوفهم في المجلس الأرضي الذي تقف فيه حاليا

قالت الواقفة بجانبها مشيرة لأحد الأبواب " ذاك الحمام سيدتي

" يمكنك استخدامه وسنجلب لك العشاء فورا

هزت رأسها بحسنا مبتسمة بامتنان وهمست " أريد أي شيء ساتر

" أصلي به واتجاه شروق الشمس هنا ؟

قالت تلك مبتسمة ومشيرة بيدها " من هناك سيدتي ، وستجدي

" الثوب لديك هنا أيضا ما أن تخرجي

همست شاكرة لها وتوجهت حيث أخبرتها وفتحت الباب المصنوع من

اللوح الخفيف ودخلت وأغلقته خلفها ، كان حماما بسيطا لكنه متكامل

لا ينقصه شيء ، توجهت للمغسلة وفكت حجابها ووضعته جانبا ثم

غسلت وجهها بالماء لمرات عديدة لم تكن تستطيع إحصائها وهي

تضربه به بقوة وكأنها تغسل قلبها وجوارحها من أحداث اليوم جميعها

من كل ما لازالت تشعر به يذبح روحها للآن فكم كان يوما قاسيا لم

تعش أصعب منه ، نزلت دموعها رغما عنها مختلطة بتلك المياه ولم

تستطع لا إيقافها ولا التحكم فيها وقد سندت ذراعها ومرفقها بحوض

الغسيل وخبأت وجهها ودموعها وعبراتها فيهما تطلق العنان لضعفها

الذي ضلت تدفنه داخلها طوال ذاك الوقت حتى أفرغته تماما ثم وقفت

على طولها وتوضأت وغسلت وجهها مجددا بالماء ثم نظرت له في

المرآة المربعة المثبتة فوق المغسلة وكأنها ملصقة في الجدار بالغراء

نظرت لعينيها الذابلتين وخديها المتوهجان ، تشعر بأنها أفضل بكثير

بعدما أفرغت كل ذاك الكم من المشاعر الغاضبة التي كبتتها لتخرجها

على هيئة دموع ، كانت تحتاج ذلك فعلا تحتاج أن تختلي بنفسها وتفتح

الفوهة لذاك البركان لتتخلص من حممه العالقة بداخلها قبل أن يتفجر

أمام أي شخص وخاصة ذاك الرجل الذي ما كانت لتسامح نفسها لو

فعلتها أمامه ، قد تنفجر في وجهه غاضبة حانقة أو حتى بسبب غيرتها

القاتلة أما غيره فلا ، سمحت لنفسها بالبكاء أمامه بسبب تلك القصة

المأساوية في طفولتها لكن أن يشهد ضعفها بسببه وأن تنهار من أجله

ذاك ما لن تسمح به ولن تسامح نفسها عليه ، جذبت المنشفة المعلقة

في مسمار على الجدار بجانب تلك المرآة ومسحت بها وجهها

" متمتمة " هل تعني حقا ما تقولينه يا غسق ؟

أبعدت المنشفة عن وجهها ونظرت له في المرآة مجددا وهزت رأسها

برفض ويأس ، هي تعلم كم أصبح يربكها وجوده كم أصبحت هشة

وضعيفة أمام لمساته وما حدث نهارا عند جدول الماء كان أكبر دليل

ازداد شحوب وجهها وتوهج وجنتيها وهي تتذكر لمساتها تلك لوجهه

وعنقه ومشاعرها المتقدة التي كانت تطلب بلهفة أن يفعل ما كانت

تتوقعه ويصبوا إليه ، ثبتت المنشفة مكانها بعنف تطرد تلك الأفكار

البائسة من رأسها ثم رفعت المشط الموضوع على حافة المغسلة

ومشطت شعرها لترتبه ، رمته للخلف ما أن أنهت عملها وتنفست

تملأ صدرها بالهواء ناظرة لصورتها في المرآة وزفرته بقوة

هامسة " لم تفقدي يوما ثقتك بنفسك يا غسق فلا تتركي

أحدا يفعلها الآن "

رتبت ياقة قميصها ثم خرجت من الحمام لتستقبلها رائحة الطعام ما

أن فتحت الباب ووجدت أطباقا كثيرة ومتنوعة منه لا يمكنها أكلها

جميعها ولا في شهر كامل ، توجهت للرداء الموضوع على الفراش

أمامهم ، كان طويلا بأكمام طويلة ولونه نيلي جميل لبسته ولبست

حجابها وصلت العشاء أولا ثم خلعتهما وجلست أمام تلك الأطعمة

المتنوعة ورغم رائحتها الشهية وجوعها الشديد شعرت بأن شهيتها

مسدودة وحلقها متيبس وكأنها ستبلع حجرا وليس طعاما ، ورغم كل

ذلك أجبرت نفسها على تناول البعض منه كي لا تفقد وعيها وكي لا

يضن أهل ذاك المنزل أنها تنفر من طعامهم ، اضطجعت بعدها على

الفراش الذي كانت تجلس عليه ونامت على ظهرها وأراحت ذراعها

على عينيها تحجب عنهما نور الغرفة القوي وكم شعرت بأنها تحتاج

لتلك الراحة لعظامها المنهكة رغم أن الصورة الوحيدة التي تشكلت في

الظلام أمامها هي تلك المرأة بثوبها الأسود الطويل عاكسا لون بشرتها

وشعرها العسلي المموج وذراعاها وأكتافها العارية وهي ترمي بجسدها

على صدر ذاك الطويل ذو الرجولة المنهكة ببنطلونه الضيق وقميصه

الأبيض عاكسا بياض بشرته وسواد شعره ولحيته وتلك الوقفة التي لم

تزده إلا رجولة متفجرة كالإعصار ، شدت على عينيها بقوة أكبر تتمنى

أن تنقشع تلك الصورة من أمامها لتعطي المجال لمشاعرها وقلبها ليرتاحا

مع جسدها الذي سرعان ما رحمها وهوا يسلم نفسه للنوم ليأخذها

لعام آخر تماما بعيدا عن كل ما حدث وعانته

*

*

قفز جالسا من نومه ونظر يمينا حيث الطاولة التي يضع عليها

هاتفه الشخصي وفرك عينيها مستغفرا بهمس ورفع مجيبا عليه

فورا بتوجس وخيفة من وقت هذا الاتصال آخر الليل فلا يحمل

هذا الوقت إلا المصائب ، ما أن فتح الخط حتى قال مباشرة

" من أنت ؟ ما بكم ؟ "

" جاءه الصوت الأنثوي الرقيق الحزين المنخفض " كاسر

" !! مرر أصابعه في شعره وقال بصدمة " تيما

كان الصمت جوابها حتى ضن أنها أغلقت الخط أو أنها مجرد

وهم واختفى وكان سيناديها باسمها لولا سبقه صوتها الرقيق

" الحزين ذاك قائلة " اشتقت لك كاسر لما تفعل هذا بي ؟

رمى اللحاف عن جسده وغادر السرير متوجها للنافذة ووقف أمامها

وقال بلهفة " لم أفعل هذا يا تيما أنتي تعلمين جيدا أنها قوانين

" زعيمكم أقسم أن قلبي يشتعل ولا أجد حلا

وصله صوتها الذي اختلط بعبرة بكائها " أريد أن أراك كاسر

أن نكون معا ، لم يعد يمكنني تحمل أكثر من هذه المدة ؟

" لما يحدث معنا كل هذا

اتكأ بجبينه على زجاج النافذة وأغمض عينيه بألم وعجز وأصابعه

تضغط على الهاتف في يده بقوة وهمس " سأجد حلا حبيبتي

" تأكدي من ذلك ولن أتأخر عنك ، هل ذهبت لعمك ؟

لم يعد يسمع سوا شهقاتها لا ردها ولا صوتها فقال مناديا

تيما توقفي عن البكاء حبيبتي أخبرتك أني سأجد حلا "

" ألا تثقين بي ؟

قالت باكية " عمي قال زوجك يأخذك أو يجد لك حلا وأنت تعلم

أنه من يملك صك الزواج وأخشى أن ينكره يوما ، لم أكن أعرف

كيف أصل لك ولا لهاتف منزلكم فالكهرباء إما مقطوعة لدينا أو

لديكم واتصالي به لهاتفك الآن دفعت ثمنه القلادة التي أهديتها

" لي لأن العجوز ترفض أن تتحمل تكلفة المكالمة المرتفعة

مرر أصابعه في شعره ينظر للسماء السوداء وهمس

" ....لا تقلقي حبيبتي وتوقفي عن البكاء سـ "

لكن صوتها اختفى عنه لانقطاع الخط ولن يجدي ما يقول نفعا ولن

يصلها ، أبعد الهاتف عن أذنه ونظر له وكاد يحطمه في قبضته

القوية الغاضبة وتمتم بحقد " مطر شاهين لقد دمرت قلبي شر تدمير

وانتزعته من صدري مرتين ، حرمتني من أغلى امرأتين في

الوجود غسق ويئست أن ترجع من قبضتك لكن هذه لن

" تمنعني عنها قوانينك تأكد من ذلك

*

*

سيطر عليها ذاك النوم تماما ولم تفق إلا بعد وقت وقد جلست مسرعة

تنظر من حولها وقد اختفت تلك الأطباق وحتى رائحة ذاك الطعام لم

يعد لها وجود ، رفعت غرتها بيدها للخلف ثم دست تلك الخصلات التي

تساقطت تباعا خلف أذنيها لحظة ما انفتح أحد تلك الأبواب وخرجت

منه ابنة الزعيم الصغرى وتوجهت نحوها مبتسمة وجلست بالقرب

منها قائلة " نمت لثلاث ساعات يا أميرة وكأنك ميتة ، لو أننا

" اختطفناك ما شعرت بنا

" ابتسمت لها قائلة " كنت متعبة وأشك أن زلزالا قد يوقظني

ضحكت تلك تبعد خصلات شعرها الكستنائي الناعم للخلف وقالت

أسمي آستريا وينادينى البعض آستي ، سعيدة جدا بزيارتك "

" سيدتي لنا

" ابتسمت لها غسق بود وقالت " وأنا سعيدة بالتعرف إليك آستي

ثم نظرت حولها تستمع للموسيقى التي لازالت تعزف في الخارج

" وقالت باستغراب " أمازال الحفل مقاما ؟

قالت تلك مبتسمة " من كان لازال يريد الرقص والسهر أما

" العروسان فقد غادرا قبل أن تنتهي مأدبة العشاء

شعرت بذاك النبض المتسارع في قلبها وقالت بتوجس

" ومطر أين هو الآن ؟ "

قالت تلك من فورها " مع والدي وبعض رجال القبيلة ففي

الزيجات التي يحظرها الزعيم مطر معنا نفصل بين الرجال

" والنساء سوا في استقبال العروسين

شعرت بموجة غامرة من الارتياح فلن تتخيل أن يكون مع مجموعة

الراقصين حول تلك الفرقة الموسيقية أو أن يكون حتى ضمن الحضور

وأن تكون تلك المرأة منهم ، أخرجها من أفكارها تلك صوت الجالسة

" أمامها قائلة بابتسامة " لم تنزعجي من أنجوانا سيدتي بالتأكيد ؟

" قالت غسق مستغربة " أهي جوانا ذاتها ؟

هزت رأسها بنعم مبتسمة قبل أن تتحول ملامحها للضيق وقالت

نعم لكنها تحب أن يناديها الجميع جوانا ، هي متعجرفة كثيرا "

" أنتي أجمل منها فلا تزعجك تصرفاتها

بلعت غسق غصتها واشتعال تلك الغيرة في قلبها وقالت تغير

" سير ذاك الحديث " هل تدرسين يا ايستريا ؟

" هزت تلك رأسها بنعم وقالت " أدرس الآن في المرحلة الإعدادية

نظرت لها غسق باستغراب وقد تابعت تلك من قبل أن تسألها

يفترض أني في بداية المرحلة الثانوية الآن لكني لم أدرس "

" إلا من ثمان سنين لأنه لم يكن هناك مدرسة لدينا ولا نتعلم

" ! قالت غسق بصدمة " لم يكن لديكم مدرسة

هزت رأسها بنعم وقالت " لم يكن لدينا واحدة حتى استلم الزعيم مطر

زعامة الحالك من تسع سنين ، هو من بنا لنا المدرسة وحتى مستشفى لقرانا ووفر لنا معلمين وأطباء وإن كانوا قلة وسعى جهده لتوثيق مدرستنا إنه رجل رائع فمنذ تولى الزعامة ومشاكل كثيرة كنا نعانيها خلصنا منها ويعاملنا كما يعامل الجميع في الحالك ، في الدول المجاورة من هم في مثل وضعنا يعانون كثيرا حتى الماء والكهرباء لم توفرها لهم دولتهم ولم تمد الخطوط لهم ولا بالمال ، لا دراسة لا هوية ولا شيء ، لا شيء سوا العمل لديهم بأبخس الأثمان ، حتى إن قُتل أحد منهم لا أحد يأخذ بحقه في أغلب الأحيان ، نحن هنا نعامل كما الجميع وإن كنا ضمن حدود مناطقنا وهو أفضل لنا حفظ دماء الكثيرين منا ، نزرع وننتج ونأخذ رواتب كغيرنا في الحالك ، حتى الأرامل والمطلقات لم ينساهم مثلهم ، وجميع القوانين سارية علينا كما في باقي المناطق ، ولم يذهب والدي مرة لحوران لملاقاته ورجع خائبا أو مكسورا ، كان دائما يحاول أن يجد معه أي سبل لحل مشاكلنا

" كم أنتي محظوظة به زوجا سيدتي

وأضافت مبتسمة " حين أكبر أريد زوج مثله في كل شيء وسأحبه

" طوال حياتي وأخلص له

نظرت ليديها في حجرها ولم تعلق بشيء وحديثها يدور في رأسها

كلامه سابقا عن العمران وعن أهل هذه القرى وثقة أهل الهازان

الفارين به وقد أدركت كم من أناس تحتاجه وأن غيابه سيزعزع

استقرارهم وحياتهم ، انفتح باب المنزل حينها قاطعا على تلك

المراهقة الحالمة سيل أمنياتها وحديثها الذي لا ينتهي وقد دخلت

منه والدتها وشقيقتها التي قالت " استريا يكفيك ثرثرة وإزعاجا

لزوجة الزعيم ، أرسلناك لتري إن استفاقت لا لأن تصدعي

رأسها بثرثرتك "

وقفت تلك تتحلطم بلغتها وخرجت مستاءة على ضحكات والدتها

وشقيقتها وقالت غسق مبتسمة " ما كان عليكما إغضابها ، هي

لم تزعجني أبدا "

اقتربت زوجة الزعيم منها قائلة بإعجاب باسم " كم زادك شعرك

جمالا وكم هو رائع "

وعلقت ابنتها فورا " لو كنت مكانك ما أخفيته أبدا "

قالت غسق مبتسمة " ديننا لا يسمح بذلك ، على المرأة أن تستر

" جسدها وشعرها أمام الرجال ، هي حق لزوجها وحده

قالت تلك " زوجك سأل عنك وحين علم أنك نائمة طلب أن

" لا نوقظك

هربت بنظرها للأرض ولم تعلق فلم تترك لها مشاعرها المضطربة

المجال وقد قالت الابنة الكبرى بحماس " بما أنكما لم تتزوجا إلا

من قريب وستقضيان الليلة هنا سنجهزك كعروس منا ونريدها

" مفاجأة للزعيم مطر

نظرت لها بصدمة وفكرة واحدة لم تخطر على بالها أبدا وهي أنهما

سينامان معا ! فقد اعتقدت بأنه سينام مع مضيفه بيمنا ستمضي هي

" ! ليلتها هنا ، خرجت الحروف منها بصعوبة قائلة " كعروسكم

اقتربت تلك منها مبتسمة وشدتها من يدها قائلة " أجل سنلبسك

ونزينك كزوجة شقيقي التي رأيتها وتقضيا ليلتكما في خيمة

" خاصة بالعرسان أيضا

ولم تترك لها مجالا لتعترض لتناقش أو حتى تسأل بل سحبتها معها

تتحدث بحماس عما سيفعلونه حتى وجدت نفسها في منزل آخر

ومجموعة فتيات والكثير من الأمور التي عليها فعلها دون أي فرصة

للاعتراض ، كان عليها أن تستحم بماء الورد كما طلبن وتلبس ملابس

داخلية خاصة قدموها لها وثوب يشبه ثوب تلك العروس في كل شيء

حتى الأزهار التي تزين قماش حمالتيه العريضتان وتلتف حول ياقته

الواسعة التي كشفت جزءا من صدرها ، وما أن خرجت من الحمام

حتى استلمنها مجلسين لها على كرسي وقد أبهرتها حركتهن السريعة

في تمشيط شعرها ولفه للأعلى بتناسق وكأنها يد واحدة فعلت ذلك وقد

قمن بتثبيت أزهار بيضاء به كتلك التي رأتها في شعر العروس تماما

وضعوا لها كحلا في عينيها وقشرة شجرة السواك تلك التي طلبوا منها

مضغها وفرك لثتها وشفتيها بها لتعطيهم ذاك اللون الأحمر الغامق

وأنزلن تلك الطرحة على شعرها وجبينها في آخر خطوة وهي تسمع

هتاف الإعجاب منهن وقد أوقفتها ابنة زعيمهم وأخذتها للمرآة الطويلة

وما أن وقفت أمامها حتى فتحت فمها مصدومة فلم تتخيل أن تكون به

أجمل من تلك العروس وأن تتغير بهذا الشكل رغم بساطة زينته لكن

رفع شعرها للأعلى وتلك الطرحة والأحجار التي تزينها أضفت سحرا

خاصا لوجهها مع كحل العينين المتقن الوضع وذاك اللون الأحمر القاتم

الذي تعكسه شفتيها على لثتها ، كانت به عروسا لن ينسوها بسهولة

وسيقارنون بها كل من ستلبسه مستقبلا ، قفزت استريا جهة الباب

قائلة " سأنادي الباقيات ليرونك ، أقسم أن تفقد أنجوانا عقلها "

وخرجت على صوت شقيقتها الغاضب بتلك الكلمات التي لا يفهمها

أحد غيرهم ثم نظرت لغسق وقالت " تلك الثرثارة لا تهتمي كثيرا

لما تقول "

قالت إحدى الواقفات حولها " بل على جوانا تلك أن تعلم أنه ثمة

من أفضل وأجمل منها فلم يكفيها ما قاله لها الزعيم مطر في زواج

ساجي منذ ثلاث سنين ولازالت حتى الآن ترفض الزواج رغم كثرة

خاطبيها تنتظره بل وصرحت بدخولها الإسلام إن كان من أجله "

قالت أخرى بضيق " يكفي يا فيرا أنتي لا تحبينها فقط لأن

" زوجك خطبها

قالت تلك بقهر " لا يعنيني حتى إن تزوجها ، هي تحتاج من يكسر

أنفها وقد فعلها الزعيم مطر وسيزيدها رؤية زوجته الليلة أجمل منها

أضعاف المرات لعلها تتوقف عن إيقاع الرجال في حبالها ثم رفضهم

وإن كانت صادقة لقالت ما قاله لها الزعيم مطر وقت رقصها جعلها

" توقف تلك الرقصة السامجة وتبتعد عنه

تكلمت التي تقف عند آخر الجدار مكتفة يديها لصدرها " لما لا

" توقفوا الحديث عنها ؟ هل علينا شغل أنفسنا بها في كل حفل زواج

وعند هناك وقف حديثهن مضغنين لها تاركين عقل الواقفة بينهم يدور

في دوامة لا نهاية لها (ما الذي قاله لها ؟) سؤال غرسوه في دماغها

دون أن تجد له إجابة وهي من كانت متأكدة من أن ذاك الحديث القصير

الذي دار بينهما كان عنها ، دخلت استريا من الباب وخلفها مجموعة

كبيرة من النسوة اللواتي لم يخفين دهشتهن والكلام الذي لم تفهم منه

شيئا وأعينهن لم تتركها ولا لحظة وهي واقفة أمامهم بذاك الفستان

الأبيض الطويل المخصر الذي أظهر نحول خصرها واستدارته

وتناسق جسدها وقد كشف تفصيله بياض تلك الأجزاء التي لم يراها

ولا زوجها وأبرز لون شعرها وجمال عينيها وسوادهما وتورد تلك

الوجنتين الناعمة وذاك الأحمر القاتم الذي زين شفتيها ليزيدهما فتنة

وإغراء ، وليكتمل ذاك الحسن بتلك الطرحة الجميلة التي زينت حدود

وجهها الدائري وعنقها الناعم وكتفيها المستديران لتكون صورة تستحق

ذاك الذهول الذي ظهر على ملامحهن دون أن يخفينه ، واستطاعت

أن ترى من بينهن تلك الواقفة هناك عند الباب مكتفة يديها لصدرها تنظر

لها نظرة لم يصعب عليها فهمها أبدا فبادلتها بأخرى أشد منها وهي ترفع

ذقنها بكل كبرياء وثقة فهي من فازت به ولن يرى تلك بهذا التوب أبدا

وإن طالت النجوم ، ابتسامة ساخرة شامتة كانت رد الواقفة هناك عند

الباب وكأنها تذكرها بنظرتها لهما في ساحة الرقص ، نظرة امرأة

محطمة منهارة لا تملك ما في يديها وإن كان لها فتجاهلتها ونقلت

نظرها للتي تقدمت منها وألبستها أربع أساور صفراء لامعة في

معصميها زاداهما جمالا وزادوها حسنا ، أطلت إحدى الفتيات

برأسها من الباب وقالت بحماس " زوجة الزعيم قالت أن

الزعيم مطر يريد زوجته "

فذب ذاك الحماس في جميع الموجودات هناك وجميعهن يردن الخروج

لإيصالها بينما كان اضطرابا ودوارا لدى تلك الأميرة البيضاء كما

وصفتها إحداهن وهي في الثوب الأبيض المميز ذاك ، لا يمكنها التكهن

بردة فعله على كل هذا وقد صور لها عقلها ملايين الأمور حتى أن

ينتقدها أمامهن أو يطلب أن تنزعه ، أو يكون يريدها ليخبرها أنها

ستنام مع زوجة زعيمهم وابنته ويتركها ويغادر لتنهشها نظرات

أولئك النسوة ويضعها أمامهن في موقف لن تنساه ما عاشت

اقتربت منها استريا وأمسكت بيدها وسحبتها معها جهة الباب

هامسة لها " لقد أصبحت تلك المغرورة بثوبها الأسود ذاك

بجانبك كغراب يقف قرب حمامة "

لم تستطع غسق إمساك ضحكتها وهما تتقدمان جمع الفتيات الذي

خرج خلفهما حتى كانوا في الخارج جميعهن وتقدمت بها استريا

بضع خطوات عنهن ثم تركتها هناك وركضت متقدمة تمسك فستانها

بيديها لترفعه كي لا يوقعها واختفت خلف أحد البيوت للحظة ثم

عادت راكضة وقالت بحماس " ها قد جاء ، لن أتحرك من

مكاني حتى إن طردني "

وانضمت لهن على ضحكهن على ما قالت ليعم بعدها المكان صمت

مميت حتى لم تعد تسمع معه الواقفة أمامهن إلا صوت ضربات قلبها

وخطواته القادمة من خلف ذاك الجدار فأغمضت عينيها لبرهة تأخذ

نفسها ثم فتحتهما لحظة خروجه من هناك والتصفيق الحار من الواقفات

خلفها ، ورغم أنه لم يوقف خطواته الثابتة الواثقة فقد استطاعت أن ترى

المفاجأة في عينيه من الموقف وتلك الابتسامة التي كانت آخر ما توقعته

منه وهو يتقدم نحوها ، أجل نحوها هي نظراته لم تفارقها وعيناه لم

تنزاح أبدا عن وجهها وقد شعرت بقلبها بدأ يرقص بين ضلوعها وهي

ترى تلك النظرة والابتسامة التي خصها بها وحدها ... لم ينظر لأي

من الموجودات على مبعدة منها ولا لتلك التي اختارت مكانا متطرفا

بارزا وكأنها تتعمد الوقوف فيه ... لم ينظر لغيرها ولم يقترب من

غيرها ... الرجل الذي يساوي ذكره الكثير عند جميع أهل تلك

. القرى وتراه فتياتها مقياسا لرجل أحلامهن

وصل عندها ووقف أمامها تماما لا يفصلها عنه شيء وهي ترفع

رأسها ناظرة له تبادله تلك الابتسامة بأجمل وأصدق منها ، رفع

يديه ملامسا بهما ذراعيها العاريان من تحت القماش الخفيف لتلك

الطرحة الطويلة في لمسة خفيفة وهمس وقد خف وهج ابتسامته

" قليلا " من صاحب هذه الفكرة ؟

فشعرت حينها بقلبها هوى للقاع وظهرها تيبس فأنزلت رأسها قليلا

حتى اتكأت بجبينها على ذقنه هامسة برجاء " مطر إن كان لديك

" أي انتقاد فاتركه حتى نكون وحدنا أرجوك وعاقبني بما تريد

والرد منه كان أن رفع يديه عن ذراعيها وأمسك بهما وجهها وقبّل

جبينها قبله عميقة طويلة علا معها تصفيق وحماس الموجودات

هناك وهي تجاهد دموعها كي لا تنزل من فرط تأثرها وخرجت

شهقتها رغما عنها حين شعرت بقدميها تبتعدان عن الأرض وقد

أصبحت بين ذراعيه فتعلقت بعنقه تلف ذراعيها حوله تدس

وجهها فيه تخفي تلك المفاجأة والفرحة في ملامحها وعينيها

وقد وصلها همسه الرجولي الفخم وهو يولي بها ظهره لهن

" لا تنسي بأنك رضيت بأي عقاب ما أن نكون وحدنا "

المخرج ~

بقلم الغالية missliilam :

سألت يوما عن المطر قالوا ويحك كل الخطر
دمار وحرب وشعب هجر وقتل وفقد بكل الصور
دماء تجري كجري النهر إثبات نفوذ وإلحاق ضرر
قد عانى الشعب لألف دهر غياب الأمان ونشر القهر
ومضى الأمل في درب سفر وضاع فيه وفقدنا الأثر
فسحقا لمطر سحقا لمطر فؤادا بكى حين انفطر

وقفت مكاني و زاغ النظر هولا بوصف الناس المطر
عجبا لقومي وقول عبر لمرهف سمعي وفيه استقر
اصدقا احقا هذا الخبر محال تكونوا عرفتم مطر
ماء تبخر وترك البحر وطار تكثف لسحب تمر
غيوما تصير لارض تفر محملة بغيث بخير كثر
ليهطل باذن الله المطر مطهرا مخلصا من شر ظهر

وارتوت التربة وفرح البشر وازدان الزهر ونمى الشجر
وبعدها يعود لأبيه البحر محملا بشوقه يعطيه الخبر
في رحلة شهدها العمر وسجلها التاريخ بكل الفخر
وتعود تتكرر ابد الدهر تحيل الارض ربيعا نضر
تعيد للأذهان قولا درر قد جاء الفرج بعد الصبر
لو لم يكن خير في المطر ما طلبه الناس من رب قدر
صلاة استسقاء لجفاف وحر وقرابين و رقصات من زمن غبر
وقل للأعادي موتوا غيظا وقهر فإن الوطن يريد المطر

*****

نهاية الفصل .... موعدنا القادم مساء الجمعة إن شاء الله

وبعدها تكون الفصول كل جمعة كفصل واحد أسبوعيا

لطول الفصل وضيق وقتي ودمتم بكل حب

****

الفصل الرابع والعشرون

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

للجمعة شكرا أخواتي العزيزات على ألتماسكم العذر لي ، كانت المدة من الأحد
الفصل فشلت ضيقة جدا ومع انقطاع الكهرباء وكثرة الواجبات اليومية وطول
في إدراك الجمعة رغم كل جهدي في الكتابة .

لازم أرسله لفيتامين سي قبله على الأقل بيوم لأنها تجمعه من خاصة وإنه
العشرين رسالة وتراجعه بعدي وتعدل بعض الأخطاء الإملائية الي قرابة
عنها فكان الوقت جدا ضيق وزعلت عشان انتظاركم وأملكم بي وفرحت أغفل
لما شفت تفهمكم وقرأت كلماتكم الرائعة .

هالخطأ وما نتعرض له مجددا ولو أنزل الفصل أقل إن شاء الله أحاول أتدارك
من طوله المعتاد

على وشكرا طبعا لكل ردودكم الحلوة وتعليقاتكم سعدت جدا إن الفصل حاز
شاعرات رضاكم وما ضاع تعبي عليه ، شكرا لأشعاركم الرائعة والجميلة
الشرف ذكر أسمي مبدعات استمتعت جدا بقراءة كل كلمة فيها وكان لي عظيم
في بعض أشعاركم وصلت هداياكم الرائعة غالياتي

عنها وكانت من أروع المفاجآت ، الغالية طعون نبهتني لنقطة مهمة غفلت
العشرة سنين ثم وهي عمر غسق لما زارت العمران أنا ذكرت في البداية عمر
وغفلت عنه والتعديل أصبح كتبت ستة كنت شاكة في الرقم وبراجعه لكن نسيت
مستحيل فاعتبروه ست سنوات .

ثانية من البنات غاب عني اسمها رغم إني حرصت على تذكره نبهت وحدة

والمفروض عن دبلة مطر في اليد اليمين وهذا كان خطأ آخر مني ما انتبهت له
وتنبيهي . كانت في اليد اليسار فشكرا للغوالي على دقة ملاحظتهم

صور الأبطال كانت جميلة من صورة مطر للأمير غزلان

الي أول مرة أعرف عنه ههههه لصورة غسق كانت جدا رائعة وأتمنى أصبح تساعدوني والأخت الغالية لامارا في صور أبطال الجزء الثاني بعدما قاسم وبطلة لديكم خلفية عن ملامح أغلبهم (مارية ، تيم ، وقاص ، زيزفون)حلوة ليه أعتذر عن ذكرها ههههه

أدام الله وأحب أهنئ الأخوات من السعودية والشعب السعودي باليوم الوطني وأبعد عنكم أيدي عليكم أمنه وأمانه واستقرار بلادكم ولا حرمكم ذاك النعيم . المفسدين أعداء الدين

فصل اليوم أطول فصل كتبته للآن وأتمنى ينال إعجابكم

(جنون المطر (الجزء الأول

الفصل الرابع والعشرون

المدخل ~

بقلم الغالية : نداء الحق

غسق

ياايها الرجل القريب البعيد
قلي بالله عليك ماذا تريد؟
تحاكيني وتناورني بكل دهاء
وتدور حولي كأنني فريسة
تدفعها بكل هدوء نحو ماتريد
ألا تعلم انني ابنة شيوخ
ورضعت منذ الصغر
اصول ومفاهيم حروب الكلام
تعبت من الحلم بغدَجميل
وفرحة تملء جوانح روحي
بدل هذا الترقب المخيف
فالعمر يمضي ولانعلم
الى اين المصير
جئتكم ابحث عن اسرار
اصلي ونشأتي
لاكتشف انني مازلت
ادور في سلسلة من
متاهات الغازِ
فيا ظلام الكون متى الرحيل
متى تشرق شمس الاصيل
متى تزور البسمة اركان قلوب
المتألمين
سيبقى سؤال مبهم دون جواب
لان قومي قد قرروا ان يكونوا

اخوة يوسف الى أبد الابدين
دون توبة او ذرة ندم

****

ملونة قد أنزلها وسط الخيمة الدائرية الواسعة المغطى داخلها بستائر شفافة لكن كل تلك وزعت فيها الزينة والأضواءالخفيفة والشموع وباقات الزهور ولا حتى ذاك الروعة ما كانت لتجد لها حيزا في اهتمامهما ولا انتباههما السرير الواسع الذي نثرت أوراق الأزهار الحمراء بنعومةعلى أغطيته البيضاء الحلة المميزة تسمح لأي الحريرية ، فما كانت صورتها في ذاك الثوب وتلك ولا رائحته وقربه من جسدها ونظرة جمال غيرها أن يغريه للتمعن فيه وتقييمه كانت لتكون أقل تأثيرا في قلبها من تلك الأشياء الرضا والذهول في عينيه الجامدة .

متدفقة في لم تكن تشعر سوا بوجوده بقربه منها كل ذاك الحد وبجريان الدماء حول خصرها عروقها وقد حرص أن تكون في حصار ذراعيه الملتفتان وجسدها ملاصق لجسده

. ويداها ترتاحان على صدره

همسه الدافئ ولم تستطع رفع نظرها له حتى تلك اللحظة وأول ما وصلها كان " " هل أحدد العقاب إذا ؟

صعودا لكتفيه عضت طرف شفتها بقوة ودفنت وجهها في صدره ماسحة بكفيها " وهمست برقة " هل أستطيع تخمين ما سيكون ؟

" لم نختلف خرجت ضحكته مرتخية مبحوحة كسولة وقال يشدها لجسده أكثر

" في أفكارنا يوما

عنقه عضت شفتها مجددا محرجة مما فهمه ويفهمه كل واحد منهما وطوقت بذراعيها وقد شعرت بشفتيه تقبل

بذلك الآن ، هو أوضح ما يريد أن تفهمه رأسها .... (هي له) حكم كلاهما لها ولم يعد من جدوى للمماطلة والتأجيل ، وهي فهمت ما كان يريد إيصاله رفعت رأسها ونظرت لعينيه
امرأة التي كانت تنظر لها بدفء ووهج خاص لم تراه فيهما سابقا ولا أي لن تأخذني لقبائلك " غيرها ، قالت وأصابع يدها تتحرك بنعومة على عنقه " مرة أخرى اتفقنا

خصرها خرجت منه ضحكة صغيرة وقرب أنفه من أنفها ورفع ذراعيه من " التنازل يا غسق ؟ لظهرها يشدها له أكثر وهمس " هل بدأنا بشروط

" أرخت نظرها عن عينيه قليلا وهمست بحياء " اعتبرها ما تريد

قال مبتسما بنشوة من شعوره بقربها واستسلامها أخيرا وحرارة الغيورة المتملكة " ضننت أنك تريدين أن يكون للنساء رأي وأنك دمائها " تفكري في زيارة مدن الهازان معي قد

رفعت نظرها له سريعا وخرجت منها تلك الكلمة دون شعور

" لا قطعا "

فريسة لعبته وسرعان ما عضت طرف شفتها محرجة من نفسها ومن وقوعها وهمست " لا تختبر غيرة الخبيثة تلك فعادت لتطويق عنقه متعلقة به بقوة " جدا صدقني امرأة يا مطر لأنها قد تصبح مؤذية

ضمها له أكثر متنهدا وقبّل خدها عدة قبلات وكأنه يرسم حدوده عليه

بنعومة وهمس في أذنها وهي تستسلم بين ذراعيه " لا مجال للتراجع

الآن يا غسق ، لن أعدك أن أسيطر على نفسي كالسابق وأكتفي بقبلة

عطشه وأبتعد ، اليوم تحديدا لن أستطيع فلا تجعلي الأمر يتحول

لقسوة تؤذيك حسنا "

دست وجهها في عنقه أكثر تلعن غبائه الذي لم يترك له مجالا ليفهم

أنها لن تتراجع ولن تقوى على ذلك وبأنه أضعفها حد الاستسلام

ولعنت غبائها أيضا حين لم تفهم سبب هروبه وابتعاده عنها وهما

عند جدول الماء حتى أوضحه لها الآن ، أبعدت وجهها عن عنقه

تتجنب النظر لعينيه المنتظرة بترقب جوابها الذي لم يكن يتصور

أنه لن يكون لفظيا حتى عبثت أصابعها الرقيقة بنهاية شعر عنقه

الناعم المقصوص تشعر بملمس بشرته من بينه وأصابع يدها

الأخرى تتحرك بنعومة على شعرات لحية فكه وأعلى نحره وقد

قربت وجهها ببطء وطبعت قبلة صغيرة رقيقة مترددة وخجولة

على طرف شفتيه لتنزل بالأخرى على ذقنه قبل أن تدس وجهها

في صدره بعدما أوصلت تلك الرسالة القصيرة المدمرة لدفاعاته

مطلقة العنان لتلك العاطفة المشبوبة وخرجت صرختها المنخفضة

مختلطة بضحكتها حين شعرت بوخز أسنانه الخفيف على عنقها

" ضاحكا وقد همس بخشونة متوعدا " ويلك مني يا ابنة شراع

رفعت وجهها لوجهه وقالت مبتسمة لابتسامته تلك " لا ترفع

" راية التحدي الليلة يا ابن شاهين ... ها قد حذرتك

إيماءة خفيفة منه كانت الجواب وهو يشدها له مجددا منحن لها مقربا

وجهه لوجهها ، كانت قبلته طويلة بطيئة متمهلة وناعمة وعرف كيف

يسلب ذلك منها ، كيف يجعلها تشاركه فيه وتطلبه أيضا ، رفع رأسه

ونظر لها يسترجعان أنفاسهما القوية المختلطة قبل أن يعودا مجددا

لتلك القبلات المتعطشة وهي تشعر بسحاب الفستان يفتح من الخلف

تحت لمسات يديه فتعلقت به أكثر خشية ذاك الدوار الذي قد أرهق

حواسها ويده تتسلل بنعومة من ظهرها العاري لخصرها تحت القماش

الناعم لذاك الفستان حتى شعرت بضغط أصابعه عليه مرسلا ذبذبات

قوية في كامل جسدها تزيدها ضعفا وتعلقا به واليد الأخرى تنزل

إحدى حمالتيه ببطء ، كان كل شيء فيها يطاوعه متغلبا على

حيائها وترددها وذراعاها ملتفتان حول عنقه بقوة حتى انتفضت

مبعدة شفتيها عن شفتيه مرخية ذراعيها ما أن رن الهاتف المثبت

في حزام بنطلونه بضجيج مرتفع مزعج وسمعت تلك الشتيمة

الهامسة التي خرجت من شفتيه وأصابعه تنسل ببطء ونعومة

عن بشرة خصرها لتخرج من فستانها وقد ابتعدت عنه تحاول

تثبيته من الأمام بيديها كي لا ينزل عن جسدها بسبب سحابه

الطويل المفتوح ناظرة للأسفل مدركة أن هذا الوقت المتأخر لن

. يتجاهل فيه هاتفه ولا من أجلها أو بسببها

رفعت نظرها لوجهه وهو يجيب عليه وقد رفع يده وأمسك حمالة

الفستان يعيدها لمكانها ونظره عليهما قبل أن يبتعد عنها لطرف

الخيمة موليا ظهره لها وكل تلك اللهجة القلقة الحذرة تحولت لحدة

وهو يصرخ بمن في الطرف الآخر " ما الذي أدخلها حوران ؟

" بل من الذي سمح بمغادرتها من هناك

أفهم يا عمر فافهمني أنت الآن ، تلك المرأة لا تتحرك من "

" مكانها هي تريدني وسأتفاهم معها

شدت قبضتها على الفستان أكثر تنظر لقفاه بضياع وهو يصرخ

بقسوة " أرجعوها حالا ، الطفلة ليست من حقها وسبق وقلت ذلك

ولن أغفر استهتاركم لإدخالها حوران وإعطائها تلك المعلومات

" ضننت أني أعتمد على رجال

صرخ فيه بغضب " أخبرها أن مطر يأمرها بالعودة حتى أراها

أولا يا عمر وما رضخت لضغطه لتركها عنده ليسلمها لها وكنت

سآخذها لمنزلي لولا فكرته تلك ، فلا ترى الطفلة أو رأيتم

" مطر آخر لن يعجبكم أبدا

ثم أنهى الاتصال شاتما بحنق واستدار وتحرك جهتها دون أن ينظر

إليها ورفع سترته وسلاحه الذي تبثه على كتفه وهي تراقب ملامحه

الغاضبة المتوترة بحيرة ، مر من خلفها ووقف وأغلق سحاب الفستان

في حركة واحدة سريعة وعنيفة ووضع سترته على كتفيها وتحرك

" جهة باب الخيمة قائلا " البسيها واتبعيني للسيارة

كانت كلمات حازمة جافة وكأن الذي كان معها منذ قليل تبخر وكأنه

شخص آخر واختفى !! أدخلت يديها في كميها الطويلان بحركة عنيفة

ولم تترك شيء فيها وحولها لم تلعنه هامسة حتى هو ثم خرجت خلفه

تراه من بعيد وهو يتحرك بخطوات واسعة ثابتة وغاضبة ولم تفهم

من تكون هذه المرأة التي تدخل حوران آخر الليل تريد رؤيته والطفلة

التي يمنعها عنها وكان سيحضرها للمنزل ! ركبت السيارة بمساعدته

ككل مرة وفي صمت من كليهما رغم أن كل واحد منهما عبر عن

دواخله بطريقته ... من أنفاسه الغاضبة وتأففه حتى ركب كرسيه

وغادرا المكان لفركها ليديها بقوة من النار التي عادت لتشتعل داخلها

وهي تحاول أن تجد تفسيرا قد يريح قلبها وعقلها الذي يكاد يجن

مكالمة أخرى وصلته لم تزد الأمر إلا غموضا وهو يقول لمن

في الطرف الآخر " جيد لتنتظر حتى أصل ، كلها ثلاث

" ساعات وأكون هناك

وأنهى المكالمة دون أن يعطيها أي تفسير ، أن يفكر أنه ثمة إنسانة

تجلس بجانبه تنهشها الظنون نهشا وعقلها يؤلف ملايين القصص

عن سر تلك المرأة ولم يرحمها بأي شيء ، رفعت يدها ومررت

أصابعها المرتجفة على عنقها وكأنها تستجدي هواءً نقيا أكثر وقد

اختنقت لا تعلم من أنفاسه الغاضبة وتوتره الذي حبس الهواء كله

جهته أم بسبب هواجسها هي وظنونها ، أنزلت زجاج النافذة قليلا

فاندفع الهواء الخريفي البارد بقوة بسبب سرعة السيارة على

الطريق المعبدة مخرجا له من صمته مجددا وقد قال بذات

" ذاك الحزم الرجولي " الجو بارد ليلا ولباسك خفيف أغلقيها

كانت تكاد تجن من لهجته الآمرة دائما فلم يكن ينقصها الآن إلا هذا

خرجت الكلمات منها بصعوبة وقلبها يخفق بسرعة بين ضلوعها

" وأنفاسها المتلاحقة تكاد تخنقها " أشعر بالحر .. أكاد أختنق

فنقل نظره لقبضتيه المشدودتان على المقود وعاد لصمته المبهم الذي

لم يخفي شيئا من تأثير غضبه على ذاك المحيط حوله وكأنه ينبعث

من جسده كموجات قوية نسفت كل شيء ، أشاحت بوجهها جانبا متكئة

برأسها للخلف على مسند الكرسي تراقب الظلام الأسود الذي لم يزد أفكارها إلا اسودادا وكآبة وقد مرت أمامها كل تلك اللحظات التي كانا فيها معا منذ دقائق فقط وتلاشت من بين يديها وكأنها كانت تمسك بشعاع نور وتسلل من بين أصابع واختفى ، أغمضت عينيها بقوة تطرد ذاك الشعور بتلك المشاعر المحمومة التي عاشتها معه ، لا تريد أن تصف نفسها بالغباء مجددا وبانسياقها خلف الاستسلام للمساته من جديد فما حدث لا شيء سيغيره الآن ، أمسكت قبضتيها على قماش الفستان عند فخذيها بقوة فلثاني مرة تعيش ذات الشعور بالقهر ، ثاني فستان زواج يتحول فوق بشرتها الناعمة لأشواك وليلة أخرى لها مع هذا الرجل يفترض أن تكون فيها عروسا تتحول لكابوس قاتل ، بل كانت هذه مختلفة كل الاختلاف عن تلك كانت مشاعرها اتجاهه أعمق وشعورها بخذلانه أقوى وأشد بل حتى سببه مؤلم حد الوجع (امرأة أخرى) من أبعدته عنها ، حقيقة قاسية ومجحفة في حق قلبها ولم تعد تتحمل المزيد فهي لم تتخطى ضربة أنجوانا تلك لها بعد لتخرج لها أخرى ، فكرت

بمرارة أن تكون تلك المرأة سبب وجود ذاك الخاتم في أصبعه ، لكن

ماذا بشأن الطفلة ! عاد عقلها لنسج تلك الصور البشعة عنه (زير

نساء يتزوج من كل منطقة يستقر فيها لأجل حروبه وثمة قائمة طويلة

لمن عرفهن قبلها) وطرد عقلها نهائيا حديث عمتها جويرية عن أنه لم

يعرف الفتيات ولا في صغره ولم يهتم للنساء (كلها كذب) مثلما ظهر

أن اتهامات الناس لوالده بقتل أقربائه كان كاذبا ، اشتدتا قبضتاها على

القماش أكثر وهي تتخيل أنها زوجته وتلك الطفلة ابنته منها ، هذا إن

كانت وحدها من مرت في حياته ، رن هاتفه مجددا وتمنت لحظتها

أن يرميه من النافذة وهو يخرجه متأففا وأجاب عليه دون أن يتحدث

لبرهة قبل أن يزيد من رميها بتلك الرصاصات القاتلة وصوته

الجهوري الحانق يملأ صمت وسكون تلك السيارة

" نعم لتبقى هناك "

" واشتدت نبرته مجددا بحدة " ومن يكون هذا وما يفعل معها ؟

" أجل أجل فهمت وداعا "

وأنهى المكالمة بعاصفة جديدة من تأففه الغاضب راميا بالهاتف

فأغمضت عينيها ببطء ولم تغير وضعيتها تلك أو تتحرك طوال

الساعتين التاليتين وليست تعلم يضنها نائمة أو لا يهتم أساسا إن

كانت موجودة أو حتى إن فتحت باب السيارة وقفزت منها ، ولم

تتحرك إلا حين وقفت السيارة أمام باب المنزل ففتحت بابها فورا

وقفزت خارجها وأغلقته خلفها بقوة متجهة جهة المنزل لتوقفها

قبضة يده القوية على معصمها وقد سحبها معه للداخل تستغرب أن

تذكر وجودها أساسا ! صعد بها السلالم تتبعه محاولة سحب يدها

منه فهي كانت ستتوجه لغرفتها فورا ، لا تريد أن تقدم له خدمات

الزوجة الخادمة ولا أن تسمع تبريرا عما حدث هناك وتشك أن يقدمه

لها أساسا أو أن يشرح أسبابه ، وصلا الغرفة وترك حينها يدها

وصوت أذان الفجر قد ملأ صمتها وبرود جدرانها المميت ، تبعته

بنظراتها وهوا يتوجه لمرآة التزيين وقد أخرج أوراقا من أحد

أدرجها ولازالت ملامحه مشدودة غاضبة ومتوترة وفمه القاسي

مزموم بحزم ، فتح زرين من أعلى قميصه الأبيض بيده الأخرى

وكأنه يحتاج لتنفس هواء أكثر ثم توجه نحوها حتى وقف أمامها

وهي تتجنب النظر له ظهرها مستقيم ومرخية جفنيها للأسفل

تتجنبه أمسك وجهها بيديه وانحنى له برأسه وقبل خدها برقة

هامسا بهدوء لم يخفي نبرة الحزم فيه " لن أتأخر كثيرا

" غيري أنتي ثيابك ونامي

أبعدت يديه مبتعدة عنه ونزعت السترة عنها ورمتها على

" طرف السرير قائلة بشبه همس " سأنزل لغرفتي

شعرت بأصابعه تقبض على ذراعها وقد أدارها جهته

" قائلا بحزم " غسق ما بك ؟

أمسكت رسغه تبعد يده وشدت ذراعها منه حتى أفلتها وقالت بحنق

" لا شيء بي سأنزل لغرفتي ولن أنام هنا طبعا "

تحولت ملامحه للقسوة وكانت ترى جديا علامات انفجاره الوشيك

فسبقته وقد رفعت كفها أمام وجهه قائلة بحنق " وفر كلماتك أعلم ما

ستقول وسبق وشرحته لي ... أنا في المرتبة الثانية أمام أي شيء

" آخر فغادر لأولوياتك الآن

مرر يده في شعره مستغفر الله همسا من بين أسنانه مهدئا لنفسه

وقال بتروي حازم " قلت أني سأعود بعد قليل والوقت أمامنا

" ولن يفرق الأمر إن كان في خيمة تنانية أو هنا

شعرت بذل معنى كلامه أكثر من شرحه لمقصده فصرخت فيه

رامية يدها جانبا " توقف عن قول الحماقات يا مطر ما هذا

" الذي أخبرك عقلك به ؟ أنا لا أهتم لما ترمي إليه

صرخ فيها بغضب أكبر " توقفي عن رفع صوتك في وجهي

" لن أحذرك في كل مرة يا غسق

سحبت نفسا قويا ارتفع معه صدرها الذي كشف ذاك الفستان جزءا

كبيرا منه وأخرجته ساخنا محترقا يعكس توهج وجنتيها الشديد ولمعان

القهر في عينيها وهمست بحروف بطيئة ناظرة لعينيه الغاضبة " غادر

" ولا تتركها تنتظرك طويلا ولا تستعجل فلن تجدني أنتظرك هنا

مد يده للأخرى وفي حركة سريعة غاضبة أخرج ذاك الخاتم الفضي

منها وخرجت الحروف من بين أسنانه قائلا بقسوة " معك حق

فأنا أضيع وقتي ليس إلا "

ثم رماه بطول يده جانبا ليضرب في زجاج مرآة التزيين مصدرا

رنينا قويا ارتجف له قلبها قبل أن يرتد متدحرجا على الأرض مع

صوت كلماته الهامسة بحنق وهوا يستدير " هذا هوا ثمن الزواج

بالنساء وإنزال النفس لهن "

وغادر من هناك ضاربا الباب بقوة وهو يفتحه مخلفا بقايا زلزاله

خلفه ... امرأة تحولت لآلاف القطع المتناثرة في الأرجاء وإن كانت

تقف كاملة مكانها فهي مجرد خيال حي ، تحركت بعد برهة ترفض

الحقيقة التي صارت عليها تمسح تحت جفنيها بظهر كفها بقوة تمنع

دموعها من مجرد التفكير في النزول ، نزلت السلالم على صوت

ضربه القوي لباب المنزل تشعر به صفعة أخرى على وجهها كتلك

حين ضرب باب الغرفة ، وصلت للأسفل وليست تعلم كيف كانت

قدماها تقودانها فلم تكن تشعر بجسدها إلا قطعة واحدة متحجرة

يحتاج لشاحنة لتسحبه ، وقفت مكانها لبرهة وهي تنظر للجالسة

على كرسيها المتحرك تنظر لها بصدمة يبدوا لم تجتازها بعد من

رؤية النازل قبلها وحالته متنقلة بنظرها من فستانها لشعرها

لوجهها المحتقن من الغضب والقهر وقد قالت باستغراب

" غسق ما بكما ؟ "

لكن تلك لم تجب عليها بل ركضت مسرعة جهة ممر غرفتها حتى

دخلتها ضاربة الباب خلفها فلم يكن ينقصها إلا أن يشهد أحدهم على

مأساتها الأخرى ، وحمدت الله أنها لم تكن جوزاء وأسمعتها موشحها

الطويل ذاك لكانت أفرغت فيها الآن غضبها من كل شيء وأولهم

شقيقها ، توجهت جهة السرير وبدأت بفك تلك الأزهار البيضاء عن

شعرها والمشابك السوداء الرقيقة التي ثبتوها بها

، تنزعهم بغضب

وترميهم بعشوائية حتى سمعت صوت الباب فتح من خلفها وعجلات

كرسي عمتها وهذا ما لم تكن تتمناه ، لم تكن تريد رؤية أحد ولا

الحديث مع أحد أيضا

مع أحد أيضا ، بينما أوقفت تلك كرسيها خلفها تنظر لشعرها الذي نزل

مموجا على ظهرها بسبب تلك اللفات المثبتة له سابقا وللأزهار المرمية

تحتها وقد رفعت شعرها من الأمام بيديها وأصابعها تمسك رأسها بقوة

وكأنه يوشك على الانفجار وحركة كتفيها تدل على تنفسها القوي الهائج

فقالت بهدوء ناظرة لها " غسق تكلمي ما بكما ؟ ما هذا الذي جلبكما

الآن وما حدث بينكما كل واحد وجهه أسوء من الآخر ؟ "

التفتت لها ناظرة لوجهها بتلك العينين المجهدة المحمرة من حبس

الدموع وقالت بحدة " ما بنا عمتي برأيك ؟ لقد فعلها مجددا

وتركني خلفه "

قالت تلك تتمسك بهدوئها علها تخفف من غضب الواقفة أمامها

" غسق عليك أن تراعي ظروفه ومكانته ومشاكله ، لا أحد

يترك خلفه هذا الحسن الذي يزداد في كل مرة إلا إن ابتلي

بمصيبة أبعدته ولعنها ألف لعنة "

حاولت التحدث قول أي شيء لكن العبرات تجمعت في حلقها وكأن

ما ستقوله يخرج من عروق قلبها وأوردته مستلا لها معه ، تساقطت

من عينيها تلك الدموع التي صارعتها طويلا وهي تشهق الهواء وكأنها ستموت ثم ركضت جهة الجالسة على ذاك الكرسي وارتمت أمامها

ودفنت وجهها في حجرها تصرخ باكية " خرج من أجل امرأة

أخرى عمتي ، لقد تركني ليذهب لها بل وقطع كل تلك المسافة

" في هذا الوقت لأنها تنتظره هنا

وانطلق كل ما كانت تسجنه في صدرها تبكي وتنحب وتصرخ وتخرج

كل ما في قلبها وتلك تمسح بيدها على شعرها بحزن تاركة لها المجال

لتفرغ كل ما تكبته أمام الجميع تتحدث عما كسرها منذ دخلت أراضيهم

حتى اللحظة وحتى تنازلها عن مهرها من أجله ، وكل عبارة تقطعها

شهقاتها لقِطع إلى أن قاطعتها ماسحة على شعرها بحنان

" هوني عليك بنيتي وسيأتي وأتحدث معه بنفسي "

وقفت من فورها مبتعدة عنها تمسح دموعها بكفيها وقالت

" لا عمتي حلفتك بالله لا يعلم عن شيء من كل هذا أرجوك "

هزت تلك رأسها بحسنا وقالت " أعلم ما الذي لا تريديني أن

أخبره عنه لكن لي حديث معه ما أن يرجع فاستحمي أنتي

" الآن وصلي الفجر ونامي قليلا

وخرجت وتركتها جالسة على طرف السرير تمسح بقايا

الدموع التي ترفض التوقف

*

*

ما أن خرج من المسجد توجه للمكتب الذي كان مخصصا لتسجيل

الأنفس والمولودين الجدد ولولا خوفه من أن تختفي تلك المرأة أو

تذهب لمنزل عكرمة مجددا وتحاول رؤية الصغيرة لما جاء وهو

بهذا المزاج الذي قد يحرقهم جميعا ، دخل المكان الضيق المختصر

وأول من نفث به نيرانه كان الواقفان في الخارج وقد صرخ بهما

ما أن وصل " هل أقول كلاما لنش الذباب فقط أم تسخرون مني

وأنتم تضربونه عرض الحائط ؟ قلت لا أحد يخرج من

مدن الهازان هنا أم لم أقل ذلك ؟ "

قال أحدهما باحترام وتوجس " قلت سيدي ونحن نعمل على ذلك بكل

جهدنا لكن ما أن أخبرتنا المرأة بأنها والدة الطفلة وأن عليها رؤيتك

سريعا ورؤيتها ضننا أنك قد تغضب إن رفضنا طلبها وإلحاحها

خاصة مع حرصك الشديد على أمر تلك الطفلة "

كانت تلك كل ما يملك من التبريرات التي لاحظ أنها لم تخفف من

غضب الواقف أمامهما شيئا وقد صرخ مجددا " حمقى وتأخذونها

لرؤية الطفلة في منزل عكرمة لماذا ؟ ألم يخبركم عقلكم المريض

أن الطفلة مريضة وتلقت صدمة كبيرة قد تخلف لها عقدا مدى الحياة

وأنها تضن زوجة عكرمة والدتها وأن حضور هذه المرأة قد يسبب

لها أمورا الله وحده يعلم ما تكون ونحن لم نعلم بعد طبيعة مرضها

ذاك ؟ كيف سمحتم لأنفسكم أن تفعلوا ذلك من دون أخذ موافقتي

ولولا اتصال عمر بي أضنكم ما كنتم لتخبروني أبدا أليس كذلك ؟ "

تحدث الآخر قائلا " آسف سيدي لم نفكر في الأمر من هذه الناحية

والسيد عكرمة ما أن تحدثنا معه قال لا أحد يمنع الوالدة من

" طفلتها وضن أنك لن تعترض

هز رأسه بسخرية قائلا " عجبا حقا ! إن كانت تعنيها ابنتها ما

تركتها ولكانت عاشت الأمر معها كجدتها تلك فهل أخبرها

" قلبها الآن أن لها طفلة عليها رؤيتها ؟

نظرا لبعضهما ولم يعلقا بشيء فاجتازهما قائلا " ستعودان بهما

ما أن أنتهي من لقائهما ولا يخرجان من مدنهم هناك ولا أحد

" غيرهم أو نزل عقابي بكما

توجه لباب معين من الثلاث أبواب الموجودة في ذاك الممر الضيق

وفتحه ودخل فوقف له الموجودين فيها من فورهم وكانوا عمر وهو

المسئول عن ذاك المكتب والجالس خلف طاولة وقد خرج من خلفها

فورا ما أن دخل عليهم وامرأة في الثلاثين من عمرها تضع وشاحا

أسودا شفافا على شعرها ومقدمته تظهر من تحته يقف بجانبها رجل

فيما يقارب الخامسة والأربعين من العمر بقامة طويلة وبنية نحيلة

ألقى السلام بكلمات جامدة وهوا يتوجه للكرسي خلف تلك الطاولة

وقد أجابوا عليه ثلاثتهم وجلس مشيرا لهما بيده ليجلسا قائلا

" عمر يمكنك تركنا لوحدنا قليلا ولا تبتعد عن هنا أريدك في أمر "

هز ذاك رأسه بالطاعة وخرج من فوره مغلقا الباب خلفه وكتف

مطر ساعديه فوق الطاولة ناظرا لهما بثبات وقال " وصلني أنكما

جئتما من أجل رؤيتي فما الذي أخذكما لرؤية الطفلة ؟ "

كان زوجها سيتحدث فسبقته هي قائلة " هي ابنتي يا زعيم ولا

أعتقد مما سمعناه عنك أنك تحرم والدة من ابنتها "

قال من فوره " هل أنتما من بلدة خماصة ذاتها ؟ "

تكلم زوجها هذه المرة قائلا " لا نحن من الحويصاء وحين وقعت

في قبضتك انتقلنا لتيمور عند الساحل وهي تبعد كثيرا عن

الحدود هناك وعن خماصة "

نقل نظره منه للجالسة بجانبه وقال " وهل كنت تزورين ابنتك ؟

ولما لم تأخذيها معك ولماذا لم تذكر جدتها شيئا عنك في أوراقها

التي وجدناها معها وأغلبها كتبت بخط يدها "

تلكأت تلك قليلا قبل أن تعدل من وشاحها قائلة " كانت المدينة

" بعيدة كما أخبرك صفوان سيدي وجدتها أرادتها معها

هز رأسها بحسنا ونظر للدفتر الكبير تحته لبرهة ثم رفع رأسه

" لهما وقال " وهل لديكما أبناء ؟

هزت رأسها بلا فورا وقالت " الله لم يرزقنا حتى الآن وزوجي

" يعاني من بعض المشاكل وأنت تعرف الطب هنا وتأخره

رفع يده مسندا مرفقها على الطاولة ومرر أصابعه في شعرات لحيته

" ... القصير جهة فكه وقال " والمطلوب الآن يا سيدة

" قالت من فوها " زهراء سيدي أسمي زهراء

" قال ببرود " حسنا

حركت عينيها قليلا كرد فعل لا إرادي من تملقه وبروده فقد وجدته كما

سمعت عنه تماما ولم تتخيل أن يترك الحدود قادما هنا من أجل الطفلة

وفشل مخططهما ، قالت ببعض الهدوء الحذر " أريد ابنتي سيدي بما

" أني رجعت لقريتي ومكاني وجدتها توفيت

قال وقد اتكأ لظهر الكرسي للخلف مكتفا يديه لصدره " وابنتك حسب

علمك مريضة وتحتاج لعناية خاصة ودقيقة وشهدت وفاة جدتها أمامها

والمرأة التي ترعاها حاليا تضن أنها والدتها أي تضنها أنتي فهل

يرضيك أن تضري ابنتك بقلب الحقائق في دماغها الصغير

" المريض الذي قد تفقده بسببك

فتحت فمها لتتحدث فسبقها زوجها قائلا " لا طبعا وستكون

" لدى تلك المرأة أفضل

" !! نظرت له من فورها قائلة " صفوان

لكنه تجاهلها تمام وتابع حديثه مع الجالس أمامهما قائلا " حسنا

يمكننا تركها لهم لكن منزل جدتها والأرض حوله هو ورث لها

من أبيها ونحن نقيم حاليا في إحدى غرف المدرسة لأنه لا منزل

" ملك لنا هناك فهل يمكننا الانتقال له ولو مؤقتا ؟

ابتسم بسخرية ناظرا لزوجته تحديدا فها قد ظهرت نواياهما وكما

توقع ما جلبهما هو ما تملكه تلك الطفلة وقد جاءا ليستفيدا منها

" أو ما كانا ليفكرا بها أبدا

نظر لهم رافعا رأسه وقال بسخرية " وهل لديكما علم بقوانين

الميراث للأطفال في الحالك والتي أصبحت سارية على

مدن الهازان أيضا ؟ "

نظرا لبعضهما باستغراب ولم يعلقا فتابع " الفتى حتى يبلغ والفتاة حتى

تتزوج والملكية لها حينها ولها حرية تركها لزوجها أما قبله فكل شيء

يكون تحت وصايتي وباسمي لا يحق لأحد الانتفاع به أبدا ولا لمسه

أي حتى تتزوج ابنتك وإن تزوجت بعد أربعين عام ووقتها لن

يكون لأحد سواها أو لزوجها برضا تام منها "

وقفت تلك على طولها قائلة " سمعنا عنك العدل يا ابن شاهين ولا

أراك الآن إلا ظالما ، فإن كبرت ابنتي ولم تتزوج هل يبقى أرثها

معلقا هكذا وهي قد تكون في الشارع "

قال ببرود جليدي ناظرا لها " وقتها لكل حادث حديث وذلك

طبعا ليس قبل أن تكبر وتيئس من الزواج طبعا "

وقف زوجها هذه المرة وسحبها معه من يدها جهة الباب قائلا

أخرجي أمامي هيا قبل أن يطلب أن نأخذها معنا لتلك الغرفة "

" الضيقة يكفيني أنتي

*

*

فتحت عينها ليقع نظرها على عمتها الجالسة على كرسيها بقرب

رأسها وقد مسحت على شعرها قائلة بحنان " كيف تشعرين

" الآن يا غسق

" هزت رأسها هزة خفيفة وهمست " أفضل

" ثم أضافت ببحة " كم الوقت الآن ؟

قالت تلك مبتسمة " الساعة الآن العاشرة ، كلها ساعتين فقط

" التي نمتها ، هل أعطيك من دواء حبيبة مرة أخرى ؟

هزت رأسها بلا قائلة من فورها " كله إلا دواء حبيبة عمتي فهو

" مر ولاذع وأسوء دواء شربته من قبل

" ضحكت نصيرة قائلة " لكن مفعوله رائع وقد أراحك ونمت أيضا

انفتح باب الغرفة بعد طرقتين خفيفتين ودخلت منه حبيبة قائلة بابتسامة

ونظرها على النائمة على السرير " أراك أفضل الآن ولم يعودا

" خداك بلون التفاح الأحمر وعادتا زهريتان جميلتان

تساندت بمرفقها حتى جلست تجمع شعرها للخلف قائلة بابتسامة

صغيرة " جيد أن لهما أي لون بعد شرابك السيئ ذاك فلازال

" طعم حلقي كالعلقم حتى الآن بسببه

ضحكتا نصيرة وحبيبة وقالت عمتها " لن نعطيك غيره كلما

" جاءتك نوبة تقيؤ

شهقت غسق بصدمة بينما ضحكت حبيبة قائلة

" أعانك الله عليه حين تحملين "

فماتت ابتسامتها وشحب لون وجهها فجأة ونظرت لعمتها التي

كانت تنظر لها بلوم تفهمه جيدا فهمست تنظر لأصابعها

" أرجوك عمتي "

" قالت تلك بحزم قاطع " لنترك كل شيء لوقته

سيدتي قالت حبيبة " كدت أنسى ، السيد صقر يطلبك في الحديقة

" فهل أخبره أنك متعبة ولا تستطيعين الخروج

نظرت لها غسق باستغراب ثم لعمتها قبل أن تعود بنظرها لها

" ! وقالت " يريدني أنا

هزت رأسها بنعم وقالت " كنت سأخبره أنك نائمة ومتعبة

" ثم قررت أن أخبرك أولا

قالت غسق مبعدة اللحاف عن جسدها وقد أنزلت قدميها للأرض

" سأخرج له لقد أصبحت أفضل الآن ، شكرا لك يا حبيبة "

ثم دخلت الحمام غسلت وجهها عدة مرات ثم نظرت له في المرآة

واكتشفت أنه ما يزال شاحبا حزينا أكثر منه متعبا ومرهقا ، نشفته

جيدا بالمنشفة ثم خرجت للغرفة التي وجدتها فارغة لا أحد فيها فغيرت

ثيابها ومشطت شعرها وجمعته بمشبك ثم لفت حجابا أبيضا وخرجت

من الغرفة ومن المنزل وتوجهت حيث تسمع صوت حبيبة وضحك

صقر وما أن اقتربت منهما نظرت باستغراب لتلك الحفرة العميقة في

الأرض وعمها يقف فوقها يمسك معولا في يده وحبيبة بقربه تمسك

شتلة بساق طويلة وأوراق خضراء ، تباطأت خطواتها وعلت نبضات

قلبها وهي ترى السيارة التي توقفت هناك والذي نزل منها ضاربا بابها

يرتدي بنطلون كحلي وقميص قطني مغلق بأكمام طويلة وبلون أزرق

غامق ، أشاح كل واحد منهما بوجهه مبعدا نظره عن الآخر حين تلاقت

نظراتهما وانتقل للحديث مع عمه لنزوله هناك عنده ولم تكن تسمع ما

" يقولان ونظر لها صقر ما أن رآها وقال " تعالي يا غسق

اقتربت منهم وحيته تجبر شفتيها على استجلاب ابتسامة ولو صغيرة

فقال مبادلا لها لابتسامة " مرحبا بالغزالة جميلة صنوان وجميع ما

" حولها ، ما به وجهك شاحب هكذا لا يكون ابن شقيقي أغضبك ؟

أبعدت نظرها ووجهها هربا من ملاحظته وهمست بصعوبة

" مرهقة فقط بسبب قلة النوم عمي لا شيء مهم "

وقصدت التشديد على آخر كلمتين متعمدة فتحرك حينها الواقف

بجانب عمه قائلا ببرود حازم " سأترك الأمر لك وسأتصل

" بهم لاحقا وأتفق معهم

وغادر من هناك مارا بجانبها تسمع صوت مفاتيحه التي أخرجها

من جيب بنطاله وتشعر بنبضات قلبها الغبي تلحق خطواته القوية

الواثقة وحواسها تتبع رائحة عطره الرجولي الخفيف ، لعنت نفسها

بحنق هامس وهي تراه يتجاهل وجودها وكأنها شجرة من أشجار

الحديقة بينما هي فقدت كل شيء مرتبط بها حتى أنفاسها ما أن

رأته وسمعت صوته ومر بجانبها ، رفعت نظرها لعمها الذي

قال " تعالي لتزرعي شجرتك في الحديقة لقد اخترت لك شجرة

الخوخ تحديدا لأن ثمرتها تشبهك في كل شيء ناعمة وجميلة "

ابتسمت تكابد دمعتها وضحكت حبيبة قائلة " لو سمعك ابن

شقيقك تتغزل في زوجته لغرس هذه الشتلة في رأسك أو أذناي "

فانطلقت ضحكة صقر وخرجت ضحكتها الرقيقة المنخفضة رغما

عنها وقال صقر وهوا يبلل التراب بالماء من الخرطوم " ذاك لا

يستحق ولا نصفها لكن حضه صارخ دائما ما سنفعل له "

ثم نظر لها وقال " تعالي هيا أنتي من ستغرسينها بنفسك لتكون لك

شجرة هنا حتى إن أخرجوك من المنزل تأتي كل يوم لرؤيتها

" رغما عنهم ولتكن كمسمار جحا في حلوقهم

ضحكت مقتربة منه وقالت بحماس باسم

" حقا ستكون هذه الشجرة لي ؟ "

أخذ الشتلة من حبيبة ومدها لها قائلا " أجل ولن ينكر ذلك أحد

فالجميع له أشجار هنا حتى شقيقي دجى رحمه الله وقاسم

" ابن نصيرة

أمسكت منه تلك الشتلة وقالت حبيبة مبتسمة " وأنا لدي شجرة

" نخيل هنا أراقبها كل يوم كيف أصبحت

" قال صقر ضاحكا " وطبعا هي تشبهها في كل شيء

نظرت له حبيبة بضيق ولن تستطيع أن تعلق فقالت غسق مبتسمة

" بالطبع فهي مثلها صبورة وقوية وكل شيء يخرج منها حلو المذاق "

ضحكت حبيبة هذه المرة ولم تعلق فلوح صقر بيده قائلا ببرود

" أسكبي الماء هيا بلا كثرة حديث "

فسكبت الماء من الدلو ووضعت غسق الشتلة في الحفرة العميقة

بعض الشيء ومد لها المعول قائلا " هيا أنتي من سيفعل كل ما

" يخص زراعتها كي تكون شجرتك فعلا

" أمسكته منه وقالت مبتسمة " وماذا عن ثمنها لتكون لي فعلا حينها

" قال مبتعدا عن التراب الذي ستغرفه " لا ذاك هدية مني لك

شكرته مبتسمة وبدأت بغرف التراب وسكبه في الحفرة تباعا

" وبجهد وجد وقالت " وماذا إن ماتت شجرتي ؟

" ضحك صقر وقال " تفقديها كل يوم كما تفعل حبيبة

ضحكت غسق بينما قالت حبيبة بضيق تمسك وسطها بيديها

نخلتي في آخر الحديقة في الخلف من سيعلم عنها إن لم أتفقدها ؟ "

" أما هذه فهي في الطريق للمنازل سيلاحظها كل من سيدخل ويخرج

ثم نظرت خلفها حيث وقفت حفصة من بعيد منادية لها فقالت مغادرة

" أردت أن أحضر جميع مراسم غرسها ، أمري لله "

وغادرت ونظراتهما تتبعها وقالت غسق مبتسمة " كم هي

" رائعة هذه المرأة ومقربة لقلبي

قال صقر وقد عاد لترطيب التربة بالماء " أجل إنها امرأة طيبة

" المعشر طيبة المنبت

" نظرت له مستغربة وقالت " أتعرف عائلتها وأصلها ؟

هز رأسه بنعم وقال بلمحة حزن " زوجها رحمه الله كان صديقا لي

منذ كنا فتية ولم يفرقنا شيء إلا موته ، هم عائلة كريمة طيبة وأقسم

لولا إصرارها ما تركتها تعمل في البيوت وكنت سأتولى رعايتهم

بنفسي لكنها كوالدها وشقيقها رحمهما الله أعزاء نفس لا يرضون

بأخذ شيء من أحد لذلك جلبتها لتعمل هنا في منزلنا وتحت ناظري

ولا يذل أحد زوجة اعز إنسان على قلبي بعد موته ويسألني

" عنها يوم نلقى وجه بارئنا

ابتسمت ناظرة له بحب فقد ضنت أنه لا نسخ عن والدها شراع ولم

يخب ظنها حين شعرت نحوه ما أن رأته بما يشبه مشاعرها ناحية

والدها الذي رباها ، أنهت إنزال التراب في الحفرة مستمتعة برفقة

ذاك الرجل الذي عرف كيف يبدد بعضا من حزنها وغبنها لا بل

الكثير منه وهو يزرع الضحكة والابتسامة على شفتيها ، أنهت

الحوض حولها بمساعدته ثم وقفت وقالت ناظرة لثيابها ويديها

الملطخة بالطين " عليا الاستحمام مجددا الآن قبل أن

" أصلي الظهر

ضحك صقر وقال وهو يرفع المعول والدلو " أنتي كسبت

" شجرة أما أنا فسأستحم مجددا بلا فائدة ترجى

" ضحكت وقالت " بلى ثمة فائدة

اقتربت منه وقبلت جبينه رافعة جسدها على رؤوس أصابعها فهي

تحسبه والدها شراع فهو في عمره تماما ولم تكن تحمل له إلا التقدير

. والاحترام وتشعر بأنه يبادلها ذات تلك المشاعر وكأنها من دمه

فاجأها بأن قبل رأسها أيضا شاكرا لها ثم ساعدها في غسل يديها

وقدميها ممسكا لها خرطوم الماء وغادرت عائدة للمنزل بعدما شكرته

مجددا وودعت شجرتها الصغيرة على ضحكه عليها ودخلت المنزل

فأوقفتها حفصة تحمل صينية في يديها وقالت " جيد أنك دخلت

سيدتي هل يمكنك حملها للسيد مطر فالسيدة جوزاء طلبت

" تجهيزها لكنها تأخرت

شعرت بأنها في مأزق حقيقي ولا مفر لها منه رفعت يديها بصعوبة

وكأنها ترفع ثقلا كبير وأمسكت الصينية منها وتحركت بها جهة

السلالم تلعن حظها الذي جعلها تدخل هذا الوقت تحديدا ، تنفست

بقوة متمتمة وهي تجتاز الممر " أنتي زوجته تحت كل

الظروف حتى متى سيخدمه الغير ؟ "

فهي لا تنكر رغم كل شيء أنها ليست مقتنعة بقيام جوزاء بأغلب الأمور

التي يحتاجها ومن دون أن يطلب ذلك ، يكفيها رؤية الخادمات لها تنام

في غرفة لوحدها ولولا أنه ولا واحدة منهن تتجرأ على إخراج أسرار

منزل زعيمهم لكانت سيرتها وسيرته على كل لسان في الحالك .

وصلت باب الغرفة النصف مفتوح ودخلت دافعة له برفق وتنفست

بارتياح وهي تراه جالسا في الطرف الآخر للسرير موليا ظهره لها

منشغل بشيء ما في يده لا تراه فقررت وضع الصينية والمغادرة

في صمت كي يضنها شقيقته ، وما أن انحنت على الطاولة لتضعها

حتى جمدتها كلماته الباردة حد الصقيع حين قال دون أن يلتفت لها

" أخبري جوزاء توقظني وقت العصر وأغلقي الباب خلفك "

فعضت شفتها بقهر تشعر بكلماته وكأنها خناجر غرست في قلبها

وضعت الصينية وأولته ظهرها مغادرة هامسة " ومن قال أني

" أريد إيقاظك لتطلب أن أخبرها هي أو أريد البقاء لتطردني

وخرجت ساحبة الباب خلفها وتحركت سائرة لم تشعر بأن قدماها

من كانتا تحملانها ولم تكن تتخيل أن القهر والمهانة يفعلان في

الشخص هكذا حتى عرفت هذا الرجل ، ما أن وصلت غرفتها

حتى ضربت بابها قائلة بقهر " لقد نزع المزاج الذي عدله

" عمه ، وكأني أنا التي أخطأت في حقه وليس هو

وسجنت نفسها في غرفتها لباقي اليوم متجنبة لقائه وإن بالمصادفة

فلن تتحمل إهاناته اللاذعة أكثر ولا مشاعرها المتناقضة نحوه

حتى أسدل الليل ستاره الأخير

*

*

صعد السلالم لا ينتظر شيئا سوى أن يجد نفسه في السرير ليرتاح

وينام أخيرا لساعات فحتى الليلة كان ينوي النوم فيها في وقت

. أبكر من هذا لكنه لم يستطع العودة قبل هذا الوقت المتأخر

اقترب من غرفته عاقدا حاجبيه مستغربا بابها المفتوح وهو من

أغلقه بنفسه بالمفتاح ولا أحد يملك واحدا غيرها ولن يتخيل أن

تكون هنا الآن !! وصل باب الغرفة ووقف عنده وتذكر وقت رأى

باب الخزانة المفتوح يخفيها خلفه أنه طلب نقل ثيابها إلى هنا من

قبل مغادرتهما للعمران بالأمس لأنه كان متأكدا من أنها لن تحتاج

لغرفتها تلك بعدها ، ابتسم بسخرية أقرب للمرارة على أفكاره تلك

. وعلى حالهما فها هي حساباته تخونه لأول مرة ويخطط ويفشل

آخر ما كان يريده الآن هو رؤيتها أمامه وغضبه منها لازال كلما

خمد قليلا عاد واشتعل ما أن يتذكر ما حدث ، كان ينوي تأجيل أي

مواجهة معها لوقت بعيد لا يعلم متى سيكون لكن ليس الآن وهذه

المرة وفي هذا المكان والوقت فهو لم يستوعب بعد سبب تقلباتها

تلك ولم يعد يفهم أتتلاعب به أم ماذا تريد ؟ وأكثر ما يخشاه فقدان

أعصابه وهوا بهذه الحالة لذلك قرر دخول الغرفة والتوجه للحمام

مباشرة وتجاهل وجودها لكن ذلك تبخر ما أن أغلقت باب الخزانة

وظهرت من خلفه بفستانها المنزلي شعرها مرفوع ومجموع بمشبك

بشكل عشوائي وقد تناثرت عدة خصلات منه ، وما أن نظرت جهته

حتى يبست مكانها تمسك الملابس في يديها فهي مثله ما كانت تتصور

ولا تريد رؤيته وقد ضنت أنه غادر أو سيبات خارج المنزل بعدما

انتظرته كل هذا الوقت ولم يأتي فلم يكن موجودا في خزانة غرفتها

في الأسفل سوا الفستان الذي تلبسه الآن ولبسته منذ عودتهما فجرا

والثياب التي خرجت بها للحديقة وقد اتسخت تماما ، حتى ملابس

داخلية لم يكن لديها سوى التي جاءت بها من رحلتهما تلك .

أرخت نظرها هربا من نظرته المركزة عليها وقد لاحظتها رغم

الضوء الخفيف للغرفة والآخر المنبعث من الباب خلفه وقد غمراها

بإضاءة متوسطة بعض الشيء ولم تكن تحتاج معهما لتشغيل أي

من أضوائها الرئيسية ، كان وجودهما وحدهما في مكان شبه مظلم

وساكن بل وهذا المكان تحديدا له التأثير الأعظم على أعصاب كل

واحد منهما وعلى تأثير كل تلك الذكرى بينهما لكن ذاك الألم في

قلب كل واحد منهما كان أعظم من كل تلك الأمور .... ذكرى

مكالمته تلك وخروجه وكلماته التي قالها وذكرى رفضها الصريح

له دون سبب كما يرى وتجرئها على مواجهته بجرأة كلها كانت

كفيلة بنحر أي مشاعر قد تتقد داخل أي منهما ناحية الآخر .

تحركت من مكانها أخيرا تتمسك بالثياب في حضنها وكأنها

تستمد القوة منها وتوجهت ببطء جهة الباب الذي لازال يسده

بجسده الطويل ولم ترفع رأسها ولا نظرها به أبدا ، لم تكن تريد

أن يرى نظرة الألم والخذلان التي لم تستطع محوها رغم كل

محاولاتها لتكون جامدة باردة ولا مبالية أمامه وإن كان تمثيلا

وصلت عنده ولاحظت أنه لا يفكر في الابتعاد عن الباب وكل

ما كانت تريده أن تبتعد من هناك أن لا تسمع كلماته الجارحة وهو

يهينها بل لا تريد أن تسمع صوته أبدا ولا حتى أن تمر بقربه

وتشعر بجسده ووجوده ، وقفت أمامه حين لم يتبقى سوا خطوة

واحدة تفصل بينهما وهو لم يتحرك من مكانه أبدا وهمست

" بصعوبة ونظرها على الثياب في يديها " أريد الخروج

كان صوتها مرتجفا رغم بروده وكان الصمت التام رده على طلبها

ذاك ولم يبتعد أو يتحرك من مكانه فشدت ذراعيها أكثر على الثياب

في حضنها وقالت بصوت خفيض حمل بعض الحزم هذه المرة

" هلا ابتعدت قليلا عن الباب "

والجواب كان ذاته لا رد فرفعت رأسها ونظرت لعينيه التي كانت

تنظر لها بنظرة رأت فيها الضيق والحنق بوضوح وإن لم يعبر

" عنه وتحدث هذه المرة قائلا بجمود " قلت سابقا أني لن آكلك

حاولت جهدها وضع قناع بارد أيضا ونظرة جامدة في استقبال

" كلماته وقالت " وأنا لم أقل أني خائفة منك

قذف كلماته في وجهها بحزم ونبرة قاسية " هل أفهم إذا سبب

" ذاك الموقف العدائي مني أم تقلب مزاج ليس إلا ؟

زمت شفتيها حتى كانتا خطا واحدا فآخر ما كانت تتوقعه أن يبرئ

نفسه بهذه السهولة ويسألها وكأنه لم يفعل شيئا ! وآخر ما قد تفكر

في فعله هو أن تخبره أن تجاهله لجرحه لها بأخرى أمر أقسى مئة

مرة من فعلته تلك (هل ينتظر أن أنحب وأصرخ وأطلب تبريرا لما

انكشف أمامي ويحاول تجاهله بكل ثقة وبرود ليجنب نفسه التهمة ؟

لا لن يحدث ذلك ويكفيه سخريته مني حين واجهته بغضبي مما

فعلت أنجوانا تلك) قالت بحنق " لا شيء طبعا أو قد تكون

تقلبات مزاج كما تقول "

شد قبضتيه بقوة يضغط فكيه حتى شعر بالألم في أضراسه وشعر

بانفلات أعصابه منه وهذا ما كان يتجنب حدوثه ، رفع يديه ممسكا

بهما وجهها بقوة وجدبها نحوه مقلصا تلك المسافة الصغيرة شادا

أصابعه وشعرها الملتف حولهم لترفع وجهها لوجهه أكثر وقد

انفرجت شفتاها لخروج آهة متألمة منها بسبب شده لشعرها

وتحدث من بين أسنانه " غسق عليك أن تتعلمي احترامي

" كزوج أو أن مطر الآخر لن يعجبك أبدا

رفعت يدها وأمسكت بها رسغه تحاول إجباره على تركها لتتحرر

خصلات شعرها وإن من يد واحدة من يديه وقالت تجاهد الدمعة

التي ستقفز من عينها بسبب تألمها ذاك " أنا لم أقلل من احترامي لك "

شد يديه في شعرها أكثر متجاهلا آهتها الأخرى التي كانت أشد من

سابقتها وقال بكلمات قاسية حادة شعرت معها بأنفاسه الساخنة

الغاضبة تلفح وجهها كالنيران " كل ما قلته فجرا ولم تقللي من

احترامي ؟ أم ما قلته الآن ؟ رجال وأكبر سنا مني لا يرفعون

صوتهم في وجهي لتفعلها امرأة .... ومن ؟ زوجتي !! "

شدت بيدها على رسغه أكثر وكأنها تستجديه أن يرخي أصابعه ولو

قليلا وملامحها تعتصر ألما ترفض إخراجه وسالت تلك الدمعة من

طرف عينها وخرج صوتها متكسرا مختلطا بأنين ألم خافت قائلة

" مطر لا تستقوي على امرأة بيديك أرجوك ؟ "

فارتخت قبضتاه عنها حين لمح تلك الدمعة وسمع كلماتها فمن شدة

غضبه لم يلحظ أنه من يؤلمها وأن البعض من شعراتها تتقطع بين

أصابعه ، أغمضت عينيها ببطء وعضت شفتها المرتجفة لتخفي

انفعالها ولازال وجهها في حصار يديه رافعا له لمستوى وجهه

وخرجت منها شهقة صغيرة لسحبها الهواء مع كتم عبرتها وأول

صورة تكونت أمام عينيها المغمضة كانت لوالدها شراع

فهمست بحزن " ليتك ما تزوجتني يا مطر ليتك رميتني

خارج حدودك ليلة وجدتني هناك "

هز رأسه بقوة وبرفض وشد وجهها ناحيته هامسا بحدة

" أصمتي "

وقبلها بخشونة قبلة لم يفهم نفسه أيعبر فيها عن غضبه منها أم من

نفسه أم من كلماتها الأخيرة ؟ كان يسمع أنينها المكتوم لتألمها من

قسوته تلك لكن أصابعه كانت تتغلغل في شعرها أكثر ويشدها له

أكثر ويقسو في قبلته أكثر ولا يشعر بشيء سوا بملمس شفتيها الذي

أرقه لليالي وهو هناك بعيدا عند الحدود ، وما أن صار عندها هنا

حتى عادت للتلاعب به كالدمية بين يديها ترضى عنه حينا وتصده

حينا آخر ، كانت تلك الأفكار تأكله وتتحكم به حتى حررها أخير

وإن كانت لازالت في حصار كفيه وأصابعه القوية فسحبت الهواء

دفعة كبيرة لرئتيها ومسحت بظهر كفها المرتجف على شفتيها

وجانب عينها تمسح بقايا دمعتها المتسللة منها وكانت من الوهن

والضعف حتى تكاد أن تنهار مغمى عليها ، كانت تدرك أمرا

واحدا فقط أنه إن قبلها مجددا فستسقط جميع دفاعاتها وستستسلم

متجاهلة كل الألم الذي سببه لها ويبرئ نفسه منه الآن ، وما

خشيته حدث فعلا وهوا يشدها له منحن لشفتيها مجددا وقبّلهما

يضغطهما على شفتيه بقوة مدمرا ما تبقى من حصونها فقربت

جسدها منه ورفعت أحد كفيها لصدره وما أن مررته عليه حتى

شعرت بانقباض عضلته تحت ملمس يدها وشهقة خفيفة مكتومة

صدرت عنه جعلت قبلته تلك تزداد عمقا وإحدى يديه تنزل

لظهرها يشدها بها لجسده أكثر وقد استسلمت له تماما ولم يعد

لديها أي ذرة صمود تتمسك بها أكثر ويدها تنتقل من صدره

لعنقه ممررة أصابعها عليه فأبعدها عنه بقوة وقسوة وقال

من بين أنفاسه المتلاحقة " لن تتلاعبي بي مجددا يا

" غسق لن أسمح لك

نظرت له بصدمة تحاول تثبيت نفسها كي لا تقع من دفعته القوية

لجسدها وخور قواها وهمست بألم تبعد شعرها المتناثر على

وجهها بسبب ارتدادها القوي " توقف عن إلقاء اللوم

" عليا في كل شيء يا مطر فلست السبب

تقدم بخطواته داخل الغرفة مجتازا لها وقال راميا يده جانبا

" غادري يا غسق غادري الآن من هنا "

فخرجت راكضة من فورها ولم يعد يسمع سوا خطواتها تبتعد ومرر

أصابعه في شعره ناظرا للأعلى وهمس بغيظ " سحقا للرجل بكل

" عنفوانه وسيطرته يتحول للا شيء أمام امرأة ... سحقا

نظر خلفه للباب ثم نزل به للثياب المرمية أرضا وقد خرجت وتركتها

مكانها فشتم هامسا ورفعهم من الأرض بعنف لا يعلم ما أخذ منهم

وما ترك وخرج خلفها وما أن نزل نصف السلالم حتى وقف مكانه

" !! للخيال الذي ظهر أمامه فجأة وقال بصدمة " عمي

" قال صقر متنقلا بنظره من وجهه للملابس في يديه " أجل عمك

" ثم عاد بنظره لعينيه وتابع بمكر " أم تتوقع أنه شخص آخر عاد لك

تحرك حينها عائدا أدراجه وذاك يتبعه ولم يعلق حتى كان داخل الغرفة

وعمه خلفه فخرجت شتيمة أخرى من بين شفتيه وقد انحنى للأرض

يجمع باقي الثياب ورماها في الخزانة وقد وصله صوت الواقف خلفه

يكتم ضحكته " ما بكما بحق الله زوجتك كادت تصطدم بي عند أول

السلالم وكدت أسقطها وأحطم لها عظامها ولن ترحمني حينها

بالتأكيد ؟ حمدا لله أن مفتاح باب الجناح أخرني قليلا

" عن الصعود لكما هنا

جلس ذاك على طرف السرير متكأ بمرفقيه على ركبتيه مشيحا

" بنظره جانبا وهمس " أنا من يحمد الله أنك لم تفعلها

رمى صقر بجسده على الكرسي وقال " ماذا تقول فلست

" أسمعك ؟

نظر له وقال ببرود " ضننت أني أصبحت رجلا متزوجا وكان

يفترض بك أن تتصل بي قبل أن تصعد ، وأضنك اخترت نبذ

" نفسك في جناحك فما أدخلك فجأة ؟

سوا صقر جلسته قائلا بضيق " احترمني يا ولد أنا عمك ثم ما يدريني

أن حرب البسوس انتهت بينكما واجتمعتما في غرفة واحدة ، أو لا

" يكون صدقت كذبة الناس وتريد حرماني من رؤية ابنة شقيقي

مرر أصابعه في شعره ناظرا للأعلى وزفر بقوة وقال " عمي

لست في مزاج مناسب أبدا فإما أن تعذر ما سمعته مني

" أو اترك أي شيء تريد الحديث عنه للغد

قال صقر باستغراب " ما الذي حدث بينكما ؟ لا تكن قسوت

" عليها يا مطر فلن أسامحك

وقف على طوله وقال ببرود " عمي رجاءا تنهي الحديث في

الأمر لا أريد أن أخطى في حقك أكثر فأعفني من الخوض

" في الحديث عن الأمر واعتبره شخصيا

هز ذاك رأسه يأسا منه وقال " سامح الله القدر الذي وضع

" فراشة رقيقة مثلها بين مخالب وحش

نظر له بحنق وكان سيتحدث فقال عمه قبله " أعلم .. الأمر شخصي

ولن أتحدث فيه لكن لا تنسى أنها ابنة شقيقي يا مطر وقد أتحمل الألم

في نفسي ولا أتحمله فيها فيكفي أني محروم من رؤيتها وضمها

لحضني وكأنها امرأة غريبة عني "

عاد مطر للجلوس على طرف السرير قائلا ببرود " للضرورة

أحكام ألست من قال هذا من قبل ؟ "

نصب صقر ساق على الأخرى وقال ملوحا بيده " أجل فأنت لم

تخسر شيئا تدخل لها وتحضنها وتقترب منها كيف تشاء أما أنا

فمن أخذ مكانك الأساسي ابن عمها الذي عليه أن لا يرى ولا

شعرها ، يالا السخرية يا بشر !! "

قال مطر بضيق " وما نفع أن تخبرها وتقترب منها وتحضنها كما

تقول ؟ إن علمت وعلم غيرها وانتشر خبرها وصرنا في

سؤال واستفسار وزارنا ذاك الهمجي الأخرق ما سنقول له ؟

أم سنسلمها له خذها وغادر بها وافعل لها ما يحلوا لك هي

" حقك الآن

حرك صقر يده باستنكار قائلا بجزع " لا بالله عليك فأنا لا أتخيل

هذه الملاك الفاتنة في قبضة ذاك الرجل البربري المتوحش

" أنت وكثيرة عليك فكيف بذاك ؟

تأفف مطر في وجهه قائلا " عمي لما لا تتوقف عن إهانتي

" ومقارنتي بها وبذاك

قال بضيق مماثل " أغار منك يا رجل ما أفعل لك ؟ فحتى الشاي

" الذي تعده ما أن تأتي أنت أنساه أنا لأنه سيكون لك طبعا

كان سيتحدث فوقف صقر وقال " بالله عليك ارحمني من لسانك

" تبدوا لي بحالة سيئة جدا سأراك لاحقا ونتحدث

وخرج وتركه دون أن يستمع حتى لرأيه

*

*

سند يديه على الطاولة خلفه متنهدا بضيق لا يعرف لما عليه هو أيضا

مراقبة هؤلاء الأطفال ! بل لماذا يقيمون عيد ميلاد له أساسا ؟ ضرار

الحفيد الرابع والأخير في العائلة ذو الأربعة أعوام سبب كل ذاك

الضجيج والموسيقى وصراخ الأطفال ، الأطفال الذين عجزن

الخادمات وزوجات والده الثلاثة عن السيطرة عليهم ومراقبتهم

جميعا خاصة وأن كل أم تضع طفلها تغادر وكأنها تركته في

رعايتها هي نفسها ، حرك جسده ينظر من بين تلك الرؤوس

الكثيرة حتى ظهر له من بين الراقصين على أنغام تلك الموسيقى

الصاخبة فالأطفال يحبون تقليد الكبار في كل شيء حتى أنهم

أصروا على أن يغيروا أغاني الأطفال ليرقصوا بفوضوية

وجد مبتغاه أخيرا وسط الراقصين فصفر له بصوت مرتفع فوق

الموسيقى بطريقة يعرفانها كلاهما فنظر جهته من فوره فأشار له

وقاص بإبهامه يمينا فنظر هناك فورا للجالسة على أحد كراسي

الطاولة منشغلة بفتح علبة شوكلاته صغيرة بفستانها العاجي القصير

الواسع من الأسفل بحملات رقيقة وشعرها الأشقر تناثر على كتفيها

وظهرها وقد وصل لما يقارب خاصرتها ، غمز له رواح من فوره

فضحك وقاص وأشار بإبهامه مجددا لكن هذه المرة جهة والدته فأنزل

رواح إبهامه للأسفل وتحرك من هناك مجتازا الأطفال حوله فحتى من

هم في سنه يدرسون معه كانوا مدعوون ، وصل عندها ونظر لها من

فوق رأسها وهي تحرك إصبعها الصغير فوق قطع الشيكولاته الثلاث

التي توسطت العلبة الفاخرة قائلة " هذه لماما وهذه لبابا وأنا

آكل هذه ... أم هذه ؟ "

ضحك بصمت ومد يديه للكرسي ورفعه بها متجاهلا صرختها

المذعورة وهي تتمسك بطرفيه بيديها فبحكم سنين عمرها الخمس

وخفة وزنها استطاع رفعها بسهولة وبسبب قصر قامتها ما كانت

تستطيع النزول ، سار بها متجاهلا رجاءاتها الطفولية الباكية وخوفها

من أن تقع حتى أنزلها قرب مكبرات الصوت واضعة يديها الصغيرتان

على أذنيها ونظرت خلفها لتكتشف أنه هو صاحب هذه الفعلة فزمت

شفتيها الصغيرتان بغضب وهي تراه يضحك عليها ثم صرخ فوق

صوت الموسيقى العالي " لما لا ترقصين يا عربية أم تخشي

" أن تسخر منك البريطانيات

وتركها ضاحكا وابتعد يديه في جيوبه حتى وقف بجانب وقاص

الذي قال ضاحكا " لو رأتك والدتك لقطعت أذنيك ، ألا

" تعلم ما تعنيه تلك الطفلة لها

حرك كتفيه قائلا ببرود " أردت أن أعلمها الشجاعة قليلا ، ثم

" هم أقارب زوجة خالي شاهر لا صلة تربطهم بوالدتي

ونظرا سريعا حيث تغيرت الموسيقى وتوقف جميع الأطفال هناك

عن الرقص والمرح فلا أحد منهم يعرف الرقص عليها (التانغوا

البرازيلية) نقل نظره فورا جهة الشاب منظم الموسيقى ورأى

تلك ذات الشعر الأشقر والفستان العاجي القصير تقف عنده

وتتحدث معه ثم نزلت واختفت بين الرؤوس الصغيرة حيث

تحلقوا في حلقة واسعة فهذه الرقصة لن يتقنها أحد منهم لصغر

سنهم وصعوبتها إلا إن كانت جذوره من هناك وعاش في بلادها

اقترب ونظر معهم حيث الفتى ذو العشر سنوات مادا يده يشير بها

طالبا رفيقة للرقص وكان من ملامحه يبدوا برازيليا لاتينيا ، كان

يبتسم للفتيات وكل واحدة تحرك رأسها نفيا لجهلها بتلك الرقصة

حتى دخل ذاك الجسد الصغير من بين الواقفين ومدت يدها ممسكة

يد ذاك الفتى وعلا صراخ الأطفال حين بدأ بالرقص بإتقان يلفها

حول نفسها ثم رفعها ودار بها بين دهشة الجميع هناك .

اقتربت منه زوجة والده قائلة " وقاص يمكنك الذهاب

لترتاح في غرفتك أتعبناك معنا "

ابتسم لها قائلا وهو يبتعد عن الطاولة " لا بأس خالتي كان الأمر

نصف ممتع ولم أمل كثيرا شكرا على تسريحي "

وضحكا معا على علو صراخ طفلة فوق صوت الضجيج والموسيقى

ونظرا فورا لتلك الجهة ليظهر لهما من خرج بين ذاك الجمع ومن

يجرها بيده من شعرها الأشقر حتى وصل عندهما على شهقة

والدته ما أن عرفتها وصرخت به " رواح هل جننت ؟ "

وتقدمت نحوهما فترك شعرها وتوجهت هي من فورها لها واختبأت

خلف ساقيها تبكي بشدة وتحضنهما بقوة فصرخت تلك به " أحمق

" وطفل هل ترى كم عمرك تضربها هكذا يا همجي

ازداد غضبه وحنقه وصاح بها " الوقحة كيف ترقص مع ذاك

" الأخرق هكذا ؟ شبيهة والدتها

وغادر على نظراتها المصدومة وقد نقلت نظرها لوقاص فانفجر

ضاحكا من فوره وغادر خلفه وهي تنظر لهما باستغراب

*

*

" مطر "

التفت جهتها وهوا ينزل آخر عتبات السلالم فقالت

" تعال لن أعطلك "

" سار جهتها وقالت ما أن وصل عندها " خذني لغرفتي

دس يده في جيبه وقال ببرود " ورائي أمور كثيرة أخرج لها

" عمتي وقد أبات خارج حوران فأجلي ما لديك للغد

نظرت له فوقها وقالت " لا لن أؤجله فقد انتظرتك بالأمس لكنك

صعدت لغرفتك ولم تنزل منها إلا وقت العصر وغادرت ولم ترجع

إلا وأنا نائمة وأعلم أنك إن خرجت الآن لن أراك لا اليوم ولا

" في الغد وقد تغادر من هنا فجرا للحدود

أمسك مقبضي الكرسي وتوجه بها جهة ممر غرفتها قائلا " أعلم

" أنك ستؤخرينني رغم علمك أنه ليس لدي ما أقوله

قالت ما أن اجتازاه وظهر لهما باب غرفتها " بل لديك ما

" تقول وما تسمع

وتابعت بلهجة توبيخ وهي تفتح باب غرفتها ويدخلانها " أراه تصرف

أطفال يا مطر أنت تهرب من المنزل وهي تسجن نفسها في غرفتها

" لم أعرفك هكذا في مواجهة مشاكلك يا ابن شاهين

ترك مقبضي كرسيها ما أن كانا داخل الغرفة وقال بضيق " عمتي

قلت لك من البداية ليس لدي ما أقوله ، إن كان لديك أسئلة فاطرحيها

عليها قبلي لأنها من قلب تلك الليلة لجحيم وقللت أدبها عليا أيضا

" فلتحمد الله أني لم أمد يدي عليها

دارت بكرسيها حتى قابلته وقالت بصدمة " تمد يدك عليها !! أقسم

لن يخاطب لساني لسانك ما حييت إن فعلتها يا مطر ولا

" أضنك تفعلها

مرر أصابعه في شعره متأففا بحنق وقال " عمتي أخبرتك منذ البداية

أن تتركي الموضوع لاحقا ، أقسم أن أعصابي تشوى على قطعة حديد

" متقدة ولا أريد أن أخطأ في حق أي أحد فاتركيني أذهب في حال سبيلي

قالت مباشرة ودون مقدمات " من المرأة التي تركت زوجتك من

" أحجلها وخرجت يا مطر ؟

" نظر لها باستغراب قبل أن يقول باستنكار " عمتي ما هذا الهراء ؟

ضمت يديها لبعضهما وقالت بحزم " أليس هذا ما حدث يا ابن شقيقي ؟

أنا لم أفهم كثيرا من كلامها فقد كانت كالضائعة تخرج كلمة وتبلع

عشرة وقد مرضت صباحا وتقيأت حتى ضننا أن روحها ستخرج

من جسدها لولا أن أسعفتنا حبيبة بدواء أعشاب أراحها ونامت

ما الذي حدث في رحلتكما تلك يا مطر ؟ أجزم أنها كانت

" متلفة لأعصابها حتى فجرت أعصاب معدتها من كبتها

مسح قفا عنقه بيده رافعا رأسه للأعلى وهمس بكلمات غير

" مفهومة قبل أن ينظر لها قائلا " هي قالت ذلك ؟

قالت من فورها " لا تتسرع الحكم لقد كانت منهارة تماما وترفض

رؤية أحد أو الحديث وقت نزولها بعدك فجرا وأنا من ضغط عليها

وقالت أن ثمة امرأة جعلتك تقطع رحلتكما وترجعا وتتركها وتغادر

لها لأنها تنتظرك ، لا أصدق أنك أنت مطر شاهين تفعلها وأمام

" !! زوجتك أيضا

ضغط أسنانه بقوة وكأنه سيحطمها وقال " هذه الفتاة ألم تسمع

" عن قصة الطفلة من خماصة ؟

نظرت له عمته باستغراب وقالت " هي لا تستمع للمذياع ولا

تحبه وترفض سماع أي أخبار عن الجبهات ، لكن ما علاقة

" إذلك بالأمر ؟

تحرك حينها هامسا بغضب مكتوم ووجهته باب الغرفة

" سحقا لأفكار النساء "

فتحركت تلك خلفه منادية تحرك عجلات كرسيها بكل قوتها

" مطر ارجع ولا تتحدث معها الآن ، مطر انتظر قلت لك "

لكنه لم يكن يسمع شيئا سوا صدى كلماتها السابقة ولا يرى إلا نهاية

الممر أمامه ولم يتوقف حتى كان عند باب غرفتها وفتحه بقوة على

اتساعه ودخل متوجها نحو التي قفزت جالسة على السرير تنظر له

بخوف وقد وصل عندها وأمسك ذراعيها بقوة متجاهلا تألمها

. وصرختها المترجية لأن يبتعد عنها وأنها لا تريد رؤيته

سحبها موقفا لها خارج السرير وأصابعه تغرس في بشرة ذراعيها

البيضاء الناعمة المكشوفة من كمي فستانها القصيران لحظة دخول

عمته تسحب نفسها بالكرسي مقطوعة الأنفاس من تعب يديها وذراعيها

وقد أغلقت الباب لتمنع صوت هذا الغاضب الذي فقد أعصابه من

الخروج خارج الغرفة وقالت بأمر " مطر أتركها ليس

التفاهم بهذا الشكل "

شد ذارعيها أكثر وهي تنزل رأسها للأسفل متجنبة النظر له وقد

خرجت منها أنات خفيفة متألمة عجزت عن إمساكها وقد صرخ

بالواقفة خلفه " عمتي لا تتحدثي رجاءا واتركيني أتفاهم مع

هذه الغبية "

رفعت يدها بضعف وأمسكت بقبضتها الواهنة صدر قميصه جهة

الأزرار وقد هزها بقوة ناظرا لملامحها التي أخفت غرتها أغلبها

" من المتهم في كل هذا يا غسق تكلمي ؟ من المذنب في غبائك الغير

معقول ؟ هل سألت عقلك من تكون تلك المرأة ولما عدت وخرجت

لها ؟ ما ذنبي أنا إن كنت تكرهين الحديث عني وسماع أخباري

وما يحدث معي هناك جهة الهازان ؟ "

لم تعلق بشيء وعضت شفتها بقوة تكابد على ألم جسدها وقلبها وقد تابع

صارخا وخصلات غرتها تتحرك بسبب أنفاسه الغاضبة التي خرجت

مع كلماته " ذنب من أنك تجهلين أن تلك المرأة والدة الطفلة الناجية

من مذبحة خماصة وقد جاءت مستغلة غيابي وبكل بدم بارد وقلب

ميت تريد أخذ ابنتها من أجل إرثها من عائلة والدها متجاهلة أنها

مرت بظروف قاسية ورأت جدتها تموت أمامها في ذاك المنزل

وضنت أن امرأة أخرى هي والدتها ومرضها لا يسمح

بتعريضها لكل تلك الضغوط "

هزها مجددا متجاهلا أنينها المتوجع الذي ارتفع أكثر وتمسكها بقميصه

بقبضتها بقوة وكأنها تخشى أن يقذفها بعيدا على الجدار وتابع بذات

صراخه الغاضب " ذنب من منا تكلمي ؟ أهكذا تعامل الزوجة زوجها

يا ابنة شراع يا تربية الزعماء يا ابنة الأشراف ؟ أهكذا رباك شراع

صنوان الرجل الشريف أن ترفعي صوتك في وجه زوجك الند

بالند والكلمة بمثلها ؟ "

لم تعلق بشيء ولم تستطع قول شيء ولا فعل شيء أيضا سوا مكابدة

دموعها وكتم أنينها المتألم فتركت يديه ذراعها وأمسك بها ذقنها ورفع

وجهها له للأعلى حتى تقابلت عيناها المجهدة بجفنيها المحمران بعينيه

الغاضبة المعاتبة بحنق وشد على ذقنها بقوة صارخا " هل هذا ما

أنتظره منك يا زوجة زعيم الحالك ؟ الظنون الباطلة والتخوين "

أمسكت يد عمته بكم قميصه وشدته منها قائلة " حلفتك بالله أن

تغادر يا مطر ، إن كان لي احترام لديك أتركها ويكفي هذا "

ترك حينها ذقنها بعنف وخرج من الغرفة من فوره ضاربا بابها خلفه

وانهارت هي على السرير تدفن وجهها في ملاءته ويداها تقبضان عليها

بقوة ولازال ذاك الأنين المتوجع يخرج منها فهزت الجالسة على كرسيها

رأسها تلعن نفسها على ما فعلت وقد أدركت حينها أنه كان عليها أن تنتظر

حتى يرجع غدا فهو يبدو كان يؤجل ذلك حتى يهدأ وتهدأ الأمور أولا وتلك

كانت عادته دائما لكنها ضنت حقا أنه قد يفعلها ويتزوج بأخرى على الأقل

قربت كرسيها للسرير أكثر ومدت يدها تمسح على الشعر المتناثر للنائمة

عليه لازالت تخفي وجهها فيه وقالت " يكفي يا غسق ستنهكين أحشائك

مجددا وتكوني الخاسرة حينها "

ثم تنهدت بأسى حين لم يؤثر كلامها بها شيئا وقالت " كان عليك

سؤاله يا غسق ، لو كنتما تحدثتما ووضحتما الأمور لبعضكما

" ما وصل الحال بينكما لهذه المواصيل

خرج صوتها مختلطا ببكائها ولازال وجهها يحضن برودة تلك

الملاءة " كانت غلطته عمتي هو لم يوضح لي لم يتحدث معي

" في الأمر وكأنه لا وجود لي ولا مشاعر

مسحت على شعرها مجددا قائلة برفق " لا يوجد شخص في البلاد

لا يعلم عن قصة تلك الطفلة يا غسق ولا عن أن مطر كان يريد

جلبها هنا لولا أخذها أحد رجاله لزوجته ومنزله ، الجميع يعلم

عداك أنتي لأنك ترفضين أن تعلمي بذلك وتقصين نفسك عن

كل شيء يحدث حولك ، حتى مجلس النساء تخرجين منه

" كلما انخرطت الأحاديث فيه للحروب وظروف البلاد

لم تعلق بشيء ولازالت تدفن وجهها وعبراتها في ذاك القماش المشبع

بدموعها فهزت الجالسة على كرسيها رأسها بأسى من حالهما وحركت

عجلاته خارجة من الغرفة واجتازت الممر حتى كانت خارجه متحركة

في بهو المنزل الواسع تنظر للذي ظهر نازلا من السلالم بخطوات

" مسرعة يحمل حقيبته في يده فقالت " مطر

وقف ونظر جهتها ما أن نزل آخر عتبة فيه وقال بضيق " عمتي

لا يمكنني خوض أي حديث في أي شيء فابتعدي عني كي لا أخطئ

" في حقك ، سأغادر للحدود ولا أعلم كم سيطول غيابي هناك

هزت رأسها بحسنا وقالت بهدوء " وذاك أفضل ، ابتعد عنها

" وأبعدها عنك لترتاح نفسيتكما أولا

خطى جهة الباب دون أن يعلق بشيء فأوقفته منادية له مجددا فوقف

ويده تمسك مقبضه ودون أن يلتفت لها فقالت بجدية ناظرة لقفاه

لا تتهور في أي قرار يا مطر وكن كما أعرفك ويعرفك "

" الجميع بني ولا تنسى أنها في عهدتك لا أحد لها هنا غيرك

تنفس بقوة وكأنه يسجن الكثير من الكلام ولا يريد أن يخرجه وفتح

الباب قائلا وهوا يخرج منه " لا تخافي عمتي فطلاق لن أطلقها

" ولن أتزوج عليها

وخرج مغلقا الباب خلفه وركب سيارته وغادر من فوره مجيبا

على هاتفه الذي تركه في السيارة ويبدوا أنه لم يتوقف عن الرنين

من وقت ، فتح الخط وقال من فوره وبضيق " قادم لكم يا بِشر

" ألا تستطيعون تدبر أموركم ليومين دون رؤية وجهي

قال من في الطرف الآخر وبتوجس " آسف سيدي ما عرفتك

" !! تتضايق أبدا من استشارتنا لك في أي أمر

" تأفف بقوة وقال " اترك كل تلك الأمور إذا حتى أصل

قال ذاك من فوره " وهوا كذلك ، سلم لي عليها بالله عليك

" وأخبرها أن بِشر يرفع لك القبعة

عقد مطر حاجبيه مستغربا وقال وسيارته تزيد من سرعتها

" على الطريق الترابي " من هي ؟

" ضحك ذاك من فوره قائل " ابنة شراع طبعا

وأغلق الخط من فوره كي لا يترك له أي مجال للرد عليه فهز

رأسه مبتسما رغم تجهم ملامحه وغضبه ثم رمى الهاتف على

الكرسي الآخر بجانبه وانشغل بترديد دعاء السفر وسيارته

*

*

نظر بترقب وفضول ككل مرة يحضر فيها معه حقيبة مشابهة لهذه

فتحها ذاك لتكشف عن المسدس الموجود فيها وأخرجه ومده

له قائلا " mark 23 - 6 "

أمسكه منه يتفحصه بين يديه بلونه الذي دمج البني مع الأسود اللامع

ولاحظ خفة وزنه سريعا فنظر له وقال " وزنه أخف من السابقات "

هز عمير رأسه بنعم وقال " تفحصه جيدا فلا رصاصات فيه أريد " أن أرى ما ستلاحظ عيه مما تعلمته عن الأسلحة السابقة

عاد لتقليبه وفكه وتفحصه بتأني وذاك جالس أمامه ينتظر بصبر مبتسما لملامحه الفضولية المتشوقة ونظرته الحادة التي تعلم أن يتعايش معها بالمقارنة مع صغر سنه وأن يراه كما يراه الكثيرين رجل في جسد فتى دخل الثانية عشر للتو ، واستطاع خلال هذه الأشهر أن يتعرف عليه أكثر أن يعرفه جيدا وأن يفهم سبب تمييز مطر شاهين له تحديدا ، ورغم أنه ليس أول من وجهه زعيمه لتدريبهم وإكسابهم من خبرته إلا أنه يتفق معه أن هذه التجربة مختلفة جدا فأن تنشئ متدربا من صغره أمر أجدر من تعليم شاب يافع ، هذا ثالث فتى صغير يخضع للتدريبات على يده ولاحظ جيدا أنه مختلف عن أقرانه رغم ذكائهم فهوا تفوق عليهم وبشهادته وآخر ما قاله لمطر في آخر لقاء لهما (هذا الفتى إن

(عاش حتى أصبح شابا فسيتفوق عليا وعليك وعلى الجميع

رفع نظره أخيرا من على المسدس فقال عمير مبتسما

" ها ما النتيجة يا تيم ؟ "

رفع السلاح بطريقته الخاصة للأعلى ، الطريقة التي بات يعشقها عمير

ويقلده فيها أحيانا وقال " هذا السلاح نصف آلي إنه يستجيب للأوامر

الذي تدربنا عليه وحجمه أصغر (glock 177) بسرعة فاقت الـ

منه وخفيف مثله وأجزم أنه سلاح مهم في القوات الخاصة "

ابتسم له وقال " تيم أنت تتعلم بسرعة البرق يا فتى ومعك حق فهذا

المسدس تستخدمه القوات الخاصة الأمريكية نظرا لقوته الميكانيكية

وفعاليته أثناء الهجوم إنه أحد أهم الأسلحة لديهم وهوا ألماني

أمريكي الصنع "

وانشغلا ككل مرة يحضر فيها سلاحا جديدا في فكه وتركيبه وشرح

طريقة معرفة أي خلل فيه ومحاولة إصلاحه سريعا ، وضع المسدس

في الحقيبة وقال " غدا سنعيد كل هذا وبعد غد أختبرك وإن فشلت

أعدنا من البداية كما اعتدنا حسنا "

" هز تيم رأسه بالموافقة وقال " ومتى سنصوب به ؟

ضحك عمير وقال " صبرك يا فتى التصويب آخر مهمة فأنت لم

تعد تحتاج للكثير فيها ، هذا هوا المسدس ما قبل الأخير بقي أمامنا

" وتنتهي المجموعة وسننتقل لمجموعة ستحبها كثيرا (hs 2000) الـ

وتابع وهوا يخرج شيئا من جيب بنطلونه " إنها دمى الأسلحة

" سأريك شيئا منها الآن

وانفتحت عينا تيم على وسعها وهوا ينظر للمسدس الصغير في

راحة يد الجالس أمامه وقد ضحك قائلا " إنه حقيقي طبعا

" وتعلمه سيحتاج لوقت وجهد وهناك هذا

وأخرج غليون خشبي وفكه أمامه ليتحول لسلاح فتاك وقال أمام

نظرات الدهشة للجالس أمامه " هذه الأسلحة وغيرها تستخدم في

أهم عمليات التصفية السرية حيث يدخل الشخص للمكان المحصن

" أمنيا ينفذ مهمته ويخرج دون أن يكتشف أحد ما يحمل معه

رفع نظره المندهش عما في يده وقال بصدمة " وتقتل بشرا

" !! وهي بهذا الحجم

ضحك عمير وقال " بالتأكيد فجميعها يخرج منه رصاص قاتل

" وهي عشرة أسلحة سنتعلمها تباعا

اتكئ بيديه للخلف وقال " ماذا عن الأسلحة التي يتدرب عليها

" الجنود هنا ؟ أنت لم تتحدث عنها أبدا

قال وهوا يعيد السلاحين لجيبه " تلك لن تحتاجها كثيرا سأعلمك

مستقبلا على الرشاش بأنواعه الثلاثة المهمة أما الأسلحة الثقيلة

" فليست من اختصاصك الآن ولها وقتها لو احتاج الأمر

هز رأسه بحسنا دون تعليق فتربع ذاك وقال بحماس " أخبرني يا

تيم ما تريد أن تكون مستقبلا ؟ دعنا نتسامر قليلا فأنت صندوق

" حديدي مغلق يا رجل

نظر له ببرود وقال " وأنت تدربني يوميا لساعات ما ستتوقع

" مني سأكون مثلا ؟

رمى رأسه للخلف ودوت ضحكته الجهورية العالية ثم نظر له

وقال " سحقا أنت لا يمكن التغلب عليك أبدا ، حسنا ذاك ليس

" شرطا فقد يكون لك طموح آخر

أدار عينيه بتفكير ثم نظر له وقال " أريد أن أكون عضوا في

" القوات الخاصة وعميل سري طبعا

" قال عمير مبتسما " ظننت أنك ستكون طبيبا

حرك كتفيه قائلا " الطبيب أخبرني أنه يمكنني تعلمها دون امتهانها

لقد أصبحت أعلم الكثير وأغير الجروح لبعض المرضى وأفك

الغرز وأسعف معه بعض الحالات لكني لست متحمسا لأكون

" سجين غرفة ومستشفى ، أنت لا تكون حرا حين تكون طبيبا

قال عمير مبتسما " تفكيرك غريب ورائع لكن الطبيب يقوم

" بمهنة إنسانية بحته ونحن لا نستطيع الحياة من دونهم

هز رأسه بنعم وقال " لكن أمثالك يخدمون بلادنا كالأطباء تماما

" أليس كذلك ؟

ضحك وربت على كتفه قائلا " معك حق والطموح لا أحد يمكنه

" تغييره أو التحكم فيه فأخبرني الآن عن ماريه تلك

نظر له بضيق فقال ذاك ضاحكا من قبل أن يتحدث " هي ليست

حبيبتك حسنا أعلم ذلك فقط أريد أن أعرف عنها "

قال ببرود " هي قريبتي فقط وتوقف عن قول تلك الكلمة "

قال ذاك بحماس متجاهلا ما سمع منه " يمكنك فهم بعض الأمور

التي تجهلها لتعرف ما تعنيه لك تلك الطفلة ، هيا أخبرني أولا

هل هي جميلة ؟ "

زم شفتيه حنقا منه ثم قال ببرود ناقلا نظره بتقييم من وجهه

لجسده " تبدوا لي أجمل منك بكثير "

انفجر ضاحكا وقال " أجزم أنها ليست أجمل منك أنت ولعلمك

يا تيم النساء لا يلتفتن كثيرا لجمال الرجل "

نظر له بطرف عينه نظرة تقييميه لاذعة أخرى وقال ببرود أشد

" يبدوا لي تخدع نفسك كثيرا أو أن حبيبتك تلك تضحك عليك "

عاد للضحك قائلا " هيا يا فتى لست سيئا لهذا الحد لا تنسى

أني ابن الحالك "

" حرك تيم كتفه قائلا " وإن يكن فالزعيم مطر أجمل منك

أخرج ذاك المسدس من الحقيبة وقال مشيرا به عليه " أعلم أنك

" تفعل ذلك لتنتقم مني وتلك الطفلة حبيبتك رغما عنك

تجاهله ونظر جانبا وقال " ليس شرطا إن كان لك حبيبة يكون

" الجميع مثلك

" ثم نظر له وتابع " وتذهب لتزورها ماذا تقولان ؟

لم يستطع إمساك نفسه عن الضحك فوقف تيم وقال بضيق ممسكا

وسطه بيديه " أشك أن تكون أنت عضوا في القوات الخاصة كما

" تقول وأنت تضحك طوال الوقت كالمهرجين

ماتت ضحكته وتحولت لعبوس وقال " وقح ... عليك أن تفصل بين

" الجد والهزل أم تريدني مثلك أنت عابس دائما

رمى يده في وجهه قائلا " كن كزعيمكم على الأقل يبدوا لي أنك

" تحتك بحبيبتك تلك كثيرا حتى أصبحت مثلها

زم ذاك شفتيه حنقا ثم قال " اذهب هيا يا حبيب ماريه الصغيرة

" لا تتركها تنتظرك كثيرا

غادر متجاهلا له وقال ما أن ابتعد " وأنت الزعيم مطر أفضل

" منك في كل شيء أحببت أم كرهت

فضحك يراقبه مبتعدا حتى اختفى خلف أحد جدران غرف المقر

وهمس مبتسما " كم أتوق لرؤيتك مستقبلا يا تيم ، أنت تبعث

" الفضول في قلب أي أحد يعرفك

*

*

دخل المكان بخطوات واسعة سريعة على نظرات كل من مر بهم

حتى وصل للساحة الخلفية للمقر وركض جهة الذي كان ينوي

الخروج من بابها الخلفي حتى أمسك به وأداره جهته وقال

" بغضب " جبران توقف عن هذا هل جننت ؟

دفعه بيده بقوة وقال بغضب أشد " ما جاء بك أنت هنا وماذا تريد

" مني ؟ قلت أن تنسوا أن لكم ابنا أسمه جبران ألم تفهموا

أمسك ياقته بقوة بقبضتيه على نظرات من وقفوا في نوافذ غرف ذاك

المقر يراقبون من بعيد وإن من دون صوت لبعدهما وقد هزه رماح

بقوة صارخا " لن تستفيد شيئا إن دخلت حدوده وأمسك بك رجاله ، بل

" وحتى إن وصلت له لن تفعل شيئا ، أنت لست ندا له يا جبران فتعقل

دفعه بكل قوته حتى ترك قميصه وصرخ بعنف " أقتله ... قسما

" إن رأيته أمامي وأتيحت لي الفرصة قتلته

دفعه رماح من صدره بقوة صارخا " مجنون وما ستستفيد من ذلك

" فهي ابنة عمه وهوا يعلم بذلك من قبل أن يأخذها منا

نظر له بصدمة لوقت ولم يعلق فقال رماح يتلقف أنفاسه " هو أخبر

والدي بنفسه ، انسها يا جبران هي لم تكن لك من البداية إنه ابن

عمها منذ ولدتها أمها ولا تستبعد أن يكون متزوجا بها من سنين

" ونحن لا نعلم

صاح ذاك ملوحا بيده رافضا لما يسمع " لن أهابه ولن تقنعني بكل

هذا فإما أن أقتله أو أن أدمر حياته معها وفي الحالتين هو ميت

قسما وأنا جبران شراع أن أحول حياته لجحيم كما فعل

" بحياتي وأخذها وهي صارت لي

صرخ فيه رماح بصوت أعلى وغضب أشد " سحقا لعقلك يا رجل

ماذا ستستفيد إن حولت حياتها لجحيم ؟ أنت تضرها هي يا أحمق

" ! إما أن ترملها أو أن تتعسها كل عمرها

قال مغادرا جهة ذاك الباب الواسع المفتوح " هي لي

" عليها أن ترجع لي أنا

ركض جهته وأمسكه من ذراعيه خلف ظهره ودفعه جهة الجدار

بقوة حتى تبثه عليه وقال من بين أسنانه " والدي أقسم أن يطردك

من صنوان جميعا إن علم أنك تسببت في شيء يضر حياتها معه

" لا تخسر كل شيء بسبب امرأة يا جبران

حاول دفعه بكل قوته قائلا " أنت لم تجرب عشق امرأة لتقول كل

" هذا يا رماح ، قلبك حجر لم يرتجف يوما ويحب لما قلت ما قلت

دفعه بقوة أكبر مثبتا له أكثر عليه وقال " ومن قال ذلك ؟ لما تضن

أنك وحدك من عانى ، من أحب امرأة ليست له ولا تفكر فيه

" لو الجميع فكر وتصرف مثلك لضاعت الناس

دفعه بقوة مستغلا اللحظة حتى أبعده عدة خطوات وأخرج مسدسا

من حزامه والتفت له وصوبه عليه قائلا " إن فكرت في منعي

" قتلتك يا رماح ، لن أسمح بأن تمنعني من دخول الحدود

أخرج ذاك مسدسه أيضا ورفعه في وجهه قائلا " سأمنعك بكل ما

أقدر عليه يا جبران ، لن أسمح لك بأن تدمر صنوان جميعها بإيذائك

لذاك الرجل الذي لن يرحمنا رجاله وقبائله إن مسه سوء بسببنا ولا

" أن تدمر حياة الفتاة التي عاشت بيننا لأعوام شقيقة لم تلدها لنا أم

*

*

غرست أصابعها في شعرها تستمع بانتباه لكلام حبيبة وهي تشرح

لها عن تلك الأكلة وطريقتها تجلس رافعة لقدميها على الأريكة

وسط ذاك المنزل الكبير ولولا طلبها هي منها ذلك ما جلست هناك

معها ، وكان صوت أحاديث عمتها وجوزاء خلفها تصلها بوضوح

لكن عقلها لم يكن لا مع حبيبة ولا مع الجالستان هناك وقد سافر مع

الذي غاب عن المنزل منذ أكثر من أسبوع ولا تسمع عنه سوا من

. الآخرين من أخبار النسوة عنه وعن آخر ما يحدث معه ورجاله

هذا ما كان يريده من البداية وهي باتت تعي ذلك جيدا الآن ، كان

يريد أن يبتعد فقط بغضبه ويتركها مع غضبها حتى يهدآن كليهما

لكن الظروف وكل شيء كان ضد ذلك وتواجها في مرتين قاسيتين

على كليهما وبعد أن شرح لها تلك الحقيقة التي كانت مخفية عنها

غادر ولم تراه من وقتها ، فهمت الآن لما قال أنه لن يسمح لها بأن

تتلاعب به مجددا ، فهمت ما كان يشعر به وهوا يضنها صدته دون

سبب بعدما أعلنت له صراحة أنها له وسلمت نفسها إليه طوعا ، بل

واسترجعت كل تلك العبارات التي قذفتها في وجهه حين عادا من

تلك الرحلة فجرا ولما اعتبرها تواقحت عليه وقال بأنها السبب

اتكأت على ذراعها التي تسندها على ظهر الأريكة وتنهدت بأسى

فقد أصبح يضيق صدرها كلما فكرت في كل ذلك وهو لم يغب

عن تفكيرها أبدا ، ما كانت لتتخيل أن تلك الليلة المليئة بالعواطف

المطلقة العنان أن تتحول لكل ذاك السوء والسواد وأن من كانا في

تلك الخيمة التنانية هما نفسهما من تشاجرا بعنف في غرفتهما

لمرتين بعدها ، وأن تلك الحسناء في ذاك الثوب الأبيض هي

الجالسة هنا الآن وحيدة وزوجها لم تراه من عشرة أيام وقد

. تركها غاضبا أيضا

" لما لا تحدثيه بهاتف عمه بدلا من التنهد هكذا "

نظرت بصدمة للتي ضحكت وهمست لها " اعترفي هيا

" فحالك منذ غادر لا يعجبني

ابتسمت بحزن للخادمة التي لم تعد تعدها إلا شخصا من عائلتها

وتكره حتى مناداتها لها بسيدتي ، أنزلت نظرها ليدها الأخرى في

حجرها تمسك بها أحد خيوط الفستان وقالت بحزن " لن أتحمل

أن يحدثني ببرود أو يغلق الخط في وجهي يا حبيبة

" أنا أضعف من تحمل ذلك منه الآن

قالت تلك مبتسمة وهي تجمع ما تناثر من حبات العدس على

الطاولة " لو سمع كلماتك هذه لأتى لك ركضا ، على

" أحدكما أن يبادر أو لن تجدا حلا لخلافكما أبدا

عادت للاتكاء برأسها على ذراعها وهمست بشرود " اتركيه

" يعاقبني كيف شاء بغيابه كي لا يكون ثمة عقاب آخر بعد مجيئه

وقفت تلك وحملت الطبقين قائلة بضحكة " ومن الذي سيفرض

" عليه عقابا واحدا فقط ؟ قد يكون يفكر في أكثر من ذلك

ثم غادرت على النظرات العابسة لقفاها من التي تركتها جالسة

" هناك وقد تمتمت " ما هذا الفال السيئ يا حبيبة ؟

" غسق "

التفتت من فورها حيث الجالستان هناك وعمتها التي نادتها وقالت

" من هناك " هل تعرفي عائلة بلال شعاب في الرنقاء في صنوان ؟

نظرت لها باستغراب بادئ الأمر ولنظرة جوزاء المصدومة لها وقد

وكزتها بيدها وهي تتجاهلها تنظر لها منتظرة جوابها ففكرت قليلا

بشرود لا تعلم بحال ضربات قلب الجالسة هناك وكأنها تنتظر

خبر موتها ، قالت وقد رفعت نظرها بعمتها " تقصدي عائلة

بلال الشعاب ذاتها ؟ من أين تعرفينهم عمتي ! "

قالت تلك من فورها " أعرفهم فهل تعرفيهم أنتي ورأيتهم "

مررت أصابعها في غرتها ترفعها عن وجهها وقالت " مدينتهم بعيدة

عنا لكني زرتهم وعمتي مرتين تقريبا فهم من كبار قبائل صنوان

وأكابرها وعلاقة والدي بهم وطيدة "

أمسكت نصيرة يد جوزاء بقوة كي لا تغادر فهي تعرف قلب الأم جيدا

وتعلم أنها تفكر في الهرب حاليا كي لا تواجه الحقيقة التي عليها

معرفتها كي تعلق آمالها أو تقتلها وتدفنها للأبد ، قالت " ما

الذي تعرفيه عن عائلة ابنهم أيوب ؟ "

قبضت جوزاء يدها بقوة على يد عمتها وقد ربتت تلك بيدها الأخرى

عليها منتظرتان جواب التي غابت بنظرها بعيدا عنهما وقالت بتفكير

" أيوب أيوب ! أبنائهم كثر لكني أذّكر جيدا حديث والدتهم عنه تحديدا "

ثم تغيرت لهجتها حين تذكرت وقالت مندفعة ناظرة لعمتها " أجل

هو والد الطفلين رأيتهما من عامين أو أقل أذكرهما جيدا "

ارتخت يد جوزاء وأصبحت كالميتة في قبضة عمتها بسبب الانهيار

التام لمشاعرها وأعصابها وقالت بصعوبة ناظرة للجالسة هناك

وهي تكابد الدموع التي ملأت عينيها توشك على النزول " كيف

هما ؟ ما كان حالهما ووضعهما ؟ "

نقلت غسق نظراتها المستغربة منها لعمتها ثم عادت بهم لها فهذه

المرة الأولى التي تسألها فيها عن شيء أو تشارك في حديث هي

جزء فيه !! قالت ونظرة الاستغراب لم تفارق عينيها " كانا بصحة

جيدة إنهما رائعين فعلا ومميزان من بين جميع أحفادهم ولا

يفارقان بعضهما وكأنهما توأمين "

شدت يد جوزاء على يد عمتها بقوة وكأنها ترتجي منها العون فقالت

نصيرة ناظرة للجالسة هناك " والدتهم من الحالك هل أنتي متأكدة

من أنهما هما ؟ "

أدارت عينيها قليلا بتفكير ثم نظرت لها وقالت " نعم أذكر أن جدتهما

قالت ذلك ، لم أفهم كثيرا كان حديثها معقدا عن هدنة وزواج لم ترغب

به وكانت منزعجة من ابنها لأنه لم يتزوج بعد طلاقه من زوجته

" تلك مهما حاولت معه

كانت أظافر تلك تنغرس في لحم كف عمتها دون شعور منها تكابد

الانهيار باكية أو الوقوع مغمى عليها وقد تحولت ملامح غسق للحزن

وهي تقول " لو رأيتهما عمتي يسحرانك من أول نظرة خاصة

" الأصغر (أبان) له عينان ونظرة وابتسامة لا تنسيهما أبدا

ونزلت بنظرها للأرض متابعة بذات الحزن الذي غطى عليه الأسى

والوجوم " كان ظلما في حق الطفلين ووالدتهما ، لو سمعته كيف

سألني وهوا يضن أني من الحالك حين شبهتني إحدى النساء بكم

عن إذا رأيت والدته وأعرفها وأن أخبرها تزورهم قبل أن تطرده

" جدته صارخة به ويغادر باكيا

وقفت حينها التي لم يعد بإمكانها احتمال كل ذلك وأسرعت الخطى

تمسح الدموع التي غلبتها ونظرات غسق المصدومة تتبعها قبل

أن تنقلهم لعمتها قائلة باستغراب " ما بها عمتي ! ما الذي

أزعجها فيما قلت ؟ "

وشهقت بقوة تمسك فمها بيدها قبل أن تتحدث تلك حين تذكرت حديث

عمتها عن طفليها وكيف أنها لم تراهما هنا وأن زوجة ذاك الرجل

من الحالك ، ملئت الدموع عينيها الواسعة وقالت بصعوبة

" عمتي لا تقولي أنهما ابنيها ؟ "

هزت تلك رأسها بنعم بحزن فغطت غسق وجهها بكفيها قائلة بأسى

" ليت لساني انقطع، ليتك ما سألتني عمتي لماذا فعلتها ؟ "

قالت نصيرة بحزن " بل كنت أخاف أن لا تكوني رأيتهما أو تعلمي

عنهما ، أراح الله قلبك يا غسق كما أرحت قلبها فعلى الأقل علمت

أنهما من عامين بخير وأنهما لا يكرهانها وينتظران رؤيتها "

مسحت الدموع التي غلبتها وقد خرجت كلماتها مخنوقة بعبرتها

" فهمت الآن لما تكرهني ، أعانك الله يا جوزاء ما أعظمها من

مصيبة لا يعلم عنها سوا من عاش تجربتها أو تجربة ابنيها "

هزت نصيرة رأسها بموافقة وقالت بأسى " جوزاء لا تكرهك يا

غسق مثلما أنها لن تستطيع أن تحبك وتتقبلك ، ليس الأمر بيدها

فمشاعر الأمومة لا يعرفها إلا من جربها "

ثم قالت قبل أن تتحدث " الله لن ينساها ولن ينساهما فاتركينا

الآن من ذلك وأخبريني هل تحدثت مع زوجك ؟ "

غطى الوجوم ملامحها وقالت بحزن " وأين رأيته لأتحدث

معه عمتي "

قالت نصيرة مستغربة " هو هنا حول حوران منذ يومين وزار

المنزل ليلة أول أمس ، ضننت أنكما تحدثكما أو رآك "

شعرت بتلك المرارة في حلقها وغصة ألم شديدة خرجت معها

الحروف مبحوحة منخفضة " كان هنا ؟ "

هزت نصيرة رأسها بلا وقالت " جاء ليلا ويبدوا غادر ذات الليلة

أو ذات الوقت وقد ترك الحدود منذ أكثر من يومين وقال صقر

أنه توجه لميناء بينبان فجر اليوم "

عضت طرف شفتها تمنع مشاعرها من التغلب على صوتها وعينيها

ثم وقفت وغادرت من هناك لتوقفها كلمات عمتها قائلة " غسق

" عليكما ترك كل ما كان جانبا بنيتي والتفكير في المستقبل

وقفت مكانها وتلك قد أصبحت خلفها وقالت تقبض يديها ببعض

" أنا لا أريد غير ذلك عمتي تأكدي "

وغادرت بخطوات مسرعة حتى كانت في غرفتها وأغلقت الباب خلفها

واتكأت بظهرها عليه (لا يريد رؤيتي !! لا أستغرب ذلك بعدما قلت

وسمع ورأى مني) اتكأت برأسها للأعلى على الباب وعادت كلماته

الغاضبة تلك لها مجددا (أهكذا تعامل الزوجة زوجها يا ابنة شراع يا

تربية الزعماء يا ابنة الأشراف) (هل هذا ما أنتظره منك يا

(زوجة زعيم الحالك ؟ الظنون الباطلة والتخوين

أغلقت أذنيها تحاول إبعاد ذاك الصوت عن رأسها لكن صدى كلماته

الغاضبة ورنة بحته تلك عادت لتصدح فيه (ما ذنبي أنا إن

(كنت تكرهين الحديث عني وسماع أخباري

هزت رأسها بالنفي وهمست وعيناها تترقرق بالدموع الحبيسة

" لا لم يربني شراع على هذا ، لا لست هكذا ولست أكرهك "

توجهت للخزانة غيرت ملابسها صلت العشاء ثم جلست تقرأ في

أحد الكتب لوقت وحتى عشائها لم تتناوله ولم تشعر بالرغبة فيه

بعد وقت طويل رمت ذاك الكتاب واندست في سريرها تحاول فعل

أي شيء غير التفكير في ذاك الرجل لكن جميع تلك الحلول لم

تنجح فأبعدت اللحاف بقوة متأففة وغادرت السرير والغرفة

*

*

أغلق باب سيارته وأخرج مفاتيحه الأخرى من جيب بنطلونه الخلفي

متجها جهة المنزل فوقف مكانه حين انفتح الباب قبل أن يمد يده له

ووجد عمه أمامه وقد ضرب على كتفه قائلا " تعال هيا كنت

أنتظرك هل نسيت أنه ثمة حديث معلق بيننا "

" نظر لساعته في يده وقال " هذا الوقت ؟ أتركني أنام وغدا نتحدث

قال سائرا أمامه للداخل " بل الآن فمن يضمن لي أن أجدك

" هنا غدا أو حتى بعد ساعة

تنهد مستسلما وسار خلفه حتى دخلا جناحه وغرفته وجلسا متقابلان

مطر على الأريكة وصقر على الكرسي المقابل له وقال " متى

" ستغادر من هنا أم لم تقرر بعد ؟

قال بهدوء " ليس قبل نهاية الأسبوع ولن أخرج من حوران

" هل ثمة أمر مهم ؟

" هز رأسه بلا وهمس " مجرد سؤال فقط

وتابع وقد تحولت لهجته للجدية " لن أعطلك أعلم أنك متعب وتريد

أن تنام وأن الوقت متأخر وأنا لست أفضل حالا منك وأنا أنتظرك

كل هذا الوقت ، أسمع يا مطر علينا أن نجد حلا لذاك الرجل

" قبل أن يقع ما نخشاه ولا أعتقد أن زواجك منها سيحميها منه

غامت عيناه بسواد أقتم من سوادهما وقال بقسوة " لن يلمس ظفرها

قبل أن يقتلني ولن أسلمها لهم وإن فررت بها خارج البلاد فلم أكن

مقتنعا أساسا بما فعل والدي من عشرين عام ، لو كان لي سلطة

حينها ما وافقت ولسلمت نفسي بدلا من عمي دجى وتركت ابنته

وزوجته تعيشان هنا وتتربى وسط عائلتها وأهلها وليس

" مع الأغراب

حرك صقر رأسه برافض وقال " لما لا تخرج تلك الفكرة من

رأسك واعترف بأن بقائها مع شراع وسط صنوان كان لصالحها

" يا مطر والرجل لم يقصر في الحفاظ عليها وتربيتها

قال بحنق " وأخرج سر أنها ليست ابنته وبدأ ينتشر بين الأقربين

" وبعد قليل كان سيخبر الناس ابنة من تكون

قال صقر ببرود يعاكس ضيق الجالس أمامه " أنت تعلم مثلي أن زوجته

الأولى من فعلتها دون رضاه أو علمه ثم لن تملك الناس بلورة سحرية

تخبرهم ابنة من تكون وهو لم ولن يفصح عن أصل نسبها فلما لا

تعترف أن ما يضايقك أمور أخرى بعيدة جدا عن علم

" الناس بأنها ليست ابنته

" شد ذاك قبضتيه وقال بضيق " هل أفهم ما الذي ترمي له ؟

قال صقر بكل صراحة واسترخاء متجاهلا غضبه " أعني أنك لم

تكن تحتمل فكرة بقائها مع أبنائه وما أن خرجت تلك القصيدة التي

وصفها فيها ذاك الرجل وانتشر صيتها في البلاد بأكملها حتى جن

جنونك وأصبحت تفقد أعصابك كلما تحدثنا عن أمرها "

مرر أصابعه في شعره وتحدث من بين أسنانه " ما كنت راض من

البداية وكتمي لكل ذلك لم يكن إلا لعجزي عن إحضارها من وسطهم

دون أن أثير الشكوك حول الأمر ولولا علمي ويقيني من حرص شراع

عليها وفصله لها عن أبنائه في كل شيء ما أن كبرت قليلا لكنت ذهبت

له بنفسي وجلبتها من هناك وليفعل ابن غيلوان ما يحلو له ولتقل صنوان

ما ستقول ولتطردني الحالك من أراضها فلست آبه "

ضحك صقر وقال " وجاءتك بنفسها .. يالها من فتاة ! تشبه أبيها

في كل شيء كان منذ صغره مثيرا للمشاكل يفعل أي شيء دون

تفكير في العواقب "

تحدث ذاك من بين أسنانه " كان استهتارا من شراع فماذا إن

لم تقع في قبضتي ؟ ماذا إن أمسك بها أحد رجالي ؟ كنت

سأستأمنهم على أي امرأة تقع في أيديهم إلا هي "

اتكئ صقر بخده على راحة يده وقال ببرود " لا أفهمك يا مطر !

أنت منزعج من كل شيء يخص بقائها معهم وتعترف بنفسك بأن

شراع لم يتهاون في نقطة وجودها بين أربعة شبان واحد فقط منهم

شقيقها ! ماذا إن زوجها بأحد رجال صنوان ماذا كنت ستفعل ؟ "

نظر له بحدة واندفعت الكلمات منه كالموج الغاضب " قسما كنت دككت

مدنهم وأخرجتها من الذي أوصلوها له من قبل أن يرى ذاك الزوج

شعرة منها هل هي فوضى أم ماذا ؟ ولا أعتقد أن شراع بكل هذا

الغباء وهوا من يعلم ابنة من تكون ومن لها "

تحولت ملامح صقر للجدية وقال " علينا أن نجد حلا يا مطر

اترك في دماغك حيزا لأمرها من بين كل خططك الحربية

تلك واخرج لنا بحل بما أنها صارت هنا وأقرب له "

هز رأسه بعجز وضيق قائلا " والدي حاصرنا من قبل موته هل

تضن أنه يوجد حل ولم أفكر فيه وأتّبعه ؟ كنت في الرابعة عشرة

وقتها ولولا احتكاكي الكبير به حينها ما كنت لأعلم ورغم رفضي

القاطع وبخني لأول مرة في حياته وقال أن الأمر لا يخص الأطفال

كان جنونا من أوله منذ أخرج عمي دجى فارا لصنوان ليعيش عاما

كاملا في منزل ذاك العجوز ويزوجه ابنته المتبقية لأنها معهم في

المنزل ولا يعلم عن وجوده وزواجهما أحد ولا من أقربائهم وكله

فرارا من تلك العائلة وثأرهم منه ، ويوم كشفهم لأمر وجوده هناك

ووفاة عمي رسم معهم والدي ذاك الاتفاق الأخرق مطمئنا لاحتماء

زوجته بشراع صنوان وأنه لن يصلها هناك أحد ولن يعلم بسرها

أحد بعدما عاشت في منزله لثمان أشهر يعتقد الجميع أنها زوجته

وأنجبت ابنتها وتزوجها شراع ليكتمل الحصار على الطفلة

" لتكبر هناك لا يحق لأحد المطالبة بها ولا نحن

قال صقر بهدوء " ولا تنسى أن دجى قتل من أجل ذاك الرجل الذي

حماه وزوجه ابنته واعتبره معروفا في عنقه لم ينساه لعمك حتى

مات وهو من وضع ابنته أميمه في حمى شراع صنوان ، مطر

لا تنظر للجانب الذي يضايقك فقط في الأمر وتنسى

" إيجابياته الكثيرة

وقف وبدأ بالدوران في الغرفة كالنمر المسجون وقال بضيق

وماذا كانت النتيجة ؟ اتفاق أخرق مع تلك العائلة لأخذ ثأرهم من "

عائلتنا وإن أنجبت أميمه تلك فتى كان دمه مهدورا وإن ابنة كانت

لهم زوجة أو سبيه أو ما يكون ، هل فكر والدي أنهم قد يكتشفون

وجود تلك الزوجة له وهم من وضعوا ذاك الشرط لأنهم ليس من

قتل عمي دجى ولدخول الشك في قلوبهم من أنه كان متزوجا

" في صنوان

هز صقر رأسه بحيرة وقال " تلك أعراف قبائلهم يا مطر ووالدك

كان يعرف ذلك جيدا ، ولا حل سوا أن ننتظر موت أشعث الشعر

المخيف ذاك فقد أتصور أن يتزوج حتى بهيمة ولا أن يتزوج من

" آدمية فكيف إن كانت هذه الحسناء الرقيقة

رفع مطر يديه جانبا وقال " وما الحل معهم وهم سيرفضون أي

مقابل بل وإن عرضنا عليهم أي شيء ليتنازلوا عن ثأرهم سيشكون

فورا بل سيتيقنون من وجود ابن أو ابنة لعمي دجى ، وذاك الفتى لم

يتزوج حتى الآن يهذي بثأره لوالده وشقيقه في كل مكان وكأنه

متأكد من وجود من سيأخذه مقابلا لهما "

قال صقر بوجوم " أتعني أنه لا حل ؟ "

قال مطر بجدية " أعني أنه على عنقي يقترب منها وليقتلني أولا

وحين يعلموا عنها لكل حادث حديث فلا تشغل بالك أنت الآن "

هز رأسه برفض وقال " لا يمكن ذلك ولا أعتقد أنك أنت تنساه "

توجه جهة باب الغرفة وفتحه وقال ناظرا للخلف حيث الجالس هناك

" لا أحد يعلم عنها ... عزيرة في صنوان وعمتي متأكد من أنها تشك

بأمر والدتها فقط ولا تعلم حتى ما جنس المولود فأميمه ما اختارت

أن تلد على يد تلك العجوز إلا للتثبت نسب مولودها في الحالك

ليقينها من أن والدي وحده من يعلم عنها ، ولا تقلق فإن علموا

بها لدي خيار واحد سأتخذه دون تراجع "

وخرج من الجناح بأكمله متأففا بعدما ذكره عمه بالأمر الذي لم ينساه يوما ولم يجد له أي حل ، وقف وسط بهو المنزل ونظر شرقا حيث ذاك الممر ولف جهته ثم هز رأسه برفض للفكرة وتوجه جهة السلالم ، صعد بخطوات واسعة ووصل غرفته سريعا فتح الباب بمفتاحه ثم شغل الإنارة وهو يغلقه ووقف مكانه ينظر للنائمة وسط السرير بشكل مائل منكمشة على نفسها تضم يديها تحت أحد خديها المتوردان بشدة من برودة المكان الخالي في ذاك الليل الخريفي البارد تلبس بيجامة خريفية بأكمام طويلة مزررة من الأمام وببنطلون طويل ذات قماش متوسط السمك ، شعرها متناثر خلفها وغرتها متدرجة نزولا من جبينها للسرير تحته ، أكمل إغلاق الباب برفق وهدوء وعيناه لم تفارقا وجهها وشعرها ثم توجه نحوها يخلع سترته ورماها في طريقه على الكرسي ، وصل السرير وجلس عليه برفق بإحدى ساقيه ثانيا لها تحته وعض طرف شفته بقوة وهوا يميل نحوها مرر أنفه ببطء عند نهاية عنقها فشعرها نزولا لنحرها يستنشق عبيرعطرها الزيتي الخفيف ورائحة جسدها

الناعمة وتذكر جملة بِشر الشهيرة تلك حين قال مشيرا لرأسه بسبابته

اقسم يا رجل إن سكنت هذا امرأة أصبحت تثمل حتى من رائحة)

(جسدها

تمتم بخفوت هامس وهوا ينتقل لخدها ووجنتها " والحل إن

" كنت غاضبا منها يا بِشر والحل ؟

وابتعد بسرعة حين قفزت جالسة تنظر له ويدها على صدرها

" تسترجع أنفاسها وهمست بخوف " مطر هذا أنت ؟

حاول التمسك بجموده ونجح الأمر أخيرا وقال " نعم ومن

" غيري يملك مفتاح الغرفة عداك ؟

مررت أصابعها في غرتها ترفعها للخلف ثم دست خصلاتها خلف

أذنيها تهدئ نبضات قلبها المجنونة وأنزلت يديها لحجرها ونظرها

معهما تثبت نفسها وتطمئنها رغم يئسها بسبب نظرته الباردة وجموده

ذاك ، لكم تشتاق له .... حقيقة اكتشفتها مؤخرا وباتت متيقنة منها

الآن ما أن رأته أمامها ، ولأول مرة تشعر بأنها في مأزق يصعب

الخروج منه وليست تعلم إن كان اعتذارها قد يفيد أو لن يزيدها إلا

ألما ؟ رفعت نظرها به حين خرج صوته الحازم قائلا " لما تنامين

هنا وفي البرد بدون غطاء ؟ أهناك من يجلب لنفسه الزكام "

قربت حاجبيها الرقيقان في نظرة آسية وأبعدت شفتيها لتتحدث لكنها

سرعان ما عادت وأغلقتهما وزحفت مغادرة السرير لا تريد سوى

الهرب من هناك قبل أن تخونها دموعها ، إمساكه لذراعها منعها

من التحرك لخطوة أخرى وقد سحبها حتى جلست مجددا قائلا

" هل أنتي جبانة هكذا دائما وتهربين من مواجهة نفسك ؟ "

سحبت ذراعها منه وكانت ستتحدث لكنها عضت شفتها وأمسكت

نفسها عن الحديث فلا تريد تكرار خطأها السابق ، لن تسمح

للأمور أن تسوء بينهما أكثر من ذلك ، قال بسخرية

" هل بلعت القطة كل ذاك اللسان ؟ "

نزلت بنظرها للأسفل وهزت رأسها بلا فأمسك ابتسامته

وقال " أريني أفعاله إذا "

مدت له يدها مقبوضة الأصابع وقد نقل نظرها لها مستغربا ففتحتهم

ببطء كاشفة عن الخاتم الفضي الذي يتوسط راحة يدها تنظر لملامحه

وردة فعله حتى رفع نظره لعينيها وفتح فمه ليتحدث لكن أصابعها

سبقت كلماته ومنعته وقد وضعتهم على شفتيه واتكأت بجبينها

عليهم تفصله عن تلك الشفتين ناظرة للأسفل وهمست بحزن

" لا تقسوا عليا بكلماتك مطر أرجوك "

ثم رفعت رأسها ونظرت لعينيه الناظرة لها بهدوء وشفتيه لازالت

في حصار أصابعها وخانها صوتها حين خرج ضعيفا متهدجا

وقد همست " لم أقصد أن أقلل من احترامك يا مطر قسما والله

يشهد ، ولم يربني والدي على ذلك أنا أخطأت وتلقيت منك

العقاب وكان قاسيا جدا "

لم يعلق ولم يحاول حتى تحريك شفتيه من تحت أصابعها فأبعدت

يدها ونظرها عليها حتى استقرت مع الأخرى في حجرها فمد

يده لهما وفتح التي تحوي خاتمه وضغط بسبابته عليه وهو في

راحة يدها ونظر لعينيها المحدقة به وقال وكأنه يريد تأكيد كلامه

بحركته تلك " اسمعيني جيدا يا غسق ، أنا لست رجلا خال من

العيوب لكني على ذلك تربيت لا أتلقى الأوامر من أحد لا أحد

يقلل من احترامه لي ولا يرفع صوته في وجهي طالما أني لم

أخطئ في حقه وحين أخطئ أعترف بخطئي وأعتذر عنه ، الحياة

بين المرأة والرجل لا تشبه كل ذلك أنا أعرف وأعترف لكن ثمة

حدود لكل واحد منهما ، لم أكن أريد لتلك المواجهات أن تحدث

بيننا كنت أريد أن نتفاهم كما اليوم لكنك لم تسألي لم تفكري حتى

أن تقولي لي وقتها (من هذه يا مطر التي قطعت الرحلة وأتيت

" من أجلها ؟) لأفهم فقط أنك لا تعرفين من تكون

أرخت نظرها وهمست برقة وحرج " ما كنت لأتخيل ذلك

" كانت مكالماتك مبهمة جميعها

ابتسم مراقبا ملامحها ورفع يديه حاضنا بهما وجهها وأرخى

جبينه على جبينها وهمس محركا إبهاماه على خديها " اعترفي

" أنك مخطئة يا أكبر عنيدة قابلتها ، لا شيء في ذلك

خرجت منها ضحكة مكتومة مختلطة بعبرة صغيرة وعيناها قد

امتلأت بالدموع وهي ترفعهما له هامسة " اعترفت أم أنك

" نسيت ؟

خرجت ضحكته هو هذه المرة وقبل خدها برقه ثم همس عند

" أذنها " ألبسيني خاتمي إذا

ابتسمت متجنبة النظر له غير مصدقة أن الأمر الذي عانت من

التفكير فيه والخوف منه طيلة تلك الأيام والليالي مر هكذا وهي

من توقعت حتى أن يطردها من الغرفة التي قررت أن تنام فيها كل

ليلة تنتظره حتى يأتي ، رفعت يدها الممسكة للخاتم بين أصابعها

الرقيقة ومسحت بظهر كفها عينيها أولا تمسح الدموع التي لازالت

سجينة بداخلها على نظراته مبتسما على تصرفها الطفولي ذاك

ثم مدت يدها ليده وأمسكتها ورغم ارتجافها الواضح أدخلت الخاتم

في بنصرها حتى نهايته وما أن استقر هناك دون جهد أو تعليق منه

حتى طوقت عنقه بذراعيها حاضنة له بقوة وأصابع يدها تتغلغل في

شعره الأسود الكثيف تدفن وجهها في عنقه وقالت بعبرة غلبتها

كم خشيت من هذه الليلة ، الآن فقط علمت من يكون ابن "

" شاهين الذي لا يعرفه الناس

طوقها بذراعيه وقبل شعرها وقال بهدوء " وأنا ما أن استرجعت

كل ما حدث علمت أن جزءا من اللوم يقع علي ، كنا نحتاج فقط

لبعض الوقت بعيدا عن بعضنا لنتصرف بحكمة لكن الله لم

" يشأ ذلك

ثم أمسك يديها المطوقة لعنقه وأبعدهما مبتعدة عنه وقبل كف

كل واحدة منهما على حده ونظر لعينيها قائلا بابتسامة مائلة

سأستحم وأخرج فهل أجدك هنا أم لن أجد إلا رائحة "

" عطرك ؟

هربت بنظرها من عينيه مبتسمة بحياء أشعل ذاك الوهج

" في وجنتيها وهمست " ستجدني

نظر مبتسما لملامحها التي تخفيها عنه منزلة رأسها للأسفل

رفع يديه وأمسك وجهها بنعومة تشبه ملمسه واتكأ برأسه على

رأسها في حركته المعتادة كلما هربت منه وهمس " وأجدك هنا

" فوق السرير وليس عند باب الغرفة وتفري ما أن أخرج ؟

خرجت منها ضحكة صغيرة تغلبت على حيائها وحرجها

وتوترها من ملمس يديه الدافئتين على بشرتها ورفعت

" نظرها له وهمست مبتسمة " بل هنا

كانت ابتسامتها مرتبكة مذهلة وخجولة وفاتنة بشكل قاتل جعلت يداه

تشتدان عليها وأصابعه تتغلغل في شعرها يرفع رأسها له لتقع أسيرة

تلك النظرة المتوهجة المسيطرة والمربكة فأغمضت عينيها برفق حين

قبلها قبلته الرقيقة المعتادة تلك ، القبلة التي لطالما كانت على قلبها أشد

من وقع كلماته الناعمة المغرية في مثل هذا الوضع والموقف وقد أسرها

بها من أول مرة عرفتها فيها معه ، أبعد شفتيه برفق سامحا للدماء بأن

تتدفق في شرايينها من جديد ولأنفاسه لتعود لصدره بقوة وأبعد يديه عن

وجهها وهي تهرب منه بالنظر للأسفل وشعرت بنعومة شفتيه مع خشونة

لحيته على خدها وقد قبلها برقة وغادر السرير في صمت ولم تسمع

سوا صوت باب الحمام يغلقه خلفه فوضعت يدها على قلبها وجرت نفسا

كبيرا وعضت طرف شفتها مبتسمة ثم غادرت السرير مسرعة ما أن

سمعت صوت المياه في الحمام وتوجهت للخزانة أخرجت ذاك التوب

الذي ألبسوها إياه يوم زواجهما ولازال معلقا هنا منذ ذاك الوقت

أخرجت القميص السفلي فيه ونزعت بيجامتها سريعا وعيناها على باب

الحمام تخشى خروجه في أي لحظة ولبسته بسرعة ورمت البيجامة في

الخزانة حتى تجد وقتا لإنزالها ، أغلقت الباب ونظرت لنفسها في المرآة

ورغم قصر الفستان المبالغ فيه اختارت أن تلبسه تحديدا كي يراها كأي

زوج غيره في الحالك ، انفتح باب الحمام فقفزت ملتفتة للخلف فلم تتوقع

خروجه سريعا ومن غبائها نسيت أنه ما من شيء يؤخره لا شعر طويل

ولا ..... شهقت بقوة حين أدركت أن ما يغطي جسده منشفة حول خصره

فقط فلم تشعر بنفسها إلا وخطواتها تتراجع بها للخلف حتى كانت عند

نافذة الغرفة تهرب بنظرها للأرض من هيئته ونظراته لجسدها وفستانها

القصير لازال واقفا عند باب الحمام وما أن تحرك من مكانه حتى غطت

وجهها بيديها وخرجت ضحكته الجهورية المبحوحة مالئة الغرفة وقال

متوجها جهة الخزانة " نسيت أن ادخل معي ثيابا ، سأعود للحمام

" فلا تقفزي من النافذة وتفقدي حياتك

ولم تستطع رفع يديها عن وجهها حتى تأكدت من دخوله له رغم

أنه لم يغلق الباب ، عدلت شعرها وخصلات غرتها خلف أذنيها

وأنفاسها المتوترة لحظة ما خرج بالبنطلون فقط وكان منشغلا

برمي المنشفة ، عضت طرف شفتها وأنزلت رأسها متمتمة

" بهمس " وما الذي ستره بهذا البنطلون القصير ؟ لقد خدعني

سمعت خطواته تقترب فرفعت يدها جهته صارخة

" لا مطر انتظر "

وقف مكانه ينظر لها مبتسما من خوفها وحيائها ، أمسك وسطه

" بيديه وقال " أنتظر ماذا ؟ ثم ألم نتفق أن أجدك فوق السرير

شعرت بذاك الدوار القوي وأحشائها تتقلب فالتصقت بالنافذة أكثر

" وأشارت بإصبعها لسرير قائلة " أجلس أنت هناك أولا

نظر لها نظرة تفهمها جيدا فقالت " لن أهرب منك مطر فافعل

" ما قلت

هز رأسه بلا مبتسما وتحرك نحوها فمدت كلتا يديها قائلة

" مطر توقف ثمة ما علينا التفاهم فيه أولا "

رفع رأسه ناظرا للسقف وعض شفته بقوة ثم نظر لها وقال

" نتفاهم في ماذا بالله عليك يا غسق ؟ توقفي عن اللعب

بأعصابي "

أشارت للسرير مجددا وقالت " اجلس هناك مطر أرجوك "

تنهد باستسلام وتوجه للسرير وجلس في جهته منه متكئ على

ظهره ناصبا إحدى ساقيه وقد أرخى ذراعه على ركبتها ومادا

الأخرى وقال ناظرا لها " تذكري فقط أني أنا من جلست

أنتظرك على السرير "

خرجت منها ضحكة صغيرة وتابع وقد اتكأ برأسه للخلف

" ها أنا أسمعك يا غسق ما الذي سنتفاهم عنه ؟ "

قالت دون مقدمات " أنجوانا "

قال بضيق " يا أنجوانا تلك التي تعرف كيف تتعس حياة البشر ؟

أخبرتك أن تخرجيها من رأسك فلا مكان لها في رأسي من أساسه "

اشتغلت نار الغيرة بداخلها مجددا ما أن خرجت حروف اسمها من

بين شفتيه وقالت بضيق مماثل " لكنها لم تخرج من رأسي أنا

واشرح لي الآن لماذا رفضتها منذ ثلاثة أعوام ووافقت هذه

المرة على الرقص معها "

تنفس بقوة وقال ببعض الحنق " لم أرقص معها يا غسق لا

تقلبي الحقائق "

لم تخفى عنه نظرتها المليئة بالأسى وعبوس ملامحها الفاتنة من تأثير

جوابه فتنهد وقال " منذ ثلاثة أعوام وفي زواج الابن الأوسط لزعيمهم

وفي ذات الموقف كان ردي عليها وبوضوح أني لا أراقص امرأة لا

تحل لي وتلك العبارة كانت سببا في ضحك النساء وصياح الرجال وقد

جرت الدموع على خديها من إهانتي لها وغادرت غاضبة وتسببت

بإشعال حريق بسبب إحدى الشموع عند المنصة وأصيبت ساقا العروس

بحروق وانقلبت تلك الليلة من زواج لمأساة وقالت أن ذلك حدث بالخطأ

لكنها كذبت فيه ولم أرد للأمر أن يتكرر الآن وأن تؤذيك أنتي هذه المرة

بدلا عن عروسهم وعن حفل الزواج ، ولم تكن رقصة تلك وأنتي

" تعرفين ذلك جيدا

أنهى حديثه وشرحه لما حدث لكن شيئا من ملامحها لم يلين ولا

عبوسها ذاك فابتسم لملامحها الآسرة حتى في أوج حزنها وضيقها

وفي غيرتها تلك التي لم تخمد ، مد يده لها وقال مبتسما " تعالي هيا

" وسأثبت لك من التي تعنيني حقا

قالت متجاهلة كل ما قال " ما الذي قالته لك قبل أن توقف

" رقصتها السخيفة تلك

جاهد نفسه ليصبر فعليه توضيح ما تريد كي لا يكون عقبة بينهما

مستقبلا واعترف بأنها أصابت في أن اختارت أن تستوضح عما

يقلقها قبل أن يجمعهما سرير واحد ، قال بهدوء " قالت زوجتك

" تبدوا مستاءة مني ، هذا فقط ما قالته

ضحكة صغيرة ساخرة ما خرج منها وقتها عبرت فيها عن

" ! مرارتها وقالت " وتهتم حقا إن كنت تضايقت منها

" فتح فمه ليتحدث فسبقه قائلة " وما كان جوابك أنت ؟

حرك رأسه مبتسما وقال " يا فضولية أنتي ! أيجب أن تعلمي

" الحوار كله ؟

" قالت بضيق " بلى ولن أتخيل بأنك ستكذب عليا يا مطر

غادر السرير ودار حوله متوجها نحوها حتى وقف أمامها تماما

وأمسك وجهها بيديه ينظر لعينيها اللامعة بسبب حبس دموعها

ولنظرة القهر فيهما وقال بصوت ناعم فخم " أخبرتها أن

" زوجتي لن تتضايق من امرأة أقل منها في كل شيء

راقب اللين التدريجي في ملامحها المشدودة وتابع " وأخبرتها أنه

إن تكرر ما حدث في زواج ساجي فلن يرحمها أحد من عقابي هذه

" المرة ، فقط لأكون صادقا معك كضنك بي فلم انقص حرفا واحدا

أرخت نظرها ورفعت يديها وحضنت بأصابعهما عنقه نزولا

" لصدره وهمست " لا تفعلها مجددا يا مطر

شعرت بذبذبات تلك الضحكة المبحوحة في ضلوع صدره تحت ملمس

يديها وقد طوق خصرها بذراعيه وشدها له ومال لأذنها هامسا

وهل ثمة مجنون يعيد ذكرى جحيم تلك الليلة ! لكني أردت "

" حقا أن أراك مجددا بفستانهم ذاك

عضت طرف شفتها وطوقت عنقه بذراعيها ناظرة لعينيه وقبلت

شفتيه قبلة صغيرة وهمست " لا مانع لدي لكن ليس في خيمتهم

" تلك طبعا

ضحك ورفعها من خصرها بذارعيه المطوقة له وتبادلا قبلة عميقة

طويلة لم تنتهي إلا برميه لها على السرير ضاحكة تبعد شعرها

عن وجهها

*

*

" أصمت "

صرخ فيه بعنف مسكتا له ولم يتركه حتى ينهي حديثه فقال

" ذاك بهدوء حذر " أبي أسمعني للنهاية أولا

صرخ شراع بغضب أعنف " ما الذي تريد أن أسمعه للنهاية يا

" ! ابن شراع ؟ ماذا تريد مني ؟ أن أصفق لك مشجعا

كان سيتحدث لولا سبقه والده قائلا بذات غضبه " تتزوج في السر

يا كاسر ! ومن نساء الحالك ! أنتم من يفترض بكم أن تعالجوا

قضايا ذاك الزواج الفوضوي أبناء شراع صنوان ! وأنا من كنت

أرسلك للحدود مطمئن البال أن الأمور هناك تحت أعينكم

" وأنت ترتع وتنام في أحضان النساء

صاح الكاسر باعتراض مستنكرا " لم تربيني على التسكع مع النساء

لقد تزوجت كما شرّع الله وأحل ووليها من زوجني إياها برضاه

" أنا لم أرتكب جرما ، الزواج لم يكن يوما جريمة إلا عندنا

صفق شراع يديه ببعض هازا رأسه بعدم تصديق وقال بسخرية

تنطق مرارة " تعالوا واسمعوا ما يقول ! إن كنت لم تجرم

" فلما كان الأمر سرا يا حبيب والدك ؟

قال بمرارة أشد " لأنه لا سلطة لدي كمطر شاهين أتزوج من خارج

" قطري في العلن وأضرب أراء الناس عرض الحائط

علا صوت شراع مجددا " ذاك ابن عمها يا أحمق ويعلم عنها فلا

" تقارن نفسك به ، أخبرني متى منعتك من الزواج لتتزوج هكذا

قال من فوره " ما كنت لتسمح بأن أتزوج من أريد ، لقد رضيت

بحرماني منها لا أراها إلا أيام وجودي عند الحدود ، لو كنت

" أعلم بما سيفعله ابن شاهين ما تركتها عادت لحدودهم

انفتح باب المكتب ودخلت منه عمته وأغلقت الباب خلفها فورا

" وقالت بملامح شاحبة مذعورة " ما بكما لما كل هذا الصراخ ؟

قال شراع مشيرا بيده للواقف بجانبها " تعالي لتسمعي الترهات التي

يلقيها ابن شقيقك ، تزوج سرا من امرأة من الحالك ويريد جلبها

" هنا ، وبكل جرأة يريد أن أطلب ذلك من ابن شاهين

نظرت له بصدمة فاغرة فاها لم تستطع الكلام ولا إغلاقه وصاح

" الكاسر " زوجتي لن أنكرها وأريدها هنا وإن جلبتها بنفسي

أشار شراع لباب المكتب بإصبعه صارخا بعنف " أخرج من هنا

الآن ويوم تضع عقلا في هذا الرأس الفارغ تأتي هنا لنتفاهم مع

ابن شاهين لتوثق طلاقك لها ولا تحلم بجلبها لصنوان ، لسنا

" في باب كل هذه المشاكل الآن

نفض ذاك سترته وخرج يردد غاضبا " لن أطلقها ولو قتلتموني

" قسما وأنا ابنك الذي ربيت بنفسك

وغاب خلف الباب وتهاوى ذاك الجسد الصامد على الكرسي خلفه

" ! وتحدثت الواقفة هناك قائلة بصدمة " حقيقة هذه أم أتخيل

صرخ شراع بغضب ضاربا الطاولة تحته براحة يده بقوة " حقيقة يا

جويرية حقيقة قتلني بها وكأنه ينقصني هموم ، يتزوجها ويدخلها

لصنوان كلما كان عند الحدود وحتى عقد زواجه منها موثق في

الحالك بورقة بالية وجاء الآن بكل جرأة يريد جلبها هنا

" متناسيا ما سيلقى وألقى معه

قالت من فورها وبوجه شاحب " هل لديهما ابن أو

" حاملا منه ؟

دفن رأسه في يديه وقال بضياع " لا أعلم ولا تقوليها يا جويرية

" حلفتك بالله لن نضيع نسب ومستقبل طفل هناك

وغابا في صمت قاتل غيم أفكارهما بسواد قاتم أخرجهما منه

" صوتها قائلة بضياع " والحل الآن يا شراع ؟

كان سؤالها أقسى على قلبه من الواقع ذاته فقال بصوت أجوف

لا حل سوى أن يطلقها بعقد مسجل هذا إن رضي ابن شاهين "

توثيقه أو استمع لنا من أساسه ، عليه أن لا يضيع مستقبل تلك

المرأة ... هو هنا وهي تفني عمرها هناك لا تجد حتى من

" يتزوجها أو يعترف بزواجها منه

هزت رأسها بأسى وقالت بتعاسة " لن يرضى ، لا أراه يوافق

" ذلك من أساسه

وقف حينها رعد أمام باب المكتب وصاح بوجه مذعور مصدوم

اتصل بي أحد جنودنا عند حدود الحالك وقال أن جبران ورماح "

رفعا السلاح في وجهي بعضهما بعد خصومة كبيرة بينهما هناك

" وجبران ينوي دخول الحدود وقد فر منه ورماح لحق به

شهقت عمته بقوة ووقف شراع على طوله ودار حول المكتب قبل

أن يتهاوى ممسكا بطاولته وركضا كليهما جهته صارخان

*****

*****

مرر أصابعه في شعره حتى لامست الوسادة تحت رأسه وعاد

عقله لاستجلاب صور ما حدث منذ ساعات فابتسم ونظر جانبا

ثم سرعان ما غضن جبينه باستغراب للحظة وخيل له أنها ليست

هناك قبل أن ترجع تلك لابتسامة لترتسم على شفتيه وتحولت

لابتسامة ماكرة وهو يمد يده وجسده مدخلا لها تحت الملاءة

حتى شعر بملمس بشرتها الناعمة فابتعدت عن يده سريعا

" لطرف السرير وخرج صوتها فقط " لا تقترب مني

أمسك ضحكته وقال " اخرجي من تحت الوسائد ولا

" تسقطي من السرير فتنكسر عظامك

" خرج صوتها مجددا قائلة بضيق " لا أريد وابتعد عني

جلس وبدأ بسحب الوسائد عن رأسها ورميها قائلا بابتسامة

" من هذه التي لا تريد ؟ لتريني وجهها لأرى "

تمسكت بآخر وسادة متبقية بذراعيها بقوة مخفية وجهها فيها

لا يظهر منها سوا ذراعيها وكتفيها العاريان وشعرها المتناثر

بسبب إبعاده للوسائد ، حاول سحبها منها قائلا بضحكة

" أفهميني فقط ما بك ؟ "

تمسكت بها أكثر قائلة " لم يخبرني أحد أن الأمر هكذا

لن تلمسني مجددا أبدا "

خرجت ضحكته مرتفعة وأمسك ذراعها وقال ساحبا لها جهته

" من هذا الذي أخبرك وماذا قال لك ؟ "

صرخت تحاول الابتعاد عنه فتركها وغادر السرير ضاحكا ودخل

الحمام فرمت الوسادة وقفزت مغادرة السرير لبست ملابسها سريعا

وغادرت الغرفة هاربة من مواجهته الآن على الأقل ، نزلت السلالم

ونظرت للجالسة على الأريكة وقد رفعت نظرها لها مبتسمة وقالت

" لا تقولي أنه مصاب هذه المرة أيضا ؟ "

ابتسمت لها وركضت جهتها وجلست بجانبها وحضنتها بقوة

رأسها يتكئ على كتفها فضمتها تلك بذراعها وقالت بسعادة

" هل نقول مبروك هذه المرة "

" خبئت وجهها في كتف عمتها هامسة بحياء " نعم

فضمتها بذراعيها وقالت بسعادة " مبارك لكما بنيتي

" لقد أطلتماها كثيرا

ثم تابعت بضحكة " ثلاث أشهر لتجمعكما غرفة واحدة

" فكم ستحتاجان لتنجبا لنا طفلا ؟

ضحكتا معا وهمست تلك ولازالت تختبئ في حضنها

" ما كانت لتكون من ثلاث أشهر كما الآن عمتي "

هزت تلك رأسها بنعم ماسحة على شعرها بحنان فهي تعلم ظروف

زواجهما وكيف كان وكيف كانت ستكون تلك الليلة على قلب هذه

الصغيرة لو أنها لم تؤجل حتى الآن ، ابتعدت عنها ما أن وصلهما

صوت النازل من السلالم يتحدث في هاتفه ويبدوا أحدهم يستعجله

نظرت لها عمتها وقالت بضحكة " عليك أن تعتادي أمرا وهو

أن الباب والسلالم خط عبور واحد لديه لا تريه إلا مارا منهما

ولا يرى أحدا في طريقه "

عضت طرف شفتها مبتسمة ومحركة كتفها برقة ونظرت له

ينزل آخر السلالم والهاتف على أذنه ناظرا جهة الباب ونادت

" مطر "

فوقف مكانه والتفت جهتهما ناظرا لها فابتسمت له تردد في

قلبها دعاءا صامتا أن لا يخذلها وتنهدت براحة حين غير مسار

خطواته جهتهما رغم أنه لا يزال يتحدث في هاتفه حتى وصل

عندهما ومد يده لها فأمسكت يده ووقفت لسحبه لها وسارا جهة

الباب لافا ذراعه حول كتفيها قائلا لمن في الطرف الآخر

" سأتصل بك بعد قليل يا عكرمة "

على النظرات الحنونة للمبتسمة الجالسة خلفهما تراقبهما في

حديثهما الهامس مبتسمان حتى وصلا الباب وتمتمت بسعادة

" لا فرق الله بينكما ولا أبكى عيني على أحدكما "

*

*

ما أن انفتح الباب حتى توجهت نحوه وأمسكت بيد الذي دخل منه

قائلة بقلق " كيف تتركني كل هذه الساعات أتأكل يا رعد ؟

" ماذا حدث معك وكيف هوا الآن ؟

هز رأسه قائلا بحزن " لم يفق عمتي لم يفق حتى الآن والطبيب لم

يطمئني بشيء وضغطه لم ينخفض حتى الساعة ، لو كنت أعلم

" أن ذلك سيحدث ما أخبرته حتى ذهبت لهما بنفسي أولا

مسحت دمعتها بطرف كفها وقالت بأسى " قدر الله وما شاء فعل

فوالدك صحته أصبحت تسوء منذ فقد غسق وحديث الكاسر اليوم

زاده على ما به ، لازال سنه صغيرا على الانهيار هكذا

" لكن جسده ما عاد يتحمل الصدمات

كان سيتحرك من مكانه فأمسكت يده أكثر قائلة

" وماذا عن إخوتك ؟ "

مرر أصابعه في شعره الغزير وقال بحنق " لا شيء عن ثلاثتهم

عمتي عليا البحث عنهم وعليا البقاء بجانب والدي وأن أخرج للمجلس

الذي يعج برجال القبيلة وجاءوا للاطمئنان عليه ولم أعد أعرف

" كم سأقسم نفسي بينهم وما سأفعل

قالت بحنان ماسحة بيدها على ذراعه " أخرج لهم أولا وأخبرهم أن

يطمئنوا وأنه بحال جيدة ، لا نريد أن نجزع الناس فلا تنس أنه زعيم

قبائلنا جميعها وأن الأوضاع متأججة بلا أسباب ، ثم اذهب للبحث عن

أخوتك ووالدك سيقف عماك بجانبه وهم من الحكمة أن يعرفوا جيدا

" طريقة التصرف في مثل هذه الأمور

هز رأسه بحسنا وغادر من عندها فقد رأى رأيها عين الصواب

وعليه البحث عن الكاسر على الأقل ليجدا أخويهما وما فعلا ببعض

ولا أحد يعلم عنهما منذ اختفيا عند خط الحدود وأخبر آخر من

رآهما هناك بعد مغادرتهما المقر

*

*

رفعت يداها الصغيرتان وذراعيها المكشوفتان عاليا ودارت حول

نفسها ببطء ثم فردتها جانبا تدور وتغني دون توقف وشعرها البني

تتلاعب به الريح تغمض عينيها تارة وتفتحهما تارة أخرى وتنظر

تارة للجالس هناك مستندا بظهره على جدار غرفته ووالدته ناصبا

إحدى ساقيه ومادا الأخرى على الأرض حيث يجلس وسترتها

الصوفية الصغيرة مثلها مرمية بجانبه يراقب رقصتها الغنائية منذ

وقت وكل قليل تخبره أنها ستنتهي قريبا ولا بوادر لذلك كما يرى

غاب بتفكيره بعيدا لحديث عمير عن حبيبته وعبست ملامحه فجأة

(هل يستمتع حقا بثرثها إن كانت كماريه !! ما الممتع في كل هذا ؟)

هو لا ينكر أنه لو كانت غيرها ما تحمل حديثها ولا لخمس دقائق

وما كان ليتحدث معها ولا يلعب معها أيضا ولن ينكر أنه لا يحب

رؤيتها تبكي أو حزينة وإن لم يظهر لها ذلك لكنه لا يفهم لما

يسمي ذاك الشاب هذا بأنه حبا !! مالت بجسدها ناحيته ويديها

" جانبا ناظرة له وقالت مبتسمة " انتهت الرقصة

فصفق لها مبتسما وقفز واقفا وقال " في المرة القادمة اجعليها

" أقصر ستكون أجمل حينها

" قالت بسعاة وبراءة " حقا هي جميلة

" رفع سترتها الصوفية وقال وهوا يلبسها إياها " نعم

أخرج لها شعرها من تحتها بعدما أنهى إلباسها إياها على صوتها

" الرقيق قائلة بابتسامة " عمتي قالت بأنها ستعجبك

كان سيتحدث لولا أوقفه صوت السعال المخيف لوالدته ومناداتها له

بصوت منقطع فقفز راكضا جهة باب غرفتهم ودخل ليفاجأ بالدماء

التي تغطي منديلها وقد وصلت لملاءة السرير فركض نحوها بخوف

" !! وعيناه نزلت دموعها دون وعي منه قائلا " أمي ما بك ؟ أمي

كان يحاول رفع جسدها المنحني ودون جدوى فخرج له صوتها

" ضعيفا " الطبيب يا تيم بسرعة

فخرج راكضا وصرخ مارا بالواقفة عند الباب تبكي " أخبري

" زوجة عمك يا ماريه ولا تتركوا والدتي حتى أرجع

*

*

دفعت كوب الشاي جهتها على الطاولة حيث تجلسن تحت أشجار

الحديقة ونظرت حبيبة التي جلست بطلب من غسق طبعا لنصيرة

وقال مبتسمة " ثمة من خرج زوجها صباحا ولم يرجع حتى

" الآن وقت المغرب ! ألست معي في أنه فر منها

نظرت لها غسق بضيق بينما ضحكت نصيرة قائلة " بل لن يغادر

حوران طوال هذا الأسبوع ولأول مرة يقرر قرارا كهذا فمن

" أجل من برأيك ؟ أنتي أم أنا ؟

" ضحكت حبيبة وقالت " قد يكون من أجل السيدة جوزاء أو عمه

تجاهلتها ناظرة جانبا تبعد خصلات غرتها المتطايرة على عينيها

فضحكت حبيبة وقالت " أنتي أجمل وأنتي غاضبة ، فهمت

" الآن لماذا يغضبك دائما

" نظرت لعمتها بضيق وقالت بصوت رقيق " عمتي قولي شيئا

" قالت تلك ضاحكة " قلت لكنها غلبتي

سمعوا حينها صوت بوابة المنزل الواسعة تفتح وسيارة يعرفونها

جيدا تدخل فقالت نصيرة ضاحكة " ها قد جاء من سينقذك منها

" ويقطع لسانها أيضا

وقفت حبيبة من فورها وقالت مغادرة بسرعة " وكأني

" سمعت عزيزة تناديني

وغادرت على صوت ضحكهما فجمعت نصيرة أكواب الشاي في

" الصينية قائلة " لو أنها أخذتها معها وهي تهرب

وضحكتا مجددا على صوت تلك الخطوات الثقيلة مقتربة من مكانهما

حتى ظهر صاحبها مبعدا أوراق الشجرة بيده عن طريق وجهه

" ووصل عندهما قائلا " مساء الخير

أجابتا معا ثم انشغل بسؤال عمته عن حالها وعن كلام عمه عما قال

الطبيب مسندا يده على الطاولة الرخامية منحن قليلا جهتها وهي تجيبه

بينما نظر الجالسة تحته كان معلقا به في الأعلى تتكئ بجانب رأسها

على كفها مسندة مرفها بالطاولة منسجمة تماما مع يقول لها تستغرب

خلفيته الكبيرة عن مرض عمته وحالتها وعن رأيه في تشخيص ذاك

الطبيب ومدى كفاءته ونظرها يتنقل من حركة شفتيه وهوا يتحدث

لعينيه المركزة على وجه عمته نزولا للحيته وفكيه القويان اللذات

يعطيان لصوته الحازم الواثق قوة أكثر ، ارتجف جسدها حين مد

يده ليدها الأخرى على الطاولة والتفت أصابعه عليها بقوة ممسكا

لها رغم أن نظره وسمعه وتركيزه مع عمته وقد سحبها منها

موقفا لها قائلا ولازال ناظرا لتلك " ثمة طبيب أعصاب

" جديد سيدخل الحالك قريبا وسنآخذك له

هزت رأسها بحسنا مبتسمة وقالت " كما تريد رغم أنك

" تتعب نفسك فقط وأنا رضيت بوضعي بني

" لف ذراعه حول كتفي الواقفة بجانبه وقال " لا بأس أن نجرب

" نظرت غسق لها قائلة " هل أساعدك في الدخول عمتي ؟

" قالت تلك مبتسمة " لا حاجة لذلك سأنتظر جوزاء وسندخل معا

فتحرك بها حينها سائران جهة المنزل وقد همس مبتسما ونظره

هناك حيث وجهتهما " أعتقد يفترض بالزوجة أن تقف مستقبلة

زوجها تسأله إن كان يريد شيئا مثلما لا تغادر غرفتهما صباحا

" وهو في الحمام ويخرج فلا يجد إلا ثيابها

رفعت نظرها له ضاحكة وهمست مثله " سيكون ذاك سيئا أمام

عمتك وهي تتنقل بالكرسي ولا أعتقد أن ذلك يفوتك ولم تقل هذا

" إلا لتضعني في موضع اتهام

ضحك رافعا رأسه للأعلى ثم نظر لها وقال وهما يجتازان باب

" المنزل " هذه ووجدت لها مخرجا الأولى ما عذرك فيها ؟

صعدا السلالم المحاذي للباب وقد هربت بنظرها من عينيه ناظرة

لخطواتهما ووكزته بمرفقها في خصره قائلة " تلك تعرف

سببها جيدا "

فضحك دون أن يعلق حتى دخلا الغرفة وأغلق الباب دافعا له بيده من

خلف ظهره ثم لفها جهته حتى كانت مقابلة له وأمسك يديها ورفعهما

ولفهما حول عنقه وقال ناظرا لعينيها " أخبريني الآن من هذا الذي

قال لك وماذا قال جعلك تفرين هكذا مني صباحا "

أرخت نظرها وطوقت عنقه بذراعيها مقتربة منه حتى لامس أنفها

طرف خده تشعر بأنفاسه الهادئة تلفح نعومة شفتيها وقالت بضحكة

" المصيبة أنه لم يخبرني أحد شيئا "

ضحك بخفوت وطوقها بذراعيه موزعا قبلاته على شفتيها وقد بادلته

القبلات بشغف تزيد من تطويقها لعنقه وأصابعها تغلغل في شعره تسبح

في تلك المشاعر التي لم تعرفها وتختبرها إلا معه وقد رفعها وسار بها

جهة السرير ورماها عليه فصرخت بضحكة مبعدة شعرها عن وجهها

وقالت مبتسمة وناظرة له فوقها " لما لا تتخلى عن الخشونة وتتعلم

" أن تنزل المرأة على السرير برفق ورومانسية ؟

قال بضحكة وهو ينزع سترته " لا تقولي هذه الكلمة أمامي

مجددا كي لا أتقيء "

وما كان سيرمي تلك السترة على الكرسي حتى رن هاتفه فيها

فأخرجه وأجاب عليه بما أن جميع رجاله يعلمون أنه لن يغادر

ويمكنهم استشارته وسؤاله عن أي شيء ، بينما تساندت النائمة

على السرير بمرفقيها رافعة جسدها قليلا ونظرها معلق به

وبوجهه الذي توجم بشكل مقلق بل مخيف وهو يستمع لمن في

الطرف الآخر ثم ضرب جبينه بيده ومرر أصابعه في شعره

ورفع رأسه للأعلى هامسا " لا حول ولا قوة إلا بالله لا

تقلها يا رجل "

نظرت له بريبة تسوي جلستها مبعدة شعرها للخلف ونظرها

لازال معلقا به ولازال رافعا رأسه للأعلى وأصابعه في شعره

يسترجع بالله بهمس ثم قال بحزم متجها للباب دون أن ينظر

ناحيتها " قادم لا تفعلوا شيئا حتى آتي وصلوني بصنوان فورا "

فقفزت خارج السرير راكضة خلفه وقلبها يكاد يقفز من مكانه

" وهي تسمع همسه قائلا وهو يفتح الباب " ما أعظمها من مصيبة

لتوقف خطواته يدها التي أمسكت بذراعه ولفته ناحيتها وقالت

بعينان تلمعان بسبب الدموع وشفاه مرتجفة " ما الذي حدث في

" صنوان يا مطر ؟ ما هذه التي قلت أنها مصيبة ومن مات ؟

أمسك وجهها بيده وقبل شفتيها برقة هامسا ونظره على عينيها

لا شيء مهم لهذا الحد ، تعلّمي أن لا تفهمي من المكالمات "

" ما يخبرك به عقلك فقط

ثم غادر وتركها ونزل السلالم مسرعا متجاهلا ندائها له والدموع

التي ودعته بها ولا يراها ثم ركضت للمذياع ولأول مرة تفعلها هنا

وبحثت في جميع تردداته وقنواته ولم تجد شيئا ، وأمضت ساعات

ذاك الليل بحال لا يعلمه إلا الله تنتظر الذي لم يرجع ولم يرحمها

. بقول شيء وحتى عمه اختفى ولا أحد يعلم أين ذهب

قفزت جالسة على السرير الذي غلبها النعاس عليه من كثرة انتظارها

وانصهار قلبها وتعلقت عيناها بالذي دخل من باب الغرفة بعد كل تلك

الساعات التي غابها ولا تعلم أين ! لا تعلم سوى أن مكروها عظيما

حدث في صنوان ولم يخبرها عنه ، تعلق نظرها بعينيه ونظرته التي

لم تعرفها فيهما سابقا وهو يقترب منها حتى جلس أمامها على السرير

وقد عجز لسانها عن الحركة وإخراج الحروف مهما حاولت ولا شيء

سوى تلك الدمعة المعلقة في رموشها ونظرها يتبع عينيه التي أخفاها

عنها بإسداله لجفنيه ومد يده لكفها ورفع مقبلا باطنه برفق قبلة طويلة

ثم رفع نظره لعينيها وقال ماسحا بكفه على شعرها " ما يبقيك

مستيقظة لهذا الوقت ؟ "

قالت وقد سقطت تلك الدمعة متدحرجة على وجنتها المتوهجة بشدة

" ماذا حدث يا مطر وتخفيه عينيك ؟ "

مسح دمعتها بإبهامه قائلا بحزم " غسق هل كنت تعذبين نفسك

هكذا منذ غادرت ؟ أنتي امرأة قوية كما أعرفك ومؤمنة "

علا صدرها ونزل بقوة وامتلأت عينيها بالدموع فورا وقد فهمت معنى

كلماته وإن رفض عقلها التصديق وعاد لسانها للتحجر وكأنها تحاول

الهرب من الواقع المحتوم ، تتابعت تلك الدموع في نزولها متلألئة في

الظلام فأمسك وجهها بيديه وقال مذكرا لها مجددا من قبل أن يجيب

" سؤالها " غسق أنتي امرأة مؤمنة لا تعترضي على قضاء الله

أمسكت ياقة قميصه بقبضتيها بقوة وقالت بعبرة وعيناها الدامعة

معلقة بعينيه " من يا مطر ؟ من فقدت من عائلتي دون أن

" أراه لآخر مرة وأستسمح منه

المخرج ~

بقلم الغالية : نداء الحق

مطر

ظبية هي قد هزت اركان ثباتي
تحاورني بكل هدوء
وتناورني بكل دهاء
تهاجم وتبارز بالكلام
وتدك حصوني بدلالها وحسن ذلك
البهاء

الذي لايليق الا بها دون غيرها من النساء
عيونها غابات من السيوف
وشعرها جدائل من حرير
ونظراتها لهيب نار كانها الشمس
في أصيل تموز
فياحروف الكلام توقفي وانظمي لها
عقدا من جميل الصفات
ماذا يضر لو اننا التقينا في زمن
السلام
ماذا يضر لو اننا كنا قد اصطدمنا صدفة
تحت المطر
فسلام لك ولعينيك السلام
ولك من شيخ الشيوخ فصل الخطاب والكلام
انت جائزتي ومنتهى صبر السنين
فلن اعدم وسيلة كي تمنحيني ماريد
بكل محبة ورضا

نهاية الفصل موعدنا القادم مساء الجمعة إن شاء الله

*****

الفصل الخامس والعشرون

المدخل ~

بقلم الغالية : سما23

:اعتراف مطر
.. يا ابنة عمي .. أنت همي
عندما أُصبْت .. عندما فكرت أنه دنا أجلي .. فكرتُ بك .. لا بل أنت دائماً في عقلي .. بل في قلبي..
متى فقط تتنازلين عن عنادك وتعترفي بأنني في قلبك .. وتتنازلي عن مهرك لتنامي في حضني .. يا ابنة عمي .. اعترف لك .. عنادك يستهويني .. ذكاؤك .. يبهرني .. قربك يغريني
ملكتِ قلبي ... أنت حبي

:اعتراف غسق
كنتَ صوتاً عبر المذياع
كنتَ حديثاً في كل اجتماع
كان ذكرك يعني الحروب
كان اسمك يرعب القلوب
صرت لي أقرب إنسان
صار قربك يعني لي الأمان
اعترف لك .. لمساتك تضعفني .. نظراتك تفتنني .. قبلاتك تسقيني
ملكتَ قلبي ... صرتَ حبي

أمسكت ياقة قميصه بقبضتيها بقوة وقالت بعبرة وعيناها الدامعة

معلقة بعينيه " من يا مطر ؟ من فقدت من عائلتي دون أن

أراه لآخر مرة وأستسمح منه "

انزلقت يداه من وجهها وأنزل نظره ورأسه للأسفل هربا لا يعلم من

عينيها أم من دموعها ، كم كره هذه المواقف كم تجلد وأجبر نفسه

على الصمود من أجل من ينقلها لهم ولا يعلم لماذا يضعه قدره في

مثلها دائما ، نظر ليديها وأصابعها البيضاء الرقيقة حين هزته

من ياقته ووصله صوتها الأشبه بأنين ضبيه جريحة

" من يا مطر من ؟ "

أغمض عينيه ببطء وألم وهمس " كاسر "

فلم يسمع سوى صرختها وفتح عينيه ليجد أن يداها اختفت من أمامه

فنظر لها بسرعة وكانت منحنية للأسفل رأسها بين فخذيها تمسكه

بيديها وفي صرخة واحدة فأمسك بذراعها رافعا لها وقال بحزم

" غسق هذا قضاء الله لا تسمحي للشيطان أن يستغل صدمتك "

لكنها لم تكن تسمعه لم تكن تسمع شيئا ولا تشعر بشيء سوى بتمزق

قلبها لشطرين وبذاك الصوت القوي في رأسها وهو يكرر جملة

واحدة (مات الكاسر مات شقيقك الوحيد ولن تريه مجددا)

حاول رفع رأسها حاول أن يتحدث وتسمعه لكنها كانت في حالة لا

وعي ولا شيء سوى صراخها المرتفع والدموع التي ترسلها عينيها

متلاحقة وبغزارة ، شدها من ذراعها جهته أكثر ودفنها في حضنه

يكتم صرخاتها فيه يسمع بوضوح الركض على السلالم والأصوات

المتداخلة في الخارج ، دفن وجهها في صدره أكثر يقبل رأسها

ويضمها له بقوة ولا شيء آخر يمكنه فعله لها فلطالما كره اللحظات

التي يعجز فيها عن مساعدة من يحتاجه لكن الموت لا يمسكه أحد

وواقع لا يغيره أحد مهما كان وفعل ، ابتعدت عن حضنه وأمسكت

قميصه مجددا بقبضتيها بقوة وقالت بعبرة ناظرة لعينيه " قل أنه

" كذب يا مطر قل أنها ليست حقيقة

" أمسك وجهها بيديه وقال " استرجعي بالله يا غسق واستخلفي به

لكمت صدره بقبضتها بقوة صارخة ببكاء موجع " ماذا

" سيخلفني عن شقيقي ماذا ؟

وانزلقت من بين يديه خارجة من السرير فوقف قافزا خلفها وأمسكها

" بقوة صارخا " غسق توقفي عن الجنون

عادت لضربه في أي مكان وصلته يديها صارخة فيه من بين بكائها

أتركني أذهب له ، أنت السبب أنت من حرمتني منهم من رؤيته "

" لآخر مرة في حياتي .... أنت يا ظالم يا متجبر

هزها بقوة من ذراعيها صارخا فيها بعنف " غسق يكفي واذكري

" الله ، ما حرمتك منهم إلا كي لا نحرم جميعنا منك

لكن عباراته تلك لم تجدي شيئا ، كانت تتسرب لأي مكان وتصله إلا

أذنيها وعقلها فلا أقسى من أن تدرك أن شخصا تحبه كنفسك غاب

ولن يعود .. لن تجمعك به الحياة مهما امتدت .. لن تراه ولن تسمع

صوته والأقسى لن تطلب منه أن يسامحك حتى إن لم تخطئ

في حقه فكيف إن رأيت نفسك مخطئ

*

*

*

حضن ساقيه يدفن وجهه فيهما أكثر لا يشعر بالظلام حوله لا يشعر

ببرد الليل الخريفي وهو جالس مكانه خلف سور المنزل من الخارج

منذ ساعات طويلة ... لا يشعر بأي شيء سوى ألم قلبه الصغير من

حين عاد للمنزل واكتشف أنها لم تكن تحتاج طبيبا ، نسي لحطتها أنها

لم تطلبه من قبل مهما اشتدت حالتها سوءا ، هي أرادت فقط أن تبعده

عنها أن لا يراها تموت ويراهم يحملونها ويخرجون بها ويأخذوها

حيث لن ترجع أبدا ، فبينما وصل المقر وأحضر الطبيب الذي

استجاب لطلبه فورا وقطع المسافة رجوعا ووصل كان كل شيء

انتهى كانت قد اختفت وهو من حرمته من البقاء بجانبها وهي

تفارق الحياة ، حتى ماريه الطفلة كانت بجانبها ولم تختر غيره

ليكون بعيدا عنها ، كانت متيقنة من أن تلك الصورة قد تمحى من

أذهان الجميع إلا هو ، سيتجاوز جميعهم الحزن والصدمة إلا ذاك

فلذة كبدها من فعل الكثير من أجلها وما لم يكن يفعله ... سرق

وكد وتعب وتحمل أقربائها فاختارت أن تعفيه من أكبر مهمة

كانت تنتظره ولا يتمناها ويهرب حتى من التفكير فيها .. أن

. يراها تموت تذهب وتتركه وحيدا

شد ذراعيه على ركبتيه أكثر وهو يتذكر كلماتها بالأمس وهي

تشد من قبضتيها على يده وكأنها تعلم أنها لن تراه مجددا (لا

تحقد عليهم يا تيم إن كان يعنيك رضائي عنك فلا تحقد عليهم

ولا تنتقم منهم يوما ، لا تتحول لنسخة أخرى عنهم)

كان يستغرب حديثها ذاك فهي لأول مرة توصيه ! ويستغرب

أكثر أن قالت ما قالت في وجود ماريه وبطلب منها وهي تمسك

يدها مع يده وتنظر لعينيه قائلة (ماريه أمانتك يا تيم مهما قست

الحياة عليك مهما أبعدتك لا تتخلى عنها لا تتركها لظلمهم لا

(تخذلني ووالديها فيك يوم ألقاك عند الله بني

" ماريه غادري "

صوت الخطوات البعيدة الخافتة كان ما أخرجه من صمته الذي

دام لساعات طويلة ولم يرفع رأسه أو يتحرك من مكانه وما أن عاد

صوت خطواتها الصغيرة للاقتراب حتى رفع رأسه ونظر جهة

خيالها الذي تراء له من بعيد رغم الظلام فصرخ بها بعنف

" عودي للمنزل حالا ماريه "

خرجت كلماتها الصغيرة مختلطة بعبرتها " ادخل أنت

" أيضا تيم

صرخ مجددا وبمرارة " لا مكان لي في ذاك المنزل فعودي

" للداخل قبل أن يفتقدوك وتعاقبي

كان يرى بوضوح هزها لرأسها الصغير رفضا فعاد لأمرها

بعنف كي تستجيب ولا تلقى منهم ما لا يحب " لن أدخل

" فعودي أو ضربتك

كانت خطواتها تقترب ببطء متجاهلة غضبه وتهديده فصرخ

بها وقد ظهر له وجهها ودموعها بسبب اقترابها أكثر

" مـــــاريه "

لكن ذلك لم يزدها إلا إصرارا وقد ركضت ناحيته وارتمت في

حضنه تتمسك بثيابه بقوة وقالت ببكاء " لا تذهب أنت أيضا

كعمتي تيم لا تتركاني كلاكما "

ضمها بذراعه واتكأ برأسه على الجدار ناظرا للأعلى ، هو يعلم أن

فقدها لها يكاد يساوي فقده فهي من كانت تعني الحنان لهذه الطفلة

التي فقدت والديها ، كانت تحتك بها أكثر من عائلة عمها الذين

تعيش معهم ، ومن شدة حبها لها كانت لا ترفض لها طلبا تطلبه

حتى الطعام كانت تسرقه لأجلها وتساعدها في أمور كثيرة وقت

تواجده في مقر الجنود فهي مثله كانت تعني الصحة التي فقدتها

والدته ووجدتها فيهما وتعني القوت الذي حرموها منه أولئك

المتحجرين ، أبعدها عن حضنه وقال ماسحا دموعها بكفه

عودي للمنزل يا ماريه هل تريدي أن يضربك عمك أو "

" زوجته ؟ أنا لن أغادر من هنا

شدته من يده قائلة " بل تدخل معي ، عمي قيس أخبر شيخ القبيلة

" أنه سيترك تعيش في غرفة والدتك ، لقد قال له ذلك أمامي

قال بسخرية تنطق مرارة " قاله فقط أمامه ، هو لن يقبل بي بعد

" الآن وكان يتحمل وجودي مرغما

وقفت وقالت تسحبه من يده " بل أخبره الشيخ أن لك أرث والدتك

في المنزل والمزرعة وأن عليهم دفعه ليدخل تحت وصاية ابن

شاهين وأن يتناقشوا مع الزعيم مطر في أمر سكنك فقال أنه لا

مكان لك وستعيش معنا ، هيا يا تيم فلن أدخل إلا معك حتى

" إن قتلوني

وقف ينفض التراب عن ثيابه متمتما بضيق " حمقاء

" ما الذي تستفيدين منه إن قتلوك

سحبته سائرا خلفها ولم تكترث لما قال وذهنه مع السبب الذي

يجعل ابن عم والدته يستقبله في منزله وإن كان لجدهم ! وفكر أن

إرثه قد يكون السبب فوالدته الابنة الوحيدة لعمهم الوحيد وهم ثلاث

أبناء أي أن لها نصيبا يساوي نصيبهم تقريبا ، ما أن وصلا لسور

المنزل ودخلاه وقف وقال " اذهبي الآن فها قد دخلت ، عودي

للمنزل قبل أن يشعروا بخروجك "

قالت وعيناها معلقة بوجهه " هل أحضر لك طعاما ؟

يوجد خبز في الخزانة "

هز رأسه بلا وقال بعبوس " لا أريد شيئا سوى أن تغادري

ماريه قبل أن تعاقبي بسببي "

هزت رأسها بحسنا وغادرت من هناك راكضة حتى سمع صوت

باب المنزل يغلق برفق فتوجه جهة غرفته ووالدته ، الغرفة التي

لم يكن يريد دخولها مجددا ويراها فارغة لا تنام معه فيها ، لأول

مرة تتركه وحده فلم يكن يتحملها إلا لأنها تتنفس وسط جدرانها

وصل للباب وما أن وقع نظره على سريرها الخالي حتى ركض

جهته وارتمى عليه ونزلت الدموع التي ظن أنها جفت من

ساعات لتروي لتلك الأغطية البالية الكئيبة آخر فصول

حنان والدته الذي غاب معها

*

*

نظرت بحزن للنائمة على السرير لا تعلم عما يجري حولها شيئا

خداها محمران بشدة ورموشها لازالت مبللة بالدموع وتنفسها لم

ينتظم حتى الآن فلم تكن ليلة تلك التي مروا بها ولأول مرة تحمد

الله أن مطر هو من نقل خبر موت أحدهم وما كانت لتعلم كيف

سيتصرفون إن لم يكن هنا ، نقلت نظرها له جالسا على الكرسي

في صمت ينظر للأرض يسند مرفقيه بركبتيه وهذا حاله وتلك

جلسته منذ أن أنزلها هناك بطلب منها لأنها لن تستطيع صعود

السلالم ، قالت بهدوء " ألن تؤثر عليها الحقنة يا مطر ؟ "

هز رأسه بلا وهمس من دون أن يرفع رأسه ونظره

" هو مهدئ فقط عمتي "

عادت بنظرها لها وقالت بحزن " كانت صدمتها شديدة ضننت

" أنها ستفقد عقلها ما أن سمعت الصراخ

قالت جوزاء من خلفها والتي رابطت في الغرفة معهما

" كيف مات ؟ "

" قال مطر بعد صمت لحظة " حادث سيارة داخل الحدود

شهقة قوية من كليهما كانت ردة الفعل الأولى وقد قالت عمته

" !! بصدمة " داخل الحالك

هز رأسه بنعم دون كلام فقالت ناظرة له بتوجس

" هل كن مطاردا يا مطر ؟ "

مرر أصابعه في شعره وقال " لا ... اصطدمت

" سيارته بشجرة

حركت جوزاء رأسها بأسى وقالت " ومن سيصدق ذلك ؟

" سنتهم بقتله بالتأكيد

رن هاتفه مالئا الغرفة بضجيجه مجددا فنظرت له عمته وقالت

أجب عليه يا مطر أو اذهب لهم ستكون بخير وسنكون "

" بجانبها لا تقلق

بقي على حاله لبرهة ثم وقف حاملا سترته معه وقال مغادرا

" جهة الباب " اتصلوا بي بهاتف عمي إن لزم الأمر

وغادر من هناك مجيبا على هاتفه وقد قال مباشرة " قادم لكم

جهزوا تقرير الطبيب الشرعي واسحبوا السيارة للحدود

" لنسلمها لهم مع جثته

ركب سيارته وقد قال من في الطرف الآخر " لم نصل إلا

لشقيقه المدعو رعد ، شراع في المستشفى من قرابة

" اليومين بسبب جلطة دماغية

" مسح وجهه بكفه مستغفرا الله وهمس " وما حالته ؟

قال ذاك من فوره " ما وصلنا أنها جلطة خفيفة وقد يخرجوه

خارج البلاد اليوم للعناية به جيدا ، سنسلم الجثة والسيارة

" لشقيقه وأعمامه

أنهى المكالمة معه ورمى الهاتف جانبا ومرر أصابعه في شعره

وهمس مغمضا عينيه " ليس وقت رحيلك يا شراع ، صنوان

" تحتاجك بشدة يا رجل

استغفر الله مجددا وشغل سيارته وتحرك من هناك متمتما

" لا يصيب ذاك الرجل شيء وتجن لنا هذه الفتاة "

*

*

كان ينظر لمن حوله بضياع يشعر أنه في كابوس بل في حلم لم يفق

!! منه بعد ، هل ذهب ليبحث عنه ليأتوا به هنا ويخبروه أنه مات

من هذا الذي مات ؟ من قال ذلك ؟ من هم ؟ هز رأسه بقوة ولو يعلم

من يتحدثون حوله دون توقف بحاله لرحموه من أصواتهم على الأقل

والده المريض شقيقاه اللذان اختفيا جهة الحدود والآن ..... الكاسر

مات !! هل قالت الحالك أنه مات داخل أراضيهم !! هل قالوا فعلا

" أنه مات ! صرخ فوق أصواتهم جميعا " ليصمت الجميع يا رجال

ليعم ذاك المجلس صمت تام وكأن جميع من فيه اختفوا ونقل نظره

من عمه الذي شحب وجهه بشكل لا يمكن تصوره لخاليه اللذان

لم يكن حالهما أفضل منه فعلم حينها أن ما سمعه حقيقة أن ما

حدث لم يكن مزحة من أحد ، علا تنفسه وهبط بسرعة خاطفة

وقد تاهت عيناه في ذاك المكان المزدحم بوجوه الرجال ، لا

يمكنه البكاء والنحيب الآن كالنساء لا يستطيع أن يعبر عما في

داخله فكل شيء يحتاجه ... لا يوجد من عائلة شراع صنوان

الآن غيره ، الناس في حالة فوضى الهرج والشائعات ، خرج

صوته أجوفا وكأنه يتهاوى لقعر بئر بحنجرة متصلبة وعينان

لمعت بوضوح من سجن الدموع قائلا بصوت وصل لجميع من

حوله " من اتصل بي كان أحد أقرب رجال ابن شاهين وقال أنه

حاول بنفسه الاتصال ليلة أمس وما قاله لا يستجلب كل هذه الجلبة

كان كلامه واضحا وبأنهم سيسلموننا جثته والسيارة أيضا وتقرير

طبيبهم الشرعي وسنعرضه على طبيب آخر في صنوان وسنتحقق

من كلامهم ومن أنه لم يمت مطاردا أو برصاص رجالهم ، ثم لا

تنسوا أن ما حدث حدث داخل أراضيهم والكاسر تسلل

" لها دون أذنهم

علا صوت أحدهم معترضا فأسكته شقيق شراع الأوسط قائلا

رعد معه حق دعونا نتأكد أولا من أن الحالك هي سبب موته "

لا تؤججوا البلاد في وضع لا يحتاج تأجيجا ، لو كان الزعيم

شراع بيننا الآن ما خالف رأيه رأي ابنه ، وما نجحت الزعامات

لولا الحكمة والتروي فلا تجعلوا مصيرنا كمصير ابن راكان

" يوم انساق ورجاله خلف تهورهم

بدأ اللين يجتاح بعض ملامح المحيطين بهم وإن كانت الصدمة لم

تتخطى وجوه الجميع فتلك فاجعة مع حالة استثنائية وجميعهم يعلم

أن كسب هدوء ابن شاهين يعد غنيمة وأنهم إن أثاروا غضبه لن

يضمنوا ردة فعله ، عاد رعد للحديث مجددا وإن كان تنفسه بدأ

يفقد اتزانه وقال بما استجلبه من حزم " لسنا أول من فقد ولا أول

من مات له فلا تحولوها لمجزرة قد نخرج نحن منها الخاسرين

ترووا يا رجال حتى نفهم الحقيقة ، وإن صدق رسول ابن شاهين

يكون الذنب من طرفنا في تعدي أراضيهم من قبل ابن زعيم

صنوان فخذوا هذا في اعتباركم فهم لم يذكروا ذلك أبدا ولم

يلومونا فيه ولم يطالبوا بأرض مقابلا للرجل الذي مات

في الصدام وهو منهم "

تاهت نظرات رجال أكابر قبائلهم يتقاذفونها كالكرة بينهم وقال

أحدهم " والحل الآن هل نُنصب نائبا عن الزعيم شراع حتى

يستعيد عافيته لتجتمع كلمتنا في رأي واحد أم ماذا ؟ "

توجهت الأنظار له فورا فرفع كفه قائلا " أعفوني منها يا رجال

والدي حالته بدأت تستقر لن أكون ندا له أبدا دعونا نتحلى بالحكمة

والتروي حتى يرجع ليقف بيننا ولنأخذ الرأي السليم من أعقلنا في

كل مسألة ، وإن أردتم تنصيب غيره كزعيم ثابت فلكم

ذلك ووالدي لم يعارضه يوما "

علت صيحات الاحتجاج فورا فرفع يده مسكتا لتلك الأصوات بكل

أدب وقال " القطر يحتاجنا جميعنا إذا وكما كان يفعل والدي جنبوا

أنفسكم القتال قدر الإمكان ولينب عمي وأخوالي عن مجلس

والدي وعزاء ابنه حتى أعود "

وخرج من عندهم فورا مسرعا الخطى يضرب بخطواته الأرض

وكأنه يستجدي منها تثبيت قدميه ، توجه فورا للمنزل حيث صوت

البكاء الذي كان يتعالى تدريجيا مؤكدا له أكثر تلك الحقيقة المفجعة

دخل من المدخل الجانبي حتى كان في الردهة الصغيرة المطلة على

بهو المنزل الواسع وناد بصوته الجهوري مرتفعا فوق أصوات

بكاء النساء " عمتي "

وما هي إلا لحظات وخرجت له من خلف الباب الشبه مغلق وأغلقته

خلفها ، وجهها احمر وشاحب وجنتاها المنتفختان ودموعها التي لازالت

تبلل خديها كل ذلك لم يزده إلا ضعفا وحزنا ، توجهت نحوه مسرعة

وضمته بقوة مطلقة العنان لدموعها ونحيبها الموجع وقد لف ذراعيه

. حولها ونزلت تلك الدموع التي يسجنها منذ تلقى ذاك الاتصال

هنا يمكنه أن لا يكون رجلا قويا صلبا ، هنا فقط يستطيع أن يعبر عما

يحرق فؤاده المذبوح لفقد شقيقه الأصغر ، هنا لن يحاسبه أحد على تلك

الدموع التي سكبها على سواد شعر عمته ... واحدة من أكثر امرأتين فكر

في وضعهما بعد تلك الفاجعة (عمته وغسق) هذه يصل لها أما تلك فلن

يعلم بحالها غير خالقها وقد تكبلت يديه أن يطلب ذلك من ابن عمها ولو

أن يسمع صوتها في الهاتف بعدما علم أنه يعلم بأنها ليست شقيقتهم

مسح دموعه بكم قميصه حين انفتح الباب مجددا وخرج منه خالتاه

وابنة عم والده وزوجتي أخواله مقتربين منه يتلقى التعازي ولا شيء

يعزيه فقدهم فقد ودعوا ابنة وبالحياة ليلحقها شقيقه في ذات العام

! ووالده مريض وشقيقاه الآخران لا خبر عنهما ففي ماذا سيعزونه

*

*

نظرت بحب وحزن للجالسة في حجرها والتي بدأت شيئا فشيئا

تحتك بأبناء شقيقتها وإن بتحفظ وعن بعد بعدما كانت لا تتقبل وجودهم أبدا ، فبعد نصيحة الطبيب لهم بدمجها مع أقرانها من الأطفال بدأت بالمحاولة تدريجيا ، ومن الرفض القاطع لهم أصبحت تشاهدهم من بعيد وهم يلعبون ويضحكون وبعد وقت أصبحت تظهر ابتسامتها الجميلة عند بعض المواقف المضحكة إن سقط أحدهم أو ضحكوا من أمر ما وكل ذلك كان وهي تجلس في حجرها ومتمسكة بها بقوة لا أحد منهم يقترب منها لا يكلمها ولا يلمسها ، أما الآن أصبحت أحيانا تترك حجرها لتجلب إحدى لعبهم اليدوية وترجع للجلوس فيه وذاك كما قال الطبيب تحسن ملحوظ جدا وما عليهم إلا الصبر والمثابرة .

مسحت على شعرها بحنان وقبلت رأسها برقة فقد فقدت الأمل للحظات حين أخبرها عكرمة أن والدتها وزوجها في الطريق لمنزلهم وعليها تسليمها لهم فور وصولهما ثم كادت تفقدها حين قرر مطر أخذها منهما لغضبه لما حدث وقد خرجت له بنفسها

وترجته أن لا يفعل بما أنه لن يسلمها لوالدتها ووافق حينها على

الفور ولم تصدق عينيها وهي ترى تحول ملامحه من الغضب

للين ما أن رأى دموعها ورجائها الباكي ووافق على أن تبقى

معهما ، ضمتها بذراعيها لصدرها بقوة لحظة جلوس شقيقتها

قائلة بابتسامة " ما أجملها من طفلة لا تشبعين من

النظر لوجهها وعينيها "

قبلت خدها بدفء وقالت مبتسمة " أجل ولا أتخيل كيف ستكون

وهي امرأة ناضجة ، لا حرمني الله من رؤية هذا الوجه كل

صباح "

قالت تلك ونظرها على ذاك الوجه الصغير الدائري قد شابت

بياضه حمرة خفيفة كما عرف عن قبيلة جدتها " وماذا قررتما

بشأن مرضها وحالتها ؟ "

نظرت لها فاطمة وقالت تمسح بيدها على ذاك الشعر الحريري

المائل للشقار " عكرمة قال أن الزعيم مطر طلب طبيبا متخصصا

سيدخل الحالك قريبا مع بعض الأجهزة الحديثة وسيستلم حالات

كثيرة من ضمنها زيزفون وعمته فكما تعرفيه لن يجلب طبيبا

" من أجلها فقط ولن يأخذها وحدها للعلاج خارج البلاد

هزت تلك رأسها بموافقة وقالت " أعانه الله على حمل

" الأمانة والعدل فيها

رفعت تلك وجهها الصغير ونظرت بعينيها الزرقاء الواسعة

للأعلى حيث وجه الجالسة في حجرها وقالت بصوتها الرقيق

" المنخفض " ماما طعام

ضمتها بقوة مقبلة خدها وقالت تقف موقفة لها معها " حبيبة

" ماما الآن حالا نأكل

*

*

رفع رأسه الذي كان يدفنه في ركبتيه جالسا فوق سرير والدته ما

أن سمع صوت باب الغرفة يتحرك فها قد تناصف النهار واقترب

المساء ولم يرى أحدا لم يزره أحد ولا يعلمون حيا كان أو ميتا ومرة

وحيدة تلك التي سمع فيها صوت زوجة ابن عم والدته حوراء تناديه

من الخارج فأولى الباب ظهره ومثل النوم لا يريد رؤية أحد منهم ولا

التحدث معهم فجميعهم في نظره أهملوا والدته حتى فقدها ، كان ذاك

صباحا ومنذ ذلك الوقت لم يتحرك باب الغرفة إلا الآن كاشفا عن الجسد

الصغير الذي ترفعه على رؤوس أصابعها ممسكة بمقبض الباب المرتفع

بالنسبة لطولها تحمل في يدها الأخرى كيسا بلاستيكيا صغيرا ، دخلت

تنظر مبتسمة للجالس هناك رغم عبوس ملامحه ووجوم وجهه الكئيب

اقتربت من السرير وصعدت له تدفع نفسها فوقه وجلست مقابلة له

وفتحت الكيس قائلة وهي تخرج ما فيه " لقد أحضرت لك خبزا

وجبنا وطماطم أيضا ، لم يذهب النسوة إلا الآن لأدخل للمطبخ "

أشاح بوجهه جانبا وقال بهمس وبرود " لا أريد ماريه شكرا "

رفعت نظرها له وقالت بحزن " لكنك لم تأكل شيئا وزوجة

عمي طردتني حين طلبت منها أن آخذ لك من الغداء فلم آكل

أنا أيضا وسآكل معك الآن "

قال ونظره لازال عند باب الغرفة هناك " كلي أنتي أنا لا رغبة

لي في الأكل ولا تضربي عن الطعام من أجلي مجددا لأنك

" وحدك من ستكونين الخاسرة

مدت له رغيف الخبز متجاهلة كل ما قال قائلة " عمتي كانت

" ستغضب منك إن بقيت دون طعام فهل تحب أن تغضبها

نظر لركبتيه وذراعيه الملتفة حولهما يجاهد دموعه فوصله صوتها

مجددا " كل من أجلها يا يتم هي قالت لي مرارا أنها تريدك أن

" تكبر وتصبح رجلا يفخر به الجميع وأولهم هي

مد يده وأخذ منها رغيف الخبز وقد قبض عليه في يده بقوة حتى

كاد يفتته بين أصابعه ثم قضم منه قضمة صغيرة شعر بها كالحجر

في فمه وكالعلقم في حلقه يأكله ببطء كي تأكل الجالسة أمامه وهي

تمد له الجبن والطماطم كل حين كي لا يأكل الخبز جافا ، نظرت

لمسبحة والدته التي يلفها حول معصمه وأنزلت يدها والخبز فيها

لحجرها ونظرها عليه وقالت بحزن تجاهد عبرتها " ألن نرى

" عمتي مجددا تيم ؟ هل غابت مع والداي حقا ؟

مسح عينيه بظهر كفه بقوة ماسحا الدمعة التي غلبته وهمس بأسى

" نعم فها قد أصبحنا متساويين أنا وأنتي "

هزت رأسها بلا وقد نزلت دموعها وخرج صوتها مختنقا

" أنا فقدت والداي وعمتي ، فقدت كل شيء أنت لست مثلي "

ابتسم بمرارة ومد يده يمسح دموعها قائلا " يكفي بكاء أو غادري

الآن أنا مثلك لا أحد لي ومثلك حتى من وجد حيا وكأنه ميت لقد

تخلوا عن والدتي سابقا جميعهم من كان هنا أو خارج البلاد

ولن أعترف بهم أبدا "

*****

*****

ما أن دخل ووقف أمامهما حتى نظر لهما بصمت ينتظر ما

سيقولانه دون سؤال وذاك ما حدث فعلا فقد قال تميم من

فوره " سلمناهما لشقيقه وبعض رجالهم وجنودهم عند

حدود حجور "

عقب عمير مباشرة " لم يبدر منهم أي كلام ولا اتهام حتى

" ! أنهم لم يسألوا عن شيء

هز رأسه موافقا وقال بهدوء " رعد يشبه أبيه ، أكثر من يتحلى

بحكمته وفهمه للأمور وهدوئه من بين أبنائه ، ما كنت لأتوقع

" منه غير ما قلته

ثم تابع ونظره على عينيه " ماذا يجري مع متدربك هنا

" هل الأمور على ما يرام ؟

ضحك عمير وقال " في الأسلحة وحفظ المعلومات جهاز حاسوب

متطور لكن في الأمور الأخرى أعند من الصخر ولا يمكن تدريبه

على اكتساب أقل خبرة في النساء ويبدوا غضب مني فلم يأتي

" اليوم

أدخل مطر يده في جيبه وقال ببرود " أبعد النساء وأمورهن عنه

" هو يحتاج لخبرتك لا أن تحلل نفسيته

حرك عمير كتفه مبتسما وقال " أنا أخشى فقط أن تهزمه مستقبلا

" امرأة وبكل سهولة ويذهب كل تعبنا هباء

قال بابتسامة ساخرة " لا تخف عليه تلك الأمور فطرية

" لن تعلمها له أنت

وتابع وقد نقل نظره بينهما " سأغادر أنا الآن لحوران إن جد

" شيء اتصلوا بي وليس إلا الضروري فقط كما اتفقنا

هزا رأسيهما بالموافقة وكان تميم سيتحدث لكنهم التفتوا ثلاثتهم في

حركة واحدة جهة الباب لصوت ركض الجنود في الخارج والأصوات

المريبة والمتداخلة للأحاديث فركضوا من هناك ثلاثتهم للخارج عبر

الممر الطويل وقد اقترب منهم أحد الجنود قائلا باندفاع

" .... سيدي الهازان إنها "

وضاعت الحروف في حنجرته من لهاثه والصدمة على ملامحه

فأمسك مطر بطرف ياقة سترته العسكرية المفتوحة وقال يستنطقه

" بحزم " ما بها الهازان تحدث ؟ وما سر كل هذه الجلبة ؟

قال متلقفا أنفاسه " قبائل بطاح جميعها تمردت على ابن راكان

والحرب سجال بينهم وبين جنوده في الداخل ومدن بطاحة

" الخمس تستجد باسمك في قنوات المذياع

ترك ياقته بقوة وركض مسرعا هامسا من بين أسنانه

" لا تتقاتلوا لا يا الهازان لا تهدروا دماء أكثر "

ووصل سيارته في وقت قياسي ركبها وتميم وعمير معه وانطلقوا

وهاتفه على أذنه يصدر الأوامر لفصائله من قبل وصوله لهم آمرا

جميع جنوده بالتحرك للحدود واستجلاب باقي الوحدات في مقراتهم

عند حدود صنوان جميعهما بدون استثناء عدى الحراسة البسيطة فما

يفصلهم عن تلك القبائل ومناطقها حدود الخمس مدن والوصول لهم

لن يكون سهلا أبدا وعليهم التحرك سريعا وبقوة مضاعفة ، لذلك

كانت وجهتهم محددة دون سابق تفكير ولا قرار و قد أسدل الليل

ستاره عليهم وهم يشقون تلك الطرقات وهدفهم حدودهم الجديدة

مع الهازان حيث ينتظره جنوده وقد شنوا أول هجوم لهم على

البلدتين الأقرب في مثلث الحدود معهم بأوامر منه ولا يزال

أمامهم المزيد

*

*

دفع باب المنزل ودخل مصدرا صريره الخفيف في صمت المكان

الواسع المظلم وكان سيتوجه لغرفته لولا أوقفه الخيال الذي ظهر في

أول الممر ولم تكن سوا عمته التي اقتربت منه وقالت ماسحة على

ذراعه ولازال صوتها متأثرا من بكائها لساعات طويلة

" رعد هل أحضر لك شيئا تأكله بني ؟ "

هز رأسه بلا وقال بهمس " أريد أن أنام قليلا فقط عمتي

هذا إن زار عيناي النوم "

مسحت الدموع التي تساقطت من عينيها وهي لم تهجرها إلا

من وقت قصير وقالت بعبرة " قضاء الله يا رعد ولا راد له

هل أخبرت والدك ؟ "

هز رأسه بلا وقال " كيف نفعلها وحالته في تحسن بطيء

الطبيب طمئننا كثيرا وحذرنا من إخباره ، سننتظر حتى

تستقر حالته أولا لن نفقد اثنين معا بغباء عمتي "

هزت رأسها بحسنا وقالت " وماذا عن جبران ورماح ما

حدث بشأنهما ؟ "

قبض يده بقوة وقال بأسى " جبران حضر وقت الدفن وتلقى العزاء

في المقبرة كان سيغادر من فوره لولا أدركته وقال أنه فقد رماح

عند الخط الداخلي لحدود الحالك وقد باغتتهم دورية مراقبة

وخرج ولا يعلم عنه ولم يراه أحد "

وضعت يدها على فمها تمسك شهقتها وقالت ببكاء " هل سنتلقى

خبره من ابن شاهين أيضا ؟ لا تقلها يا رعد لن تفنى عائلة

شراع على حدود ذاك الرجل "

هز رأسه بحيرة وقال " لا أعلم عمتي ! لو أنهم قتلوه لكان أخبر

بذلك ، هو لن يخاف أحدا ولن يتستر على جنوده ، هما يومان

فقط إن لم يظهر سأذهب للبحث عنه بنفسي "

أمسكت ذراعه بقوة وقالت بحزم " ما هذا الجنون يا رعد ؟

أنت تقول هذا لا أصدق !! "

قال بضيق " عليا إيجاده عمتي ، رجال ابن شاهين عادوا لضرب

حدود الهازان وقبائل بطاح تنتظر وصولهم وقد حذو حذو قبائل

جيروان وتمردوا على ابن راكان وهذه المرة لم يرحمهم ذاك

الرجل لذلك تحرك ابن شاهين وأخذ جميع جنود الحدود معنا

فالتسلل سيكون آمنا ، عليا أن أجده عمتي فقد يكون مصابا

في مكان ما أو محتجزا وإلا ما اختفى هناك ولا وجود

له هنا "

ضربت كفيها ببعض وقالت بعبرة " حسرة قلبي عليكم يا أبناء

شقيقي ، من هذا الذي أصابكم بعينه القوية شتتكم هكذا ؟ "

قال بضيق " عمتي ما هذا الهراء ؟ ألا وجود لشيء أسمه

أقدار الله "

قالت بضيق مماثل " والعين حق وما أراها إلا هي فتكت بكم

أربعة رجال حول والدكم لا ترفضون له طلبا ولا تردون له

أمرا تحكي بكم قبائل صنوان جميعها وتتمنى نسبكم "

هز رأسه بيأس منها وقال " عمتي رأسي يكاد ينفجر وأريد

" أن أنام ورائي أمور كثيرة تنتظرني

" أمسكت يده وقالت " وما قال الطبيب بشأن سبب موته

تنهد بقلة صبر وقال " موته كان بسبب الحادث والحادث كما

قال رجل ابن شاهين بسبب اصطدام السيارة بشجرة كبيرة بعد

انحرافها عن الطريق واصطدامها بسيارة أخرى ، رجال

" الحالك لم يمسوه بشيء

جمعت كفيها عند فمها وقالت ببكاء " رحمك الله يا كاسر ليت

" والدك تركك تحضر زوجتك وما تهورت هكذا وفقدناك

ضمها لحضنه بقوة وقد نزلت دموعه رغما عنه وقال " قدر

" الله وما شاء فعل عمتي فتعوذي من الشيطان

ثم أبعدها عنه وقال " ثمة دم آخر في الكرسي بجانب

" كرسيه عمتي

قالت بصدمة ودموعها لازالت على خديها " هل كان

" أحدا آخر معه ؟ هل هوا رماح ؟

هز رأسه بلا وقال " لكان سلمه ابن شاهين لنا أو قال بأنه مصاب

وموجود لديهم يبدوا أنه شخص منهم أمسكوه هم والله يعلم

" حيا أو ميتا

هزت رأسها وقالت بحيرة تمسح دموعها " هل تعني

" أنها زوجته تلك ؟

" هز رأسه بنعم وقال " لا احتمال آخر غيره عمتي

غادرت من عنده تضرب كفيها متمتمة بحسرة وبكاء مؤلم حتى

اختفت فتحرك نحو غرفته يجر خطواته حتى كان مرتميا على

سريره يهرب من التفكير في من فقدوه بمن اختفى وعليه

إيجاده قبل أن يفقدوه هو أيضا

*

*

رمت اللحاف من على رأس النائم بجانبها وقالت بضيق " قيس

" اجلس الآن وتحدث معي هل أتكلم مع الجدار ؟

شد اللحاف منها بقوة وغطى به رأسه قائلا " نامي يا امرأة أو

" قسما نمت في منزل أهلك مطلقة

نفضت يديها قائلة بغضب " مطلقة مطلقة أرحم لي من

" هذا الحال

جلس ورمى ذاك اللحاف عنه وقال بغضب مماثل " خلصيني

لأنام لقد تكسرت قدماي من الوقوف اليوم في العزاء لتستقبليني

" هذا الاستقبال الحافل بدلا من أن ارتاح

ضربت بطن كفها بظهر كف الأخرى ناظرة لهما وقالت " الآن

تخبرني لما قبلت بابن الهازان ذاك هنا ؟ والدته وانتقلت لبارئها

" لما نحتفظ به لدينا ؟ هل سيتحول المنزل لمأوى للأيتام

قال بحدة " وما كنت تريدين أن أفعل ؟ أدفع المال ثمنا لنصيب والدته

ونبيع الأرض ؟ هل هذا هوا الحل برأيك ؟ ثم المنزل لوالدي من جدي

أي لا يمكننا طرده منه سيلحظ الجميع ذلك ويقع اللوم علينا من ذاك

العجوز شيخ القبيلة فلم تري نظرته وهوا يخبرني بأنه سيناقش وضع

ذاك الفتى مع الزعيم مطر وكأنه يقول لي تحمل قراراته الحازمة التي

أنا أعلم منه أني سأكون الخاسر فيها فكان عليا إسكاته بتركه في تلك

الغرفة ويبقى نصيبه تحت الوصاية وهو في عهدتنا أفضل من أن

يضمه ابن شاهين لخزينة من هم في مثل وضعه يكفي نصيب

" ماريه بين يدينا ولا ننتفع به

نفضت اللحاف قائلة " لا أطيق رؤية ذاك الفتى أمامي يكفي أني

فقدت ابني وهو حي لا نفع منه ، عليه أن يذهب للعيش في مدن

" الهازان كغيره أنا لا أريده

أمسك ذراعها وأدارها ناحيته حتى نظرت له وقال " حمقاء وطوال

حياتك تبقين حمقاء هل نسيت أن ظافر مات أي أن زواجه المستقبلي

من ماريه طار أدراج الرياح وكل ما تركه لها والدها وما ورثته من

والدتها سيضيع ما أن تكبر وتبلغ وتتزوج ، سيطمع فيها الجميع حينها

وسيتقدمون لخطبتها ما أن تتجاوز العاشرة وسنبقى أنا وأنتي هنا

" في منزل يملكه الجميع ولن يحدث شيء مما خططنا له

قالت بضيق " ما هذا التخريف ؟ ما تقوله كان سيحتاج لسنين

" ليحدث لتكبر هي ويكبر ظافر هل سننتظر كل تلك الأعوام ؟

قال بقهر المغبون " بل كنت أخطط لفعلها في سنهما هذا

لكن الموت كان أسبق له "

نظرت له بصدمة وقالت " كنت تخطط لتزويجها به وهي في

هذا السن ؟ من سيوافق على هذا ! هل تريد أن تأكل الناس

وجهينا يا قيس ؟ "

تأفف وقال " كنت سأجد لها حلا وها قد ضاع كل ذلك ولا

بديل إلا ذاك الفتى الكنعاني إن تزوجها رفعت الوصاية

عن أموالها وأخذنا كل شيء "

تنقلت بنظرها في ملامحه وكأنها تستمع لمجنون أمامها فقال

بجدية " فكري فيها جيدا ... لو عقد عليها طارت وصاية ابن

شاهين عليها ولن تسلمها له طبعا لأنها طفلة وسنتدبر أمر

سحبها جهتنا بحجتها هي هل فهمت الآن ؟ "

قالت بحيرة " ماذا سأفهم من ماذا ؟ كيف ستزوجها به وهما

" في هذا السن يا قيس ! قل شيئا يستوعبه العقل

اضطجع وقال ساحبا اللحاف فوق جسده " لدي طريقة ستحقق

ذلك نامي أنتي الآن واطمئني فذاك الفتى مفتاح ثروتها الوحيد

وانتقالنا من هذا الفقر المدقع ولن نفرط فيه حاليا "

*

*

*

فتحت الباب بهدوء كي لا يصدر أي صوت ونظرت من خلاله

للجالسة عند رأس النائمة على السرير وهمست " نامت ؟ "

هزت نصيرة رأسها بنعم وتحرك بالكرسي جهة الباب حتى خرجت

منه وأغلقته حبيبة بهدوء هامسة " سأنام أنا معها ، سأحضر فراشا

سيدتي وسأكون بقربها عليك أن ترتاحي أنتي في غرفتك وتنامي "

هزت رأسها بحسنا وقالت بحزن " ما ضننت أنها ستنام ، لقد بكت

حتى فطرت قلبي وما يزيدها سوءا أنها لم تراه من أشهر فكل ما

كانت تردده من بين نحيبها (ليتني رأيته فقط وطلبت منه أن

") يسامحني

مسحت دموعا غلبتها وقالت بأسى " تبدوا متعلقة به كثيرا

" رحمه الله وأسكنه جنته

أممت تلك خلفها هامسة بحزن وتحركت بكرسيها قائلة " مطر أين

يكون ؟ هو من يفترض به أن يكون معها الآن ، هي تحتاجه أكثر

" ما تحتاجنا نحن وما تحتاجه مشاكل قبائله

أمسكت حبيبة بمقبضي الكرسي تساعدها في سحبه قائلة باستغراب

" ألم تسمعي ما حدث سيدتي ؟ "

نظرت لها فوقا وقالت باستغراب أكبر " ما حدث في ماذا ؟

" أنتي تعلمي أني لم أتحرك من عند غسق

قالت حبيبة مندفعة " لقد تجدد القتال عند الحدود ، بطاح من أكبر

قبائل الهازان تمردت على ابن راكان بعد موت ست شبان منهم في

غموض تام هو المتهم فيه وقد ضرب مدنهم بالدبابات وهم في منازلهم

واستنجدوا بالزعيم مطر وهو في زحف متواصل متجها نحوهم

" والقتال محتدم منذ ساعات

ضربت تلك كفيها ببعض وقالت بقلق " يا رب سترك يا رب سلم

" خذيني لجناح صقر بسرعة يا حبيبة

أوصلتها هناك فورا وتركتها عند الباب وغادرت فدخلت تدفع

كرسيها حتى وصلت باب غرفته وطرقت عليه وأذن لها بالدخول

فورا ففتحته ودخلت وكان يغير ثيابه يلبس سترته بعدما زرر

" قميصه الأبيض فقالت بقلق " ما الأخبار لدى مطر يا صقر ؟

قال يعدل ياقة السترة باستعجال " وصلوا لخضوراء والمعركة في

صالحهم حتى الآن ، ما أن أصلي الفجر سأغادر علينا أن نوفر لهم

الإمدادات هذه الحرب لم تكن في الحسبان رغم تحوطنا لها لكن ليس

خمس مدن دفعة واحدة هذا غير مدن بطاح الخمس خاصة وأنه

ثمة أراء دولية جعلت مطر يتريث قليلا ويوقف زحفه ، لكن

الهازان يبدوا تآكلت من الداخل فعلا وأصبح مطر

" خلاصهم وليس عدوا لهم

همست بدعاء خافت من قلبها لشفتيها لرب السماء ثم قالت " متى

سنرتاح يا صقر في كل مرة يشغل بالنا عليه لأيام وزوجته إن

" حدث له شيء قد تفقد عقلها من الصدمات المتتالية

" رفع ساعته وقال وهوا يلبسها " كيف هي الآن ؟

" هزت رأسها بحزن وقالت " أفضل بقليل رغم أن حالها لا يسر

همس بحزن مماثل " أسال الله أن يرحمه ويلهمها الصبر كل

" الصدمات تحتاج لوقت ليتعايش معها الشخص

هزت رأسها بموافقة دون أن تعلق وقد تحرك هو جهة الباب

" فقالت ملتفتة مع حركته " طمئنا عنه وعنك يا صقر

" قال مجتازا الباب بسرعة " دعواتكم له يا نصيرة لا تنسوه

وغادر ودعائها الصادق الحنون يتبع خطواته هامسة " ليحفظكم

" الله ويرجعه سالما لزوجته ولنا

وكان ذاك كل دعاء رددته شفتا كل امرأة غاب لها شخص في تلك

الليلة المقمرة الطويلة ، دعاء ودعت به كل امرأة زوجها أو ابنها

أو شقيقها وهم يدفعون بأنفسهم للموت وهدفهم واحد هو تخليص

القبائل التي استنجدت بهم وإيقاف جنون ابن راكان وهوا يضرب

. المنازل والعائلات فيها مروعا النساء والأطفال

وهذا هو جنون كل من رفض ترك سلطته على من هم تحته من

كان ضده فعقابه الموت ولا يستحق الحياة ما لم يقبل بوجوده

فيها سيدا عليه

*

*

وكانت هي خمسة أيام متتالية من قتال لا توقف فيه ، لا نوم ولا

راحة ولا شيء سوى صوت المدافع والرشاشات في زحف متواصل

وإن كان بطيئا من أجل من بقي من عائلات في تلك المدن وقد توافدت

عليهم من كل منفذ فتح لها حتى عبر صنوان ، منهم من استقر فيها

ومنهم من طلب نقله للحالك حيث الرجال اللذين استقبلوهم ولم يرتح

لهم بال ولم تغمض لهم عين حتى وصلوا لمدن بطاحة وبدءوا بإخلائها

من ساكنيها رغم شدة القصف عليها ليكونوا في مأمن بعيدا عنها ورغم

الخسائر في الأرواح قبل العتاد ساندت الحالك بعضها وساندت من فر

لهم من الهازان حتى أن مناطق الحدود قدمت منازلها لبعض العائلات

لأن مناطقهم في خط النار أو شبه مدمرة بعد ذاك القتال العنيف الذي

يبدو أن ابن راكان استعد له جيدا ولم يكسبوا تلك المناطق التي مروا

بها بسهولة وقد دفعوا أثمانا غالية ولم يتراجعوا حتى وصل لآذانهم

صوت هتاف أهالي بطاح فرحين بقدومهم وبخلاصهم من عداد

الموت الذي أخذ منهم الكثير إما دفاعا من أجل رد رجال زعيمهم

. أو ضحايا سقوط تلك القذائف المجنونة فوق منازل بعضهم

وبعد خمس أيام أخر انتشرت جيوش الحالك في تلك المدن الخمس

بعدما أخذت خمسة قبلها وكانوا عشر مدن في عشرة أيام وعشرات

العشرات بين قتيل وجريح ومفقود فهكذا هي الحرب إن فتحت

. فمها أكلت كل شيء في طريقها أخضرا كان أو يابسا

وكانت تلك خسارة ابن راكان الجديدة خسر ليس الحرب فقط ولا مدن

أخرى ولا ثلث الهازان الذي أصبح تحت سيطرة وحكم مطر شاهين

بل خسر ثقة الكثيرين من قبائله وأصبح أسلوب الترهيب وتخويفهم بما

حدث لمدن بطاح وقبائلها قبل أن يصلهم مطر ورجاله هو سلاحه

الوحيد لإسكات الناس وتكبيلهم وانتقل لجمع المساندة الدولية متهما

مطر شاهين بالتسبب بكل ذلك وأن الهازان كانت بخير قبل

. أن يبدأ زحفه المجنون عليها

*

*

*

ابتعد عن أحاديثهم وتجمعهم ذاك وهم يناقشون أهم الأمور فيما

وصلوا له وأخذ مكانا متطرفا عن الجميع وأخرج هاتفه من حزام

بذلته العسكرية واتصل بالرقم الذي يطلبه يوميا في مثل هذا

الوقت ويصل له مرة بعد يومين أو ثلاث وبعد محاولات عدة

حتى يتصل بعمه ويسأله عنهم ، وكان الحظ حليفه هذه المرة أن

رن الهاتف الأرضي وجاءه الصوت الأنثوي في الطرف الآخر

" مجيبا بتحية الإسلام فقال من فوره " حبيبة من يوجد بقربك ؟

تلعثمت تلك من فورها ما أن علمت من يكون صاحب ذاك الصوت

الجهوري ونبرة البحة التي تميزه عن غيره من الأصوات ومدت

الهاتف فورا للتي اقتربت منها بكرسيها فأخذت السماعة منها

" وأجابت فورا " مطر مرحبا بني

" قال ممررا أصابعه في شعره " مرحبا عمتي كيف حالكم ؟

قالت مبتسمة بحنان " بخير يا مطر كيف حالك أنت وما

" الأمور لديكم ؟

" قال باختصار " جيدة

وتابع وهو يتكئ بظهره على الجدار خلفه ناظرا للجانب الآخر

" كيف هي غسق ؟ "

وصله صوتها الهادئ قائلة ببعض الحزن " أفضل بكثير أصبحت

تجود علينا ولو بابتسامة صغيرة حزينة ونحاول جهدنا أن لا نبقيها

وحدها تنفرد بحزنها ، نلهيها طوال النهار وما أن يتناصف الليل

الأخير تترك غرفتكما وتنزل تنام في حضني تبكي لوقت الطويل

حتى يغلبها النوم ، مطر أنت من تحتاجه لا أنا ، تأخرت

عنها بني "

مسح قفا عنقه بيده ينظر للأرض وهمس " رغما عني عمتي

ما كان الأمر بيدي ولا خططت له ، هل هي بقربك الآن ؟ "

قالت من فورها " نامت منذ قليل ، هي تسأل عنك كل يوم

وتخجل من أن تطلب من عمك الاتصال بك لتكلمك ، لا

تفجعها فيك أيضا يا مطر "

أغمض عينيه ضاغطا عليهما بأصابعه بقوة من شدة الإرهاق

فيهما وقال " الموت لا يمسكه أحد عمتي ، اعتنوا بها جيدا

سأحاول أن أكون هناك في أقرب وقت "

قالت من فورها " ليحفظك الله بني وهي في أعيننا لا

تخشى شيئا كن أنت بخير فقط "

أنهى الاتصال معها وعاد جهتهم يدس هاتفه في حزام بذلته

وجلس معهم مجددا ونظر فورا لمن يعلم أن نظره عليه تحديدا

هذه المرة فقال ناظرا له بطرف عينه " أعلم ما تنوي قوله

وأجل أخذت الجرعة اليومية "

انطلقت ضحكة بِشر حينها وارتسمت الابتسامة على شفاه باقي

المتحلقين حول تلك النار التي تضيء سواد ليلتهم في تلك البلدة

المهجورة بعد حرب طاحنة انتهت فيها من أيام قليلة جدا ، قال

بعدما أنهى ضحكه يقصده هو تحديدا " بالنسبة لي سأطلق زوجتي

فورا إن اعترف أحدهم يوما أن عشق امرأة ذهب بعقله "

ضحك مطر حينها ولم يعلق والتزم الجميع الصمت فقال بِشر

ناقلا نظره بينهم " لا تخافوا يا جبناء وراهنو هيا "

ضحك عكرمة وقال " أنا سأترك الحرب والقتال حينها

فلم يبقى لها رجال "

خرج صفير بعضهم وتأوه البعض بصوت مرتفع لرده ذاك والأنظار

جميعها على ذاك الذي اكتفى بالابتسام دون تعليق متصدرا جلستهم

الدائرية تلك وقال آخر مشيرا بإصبعه بجانب رأسه " أنا سأخرج

" من الحالك وأعيش في صنوان

وعلت ضحكاتهم لرهانه وخرج مطر من صمته قائلا ونظره على

النار التي تعكس لهيبها في سواد عينيه " إن حدث ذلك فأنا من

لن أكون هنا لتراهنوا من أساسه "

نظروا له باستغراب من قوله المبهم بالنسبة لهم ونظر له بِشر

قائلا بشك " لن تفعلها أليس كذلك ؟ لا تجعلني أطلق زوجتي يا

رجل "

ضحك ذاك ساخر رافعا نظره للأعلى ثم عاد به للنار قائلا

" من أجبرك على أن ترتهن "

*

*

دخل المقر الشبه خالي الذي أصبحت حركة الجنود تدب فيه شيئا

فشيئا بعد دنو الأوضاع للاستقرار في الحدود الجديدة ، تنقل بين

مبانيه يبحث عن الغائبان عنه منذ قرابة الأسبوعين وكأن الجميع

متفق على الاختفاء من حياته ، والدته عمير وحتى الطبيب عيادته

خالية بعدما نقلوا جميع الأطباء جهة الجبهات وأصبح يرى بعدا

جديدا في عالمه وهوا الفقد ، فقد كل ما بين يديه في لحظة ولم

تبقى له سوى ماريه التي لا يعلم متى ستختفي هي أيضا ليموت

وحيدا في تلك الغرفة ولا يدري عنه أحد ، عاد أدراجه جهة باب

المقر الواسع ليعود من حيث أتى بعدما يئس منهما ثم استدار فجأة

حين سمع صوتا يعرفه جيدا ناداه من بعيد ، نقل نظره باحثا في كل

مكان وابتسم ابتسامة واسعة صادقة كانت الأولى منذ وفاة والدته

وركض جهة الذي كان يقف عند أحد أبواب مباني المقر حتى

وصل عنده وقال " عمير أين ذهبت ؟ انتظرتك كثيرا حتى

ضننت أنك لن ترجع "

لعبت أصابعه بالشعر الكث الناعم للواقف تحته وقال مبتسما

" كنت في مهمة عاجلة وما كنت سأتركك أبدا وها قد عدت "

قال بتفاؤل " حقا لن تتركني ؟ "

" هز رأسه بلا وقال ضاحكا " إلا إن تركتني أنت طبعا

قال تيم من فوره " لن أتركك ولن أترك تدريبنا لا أحد

" لي غيرك

نظر له باستغراب وقال " ما معنى كلامك هذا وأين كنت لم

" تأتي للتدريب ليومين قبل أن أغادر

" نظر للساحة بعيدا ثم نظر له وقال " هل سنتدرب اليوم ؟

ضحك ذاك وقال " أدفع كل ما أملك وأدخل هذا الرأس

" وأعلم ما تخبئ فيه

ثم تابع وهما يسيران معا " ها أخبرني الآن ألم تغير رأيك في

" طموحك بشأن المستقبل

هز رأسه بلا وقال بحزم ناظرا للأرض تحته " بل بت أكثر

إصرارا عليه ، لا أريد أن أكبر أحتاج لأي أحد أريد أن أكون

" نفسي أن لا أمد يدي طلبا لمساعدة أي كان

وقف والتفت جهته موقفا له وأمسك كتفيه بقوة وقال بجدية ناظرا

لعينيه السوداء الحادة " تيم عليك أن تعلم أمرا مهما ، مهنتنا هذه

ليست خطيرة فقط هي ستأخذك كلك يا تيم قد تخسر الكثير من

أجلها حين تكبر وتمتهنها ، قد تخسر أناسا تحبهم بشدة لأنك لن

تستطيع أن تكون واضحا وصادقا معهم بشأن عملك السري

" المبهم الغريب هل تفهمني ؟

هز رأسه برفض وقال " فهمت أو لم أفهم لا يعنيني سأتدرب

وأتدرب وأكبر وأكون تيم شاهر كنعان لا يناديني أحد

" بقريب فلان ولن أكون تابعا لأحد

*

*

فتحت الباب وشهقت من رؤية الذي أمامها ثم أمسكت وجهه

" !! بيديها قائلة بصدمة " رماح

" نظر حوله وقال " نعم رماح أين هو والدي ؟

نزلت دموعها رغما عنها وقالت بشهقة بكاء " أين اختفيت يا

" رماح هل ينقص والدك نكبات ؟ ما بكم تفعلون به كل هذا ؟

تحرك من هناك داخلا ولم يعلق بشيء فتبعته قائلة " رعد ذهب

" في إثرك من خمسة أيام تقريبا هل هو من وجدك

" التفت لها وقال مستغربا " ذهب في إثري أين ؟

أبعدت يديها عن فمها وقالت بصدمة " ألم يجدك ؟ ألم

" ! يخرجك هو من هناك

" أمسك كتفيها وقال بحزم " أخرجني من أين عمتي وأين ذهب ؟

" .... قالت بصوت مرتجف بالكاد خرج هامسا " للحالك للحدود ظننا

قاطعها هازا لها وقد صرخ بحدة " ومن أخبره أني داخل الحدود

" من قال ذلك ؟

" ضربت صدرها بكفها وقالت " وأين كنت أين اختفيت إذا ؟

هز رأسه برفض قوي ومرر أصابع يديه في شعره وقال بصدمة

منذ خمسة أيام داخل الحدود هل جننتم أبناء شراع ؟ ألم يكفيكم "

" واحد مات هناك تأكل الناس لحمه حتى اليوم

صرخت فيه بعنف " قولوها لأنفسكم يا أبناء شراع ، من الذي

أعطى لحومكم للناس غيركم ؟ آخر ما وصلنا عنك وجبران أنكما

أشهرتما السلاح في وجه بعضكما ثم اختفيتما داخل خط الحدود ولم

ترجعا ليعود جبران وتختفي أنت ماذا كنت ستتوقع من رعد أن

يفعل ؟ "

صرب صدغيه براحتيه بقوة صارخا " لماذا يفعلها حتى إن كنت

فعلا ضعت هناك ، ما به رعد العاقل الرزين الذي لم يتشاجر

حتى مع أحد طوال حياته يتهور هكذا "

" رماح أين كنت ؟ "

التفت فورا لجسد والده الذي ظهر من خلف عمود البهو الواسع يمسك

عصا سوداء برأس مذهب في يده يستند عليها وملامحه لازال يشوبها

بعض الشحوب وإن كان تماثل للشفاء تقريبا ، قال بضياع " كنت

أراقب جبران دون علمه لذلك مثلت الاختفاء كي لا يشك بأمري

وأغلقت هاتفي ، كان يحوم حول الحدود وهدد بأن يقتل ابن شاهين

أو يدمر حياته وغسق وكنت سأمنعه إن أقدم على ذلك لكنه لم يجتز

" خط الحدود ولم أرجع حتى اطمأننت أنه أبعد الفكرة عن رأسه حاليا

صوت نقر العصا على الأرضية وحده كان جواب شراع وهوا يقترب

منهما حتى وقف أمامه ودوى صوت تلك الصفعة المرتفعة مختلطا

بشهقة الواقفة بينهما ونظرات الصدمة على وجه رماح مركزة على

عيني والده الناظرة له بغضب وقد قال ببرود يعاكس ملامحه

الغاضبة المشدودة " إن حدث لرعد شيء فسيكون بسببك أنت

والآخر ذاك أنا بريء منه لا هو ابني ولا أعترف به وقسما إن

" خدشت رصاصته جسد زوج ابنتي أن أهدر دمه في صنوان

رفع رماح يده لخده الذي ظهر عليه أثر الأصابع من بين شعيرات

لحيته الخفيفة وقال بصدمة " تضربني يا أبي لأني خفت عليها

" ! وعلى صنوان إن تهور جبران وقتله

صرخ فيه شراع كاسرا ذاك الجبل الجليدي الذي تمسك به لبرهة

ألم يفكر عقلك الصغير هذا ما سيحدث حين سنظن أنك اختفيت ؟ "

ألم تفكر بأنك لن تحمي ابن شاهين ولن تنقذ حياة غسق ولن ترد

" جبران عن تهوره بل ستفقدنا في ابن آخر خلف الحدود

أبعد رماح يده عن وجهه بعنف وقال بضيق " كنت منعته

" كنت عاملته باستنقاص مثلي الآن

صرخ فيه مجددا " أمنعه كيف وكل من رآك قال أنك دخلت الحدود ؟

أمنعه كيف ودموعه على شقيقه تتقاطر يترجاني أن أتركه يذهب كي

لا نخسر غيره ؟ أمنعه لماذا يا ابن شراع وهو طلب إذني وموافقتي

" ليذهب أو لن يفعلها مهما حدث

" دار رماح من فوره مغادرا فأوقفه بحزم " إلي أين تنوي الذهاب ؟

" وقف عند الباب وقال ناظر له بنصف وجهه " أبحث عنه طبعا

ضرب بعصاه الأرض بقوة قائلا بأمر " ارجع حالا هل جننت تدخل

أنت ليخرج هوا ثم يرجع لك ؟ لا تغادر المنزل ولا للحدود حتى ينتهي

ابن شاهين من حربه جهة بطاح ثم نرى كيف يمكنه إخراجه لنا

كسرتم ظهري يا أبناء شراع وأنزلتموني أمامه يا من ظننتكم

" رجالا شددت بكم ظهري

ثم غادر وعينا ذاك تراقبانه بنظرة كلها ألم وانكسار ثم تحرك من

هناك جهة غرفته هو أيضا تاركان خلفهما التي ضربت كفيها

ببعض متمتمة " ويل قلبي عليك يا شراع ، ويل قلبي

عليك وعليهم "

*

*

نزل من السيارة وأغلق بابها يثبت مسدسه جيدا في مكانه ثم فتح

الباب الخلفي أنزل سلاحه الرشاش وضعه على كتفه الأيسر ممسكا

لحزامه الجلدي بيده وضرب الباب وتحرك جهة المنزل مخرجا هاتفه

من حزام بذلته وقد أنهى ذاك الاتصال سريعا بكلمات مختصرة مارا

تحت أغصان الأشجار التي فارقتها أوراقها معلنة دنو الشتاء بتوديعها

لهم ، دخل المنزل وأغلق الباب خلفه ناظرا حوله وكان السكون يعمه

تماما وكأنه آخر الليل وليس وقت مغيب الشمس ، صعد السلالم فورا

حتى كان عند باب غرفته وفتحه بهدوء وما أن دخل حتى وقع نظره

على التي أغلقت باب الخزانة للتو ونظرت جهته وتشابكت نظراتهما

في حديث عينين قصير صامت حتى اتكأت برأسها على راحة يدها

التي لازالت مكانها على باب الخزانة حيث أغلقته لترتسم ابتسامة

بطيئة خفيفة على شفتيها ظهرت صادقة دافئة رغم الحزن العميق

في عينيها السوداء الواسعة وخطوط وجهها الدقيقة وتقاسيمه الفاتنة

ابتسامة قرأ فيها الكثير وفهمه ، قرأ فيها صفاء داخلها ، قرأ فيها

احتياجها له وقرأ فيها أكثر لومها لغيابه المفاجئ عنها وهي في

أوج احتياجها لمن تتقوى به ، رفعت يدها الأخرى ومسحت بظهر

أناملها برفق على وجنتها المتوردة قبل أن تتوجه نحوه مسرعة

ما أن فرد لها ذراعه اليمنى الحرة ولم تتوقف إلا وقد استقرت في

ذاك الحضن بين تلك الأضلع وسط ذاك الصدر العريض وقد

طوقت خصره بيديها تدفن وجهها حيث تسمع أنفاسه الهادئة

. وضربات قلبه الثابتة وقد طوقها بذراعه

يشدها لصدره بقوة مقبلا رأسها يستمع بوضوح لأنفاسها المتغيرة

ويعلم أنها تكابد وتجاهد نفسها على الصمود ، كما عرفها دائما لن

تبكي إلا إن خسرت حربا ضروسا شديدة مع عينيها ، تطمر حزنها

وبكائها وتدخره لساعات الليل الطويل ، خرج له صوتها

" الهامس ببحة " حمدا لله على سلامتك

أبعد السلاح عن كتفه راميا له من حزامه وطوقها بذراعه الأخرى

أيضا يدفنها في حضنه أكثر وقال بهدوء " سلمك الله ... ضننت

" أنك ستكونين في غرفتك في الأسفل ، لم أتوقع أن أجدك هنا

ابتعدت عنه ترتب ما تبعثر من خصلات شعرها وقد خلصها من

يديه ببطء وكأنها ترفض تركها وقالت ناظرة للأسفل تبعد

خصلات غرتها " لم أنزل لها منذ غادرت ، هل كنت

" تخطط للهرب مني ؟

خرجت منه ضحكة صغيرة وشدها لحضنه مجددا وقال مطوقا

لجسدها الصغير بذراعيه " بل كنت لأغضب منك وأكتمها في

" نفسي إن وجدتك هناك لذلك لم أتوجه لها

مسح بكفه على ظهرها بحنان وقبل رأسها وقال متكأ عليه

" ....بذقنه " كيف أنتي الآن ؟ آسف يا غـ

قاطعت كلماته بابتعادها عنه مجددا وانحنت لسلاحه ترفعه من

حزامه قائلة وهي تتوجه به للكرسي " هل أحضر لك شيئا

" تأكله ما أن تستحم ؟

تتبع حركتها مبتسما ويعلم لما هربت من ذاك الحديث ، نزع هاتفه

ومسدسه وقال يفك أزرار سترته العسكرية " لا رغبة لي في أكل

" شيء بسبب كثرة القيادة لا تجعلني أجبر نفسي كما مع جوزاء

ابتسمت بحزن وهي تعدل وقفتها وظهرها له تبعد شعرها خلف كتفيها

وكادت تضحك من حالهما ... يراعي شقيقته ولا يحب أن يرد طعامها

وإن أجبر نفسه عليه وتلك تتعب نفسها في كل مرة تضنه إن لم يطلب

الطعام وأخذته له سيرغب فيه ، لكم تحار في فهم خبايا هذا الرجل وإن

لم تقترب منه كل هذا القرب ما علمت عنه شيئا ، توجهت نحوه

وأخذت منه السترة وابتعدت بها قائلة وهي تفرغ ما في جيوبها

عند طاولة التزيين " لو كنت تجلس معها يا مطر ما كنت

" مجبرا على تناوله ولا هي أتعبت نفسها

خلع القميص الداخلي ناظرا لقفاها عند المرآة ولملاحها في صورتها

تنظر للأشياء التي تخرجها وترتبها هناك فتوجه نحوها وحضنها من

ظهرها ناظرا لوجهها وصورتها المقابلة له وقد رفعت نظرها لصورته

فيها وهمس ناظرا لانعكاس عينيها في المرآة " قولي كيف أنت ما حدث

معك ؟ قولي اشتقت لك وقلقت عليك ؟ تنتقديني مباشرة يا ظالمة "

ابتسمت بضحكة صغيرة خافتة وقد هربت من عينيه مسدلة رموشها

للأسفل وقالت وأناملها تلامس ذراعه العاري الملتف حول ذراعيها

" ها أنت أمامي بخير وأخبار انتصاركم هناك يعج به مجلس النساء

ألن أكون بلهاء إن سألت كل تلك الأسئلة ؟ "

ضحك وقد دفن وجهه في شعرها جهة عنقها ووزع قبلاته عليه

وعلى خدها وأذنها وهمس يشدها له أكثر " تغلبت عليا في هذه

وعليا أن أعترف بالهزيمة "

شدت أناملها على بشرة ذراعه دون شعور منها وقالت بهمس

خافت ولازال منشغلا بتوزيع قبلاته المتتالية " بما أنك

" اعترفت فعليك أن تتلقى عقابا مشروطا

ضحك وقد توقف عما كان يفعل وأدارها حتى قابلت وجهه

وأمسك وجهها بيديه قائلا بابتسامة " عقاب ومشروط أيضا !

" ظالمة يا ابنة شراع

أرخت نظرها ونظرت لكفها تمسح به برقة على عضلة صدره

العاري وهمست " كي لا تعترف مجددا ولا تعرض نفسك للهزيمة "

ضحك بخفوت وقد أمسك يدها من صدره ورفعها لشفتيه قبل باطنها

برفق ثم قال متوجها للحمام " رضيت شرط أن لا يخرجني

" عقابك من المنزل ... أحتاج للراحة أسبوعا

ودخل الحمام ساحبا بابه خلفه تراقبه بنظراتها الحزينة وقد ترقرقت

الدموع في عينيها فرفعت رأسها للأعلى تمنعها من النزول فلا

يمكنها تخيل أن تفقده أيضا ، لقد جربت مرارة الفقد وتعلم أنها فيه

ستكون أعظم ولن يضاهيها إلا فقد والدها شراع ، أنزلت رأسها

ومسحت عينيها بقوة مستغفرة الله بهمس ثم رفعت سترته وقميصه

الداخلي ونظرت خلفها لباب الحمام الذي لم يغلقه وصوت المياه في

الداخل فاقتربت منه ودفعته ببطء ودخلت وكما توقعت باقي ثيابه

مرمية على أرضيته ، توجهت نحوها رفعتها ثم التفتت جهته وكان

موليا ظهره يسند ساعديه على الجدار لافا لهما حول بعض مرخيا

جبينه عليهما والماء ينهمر على جسده ورأسه ، كانت وقفته تعبر

عن كم الإنهاك الذي يشعر به فعشرة أيام من القتال المستمر دون

توقف ولا نوم ثم أربعة أيام يسيّرون أمور مدنهم الجديدة تلك كانت

كافية بأن تفتت صخرا فكيف بجسد بشر ، تحركت نحوه بخطوات

خافتة هادئة ومدت يدها تحت رذاذ الماء المندفع بقوة وغزارة

وغضنت جبينها باستهجان وهذا ما توقعته ، مدت أناملها وحركت

صنبور دفع المياه وعدلت من حرارته لتعطي المياه دفئا بسيطا

يناسب الطقس الحالي ثم توجهت جهة الباب في صمتها ذاته

وحركتها الهادئة ذاتها حتى خرجت ففتح ذاك عينيه وأبعد جبينه

عن ساعديه والتفت خلفه يتأكد من أن التي كانت هنا هي فعلا !

وأثبت له ذلك اختفاء باقي ثيابه ، لم يتخيل أن تفعلها ! كل ما كان بينهما ليلة واحدة قضاها يهدئ بكائها الخافت وخوفها يطمئنها كل حين أنه لن يؤذيها وأنها لن تتألم وقد فرت منه صباحا تتوعده بأنها ليلة لن تتكرر ، ابتسم ينفض المياه من شعره محركا أصابعه فيه فقد زاد طوله وهو لم يعتد تركه ليصل لهذا الطول حتى يحف أذنيه وتنزل خصلات مؤخرته على قفا عنقه ، أوقف المياه التي أصبح يشعر بها دافئة على بشرته ثم جذب المنشفة لفها حول خصره ورمى الأخرى على كتفيه وخرج للغرفة يجفف شعره بعشوائية بطرف تلك التي تدلت على ذراعيه ونظره على التي ترمي ثيابه على السرير وهي تخرجها دون أن تنظر ناحيته ولا للمكان الموجود فيه ، رمت القميص الأزرق المسحب بدرجات الرمادي قائلة " خذ ثيابك وللحمام فورا "

عض طرف شفته يمسك ضحكته وسحب ملابسه الداخلية من فوق السرير الواسع وقال عائدا أدراجه " من يسمعك لا

" يصدق أنك من دخل الحمام منذ قليل

وصله ردها سريعا قبل أن تخطو قدمه داخل الباب " ظننتك

ممن يفضلون الاسترخاء في المياه والصابون وهم متعبون

فلا تذكرني بها كل حين "

ضحك وأغلق الباب خلفه دون أن يعلق وحين خرج للغرفة لم تكن

فيها لبس باقي ثيابه ووقف أمام المرآة وسرح شعره بمشطها ، عليه

أن يقصه ما أن يخرج من المنزل لا يحب أن يكون طويلا هكذا رغم

أنه طول بسط ولم يفسد منظره مع كثافته وسواده الحالك ، توجه

لخزانة أسلحته فتحها وأعاد فيها المسدس والرشاش ثم نزل على

قدميه فتح الدرج السفلي بمفتاح خاص به أخرج مجموعة أوراق

فرزها ورتبها وهو مكانه ثم وقف وأغلق الخزانة وعاد جهة

طاولة التزيين ووضعهم في أسفل أدراجها حيث لم يترك لها

سوى واحدا من بين أربعة أدراج واسعة والبقية فيها أهم الأوراق

التي لا يتركها في المكتب ، أغلق الدرج لحظة دخولها للغرفة

وأستوى واقفا والتفت لها وقد توجهت نحوه ووقفت أمامه تعدل له

ياقة قميصه المثنية للداخل وقالت ونظرها عليها " أراك تحتاج

" لأن ترتاح وتنام هل نؤجل العقاب أم مستعد له الآن ؟

ضحك وحضن وجهها بكفيه وألصق جبينه بجبينها الحركة التي يعشق

وكم اشتاق لفعلها ناظرا لعينيها المحدقة بعينيه ، العينان التي كم يتمنى

أن تزول منهما لمحة الحزن التي لم يكن يراها فيهما ، الحزن الذي لم

يظهر بهذا الشكل المؤلم ولا حين وجدت نفسها هنا وزوجة له دون أخذ

رأيها ولا موافقتها ، حزن لن يستطيع مناقشتها فيه الآن ولا تخفيفه كي

لا يكسر اعتزازها بنفسها وكبريائها وهي تقاوم دموعها وكل ذكرى قد

تتسبب في جريانها ، همس مبتسما وإبهاماه يختبران ثبات لون خديها

الزهري الغريب وكأنه يشك في كل مرة أنها حمرة صناعية

" لن يكون قاسيا أليس كذلك ؟ "

ابتسامة صغيرة ارتسمت على شفتيها الحزينة وقد رفعت كفها

ولامست به كفه المحتضنة لوجهها قائلة " بالنسبة لي شيء لا

" يذكر ، لديك أنت ....!

" ثم حركت كتفها برقة متابعة " قد يكون قاسيا جدا

ضحك وقبل شفتيها قبلة صغيرة ثم أبعد يديه عن وجهها قائلا

لديك الوقت حتى صلاة العشاء بعد ذلك لا شيء ينفع لي "

" سوى النوم

نظرت للساعة الضخمة التي تتوسط أحد الجدران وقالت بعبوس

" صلاة العشاء بعد أقل من ساعة "

قال وهو يأخذ مفاتيحه ويدسها في الجيب الخلفي لبنطلونه

" كم تريدين إذا ؟ "

توجهت للطاولة أخذت هاتفه ووضعته في الدرج وأغلقته عليه على

نظراته مبتسما لما تفعل ثم أمسكت يده وسحبته منها جهة باب

" الغرفة قائلة " ساعتين بعده والليل طويل ستنام حتى تشبع

تبعها منصاعا فهو تكيف على أن يتعايش مع مقاومة جسده للتعب

والنوم والتركيز على ما حوله حتى يجد نفسه في السرير وينسلخ

حينها عن الواقع في وقت قياسي ، شقت به ذاك البهو الواسع للمنزل

بعدما نزلا السلالم وهي تتوجه جهة مكان غضن جبينه فورا لرؤيته

فهو لم يزره من ....!! مدة لا يعلم كم تكون ؟ قد يكون من قبل وفاة

والده ... من قبل توليه زعامة الحالك ... لا يذكر حقا ! وقفت

عند الباب النصف مغلق والتفتت له وهمست ناظرة لعينيه

" لن تخرج من هنا إلا معي اتفقنا ؟ "

" سيدتي تنهد مبتسما وهمس مثلها " أوامرك

دفعت الباب بهدوء وقد تركت يدها يده ودخلت لتقابلها النظرات المترقبة

للجالستين هناك حول الطاولة البيضاوية المغطاة بمفرش أبيض حريري

قد حرصوا على الاهتمام به أكثر من استخدامهم للمكان ، كان الطعام

موزعا فوق نصفها حيث تجلسان من استدعتهما الخادمات بطلب منها

لتكونا هناك وتنتظرانها ، كانت نظرات جوزاء المصدومة في

استقبالهما بينما ضحكت عمتهما تخبئ فمها في يدها وقالت

" كيف وافق أن يأتي معك ؟ "

كان هو من تحرك هذه المرة وسحبها من يدها معه جهة الطاولة

" قائلا " هل يمكنني الجلوس دون أن آكل أم عليا مشاركتكم ؟

سحبت الكرسي المجاور لكرسي عمتها التي كانت تجلس عند رأس

الطاولة وجوزاء على يمينها وجلست هي على يسارها بينما سحب

هو الكرسي بجانبها وجلس على كلماتها وهي تعدل صحنه أمامه

" يمكنك أن تجبر نفسك هذه المرة أو اشرب العصير على الأقل "

ثم وقفت ودارت خلف كرسيه ورفعت طبق الأرز الكبير

" قائلة " عمتي هل اسكب لك منه ؟

" قالت تلك مبتسمة " أجل

انتقلت جهتها من فورها وسكبت لها في صحنها ثم نظرت

" للجالسة بجانبها قائلة " جوزاء هل أسكب لك ؟

هزت تلك لها رأسها إيجابا دون أن تتحدث وعيناها لازالت تراقبها

باستغراب حتى سكبت لها في صحنها ثم عادت للدوران حول الطاولة

لتعيده مكانه وما أن مرت خلف ظهره نظر لها فوقه قائلا

" اسكبي لي قليلا "

سكبت له فورا ووضعت الطبق مكانه وعادت للجلوس مكانها وقد

" قالت عمتها ضاحكة " وسكبت للجميع أين حصتك أنتي ؟

رفعت قطعة لحم خروف من أحد الأطباق ووضعتها في صحنها

" قائلة " سأكتفي بهذه

قال الجالس بجانبها وهو يملأ ملعقة بالأرز " ولنا تسكبين

" الأرز فقط وأنتي تأكلين اللحم ؟

" نظرت له بعبوس طفولي وقالت " اللحم أمامك

وتبعت تقطع جزئا منها بيدها وتمدها لفمه " أم استحليت

" حصتي ؟ خذ منها

لم يرى غيره حينها عينا جوزاء التي كادت تخرج من مكانها وهي

تنظر ليدها الممدودة أمام فمه وعمته التي كانت تمسك ضحكتها بشق

الأنفس عن الخروج وعيناها على ذات المشهد فنظر ليدها ولقطعة

اللحم بين أصابعها وفتح فمه ملتقطا لها بأسنانه التي تعمد أن يقدمها

قليلا وهو يمسكها بهم فسحبت يدها وخرج صوتها لا إراديا بسبب

" !! تألم أصبعها " أي ... مطر

فوقفت حينها جوزاء وغادرت وكأنها تبحث عن مكان تخبئ فيه

وجهها وتحركت عمتها بالكرسي قائلة بابتسامة ونظرها على

" التي اتجهت للباب " انتظري خذيني معك

وقد عادت لها تلك وأمسكت بمقبضي كرسيها وأخرجتها معها تتحدثان

عن علاجها الذي يفترض بها أن تأخذه قبل أن تتناول طعامها ونسيتاه

كليهما واختفتا خلف الباب على نظرات الجالسة على كرسيها ملتفتة

" للخلف وقد نادت تمسك عبرتها " عمتي لماذا ذهبتما ؟

كانت ستقف في إثرهما لكن يده أوقفتها وأعادتها للجلوس قائلا

" يريدان ترك المكان لنا ليس إلا ولن ترجعا "

نظرت لعينيه وقالت والدموع تلمع في عينيها الواسعة

" ..... لم أقصد ما فهمتاه أنا فقط "

وتاهت الحرف تخشى أن تخرج عبرتها معهم إن تحدثت فما لم تستطع

شرحه والبوح به أنها اعتادت هذا في منزل والدها حيث الفتاة المدللة بين

خمسة رجال أكبرهم عاملها كطفلة مهما تقدمت سنوات عمرها وعاملته

كوالد لم تكسبه فتاة غيرها حتى طعامه يأكل نصفه من يدها ، وكم كانت

تدور حول الطاولة كلها لتصل لرماح وتضع حبة الزيتون في فمه لأنهما

يتشاركان في حبه وهي تأخذ الصحن جهتها كي تأكل منه متى تريد

وما غفلت عنه أن الذي يجلس بجوارها الآن هو أكثر من كان يفهمها

ويعلم أن تصرفها لم يكن سوى حنينا لتلك الأجواء والعائلة ... غسق

مدللة منزل شراع صنوان التي تغلبت عليها الآن ، والسبب كان ذاك

الحزن العميق لفقدها لشقيقها ، مسح بيده على طرف وجهها مبعدا

شعرها عنه وهي تنزل رأسها للأسفل فرفعت نظرها الكئيب به

وأبعدت شفتيها لتتحدث فسبقها قائلا بابتسامة " محضوض هو

شراع بابنة تطعمه بنفسها "

قفزت دمعتها من عينيها فجأة فخبأت وجهها سريعا في كتفه وقد

حوط كتفيها بذراعه مساحا بكفه الآخر على شعرها وقال " لست

بحاجة للشرح يا غسق أنا أفهمك وهما اعتقدتا فقط أنه من

حقنا أن نكون وحدنا هنا "

ابتعدت عنه ووقفت وقد مسحت عينيها سريعا تخفي بقايا آثار

دمعتها تلك فوقف أيضا حامدا الله بهمس ونظر للتي سبقته جهة

الباب قائلة " لم ينتهي العقاب بعد وحين ترجع من المسجد الحق

" بنا في غرفة عمتي

لم يعلق وقد راقب مبتسما خروجها وآخر خصلة من شعرها الحريري

الطويل تغادر خلفها ثم نظر للساعة في معصمه وكان بالفعل لم يتبقى

على وقت الصلاة الكثير فغادر من هناك وصعد السلالم على صوت

الأذان واختار أن يصلي في غرفته فإن خرج للمسجد سيوقفه مئة

شخص وسيجد نفسه منغمسا في مشاكل ومسائل كثيرة وسيحتاج

لأكثر من ساعة ليرجع للمنزل وستغضب لتأخره ، ثم عظامه لم

تعد تتحمل الوقوف ولا لخمس دقائق أخرى ، أنهى فرضه والنافلة

وأوتر أيضا وجلس حتى أتمتم تسبيح ما بعد الصلاة ثم وقف طوى

السجادة التي كان يستنشق عطرها فيها كلما سجد وأعادها مكانها

حيث لباس الصلاة الخاص بها وغادر جهة الباب ليوقفه مكانه

صوت رنين هاتفه في الدرج ، كان سيتوجه له وتذكر أنها أبعدته

فتجاهله وخرج من الغرفة ساحبا بابها خلفه ليختفي صوت رنينه

المرتفع خلفه ما أن أغلقه ونزل السلالم وتوجه من فوره لغرفة

عمته فأمامه ساعتين أخريين كما اشترطت عليه ولن يمانع أو يماطل

فهو يعطي غيرهم أكثر من ذلك الوقت بكثير يعلم ذلك ويعيه جيدا

لكن وقته ليس ملكه ولم يعتد على أحاديث النساء ولا يعلم حتى فيما

يتحدثن إن اجتمعن ، فتح باب الغرفة بهدوء وظهرن له من خلفه

حيث كانت جوزاء وعمته يتناقشان حول إحدى علب أدويتها وأنها

أنهت منه اثنتين وهذه الثالثة خلال الشهر المنصرم وعمته تصر

أنها ثاني علبة بينما تلك منشغلة بعلبة أخرى تقرأ ما كتب عليها

رفعن نظرهن به ما أن أغلق الباب خلفه وقال بابتسامة مائلة

" توقفا عن النظر لي هكذا وكأني مخلوق فضائي "

وتابع ونظره على الجالسة مقابلا لهما وهما المعنيتان بحديثه

" هل يمكنني مشاركتكم هذه الجلسة أم أنصرف من غير طرد "

وضعت غسق العلبة من يدها وتحدثت بما أن الطرفان المعنيان لم

تتخطيا الصدمة بعد وتعلم أنه قد يستغل الوضع ليهرب " بالطبع

" يمكنك مشاركتنا دون سؤال

اقترب وجلس بجوارها على الأريكة لا يفصله عنها شيء وقالت

" عمته مبتسمة تنقل نظرها بينهما " ما هذا المساء العائلي السعيد ؟

بينما اكتفت جوزاء بالصمت فهي وإن أصبحت لا تعاملها بنفور

كالسابق لازال ذاك الحاجز لم يتلاشى بعد ، قالت غسق مبتسمة

وقد نقلت نظرها منه لهما " أجل ما أجمل هذه الكلمة لا ينقصنا

" سوى عمي صقر ليته كان هنا الليلة

اتكأ مطر لظهر الأريكة خلفه فاردا ذراعها عليها من خلف شعرها

" وقال " لو كان هنا ما وجد أحد منكم مجالا ليقول شيئا

ضحكت نصيرة بينما وكزته غسق بمرفقها قائلة بحزن

" لا أغابه الله عنا وحفظه لكم "

تحدثت جوزاء هذه المرة ناظرة لشقيقها " مطر بما أنك وجدت

وقتا لتجلس معنا عليا أن أوصل لك رسالة إحدى النساء فهي

" كلما أتت هنا سألتني إن أخبرتك

أومأ لها برأسه لتتابع دون تعليق وحدث ما أرادته غسق حقا فلم يكن

ذاك الطلب الأول ولا المشكلة الأولى التي يناقشانها معه مما قد تم مناقشته في مجلسهم وحتى مسألة دور تحفيظ القرآن للأميين وكبار السن التي شرح سبب تقصيرهم فيها وما اقترحوا عليه وتناقشوا فيه من سنوات والأسباب التي منعتهم من توفيرها ... المباني عدد حافظي القرآن وتوزيعهم على المدارس وحتى أنه تناقش والمتخصصين في توفير فصول لهم في المدارس الابتدائية وثمة مشاكل كثيرة عرقلت ذلك ، واكتشفت أنها لم تكن أول من عرض عليه الأمر وأنه ليس كما توقعت تجاهله ولم يفكر فيه ، وكل مسألة تطرحانها يكون لديه ذات الإجابات كم هائل من التعقيدات التي يحاول شرح بعضها فقط لهما مختصرا ليتأكد لهما أن مساهمة النساء فيها مستحيلة وأنه فكر في كل ذلك ولم يهمله سابقا وليس كما تضن وظنوا ، وكانت تكتفي هي بالاستماع فقط لأنهما أدرى بمشاكلهم ومدنهم وإن كانت على إلمام بأغلب تلك الأمور المتداولة في مجلسهم الشبه يومي مع اختلاف الحاضرات فيه ، غابت بنظرها للأرض في شرود حين

رأت أنهم لم يستفيدوا من تلك الجلسة شيئا سوى إرهاقه في الشرح

والحديث دون نتائج عدا أنهما فهمتا أسبابه لتجدا ما تقولانه حين تثار

. هذه المواضيع في مجلسهم مجددا ولا يكون جوابهما الصمت التام

إشارة من عمته نحوها جعلته ينظر جهتها ولسرحانها وشرودها

الحزين وكأنها لم تعد معهم ثم عاد بنظره لها وفي حركة من

حدقتيها ونظرتها عاقدة حاجبيها فهم أمرها له وتوبيخها فابتسم

لها ثم مال برأسه على رأس الجالسة ملاصقة له وهمس ناظرا

لجانب وجهها القريب منه " لما لا تشاركين بقول شيء ؟

" هل الجلسة مملة لهذا الحد ؟

ابتسمت تنزل رأسها للأسفل وقد أخفت غرتها التي بدأت بالتساقط

ملامحها عنهما وهمست مثله " المهم أن لا تمل أنت ، أعتقد

" أنها تشبه جلساتك مع رجالك

خرجت ضحكته رغما عنه عميقة مبحوحة رغم قصرها ورفع يده

عن ظهر الأريكة مبعدا بأصابعها خصلات غرتها مع بعض شعرها

في الجانب الآخر فوكزته هامسة بخفوت " مطر أبعد يدك هل

" تريد أن تهربا مجددا

خرجت منه ضحكة صغيرة وقد عدل جلسته وأبعد يده فوقفت

جوزاء وقالت " سأبلغها بما قلت على الأقل ترى لنفسها

" حلا آخر وتيأس من طلبها واقتراحها

قال ناظرا لها " أخبريها ترسل لي أحد رجال عائلتها وسأرى

" ما يمكن فعله في أمرها لكن لا تعديها بالكثير يا جوزاء اتفقنا

هزت رأسها بحسنا مبتسمة فهي وإن كرهت أن هذه المرأة وخلال

أشهر قليلة لها هنا استطاعت أن تظهر مطر آخر لا يعرفونه ولم

يستطيعوا إخراجه كل تلك الأعوام أو لم يحاولوا وذاك هو الواقع

إلا أنها أحبت أن أشركته الليلة أمسيتهم وبدلا من أن تستغل الوقت

لها في غرفتهما تنازلت عنه لهما ولا أحد يعلم هل تشرق عليه

شمس الصباح وهو هنا أم في الحدود وكم قد يغيب ولن تراه

غير الليلة ، انحنت بعدها للطاولة وجمعت علب أدوية عمتها

في الكيس ووضعتهم في الدرج وقالت مغادرة " أنا تغلب

" عليا النعاس تصبحون على خير

وخرجت مغلقة الباب خلفها فنظر لها مطر وقال بابتسامة مائلة

" هل علينا انتظار عمتي أيضا حتى تنعس ؟ "

نظرت له بضيق وقالت " كلها ساعة وأصابك الملل ؟ كنت

" تركت ما في قلبك ولم تقله أمامها

ضحكت نصيرة وقالت " هذا إنجاز عظيم له قد يحتاج لليلتين

" ليخرج أصواتنا من دماغه

نظر لها هو بضيق هذه المرة وقال " يعجبك أن أصبحت

" سخرية لها ؟

" وقفت وقالت " لو كانت معتادة على جلوسك معها ما قالت ذلك

" وتابعت متجهة للباب " احمد الله أنها كانت ساعة فقط

وخرجت تاركة الباب خلفها مفتوحا فوقف مبتسما ورفع عمته من

كرسيها واضعا لها على سريرها برفق وقال ساحبا الغطاء

" السميك على جسدها " تريدين شيئا قبل مغادرتي ؟

" قالت تعدل الغطاء على صدرها " شكرا بني

وتابعت ونظرها معلق به فوقها " اذهب لزوجتك ولا تغضبها

" الليلة مطر ، عوضها عن بعدك عنها الأسبوعين الماضيين بني

هز رأسه بحسنا دون كلام وقبل جبينها وغادر هامسا

" تصبحين على خير "

وأطفأ نور الغرفة وغادر مغلقا الباب خلفه برفق

*

*

دفعت الباب بهدوء واقتربت من الجالسة عند ذاك السرير وما

أن وصلت عندها حتى همست لها " يمكنك الذهاب سأبقى أنا

" بجانبه باقي الليلة حتى الفجر

وقفت تلك وباذلتها الهمس قائلة " بعد ربع ساعة حاولي أن تشربيه

" بعض الماء وإن لم ينجح معك الأمر أخبريني

هزت لها رأسها بحسنا فغادرت تلك مغلقة الباب خلفها وجلست هي

على الكرسي تراقب على ضوء الشموع الخفيف ملامح النائم على

ذاك السرير منذ يومين لا يعلم عما يحدث حوله وبالكاد يخرج منه أنين متقطع بعض الأحيان ويهمس بأسماء لم يفهمها أحد ، هم تعلموا أن لا يشهروا كهذه الحالات بسهولة كي لا يُتهموا فيها ولن يستطيعوا رد أذى البعض عنهم بسهولة لذلك كان عليهم معرفة هويته أولا . ولن يعرفوها ما لم يتحدث هو نفسه

لا تعلم كم من الوقت مر وهي تتأمله في صمت فما أن تجلس هنا حتى تنقطع عن كل شيء حولها وتتوه عيناها في ملامحه ، رفعت يدها بتردد ومدتها حتى لامست أطراف أناملها خده وشعرت لحيته التي بدأت بالنمو أبعدت يدها توبخ نفسها فكأنها لم ترى رجلا من قبل ! لا هي لم ترى رجلا غريبا لا يحمل ملامح رجالهم ذو شعر بني غامق هكذا يشبه لون القهوة وبشرة سمراء بشكل ساحر أطفا عليه جاذبية مختلفة عن رجالهم وقفت وجلست على طرف السرير عند رأسه ومررت يدها تحت عنقه واستجلبت كل قواها لرفع رأسه قليلا وحملت كأس الماء وقربته من شفتيه لتلامسها برودتها وهمست " هيا أشرب أيها الأسمر الوسيم

" كي لا تموت لنا هنا ويأتي أهلك طلبا للثأر منا

وبعد محاولات عدة حتى شعرت بالخدر في يدها وذراعها من رفعها

لرأسه تحرك فكه وشرب ، أنزلت رأسه ومسحت له ما تسرب من

الماء على وجهه وعنقه هامسة بابتسامة " جيد شطفه صغيرة

" لكنها أفضل من لا شيء

ثم عادت للجلوس مكانها وعادت لتأمله تنتظر اللحظة التي سيفتح فيها

عينيه لترى إن كانت كلون شعره أم لا

*

*

فتح باب الغرفة ودخل وكانت تجلس على سجادتها مولية ظهرها

للباب فأغلقه وتوجه لمرآة التزيين فورا أخرج تلك الأوراق من

الدرج وجلس على طرف السرير يقلبها ثم فتح الدرج الأول

وأخرج منه صندوقا مسطحا وحديديا وما أن شعر بحركتها

" خلفه في الغرفة قال " غسق تعالي

وضعت لباس الصلاة واقتربت منه وجلست بجانبه تنظر باستغراب

للعلبة المفتوحة في يده والمساحة الزرقاء التي تغطيها ، مد يده ليدها

وأمسك إبهامها وضغطه على تلك القطعة المشبعة بالحبر الأزرق

ورغم معرفتها بما يفعلون بها كانت تنظر لها وكأنها تراها لأول

مرة في حياتها ، كرر ضغط إبهامها عليها أكثر من مرة حتى

أشبعه به ثم أغلقها ووضعها على فخذه وبدأ بأخذ الأوراق من

جانبه بالواحدة يضعها فوقها ويبصم لها بإبهامها عليها ولم تفهم

شيئا مما يجري تنظر لجانب وجهه منشغلا بالنظر لما يفعل ولم

تنظر لتلك الأوراق ولا ما تحوي وهو يبصم لها بإبهامها عليها

سريعا ويقلبها في الجانب الآخر حتى انتهت وترك يدها ورفع

تلك الأوراق يعدلها على فخذه مع بعضها فنظرت لإبهامها

الملطخ بذاك اللون ثم لوجهه وقد قال " هذه سأتركها لدي

حتى وقت معين لتصبح لك "

همست مستغربة " وما تكون هذه ؟ "

نظر لها ورفع يده ومرر أصابعه في غرتها رافعا لها للأعلى كاشفا

عن جبينها الصغير وقبله قبل طويلة ويده تنزل خلف رأسها وغرتها التي

تحررت من أصابعه تداعب وجهه مصطدمة به وقت عودتها ، أنزل

" رأسه ونظر لعينيها وقال " مهرك يا غسق أم نسيتِ ؟

فتحت فمها مصدومة ثم قالت " لكني تنازلت عنه وأنت تعلم

" !! ذلك جيدا

هز رأسه بنعم وقال ممرا إبهامه على جانب وجهها نزولا لخدها

ناظرا لعينيها الضائعة في عينيه بحيرة " أجل أعلم وأنا ما كنت

لأنام معك على سرير واحد دون مهر ، كنت سأفعلها ذاك

" اليوم لكنك تعلمين ما انتهت له تلك الليلة

أرخت نظرها للأسفل وقد غطى الوجوم والحزن ملامحها تشعر

بمرارة تلك الليلة وكأنها الآن فمال برأسه جانب وجهها وقبَل

خدها ثم طرف فكها فعنقها ثم نظر لعينيها وهمس

" أعلم أنها ستكون لديك في يد أمينة "

! هزت رأسها بعدم استيعاب وقالت " لكنك كنت رافضا

" ....و.... والناس هنا وصنوان أنـ

أومأ برأسه متفهما ما تريد قوله ثم وقف حاملا الأوراق معه وقال

" متوجها بها جهة خزانة الأسلحة " لن يعارض أحد أو يناقش يا غسق

ثم تابع وقد نزل يفتح الدرج السفلي فيها " وثمة شرط بتحققه فقط

" تصبح ملكا لك

وقفت غير مصدقة ما تسمع وما فعل ونظرت له خلفها حيث وقف

يغلق باب الخزانة ثم التفت لها قائلا " لن تنتهي شروط ملكيتها

لك إلا بتوحيد البلاد وحينها لك حرية التصرف فيها وإن ببيعها

" أو تركها كما هي لا يدخلها أحد

تبعته بنظراتها المصدومة وهو يقترب منها حتى وقف أمامها ممسكا

" لوجهها ناظرا لعينيها وقال " وستسقط هذه الأوراق قبل ذلك بمجرد موتي

شعرت بقلبها ارتجف بقوة بين ضلوعها حتى شعرت بقوة ارتطامه

بهم وتلألأت الدموع في عينيها فاتكأت بجبينها على ذقنه وقد حرر

وجهها من يديه وطوقت هي عنقه بذراعيها هامسة برجاء تجاهد

عبرتها " لا تذكر الموت يا مطر ، لا أريد العمران ولا أي شيء

" كل ما أريده أن لا أفقد أحدا مجددا

ضمها لحضنه بقوة مطوقا لها بذراعيه وقبّل رأسها قائلا " لا أحد

يمسك الموت ، علينا أن نكون مستعدين له دائما فهو واقع لا

" يغيره مال ولا سلطة ولا قوة

ابتعدت عنه ووضعت أصابعها على شفتيه قائلة برجاء

" لا تذكره يا مطر توقف أرجوك "

أمسك كفها وقبله برقة فهمست بصعوبة ناظرة لعينيه

" وماذا إن طلقتني "

شعرت بالكلمات خرجت من قلبها كالأشواك حتى مرت بحلقها وبأن

تأثيرها على ملامحه لم يكن أقل من صفعة قوية وجهت لوجهه وقد

" قال بحزم " لن أطلقك يا غسق كم مرة سأقولها

" أومأت برأسها بتفهم وهمست مجددا " إن فرضنا مثلا

هز رأسه بلا عاقدا حاجبيه الطويلان المستقيمان وهمس بخشونة

" هو كالحديث عن الموت لديك يا غسق الخوض فيه ممنوع "

أنزلت رأسها للأسفل ولا تنكر أن ذاك الكلام أراحها ، هي تخشى

حقا من حدوث ذلك ما أن تتكاثر الفجوات بين الحالك وصنوان

وبعدما ينتهوا من الهازان ويتفرغوا لها ، وتعلم أي اضطرابات

قد تمر بها علاقتهما وقتها ومطر هذا سيختفي كما غسق أيضا

والله وحده يعلم من الخاسر والرابح حينها حرب السلاح

والقوة أم حرب المشاعر ؟؟

طرق احدهم باب الغرفة حينها طرقات خفيفة متتالية فنظرت له

باستغراب وقد تحرك جهته من فوره فتحه فكانت حفصة وقالت

بارتباك وتوتر ظاهرين " آسفة سيدي حقا أنـ .... "

قاطعها عاقدا حاجبيه مستغربا " ما بك يا حفصة ؟ "

تنفست بقوة وقالت " جاء أحد العمال وقال أنه ثمة رجل كان

يطرق باب المنزل الخارجي بقوة وقال أنه يريد رؤيتك لأمر

ضروري وأنه اتصل كثيرا ولم تجب ، كان مصرا ورفض

المغادرة "

نظر خلفه للتي دارت حول السرير وأبعدت طرف اللحاف وجلست

تبدوا تنوي النوم أو توقعت أنه سيخرج ولن يرجع ثم خرج من

الغرفة مغلقا الباب خلفه ونزل للأسفل وخرج وتوجه للواقف يوليه

ظهره في عتمة ذاك المكان والتفت له ما أن شعر بخطواته فقال

" باستغراب " تميم !! ما الذي جاء بك هنا ؟

قال ذاك من فوره " اتصلت بك كثيرا وقبلي شراع صنوان

" فاتصل بمقرنا هناك

" !! قال مستغربا " شراع

هز رأسه بنعم وقال " حين لم تجب على اتصاله اتصل بالمقر

" وطلبني شخصيا وأمنني أن أوصل لك كلاما لا يصل لغيرك

أومأ له برأسه ليتابع فقال بهدوء حذر " قال أن ابنه رعد داخل

حدودنا من خمسة أيام وقال أن دخوله كان سببه بحثه عن أحد

" أشقائه ويطلب أي معلومات عنه وإن كان أسيرا لدينا

مرر أصابعه في شعره ينظر له بضياع وعدم تصديق وقال

" هل هو متأكد من أنه هنا ؟ هل من معلومات عنه ؟ "

هز ذاك رأسه بلا وقال " لا شيء وصلنا عنه ، أحد الجنود قال

أن دوريته وجدوا متسللا من أيام أطلقوا عليه الرصاص وأنت

تعلم الحدود كان الجنود فيها شبه معدومين ، قال أنه كان يركب

سيارة وأنهم أصابوه وفقدوه بعدها ولا أحد يعرف هويته وإن

كان هو أو غيره "

التفت لا إراديا ونظر لنافذة غرفته العالية المغلقة فهي أول من

فكر فيه ، عاد بنظره له وقال " حركوا دوريات للبحث عنه لا أحد

يتعرض له ولا تطلقوا عليه الرصاص وإن بادر هو بذلك

وأوصلوه للحدود فور أن تجدوه مفهوم يا تميم "

هز ذاك رأسه بالطاعة وغادر من فوره بعدما اعتذر عن إزعاجه له

هذا الوقت وعاد هو أدراجه يحمد الله أنه لم يصلهم خبر وجود جثته

كشقيقه ، صعد السلالم متمتما بضيق " ما أصاب عقولكم يا أبناء

شراع ! هل سيفقد كل واحد منكم حياته للوصول للآخر ؟ "

دخل الغرفة ووقع نظره على النائمة مولية ظهرها للباب وقد

" قالت ما أن أغلقه " هل ثمة مكروه ما ؟

همس يخلع قميصه متبعا له القميص الداخلي فلا يعرف ولم

" يعتد إلا النوم هكذا " لا شيء خطير

قالت بشبه همس " آسفة لأني جعلتك تسهر وأنت متعب

" لكنهم يحتاجون وجودك ولو نادرا يا مطر

ثم سحبت الغطاء لفوق رأسها مندسة تحته فأغلق النور ولم يبقي سوى الإضاءة الخفيفة ودخل السرير أيضا ونام على ظهره ناظرا للسقف ثم سرق نظره جهتها وهي على حالتها تلك ثم عاد به للسقف وأراح ذراعه على عينيه ، احتياجه الجارف كرجل أمام امرأة مثلها يقوده لها بقوة ويعلم أنه إن طلب ذلك لن ترفضه لكنه احترم ابتعادها وعزلتها وضغط مشاعرها بعد كل ما واجهته مؤخرا ، لم يحتج لوقت طويل ليسافر في النوم الذي سلب إرادته تماما ، ورغم كل ذلك كان نومه نوم محارب حذر وجس يشبه نوم جواد بري لا يستأمن حوله شيئا فقد جلس بسرعة ما أن شعر بخطوات ما تحركت في الغرفة وقد اصطدم صاحبها بشيء ثقيل لم يحركه ، وقد احتاج لبعض

الوقت لأن يستجمع تركيزه ويتذكر أين هو الآن ليستوعب أنه

ليس في الحدود وأن الجسد الذي يتحرك جهة الباب جسد امرأة

فقفز مغادرا السرير راميا الغطاء عنه وأمسك ذراعها وأدارها

جهته قبل أن تفتحه هامسا " غسق أين تذهبين هذا الوقت ؟ "

مسحت عينيها بظهر كفها وكانت أيضا تحتج لبرهة لتتذكر أنه كان

نائما معها على ذات السرير ، مسحتهما مجددا بقوة تخفي الدموع

التي نزلت منها فشدها لحضنه وطوقها بذراعيه بقوة قائلا

" أنا هنا غسق لما تنزلين لعمتي ؟ "

وزاد من احتضانه لها ما أن أطلقت عنان كل تلك الدموع التي كانت

تخفيها خلف حزنها وابتساماتها الصغيرة الكئيبة وخلف تلك القوة

الضعيفة الزائفة ، خرج صوتها من بين أنينها الباكي برجاء كسير

" قل أنه لم يمت ، قل أنها ليست حقيقة .. قلها وإن كذبا يا مطر "

ضمها أكثر يخفيها في حضنه وقبل رأسها قائلا " ادعي له

بالرحمة يا غسق كل هذا لن يفيده في شيء "

قالت ولم يخف بكائها شيئا " كم تأملت في عودتك وفي أن تنفي

كل ذلك ويظهر أنه لا حقيقة له لكنك لم تقل شيئا ، تعاقبت

الساعات ولم ترحمني أبدا "

أبعدها عن حضنه وقال ماسحا لدموعها برفق " غسق أنتي

تؤذين نفسك وغيرك بهذا ، لا تفقدي إيمانك لا تتركي نفسك

عرضة لوساوس الشيطان "

هزت رأسها بقوة ورفض وضربت بقبضتها على صدره العاري

وقالت بنحيب " كان الأقرب لي ... أنت لن تفهم ذلك أبدا يا مطر لم

نفترق منذ تعلمت المشي ، كنا كالشخص وظله ، حتى أني كنت أنام

غاضبة كل ليلة لأنه يرفض أن أنام معه في سريره ، أنت لن تفهم

ذلك يا مطر لن تعلم ما يعنيه لي ، كم جلسنا كم تسامرنا

كم كنا مقربين كالروح والجسد "

أمسك وجهها بيديه قبل شفتيها عينيها وجبينها ثم دسها في حضنه

مجددا وقال " شراع أصيب بجلطة دماغية وضنوا أنه سيموت

ونجاه الله واستعاد عافيته فاحمديه على ما يعطي لا تنظري

" فقط لما أخذ

" !! ابتعدت عنه بقوة وصرخت بصدمة " والدي

" ....أمسك ذراعيها بقوة وقال " هو بخير يا غسق لـ

دست وجهها في كفيها ولم تزدد إلا بكاءً ونحيبا فهزها قائلا

" غسق قلت ما قتلت لترحمي نفسك لا لتزيديها عذابا "

أبعدت يديها وأغلقت بهما أذنيها من فوق شعرها وقالت بعبرة

إن مات أيضا فلا تقلها لي يا مطر أرجوك لا تذكرها أمامي "

" أقسم أن أموت بعده

أبعد يديها وقال بحزم " قلت أنه بخير يا غسق ولا أحد يموت

" بعد أحد ، توقفي أنتي أيضا عن ذكر الموت

هزت رأسها بقوة وقالت ببكاء " لا أحد يموت بعد أحد لكني

" سأعيش بعده ميتة جسد بلا روح

ثم وضعت كفها على صدره ناظرة لعينيه وقالت برجاء باكي

اتركني أراه مطر ، أسمع صوته على الأقل افعلها من أجلي "

" أرجوك ، أعلم أن ذلك مستحيلا فاتركني أسمع ولو صوته

ضمها لحضنه وقال بحنان ماسحا على ظهرها " حاضر

" أعطني يومين أو ثلاثة ، فقط توقفي عن البكاء

*

*

خرج من غرفته ونظر حيث ذاك المنزل وصوت بكاء الطفلة

الخارج منه يعرف جيدا لمن يكون فضغط قبضته بقوة وهمس

من بين أسنانه " ألا يعلم هؤلاء البشر أن الأطفال يخطئون

" أحيانا دون قصد منهم

بقي واقفا مكانه حتى سمع باب المنزل يغلق بقوة وما هي إلا لحظات

وخرجت من بين الأشجار تحمل حقيبتها على كتفها واقتربت منه

تمسح دموعها وشهقاتها لازالت تتالى ، المدارس تأخرت هذا العام

عن المعتاد بسبب ما يحدث عند الحدود وفتح المدارس في مدن

الهازان ونقص التكاليف فلم يدرسوا إلا نهاية الخريف ، نظر لها

" وهي تقترب وقال " لماذا ضربتك هذه المرة ؟

" اجتازته قائلة بعبوس " لن أقول

تبعها هازا رأسه بيأس منها وسار بجانبها فلازالت تتمسك بطبعها

القديم تأخذ الطعام له دون علمهم لأنهم لا يعطوه ما يأكل في المدرسة

وحين تمسك بها تلك تضربها وترفض أن تخبره عن السبب كي لا

يوبخها ويرفض الطعام لاحقا ، سارا تحت أشجار البلوط الممتدة

تتمسك بصمتها تنظر للأرض بحزن وغاب نظره هو في أشجار

الحقول التي فقدت أوراقها وروعتها حتى وصله صوتها منخفضا

ولازال نظرها على حركة قدميها على التربة المبللة بسبب

" أمطار البارحة " تيم ما يعني زواج قسري ؟

نظر لها باستغراب وقال " وما يدرني أنا ، من أين سمعت

" هذا ؟

رفعت نظرها للسماء التي لازالت تتجمع الغيوم الرمادية فيها

" قائلة " أنت لا تعلم لما سأخبرك

" ثم نظرت له قائلة " لماذا يتزوج الناس ؟

نظر لها وقال بضيق " ماريه ما بك مع هذه الأسئلة ؟ ما يدرني

لماذا يتزوجون ، قد تتزوج النساء ليثرثرن على رؤوس

الرجال طوال الوقت "

عبست ملامحها وقالت " ولما يتزوجوهن إذا كن سيثرثرن

على رؤوسهم "

قال ببرود ناظرا لباب المدرسة الذي ظهر لهما من بعيد

" حين أكبر أخبرك لما يتزوجهن أما الآن فلست أعلم "

حركت كتفيها بعدم اهتمام وما أن أوصلها لفصلها بنفسه غادر من

المدرسة ، لا يريدها لا يحتاجها ولن ينتفع بها كما يرى ، سار نزولا

من ذاك المرتفع بعدما ترك خلفه سور المدرسة الواسع ينظر للورقة

في يده وللأرقام والأسماء التي تركتها له والدته ، ابتسم بسخرية ثم

رماها بعدما جعدها بين أنامله ، لن يتصل بهم لن يبحث عنهم ولن

يترجاهم لأخذه معهم ، لو أنهم فكروا فيه وفي والدته ما كانا هنا من

أساسه فلا عمه أو عمته ولا عم والدته حاولوا أن يصلوا لهم يوما

رغم أن ابن شاهين لم يكن ضد عائلة كنعان ، وعم والدته لا أحد

كان سيمنعه من المجيء للحالك ، تكفيه تلك الغرفة حتى يستغني

عنها بإرادته ... هي من حقه أرثه من والدته لا أحد يمن عليه

بالعيش فيها رغم أنه يستغرب صمتهما عنه حتى أنهما أصبحا

يرسلان له وجبتي طعام صغيرتين مع ماريه يوميا ! لم يعتد الود

والكرم منهما لكن لا حل آخر أمامه الآن وحتى حين يأمل أن لا

يكون بعيدا ، وصل المقر ودخل من بوابته الواسعة تراقب عيناه

حركة وتدريبات الجنود حتى وقع نظره على باب عيادة الطبيب

المفتوحة فحتى ذاك الرجل رحل مع رحيل والدته فمنذ ذهب

للحدود لم يرجع وتم استبداله بطبيب شاب لأنهم يحتاجون

لدوي الخبرة هناك عند مدن الهازان الجديدة حيث الحالات

التي خلفتها الحرب الأخيرة ، توجه لمكانه المعتاد خلف ذاك

المقر الواسع المقسم ووجده ينتظره هناك ككل يوم منشغلا بسلاح

في يده وحمد الله أنه لم ينقلوه أيضا ويحطموا كل أمل له في المستقبل

الذي بات يتمناه ويريده ، ركض جهته حتى وصل عنده وانتبه ذاك

له ووقف وقال مبتسما يهرول في مكانه " ها قد وصلت ، صباح

الخير يا بطل ، هيا للتحميه الصباحية سأعلمك اليوم تسلق

" الأماكن المرتفعة الملساء

وبدأ بأول تمرين يومي لهما وهوا الدوران حول تلك الساحة

راكضين لخمسين دورة كاملة دون توقف

*****

*****

ما أن علم من عمته أن ضيفا والده غادرا مكتبه حتى توجه نحوه

طرق الباب ودخل فرفع المنكب على الأوراق هناك رأسه ونظر

له نظرة تحولت فورا لاستهجان رافضا لوجوده فتوجه نحوه

مسرعا متجاهلا نظرته تلك وأمسك يده قبلها وقبل رأسه قائلا

أبي سامحني أرجوك يكفيك غضبا مني أقسم أنه على "

" قلبي أشد من الموت

شد شراع على يده دون أن يعلق وعاد لأوراقه فارتاح ذاك من

حركته وإن لم يقل شيئا وقد انشغل عنه حتى شعر بإهماله لوجوده

وكان سيغادر لولا أوقفه صوته قائلا " وصلني رد رجل ابن

شاهين فجر اليوم "

التفت له من فوره وكان لا يزال منكبا على تلك الأوراق وكان

سيتحدث فسبقه شراع قائلا " قال أنه لا أخبار عنه وأنهم إن

علموا شيئا سيبلغوننا فورا ويسلموه لنا والكلام منقول

من زعيمه نفسه "

فتح رماح فمه من الصدمة ليس لانقطاع أخبار شقيقه داخل الحالك

بل لأمر آخر تماما جعله يقول بحيرة " قال يسلموه لنا !! كل متسلل

يمسكون به يؤخذ أسيرا مهما كانت مكانته وآخرهم ابن عمي ولم

يسلموه إلا بعشرة أسرى مقابل له وباجتماع دولي أيضا ، كيف

تغير قانونه هذه المرة !! "

رفع شراع رأسه ووضع القلم من يده وقال ناظرا للفراغ بشرود

" ما يشغل بالي الآن أين يكون وما حدث معه بما أن ابن شاهين

ورجاله لم يروه ثم نفكر لما تغاضى عن تسلله وقبضهم عليه

" إن أمسكوه

هز رماح رأسه بحيرة وقال " إن لم يكن ميتا ولم يمسكوه ولم

" يخرج من هناك فأين سيكون ! هـ

رن هاتف شراع حينها فرفعه فورا وأجاب عليه مشيرا لابنه بيده

ليتريث وأجاب على صاحب الاتصال يستمع دون أن يعلق بشيء

وكأن من في الطرف الآخر لم يترك له المجال لذلك ثم أبعد الهاتف

عن أذنه وتحولت نظرته للضياع وهو يقف مغادرا من خلف مكتبه

وقد علت نبضات الواقف أمامه وهو يرى ملامح والده وقال

" بصعوبة " هل الخبر عن رماح ؟ هل وجدوه ؟

هز ذاك رأسه بلا وخرج دون أن يريحه بأي شيء وهو متأكد

من أن الاتصال من الحالك أو من ابن شاهين نفسه

*

*

فتحت الباب ودخلت وضحكت بصمت على النائمة على طرف

السرير فوق ذراعيها بالقرب من رأس ذاك المجهول الذي لم

يفق حتى الآن ، اقتربت منها حتى وصلت عندها وهزت كتفها

قائلة بضحكة " أستريا يا حمقاء هل تركتك هنا لتنامي ؟ هيا

يا كسولة لن أسمح لك بالتناوب عليا ليلا مرة أخرى "

رفعت تلك رأسها وأبعدت شعرها عن وجهها وتثاءبت تمسك

فمها بكفها قائلة " غلبي النعاس قليلا فقط "

ثم نظرت للنائم على السرير دون حراك وقالت " سيموت جوعا

على هذه الحالة ، هل قرر أبي شيئا بخصوصه ؟ "

هزت تلك رأسها بلا قائلة " قال سننتظر حتى صباح الغد وإن

لم يفق سيبلغ الزعيم مطر عنه فوحده من يحمينا من أهله

إن ابتلونا بما أصابه "

قالت الجالسة قربه ونظرها لازال سارحا في وجهه " لا يحمل

ملامح الحالك بلون شعره وسمار بشرته ! هل يكون من

" الهازان يا ترى ؟

اقتربت تلك من وجهه أيضا منحنية بجانب رأسها وقالت هامسة

الهازان يتميزون كثيرا بالشعر الفاتح مثلنا ولقبائل كثيرة أعين "

زرقاء ورمادية وحتى خضراء لكن لهم بشرة فاتحة بشكل

" واضح وهذا اختلف عنهم في ذلك

قالت أستريا بحيرة " قد يكون من الهازان أو من أعراق متداخلة

" منهم فقليلون هم من تداخلت أنسابهم وإن قلوا كما يحكى عنهم

ثم تابع وهي تقرب أصبعها ببطء من جفنه " لو أنه يفتح عينيه

لنتأكد من لونهما فإن لم يكونا سوداوان لن يكون من

" ... الحالك أبـ

وصرختا كليهما بصدمة مبتعدتان حين حدقت بهما تلك العينين

البنية النصف مفتوحة

*

*

رتبت السرير بعدما غيرت ملاءاته وأغلفة وسائده فلم تستيقظ إلا من

وقت قصير لتجد نفسها وحدها في ذاك السرير الواسع والذي غادر

فجرا بسبب اتصال آخر وصله يبدوا لم يرجع حتى الآن ، لا هم

تركوه يرتاح ولا هي أيضا لأنها لم تنم إلا فجرا لم تترك حضنه ولم

تتوقف عن البكاء وبكت ما لم تبكيه ولا كل ليلة في حضن عمته ، لا

تعلم لما تتلاشى كل تلك القوة التي تتسلح بها طوال النهار ما أن تنام

وترى شقيقها الراحل ذاك في نومها ليتحول صبرها وصمودها لضعف

مدمر حين تستفيق من ذاك الحلم لتكتشف الواقع المرير الذي يخبرها

أنها فقدته وللأبد ، سوت وقفتها ومسحت عينيها بطرف باطن كفها

لحظة ما طرق أحدهم باب غرفتها ولم يفتحه حتى أذنت له فكانت

حبيبة التي لم تتقدم أكثر من خطوة للداخل وقالت تجمع كفيها

" السيد مطر يطلبك في الأسفل سيدتي "

" نظرت لها باستغراب قائلة " هل هوا هنا من وقت ؟

هزت تلك رأسها بلا فقالت غسق بتوجس متمعنة في ملامحها

التي أصبحت تعلم تغيراتها جيدا " حبيبة ماذا هناك ! هل يوجد

" أحد مع مطر ؟

" ....قالت تلك بتلعثم " نعم ... آه لا .... أعـ.. أعني السيدة نصيرة و

" ثم اختفت من عند الباب قائلة " قال أن تنزلي له بسرعة

ركضت في إثرها ولم تجد أحدا في الممر فرفعت غرتها بأصابعها

وتنفست بعمق وتابعت خطواتها مترددة فقد باتت أكثر من يخشى

من المجهول وما يحمل لها وحارت من يكون هذا الذي معه في

!!! وجود عمته وفي المنزل

المخرج ~

بقلم الغالية : سما23

من شراع لغسق

اشتقت لك بنيتي ... قلبي انفطر
ما كنت أعلم أنني ... أملك صبر
على مرور ساعتي ... فالصبر مر
فلم يمر بمسمعي ... عنك خبر
كيف أصبّر مقلتي ... دمعي هدر
وعمتك (أخيتي) ... تبكي العمر

وأخوتك حبيبتي ... ملئى الصدر
يحرقهم يحرقني ... حر الجمر
بنيتي حبيبتي ...ضوءَ النظر
كوني له بنيتي خير ذخر

مرارتي ولوعتي ... منك مطر
نزعت مني فرحتي ... ظهري انكسر
غسق كانت أمانتي ... طول العمر
ماذا أجيب سائلي: ... أين القمر؟
فكن كما وعدتني ... عدلاً أبر
دعني ارى بنيتي ... يمضي العمر

******

من غسق لشراع
فلتصمد يا أبي
رغم بعدي عنك ... رغم الخذلان
رغم خيبات الأمل في الكاسر وجبران
كن قوياً كما عرفتك يا زعيم الصنوان
أبي .. لا ترحل .. لا تموت
.. أريد أن أراك
أن أرتمي في حضنك أن أشعر بالحنان
أن أقبل رأسك الشامخ بعنفوان
أبي .. لا ترحل .. لا تغيب
فستغيب معك فرحتي التي بدأت الآن
أريدك أن تشهد معنا تحقق الأحلام
(بلادٌ واحدة.. وتعيشُ بسلام)
أرجوك ... لا ترحل فما آن الأوان

نهاية الفصل .... موعدنا القادم مساء الجمعة إن شاء الله

****

جنون المطر (الجزء الأول)

الفصل السادس والعشرون

المدخل ~

بقلم الغالية : Reeo

من مطر لغسق...

ارفقي بي ياذات الشعر الأسود
يافاتنة دكت الحصن العتيق للأسد
ولا أدري كم سابقى وكم سأصمد
لكني رجل يحب الاستبداد
والفوز بكل حرب أدخلها بالإجتهاد
فانا لكي يا أبنة شراع فكوني على أستعداد
فقد تركتك نصب عيناي وانا صياد
وانتي لي الفريسة وسأضع على يدها الاصفاد...

~~~~~~~~~~

بقلم الغالية : لامارا

....من مطر لـ غسق.... والعكس

روحي تنادي روحك
أناملي تناجي خدك
قلبي يخفق لأجلك

غسق يا ابنة عمي
يا أبدي يا عمري
يا شفائي يا جرحي

هلمي إلي واسقيني
من شفتيك إرويني
في حضنك أدفئيني

مطر يا ابن الحالك
أزلني من بالك
وارحل في حالك

فك قيدي أطلقني
من طلبك اعتقني
من أسرك حررني

غسق أنا وأنتِ اثنان
~~~~~~~~~~

ستُحكى قصتنا عبر الأزمان
بين قوم الحالك والصنوان

مطر أنا وأنتَ إثنان
لن نلتقي مهما طال الزمان
فهل يجتمع الماء بالنيران ؟

غسق يا فتاةً عابثة
يا آسرة يا مهلكة
يا حسناءً مُعَذِبة

مطر يا فارساً مغوار
يا بطلاً بالسيف بتار
يا رافع راية الانتصار

غسق

مطر

تعالي

لا

لما ؟؟

أخاف

مني ؟؟

أجل

لما ؟؟

لا أعرف

غسق تعالي

.....

غسق....

إن دنوت منك ماذا ستفعل بي ؟؟

لا شيء

كاذب

ههههه تعالي غسق أنا لن أوذيك ثقي بي

~~~~~~~~~

نظرتا له بصدمة تتراجعان للخلف وقد همست تلك للتي خلفها

" ينظر لنا ! لقد فتح عينيه "

كانت مختبئة خلفها ولم يكن يظهر له سوى صاحبة الشعر العسلي

المموج الذي وصل لخاصرتها وذات العينين العسلية التي تلمع كالذهب

بفستانها الطويل عارية الذراعين والكتفين بيضاء البشرة ، لا يعلم أين

هو الآن وما جلبه هنا فآخر ما يذكره أن سيارة جنود طاردته لمسافة

طويلة قبل أن تصيبه تلك الرصاصة التي لم يعرف أين كانت من انتشار

الألم في كامل جسده وهو يقاومه محاولا التحكم في سرعته وثبات قيادته

حتى فقد وعيه لكن أين ومتى هذا مالا يعلمه ولا يذكره ! حاول النهوض

مستندا بمرفقه لتخرج صرخته المتألمة ما أن رفع جسده ووضع ثقله

عليه فقفزت تلك جهته مسرعة وأمسكت ذراعها برفق وقالت تعيده

" مكانه " صدرك مصاب وجسدك به أكثر من كسر لا تتحرك يا هذا

دفعها بيده الأخرى وقد سقط جسده على السرير وقال بألم

" من أنتي وأين أنا ؟ "

كشرت في وجهه وقالت بحنق " لا داعي للشكر على سهري بجانبك

وسقيي لك الماء عشرة مرات في اليوم وعلى تحميمي لك وتغيير

" ثيابك يا أخرق ، تعلّم كيف تتحدث مع من أنقذوا حياتك

نظر للسقف يشعر بضباب كثيف يغلف الرؤية أمامه وبصداع قاتل

في رأسه وألم لا يطاق في أكثر من جهة في جسده ليؤكد له ما

" سمع منها ، أغمض عينيه وهمس بخفوت " أين أنا ؟

لم يصله الرد من أي منهما وقد انخرطتا في حديث بلغة لم يفهم منها

شيئا سوى أن إحداهما كانت مستاءة والأخرى توبخها بضيق فلم يزدد

رأسه إلا صداعا من حديثهما الغريب عنه ومن التفكير في هويتهما

فهو متأكد أنه كان داخل الحالك لم يخرج منها فما جاء بهما هنا ؟

ليستا عربيتان ... ليستا عربيتان) هذا ما كرره عقله مرارا)

حتى فتح عينيه مجددا ناظرا للسقف وهمس بصدمة

" !! تنانيتان "

صرخت به الواقفة هناك وشقيقتها تسحبها معها وهي ترفض

الخروج " أجل تنانيتان ألا نعجبك ؟ أم علينا أن نكون

" عربا لتتقبلنا

أغمض عينيه مجددا وقد تغلب عليه إعياء جسده ولم يسمع سوى

خطواتهما قبل أن يغيب عن عالمهم مجددا فلم يتخيل أن يكون

وصل للحدود الغربية للحالك

*

*

كانت تعلم أمرا واحدا وهي تنزل تلك العتبات ببطء وهو أن فاجعة ما في انتظارها وعمته من اختار أن تكون معها لكن ما لم تفهمه من يكون هذا الذي في الأسفل ! كانت تنزل ببطء مستندة بسياج السلالم وما أن وصلت منتصفه ونظرت للجالسين في الأسفل حتى تيبست قدماها وتسمرت نظراتها على صاحب السترة الرمادية والقميص الأبيض ، ذو الشعر الأسود والعيان التي فاقته سوادا فعلى تنفسها وهبط بسرعة كبيرة ونظرها ارتكز على ما يحمل في ذراعيه المرتاحتان في حجره ، تركز نظرها على تلك اليد الصغيرة جدا التي كانت تخرج من ذاك الشيء الأبيض الملفوف بعناية ، كان شال قطني وكانت اليد لطفل لمولود صغير ومن يحمله كان نائما معها البارحة !!

رفعت نظرها لعينيه المحدقة بها في صمت ثم حولته بسرعة لعمته

التي كانت تجلس قريبا منه ونظرها عليها أيضا فعادت ونظرت لذاك

المخلوق الغريب مجددا ، لن تتهور وتفكر وتتصرف بجنون كالسابق

لن تعاود ذات الخطأ في قصة الطفلة من خماصة ووالدتها ، ثم هو من

طلب نزولها أي أن تراه علنا ، نزلت باقي العتبات ونظرها لازال على

ما يحمل في ذراعيه حتى وصلت عنده فوقف حينها عيناه على نظراتها

التي لم تفارق ذاك الشال السميك وتلك اليد الصغيرة التي تتحرك أصابعها

بعشوائية خارجة منه ، نظرت لوجه ذاك المولود الذي لازال يحمل آثار

الولادة في انتفاخ عينيه ولون شفتيه الجافة قليلا وكاد تنفسها يقف حين

نظرت لوجهه بشكل عام ولملامحه ، ملأت الدموع عينيها قبل أن

ترفعهما بالذي لازال ينظر لها بهدوء وقد قال وتلك الدمعة تسللت

لرموشها " والدته توفيت فجر اليوم ، كان الحادث قويا وأثر عليها

سلبا ، فعل الأطباء ما في وسعهم ولم تعش أكثر من هاذين

الأسبوعين بعد أن ولدته "

مدت يديها وخطفته من يديه بسرعة ودسته في حضنها وانطلق

بكائها وعبراتها فأبعد شعرها بأصابعه قائلا بضيق " غسق لو

كنت أعلم أن هذا ما سيحدث ما جلبته لك "

ابتعدت ولازال وجهها مدفون في وجهه تبكي بحرقة وركضت به

جهة السلالم وصعدت ، كان سيتحرك خلفها لولا أوقفه صوت عمته

قائلة " اتركها يا مطر ستهدأ من نفسها وسيخفف عليها كثيرا رؤيتها

له ستستوعب الأمر وصدمتها الآن أكثر فأصعب ما يمر به الإنسان

هو التصديق فابتعد عنها كي لا يكون نهاية كل هذا شجار بينكما "

جلس منصاعا لرأيها وطلبها رغم أنه لم يكن مقتنعا فمن يعلم ما حالها

الآن وما قد تفعل بنفسها أو بالطفل دون قصد منها ، كانت تلك الأفكار

تنهش دماغه ولم يرحمه منها سوى من كانت تفهم ما يدور في داخله

ونظره لازال معلقا بأعلى السلالم وقالت للواقفة بعيدا " حبيبة

اصعدي لها وكوني قربها ولا تحادثيها بشيء فقط كوني معها "

نظرت تلك من فورها للجالس بجانب عمته وكأنها تخشى أن يكون

رأيه مغايرا وهي تعلم جيدا كرهه لدخولهن هناك فأومأ لها برأسه

موافقا دون أن تنتبه الجالسة بجواره فصعدت من فورها ووقف هو

" فنظرت له عمته للأعلى وقالت " هل ستتركه هنا طويلا ؟

هز رأسه بلا وقال مغادرا " سأسلمه لجده أنتي تعلمي قوانين

" القبائل وأعرافها في الأنساب

وغادر من عندها خارجا من باب المنزل حيث وجد عمه ينتظره

قرب السيارة التي طلب من العمال تجهيزها له وكان مكتفا يديه

لصدره متكئ على بابها بظهره وقال ما أن اقترب منه

" ألن تغير رأيك ؟ "

هز رأسه بلا دون أن يعلق وفتح باب صندوق السيارة الأمامي

فقال ذاك بضيق " مطر يكفي أنها لم تحضر عزائه ارحمها

" قليلا لن يأكلها أحد هناك إن زارتهم ليوم أو يومين

انشغل بالكشف عن زيت السيارة متجاهلا الرد عليه فقال بذات

الضيق " ليست حجة أن يخبروها بأصلها وعائلتها بلغهم يحرصوا

على ذلك ولن يحدث شيء وأعتقد أنك لا تخشى الحالك وما سيقول

الناس وهي تدخل صنوان ومنزل والدها الذي يعتقد الجميع

" أنها ابنته

رفع رأسه وأغلق باب صندوق السيارة بقوة وقال ببرود " قررت

وانتهى عمي دخولها صنوان ليس في صالحها ففكر في

" مصلحتها كما تفكر في مشاعرها

ابتعد ذاك عن السيارة قائلا بسخرية " أقنع نفسك بهذا لكن

" أنا لا

نظر له نظرة يفهمها ذاك جيدا فتجاهلها وقال مبتعدا " سأقولها

وافعل ما شئت ، أنت تخشى إن دخلت لا تخرج لك ولن

" تستطيع إخراجها حينها ولا بالقوة

وابتعد وكلماته تلحقه حتى احتفى فضرب الباب الذي كان قد فتحه

الآن وعاد جهة المنزل متمتما " قال ادخلها صنوان قال ! ما

" صدقت أن خرجت منهم لأعيدها لهم

دخل المنزل وصعد السلالم فورا وصل الغرفة وما أن دخل حتى

وقفت التي كانت تجلس معها على طرف السرير وخرجت من فورها

وبقي هو مكانه يراقب التي لازالت تمسك ذاك الرضيع تتحسس يده

الصغيرة وتقبلها ودموعها تتقاطر من رموشها على ثيابه ثم ضمته

لحضنها بقوة وقد أخفى شعرها وجهها ما أن مالت برأسها عليه ولم

يعد يخرج منها سوى صوت بكائها ، اقترب منها وجلس وبجوارها

ومسح على شعرها رافعا له عن وجهها وقال " يكفي يا غسق لقد

أبكيتي الطفل لا تجعلني أندم على جلبه لك "

رفعت رأسها ترفع غرتها عن وجهها بأصابعها ونظرها على الطفل

الذي بدأ بالبكاء بصوت منخفض كعمر أيامه التي بالكاد بلغ فيها نصف

شهر ، ضمته لصدرها بحنان تحاول إسكاته حتى هدأ ثم اتكأت برأسها

على كتف الجالس ملاصقا لها وقد طوقها بذراعه وقبل رأسها وهمس

" جهزي نفسك لنأخذه معنا ، الرحلة ستأخذ وقتا وعلينا المغادرة الآن "

ابتعدت عنه ورفعت وجهها له وقالت باستغراب " نذهب به أين ؟ "

قال ماسحا بظهار أصابعه الدموع عن خديها " نأخذه لجده ألم

تطلبي رؤيته ؟ "

" ! علت الصدمة ملامحها وقالت بعبرة " أرى والدي

قبل جبينها ونظر لعينيها وقال " إن توقفت عن البكاء حالا ستريه

وستأخذين حفيده له بنفسك فاستعدي بسرعة ، كل ما يحتاجه الطفل

وضعه العمال في السيارة سنرجع اليوم فلا تأخذي معك شيئا سوى

معطف فالجو يبرد ليلا حد التجمد في بعض المناطق وغطي

" الصغير جيدا

*

*

" هيه تيم هل تسمع ما أقول لك ؟ "

رمش بعينيه قليلا في وجهه ثم قال بضيق " لقد أفزعتني

" ألا ترى أني شردت قليلا

اتكئ ذاك بمرفقه على كتفه وقال مبتسما بمكر " وفي من تفكر

" وتتركني أبلبل كالببغاء ؟ هذه أول مرة لا تكون فيها منتبها لي

" سحب كتفه ليبتعد عنه وقال ببرود " لا علاقة لك بما كنت أفكر

ضحك ضحكة عالية ينظر له بخبث فتجاهله تماما كعادته ، لا ينكر أنه

شرد بتفكيره وأن أمرا يشغل باله لكن ليس كما يتخيل ذاك ، فرغم صغر

سنه وجهله بأغلب الأمور لكنه ليس من الغباء أن لا يلحظ ما يحدث

حوله ولا يفهمه ولا يعلم عنه والعديد من الأسئلة لم يجد لها إجابات حتى

الآن ، لماذا يصر ابن عم والدته أن يبقيه عندهم وأن لا يدخل ورثه تحت

وصاية ابن شاهين ؟ ويتردد على شيخ القبيلة دائما كي لا يبلغ عن حالته

ويقنعه بأنه هكذا سيكون بوضع أفضل خاصة مع حالته ووضعه كفرد

ليس من الحالك ! لماذا كان يرفضه سابقا ووالدته معه رغم أن حصتها

كانت أكثر من حصته الآن ؟ هو لا يفهم شيئا ولن يسأل طبعا لأنه

لا يزال مستهجنا في محيطه ذاك أجمعه ، أخرجه من أفكاره

صوت عمير قائلا بهدوء " لما لا تفتح قلبك لي يا تيم ؟

" يمكنني مساعدتك في أي شيء تحتاجه

" نظر له بصمت لوقت ثم قال " حقا تساعدني إن احتجتك ؟

هز ذاك رأسه بنعم ونظرته كلها إصرار وتأكيد على كلامه فقال تيم

بريبة " حتى إن طلبت منك أخذي من هنا ولا يكون مصيري

قبائل الهازان "

نظر له باستغراب لبرهة ثم قال " أفعلها دون تردد فقط أخبرني

ما حدث معك ولما تريد ذلك ؟ "

أنزل نظره وشرد في الأرض يفكر في وصية والدته وفي إصرارها

على أن لا يترك ماريه وحدها وأن لا يتركها لظلمهم وقد أوصته وأمنته

عليها فإن غادر الآن لن يستطيع أخذها معه ولن يستطيع تركها ولا يعلم

ما قد يفعلوه بها فقط ليأخذوا المال الكثير الذي تركه لها والديها ، هزة

خفيفة لكتفه انتشلته من أفكاره مجددا وقد قال الجالس بجواره بجدية

" أخبرني ما هي مشكلتك يا تيم ؟ أنت محاط بعين ترعاك يمكنها

ردع أي شر أو سوء عنك ومعاقبة الفاعل فأخبرني ما بك "

نظر له باستغراب وقال " عين من هذه التي ترعاني وستحميني ؟ "

هز ذاك رأسه قائلا " اتركنا من هذا وأخبرني الآن عن أي مشكلة

تواجهك وستفهم كل شيء لاحقا فما ستحكيه لي سيشكل فرقا كبيرا

يا تيم وأنا أنتظر دائما أن تخرج من صمتك المميت ذاك

حتى يئست منك "

هرب بنظره منه للبعيد ، لا يمكنه قول شيء لا يمكنه تركها ولا أن

يتسبب في أي ضرر لها يعلم أنهما لن يتوانيا عن إلحاقه بها إن

حدث شيء لا يعجبهما ، عاد بنظره له وقال " لا شيء أنا كنت

أسأل فقط من أجل المستقبل "

هز ذاك رأسه بحسنا وقال " وأنا جاهز متى ما أردت قول أي شيء

وتأكد أنه ثمة من سيساعدك ولن يخشى أحدا "

وتابع متجاهلا نظرات التساؤل في عيني الجالس بقربه " هيا

حاول أن تعيد تركيبه مجددا لآخر مرة اليوم "

أمسكه منه قائلا بضيق " معقد جدا لقد يئست منه "

ضحك ذاك وقال " ألم أقل أنك لست طبيعيا اليوم فحتى اليأس والملل

لم يكونا من صفاتك ، هيا فأمامنا واحد آخر وسننتقل بعدها لأجهزة

التصنت الصغيرة وتلك ستأخذ وقتا طويلا جدا معنا "

*

*

كان الصمت يغلف رحلتهما وهذا ما توقعه منها من رحلتهما السابقة

ولم ينتظر خلافه ، كان يعلم أن تلك الرحلة طويلة ومتعبة لها وللصغير

وحتى له هو لكن لا خيار آخر أمامه فتلك المنطقة الوحيدة الفارغة

تماماالتي تربطهم بصنوان فلا يريد شوشرة وأقاويل حول ذاك اللقاء

أن تضرها الألسن تحديدا خاصة وأن عمته أخبرته أن بعض ولا يريد

زاروا منزلهم لتعزيتها في شقيقها ، خطف نظره لها ثم عاد به النسوة

وهي على حالتها تلك عيناها لم تفارق الصغير الذي لم تبعده للطريق

حجرها ولا نظرها ولم تشبع من النظر له ومن ملامسة لحظة عن

بسبابتها طوال الوقت وتمسح عينيها كلما غلبتها وجهه وشعره

تركوه لها تمنت أن ربته بنفسها قطعة من شقيقها دموعها ، تمنت أن

ذلك كان مستحيلا آخر من ضمن أحلامها التي الذي فقدته للأبد لكن

المستحيل ذاته ، عودتها لعائلتها .. توقف باتت تراها أصعب من

معرفتها لنسبها ووالدها وإرجاع الزمن الحروب والدماء في بلادها
سواء لا يمكن أن تتحقق مثل أن للوراء ، جميعها أمور تعلم أنها

سيارته لن يكون لها للأبد ، وإن الجالس بجوارها الآن خلف مقود

المتضارب مهما كان واقعهما الآن تركته الحروب لن يتركه قدرهما

برجل لم تتوقعه ولم تعرفه ومهما كان مختلفا ، لا تنكر أنها صدمت

على عائلته وعليها لكنه ما أن تكون بقربه غير موجود ويقدم كل شيء

لا يبخسها من حقها شيئا

لا كزوجة ولا كأنثى لكنها تدرك أنهما من عالمين مختلفين أن ثمة

أمور قد تزعزع استقرارهما للأبد وكم باتت تشعر بدنوها وتخشاه

وهي متأكدة من أنه كاسمه تماما إن أعطى أعطى بعنف وإن أخذ أخذ

بعنف وأيضا إن غضب ثار بعنف لذلك هو إن عشق يعشق بعنف وهذا

ما لا تعتقد أنها ستحصل عليه منه يوما وهو من ذكر لها ذلك بوضوح

وبأنه لا يفكر ولا يريد شيئا سوى توحيد بلاده أي أن باقي الأمور هو

على استعداد للتنازل عنها من أجل تحقيق ذلك ومهما كانت وتكون .

رفعت نظرها ولأول مرة ونظرت له .. لجانب وجهه لشعره الذي تراه

لأول مرة أطول من المعتاد ولم يزده إلا وسامة وهيبة ، للحيته التي لم

يهملها يوما ولملامحه التي لا تعرف خلقت له تحديدا أم خلق هو لها

نظر لها وهي في تأملها الهادئ الصامت ذاك لوجهه فرفعت يدها

ولامست بها خده ولحيته وترقرقت الدموع في عينيها وكم تمنت أن

سألته حينها (لو علمت أنه بموت لوالدي شراع بسببك تموت أنت

بداخلي هل ستهتم ؟) لكن كلماتها تلك لم تصله وتعلم أنه لن يفهمها

ويصعب عليها نطقها أمامه كما أوصتها عمته سابقا ، رفع يده

من يد السرعة وأمسك يدها وقبلها وقال وقد عاد بنظره للطريق

" هل نام أخيرا ؟ "

سحبت يدها من يده ونظرت للنائم في حجرها وقالت وهي تعدل

له الشال الملفوف فيه بعناية " أجل ... يبدوا لي معدته لم تعتد

الحليب وهي سبب بكائه لكل ذاك الوقت ، أعتقد أن جميع

" المواليد الجدد يشتكون من هذه الحالة

قال ونظره لازال على الطريق " هي مسألة وقت حتى يتأقلم

" مع محيطه الجديد فهو خرج من عالم مختلف تماما

رفعت نظرها به مجددا وقالت بابتسامة صغيرة كسرت ذاك

" الحزن الذي أذبل ملامحها الجميلة " هل قرأت عن هذا أيضا ؟

انطلقت ضحكته مالئة صمت تلك السيارة وجوها الكئيب ثم

" نظر لها وقال مبتسما " هل تخشي أن أكون أبا فاشلا ؟

هربت بنظرها وابتسامتها وحيائها منه تتأمل أناملها التي تلعب

بخيوط ذاك الشال العاجي اللون وهمست تهرب من الحديث

في الأمر الذي لم تتوقع أن يثيره " متى قررت تغيير

" تسريحة شعرك ؟

خرجت منه ضحكة مكتومة وقال " كم أنتي بارعة في الهرب

" حسنا أنا لم أقرر ذلك ، هل هو سيء لهذا الحد ؟

نقلت نظرها لنافذتها وقالت ببرود " لا قطعا لكن عليك

" قصه من جديد ليرجع كما كان

ابتسم ينظر لوجهها الذي لم يعد يظهر منه إلا القليل ثم عاد بنظره

للطريق وقال " وأنا كنت أنوي فعل ذلك لكني انشغلت عنه فلم

أعتد عليه هكذا ، هو فعلا يضايقني فيجب أن يكون مرتبا

" طوال الوقت

كان نظرها لازال جهة نافذتها على الأرض التي تتراكض

بسبب سرعتهم وتمتمت ببرود وصله بوضوح " أعلم أنك

" لن تفعلها من أجلي ولأني طلبتها

نظر لها وقد اتسعت ابتسامته قائلا بنعومة " أكان سيرضيك

" أن أقصه بطلب منك وليس برغبة مني ؟

نظرت له وقد عضت طرف شفتها متوعدة في حركتها وابتسامتها

من مقصد كلامه بينما ضحك هو وضرب طرف أنفها بإصبعه

فحتى في أوج حزنها لازالت هذه الأمور تخرج منها تلك الفتاة

المدافعة بشراسة ، رفعت سبابتها وصوبتها على صدره جهتها

حيث قلبه وقالت متوعدة " أقتلك إن فكرت في اللعب

بأعصابي مجددا "

فضحك بتسلية وتمنى لحظتها لو لم يكن يجلس خلف مقود

السيارة وأن حركتها تعتمد على يديه وتركيزه ، ولم يسعفه

الوقت ليعلق على ما قالت بسبب بكاء الصغير الذي ملأ

المكان حولهما فحضنته فورا تحاول إسكاته ثم قالت

" أوقف السيارة مطر يبدوا عليا تغيير حفاظته "

*

*

وقف خلفه وهو ينظر لصور الأشعة المعقدة بين يديه يقلبها ويتمعن

فيها بتركيز حتى قال عكرمة " ما النتيجة أيها الطبيب لا تتعب

أعصابي أكثر "

وضع ذاك الصور وقال ناظرا للذي استدار وعاد للجلوس على الكرسي

أمامه وخلف طاولته " ثمة بقعة ظاهرة بوضوح في الصور المقطعية

وهي كما توقع طبيبها السابق في آخر الجزء الغربي من الدماغ

وحجمها فيما يقارب الثلاثة سنتيمترات وهي سبب حالتها تلك "

قال ذاك بترقب " وما تكون تلك ؟ "

حرك الطبيب كتفيه قائلا " إما كيس مائي أو التهاب في العصب

أو ضمور في المخ أو ورم بأحد نوعيه "

بهتت ملامحه بوضوح وهمس بصعوبة " وأيها أقرب وأيها الأيسر ؟ "

قال من فوره " معلومات تقاريرها السابقة تؤكد أن الحالة ملازمة لها

منذ ولادتها تقريبا لأنه قبل العام لا يمكن ملاحظة الأعراض ولا فكرة

لدينا إن كان حجمها ازداد أم ثابتا والأرجح أنه لم يزداد أو كان ببطء

شديد جدا أي أن الأورام مستبعدة لكان تغير حجمه وأثر على

" حواسها خاصة إن كان خبيثا

" همس عكرمة " لكان قتلها من زمن

هز ذاك رأسه بنعم وقال " الأكياس المائية تفعل ذلك أيضا ومنها

" ما يكون خلقيا وهذه حالات قليلة وهو أيسر الاحتمالات

" قال الجالس أمامه " والحل الآن ؟

جمع ذاك يديه أمامه وقال " عملية جراحية هي الحل في

" مثل هذا الوضع والظروف

شعر بقلبه انتفض بين أضلعه وهو يتخيل أن تجرى جراحة لدماغ

تلك الصغيرة البريئة الجميلة قد تفقد حياتها فيها ، قال بصعوبة

" وما نسبة نجاحها ؟ "

أنزل الطبيب نظرة للدفتر أمامه وقال بعد برهة " هنا خمسون بالمئة

في الخارج ثمانون لتسعين بالمئة وقد لا تحتاج لها أساسا إن

" عرفوا ما يكون ذاك الشيء

" قبض على يده بقوة وقال " وإن فشلت الجراحة ؟

" رفع نظره به وتنهد قائلا " تفقد حواسها أو بعضا منها

وقف دون شعور منه ما أن سمع ما قال وتخيل أن تعيش لا ترى ولا

تسمع ولا تتكلم ووقتها ما سينقده من ندمه وسيتمنى لو لم يجريها

لها وتركها كما هي ، قال الطبيب " اجلس يا رجل نحن

" نتحدث فقط والقرار لك

جلس على مضض وقال " خمسون بالمئة نسبة قليلة لن نغامر

" فبقائها هكذا أفضل لها

هز ذاك رأسه موافقا وقال " إن حالفها الحظ ولم تتطور

" حالتها أو تتفاقم

" قال عكرمة بحيرة " هل ستفقد حواسها في الحالتين ؟

قال الطبيب من فوره " لا ليس ضروريا وبما أننا استبعدنا الأورام

فهي ابتعدت عن الخطر بنسبة لا بأس بها فهي لا تشتكي من

" مشاكل عقلية كما شرحت لي

هز رأسه بلا وقال " هي فقط تتلقى المعلومات ببطء وصعوبة فحين

تتحدث بسرعة لا تفهمك وإن تأنيت وكررت الجملة تفهما بشكل سليم

جدا لكن بعد وقت وهذا ما لاحظه طبيبها السابق نسبة تعلمها ليست

بطيئة أبدا هي تعرف كل شيء وتفهم كل شيء لكنها تحتاج لوقت

وتركيز مضاعف عن أي طفل في سنها "

قال الطبيب " ولازلتم تداومون على أدويته والطعام الذي

وصفه ؟ "

هز رأسه بنعم وقال " لم نوقفه عنها أبدا "

كتب شيئا في الورقة تحته وقال " ثمة علاج سيفيدها كثيرا إن لم توقفه

ووفرته لها باستمرار سأكتب لك اسمه لن تجده في بلادكم هنا فإن

استطعت توفيره يكون أفضل وستتحسن ولو قليلا وبالتدريج

وستلاحظ ذلك بنفسك "

أخذ منه الورقة وكله إصرار على إحضاره ومهما دفع من مال لأجله

وإن باع قطعتي الأرض التي يملك بل وحتى منزله ، غادر من عنده

وقابله صف الأشخاص الجالسين ينتظرون دورهم للدخول ولم يكره

وضعهم وحال بلادهم كما كرهه حينها فما ينقصهم عن غيرهم من

البلدان ليكون الطب لديهم بذاك الحال المزرية ، استغفر الله هامسا

وهو يطوي الورقة ويضعها في جيبه وركب سيارته وغادر من هناك

*

*

استغرقت الرحلة منهما سبع ساعات بدلا من الست بسبب توقفهما

لأكثر من مرة لأجل الطفل وحرصها على عدم فتح الباب لمدة

طويلة كي لا تتسلل البرودة للسيارة ويتغير جوها عليه ويمرض

توقفت السيارة في مكان باتت تعرفه جيدا وتذكره من زيارتهما

السابقة له لكن شعورها كان مختلفا حياله هذه المرة فلم تصدق

بعد أن هذه المنطقة الواسعة الرائعة الجمال أصبحت ملكا لها لا

يفصلها عنها سوى أن تتوحد البلاد ذاك الحلم الذي كانت تراه مستحيلا

وباتت تخشى أيضا من تحققه ، هذه المدينة أصبحت تحمل معان كثيرة

في قلبها أكثر من روعتها وجمالها فهي حوت ذكريات حميمة عميقة

حفرت في قلبها للأبد وستزداد الآن برؤية والدها الذي رباها وسط

أحضان طبيعتها ، فتح بابه ونزل مغلقا له خلفه ثم توجه لبابها فتحه

وقال وهو يأخذ الصغير منها " انزلي هيا فالجو معتدل هنا لم

أتخيل أن يكون أفضل من المناطق الكثيفة السحب الماطرة

التي مررنا بها "

أمسكت بيده التي مدها لها وقفزت ونظرت حولها للصمت التام

وقالت " مطر هل أنت متأكد أنني سأراه وأنه سيأتي ؟ "

ونظرت لعينيه برجاء صامت أن لا يقول أن أمرا ما منعه وأنه لن

يكون هنا بسبب آخر مكالمة تلقاها ولم تفهم منها شيئا لأنه لم يتحدث

مع من كان في الطرف الآخر ، قال مبتسما " ارفعي رأسك

للأعلى وأغمضي عينيك واسمعي جيدا "

فعلت ما طلب منها وقلبها سيخرج من مكانه من توترها وعدم

تصديقها وهي تسمع بوضوح هدير السيارة الذي بات يقترب شيئا

فشيئا فأنزلت رأسها وفتحت عينيها تمسحهما بظهر كفها تحجب

دمعتها وهمست بصعوبة " أجل اسمع سيارته "

وتابعت بأسى حزين هامسة ونظرها معلق في البعيد

" كم اشتقت له يا مطر كم اشتقت "

وتوقف قلبها وهي ترى السيارة السوداء المظللة التي تقترب من هناك وأمسكت بكم سترة الواقف بجانبها بقوة وهي تراها تتوقف على مبعدة منهما وكله كان حسب أوامره فبما أن شراع لا يمكنه القيادة لمسافة طويلة حاليا واللقاء سري كان على رماح جلبه وفي ذات الوقت لا يقترب منها ولا يسلم عليها فكان أحرص لهم ولمن لا تعلم أنه يعلمه عن نسبها وأصلها أن يكون داخل تلك السيارة التي لن تعرف أنه فيها رغم أن نظره كان معلقا بها من بعيد فكم يشتاق لها ويحترم أيضا رأي زوجها وابن عمها فيكفيهم أن سمح لها برؤية والده ، تلك بادرة لم تعرف عنه وهو من يفعل الشيء إما أن يفعله للجميع أو يمنعه عن الجميع ، انفتح باب السيارة ويدها تقبض على كم قميصه أكثر وهي ترى قدمه التي نزلت للأرض وحدائه الأسود اللامع والعصا السوداء التي لحقتها قبل أن تنزل قدمه

الأخرى ويخرج من خلف ذاك الباب واقفا على استقامته ينظر لها

بابتسامة ملئها حب وحزن وشوق وفقد ومعان لم يعرفها يوما ، ينظر

لوجه صغيرته التي رباها وأحبها أكثر من أبنائه الذين أنجب من

صلبه ، لمدللته التي لم يتضايقوا يوما من تدليله لها وتفضيلها عليهم

كانت بعيدة عنه لكن دموعها انعكست في عينيه وحرقت قلبه وهو

من حرص طوال حياته أن لا تنزل على خديها ، نسي وجود ذاك

بجانبها وحفيده الذي يمسكه في يديه ولم يعلم عنه إلا اليوم منه

وهو يرى من تقدمت بخطواتها تمسح دموعها التي عبثا كانت

تحاول إيقافها فتحرك نحوها بخطوات بطيئة وركضت هي حينها

له وقفزت لصدره العريض وتعلقت بعنقه وقد طوقها بذراعه الحرة

وبكت بوجع بحرقة بشوق بلهفة تتعلق به بشدة تدفن وجهها بين

ذراعها وعنقه تخرج آهاتها المتوجعة مع بكائها وهي تسمع

همسه الخافت ماسحا على ظهرها " كيف أنتي يا غسق ؟

" اشتقت لك بنيتي اشتقت لك كثيرا

تمسكت به أكثر ودفنت وجهها في عنقه أكثر وهمست بوجع وحرقة

من بين عبراتها المتلاحقة " ليثني مت وما أغضبتك مني يوما

سامحني يا أبي سامحني أرجوك أقسم ما ندمت على

" شي كندمي على تهوري ذاك

قبل كتفها ورفع يده الممسكة لعصاه ومسح بظهر كفها عينيه

والدمعة التي ملأتهما قائلا " قدر الله يا غسق ، أنا لم

" أغضب منك بنيتي المهم أنك بخير

ابتعدت عنه قبلت جبينه فكتفه ثم يده فسحبها منها ومسح بها على

طرف وجهها وخدها الذي بللته دموعها فأمسكت يده بين يديها

واتكأت عليها بشفتيها قائلة ببكاء مر " مات الكاسر يا أبي ، ليثني

رأيته فقط وطلبت منه أن يسامحني ، يا حرقة قلبي عليه التي

" لن تخمد أبدا

مسح بيده الأخرى على شعرها الذي انكشف من حجابها الذي

انزلق عنه وقال بحزن يكتم دموعه " لم يغضب منك لتعتذري

" منه يا غسق كان أكثر من جن وغضب لعجزي عن إرجاعك

اتكأت على كتفه متمسكة بسترته وهو يمسح على شعرها بحنان

وقد رفع نظره بالذي تحرك من هناك ناحيتهما وقال " وكيف

هي أحوالك وزوجك وعائلته ؟ "

مسحت دموعها بكفها قائلة ببحة " بخير المهم أنك بخير

كيف هي عمتي ورماح ورعد وكل العائلة هناك "

قبل رأسها وقال " جميعهم بخير والجميع يسأل عنك "

رفعت وجهها له قائلة " أبي هل أطلب منك طلبا تفعله

من أجلي ؟ "

مسح بأصابعه على وجنتيها وقال " قولي كل ما في نفسك

يا غسق كم ابنة عندي ؟ هي واحدة فقط "

نزلت دموعها من جديد وأمسكت يده وقبلتها واندمجا في حديث

هامس قبل أن يصل الذي ما أن وقف حتى مد له شراع ذراعه

وأمسك بها الصغير الذي وضعه له ممسكا له بعناية محترف

بذراع واحدة اعتاد ذلك وتربى أبنائه الخمسة على يده ، ويده

الأخرى لازالت تحتضن النائمة على كتفه متمسكة به بقوة

دفن وجهه فيه يقبله بحنان فابتعدت عنه سامحة له بإمساكه جيدا

تنظر لهما وتمسح دموعها التي لم تتوقف فرفع الواقف بجانبها

حجابها وغطى به شعرها يجمع غرتها المتطايرة تحته فرفع

شراع رأسه ونظر له وقال بعرفان " شكرا لك مطر

" شاهين لن أنسى ما فعلت اليوم أبدا

ابتسامة صغيرة ارتسمت على شفتيه ويده ترتاح على كتف الواقفة

جانبه وقال " المولود يتبع والده وعائلته ، تلك هي أعراف الناس

يا شراع ، حتى إن عاشت والدته فهو من حقكم فكيف وهي قد

" أفضت لبارئها

ابتسم له شراع وغاب بنظره للتي تعلقت عيناها المحبة به ورغم أنه

متيقن من أن الواقف أمامه لم يعني بكلامه تذكيره بأنهم أخذوا ابنتهم

وهي من حقهم إلا أنه شعر بعظم ذلك وتمنى لو سلمها لهم كما فعل

مع حفيده اليوم لكن وصية والدتها هي ما قيده ، رفع نظره به هو

حين قال " واعتبر بقيتها ردا لمعروفك مع عائلات الهازان التي مجددا

عبركم لأراضينا ، أعلم أن الكثيرين في صنوان عارضوا ذلك دخلت

" يرضخوا إلا لضغطك عليهم ولم

هز شراع رأسه بتفهم وقال " تلك من أجل أبناء وطني يا مطر ما

كنت أنتظر عليها ردا منك أبدا ولن يشرفني أن أكون زعيمهم

" إن طردوا تلك الناس الضعيفة المذعورة عند الحدود

ثم نقل نظره للواقفة ملاصقة له وقال " كيف ابنتي معك ؟ هي

" تحتاج للشدة أحيانا أعترف أني أفرضت في تدليلها

" !!! خرجت تلك من صمتها محتجة بملامح عابسة " أبييبي

فضحك رغم حزن ملامحه وضمها ذاك لكتفه وقبل رأسها وقال

" لم تقصر في تربيتها يا شراع فلتسامح أنت شدتي عليها أحيانا "

عجزت الكلمات على شفتيه أن تعبر عما يريد قوله حينها فرغم علم

الواقف أمامه أنها ليست ابنته وأن والدها عمه وأنها لا تقرب له ولم

تحل له إلا لأن والدتها تزوجته ولكان عامله كشقيقها الجالس في

السيارة هناك لا يريده أن يرى حتى شعرها الذي انكشف من حجابها

بل وعامله كوالدها فعلا ولا يزال يراه يستحق تلك المكانة ، نظر

بامتنان بالغ يعلم أنه سيفهمه من دون أن يعبر عنه بالكلمات لعينيه

أوصيك عليها يا مطر وأعلم أنك سترعاها أكثر مني ، ابنتي وقال " لن

جدا إن تعلق الأمر بأهلها والموت والحروب فلا تجعل من ذلك ضعيفة

" هلاكا لزواجكما وحياتكما معا

ثم نقل نظره لها ولعينيها الدامعة المعلقة به وهي تتكئ على ذاك

الكتف العريض وقال " وأنتي يا غسق زوجك هو مستقبلك فلا

" تدمري ذاك المستقبل بيديك

أغلقت فمها بيدها تكتم عبرتها وهزت رأسها بلا هزة خفيفة ودموعها

عادت للجريان على خديها وهي تستوعب معنى ما قال وعادت كلماته

للتسرب لأذنيها وهو يقول " رضا زوجك من رضا ربك عليك يا

" غسق والموت لا يمسكه أحد مهما تعددت الأسباب

وراقبت خطواته وهو يبتعد بعدما ودعها بتلك الكلمات التي كانت

أشد على قلبها من الواقع الذي تحكيه ، تودعه دموعها وعبراتها

حتى ركب السيارة واختفى عنها ، تقدمت خطوتين وعيناها معلقتان

حيث اختفى تشعر به استل قلبها وحمله معه ، التفتت لصاحب

الخطوات التي اقتربت خلفها وارتمت في حضنه تبكي بصمت ، كم

تتمنى لو تحصل عليهما كليهما ، لو يجتمعا في عالمها معا لكنها تعلم

أن ذلك ما لن يحدث أبدا فبوجود أحدهما سيختفي الآخر وحين تكون

مع واحد منهما ستكون خسرت الآخر تماما ولن تراه ، ابتعدت عنه

تمسح دموعها بطرف كم كنزتها الصوفية الخفيفة فقال ممررا

إبهامه على خدها " نغادر أم تودين البقاء أكثر ؟ "

نظرت لعينيه لبرهة قبل أن تبعد نظرها عنهما وهمست " قد

تكون متعبا من القيادة وتود أن ترتاح قليلا قبل أن نغادر "

رفع نظره للشمس وهي تدنوا من جهة الغرب وقال " أنا معتاد

على القيادة لساعات أطول من هذه فالخيار لك وليس لي "

ثم عاد بنظره لها وهي تنظر حولها ولأبعاد المكان البعيدة رموشها

" لازالت مبللة بدموعها وهمست ببحة " الخيار لي حقا ؟

ابتسم مراقبا ملامحها وجوابها الذي لن تحتاج أن تذكره ليعرفه

" وقال " أجل لك فنحن سنصل حوران ليلا في كل الأحوال

نظرت لعينيه وقالت بابتسامة صغيرة فاتنة رغم حزن ملامحها

وعينيها المرهقة من البكاء " لو اخترت زيارة جداول الماء

" لن توافق أليس كذلك ؟

خرجت منه ضحكة صغيرة وقال " لن أمانع لكن أن تسيري

" فيها حافية القدمين وتلعبي بمياهها ممنوع قطعا

مسحت طرف عينها بأناملها وقالت مبتسمة

" نذهب لجبل الغضنفر إذا "

ضمها له من كتفيها بذراعه القوية وقال متوجهان جهة السيارة

وهناك الجو يبرد كثيرا لارتفاعه لكني لن أردك مرتين بما "

" أن معطفك السميك هنا

*

*

انفتح باب الغرفة قليلا وأطل منه نصف ذاك الوجه الدائري وعين

واحدة عسلية واسعة نظرت ناحيته وذاك الشعر المموج الطويل

وأصابعها البيضاء تمسك بذاك الباب ، رفع نظره منها للسقف

وقال بصوت متعب خرجت معه الكلمات بصعوبة " هل لي

بجرعة ماء أم لازلت غاضبة مني ؟ "

قالت ولازالت تنظر له بعينها الواحدة تلك

" إن اعتذرت أعطيك إياه "

ابتسامة صغيرة شقت ملامحه المتعبة وشفتيه الجافة وقال ولازال

نظره للأعلى " أنتي من فهم الأمر خطأ أنا صدمت فقط من

وصولي هنا لأراضيكم "

دفعت الباب أكثر ودخلت وتوجهت فورا لإبريق الماء سكبت منه

في كأس وهو يراقبها مستغربا أنها لم تسأله من أين جاء ، اقتربت

منه وجلست عند رأسه على طرف السرير ومررت يدها تحت

رأسه قائلة " ساعدني قليلا ولا تحرك يديك ولا مرفقيك

الطبيب حذر من ذلك "

رفع رأسه بمساعدتها يشعر باحتكاك جسدها بوجهه ، لم يقترب من

فتاة هكذا تحت أي ظرف كان ولا يفهم لما لا تتوتر وتخاف وخمن

أنها معتادة على هذا وقد تكون ممرضة ، شرب قليلا ورمى رأسه

للخلف على الوسادة بتنهيدة متعبة فمسحت فمه وذقنه بالمنديل

سريعا قائلة " لم تشرب شيئا ؟ "

قال بتنفس متقطع من ذاك المجهود البسيط " أشعر بها تحرق

حلقي وكأنه ليس ماء "

وقفت قائلة " هذا بسبب ما حدث معك وتضرر جسدك "

وتابعت وهي تجلس على الكرسي قرب السرير " يا لك من شاب

متهور كيف تقود سيارتك جريحا ؟ حين اصطدمت بإحدى منازلنا

ضننا أنه أحدهم أغار علينا ، كدت تفقد حياتك يا مجنون "

" قال بشبه همس ونظره للسقف " فقدت الوعي .. لقد قدت كثيرا

حركت يدها أمام وجهها قائلة ببرود " مادمت تعلم أنك بطل لما

لم تفكر أنه سيغمى عليك بسبب نزيف جرحك "

أرخى رأسه جانبا ناظرا لها فلم يكن ينقصه الآن فضول

مراهقات ، همس " كنت مطاردا يا ذكية "

وضعت يدها على فمها شاهقة بصدمة وقالت " أصمت يا

أحمق إن علم والدي سلمك فورا لهم "

عاد بنظره للسقف وقال مغمضا عينيه بقوة وألم " ما سبب كل

هذه الآلام التي تذهب وترجع "

وقفت وتوجهت جهة خزانة في الغرفة قائلة " وكيف لن تتألم مع ما

قد أصابك ! المسكنات لا تعطى إلا أول ثلاثة أيام فكنت أنا من

أعطيها لك بعدها دون علم أحد ولا يمكنني إعطائها لك دائما

لو يمسكوا بي سأعاقب "

وعادت جهته وحقنت أعلى ذراعه بحقنة مسكن قائلة " إن جاء

والدي فلا تخبره أنه ثمة من يطاردك حتى تتماثل للشفاء كي لا

يسلموك إن كنت مطلوبا فمؤكد تعرف وضع التنانيون الحساس

" في البلاد

همس شاكرا لها وهو يشعر بالألم الفتاك ذاك يخف بسرعة وقالت

وهي تفصل رأس الحقنة وتدسها كاملة في فستانها جهة صدرها

" لترميها بعيدا ما أن تخرج " هل ستخبرني ما أسمك ؟

" نظر لوجهها وقال بصوت منخفض " رعد

ضحكت وضمت يديها أمام صدرها قائلة " رائع أسمك

" كسرعتك وأنت قادم لنا

لم يستطع كتم ضحكة شعر بها ضربت في ضلوع صدره كالمطرقة

" فأن متألما فأمسكت فمها قائلة بجزع " أنا آسفة هل تأذيت ؟

هز رأسه بلا وهمس بصعوبة " ليس كثيرا ، والبرق هو

" السريع ليس الرعد

" حركت يدها بعدم اهتمام فقال " ما أسمك أنتي ؟

قالت مبتسمة " أستريا ومعناه بالعربية المرأة التي لا أعلم تقولون

" عنها أنها تكون غير مفهومة أو صعبة الفهم

" همس مبتسما بتعب " غامضة أي أسمك معناه غموض

قالت مبتسمة " أجل هو كذلك لكني لا أراه يعبر عني أبدا فأنا

" لست معقدة وغير مفهومة

كتم ضحكته وتحرك صدره بسعال بسيط متألم ونظر للسقف

" قائلا بابتسامة " بل هو جميل يا أستريا بالعربية وبلغتكم

قالت بحماس " حقا أعجبك ؟ الجميع يقول أنه سيء حتى أن

" أغلبهم يناديني آستي وهو أحد أسماء ضوء بداية الفجر

انفتح باب الغرفة ودخلت منه شقيقتها قائلة " أستريا أنتي لا

تتوبين عن الثرثرة أبدا ألم يقل الطبيب لا تكثروا معه الكلام

" لتأثر ضلوعه ؟ لكان والدي من تحدث معه وليس أنتي

توجهت نحوها قائلة بضيق " توقفي عن وصفي بالثرثارة ، كنت

" قلتها بلغتنا على الأقل ، هو يعلم أني سيئة بدون أن توضحي له

وخرجتا معا وقد أغمض عينيه ببطء ونظره عليها وقد بدأ مفعول

ذاك المسكن يسحبه لعالم النوم بقوة

*

*

وصل بها لنقطة أخرى في ذاك الجبل المرتفع وقال

" من هنا تري جداول الماء الثلاثة "

جلست على الصخور البارزة حيث وصلا تنظر لذاك المشهد الرائع

وقد جلس بجانبها في صمت محترما صمتها يعلم أن ما مرت به اليوم

لم يكن سهلا رغم تيقنه من تحسن نفسيتها كثيرا بعد رؤيتهما وخاصة

والدها الذي رباها ، اتكأ بيده للخلف قليلا ينظر لوجهها ولنظرتها المتأملة

بشرود وانسجام تام ثم مد يده الأخرى لحجابها وأزاله في حركة واحدة

مفلتا غرتها وخصلاته التي تطايرت مع الريح الباردة فنظرت له فورا

وقد قال وهو يربط به شعرها كما فعلت سابقا " إن شعرت بالبرد

أخبريني ننزل من هنا اتفقنا ؟ "

هزت رأسها بحسنا وعادت بنظرها للبعيد وأرخت ذقنها على ذراعيها

" المحتضنة لساقيها وقالت بشرود " مطر هل تحن لوالديك أحيانا ؟

ابتسم ولازال يراقب ملامحها ولون وجنتيها الذي أصبح يزداد توهجا

بسبب لفح الهواء البارد لهما وقال " من قال لك أني لست مخلوقا

" بشريا ؟

اتكأت بجنب وجهها على ذراعها بحيث نظرت لوجهه وقالت

أنت لم ترى والدتك ومثلي تماما لا تذكرها أليس كذلك ؟ أنا "

" أحن لها دائما هل تشعر أنت بذلك ؟

مد يده للخصلة التي علقت في طرف شفتيها وأبعدها قائلا

لا أحد لا يحن لوالدته يا غسق ، فقط ذاك يختلف بين "

" الرجال والنساء

امتلأت عينيها بالدموع وقالت " لو كانتا معنا الآن كانت أشياء

" كثيرة تغيرت أليس كذلك ؟

مسح بكفه على شعرها مبعدا غرتها واتكأ على وجهها مقبلا خدها

" وهمس " غسق تعوذي من الشيطان فكل هذه الأفكار بسببه

ثم ابتعد عنها بعدما قبل خدها مجددا على صوت همسها متعوذة بالله

من همزه ولمزه ثم رفعت رأسها ونظرت للبعيد مجددا قائلة " أحيانا

أتمنى لو أني رأيتها لو أملك من ملامحها أي شيء في ذاكرتي والآن

أحمد الله أني لم أعرفها لسنوات كثيرة ثم ذهبت وتركت لي ذكريات

ستعذبني حتى أموت "

وسالت تلك الدمعة على خدها وهي تذكر شقيقها الذي لن تنساه يوما

ولن يعذبها شيء كذكرياتها معه ، دمعة شعرت بها حرقت جفنيها قبل

أن تلسع وجنتها برودتها والريح الباردة تضربها بقوة ، شدها لكتفه

ودس وجهها فيه قائلا " غسق يكفي تعذيبا لنفسك فلن يجدي ذلك

في شيء ولن يضر غيرك "

لم تعلق تدس وجهها أكثر في طيات صدره تخفي دموعها الصامتة

ويدها تمسك بمعطفه بقوة فقبل رأسها واتكأ عليه بذقنه وقال ونظره

على ذاك الأفق البعيد " حين مات والدي كنت في الرابعة والعشرين

كنت رجلا كما يريده ، لقد صنع مني ما لن يصنعه أحد ولا نفسي أنا

علمني كيف أكون قويا كيف أكون ذكيا كيف أقود وآمر ، قربني من

كل أمور الدنيا ولم يبعدني شبرا عن الله وعن أمور الآخرة ، ويوم

مات كنت بجانبه كنت أراه وهو يفقد كل ارتباطه بالحياة وما حوله

سمعه بصره نطقه ، مشهد ما ضننت أنه سيحفر في ذاكرتي لأعوام

وأني سأتمنى يوما أني لم أراه ، بعد موته بعام تسلمت زعامة الحالك

باختيار كبار قبائلها دون حتى أن أطلب ذلك أو أقترحه ، رباني لسنوات

طوال لأكون زعيما ولم يكن ذلك إلا بعد موته ، صنع شيئا لم يراه ولم

يشهد نجاحه ، لم أستطع قول أن موته كان في وقت خاطئ فالله وحده

يعلم الخير في الأمر والشر فيه ، والدتي لم أعرفها لم أعرف عنها

أنها امرأة فقدت حياتها لأعيش ، فتاة أجبرت على الزواج من سوى

منها بكثير ولم يغرها ماله وجاهه بين قبيلته ، طفلة عاشت رجل أكبر

وحيدة والدها ، تمنيت فعلا أن رأيتها أن ربتني مع والدي يتيمة الأم

علمتني ككل أم كيف أعطي أكثر من كل هذا فلم يعلمني أن

" والدي إلا الأخذ

رفعت وجهها فأبعد ذقنه ونظرت له وقالت " لكنك لا تأخذ

" فقط يا مطر أنت تجهل نفسك حقا

هز رأسه بلا وعاد بنظره للأفق البعيد وقال بشرود " أنتي التي لا

تعرفينني يا غسق ، أنا تربيت على ذلك أنا لست ملاكا ثمة عيوب

" بي أعلم أنها تخسرني الكثير لكني لا أستطيع التخلص منها

نظرت لوجهه ولنظرته تلك بضياع ولم تفهم مغزى كل ما قال وجل

ما تخشاه أن تعيشه يوما لتفهمه ، شدت قبضتها على ياقة معطفه أكثر

وقالت بحيرة " هل تعني أنك تعطي لتأخذ يا مطر ؟ تتحايل حتى

" ... على مشاعـ

نظر لها وقال بحزم " لا يا غسق لا تفهمي كلامي كما يحلو لك

لا تجعليني أندم على التحدث ولأول مرة عن أمور لم يكن يعلم

" عنها أحد

" رطبت شفتيها بلسانها وهمست " أنا آسفة

مرر أصابعه في خصلات غرتها عند أذنها وقال ناظرا لعينيها

" هل ننهي الحديث عن كل تلك الأمور وعن الأموات ؟ "

هزت رأسها بحسنا هزة خفيفة وقالت " أخبرني فقط عن اسمها

" أريد أن أعرفه

" قال فورا " تيما

ابتسمت بحزن قائلة " تيما !! كم هو جميل كاسم زوجة الكاسر

" رحمهما الله ، كان سيكون أميمه هو على نفس وزنه

خرجت منه ضحكة صغيرة وانحنى لشفتيها قبلها قبلة صغيرة

وهمس " لا تشابه في وزنهما أبدا يبدوا فقط أنك تخشين أن

" اسمي ابنتنا على والدتي قبل والدتك ؟

هربت من عينيه مبتسمة فها هو يفتح ذلك الموضوع من جديد

" رفعت نظرها به مجددا حين همس ضاحكا " جبانة

عضت طرف شفتها ناظرة لعينيه تلك النظرة التي يعشق ، نظرة

مشاكسة متوعدة عنيدة ومحاربة فضحك هامسا وقد أمال جسدها

" للخلف ببطء منحن فوقها " أتبتي العكس إذا

و شعرت بالحجارة وظهرها يتكئ عليها للخلف وشفتيه توزع قبلاتها

على شفتيها فتعلقت بعنقه وغابا في ذاك الشغف أصابعها تتغلغل في

شعره تشده لها أكثر ، عالم كان كفيلا بأن نسي معه كل واحد منهما

أحزانه وذكرياته المدفونة ، أبعد شفتيه وأنفاسهما المتلاحقة قد اختلط

بلهاث ولم تزدهما سوى رغبة بتكرار كل ذلك وهي تشده لها مجددا

يرويا عطش كل تلك الأيام التي ابتعد فيها ، شعرت بيده وملمس

أصابعه وهوا يسحب كنزتها لأعلى خصرها فابتعدت عنه مجفلة

وهمست " مطر لا تنسى أين نحن "

أبعد يده وجلس مبتعدا عنها فجلست تعدل ثيابها فوقف قائلا

" لننزل إذا سنصلي ونغادر لأدرك رجلا سنمر بمنزله

قرب حوران "

وقفت تنفض التراب عنها ثم نزلا توضئا وصليا معا كباقي الفروض

وانطلقا من هناك عائدين الطريق التي سلكاها قدوما ، وبعد ساعة

ونصف تقريبا توقفا من أجل صلاة العشاء ثم انطلقا مجددا وقد

غابت عيناها في نوم سريع لم تستطع مقاومته ولا التغلب عليه

تشد معطفها على نفسها ولم تشعر بكل تلك الطريق ولا بحركة

السيارة على بعض الطرق الترابية الوعرة ولا في أي وضع

كانت تنام حتى شعرت بيده على خدها يضربه برفق

قائلا " غسق هيا استيقظي ما كل هذا النوم ! "

فتحت عينيها لتكتشف أنها كانت تنام على كتفه وليست تعلم كم مر

من الوقت وهي في هذا الوضع ؟ وفوق عناء القيادة والتعب كان

يتحمل ثقل وزنها عليه ، مسحت عينيها تتثاءب وقالت " هل

وصلنا ؟ لما لم توقظني أبتعد عنك لتقود مرتاحا "

فتح بابه وقال " لا لم نصل بعد سأنزل لصاحب هذا المنزل

قليلا ، حوران أصبحت قريبة لا تنامي "

ونزل وأغلق بابه خلفه وعيناها تتبعه وهو يقترب من باب المنزل

المعلق فوقه مصباح صغير قد صنع بقعة ضوء حوله وسط ذاك

الظلام الذي يغطي المكان في ليلة كان قمرها هلالا وانعدم النور

فيها بعدما أطفأ أضواء السيارة ، راقبته وقد انفتح الباب ما أن

اقترب منه ودون أن يطرقه فهمست بعبوس " هل كنت ميتة

لهذا الحد حتى أن مكالمته لم توقظني ؟ "

استوت في جلستها وأنزلت زجاج النافذة لمنتصفه مطمئنة للظلام الذي

كان يحجب السيارة عنهما ما أن رأت الذي خرج من المنزل يحمل

طفلة سقطت فورا على صدر مطر ضاحكة ما أن رأته واستقبلها

هو من فوره وقال الرجل ضاحكا " لا تتقبل شخصا غيري

وزوجتي إلا أنت بل وتخصك بترحيب لم نحض نحن به "

ضحك مطر ومسح على شعرها قائلا " كيف حالك يا

زيزفون ؟ "

وكرر بتأني " هل أنتي بخير ؟ "

هزت له تلك رأسها بنعم قائلة " بخير "

نظر حينها للواقف أمامه وقال " كيف كانت زيارتك

للطبيب ؟ "

قال عكرمة " لقد ظهرت صور الأشعة اليوم "

وانخرط يشرح له ما قال ورأيه فيه حتى قال مطر " سأوفر لها

ذاك العلاج لا تفكر في أمره وسأعرضه على متخصص آخر خارجا

" لأخذ رأيه فيه قبل أن نعطيه لها ، لا نريد أن نضرها بغباء

هز ذاك رأسه بموافقة وقال " وهو عين الصواب على الأقل نعلم

" ما يكون وما نفعه ، أو هي في غنى عنه

مدها له وأخذها ذاك منه قائلا " متى ستزورها زيارة أطول من

" الوقوف عند الباب ؟ واجلب زوجتك معك

" ثم ضحك متابعا " زيارة اجتماعية أعني كما يقول بِشر

ضحك مطر وقال مبتعدا جهة السيارة " لا تعلم قد يكون قريبا

" تصبح على خير ولن أوصيكما عليها

أغلقت نافذتها ما أن خرج من تلك المساحة المضيئة وتبعته بنظرها

حتى ركب بجانبها (تلك إذا الطفلة من خماصة هو يزورها ويطمئن

عليها ومخلوق بشري آخر يعتمد عليه وعلى حمايته له) نظرت لوجهه

ما أن انطلقا ولم تستطع إبعاد نظرها عنه ، أشهر هي التي عرفته فيها

ورأت كم يعطي الناس حتى وقته صحته راحة باله حياته مع أسرته

فلما يقول أنه لا يعطي بل يأخذ !! لم تستطع تفسير ذلك ولا فهمه

وكانت تعلم أن الغوص فيه أكثر لن يزيدها إلا ألما ، نظر لها

وقال وقد عاد بنظره للطريق " كنت أريد أن تنزلي لزوجته

وتتعرفي على تلك الصغيرة لولا كان الوقت متأخرا "

قالت بهدوء ونظرها لازال على جانب وجهه " إن كبرت

تلك الطفلة ألن تلومك على أخذها من أهلها "

قال بسخرية ناظرا للطريق " أهلها من ؟ جدها الذي تخلى عنها

وسافر وأنكر والدها الذي يكون ابنه وتركه بلا نسب ؟ أم والدتها

التي كانت تستغلها فقط لتحصل على منزل جدتها وقطعة الأرض

متجاهلة أن رؤية تلك الطفلة لذاك المنزل مجددا وحدها كفيلة

بأن تجعلها تفقد عقلها ، هم لم يستحقوها يا غسق وحين

تكبر وتشفى يمكنها أن تقرر بنفسها "

همست وقد أبعدت نظرها عنه " كم أتمنى أن تنتقم منهم

جميعا وقتها "

نظر لها وقال مبتسما " هل لديك نزعة انتقام دائمة ؟ "

" نظرت له بضيق وقالت " طبعا وحاذر أن تجربني

تلاشت الابتسامة عن شفتيه وقال شاردا بنظره في طريق حوران

" التي دخلاها للتو " فلنأمل ألا أجربها يوما ما

ارتجف قلبها بقوة وعادت كل تلك الأمور للتشكل أمام عينيها

" وهمست برجاء " مطر لا تقل هذا أنا كنت أمزح فقط

نظر لها وابتسم ولم يعلق وقد عاد بنظره للبوابة التي فتحها العمال

أمام سيارتهما ودخلا منها وقالت وهي تنزل قافزة من بابها تنظر

له متوجها ناحية باب المنزل " هل اعد لك شيئا تأكله قبل أن

" أصعد

قال وهو يفتح باب المنزل " ألم أخبرك أني لا أحب الأكل وقت

وصولي ؟ ثم الوجبة التي أعدتها الخادمات وأخذناها معنا

" لازالت في معدتي حتى الآن

ودخل وهي تتبعه وقالت وهما يصعدان السلالم " خسارة لو لم

" نصل متأخران كنا حضينا بوجبة عشاء جميعنا معا

ضحك ووقف والتفت لها شد يدها حتى كانت بجانبه وطوق كتفيها

" بذراعه قائلا " نعوضها وقت الفطور هل يرضيك هذا ؟

" قبلت أسفل خده وهمست " أجل يرضيني

وتابعا صعودهما حتى كانا في غرفتهما وابتعد عنها جهة طاولة

التزيين يفرغ جيوبه ويضع ما فيها عليها ونزعت هي معطفها تراقبه

وهو ينزع سترته وقد أتبعها قميصه فالقميص الداخلي وأخذ المنشفة

ودخل الحمام فورا فأخذت ثيابا لها ونزلت لغرفتها في الأسفل استحمت

هناك وصعدت مسرعة تركض تحسبا من أن يراها أحد بذاك القميص

القصير بحملاته الرقيقة رغم يقينها من أن ساكني ذاك المنزل جميعهم

ينامون مبكرا والوقت الآن تجاوز منتصف الليل ، دخلت الغرفة وأغلقت

الباب خلفها ونظرت للذي كان يجلس على السرير ببنطلونه القصير فقط

يستعد للنوم ثم توجهت لثيابه المرمية أرضا وما أن انحنت لها حتى

ناداها مادا يده " تعالي واتركيها للصباح من سيهتم لأمرها

" الآن والجميع نيام

جمعتها سريعا ووضعتها على الكرسي وتوجهت للسرير صعدته

واندست في حضنه وقد غطاها معه بالغطاء السميك وقبل خدها

قائلا " لن تنامي في طرف السرير الليلة فقد ينتهي حطب المدفأة

ليلا في أي وقت وتتجمد الغرفة ولن ينتبه العمال له ولن أنتبه أنا

لك وأنتي ترمي الغطاء تحت قدميك دون شعور "

اندست في حضنه أكثر قائلة بضحكة صغيرة " أخشى أن أرميه

عنك وعني ، ثم هل ستتحمل الليلة إزعاج شعري الطويل ؟ "

ضحك وعاد لتوزيع قبلاته على خدها ودس وجهه في شعرها

وهمس " تبدين لي في مزاج أفضل من ليلة أمس "

مررت أصابعها على قفا عنقه وبين شعره تشعر بقبلاته على

عنقها وهمست بحزن " أفضل بكثير ... كثير جدا "

ابتعد عنها ونظر لعينيها فأشارت بسبابتها على قلبها وقالت وقد سالت

دمعة يتيمة واحدة من جانب عينها " هنا كان ثمة شيء يشتعل وخمد

اليوم ، لن تتصور يا مطر كم أسعدني أن والدي لم يكن غاضبا مني

لتهوري وما فعلت ، أنه لم يرفض رؤيتي ولم يستقبلني غاضبا وأنا

أكثر من يعرفه حين يغضب وقد يتبرأ حتى من دمه وصلبه

" رغم أنه لم يغضب مني يوما

قبّل مكان دمعتها عند صدغها برقة وهمس في أذنها مبتسما

" وما الذي قلتماه عني وأنا بعيد عنكما ؟ "

ضحكت ومررت أناملها بنعومة على كتفه وظهره العاري وقبلت

" عنقه هامسة بابتسامة " ترجيته أن يأخذني بعيدا عنك ولم يوافق

ضحك وابتعد عنها ونظر لعينيها وقال " إن كنت تريدين النوم

بعيدا عني الليلة أيضا فلن أجبرك يا غسق لا أريد لهذا الأمر

" أن يحدث بيننا مجبرة أو كارهة

عضت طرف شفتها تمسك ضحكتها هامسة لنفسها (هل هو

جاهل في النساء هكذا أم يتغابى ؟) طوقت عنقه بذراعيها

وقربته لها هامسة " لا أريد أن أتجمد ليلا وأنا هناك لا

" تعلم عني

*

*

غضن جبينه وهو ينظر للواقفة في الممر وما أن وصل عندها

" ! حتى همس " عمتي ما تفعلين هنا ؟ ألم تنامي بعد

أمسكت فمها بيدها وقالت بحزن تمسك عبرتها " والدك لم يخرج

من غرفته حتى الآن ولا أخرج الصغير ، سمعت بكائه لبعض

الوقت ثم توقف ، ما به يسجن نفسه معه يا رماح ؟

" علينا أن نطمئن عليه

نظر لباب الغرفة هناك وقال بحزن " اتركيه عمتي حين يريد الخروج

سيخرج من نفسه ، لقد كان صامدا منذ تلقى خبر موت الكاسر ورغم

أن وجهه كان لا يمكن وصفه حينها إلا أنه صامد ولم تنبس شفتاه بكلمة

سوى بـ (اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيرا منها) ووقف على

قدميه فورا وقاد القبائل وجمع كلمتها مجددا فلنترك له هذه اللحظات

يختلي فيها بحزنه يعبر عنه بما يريد ، ثم لا تنسي أنه كان أبا عطوفا

ساعد حتى والدتي رحمها الله في الاعتناء بنا خاصة ليلا وهي أنجبتنا

متعاقبين ، كما أنه من اعتني بغسق بعد وفاة والدتها وقبلك مجيئك لنا

عناية لن تجدها في والدتها التي أنجبتها فلن يعجز الآن مع هذا الصغير

اتركيه يطفئ ناره التي لم تخرج ويصدق على الأقل أن ابنه مات

" فأنا ما صدقت ذلك حتى رأيت ابنه اليوم

مسحت دموعا غلبتها وقالت " وماذا علمتم أيضا عن ملابسات

حادث موته ، أقسم أني لا أصدق ذلك حتى الآن ، ليتهم تركوني

" رأيته على الأقل لأرتاح

أطرق برأسه للأسفل وتنهد بحزن قائلا " حالي ليس أفضل منك

عمتي لكنه واقع علينا تقبله ، لقد دفنه رعد وأعمامي ورأوه

" بأعينهم بل وغسلوه بأنفسهم

مسحت دموعها ترتشف عبرتها وقالت " وكيف هي غسق ؟

ما حالها ووضعها ؟ والدك لم يجبني عن شيء ولم

" يسمع شيئا مما كنت أقول

رفع رأسه ماسحا الدموع التي غلبته وقال بضيق " لم أراها عمتي

ولم أتحدث معها ، زوجها ذاك منعني عنها ولم أنزل من تلك السيارة

البائسة معتمة النوافذ حتى غادرنا ، حتى شعرها ما أن انكشف من

" حجابها أسرع لتغطيته ، لم يتركني أسلم عليها ولا من بعيد

هزت رأسها بحيرة وقالت " كيف يتركك تسلم عليها من بعيد وهي

تعتقد أنه لا يعلم أنكم لستم أخوتها ؟ ثم لا تنسى بأنه يعلم بذلك هل

" كنت تفعلها أنت لو كنت مكانه ؟

خرجت الحروف من بين أسنانه " لكنها شقيقتنا تربت معنا كشقيقة

" لنا منذ صغرها ، لن يفهم ذاك المغرور ذلك أبدا

مسحت بيدها على ذراعه قائلة بهدوء " لا تنسى أنه سلمنا ابن شقيقك

كما تغاضى عن أضرار الحادث وبنفسه دفع الدية لأهل الرجل الذي

مات في الحادث وترك والدك يرى ابنة عمه والآن ينظم دورية

للبحث عن رعد داخل حدوده ، هذه أمور ما كان يفعلها أبدا

" قبل أن يتزوج بها

قال بسخرية تنطق مرارة " ذاك الرجل لا يفعل دون مقابل عمتي

" لا يعطي ما لم يأخذ ، هو يرد جميلا سابقا أو لاحقا تأكدي من ذلك

تنهدت بحيرة من عجزها فهم ما قال وقالت " وما قال والدك عنها ؟

" هل سألته ؟

قال بضيق مغادرا " قال لن تكون بحال أفضل إن كانت هنا

" معنا وأنها وصلت مكانها الصحيح

واختفى وتركها في حيرتها وظنونها ، توجهت جهة غرفتها متمتمة

ترى هل أخبر ابن شاهين شراع عن السبب الحقيقي لهروب "

" أميمه بها ؟

*

*

" مررت أناملها في شعره الرطب وهمست " مطر

" اممم "

تلك الهمهمة المرتخية فقط ما صدر عنه وعيناه مغمضتان

" فقالت بعبوس " مطر هل ستنام ؟

تحركت شفتيه هامسا ببحة أعمق من بحة صوته ودون أن

" يفتح عينيه " وما الذي سأفعله برأيك غسق ؟

هزت كتفه هزة خفيفة قائلة بضيق " افتح عينيك هيا

" أنا لا أشعر بالنعاس

همس بخدر وصوت مرتخي " وما ذنبي أنا إن نمت لخمس

" ساعات متواصلة ، حاولي هيا وستنامين

تأففت بضيق وقالت ناظرة لوجهه القريب منها " لا أشعر بذرة

نعاس فكيف سأنام ؟ بل كيف سأبقى وحدي في هذا الليل

" مستيقظة ؟ هيا مطر افتح عينيك لنتحدث حتى أنعس

فتح عين واحدة ناظرا لها بها وقال " اتركيني أنام يا مدللة ألا

" تعلمي أني متعب وقدت السيارة لثلاثة عشرة ساعة متواصلة

لكمت صدره العاري بقبضتها وقالت بضيق " أفلح والدي حقا فيما

" أخبرك عني ، ثم أنت قلت بنفسك أنك معتاد على القيادة لوقت أطول

أغمض عينه مجددا دون أن يعلق على كلامها فعضت شفتها حنقا

منه ثم ابتسمت بمكر وهي تمرر يدها على عنقه وقبلت شفتيه

" هامسة من بين قبلاتها تلك " لن تنام وتتركني لا تحلم بها

شد يده على خصرها أكثر مقربا لجسدها منه وفتح عينيه بتكاسل

وقال ناظرا لعينيها " أنتي من سيكون الخاسر بسبب هذا العبث

" يا مشاغبة وستجدين نفسك في الحمام مجددا

عضت طرف شفتها تمسك ابتسامة عابثة وقبلت شفتيه مجددا

" وهمست " لا مانع لدي بما أن المقابل أن لا تنام

سحب الغطاء بقوة مبعدا له عن جسدها فصرخت ضاحكة

" مطر انتظر قليلا "

قال بتوعد " كنت أريد الهرب بالنوم عن تحطيم عظامك

" الليلة لكنك من جلب هذا لنفسك

*****

*****

أغلق حاسوبه متأففا فكل ما حصل عليه من قريب والدته ذاك

لن يفيده في شيء (عمرها أربعة أعوام أسم والدها إسحاق والدتها

زهراء ومن الحويصاء ومطر شاهين منعها من رؤيتها وأخذها ، لن

يستفيد شيئا من هذه المعلومات إن لم يعرف اسم الفتاة التي كان يتحدث

عنها جده ووالده أو اسم والدها ، غادر الغرفة يديه في جيوبه عابرا

الممر الطويل المطلي جدرانه بالأبيض الناصع تزينه تلك الإضاءة

المخفية وبساط أحمر فاخر ممتد على طوله وكأنه ممر في أحد أفخم

الفنادق ، تابع سيره قاصدا غرفة مكتب والده فهو في هذا الوقت يكون

هنا ووحده من سيملك أي معلومة قد تفيده متأملا أن لا يكون متشددا

ناحية موضوعها كجده ، قطع الممر الآخر فانفتح الباب وخرجت

منه يد سحبته لداخلها فسحب يده وقال بضيق يتدارك توازنه كي

" لا يقع " رواح يا أحمق كدت توقعني ، يا لك من همجي

لكمه في كتفه قائلا " مرحا بالأرستقراطي وقاص سلطان ضرار

" سلطان ... مهلك علينا يا رجل

ثم ألصق جسده جانبا بالجدار وقال يمرر يده أعلى رأسه

" انظر لقد زاد طولي ، سأصل لك قريبا "

ضحك ذاك وقال وقد وقف بجانبه " وأنا ازداد طولي يا

" ذكي ، هل وحدك من ينمو ؟

دفعه بيده مبعدا له خطوة عن المقياس الذي يعلقه هناك وقال بضيق

" والدتي قالت بأن طولك سيتوقف في مرحلة عمرية ما بينما

" أنا لا وسيستمر لأربع سنوات بعدك فلا تفرح كثيرا

ضحك وقاص ولم يعلق فتوجه ذاك حيث الشاشة الكبيرة المسطحة

جلس أمامها وأمسك يد اللعبة الالكترونية وقال " تعال نلعب

" شوطا سأغلبك هذه المرة

اتكأ لظهره على الجدار وقال " لا وقت لدي للعب عليا العودة

لدراستي ، وأنت أبعد عنك هذه التفاهات الآن ، إن رسبت

" لن يرحمك جدي

حرك يده دون أن يلتفت له وقال " نجيب فعلها قبلي لا بأس إن

" شاركته التوبيخ مرة ، من باب التعاون الأخوي أعني

ضحك وابتعد عن الجدار وتوجه نحوه جلس بجانبه على الأرض

وأمسك اليد الأخرى للعبة وقال " هو شوط واحد فقط إن هزمتك

" لن نعيد

قال رواح مدخلا قرص اللعبة " سأختار فريقك الذي تأخذه دائما

" وسأفوز عليك فلا تطلب أنت هذه المرة شوطا آخر

اكتفى وقاص بضحكة صغيرة ولم يعلق فقال رواح والفرق

" تعرض أمامهما " ما قصتك وجدي والطفلة ؟

" نظر له بصدمة وقال " أي طفلة ؟

حرك ذاك كتفه قائلا ونظره على الشاشة أمامه " أنت من

" يجيب عن هذا السؤال وليس أنا

" قال ناظرا لملامحه بحيرة " من أخبرك أنت ؟

نظر له رواح وقال " لم يخبرني أحد هو حديث دار بين والدي

وجدي وكنت قريبا منهما ولم يهتما لوجودي ، يبدوا لعلمهما

" أني لا أعلم عن الأمر

وتابع وقد عاد بنظره للشاشة " سأل جدي والدي إن كنت تحدثت معه

في موضوع الطفلة ولم يذكر اسما أو من تكون وإن كنت سألته عن

أي شيء يخصها فنفى والدي أن ذلك قد حدث فأخبره أن لايخبرك إن

" فعلت وأن يغلق الموضوع فورا إن فتحته معه

غاب بنظره في الشاشة أيضا ولم يعلق فقال رواح " من تكون

" هذه وما قصتك معها ؟

لم يجبه وقد صرخ ذاك قائلا بحماس " هدف هدف نظيف

" هههههه سأتغلب عليك

فرمى يد اللعبة من يده ووقف مغادرا بضيق فصاح به رواح

" هيه تعال يا جبان كنت سأهزمك "

فخرج ولم يلتفت له لأن ذهنه أساسا لم يكن مع ما يقول يفكر في السر

الذي يجعل جده يتهرب من الحديث عنها !! دخل غرفته مغلقا الباب

خلفه وتوجه للدرج في مكتبه الدراسي أخرج أحد كتبه وورقه وأخرج

منه قصاصة الصحيفة التي تحمل صورتها ورفعها ينظر لها بتمعن

وسؤال واحد يدور في ذهنه (لما يريد جدي إبعادها وإقصائها عن

العائلة وما طبيعة مرضها ذاك ؟)

*

*

سمع أصوات خشخشة من خلفه فالتفت بسرعة وريبة وقال مستغربا

" ماريه !! ماذا تفعلين هنا وفي هذا الوقت ؟ "

اقتربت منه وجلست بجانبه حيث السياج الصخري لتلك الجهة من

فناء المنزل الخلفي وقالت تراقب السلحفاة الصغيرة التي كانت

تأكل أوراق الخس الفاسدة التي وضعها لها " اليوم جمعة ولا

مدرسة لدينا وزوجة عمي غادرت المنزل لا أعلم أين

وعمي نائم لا يستيقظ قبل مقربة الظهيرة "

عاد بنظره للسلحفاة وتمتمت ببرود " فوق شره كسله "

خرجت ضحكة رقيقة من الجالسة بجانبه تمسك فمها بيدها الصغيرة

فنظر لها وقال " ألم يقل لك سابقا أن لا تلعبي معي هنا ؟ ماذا إن

زاره النشاط فجأة وجاء هنا ؟ "

حركت كتفيها وقالت بلامبالاة " يضربني وأبكي حتى يختفي ألم

ضربته وانتهى كل شيء المهم ألعب معك وأكون معك ، ثم هو

سمح لي بالذهاب معك لأي مكان وقال لي ذلك بنفسه حتى

" لغرفتك ووالدتك رحمها الله

هز رأسه بيأس منها وعاد وشرد بنظره في ذاك المخلوق الصغير

الحذر الذي شعر بالأمان لوجودهما وأصواتهما التي اعتاد عليها

لا يفهم سبب هذا التغير في ذاك الرجل !! لكن عقله ومهما كان

ذكيا فسنه لن يساعده ليفهم كل ما قد يجول في عقل كذاك العقل

الذي فاقه بأعوام ، خبأ نصف وجهه في ذراعيه الملتفة حول

ساقيه وقال " ماريه ما الذي سمعته أيضا من حديثهما غير

" كلمة زواج قسري

" ! نظرت له باستغراب وقالت " ومن أخبرك أني سمعتها منهما

" قال بضيق " السلحفاة أخبرتني ، تكلمي هيا

" نظرت لها وقالت موبخة " سلحفاة سيئة هل تتجسسين على النوافذ

" ! ثم ما لبثت أن ونظرت له بصدمة وقالت " لكنها لا تتكلم

نظر لها وقال بضيق " ماريه تكلمي هيا لا أحد لديك غيرهما

" تسمعينه وتتجسسين عليه سهلة لا تحتاج لذكاء

ضربت قدمها بالأرض وقالت " لم أتجسس عليهما كنت في غرفتي

والباب مفتوح وهما في وسط المنزل ليس ذنبي إن ضنا أني نائمة

" هل كنت تريد أن أصرخ بهما كي يسكتا لأني أسمعهما

تنهد بقلة صبر وقال " موشح طويل ككل مرة والنتيجة صفر

" هيا قولي ما الذي سمعته

عبست ملامحها ونظرت للسلحفاة وقالت " لم أفهم كثيرا كانا يتحدثان

عني قالت زوجة عمي (ألست تعلم أن الزواج القسري يلغى في محاكم

بعض الدول وبلادنا قد يتغير حالها قريبا وتكون فيها قوانين جديدة

(تنظمها) فقال لها (وقتها يكون كل شيء بيدنا نحن نتحكم فيه

" فقط هذا ما سمعته

نظر لملامحها بتفكير يتذكر كلام عمير حين سأله عن معنى تلك

الكلمة وأخبره أنها تعني في المحاكم زواج الفتاة مرغمة دون موافقتها

وبالفعل أخبره أنه في بلدان كثيرة ترفع قضايا ضده من قبل الزوجة

ويلغى ، عاد بنظره حيث كانت تنظر هي وعاد عقله لذات تلك الدوامة

هل يفكرون من الآن في تزويجها مجبرة ؟ لكن ذلك لا يمكن أن يحدث)

من سيسمح لهم به ؟؟ أم يتحدثان عن المستقبل فهما إن كان المال في

المقابل بعد نظرهما لألف عام ، هل سيزوجونها لأحد أبناء عمها

ليأخذوا مالها ؟ لكن من سيوافق لهم هي طفلة في الخامسة ولم

(أرى من قبل واحدة تتزوج في سنها

تنقل بنظراته في تقاسيم وجهها الدائري الصغير ويدها البيضاء

الصغيرة تبعد خصلات شعرها المتطايرة على عينيها وفكر في كل

كلام والدته في وصاياها له وفي الوعود التي قطعها لها وجميعها

تخصها (ترى ما عنت والدتي حين قالت لا تجعل ما يرجعك هنا

لها ندم على أمر لا يمكن إصلاحه لا تشاركهم في تحويلها لبقايا

امرأة ويكون نصف اللوم عليك فالمرأة إن أحبت تحب بعنف

(وإن جرحت تكره بعنف وإن كان على حساب مشاعرها

أبعد نظره عنها ونظر عاليا للغيوم المتجمعة في السماء وهمس

" قد أفهم ذلك يوما يا أمي إن لم يتحقق قبل أن أفهمه "

*

*

لم تتركه هذه المرة يستيقظ قبلها ويغادر دون أن تعلم بل غادرت السرير معه ما أن شعرت بحركته وسحبه لذراعه من تحتها ، وتبعا لذلك أصبح مجبرا على تناول إفطاره مع باقي العائلة وحتى عمته التي كانت تناولت فطورها وقت الفجر لتأخذ علاجها عادت وأفطرت معهم مجددا ما أن أصدرت ذاك القانون (لن نتناول الوجبات إلا معا وإن كنا اثنين فقط أما الغائب دائما فرأى أنها رحمته وخففت قانون العقوبات عنه بأن يتناول أي وجبة يكون فيها موجودا في المنزل معهم وأن يخصص ساعة من وقته للجلوس وسماع ما يتردد في مجلس منزلهم ، وأكثر من أسعدته تلك القوانين الجديدة كان عمها صقر الذي قال بسعادة وهو يتناول معهم وجبة الإفطار (الله أكبر يا ابنة شراع أخيرا سأمارس شيئا من حقي المهضوم) جملة لم يفهم معناها إلا من ملئت ضحكته الجهورية المبحوحة تلك الغرفة الواسعة على نظرات النسوة الثلاث المستغربة له وإن كانت الأسباب عدة ، نظرة من لم تفهم من ذاك

الحديث شيئا ونظرة من تستغرب ضحكته العالية التي لم يقيدها

. بصلابة شخصيته كالسابق

نظرت من زجاج نافذة السيارة في الجانب الأيمن وهي تقف خارجها

للواقف في الجهة الأخرى يعصر قطعة الإسفنج الكبيرة بيديه وشعره

الذي قصه كما كان في السابق وكانت المرة الوحيدة التي خرج فيها

من المنزل صباحا ليقصه ، كانت تراقبه مبتسمة تنفض قطعة القماش

في يدها ثم رمتها على النافذة سريعا حين نظر جهتها وأمسك بها

" فقال بضحكة " ماذا حدث معك ؟ لا أسمع أي صوت من جهتك

نزلت للأسفل مستندة على قدميها وأدخلت تلك القطعة في إناء

الماء قائلة بصوت مرتفع ليصله " الأمور لدي جيدة لا تأتي

" حتى ننتهي ، لا تتدخل في جهتي أبدا

جوابه كان ضحكة صغيرة ولم يعلق وعاد لتنظيف تلك الجهة من

السيارة من الأتربة التي التصقت بهيكلها الخارجي بسبب الأمطار

وقد اختارت أن تساعده وعليه أن يرضى بقوانينها مادام في المنزل

ولن يتحرر إلا بمغادرته لذلك أخذ هو جانبا وهي الآخر لينظفاها

بعدما رفضت اقتراحه بتنظيفها معا ، رفعت رأسها ووجدته بدأ

بتنظيف زجاج النوافذ فوقفت أيضا وبدأت بتنظيفها مثله وفي النافذة

التي تقابل نافذته خصيصا فنظر لها مبتسما وهي تقلد حركته السريعة

في تلميع الزجاج تمسك ضحكتها بِعضها لطرف شفتها ، أكمام كنزتها

الشتوية مرفوعان لفوق مرفقيها وكذلك بنطلونها الجينز لأكثر من

نصف ساقيها ، انتقل للنافذة الأخرى ففعلت ذات الشيء فقال ضاحكا

" ونظره على وجهها " تلك النافذة لم تنظفيها جيدا فارجعي هناك فورا

قفزت لتنظف مثله الجزء العلوي من إطار الباب حول تلك النافذة

" وقالت " لا تتدخل في جهتي ألم أقل لك ذلك سابقا

رمى المنشفة في الإناء وتحرك من هناك فصرخت هاربة ما أن علمت

عن نيته وقد ركض خلفها ودارت حول السيارة تصرخ ضاحكة وما أن

وصل عندها ممسكا ذراعها من قبل أن يصلها حتى وقفا مكانهما وسحبها

فورا خلف ظهره يخفيها هناك ما أن اقترب صوت ذاك العامل وصوت

امرأة صارخة وأخرى باكية فاختبأت خلفه مخبئة حتى ساقيها خلف

ساقيه كي لا يظهر منها شيء مستغربة قدوم ذاك العامل وهو من طلب أن لا يدخل منهم أحد ! اقتربت الأصوات التي لا ترى من أصحابها شيئا بينما انكشفوا للوقف أمامها يخفيها عنهم وكانت امرأة وفتاة وقال العامل بخجل من موقفه " آسف سيدي لم أسطع منع هذه المرأة التي قالت أنها تريد التحدث معك "

قالت تلك ناظرة له برجاء " حلفتك بالله يا زعيم أن تستمع لي فقط وتنصفني وابنتي ، لا أحد لنا بعد الله غيرك وأنت عادل ويحتمي الضعيف بك دائما "

نقل نظره بين تلك السيدة التي تجاوزت الستين عاما والأخرى التي تقف بجانبها تنكس رأسها في الأرض وتمسح دموعها بكفها ولم يتبين لا ملامحها ولا سنها ومن جسدها وهيئتها تبدوا صغيرة ، عاد بنظره لتلك وقال " بما أخدمكما ؟ "

أمسكت كتف الواقفة بجانبها وقالت ودموعها شقت طريقها في خديها " ابنتي سيدي اجتمع أعمامها وأبنائهم يريدون قتلها يتهمونها بالخروج من منزلنا ليلا وتلطيخ سمعتهم بالعار وهي ابنتي وأعرفها لا تفارقني

لحظة ، فقط لأنه لا رجل لنا يرد شرهم عنا خاصة لرفضها الزواج

من أحدهم لغرض ضم أرض والدها لأرضه الملاصقة لها لتتحول

لأرض كبيرة وهو سيء الخلق سيء المعشر لكنت زوجتها به

" دون أن يجبرها

ثم رفعت يديها للسماء ودعت عليهم باكية ثم نظرت له وقالت تدفعها

من ظهرها بقوة حتى تقدمت للأمام خطوتين وكادت تقع " ابنتي حلالٌ

لك يا زعيم لتكن زوجة خادمة أمة ، احمها منهم لا رد الله لك طلبا

" فلن يجدي معهم ولا التهديد فهم هددوا بقتلها وإن خلسة

لم يستطع إمساك الابتسامة التي تغلبت على شفتيه بالقوة بسبب التي

التصقت بجسده في الخلف يشعر بقبضتيها تمسك قميصه بقوة وبوجهها

الذي دفنته بين كتفيه العريضان ثم لكمت ظهره بقبضتها هامسة

" إن وافقت قتلتك يا مطر فهمت "

لكن تلك الابتسامة قرأتها الواقفة أمامه أمرا آخر وأنه وافق على

عرضها ورحب به وستخلص ابنتها منهم وتكون زوجة الزعيم في

آن وهذا ما لم تتخيله ، دبت السعادة فيها وتقدمت جهة ابنتها التي

لازالت تنكس وجهها في الأرض باكية وشدت غطاء رأسها عنها بقوة

حتى تناثر شعرها الأسود الناعم وشدت طرف عباءتها لتكشف عن

كتفها الأبيض وبشرته الصافية ورفعت وجهها له من ذقنها قائلة

انظر لها ليس ينقصها حسن ولا بهاء وفوق كل ذلك مطيعة "

" وقليلة كلام ولن آخذ مهرا لها شيئا وأرضها لك أيضا

أشار بيده للعامل الذي كانت عيناه ستخرجان من الموقف أمامه

" أن يذهب وقد غادر ذاك فورا وقال هو بجمود " استري ابنتك

فتحركت حينها التي كانت خلفه وظهرت لهما تنظر بصدمة للمشهد

المعروض أمامه للفتاة ذات الوجه الأبيض والعينان السوداء الواسعة

قد أرهقها البكاء ولشعرها الحريري شديد السواد قد وصل لآخر كتفيها

وتلك العجوز تبادلها ذات تلك النظرة وقد علمت فورا من ستكون ، إنها

الزوجة التي سمعت عنها لكنها تجدها فاقت وصفهن لها ورغم إهمالها

لمظهرها وشعرها المرفوع والمجموع بعشوائية إلا أنها فاقت ابنتها

الحسناء بكثير ، عادت بنظرها لمطر وقالت " هي خادمة لك

" ولزوجتك حللها لك وعاملها كما تريد أنصفنا أنصفك الله

نقل نظره منها للواقفة بجانبه وكانت تنظر له بعينان مصدومة وأنفاس

متوترة كمن تنتظر أجلها ، أمال ابتسامته ونظر لها تلك النظرة التي

تقول (ما رأيك أنتي في الأمر) فرمت المنشفة وغادرت من هناك

راكضة قبل أن تفضحها دموعها أو تملأ المكان بصراخها الغاضب

المحتج فماذا حدث للنساء كل واحدة تريد أن تأخذه بطريقة ، وصلت

لغرفتها السابقة في الأسفل لا تعلم كيف ولما اختارتها خصيصا حتى

وجدت نفسها داخلها وقد أغلقت بابها بالمفتاح تشعر بالنار تشتعل داخلها

كالسعير وتقاطرت الدموع من عينيها وقد أخرجت المشبك من شعرها

ورمته بطول يدها ليتناثر ذاك الشعر الحريري الطويل حول جسدها

وضربت الجدار براحة يدها بقوة متمتمة ببكاء " سحقا لك وله

" بل سحقا لكل النساء ، لما لا يتركونه لي ؟ ألا رجال غيره ؟

طرقات قوية على الباب جعلتها توقف ضربها لذاك الجدار الأصم

" تلاها صوته المرتفع قائلا " غسق افتحي الباب

لم تجبه وقد مسحت عينيها بقوة بكميها بعدما أنزلتهما ، وما أن

تكرر طرقه له ومناداته لها حتى صرخت " لن أفتحه ولا أريد

رؤية أحد "

وما أن سمعت خطواته مغادرا جلست منكمشة على نفسها فوق

السرير تدس وجهها في ركبتيها تمسح عينيها فيهما بقوة لا تريد أن

تبكي أكثر .. لن تبكي ، لعنت نفسها مرارا وتكرارا على شعور التملك

الذي فاق مخيلتها تشعر به ناحيته ، كان يفترض بها أن كانت قوية أن

قالت أي جملة تعبر عن لا مبالاتها ، أن تحدثت ببرود وغادرت بثقة

لكنها فقد عقلها وجن جنونها ما أن سمعت كلام تلك المرأة وزاده أن

رأت عرضها لابنتها أمامه ، كانت ستلوم نفسها لو أنها تحدثت بعدم

لباقة مع تلك التي في عمر والدتها بل ويزيد بكثير ولكان لامها هو

أيضا وهي زوجة زعيمهم وتُظهر قلة تهذيب أمامه وأمام من

استجارت به مهما كانت نواياها ، لكن صمتها لم يفدها سوى أن زاد

اشتعالها وكادت تجن ، رفعت رأسها سريعا ما أن سمعت صوت قفل

الباب يدور فقفزت واقفة فوق السرير ونزلت خلفه من الجهة الأخرى

ما أن انفتح الباب ودخل منه من تعلم أنه وحده يملك مفتاحا آخر للغرفة

توجه نحوها فورا فالتصقت بالجدار خلفها وهي تنظر لملامحه التي لم

تكن تحمل أي تعبير تفهمه ونظرته التي لم تستطع تفسيرها ولم تهتم

سوى بأنها لم تكن نظرة غاضبة ولا حانقة ، وصل عندها ووقف أمامها

وأمسك وجهها بيديه عينيه تنظر لعينيها التي شاب جفنيها احمرار طفيف

من فركها لهما بقوة وهي تمسح دموعها ورموشها لازالت مبللة بدموعها

تزم شفتيها كي لا يفضحها ارتجافهما ، شعرت بأن كل تلك الأشياء

وبخت بها نفسها طارت أدراج الرياح ما أن رأته أمامها بكل التي

ورجولته المدمرة وتخيلت فقط أن تشاركها فيه امرأة وسامته تلك

حضنه وأن يعطيها مما يخصها بها هي وحدها ، أخرى ، أن تنام في

أغمضت عينيها ببطء

وهمست بألم " إن كنت ستتزوجها فطلقني وأرجعني لوالدي لن

" تشاركني فيك امرأة أبدا

وما أن أخذت نفسها الذي شعرت به خرج مع كلماتها حتى جفت

رئتيها انفتحت عينها بصدمة حين قبلها بعنف قبلة لم تفهم ما توقيتها

وسببها بل وحرارتها التي لم تعرفها بهذا الشكل ! شدت بيدها على

قميصه بقوة جهة صدره فأبعد حينها شفتيه وما كانت تلقفت أنفاسها

حتى عاد وقبلها مجددا بحرارة أشد ملصقا جسده بجسدها الذي

شعرت به سيسقط الجدار خلفها فتمسكت بعنقه وتحول كل ذلك

لقبلات شغوفة شاركته فيها ولم تعد تشعر ولا بتألم جسدها

من ضغطه عليه

" سيـــ ..... "

ابتعد عنها سريعا في خطوة واحدة ونظر للواقفة عند الباب وقد يبست

مكانها أناملها على فمها وملامحها لا يمكن وصفها سوى بجسد دخلته

الموت للتو قد اختفى الدم من وجهها ولم تستطع ولا إبعاد نظرها عن

تلك الجهة بسبب تيبس جميع ما فيها وحتى حواسها ، بل ولم تستطع

ولا الحراك ولو قليلا لتبتعد حين مر بجانبها خارجا من هناك ونظرت

للتي ما تزال هناك وقد أخفت عينيها في راحة يدها ورأسها للأسفل

منذ أن ابتعد عنها ووعت للسبب ، استطاعت تحريك شفتيها أخير

" وهمهمت بصعوبة " ما هذا الذي فعلته ؟

وكان كل ما تريده وقتها الهرب من هناك بل ومن المنزل بأكمله

وما أن التفتت مغادرة حتى شدتها يد غسق وأدخلتها الغرفة

" وضربت بابها قائلة " انتظري يا حبيبة أريدك في أمر

ضربت تلك خديها بيديها بقوة صارخة وعينيها ستخرج من

" مكانها " قتل الله حبيبة ليتني مت قبل هذا اليوم

شدتها غسق من كمها تحاول الحديث معها وتهدئتها لكنها لم تكن

تسمعها وسط صراخها مكررة ولازالت تلطم خديها بقوة

" قتلك الله يا حبيبة قتلك الله "

تأففت منها وصرخت " حبيبة يكفي ما حدث قد حدث

" هل ستفقدين عقلك ؟

نظرت لها بوجه شاحب قد اختفى أي لون فيه وقالت ضاربة بيديها

فوق رأسها " فقدت عقلي من حين جئت هنا ، لم أتوقع أنه معك في

الغرفة ، لقد رأيته منذ قليل متوجها لمكتبه ، ويحي ماذا سأفعل

" الآن ؟ ويحي ... ويحي ... ويحي

توجهت تلك لقارورة الماء سكبت منها في كوب ومدته لها قائلة

اشربي هيا قبل أن تموتي لا ينقصني فقد وأموات ، ما حدث "

" حدث لا يمكن تغييره ولا حل سوى أن ننساه جميعنا

أخذت منها كوب الماء وشربته دفعة واحدة لا تتخيل أنها قد تنسى

ذلك أو أن ذاك الرجل قد ينساه وليست تستغرب أن يصرفها من

العمل هنا ما أن يراها ، وضعت يدها على قلبها وقالت ناظرة

بشحوب للواقفة أمامها " أخبريه أني لم أرى شيئا

" سيدتي أرجوك

هزت رأسها متأففة وقالت " ما هذا لم تري شيئا ! طفل هو

نضحك عليه ؟ ثم وجهك كان يكفي ليعلم ، هذا وأنتي هكذا

" كيف تتصرفين لو كنت مكاني أنا ؟

شهقت بقوة ضاربة على صدرها فأمسكت غسق رأسها وقالت

آخ منك يا حبيبة زوجين وأخطأنا في تقدير المكان والزمان "

" وقدرك ساقك لنا فهلا نسينا ذلك فثمة ما هو أهم منه

نظرت لها باستفهام ويدها لازالت على قلبها تستشعر دقاته المجنونة

فقالت غسق " ثمة امرأة وابنتها خارج المنزل تريدان مطر اذهبي

وانظري أين ذهبتا ، عليا أن أعلم قبل أن أفقد أنا عقلي

" وليس أنتي

شهقت فيها حبيبة بقوة وقالت مغادرة جهة الباب " تريدين أن

أذهب حيث يكون ؟ لا لن أفعلها ولا على قطع عنقي

" ولن أقابل وجهه قبل شهر

وخرجت تاركة الباب خلفها مفتوحا تردد " ما هذا الذنب الذي

ارتكبته هذا الصباح أعاقب عليه هكذا ؟ استغفر الله العظيم

" من كل ذنب عظيم

ولم يختفي صوتها إلا باختفائها من كل ذاك الممر فتأففت الواقفة

" هناك وغادرت الغرفة متمتمة " والحل الآن في كل هذا ؟

توجهت للمطبخ فورا وقفت عند الباب وكانتا حفصة وعزيزة

هناك فقالت " أين حبيبة ؟ "

قالت عزيزة من فورها " أخذت حبوب وخافض حرارة وقالت

أنها ذاهبة لغرفتها ، تبدوا متعبة قد تكون نزلة برد "

أمسكت ضحكتها بصعوبة وقالت مغادرة من هناك

" حفصة تعالي أريدك قليلا "

فتبعتها تلك من فورها حتى ابتعدتا قليلا ودخلتا في حديث هامس

ثم غادرت حفصة جهة باب المنزل وبقيت هي واقفة مكانها عينيها

على السلالم فإن كان في الأعلى ورأت قدميه تفر هاربة من هناك

مرت اللحظات أعواما عليها حتى عادت حفصة ودخلت مغلقة الباب

خلفها فتوجهت نحوها من قبل أن تأتيها وهمست تلك " قال أحد

العمال أنه غادر المنزل ولم أجد أحدا ولم يذكر أن أحدا كان معه "

وضعت يدها على فمها وتمتمت " أين ستكونان إذا ؟ لابد غادر

معهما لكن أين ؟ وقد يكون أخذهما معه في سيارته "

عضت شفتها بقوة من جنون أفكرها التي سيطرت عليها ونظرت

للخادمة التي كانت تنظر لها بحيرة لم تفهم شيئا من همهمتها تلك

فهمست محركة يدها أمام وجهها " شكرا لك يا حفصة يمكنك

المغادرة "

فغادرت تلك من فورها وصعدت هي لغرفتها استحمت مطولا تحاول

طرد كل تلك الأفكار ثم خرجت للغرفة لبست ثيابها وجلست على

طرف السرير تجفف شعرها بالمنشفة وقدمها كانت تضرب الأرض

لا إراديا من توترها وما ضنت أنها ستنساه في الحمام أو تتناساها

لم يتركها دقيقة وهي تكاد تجن ، رمت المنشفة مع ثيابها ووقفت

وبدأت بالدوران في الغرفة كالتائهة تتمتم وهي تقضم ظفر سبابتها

" من أين سأعلم إن صرفهما أم لا وإن خرج من أجلهما أم لا ؟ "

بعد وقت قضت أغلبه جهة النافذة تنظر إن عاد نزلت من غرفتها

وتوجهت فورا لغرفة عمتها طرقت الباب ودخلت ما أن أذنت لها

فقابلتها بابتسامة قائلة " جيد أنك أتيت لنقضي الوقت معا حتى

صلاة الظهر "

فاقتربت منها تبادلها لابتسامة وفكرت أنها فكرة جيدة تشغل بها

عقلها قبل أن تفقده ، وليست تعلم كيف مر عليها ذاك اليوم الذي

لم يرجع فيه ولم تعلم عنه شيئا وقد فعلتها ولأول مرة وطلبت من

عمه ما أن غابت شمس ذاك النهار أن يتصل به ويعلم منه إن كان

سيرجع الليلة ومن دون أن يخبره أنها من طلب ذلك ، ونام أهل ذاك

المنزل ما أن تناصف المساء وهي وحدها من جافاها النوم بل ولم

تسعها أرض تلك الغرفة وقد جلست على عتبات السلالم تنتظره حتى

غلبها النعاس دون شعور منها يحتضن جسدها برودة المكان وصمته

المميت ولم تشعر بباب المنزل وهو يفتح ولا بدخول الذي انتظرته

طوال النهار وقد اقترب من السلالم ينظر لها باستغراب حتى وصل

عندها ونزل مستندا بقدميه ولمس خدها البارد فأجفلت جالسة

" وهمست تمسح عينيها بباطن كفها " مطر ؟

" قال مبعد خصلات غرتها عن وجهها " ماذا تفعلين هنا ؟

تعلق نظرها بوجهه وملامحه في الضوء الخفيف للمنزل وقالت

" أين كنت حتى هذا الوقت ؟ شغلتني عليك "

أمسك يدها وقال موقفا لها معه " زرت بعض المناطق القريبة

" فثمة أمور عليا انجازها مادمت هنا

وتابع وقد لف ذراعه حول كتفيها وصعد بها عتبات السلالم

ثم هذه ليست أول مرة أتأخر فيها ، ما كان عليك النوم هنا "

ألم أخبرك أن التدفئة في المنزل قد تتوقف في أي وقت دون

" أن يعلم عنها أحد

وقفت فأوقف خطواته لوقوفها والتفتت ناحيتها وقد اتكأت بظهرها

على جدار السلالم وهمست ونظراتها معلقة في عينيه

" هل تزوجتها ؟ "

" ! نظر لها باستغراب وقال " تزوجت من

ضربت قبضتها بالجدار خلفها ضربة خفيفة وقالت بضيق

تلك الفتاة من برأيك ؟ أم من كثرة العروض لم تعد "

" تفرق بينها ؟

رفع يديه جانبا وقال بضيق مماثل " بربك غسق هل سأحل

مشكلة كل امرأة في الحالك بزواجي بها ! حتى الشرع حلل

" لي أربعة فقط

" نظرت لعينيها بأسى وهمست " أنت إذا لم تتزوجها ؟

ابتسم بسبب نظرتها تلك وكلماتها وقال " لا طبعا ولا أريد الزواج

" لا بها ولا بغيرها ، حللت لها مشكلتها وذهبت في حال سبيلها

مدت يديها لكتفيه مسحت عليهما وطوقت عنقه بذراعيها وحضنته

بقوة تشعر بذراعيه تلتف على خصرها وتشدها له ، لن يعنيها ما

فهم وما سيفهمه فلن يشعر أحد بما شعرت به أو يجربه إلا عذرها

وصلها همسه ويده تمسح على ظهرها " ظننتك فهمت ردي

" عليهما ما أن دخلت عليك الغرفة صباحا

عضت طرف شفتها مبتسمة وقد زادت من تعلقها به هامسة

أنت لي وحدي مطر ... لي أنا وحدي فهمت؟ "

خرجت ضحكته مكتومة وابتعد عنها وأمسك وجهها وهمس تداعب

" ! قبلاته الخفيفة شفتيها " حقا

فدفعته من صدره بيدها قائلة بضيق " مطر لا تنسى أين نحن

وإن كان الوقت متأخرا ، أم تريد لموقف الصباح أن يتكرر ؟

" المسكينة كادت تفقد عقلها ومرضت بسببك

ضحك ورفعها عن الأرض بين ذراعيه وقال صاعدا بها باقي

" العتبات " بل أنتي السبب في كل ذلك

ضربت صدره بقبضتها بينما الأخرى ملتفة حول عنقه وقالت

أجل فأنا من فتحت لك باب الغرفة وطلبت منك أن تفعل "

" ما فعلت

دخل بها الغرفة دافعا الباب بقدمه ووضعها على السرير منحن

" بها برفق قائلا " بلى أنتي سبب كل ذلك

تعلقت بعنقه وقالت بابتسامة فاتنة " ما سبب هذا التغيير ! لم

" ترمني هذه المرة على السرير وكأني وسادة

" قال مميلا ابتسامته " خشيت إن فعلتها قلبت ليلتنا لدموع بسببي

أرخت يديها عن عنقه وماتت ابتسامتها وتحولت لحزن ما أن أدركت

سببه ذاك وتلك الذكرى في ذاك الموقف ، أمسك وجهها ووزع

" قبلاته عليه وهمس " غسق ما بك ؟

" هزت رأسها بلا هامسة ببحة " لا شيء

" وتابعت ناظرة لعينيه بحنان " شكرا لك مطر

عاد لنثر قبلاته على شفتيها بنعومة ثم نظر لعينيها قائلا " أنت

" من طلب ذاك الأمر من شراع ؟

" هزت رأسها بنعم وهمست برجاء " لا ترفض ذلك مطر أرجوك

ابتعد عنها وقال متوجها جهة باب الحمام " لم أرفض بل

" وسيدخلون صباح الغد يا غسق

ودخل معلقا الباب خلفه بهدوء ونظراتها تتبعه وهمست تمسح

" دمعتها من طرف عينها " لا حرمني الله منك يا قلب غسق

*

*

دفعت الباب بهدوء وخرجت متسترة بالظلام ثم أغلقته وما أن

تحركت حتى قفزت تكتم صرختها المذعورة بيدها تنظر لوجه

الشخص الذي ظهر أمامها وقالت بعدما استرجعت أنفاسها

" !! أنجوانا "

" قالت تلك بسخرية " بل جوانا ، ماذا تفعلين هنا آستي ؟

قالت بضيق " وأنا أدعى أستريا وليس لك علاقة بي وبما

" أفعل

نزلت بنظرها ليدها التي تحاول إخفائها وقالت ساخرة

" هل تسرقين من أجل مريضك ذاك ؟ "

وتابعت وقد عادت بنظرها لوجهها " هو صحيح إذا أن والدك

" كلفك بالعناية به أم هي أكذوبة تغطي بها على الحقيقة ؟

تجاهلتها وكانت ستغادر فأوقفتها كلماتها قائلة " ترى ما سيكون

رأي الجميع هنا إن علموا أن ابنة زعيمهم تسرق الأدوية

" وتخترق القوانين

التفتت لها وقالت بضيق " سيكون أخف من رأيهم بك إن قلت

" ما أعلم فحاذري من اللعب معي أنجوانا

ابتسمت بسخرية وغادرت قائلة " أنتظر إذا اليوم الذي ستشهرين

" فيه رغبتك بدخول الإسلام من أجل عربي يا خليفة أنجوانا

وغادرت ضاحكة على اشتعال من تركتها خلفها وهي أكثر من كان

يسخر من أفعالها مع الرجال وخاصة الزعيم مطر درجة أن أعلنت

اعتناقها الإسلام من أجله إن طلب أن يتزوجها ، غادرت من هناك

ودخلت المنزل المخصص لمريضهم مجهول الهوية حتى الآن ودخلت

غرفته على صوت أنينه المتألم الذي كان يصلها منذ دخلت من باب

المنزل ، حقنته بالمسكن الذي أحضرته معها وقد خف أنينه حتى

اختفى وهمس حينها بصوت متعب مغمضا عينيه

" أستريا "

" اقتربت منه ومسحت على شعره قائلة " نعم يا رعد

همس بصعوبة أكبر " أنا ابــ ن شراع صـ نوان عليك

" مـ ـساعدتي لأغادر من الحالك

فانفتحت عيناها من الصدمة وتراجعت للخلف

*

*

قفز من فوق سريره ما أن سمع بكائها الذي لم يسمعه هكذا من

قبل وصوت عمها ذاك مزمجرا فخرج راكضا من الغرفة وأصواتهما

تقترب منه وصعق لرؤيته يسحبها من شعرها والدماء تزف من أنفها

قد شوهت فستانها فشعر بذاك الغضب يتصاعد في رأسه كالبركان وكان

سيتحدث لولا أوقفه صوتها الباكي صارخة " اهرب يا تيم غادر

" من هنا أرجوك

لتسكتها تلك اليد التي ضربت فمها بقوة أنزلت الدم من شفتها

الصغيرة ليزداد بكائها وقد وصل عنده وشده من قميصه بقوة

" قائلا " تحدث أو افعل شيئا وسأضربك معها

حاول الفكاك منه قائلا بغضب " توقف يا مجرم يا عديم

" الرحمة ما الذي فعلته تضربها هكذا

سحبه بقوة أكبر واضعا كل طاقته فيها بما أن تلك تتبعه منصاعة

لأن شعرها في يده وقال خارجا بهما من باب المنزل " بات عودك

" يشتد سريعا يا فضلة الهازان ، لن أستغرب أن تقتل رجلا بعد عام

حاول أن يتخلص من قبضته ومن سحبه القوي له ولم ينجح ولم ينقذهما

من بطشه ولا من مروا بهم ورأوا بأعينهم ما يفعل ، وانصاع له نهاية

الأمر لأنه كلما قاوم أكثر كلما تأذت التي شعرها في يده أكثر ، وصل

بهما لمنزل شيخ قبيلتهم تلك وقد لحق بهم من لم يتركه فضوله يحدق

فقط وما أن دخل بهما مجلسه وقف على طوله مصعوقا هو ومن

كان معه هناك ، رماهما أرضا وقال " جدوا حلا لفضيحته في

" ابنتنا ولعبث وفضول من نضنه طفلا

لتنفتح الأعين المحدقة به بصدمة ولم يغب عنهم معنى ما قال

وانتقل نظرهم للتي لوثت الدماء ثيابها تبكي بنحيب موجع والذي

كان جاثيا على ركبتيه ويديه ينظر للأرض في حالة ذهول لم يفق

منها بعد وقد علا همس المتجمعين عند الباب خلفهم ، قال شيخ

" القبيلة " هدئ من روع الصغيرة يا قيس وأفهمني ما حدث

صرخ راميا يده " ما الذي سأشرحه أكثر مما قلت فجد لنا

" حلا في هذه المصيبة

اقترب ذاك منها وأوقفها يمسح الدم من وجهها بطرف فستانها

وقال " اهدئي يا ماريه واحكي لي ما حدث ، هل صحيح

" ما قاله عمك

كانت عبراتها تخرج دون توقف وصرخ الواقف فوقها " هل

تقصد بأني أكذب وتريد شهادة طفلة ؟ تكلمي الآن يا ماريه

" وقولي الحقيقة

مسح ذاك الرجل على وجهها بعدما صرخ في عمها أن يصمت

حتى يفهم ما تريد قوله وما أن خفت عبراتها وشهقاتها قليلا حتى

قالت بنحيب متجاهلة قدم عمها التي كانت تكز قدميها بقوة متوعدا

" ....لا تيم لـ "

" بلى حدث "

كان ذاك الصوت الذي أسكت الجميع وحتى صوت بكائها الذي اختفى

من ذاك المكان وقد انتقلت الأنظار جميعها للجالس على ركبتيه يديه

على فخذيه ينظر لهما وقد قبضهما بقوة ، من كان يرى وحده إشارة

عمها التي يتوعدها بها وبالويلات إن هي أنكرت كلامه ، ولم يفته

أنها ما طلبت منه هناك أن يهرب إلا وهذا الرجل قد هددها من

قبل خروجه بها من منزله ، ومن سيصدقه هو ويكذب عمها

بل من سينقذها هي إن أنقذته فلم يكن ثمة خيار غيره أمامه

*****

*****

ما أن أبعد الهاتف عن أذنه حتى قالت بلهفة

" هل وصلوا ؟ "

ضحك وقال يدس هاتفه في جيب سترته " خمس دقائق

ويكونا عند باب المنزل "

فركضت مغادرة من الغرفة ونزلت السلالم وهو يتبعها مبتسما على

حماسها وكأن الزائر يخصها هي ، توجه للباب وفتحه بينما تابعت

هي ركضها حتى وصلت غرفة جوزاء وفتحتها دون طرق ما أن

سمعت صوتها وعمتها في الداخل وقد سكتتا ونظرتا لها باستغراب

من طريقة دخولها التي لم يعرفوها عنها سابقا ومن دخولها غرفة

جوزاء تحديدا ! أمسكت يدها وسحبتها معها قائلة " عمتي

الحقي بنا عند بهو المنزل "

وخرجت وتلك تتبعها بخطوات مسرعة لتدرك خطواتها الراكضة

حتى وقفت بها حيث يقف شقيقها عند باب المنزل المفتوح وقد علت

نبضاتها بشكل جنوني حين قال محدثا أحدهم في الخارج

" ادخلا هيا والدتكما هنا في الداخل "

لم يستطع عقلها استيعاب ما قال ! فمن هنا تكون والدة غيرها وعمتها

وعمتها لها ابن وليس اثنان ! شعرت بهوان ساقيها ولم تعودا تحملانها

ونظراتها معلقة بالباب وقد غشت الدموع رؤيتها تخشى أن تكون مخطئة

أنها فهمت أمرا لا وجود له فمن هذا الذي قد يأتي بهما لها ؟ وما أن ظهر

لها أول الداخلان الفتى ذو الإحدى عشر عاما من حمل من سماتها الكثير

عيناها لون شعرها وابتسامتها التي ظهرت على شفتيه فورا ما أن رآها

وسرعان ما وقف خلفه الفتى الآخر الذي لم يكن يكبره سوى بعام ونيف

من كانت ملامحه أخذت من والده الكثير ، انهارت على ركبتيها ما أن

ركضا جهتها ومدت يديها المرتجفة لهما ودموعها تستقبلهما من قبل أن

يصلا ، دموع القهر والحرمان دموع كم سكبتها على فراقهما وشوقها

الذي لم يرتوي لأعوام برؤيتهما ، دموع لو حكت ما سكتت أبدا .

وما أن ارتميا في حضنها حتى ملأ المكان صوت نحيبها الموجع وهي

تضمهما لحضنها بقوة ، لم تصدق يوما أن حلمها هذا سيتحول لحقيقة

أنه ستشرق عليها شمس صباح ترى فيها ابنيها ولا حتى بعد توحيد

البلاد ، كم كبرا وكم تغيرا بحجم ما حرمت من رؤية ذلك أمامها وبقدر

ما دعت الله أن يجمعها بهما ولو ليوم واحد ، كانت تمسك وجه أحدهما

وتقبله في كل مكان فيه لتتركه وتمسك الآخر ثم تعود وتدسهما في

حضنها وكأنه حلم تخشى الاستيقاظ منه أو أن يسرق منها ، كان

مشهدا لن ينساه أهل ذاك المنزل ما عاشوا ، الواقفة فوقها تبكي معها

وكأنها هي وعمتها التي وقفت خلفها لم تتوقف عن مسح دموعها

بينما الواقف عند الباب حتى الآن قد رفع رأسه للأعلى وهمس

" مغمضا عينيه " حمدا لك يا رب

فلطالما كان وجع شقيقته سكين في قلبه عجز عن نزعه أو مداواته

جلست تلك معهم على الأرض وحضنتها وابنيها بذراعيها تبكي كبكائهم

ثلاثتهم فهي من عاشت في عائلة ليست عائلتها عاشت محرومة من أهلها

ومن معرفتهم وتعلم جيدا معنى الفقد بعدما فقدت أحد أعز الناس على قلبها

ولن تراه ، بعدما ودعت بالأمس والدها الذي رباها كما استقبلته وليست تعلم

متى ستراه مجددا وإن كانت ستجمعها الحياة به من جديد أم لا ، تقدر شعور

الأم وإن لم تجربه ولا يمكنها أن تتصور أن تكون في مكانها ولا تفقد عقلها

من أعوام ، اقترب الواقف هناك منهم ونزل عندهم مستندا على قدميه

ومسح على ظهر شقيقته قائلا " أقر الله عينك برؤيتهما يا جوزاء

" سامحيني يا شقيقتي عجزت أنا وفعلها لك شراع صنوان اليوم

ابتعدت مبعدة لهما عن حضنها وارتمت في حضنه فضمها بقوة وقبل

رأسها على كلماتها المختلطة ببكائها قائلة " لا حرمني الله منك يا

تاج رأسي وعزوتي ، أعلم أنك سعيت جهدك وأعلم كم هو

" معقدة هذا الأمر ومستحيل

ثم نظرت للجالسة بجانبها في الطرف الآخر تمسح دموعها التي

ترفض التوقف وحضنتها بقوة في أول بادرة تقارب بينهما وفي أول

مرة تعاملها فيها برقة تساوي رقتها ، قالت بنحيب ندمت فيه على كل

يوم كرهتها وآذتها فيه " لن أنسى لك هذا ما حييت يا ابنة شراع يا

" زوجة شقيقي ، لقد علمتني درسا لن أنساه في نبل الأخلاق

مسحت على ظهرها قائلة بحزن " لا حرمك الله رؤيتهما يا جوزاء

لو كان الأمر بيدي لجمعتك بهم أبد الدهر وكل ما استطاع والدي

الحصول عليه هو تركهم لديك أسبوعا كل شهرين ولولا وقفة

" والدهما في الأمر لكان أصعب بكثير

ابتعدت عنها وعادت لضمهما لحضنها وللبكاء بوجع لا تعلم من

فرحتها بأن يكونا معها أسبوعا كاملا وإن كان مرة في العام وليس

لستة أسابيع فيه أم من حسرتها على الرجل الذي عاشت معه أربعة

أعوام لم ترى منه يوما شيئا سيئا تذكره له ، من راعاها وعاملها

كواحدة من قبيلته كزوجة كأنثى كملكة على قلبه ومنزله ، من يوم

طلقها سالت دمعته يطلب منها الصفح عنه وأنه كان مجبرا حاله

حال غيره ، تحدثت التي نسيها الجميع في الخلف مادة يديها نحوهم

قائلة " وأنا ما نصيبي من كل هذا ؟ تعاليا يا قلب جدتكما تعاليا

" أشبع منكما أيضا

*

*

سار ورأسه في الأسفل لازال صوت بكاء السائرة بجانبه يصله رغم

كتمها له بعدما حقق السائر في الطرف الآخر منها ما سعي له وخطط

واجتمعوا على عقد ذاك الزواج الذي لم يكن ليقبله عقل ولا منطق

حجة مدارة مصيبة ستدفع الطفلة ثمنها مستقبلا ، وطبعا على تحت

يتحمل العواقب وبذلك ستكون حجة عمها أن المال إن كبرا المذنب أن

كنعان هازان ذاك لذلك هو عند عمها أفضل وأحوط سيأخذه ابن

حتى قطعة أرض والدته مهرا لها ، مهر !! كلمة وأضمن ، بل وسلبه

بها في هكذا سن وبطريقة بشعة جشعة بل لم يكن يعلم أنه سيرتبط

في الشارع !! لو كانت بلادهم موحدة وزوجة طفلة لازالت تركض

فعل ما فعلوه ، جملة تكررت في عقله يحكمها قانون ما كانوا استطاعوا

قانون يزوج طفلة لم تتجاوز الرابعة من طوال تلك الطريق فلا يوجد

عليه ولا علامات البلوغ ، ضربة على عمرها بعد من فتى لم تظهر

كتفها من السائر بجانبها هناك

" كادت توقعها وهو يصرخ بها " توقفي عن النحيب غبية منذ صغرك

أمسك الآخر بيدها وسحبها في جانبه ليكون هو بينهما ونظر له فوقه

نظرة كالنار فهي أصبحت زوجته كما حكموا هم وجاروا وأخذ منها

ما يريد فلن يسمح له بضربها أكثر ، ضحكة ساخرة خرجت منه ردا

على نظرته تلك وقال وقد تقدمهما " هنيئا لك بها يا فضلة الهازان

" واحمد ربك ألف مرة أن زوجناك من الحالك ، محظوظ كوالدك

وسار أمامهما فقال ذاك ويده تقبض على يدها بقوة ونظره على

" قفا السائر أمامهما " جدتها من الهازان

التفت له بنصف وجهه وعلق بذات سخريته اللاذعة " ولم تأخذ منها

" سوى لون شعرها البني المقزز وغبائها وجبنها ككل الهازان طبعا

وسار متابعا طريقه ضاحكا بسخرية وانتصار للمنزل الذي لم يكن

يبعد كثيرا عن المكان الذي كانوا فيه وما أن دخلا المنزل خلفه

حتى التفت لهما وقال " واحمدا الله أن تجدا هنا المأوى والطعام

" ويوم تكبر قليلا تخرج بها من هنا يا أم زوج

وانطلقت ضحكته عاليه مقهقها فشد على أسنانه غيظا ينظر له بكره

إن وزع على العالم أجمع لفاض ، صرخت حينها الصامتة طوال

الطريق وشعرها لازال مشعتا بسبب شده له ووجهها قد جفت

" الدماء عليه " كاذب أنت كذبت عليهم

لطمه من يده الضخمة على وجهها أسكتت كلماتها وأوقعتها أرضا

ولم تكن الأخيرة فقد انهال عليها ضربا متجاهلا سنها وبكائها العالي

المستنجد ولم تفلح جميع محاولات الذي كان يحاول أن يبعدها عنه

وهو يصرخ ويسب فيها فتوجه فورا لحجر كبير في ذاك الفناء ورفعه

بخفة بيدين اشتد عودهما بسبب كل ذاك التدريب وهوى به على رأسه

بقوة وغضب ليترنح ذاك الجسد قبل أن يتهاوى أرضا والدماء تنزف

من رأسه وهو ينظر له بصدمة وتلك تمسك فمها تنظر لوجهه الشاحب

بسبب صدمته قبل أن يرمي ذاك الحجر على صراخها الباكي

" قتلته يا تيم ، أهرب بسرعة أهرب من هنا الآن "

ولم يشعر بنفسه إلا وساقاه تأخذانه للبعيد ، للبعيد عن ذاك الجحيم

والمشهد ومنظر ذاك الرجل لا يفارق عينيه الباكية فما أشد ما يمر

ومر به فتى في عمره ووضعه وهو ينتهي للهاوية في كل مرة

*

*

اقتربت خلسة من ذاك المجلس في الهواء الطلق حيث يفضل والدها

أن يجلس وقت الظهيرة وما بعدها حيث دفئ الشمس في مثل هذا

الوقت من العام وكان في استقبال رجلين علمت فورا من يكونا من

لباسهما العسكري (رجال ابن شاهين) بل ومن أهم رجاله وأقربهم

اقتربت أكثر حتى وصل لمسمعها صوت أحدهما قائلا " الزعيم مطر

أرسلنا للبحث عنه وتركنا قراكم كآخر خياراتنا كي لا تضنوا أنكم

المتهم بكل شيء ، إن كان لديكم نريده حيا وإن لم تروه فأبلغونا

إن علمتم أي معلومات عنه "

وضعت يدها على فمها من الصدمة وهمست " جاءوا يبحثون

عنه ! مصيبة "

قال والدها " اتركوني أتصل بالزعيم مطر وأرى الأمر معه "

قال أحدهما " ونحن مرسلان منه ألا تثق بما نقول ؟ "

قال من فوره " حاشا أن تكذبا وأنتم رجاله لكن كما قلتما قبل قليل

وضعنا حساس وحديثي معه يكون أفضل "

وقفا حينها وقال أحدهما " لا أعتقد أنك تستطيع الاتصال به اليوم

فلديه اجتماع طارئ خارج البلاد لا يعرف أحدا كم سيطول لكننا

سنبلغه بما قلت وقد يتصل هو بك فيبدوا ثمة معلومات لديك لا

" تود قولها إلا له

*

*

أبعد نظره عن المرآة وربطة عنقه التي كان يعدلها عليها للواقفة

بجانبه عابسة الملامح تنظر له بعتب فضحك وعاد بنظره هناك

يرتب ياقة قميصه الناصع البياض وقال " هل ثمة من تودع

" زوجها المسافر بعبوسها هكذا ؟

رمت له السترة السوداء الفاخرة التي كانت تمسكه قائلة بضيق

" لأنك مخادع وضحكت عليا ككل مرة "

لبس السترة وأغلق أزرارها ثم توجه جهة معطفه الكشميري حمله

وتوجه ناحيتها ، وقف أمامها وأبعد شعرها عن طرف خدها وقبله

" هامسا " كان الأمر مستعجلا وأنتي تعلمين ذلك جيدا

وعاد لتقبيله ثانية وثالثة وأصابعه تتخلل نعومة شعرها الكثيف

فابتدعت عنه مبعدة يده وتمتمت بعبوس ناظرة لعينيه بأسى

" محتال وجميعكم الرجال هكذا "

ثم عدت بأصابعها ونظرها عليها قائلة بضيق " وعدتني برحلة

لبينبان وللبحر هناك ، بأن تأخذني في الغد لأتعرف على الصغيرة

من خماصة وبزيارة خالة والدتك وبأن تقضي هذا الأسبوع معنا هنا

ولن تذهب أبدا ولا للحدود ، كلها أمور كان يفترض أن تفعلها وطارت

جميعها أدراج الرياح ولم تبقى حتى أنت ، حتى ابنا شقيقتك لم

" يريانك سوى تلك اللمحة حين وصلا

توجه نحوها مجددا أمسك وجهها وقبلها بقوة وهمس من بين أسنانه

" لو فقط تتعلم هذه الشفتين أن تبقى رقيقة دائما قبل أن آكلها "

مدت شفتيها بعبوس طفولي فضحك وقال مغادرا جهة الباب بعدما

سحب حقيبته معه " لم يكن الأمر مخططا له يا غسق وأنتي

" رأيت بنفسك أنه كان طارئا

وخرج من الغرفة يسمع خطواتها الغاضبة تتبعه فقال نازلا السلالم

" وهي خلفه " قولي ترجع لي سالما على الأقل يا منكدة

لوحت بيدها تنظر لقفاه وقالت بضيق وكلماتها تتبع بعضها " أجل معك

حق أنا التي أعرف كيف أنكد عليك بينما أنت السبب في كل هذا

" وتعلم ذلك جيدا لكن لا حل أمامك سوى أن ترمي باللوم علي

" لم يعلق وتابع نزوله مسرعا وقد لحقته منادية بضيق " مطر

ولا مجيب فوقفت منادية له مجددا ما أن وصلت للأسفل

" مـــــطر "

لكنه خرج من الباب ولم يلتفت لها فنظرت للجالسة هناك على

كرسيها تنظر لهما مبتسمة وقالت من بعيد " يا سعادتي بأن

" رأيت زوجة لمطر تتبعه في سلالمه حتى يخرج

تأففت ضاربة قدمها بالأرض واتجهت نحوها قائلة بحنق " ما

" الذي يسعد في الأمر عمتي ؟ لقد خدعني ابن شقيقك وسيرى

ضحكت ليس من كلامها بل من اقتراب ذاك من خلفها وهي تتابع

قائلة بذات حنقها " مخاذع وكاذب ، مستعجل كثيرا للذهاب حيث

" ...نــ

وكتمت كلماتها اليد الكبيرة التي أغلقت فمها وقد لف ذراعه حول رأسها

ليصل له وسار بها جهة عمته تحاول إبعاد يده دون جدوى وتتحدث

بصوت مكتوم غير مفهومة من تحت أصابعه حتى وصل عند التي

" قالت ضاحكة " يرضيك أن تسافر وهي غاضبة منك ؟

نظر لوجهها ونظرتها الحانقة وكفه لازال على فمها وقال مبتسما

" أجل لأنها أجمل حين تغضب "

فأبعدت يده بقوة وغادرت عائدة جهة السلالم قائلة بغيظ

" وأنت أجمل وأنت غاضب وقررت أن أراك أجمل دائما "

وصعدت السلالم تتمتم بغضب فنظرت له عمته ونظره لازال معلقا

" بها وقالت مبتسمة " لو كنت راضيتها بكلمتين قبل ذهابك

نظر لها وقال " سترضى ما أن أرجع أنتي تعرفي رقة قلبها أكثر

" مني ، ما هي أخبار جوزاء لا أراك معها ولا أراها معك

قالت بحنان " ناما ابنيها من تعبهما بسبب الرحلة ورفضت

" أن تبتعد عنهما ولا دقيقة حتى وهما نائمان

هز رأسه بحسنا مبتسما فقالت ونظرها معلق به " اصعد لها

وطيب خاطرها بكلمتين قبل ذهابك يا مطر لا تضع كل

" اعتمادك على طبعها المسامح وكن عادلا

قبل رأسها وقال " سأراضيها وأفعل ما تريد ما أن ارجع فكلامي

" معها الآن لن يزيد الأمر إلا سوءا ، استودعتكم الله

" وغادر جهة الباب متابعا " لن أوصيكم عمتي لتكن في أعينكم

فتمتمت هامسة ونظرها معلق بخروجه وخطواته الثابتة الواثقة

" ليحفظك الله يا قلب عمتك ويحفظها لك "

وخرج وركب سيارته وغادر على نظرات أخرى محبة ودعوات

أحاطته من الواقفة قرب نافذة الغرفة في الأعلى تراقب سيارته حتى

اختفت وجل ما كان يحتاجه وقتها دعواتهما تلك في سفره الذي ما كان

مخططا له ولم يتوقعه أبدا ، وما كان ثمة شيء قد يخرجه من حوران

بل ومن المنزل ذاك اليوم لو لم يكن بأهميته تلك ، اجتماع طارئ

(تحت مسمى (التفاهم مع ابن شاهين في وضع الهازان

عنوان زائف لاجتماع سري مستعجل لدول معينة مسماه الحقيقي

التفاهم على طريقة لتسليم باقي الهازان سلما لمطر شاهين)

(وإخراج ابن راكان ومن حوله من البلاد وإن مرغما

وكانت الرحلة للحدود أقصر مما تصور رغم طولها فقد قضاها بين

اتصالاته وأحاديثه مع مرافقيه متفائلا بما سيجري في ذاك الاجتماع

السري وكل اتصالاته تلك كانت تبشر بأن الأمور تسير في اتجاهها

السليم ، خرجوا من البلاد ليستقبلهم الوفد الذي أوصلهم فورا حيث

الطائرة الخاصة التي كانت في انتظاره ليصل لبلاد ذاك الاجتماع

وكانت تلك الرحلة تكاد تكون بطول سابقتها رغم أنها كانت في طائرة

في الجو ليجدوا أنفسهم في تلك البلاد وتلك العاصمة (لندن) وفي

مبنى الاجتماعات بعد ساعتين من وصولهم قضى أغلبها في

. اجتماعات قصيرة مع بعض المسئولين هناك

دنى منه وهمس " ثمةرجال من صنوان في المبنى لم

" !! يذكروا لنا ذلك

" عدل وقفته ونظر حوله وهمس " سندخل ثم نرى ما يكون هذا

مر النادل بكؤوس الشراب في الصينية التي يحملها على راحة يده

وتعثرت قدماه أمامه لينسكب ذاك الشراب وسقطت الكؤوس وقد لوثت

قطرات كثيرة منه بنطلون بذلته فاستقام ذاك النادل يعتذر بخجل فأشار

له بيده أن يغادر وتحرك من هناك ليتحرك مرافقيه خلفه فورا فأشار

بيده موقفا لهم وتابع طريقه وتوجه حيث دورات المياه في ذاك المبنى

المحاط والمحصن أمنيا بحراسة مشددة ، سلك الممر ووقف مكانه

ما أن عبره لتلك الردهة وما أن ظهر ذاك الشاب أمامه ووقف في

طريقه قاصدا فنظر له نظرة شاملة فهو يعرف هذا الوجه جيدا

ابن شراع صنوان الأكبر ويده اليمنى في الداخل ، من تواترت)

(الأخبار عن هجره لمنزل والده من أشهر والسبب مجهول

عاد بنظره لوجهه ثم جال به في السقف وغضن جبينه مفكرا في

السبب الذي جعله يخرج له ويوقفه هنا تحديدا ؟ وفكر سريعا أنه لا

توجد مراقبة هنا وعاد وفكر في ذاك النادل واصطدامه به !! وخمن

أمكانية أن يكون صداما متعمدا ليكون في هذا المكان تحديدا ؟! عاد

بنظره لوجه الواقف أمامه ، الوجه الذي حملت ملامحه كل أنواع

الحقد والكره وقد قال بجمود " هل سأحتاج لقطع كل هذه المسافة

لأقابلك وجها لوجه يا ابن شاهين ؟ "

عاد نظره لتقييمه من وجهه لقدميه صعودا لوجهه مجددا وقال

ببرود " أعتقد أني لم أهرب منك وأنه لا شيء لك عندي يجعلك

تتعب نفسك وتلاحقني "

علت ابتسامة ساخرة شفتا الواقف أمامه وقال وقد أدخل يده في

جيب بنطلونه " بلى لدي عندك شيء بل وشيء مهم جدا "

وتابع وابتسامته تلك تتحول للقهر والمرارة " خطيبتي وحبيبتي

التي كان زواجي منها وقت سرقتها أنت لتفسده علينا "

المخرج ~

بقلم الغالية : ام الانس

كل شيء يحول بيني وبينك
بيتنا بلاد واوطان ظننا انها تغرقنا
والخوف من الحب يشتتنا يبعثرنا

أخشى آلام الحب الذي درسنا
فلاحظي قيس بليلى ولاسعدا
ولا انا منذ دق قلبي لرؤياك هدءا
أحبك وكل شيء يحول بيني وبينك
أخاف الحب واوجاعه
أخاف الشوق ونيرانه
أخاف الحنين ولوعاته
كل شيء يحول بيني وبينك
انا لست أكمل البشر
قد يشعرني الفراق بالقهر
وأحيانا أخشى أن أقول أحكي عن الحب باللجهر
لكن أتمنى أن يعم السلام وتسقط راء الحرب
ويبقى الحب بلا اوجاع ولا أحزان مدى العمر
خربشاتي بقلمي # كل الشكر والتقدير لك ميشو يامبدعة#

~~~~~~~~~

بقلم الغالية : عبق حروفي

.. !أتتجرأ ؟

.. إذا ضع عينگ بعيني
.. وانتظر ما سيأتي

.. !أتتجرأ ؟

.. إذا ابعد الإبتسامة
.. وتحدى بضرامة
~~~~~~~~~

.. !أتتجرأ ؟

.. إذا اشعل النار
.. وتحمل الأضرار

.. !أتتجرأ ؟

.. إذا تلحف بكفني
.. واسبقني لضريحي

.. !أتتجرأ ؟

.. إذا كُل العلقم
.. و تجرع السقم

.. !أتتجرأ ؟

.. إذا دع العناد
.. فجسورك ستهد كالرماد

.. !أتتجرأ ؟

.. إذا اعلن الحرب
.. وتسلح بالحب

نهاية الفصل ... موعدنا القادم مساء الجمعة إن شاء الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أسعد الله أوقات أحبتي بكل خير من بذكرهم ورؤية

أسمائهم وحروفهم يطرب قلبي ، أسأل الله أن يجزاكم كل خير

على كل دعوة أكرمتم بها بلادي وأحطوني بها وأن يجعل

لكم في كل حرف حسنة ومن كل حسنة عشرة ولكل ذنب

مغفرة وأن يزيل الغمامة عن بلادي وكل بلاد المسلمين

الصراحة ماني عارفة كيف كتبت هالفصل وكيف طلع معاي

رغم إن الفترة أسبوعين فأتمنى ينال رضاكم ، وكان المقرر

أكتبه في فصل واحد لكن الوقت ما أسعفني وتعبت وتعبت

فيتامين معاي الله يجزاها الجنة على قد تعبها معانا وعلى دعمها وتشجيعها لي في المتابعة وإن شاء الله تكملة الفصل بتكون الأسبوع القادم مع مقتطفات من أفكاري عن أحداث الجزء الثاني

جنون المطر (الجزء الأول)

الفصل السابع والعشرون والأخير (الجزء الأول)

المدخل ~

بقلم الغالية: سما 23

بالله قولوا لي
كيف ضاعت حبيبتي كانت بين يدي؟
كادت تصير زوجتي كانت هنا معي

حبيبتي أميرة بعيشها الرغيد
كيف تصير زوجة لرجل من حديد؟
كيف تواجه وحدها من قلبه جليد؟
بالله قولوا لي .. هيا ردو علي
(جبران)

جبران يا حبيبي انت مثل أخي
لن أنسى يوماً أنك ضحيت من أجلي
سأذكر دوما حبّك وعطفك السخي
لكن قلبي ذائب في حب من معي
أحببته أدمنته وحبُّنا أكيد
هو ابن عمي مهجتي سواه لا أريد
أرجو لك السعادة مع حبٍ جديد
(غسق)

‹‹‹‹‹‹‹

ابنك من بعدك يا أمي
صار وحيداً يشكو القدرَ
كالتائه وحدَه في الدنيا

وهمومه تتسعُ البحرَ
والبيتُ بدونك يا أمي
كالصحراء تشكو القفرَ
وسريرك فارغ يا أمي
يوجع قلبي يوقد جمرا
من يطفؤها نار الفقد
فقدك أمي أكبر حسره
وحياتي بعدك بائسة
فوق اليتم ازدادت عسراً
قد كان وجودك يؤنسني
ودعاؤك كان يثبّتني
من يرحمني من يُنصفني
من ظلم الظالم ينصرني
من قيسٍ أفعاله قذره
قد كذب عليا وعليها
قد زوّجنا وأخذ المهرَ
أرضك هي حقي يسلبها
من عينيهِ يلقي الشررَ
يا أمي ضربها وضربني
فضربتُه ورميته حجراً
قد مات الظالم يا أمي
قيسُ القاسي قسوةَ صخرَه
وحبيبةُ قلبك خائفةٌ
يا ماريا صبراً صبرا
يرعاكِ الله ويحفظْكِ
ويُيسّرها ربي يسراً

فسأكبر وأحقق حلمي
وأقاتل وأحقق نصراً
وسأرجع وسآخذ حقي
سأردّه وأردُّ الثأرَ

****

ركض لمسافة طويلة مسافة لم يكن يراها سابقا بهذا الطول ووعرة هكذا وهو ينزل من ذاك المرتفع ويدخل مقر الجنود راكضا يصرخ بسم عمير يريد أن يكون أول من يراه أن يصل له قبل أن يصلهم أي أمر بإمساكه والقبض عليه ما أن يعلموا بما حدث لذاك ، كان يركض بين الجنود المتحركين هناك تلتهمه نظراتهم المستغربة وكم شعر وقتها بغربته تزداد بينهم وبأنه وحيد وغريب لن ينصفه أحد ولن يصدقوه أبدا سقط على ركبتيه يلهث بقوة وابتسم رغم بؤسه وكل ما مر به وهو يرى

الذي خرج له راكضا من أحد الأبواب المطلة على تلك الساحة ، كان

بقميصه الداخلي مع البنطلون فقط ليثبت له أنه خرج ما أن سمع صوته

يناديه دون حتى أن يهتم لمظهره ، وصل عنده ونزل مثله بركبتيه على

الأرض وأمسك كتفه وقال ناظرا باستغراب لملامحه الشاحبة المذعورة

وأزرار قميصه المختفية وقد تمزق كتفه " ما بك يا تيم ! ما الذي

أصابك ؟ "

لم يستطع قول شيء كان الجميع يحدق بهما وكان يخشاهم جميعا

يخشى أن لا يجد الأمان عند أحد ولا هذا الشاب الذي سبق ووعده

فسالت دموعه من جديد ترسم مجراها عبر الغبار الذي علق بوجهه

فأمسك ذاك بكتفيه كليهما وهزه قائلا " تيم ما بك تحدث ؟ أقسم

أن أساعدك "

قال حينها بصوت مرتجف " خذني من هنا يا عمير "

وقف موقفا له وتوجه به جهة أحد أبواب ذاك المبنى على تلك النظرات

الفضولية قبل أن يتفرق الجميع ما أن اختفيا داخل أحد أقسام ذاك المقر

وأدخله لغرفته المخصصة له وحده وأغلق الباب وأجلسه على السرير

وسحب الكرسي وجلس أمامه بعدما ناوله كوب ماء ليهدئ من روعه

قليلا وساعده في شربه بسبب يده المرتجفة وقال ما أن أبعده عن شفتيه

أخبرني ما هذا الذي يحدث معك يا تيم ؟ لن أتركك حتى "

" أعلم كل شيء

هز رأسه بحسنا ولم يعرف من أين يبدأ وماذا يحكي ؟ عليه أن يقص

كل شيء من أوله منذ توفي والدا ماريه ومنذ مات والده وسرقوا أرض

والدته ورموهما في تلك الغرفة فكم سيحتاج من الوقت ليقول كل ذلك ؟

سيأتون للقبض عليه بالتأكيد وسيطلبون من الجنود احتجازه ، مسح عينيه

وهمس بصعوبة " أخرجني من هنا يا عمير وسأحكي لك كل شيء

" خذني لمكان لا يعرفه أحد

وقف ذاك من فوره وشده من يده قائلا " حسنا لا تخف لن يمسك أحد

بسوء وأنت معي يا تيم لن يسمح لهم ذاك بذلك وسيعاقب الفاعل

" هيا سنخرج من هنا فورا

*

*

لم تصدق متى يكونا وحدهما ، متى سيغادر الطبيب الذي كان يعاين

جروحه وكسوره وتغادر بعده شقيقتها التي نظفت معها المنزل والغرفة

وغسلتا الثياب وملاءات السرير ، دخلت الغرفة وأغلقت الباب خلفها ما

أن كان المنزل خاليا ونظرت فورا للذي كان نظره معلق بالسقف وكم

كرهت عجزه عن الحركة رجل بكل حيويته وشبابه يتحول لطريح

فراش يخدمه غيره في كل شيء ، اقتربت منه حتى شعر بوجودها

فنظر لها وقال بصوته المتعب " حاول الطبيب التحدث معي لكني لم

أتكلم مدعيا أن ألم أضلعي وحنجرتي لم يساعدني فماذا حدث معك ؟ "

جلست على الكرسي بجواره وقالت متنهدة بيأس " علم والدي من

تكون فرجال الزعيم مطر كانوا هنا صباحا يبحثون عنك تحديدا "

نظر لها بصدمة وهمس بصعوبة " ابن شاهين !! "

هزت رأسها بنعم وقالت " لا تقلق يا رعد لقد سمعت حديثهم كله هم

يبحثون عنك لإرجاعك لصنوان ، سمعت أحدهم بأذني يقول (إن كان

سليما معافى سنوصله للحدود حسب أوامر الزعيم مطر) وقال إن كنت

متعبا عليهم نقلك للعناية بك وكأنهم يتوقعون أنك مصاب ووالدي لم

يخبرهم عنك وأراد التحدث خصيصا مع الزعيم مطر ما أن

يرجع من سفره "

أغمض عينيه لبرهة ثم فتحهما فلم يستوعب بعد أن يتركوه يغادر وأن

يبحثوا عنه لإخراجه ! صحيح أنه سبق وكانت له بادرة في حادث وفاة

الكاسر لكن أن يفعلها مرة أخرى وأكبر من سابقتها ويسلمه ومن عادتهم

أسر أي متسلل يقبضون عليه سواء في الحالك أو الهازان أو حتى صنوان

فأمر لم يكن يتوقعه ؟ نظر لها وقال بتشكيك " أستريا صحيح ذلك أم

" تطمئنيني فقط أو أنك لم تسمعيهم جيدا ؟

أمسكت وسطها بيديها وقالت بضيق " ما قصدك كاذبة أم صماء أم

" أتخيل أمور لم تحدث ؟

نظر للسقف وخرجت ضحكته التي يحاول كتمها بكل قوته بسبب الألم

الذي تسببه في أضلعه وقال بصوت متعب خافت " ما أروعك من

" امرأة لو فقط تتحكمي في غضبك

ابتسمت وكأنها ليست تلك الغاضبة منذ قليل وقالت بسعادة

" حقا أنا رائعة ؟ "

نظر لها وقال " لن تحمميني أنتي هذه المرة أخبري أحد الرجال

" يأتي لفعلها

" لوت شفتيها وهمست " جبان هل سأكلك مثلا ؟

قال مبتسما " لا طبعا لكني رجل وأنتي امرأة ذلك لا يجوز لدينا

" يا أستريا مهما كان عاديا لديكم

وقفت وقالت بعبوس " ونحن لدينا تفعل ذلك زوجة الرجل أو قريبته

أنت جسدك في حالة لن تستطيع تصورها فخشيت عليك من خشونة

تعامل الرجال فاخترت فعلها بنفسي أم تضن أني أستطيع رفع جسد

" رجل أضخم مني بكثير بسهولة ، لكني أستحق دائما ما يقال لي

" ...همس ناظرا لعينيها " أعلم يا آستي لكني رجل و

غادرت من قبل أن ينهي كلامه قائلة بضيق تنفض طرف فستانها

" بيدها " أخرق وأحمق وأنا أستحق ما يأتيني منك

وخرجت ضاربة الباب خلفها فنظر للسقف وهمس مبتسما

" ما أغرب النساء حين يتحكم الغضب بهن "

*

*

خرج به من هناك في سيارته الخاصة حتى كانا في مكان بعيد بعض

الشيء وخال من كل معالم الحياة ونزل من السيارة وفتح له الباب

قائلا " هيا انزل يا تيم علينا التحدث قبل متابعة سيرنا "

نزل فورا وتبعه وقد توجه جهة صخرة بارزة وكبيرة وقال مشيرا

عليها " أجلس هنا وأخبرني بكل ما حدث معك ولا تنسى شيئا "

جلس منصاعا له وهمس ونظره معلق به " وستصدقني أم

ستسلمني لهم ؟ "

قال باستغراب " أسلمك لمن ! "

غاب بنظره للأرض تحته محتفظا بجمود ملامحه وبدأ بسرد قصته

منذ توفي والده ووجد نفسه ووالدته في منزل جده ذاك أو في الغرفة

تلك حتى صباح هذا اليوم والواقف فوقه يستمع له بانتباه دون أن

يقاطعه ولا بسؤال حتى رفع نظره به وقال بحزن

" تصدقني يا عمير أليس كذلك ؟ "

أمسك بكتفيه وقال بجدية " لم أعرفك إلا رجلا يا تيم والرجال

لا يكذبون وأصدقك طبعا "

قال من فوره " ولن تسلمني لهم حتى إن طلبوا منك ذلك وهم

رأوك تخرجني من هناك ؟ "

ابعد يديه وقال " لنتأكد أولا إن كانت ضربتك قاتلة ومات ذاك المسخ

أم لا ، وإن كنت قتلته لن أسلمك وإن هربت بك خارج البلاد فهو

يستحق الموت ذاك الخنزير النكرة "

ثم أمسك وسطه بيديه وغاب بنظره للأرض مفكرا لوقت قبل أن

يرفع نظره به وقال " وما مصير تلك الطفلة ؟ "

" هز الجالس تحته رأسه وهمس " لا أعلم

تنفس بقوة وقال بهدوء " سأآخذك لمكان تبقى فيه وأرجع لأرى ما

" حدث هناك وما حدث معها ثم نرى ما يمكن فعله اتفقنا ؟

هز رأسه له بحسنا ولا خيار آخر أمامه ووقف وتبعه عائدان جهة السيارة

وركباها منطلقين من هناك بذات تلك السرعة الجنونية ليعود الصمت سائدا

أجوائها وكل واحد منهما سافر بتفكيره لذات تلك الوجهة (ماذا إن مات ذاك

الرجل ؟) وكان جل تفكير الجالس يراقب النافذة بشرود عن ماذا سيفعله له

هذا الشاب وكيف سيخلصه من عقابهم ؟ بينما كان تفكير عمير عن ردة فعل

مطر عن الأمر وما الذي سيقدمه ذاك لنجدة هذا الفتى ؟ سينصفه أم سيسلمه

للسجن من باب ميزانه العادل الذي عرفه الجميع عنه ؟ أم سيأخذ بأسبابه وما

حدث معه بعين الاعتبار فهو يعرفه جيدا ويعرف بمكانة هذا الفتى لديه ويعرف

غضبه إن علم بذاك الخرق الذي فعلوه بتزويج طفلين لا يعرفان حتى ما تعني

كلمة زواج وبطريقة بشعة قاسية ، توقفت السيارة أخيرا عند أحد أحياء

" المدينة التي وصلاها منذ قليل ونزل عمير قائلا " انزل هيا واتبعني

فانصاع لأوامره ونزل سائرا خلفه في ذاك الحي الضيق الذي لم يكن

يسع لدخول السيارة حتى وصلا لباب حديدي لمنزل معين وطرقه

بمفتاحه بقوة وما هي إلا لحظات وانفتح الباب كاشفا عن فتاة في بداية

العشرين من عمرها بملامح جميلة مرحة تمسك حجابا أسود بيدها

" تحت ذقنها وقد قالت مبتسمة " عمير ما هذه المفاجأة ؟

ورده كان ضربة لأنفها بمفتاحه وقال بضيق " كم مرة قلت لا تفتحي

الباب قبل أن تسالي عن هوية الطارق وإن كان رجلا حدثيه من

" خلفه أم تريدين أن أكسر لك أنفك الحشري هذا

أمسكت بأنفها قائلة بضيق مماثل " ومن هذا الرجل الذي سيزورنا

برأيك ؟ ولعلمك فقط لن تخدعني مجددا لتراضيني بكذبك قبل

" مغادرتك

ودخلت وخطواتها الغاضبة تسمع لهما في الخارج فنظر لتيم الواقف

" خلفه بخطوتين وقال " أرأيتها ؟ هذه هي حبيبتي التي أخبرتك عنها

" نظر له ببرود وقال " لا أراها تحبك أبدا ؟

ضحك ذاك وقال " سترى باقي اللقاء بنفسك وتحكم حينها ، هي فقط

" مدللة وتريد أن أكون كوالدتها أعاملها كأميرة بلا مملكة ولا قصر

" ثم دفع الباب ليفتح أكثر مناديا " بثينه

وما هي إلا لحظات وعادت تلك مجددا وقالت ببرود " عمتك في

" الداخل ما الداعي لإسماع الجيران أنك وصلت ؟

" ضحك وقال " تعالي هذا تيم الذي أخبرتك عنه

نظرت له من خلفه وقالت مبتسمة " حقا أحضرته معك ؟

" مرحبا يا تيم

" نظر للواقف أمامه ثم نظر لها وقال " مرحبا

ضحكت وقالت " كما أخبرني عنك تماما فما يخبرك هو عني

" هيا اعترف ؟

" قال عمير ببرود " هل هكذا تستقبلين الضيوف يا تربية والدتك ؟

تجاهلته رافعة أنفها ونظرت لتيم تخبره بنظرتها المتحمسة أنها

" تنتظره جوابه فحرك كتفيه وقال " لا شيء

مدت شفتيها بعبوس ونظرت للذي بدأ بالضحك ثم دخلت قائلة

" أدخلا هيا لا أسوء منك سوا تلميذك "

فالتفت له قائلا " هيا يا تيم تفضل فهذا منزل عمتي وستتعرف

" عليها حالا ، ولا تقلق فهي أفضل من ابنتها بكثير

" قال بحيرة " هل ستتركني هنا ؟

اقترب منه وقال بجدية " مؤقتا فقط يا تيم وستحبهما كثيرا صدقني

وسترحبان بك وإن لم يعجبك البقاء هنا سأآخذك لمكان آخر "

وتابع بابتسامة حمقاء " لزوجة والدي طبعا "

قال من فوره " لا رضيت بحبيبتك ووالدتها لا ينقصني

نماذج سيئة أكثر "

دخل يتبعه وقد قال ما أن أغلق الباب " عليك أن تتجنب تلك

المدللة كي لا تفسد أطباعك وتحتكرك لخدمتها "

نظر له فوقه وقال ببرود " ولما تحبها إن كان رأيك فيها

سيئا هكذا ؟ "

ضحك وحرك كتفيه قائلا " لا أعلم يا تيم وصدق ذلك فالحب شيء

أخرق لا يسأل ولا يسمع نصحا ولا يتوقف متى نريد ، ثم هي

طيبة كثيرا وحساسة بقدر ما تغضب سريعا ترضى بسهولة "

" وغمز متابعا " وجميلة كما ترى

لوا شفتيه وتمتم بعبوس " كان عليا أن أحار ما الذي يعجبها

" هي فيك وليس العكس

ضربه على رأسه ضاحكا وقال " هيا تعال أقسم أن تلك الصغيرة

ماريه لم يسعفها الحظ بزوج كما تتمناه ، ما أتعسها من امرأة

" مستقبلا

تجاهل تعليقه ككل مرة ينظر لتفاصيل ذاك المنزل الطيني المتواضع

ولنظافته الظاهرة للعيان رغم بساطته ووصلا لغرفة معينة ودخل خلفه

حيث تجلس تلك المرأة التي لم تتجاوز الستين عاما تمسك خيطا تجمع

فيه خرزات لصنع مسبحة فوضعت ما في يدها فورا وقالت مبتسمة

" بسعادة " مرحبا يا عمير تعال ادخل

تنحى جانبا وقال " أحضرت ضيفا معي إنه تيم شاهر كنعان

" تعرفيه جيدا

" قالت ناظرة له بابتسامة " مؤكد أعرفه تفضل بني سعدت برؤيتك

نظر لها باستغراب ثم للواقف بجانبه فقال مبتسما " عمتي تعرف

والدتك يا تيم وكم حكت لي عن طفولتهما قبل أن تنتقل كل

" عائلة لبلدة وتنقطع أخبارهم

نظر لها مبتسما بحزن يرى فيها والدته التي فقدها وبفقدها فقد كل

" معنى للحياة ، قال بابتسامة صادقة " سررت بمعرفتك يا عمة

" قالت بضحكة " ما أرقاه من فتى هيا أجلسا

جلسا أمامها في ذاك المجلس الأرضي البسيط ودخلت ابنتها الوحيدة

بصينية تحوي كوبي ماء وشاي وخبز محشو بجبن المعز ، وضعت

الصينية أمامهما وجلست بجانب والدتها وقالت مبتسمة " توقعتك أكبر

من هذا السن يا تيم ! أنت صغير على أن تكون تحت رحمة

" مدربك هذا

نظر من فوره للجالس بجانبه وقد نظر ذاك لعمته وقال ببرود

أخبري ابنتك أني أحذرها لآخر مرة من فتح الباب دون أن "

" تسأل عن هوية الطارق أو عقابي لن يعجبها أبدا

قالت تلك ببرود من قبل أن تتحدث والدتها " لم أعلم أنه

" أنت لما كنت فتحت

ضحكت والدتها وقالت " من يسمعك لا يصدق أنك تركضين

" للباب ما أن تسمعي طرقا عليه بمفتاح سيارة

" نظرت لها بصدمة وقالت " أمييييي

على ضحكة عمير المرتفعة وابتسامة الجالس بجانبه فها هو انتصر

عليها كما يتوقع منه فهي لم تخرج من تلميذه بشيء عما يقول عنها

بينما فضحتها والدتها بكل سهولة وبخطة بسيطة منه ، قالت عمته

" ناظرة له مبتسمة " والحل طبعا لديك في كل هذا

نظر للجالسة بجانبها بطرف عينه وقال " لتتنازل هي عن ذاك

" المبلغ الخيالي وسنتزوج نهاية الأسبوع

قالت من فورها " لا لن أتنازل عنه مهري من حقي لست نعجة

" تربطني بحبل وتأخذني بدينارين

هزت والدتها رأسها بيأس وقالت " ألا يكفيك أنه بنا لك منزلا مستقلا

" وأرضا حوله ؟ من تجد كل هذا في هذا الوقت

ضربت بقبضتها على فخذها وقالت بضيق " بناه لنفسه وليس لي

" ويوم يجمع مهري نحدد موعد زواجنا وقبله لا

هز ذاك رأسه يأسا منها ناظرا لعمته وقال " أقلهن مهرا أكثرهن بركة

وأنا أعلم أنه لا بركة في ابنتك أبدا لذلك عليا جمعه لا حل آخر أمامي "

وجاءه الرد سريعا وليس من عمته بل من ابنتها قائلة بضيق

" أجل هذا فقط ما تحفظه من كلام نبيك "

" (قال مبتسما " لا أحفظ أيضا (تزوجوا الودود الولود

فنظرت لوالدتها وقالت بتذمر " انظري لابن شقيقك ما يخطط

" مستقبلا أمي ! يريد أن أنجب دون توقف كالأرانب

" ضحكت تلك وقالت " معه حق لتدفعي ثمن ذاك المهر

فوقفت وغادرت متمتمة بتذمر حتى خرجت فقالت والدتها مبتسمة

" أعانك الله عليها "

قال مبادلا لها لابتسامة " اتركيها تطلب ما تريد فذاك من حقها

وأنا لن أتزوج بها حتى أعطيها مهرها الذي طلبته حتى إن

تنازلت عنه بمحض إرادتها "

ثم تابع ناظرا للجالس بجانبه متمسكا بصمته " وتيم سيبقى معكما

لمدة لن تكون طويلة "

وعاد بنظره لعمته متابعا " لأيام فقط عمتي حتى آخذه من هنا "

قالت من فورها وبابتسامة " مرحبا به كيف شاء "

وتابعت ناظرة له " كيف هي والدتك يا تيم ؟ "

خيم الحزن على ملامحه وهمس ناظرا للأرض " توفيت منذ

مدة قريبة "

" قالت تلك بحزن عميق " رحمها الله كم كانت امرأة تقاس بالذهب

*

*

كان صوت ضحكهما وركضهما مالئا تلك الحديقة مثلما ذاك المنزل الذي افتقد لصوت الأطفال ومنذ أيام وذاك الصمت المميت فيه تحول لركض وضحك وحتى ضحكة جوزاء ملأته وكأنها امرأة أخرى غير تلك التي كانت تعيش فيه ، أيام مرت وكأنها ساعات على قلب تلك الأم وطفليها الذين حرموا من بعضهم لأعوام ، بينما مرت سنوات طويلة على قلب آخر أتعبه الانتظار والخوف والشوق وكأنهم ليسوا في منزل واحد .

نظرت الجالسة يمين الطاولة للتي غابت بنظرها وذهنها عن كل ما

حولها تنظر للأرض بشرود وملامح حزينة فأشارت لعمتها عليها في

صمت فضحكت تلك وقالت " عمه أقسم لي بلسانه أنه بخير وسيأتي

في أي وقت فلما الوجوم والحزن "

رفعت نظرها بعمتها وتنهدت بأسى ولم تعلق فقالت جوزاء ضاحكة

" تلك أطباعه يا غسق أنتي فقط من لست معتادة عليه ورأيت مطر

لم نعرفه حتى نحن سنوات حياتنا "

قالت بعبوس " لكنه أكد لي قبل ذهابه أنه لن يتأخر وما أن ينتهي

الاجتماع سيرجع فكيف يرجع رجاله من أيام وهو لا ولا يتصل

بنا أيضا ! "

تنهدت عمتها قائلة " أخبار السوء لا تتأخر يا غسق ، تجديه انشغل

في أمور عليه فعلها قبل عودته وكما أخبرتك جوزاء تلك أطباعه

وإن تغيرت معك "

أنزلت رأسها وعضت طرف شفتها بقوة تمنع دموعها من النزول فلم

يقتنع قلبها بكل ما قالتاه فلن تصدق بأنه كذب عليها قبل ذهابه وهو من

وعدها ولا أن تكون ثمة اجتماعات منعته ليرجع جميع رجاله من دونه !

رفعت نظرها بابني جوزاء الراكضان حول أشجار الحديقة يضحكان

فرغم هدوء ابنها الأكبر إلا أنه بدأ يعتاد أفراد تلك العائلة بعكس أبان

الأصغر الذي وجد لنفسه مكانا بينهم جميعا حتى زوجة خاله التي بات

ملتصقا بها أكثر من أي شخص ، اتكأت بذقنها على ساعدها المرتخي

" على ظهر الكرسي وهمست بحزن " ما أقسى قلبك يا مطر

*

*

مرر أصابعه على عنقه ملامسا الشريط الطبي اللاصق الممتد من

وسطه حتى حنجرته ثم رفع نظره للسماء الملبدة بالغيوم ، سماء تلك

العاصمة الضبابية والغيوم التي كانت تسود أفكاره الكئيبة فوق

اسودادها

صر على أسنانه بقوة وهو يتذكر ما حدث منذ أربعة أيام في تلك البلاد

وذاك المبنى تحديدا ، كان لقائه بذاك الرجل عاصفا وكان سيقتله ولن

يخرج من بين يديه حيا لولا أوقفوه ، قبض على أصابعه بقوة يشعر

بغضب في داخله يشتعل كالبركان وهو يتذكر تلك الكلمات التي كان

يقولها ذاك بكل حقد وكره (ابنة عمك لكنها ليست من حقك ، كان الأمر

باختيارها وموافقتها وكنا اتفقنا على موعد الزواج وهي من اختارته

(كانت لي منذ كانت طفلة وأنت هو الدخيل أنت من حطمت قلبينا معا

لكم حافة الشرفة بقبضته بقوة هامسا من بين أسنانه " بل لي من يوم

ولدتها أمها وزوجتي من قبل أن تبلغ أنت يا طفل وما كانت ثمة قوة

" على الأرض تستطيع تزويجها لك ولا قانون وهي متزوجة

مرر أصابعه في شعره الحالك السواد متجاهلا الخدوش التي أصابتها

بسبب ضربه لهم وتنفسه يخرج قويا وكم كره نفسه لاستغفال ذاك

الرجل

له من كان يعلم أن ما بين يديه أمانة سيسلمها لأهلها وليس يزوجها ابنه

وينكر أصلها وهو يجهل سبب إخفائه عنها وليس كما كان يظن بأن تلك

المرأة أميمه أخبرته عن السبب الحقيقي ، كان لقائه بذاك قد فجر أسرارا

كان يجهلها وبغباء لم يُعرف عنه ، كان ليتروى ليتحلى بالحكمة لو أنه لم

يكن سمع سابقا اسمه من شفتيها هو تحديدا من بين جميع أبناء شراع حتى

شقيقها الكاسر وهي تناديه حين ذهب بها لمنزله مصابة وغائبة عن الوعي

عاد ورفع رأسه للسماء الرمادية الكئيبة وأغمض عينيه بقوة ... كلما تذكر

قبلاتها لمساتها همسها له وارتجافها بين ذراعية كأنثى عصفت بها المشاعر

مع رجل لن يكون كغيره بالنسبة لها عاد وفكر عقله بمنطق وطالبه بأن

يتريث وبأن لا يصدق ما قال ذاك لكنه ما أن يتذكر همسها باسمه في ذاك

اليوم ومن ظنه مناجاة فتاة بشقيقها الذي تربت معه وإن لم يكن شقيقا حقيقيا

عادت النيران للاشتعال في صدره كالحريق وتذكر كل صدها له في البداية

وتعجيزه بذاك المهر ليبتعد عنها وشعر أنها ما استسلمت له إلا رضا بالواقع

أو لحماية تلك العائلة وذاك الحبيب الذي لم ينقذه من بين يديه ذاك اليوم

سوى رجاله الذين لحقوا به لتفقده واستلوه من بين يديه بصعوبة وهو يمسكه

ويضرب رأسه بالجدار وكأنه دمية لا تزن شيئا فلم يكن يرى أمامه سوى وجهه

الحاقد الساخر وهو يخبره بأنها حبيبته منذ كانت طفلة وأنها اختارته

ووافقت

عليه وبأنها اتخذت منه جسرا لمصالحها فقط ولن تحبه يوما لأنه سلبها منه

ورغم تلك الأداة الحادة الموجودة في يده والتي كان ينوي قتله بها والجرح

الذي في عنقه إلا أنه كان من الغضب بحيث لم يكن يشعر بشيء حوله ولم

يعد يرى ولا ذاك السلاح القاتل الذي ضربه به وهو في غمرة غضبه ذاك

وإن رآه أمامه مجددا لن يتوانى عن قتله ولتحترق صنوان والحالك ، بل وإن

لم يبقى هنا هذه الأيام ورجع هناك ما كان سيمسكه عن ضرب صنوان شيء

وتحويل حدودها لنار تشتعل على ما علمه من لعب شراع به ، أخرجه من

أفكاره تلك وجعله ينزل رأسه ويفتح عينيه اليد التي لامست ظهره برفق

والهمس الأنثوي من خلف أذنه " مطر لما لا تخبرني ما الذي يشعلك

" هكذا وكأنك تحترق ؟

نظر جانبا حيث التي تتكئ بذقنها على كتفه تنظر لعينيه ويدها تمسح

على ذراعيه بحنان وقد وصلت له من الشرفة المشتركة بين غرفتيهما

في ذاك الفندق الذي استقر فيه لأيام رافضا العودة هناك عل النار التي

لم تخمد ولا ذرة أن تنطفئ ولو قليلا قبل عودته ، نظر لعينيها وملامحه

محتفظة بصلابتها وجمودها ويدها لازلت تمسح على ذراعه صعودا

لكتفه العاري وقد كشف كم قميص نومها الخارجي عن ساعدها الأبيض

وهمست مبتسمة " تقف عاري الصدر هكذا في هذا البرد حبيبي !

لا تسخر من خريف لندن إنه يساوي شتائها ، لن تنطفئ نارك بهذه

الطريقة ولن يخمدها إلا إن تحدثت وأفرغت ما في قلبك "

تحرك من هناك لتبتعد يدها عنه مراقبة له وهو يدخل من ذاك الباب

" الزجاجي وقد همست بعبوس " أقسم أنها امرأة ورائك يا مطر

ولحقته بخطوات بطيئة حتى وقفت عند الباب تنظر له وهو يفتح

" الخزانة ويخرج حقيبته فقالت " نويت المغادرة إذا ؟

" فتح الحقيبة بقوة وقال " أجل ولا تبقي بعدي هنا في هذا الفندق

ثم وقف حاملا مفاتيحه وغادر تاركا الخزانة وحقيبته مفتوحتان وبعض

ثيابه فقط قد وضعها فيها ولم تسمع سوى صوت ضربه لباب حمام

الجناح بقوة خلفه فهزت رأسها بيأس وتوجهت لثيابه وبدأت بترتيبها

في الحقيبة

*

*

أخذت السماعة منها بعدما جلست قائلة بلهفة تنظر لها فوقها

" متأكدة أن به اتصال يا حبيبة ؟ لا تلعبي بأعصابي "

وضعيه على أذنك بنفسك لتتأكدي سيدتي قالت تلك من فورها " أقسم

" وبسرعة قبل أن ينقطع مجددا فنحن لم نسمع طنينه هذا من مدة

راقبتها وهي تغادر وقد وضعت السماعة على أذنها ولا تصدق أن الهواتف

الأرضية عادت للعمل بعد كل تلك المدة التي انقطعت فيها ولا ترجع إلا

لساعة أو ساعتين بعد أيام وقد لا يلاحظها أحد ، عليها أن تطمئن على ذاك

الذي رجع رجاله جميعهم وهو لم يرجع ، من لم يستطع عمه الاتصال به

لأن هاتفه مغلق وكل ما حصل عليه هاتف الفندق الذي ينزل فيه وكان لا

يجيب كلما اتصل به ، كان قلبها يحترق عليه وقررت أنها لن تتركه كعمه

وتيأس من محاولتين حتى يجيب عليها وتطمئن عليه على الأقل فرغم أن

رجاله قالوا بأنه بخير وسيرجع في أي وقت إلا أنها ليست مطمئنة فهو لم

يخبرها أنه سيبقى بل سيرجع ما أن ينهي اجتماعه وكل ما يتعلق به ولن

يتأخر أكثر من يومين أو ثلاثة وها هو هناك من خمسة أيام ولا أخبار

عنه ، كانت نبضات قلبها تتسارع وهي تسمع رنين الهاتف وسيلتها

الوحيدة من كل تلك الأميال والقارات ليصلها به فلعل قلبها يرتاح

ويرحمها وإن بسماع صوته فهي تستغرب أن لا يتصل بهم ولا يجيب

على اتصالات عمه ولن تصدق أبدا أنه بخير ، توقف الرنين ولم يجب

أحد فعاودت الاتصال بدون يئس رغم ألم قلبها وخوفها من أن يكون ثمة

مكروه أصابه ولا يريدون قول ذلك لهم ، اتسعت ابتسامتها ولم تصدق

نفسها حين رفع أحدهم سماعة الهاتف وكانت ستتحدث لولا تحجر لسانها

بل وجميع ملامحها وحواسها لتتحول لتمثال حجري وهي تسمع الصوت

الأنثوي الذي رحب بها ليسري ذاك الارتعاش في سائر جسدها وكأن

ثمة من رماها من فوق مرتفع ترى الصخور تحتها وهي تقترب منها

فلم تستطع ولا إغلاق السماعة لا التحدث ولا السؤال ، عاد ذاك الصوت

الرقيق للتحدث وكل ما خرج منها تنفسها القوي المضطرب ودمعتها

التي تدلت من رموشها وهي تسمع تلك وصوتها قد ابتعد عن السماعة

قليلا دليل إبعادها لها عن أذنها " مطر هل خرجت من الحمام ؟

" اتصال لك وصاحبه لا يجيب

شعرت بقلبها يتمزق وهي باتت تسمع حتى خطواته المقتربة ثم

" صوته الغاضب قائلا " لما رفعت هذه السماعة الخرقاء

ثم صوت ضربه لها حتى رن في أذنها بقوة جعلتها تبعد السماعة

ولازالت ترتجف في يدها التي قد فقدت التحكم بها لتسقط منها على

الأرض ثم وضعت يدها على فمها تمسك عبرتها متمتمة " لا يا

غسق ليس مطر من يفعلها ليس من يحمل كتاب الله ولا يفوت

" صلاة أبدا ، لا تخطئي من جديد

لكن ذلك لم يطفئ شيئا من اشتعالها من الحريق الذي شعرت به يأكل

كل شيء فيها حتى نخاع عظامها وقد أعادت السماعة بيد مرتجفة تنظر

للهاتف ودموعها ترفض الانصياع لها ، كانت نظرة ملئها ضياع ورجاء

أن يرن في أي لحظة أن تسمع صوته أن يخبرها أنه بخير وقادم اليوم

وأنها كانت أخطأت في الرقم ذاك رغم سماعها لأسمه من تلك

المرأة بل وصوته هو نفسه ، الصوت الذي لا تخطئه أبدا

*

*

رمى يدها عنه لتنظر له تلك باستغراب وهو يقف رغم ترنحه وقد

قالت بضيق " يا سيد عليك أن تبقى هنا اليوم أيضا فالارتجاج في

" ....دماغك لا يزال في حالة سيئة ، الطبيب قـ

دفعها من أمامه بقوة وغادر من تلك الغرفة وذاك المستشفى الذي كان

يشعر برائحته تخنقه فوق اختناقه وتصدع رأسه فوق صداعه المدمر

ذاك الذي يشعر به ، أمسكه بقوة ما أن لفح الهواء شعره وعنقه يتحسس

الشاش الملتف حوله فلم يذكر شيئا بعد ذاك الهجوم الكاسح الذي رماه فيه

ذاك الرجل على الجدار وكأنه قطعة ثياب بالية سوى استيقاظه بعد ساعات

في المستشفى ومنذ أكثر من أربعة أيام وهو تحت العناية والمراقبة بسبب

الأذى الذي لحقه منه ، أمسك أوراق الشجرة التي كانت أمامه حيث وقف

وقبض عليها بقوة واستلها بعنف وهمس من بين أسنانه ناظرا لقبضته

ستتحطم حياتك يا ابن شاهين وقل جبران قالها وأنت من "

" سيدمرها بيده

ثم رمى تلك الأوراق من يده وغادر بخطوات واهنة بطيئة يشعر

بصداعه يزداد لا يعلم بسبب سيره الذي يشعر بأنه يضرب في كل

خطوة في رأسه أم بسبب ذكرى كلماته تلك التي لم تفارقه لحظة

وهو يرفعه بقبضته من ثيابه قائلا من بين أسنانه (لن تلمس شعرة

منها حيا كنت أو ميتا ولن تجد في قلبها متسعا ولا لذكرى صغيرة

من طفولتها معك لأنها ملكي أنا بكل شيء فيها تفهم ، حتى الدماء

(في عروقها تربطني أنا بها

وصل حجرة الهاتف العمومي رفع سماعة الهاتف متكئ على جدارها

الزجاجي وأنفاسه القوية المتعاقبة تكاد تخونه وضرب الرقم الذي بات

يحفظه كاسمه من كثرة ما حاول أن يتصل به ولم يحصل عليه ، لم

يصدق أذنيه وهو يسمع صوت رنينه ثم سرعان ما رفعه أحدهم ليصله

ذاك الصوت العذب الذي عذبه في يقظته وحلمه ، الصوت الذي حرم من

سماعه لأشهر شعر أنها أعوام مرت عليه ، همس بلهفة ظهرت في

" صوته المتعب " غسق

كان الصمت المميت جوابها حتى ضن أنها اختفت وأنها مجرد حلم

من أحلامه الراحلة لولا أتاه صوتها أخيرا هامسة باستغراب

" !! جبران "

اتكئ برأسه للخلف على ذاك الزجاج السميك وهمس مغمضا عينيه

" أجل يا قلب جبران وعينيه التي ينظر بها "

كان يشعر أنه في حلم كان يطير فوق السحاب والغيوم كان يود قول الكثير

والمزيد المزيد عن كل ما عذبه طيلة تلك الأيام والأسابيع لكن تلك اللكمة

أوجعته وأعادته لواقعه المرير وهو يسمع صوتها قائلة " جبران ما

هذا

! الذي تقوله ! لا تنسى أني متزوجة ، وما به صوتك متعب هكذا

" ما الذي يحدث معك ولما اتصلت ؟

لما اتصلت !!! سؤال ما كان ليتوقعه ولا في منامه ، سؤال كان على قلبه

أشد من ضرب ذاك له حد الموت درجة أن الطبيب ضن أن ملاكما

محترفا مارس عليه كل ما تعلمه في أعوام حياته ، همس بصعوبة

" .....غسق لكننا نـ "

قاطعته بضيق " لكني زوجته يا جبران حياتي معه وهو واقعي

" ورضيت به

صرخ رغم ضعفه مستنكرا لما يسمع منها " بل لي أنتي لي يا غسق

ومرجعك عندي أنا ، أنا وحدي من يحبك وستري ذلك بأم عينك وسيتخلى

عنك ذاك المغرور وبدون سبب لأنه لا يفكر إلا في نفسه لا يحب إلا

" نفسه ولا يعطي شيئا ولا حتى مشاعره ، هو كالموت يأخذ فقط

" صرخت من دون وعي منها " أصمت يا جبران

كانت دموعها ترسم معابر فوق وجنتيها فقد تعبت حقا تعبت من كثرة

ما سمعت هذه العبارة (يأخذ ولا يعطي) هي لم تفق من صدمتها بعد

ولازالت تحاول إخماد نيرانها وطمأنة قلبها بأنه لن يخونها مع امرأة

أخرى وبأنه قال بلسانه أنه لا يفكر في الزواج من أخرى ، وأنه أعطاها

! الكثير ولو أنكر ذلك ، وصلها همسه المصدوم " أنا أصمت يا غسق

" هل أحببته واخترته هو ؟

قالت بعبرة بكاء " أجل أحبه ولا أتخيل أن أعيش من دونه يا جبران

المشاعر لا أحد له حرية التحكم فيها لكنت أنت كرهتني يوم دخلت

الحدود واستغللت مشاعرك نحوي ، أحبه بقدر ما تشعر به أنت نحوي

لا يمكنني الكذب عليك أكثر ، لطالما كنت شقيقي الذي أحبه كالكاسر

رحمه الله لا أكثر وكذبت إن قلت يوما خلاف ذلك وكل ما كان وعودا

اجبر قلبي على التقيد والالتزام بها ، لو أني عشت مع مطر على

" ... أنه شقيقي ما كنت لأحبـ

قاطعها صارخا " جبانة أنتي تخافين منه فقط تحميني وتحمي والدي

فقط أنا متأكد من ذلك فلا تخشي شيئا وقولي فقط أنك تريدين ترك

ذاك المكان وأنا مستعد لإخراجك من هناك مهما كلفني الأمر

" وسندبر ذلك سويا ، قوليها هيا ولا تخشي شيئا يا غسق

تمنى أن أيدت كلامه أن طمئنت قلبه الرافض للحقيقة ولو كاذبة لكن

كل ما وصله صوت بكائها وهي تهمس بوجع " أحبه يا جبران وإن

" قتلني لا يمكنني إلا أن أحبه يا شقيقي

رمى السماعة بقوة حتى لم يعد يصدر عنها سوى صوت طنين مرتفع

ومزعج وقد صرخ وكأنه يحدثه " كذب هي لم تقل ذلك وسيطلقها

" وسترجع لي ، لي أنا وحدي وإن قتلته أو أموت من أجل ذلك

*

*

مسحت بكفها على طرف وجهه مبتسمة تستمع لحديثه الذي لا ينتهي

وكأنه ليس ابن الحادية عشرة يحكي لها عن كل شيء ... يريد أن يفرغ

كل ما كبته ويحكي كل ما حدث معهما طيلة تلك الأعوام في هذه الأيام

القليلة التي قضياها معها وموقن من أن التي تستمع له لن تكل أو تمل من

سماعه فرغم هدوء ابنـها الأكبر (غيهم) وعدم اعتياده على هذا الجو إلا

أن أبان كان شخصا مختلفا عنه لم يشبع من حضن والدته ولم يتوقف عن

التحدث والضحك واحتك بجميع من في المنزل حتى الخادمات وبعض

العمال في الخارج أما تعاملها مع ابنـها الأكبر فكان أكثر حذرا فقد لاحظت

أنه فتى حساس جدا فهما لم يعرفا نساء أكثر من جدتهما وعمتهما المتزوجة

والتي كوالدتها لم تتقبل أبناء لهم والدتهم من الحالك فكان والدهما كل عالمهما

ذاك فكان أغلب حديثهما عنه وكم أسعدها كمّ الذكريات التي غرسها في قلبي

طفليها عنها فحتى شكلها وصفه لهما بدقة ، ما تحب من الأطعمة وما تكره

متى تنام متى تستيقظ أفكارها حكمها التي تقولها دائما وحلمها بمستقبلهما بل

وحتى أسمائهما أخبرهما أنها هي من اختارتها ، والأهم من كل ذلك أنه

أقنع طفليه على مر الأعوام أنها تركتهما مرغمة وأنهما أخذوهما منها رغما

عنها وأنه كاره لذلك فلم تجدي جميع محاولات جدتهما وعمتهما بملء قلبيهما

الصغيران بالحقد عليها وذاك كان أكبر أسباب النبذ الذي عانياه رغم أن

. والدهما عوضهما عن كل ذلك

نظرت لغيهم الذي كان يكتفي بالجلوس والاستماع مبتسما وذاك حاله أغلب الأحيان ، حضنت وجهه بيديها وقبلت جبينه قبلة طويلة رقيقة حنونة فهي لا تخصه بذلك كثيرا لما لاحظته عن شخصيته وعدم اعتياده على وجود امرأة في حياتهم تعاملهم بكل ذاك التودد ، نظرت لعينيه الناظرة لها وقالت مبتسمة تمسح بإبهاميها على خديه " مؤكد ثمة مواقف كنت فيها وحدك وأبان نائم على الأقل فلما لا تحكيها لي ؟ "

" قال مبتسما " يكفيك وجع رأس فهو يحكي المفيد والغير مفيد

ضحكت ونظرت لأبان الذي قال بضيق " لا أريد حين أعود لمنزلنا أن أقول ليتني أخبرت أمي عن ذلك وتلك ، أنا لست مثلك لا تندم على شيء "

كان الضيق هذه المرة من نصيب غيهم الذي قال بضيق مماثل تراه

لأول مرة منذ اليوم الذي جاء فيه " ماذا قال والدي يا أبان ؟ هل

" نسيت أم تتناسى ؟ ولعلمك لن أتستر عليك أبدا إن سألني

كان أبان سيتحدث فقاطعته جوزاء " يكفي لا تتشاجرا وأنت يا أبان

ما أوصاك به والدك تفعله ولا تخبرني ما يكون أما أنا فلست متضايقة

لا من حديثك ولا من صمت غيهم ولا أفكر إلا في الأيام التي سأقضيها

" بعدكما أنتظر لقائنا القادم

قال أبان بحزن " لما لا نعيش معا أمي ؟ أنا وغيهم وأنتي ووالدي

أنا لا أريد تركك والعودة لصنوان ولا أن يبقى والدي بعيدا عنا

" أنا أشتاق له هنا وأشتاق لك هناك

ضمته لحضنها وقالت تكابد دموعها " ليت الأمر بيدي بني هذا

قدرنا ولا يعترض على قدر الله أحد ولنحمد الله أننا أحياء جميعا

" وأن أراكما ولو مرة في العام

تحدث غيهم هذه المرة قائلا برجاء " لما لا يتركك خالي مطر

تغادرين معنا ؟ ألم تقولي بأنه يريدنا معك وفعل الكثير لأجل

ذلك ؟ "

تنهدت بحزن تنظر لأبان الذي ابتعد عنها وقالت بتنهيدة " الأمر

معقد أكثر من ذلك بني لا يمكن لامرأة من الحالك أن تعيش في

صنوان ولا العكس "

قال أبان من فوره " ها هي زوجة خالي مطر تعيش هنا !

لما أنتي لا ؟ "

ابتسمت بحزن قائلة " غسق ابنة زعيم صنوان تزوجها زعيم الحالك

ولولا تلك الظروف وقت مجيئها ما سلمها شراع له فوضعها مختلف

تماما لا مجتمع يقف ضد وجودها ولا أحد يستطيع مناقشة خالك

ولا إجباره ولا حتى شراع نفسه "

هز أبان رأسه بعدم فهم وقال " نحن من صنوان ونريدك معنا وسنأخذ

زوجة خالي معنا أيضا ، هو لا وجود له أبدا لما تبقى هنا وحدها

" أريدها معنا أيضا

لم تستطع جوزاء إمساك ضحكتها وقالت تمسح على شعره " هو

ليس هنا لكن لن أضمن لك حياتك وحياتي إن عاد ولم يجدها ، وما

أن يرجع من سفره لن تكون ملتصقا بها طوال الوقت ولن

" تراها إلا وقت الطعام

" مد شفتيه بعبوس قائلا " ليثه إذاً لا يرجع حتى نغادر

عادت للضحك مجددا فوقف قافزا وقال " سأذهب لأراها هي

" في الأعلى منذ وقت

أمسكت يده وقالت " سأذهب أنا لها أعرفك لن تنزل أبدا قد تكون

" متعبة

وتحركت من هناك فقد نسيت أن حبيبة أخبرتها أنها اتصلت بالفندق

*

*

عدل الشال الأبيض حول فكه وفمه يخفي ليس ابتسامته فقط وهو

يراقب المقترب نحوه بل ليخفي ذاك الجزء من وجهه مستعينا بنظرات

شمسية تخفي عينيه ، معطف طويل وقبعة سوداء وصوت طقطقته لذاك

القلم في جيبه يسمعه كل من مر بقربه ، ما أن وصل ذاك عنده حتى

أخرج يده من جيبه وصافحه هامسا " مطر شاهين كم سررت بلقائك "

أرخى ذاك يده وأبعدها قائلا ببرود " أتمنى أن يكون ما تريده ذا أهمية

" فرحلتي بعد أقل من ساعتين وثمة ما عليا فعله قبل مغادرتي

نزع نظارته لتكشف عن تلك العينين السوداء بنظرتها الحادة الذكية

وقال مبتسما بسخرية " لن يضر تلك المرأة أن تنتظرك قليلا أعتقد

" أن أجواء الفندق تروق لها كثيرا

لم تخلو نظرة مطر من الضيق رغم جمودها وهو يقول " لما لا تتكلم

" عن المهم وتتركوا عنكم حركاتكم الغبية ومراقبتي

قهقه ضاحكا وقال " نحن لا نراقبك بقدر ما نحميك وإلا ما سكت

" لك عنها الزعيم وأنت تعلم جيدا ما ستكون النتيجة

ابتسامة ساخرة ظهرت على طرف شفتيه القاسية المتصلبة وهمس

ببرود " هو آخر من سيحاسبني ولن أقدم تبريرات لأحد لاحقا

" فأفهمه ذلك جيدا

هز ذاك رأسه مبتسما وقال " عليكما أن تجدا حلا لخلافكما حول تلك

" .... النقطة فقد بدأت أسمعه يصرح بندمه على تزويـ

" قاطعه بحزم " ألأجل هذا جلبتني هنا ؟

" بسط يديه وتنهد قائلا " على حالتك هذه لن نستطيع التحدث

وتابع هازا رأسه " لا أصدق أن أراك فاقدا لأعصابك والاجتماع كان

" لصالحك ! فهل أفهم سبب كل هذا الضيق إن لم يكن هو السبب ؟

ثم أشار على نفسه حيث عنقه الملفوف بذاك الشال الأبيض وقال بسخرية

ناظرا لعنق الواقف أمامه " أم ذاك الشريط الطبي السبب ؟ من هذا

الذي استطاع لمس شعرة من ابن شاهين مخترقا رجاله الذين

" !! يحمونه بأرواحهم

دس يديه في جيوبه وقال بصوت جامد كالصخر " أخبر سيدك يتوقف

" عن إرسال رجاله لمراقبتي ، أعلم أنه وراء ما حدث في ذاك المبنى

رفع ذاك يده وأنزل الشال بطرف إصبعه حتى أسفل ذقنه كاشفا عن

الابتسامة التي كانت تزين شفتيه وهمس " ما القصة بينك وبين ابن

شراع الأكبر ؟ كدت تقتله يا رجل وهو يتوعد بقتلك وصراخه

" ملأ المستشفى ما أن استفاق

همس مطر من بين أسنانه " حديثي في ذلك ليس معك بل مع

" رئيسك فليتمنى أن لا نتقابل وجها لوجه

رفع رأسه مقهقها بضحكته الجهورية ثم نظر له وقال " أنا من بات

يتمنى ذاك اللقاء فهو يتوعدك أيضا ولا تنسى أنه يشبهك في كل شيء

" غضبه أسود مدمر وهو يراقبها عن كثب وبات يجمع السيئات ضدك

لمعت السخرة في عيني الواقف أمامه وهو يدقق على ملامحه التي

كشفها هذه المرة ولم يفعلها منذ عرفه فها هو قد استأمن قليلا بعد دنو

نهاية الهازان وابن راكان ، قال ساخرا " من المؤسف أن ابنك أيضا

أصبح يشبهك كلما كبر وكم أتمنى أن أرى لقائكما أيضا وأبشرك من

الآن هو أبرد وأجلد منك وسأصنع منه ما طلبت مني ويزيد يا شاهر

كنعان "

*

*

نظرت له مبتسمة وهو يحرك حجر الرحى بيديه ولم تتخيل أن

يستطيع تحريكه وهو في هذا السن ! وحين طلب فعل ذلك رفضت

لولا إصراره على فعل شيء لمساعدتهم ولا يكون بقائه معهم مجانا

يورد الماء من بئر وسط المنزل يطحن الحبوب ويساعد في أي شيء

خمسة أيام مرت على وجوده في ذاك المنزل لم يسمعوا صوته إلا

بكلمات بسيطة أغلبها ردا على أسئلتهم ، يعتمد على نفسه في كل شيء

لا يطلب شيئا ولا يرد طلبا وينزوي على نفسه أغلب الوقت حتى

تنسيان وجوده أحيانا ، ينام بعدهما ويستيقظ قبلهما ، هكذا عرفتاه

دائما ، قالت مبتسمة ونظرها على ملامحه " تيم ألا أقارب لك

" من والدك ؟ قال عمير أنه لا أحد لك

توقف عن تحريك عصى الرحى ورفع نظره بها ، كانت نظرة رغم

جمودها عبرت عن خيبة أمله فقالت فورا " أنا لا أقصد ما فهمت

" يا تيم أنت مرحب بك في أي وقت هو تساؤل بسيط فقط

عاد لتحريك ذاك الحجر بكل قوته وقال بجمود " لا أهل لي ولا أحد

" لي بعد والدتي ، لقد رحلوا من قبل رحيلها جميعهم

نظرت له باستغراب وهي من تعلم أنه له عمة وعم في الخارج كما

يعلم الجميع ولوالدته أقارب أيضا وهو ينكرهم جميعا فعلمت فورا

أنه عانى بما يكفي لجعله يودعهم برحيل والدته ، تنهدت وقالت بحزن

حين توفي جدك والد والدتك في تلك الحرب كانت والدتك صغيرة "

وكم كانت مدللة من جدها كان يحبها حبا كبيرا ميزها به عن جميع

أحفاده وحتى أبنائه وكان يقول بأنه لن يزوجها إلا من أشراف الحالك "

رفع نظره الحاد بها ومسح العرق من جبينه هامسا بحزم " لكنهم

" جميعهم متشابهون تخلوا عنها لن أسامحهم أبدا

*

*

حضنت الوسادة بقوة أكبر تخفي فيها دموعها وعبراتها ووجعها وأنينها

الخافت فلا ينقصها فوق ألمها ذاك الذي تحاول أن تطمره داخلها

بتبريرات كثيرة له إلا أن تسمع صوت جبران تحديدا وكل كلامه

ذاك الذي لطالما شعرت به كحبل يلتف حول عنقها وهي من وافقت

على الزواج به وقدمت له الكثير من الوعود وفي النهاية أصبحت لغيره

خدعته واستغلت مشاعره نحوها لتصل للحدود ... حقيقة لم تستطع أن

تجد لها أي مسوغ ، لا تعلم لما قالت له كل ما قالته فلم يكن ينقصه ضياع

وحزن وهموم لتزيده بكلامها عن مشاعرها ناحية ذاك ، لا تعلم لما خرج

منها كل ما قالت ! كانت في حالة ضياع في تشتت مريع ومشاعرها تتمزق

بين تصديق ما سمعته وصوت تلك المرأة وما حدث سابقا حين أساءت الظن

به وكيف كانت النتيجة ، ضنت أن الاتصال من مطر أنه سيبرر لها ما

حدث

أن تسمع صوته المبتسم ببحته الهادئة التي تعشق ولم تتخيل أن تسمع صوت

جبران تحديدا ، من خشيت حتى أن تسأل والدها عنه يوم لقائهما كي لا يفهم

سؤالها تعلقا به ، لكمت الوسادة وهي لازالت تحضنها وصاحت بعبرة

لماذا يحدث معي كل هذا لماذا ؟ ليتني لم أعرف رجلا حياتي "

" ليتني ما عرفتهما كليهما

طرقات على باب الغرفة جعلتها تجلس مبعدة شعرها عن وجهها وما

علق منه فيه بسبب دموعها ومسحت خديها بقوة على صوت الطرق

" مجددا وصوت جوزاء " غسق هل أنتي نائمة ؟

غادرت السرير تمسح خديها وتوجهت للباب فتحته وتنحت جانبا تنظر

للأرض كي لا تفضحها عيناها المتورمة من البكاء وهمست ببحة لم

" تستطع إخفائها في صوتها " لا لست نائمة تفضلي

نظرت لها تلك باستغراب لفستانها الغير مرتب وأصابع يدها الممسكة

بالباب وقد احمرت مفاصلها البيضاء تخفي وجهها بغرتها فقالت بقلق

غسق هل من خطب ! حبيبة قالت أنك اتصلت بالفندق هل من "

" مكروه أصاب مطر ؟

راقبت تحرك غرتها مع تحريكها لرأسها وهي تنفي ذلك وهمسها

" المبحوح قائلة " لا ... لا قدر الله ذلك

مدت يدها لذقنها ورفعت وجهها لها وهالها منظر عينيها المجهدة

والدموع التي لا زالت معلقة في رموشها وخداها المحمران من كثرة

البكاء فوضعت يدها على قلبها وقالت بخوف " غسق أقسم أنه ثمة

" شيء حدث فهل تحدثت مع مطر ؟ هل هو بخير ؟

رفعت غرتها عن وجهها ومسحت خدها بظهر كفها قائلة بعبرة مكتومة

" لم أتحدث معه ولست أعلم أقسم لك "

" قالت باستغراب " ما يبكيك هكذا إذا ؟ ألم يجب على اتصالك ؟

هزت رأسها بلا وقد أرخت نظرها للأرض فتنهدت تلك قائلة

كل هذا لأنه لم يجب عليك ؟ لقد أفزعتني ! ذاك طبعه يا غسق "

لا تقلقي فإن كان به مكروه ما تركوه رجاله وعادوا ولأخبروا

" عمي ولما كان حال الحالك هكذا

هزت رأسها بحسنا ولازالت تهرب بنظرها منها فأمسكت يدها وسحبتها

منها جهة الحمام قائلة " تعالي أغسلي وجهك واهدئي ، لو يراك ويعلم

" بحالك لن يكررها مجددا ذاك الأحمق

انصاعت لها وغسلت وجهها عدة مرات وجففته جيدا وقد خرجت تلك

قبلها وما أن غادرت هي الحمام وجدتها جالسة عند السرير وقالت

" ناظرة لها " تعالي يا غسق أعلم أني مزعجة فتحمليني قليلا

اقتربت منها وجلست أمامها وقالت تصارع شفتيها لرسم ابتسامة وإن

باهتة " أبدا يا جوزاء كيف تقولين هذا ! كم تمنين هذا اليوم الذي

" تدخلي فيه غرفتي ونتحدث كشقيقتين

قالت بحياء وخجل من كل ما فعلت " ما أرق قلبك وأوسعه يا غسق أنا

لا أستحق منك كل ما فعلته لأجلي لقد علمتني الكثير وأنتي أصغر

" مني بأعوام

وتابعت من قبل أن تعلق قائلة بابتسامة " دعينا من كل هذا ولنتحدث فيما

يؤرقك هكذا ويكدرك ، غسق نحن نعرف مطر منذ ولد وأنتي لم تعرفيه

إلا هذه الأشهر ورأيت مطر لم يعرفه أحد ، لا أنكر أن ذلك ضايقتني في

البداية صحيح أنه فعل الكثير من أجلي وكان على استعدادا لفعل أي شيء

ليجمعني وطفلاي لكني لم أجد فيه الشقيق الذي تريده كل امرأة ، لم نراه

إلا بعدك يبتسم ويضحك كثيرا ، لم يكن يشاركنا من أمور حياتنا شيء

نعلم جميعا أن مشاغله ومشاكله كثيرة لكنه حتى وقت وجوده هنا كان

وكأنه ليس موجودا ، لا يتصل إن غاب ولا نعلم عنه شيئا حتى يرجع

لنا هو أو خبره وعلى هذا اعتدنا ، ولم يتصل بنا وهو في الحدود أو

الجبهات إلا بعد تزوجك وإن قلّت تلك المرات ، فتجديه مشغولا الآن

رغم أني معك في أنه كان يفترض به أن يتصل لكن عذره معه

" ما لم تسمعي منه

ابتسمت لها بحزن تكابد الدموع التي ملأت عينيها وهي تحاول أن تهون

عليها عدم اتصاله ومجيئه وليست تعلم أن جرحها أعمق من ذلك ولا

تستطيع البوح به ، نظرت ليديها في حجرها وخرجت الكلمات منها

بصعوبة قائلة " جوزاء أيهما تفضلين أن يتزوج زوجك عليك أم

" أن يخونك مع امرأة أخرى ؟

نظرت لها بصدمة لوقت لسؤالها المناقض تماما لحديثها ولسببه

" أساسا ثم قالت باستغراب " غسق هل تشكين بمطر ؟

رفعت نظرها لها ودمعتها تدحرجت من رموشها وقالت فورا

" لا كان سؤالا فقط "

هزت رأسها بحيرة من تفكيرها ذاك وقالت " لا أفهم مقصدك من هذا

لكني لكنت فضلت أن يتزوج زوجي على أن يرتكب محرما فالزواج

يكون من امرأة واحدة وبالحلال لكن الخيانة تكون مع نساء كثر

" ويكون لا يستحق أن أعيش معه وهو يعصي الله بقلب ميت

وتابعت وقد مدت يديها وحضنت بهما يدا الجالسة أمامها وقد شدت

عليهما بقوة " غسق لا تستمعي لهواجس نفسك لن يكون السبب وراء

غيابه امرأة أخرى لا بالحلال ولا خلافه ، أنا أعرف مطر جيدا لم تعنيه

النساء يوما ليتزوج من اثنتين وليس بالرجل الدنيء الذي يفعلها بالحرام

تأكدي من ذلك ، ثم هو لا يسافر إلا للضرورة وليومين أو ثلاثة كحد

أدنى يكون فيها السبب قويا فكيف يكون متزوجا أو له امرأة هناك

" ! لا يذهب لها

أنهت كلامها وراقبت مبتسمة اللين على ملامحها الكئيبة الباكية ، من لا

تعلم كم هي ممتنة لها الآن وكم كانت تحتاجها هكذا كشقيقة زوج

تساندها كلما تعثرت فهمست ببحة وقد ارتسمت على شفتيها

" ابتسامة صغيرة " شكرا لك يا جوزاء

تركت تلك يديها وقالت بابتسامة واسعة " حمقاء أنتي يا غسق من

مثلك عليها أن لا تتخيل ولا مجرد تخيل أن يفعل زوجها أي مما

ذكرته ، أنا المرأة لا أشبع من النظر لك ومن سماع صوتك وحديثك

وطريقة كلامك فكيف برجل يملك كل هذا في زوجته ! أقسم لن

" تغريه امرأة كانت من تكون وهو يعلم أنك تنتظريه في غرفته

ثم قالت مغادرة السرير " سأنزل والحقي بي فأبان يسأل عنك

" وكان يريد الصعود لك لولا منعته

وضحكت متابعة " لا أستبعد أن يتسبب لنا بمشكلة مع خاله فقد

قال منذ قليل لعمتي أنه يريد حين يكبر زوجة تشبهك في كل

" شيء

ابتسمت لها من بين حزنها قائلة " ليرى خاله أولا ثم لكل

" حادث حديث

فضحكت تلك من فورها وقالت " صدقي كلامي يا غسق فهو لن

" يفعل أيا من الاثنتين

ثم خرجت ونظراتها تتبعها وقد مسحت باقي الدموع من عينيها بكفها

هامسة " خياري الوحيد أن أصدق كلامك يا جوزاء ولا أكرر

" حماقتي السابقة

*

*

ما أن نزلت به الطائرة الخاصة فتح هاتفه وما أن فتحه حتى بدأ

بالرنين فورا ، ركب سيارته متجاهلا أول اتصالين وأجاب على

الثالث وقد تحرك من هناك تتبعه سيارات الوفد الذي استقبله

" متجهين للحدود وقال ما أن فتح الخط " ماذا حدث معك يا تميم ؟

قال ذاك من فوره " فتشنا الحالك شبرا شبرا ، الثنانيون وحدهم من لم

نحصل منهم على رد قاطع فزعيمهم طلب التحدث معك أولا ، اجزم

أنه لديهم وقد بلغناه أنك ستكون خارج البلاد وأنك أمرت بإعادته

للحدود و.... "

" قاطعه بحزم " راقبوا الحدود ولا يخرج أبدا مفهوم

" قال ذاك باستغراب لم يستطع الإفصاح عنه " كما تريد سيدي

وأنهى الاتصال معه واتصل فورا بالذي أجاب عليه قائلا

" شبكلمة ، لم نضعه في المستشفى هو في غرفة في منزل مخصص

قال ناظرا للطريق أمامه يحرك المقود بيد واحدة " أريد حراسة مشددة

عليه وسأرسل ما يلزم لعلاجه والعناية به فاتركه حيث هو ولا أريد أن

" يعلم بهويته أي أحد من قبائلكم ولا يغادر من عندكم ووافني بأخباره

وما أن أنهى الاتصال معه حتى رن هاتفه ومن قبل أن يبعده عن نظره

فأجاب عليه فورا وقال من في الطرف الآخر " أتصل بك من أيام

" ولا أحصل عليك وما أن أخبرني تميم أن هاتفك مفتوح حتى اتصلت

*

*

راقبها حتى أنهت لف الشاش برفق تمرر يدها من تحت جسده

كي لا يرفعه ولا تؤلمه وعلى غير عادتها كانت متمسكة بصمتها

ولم تنظر لوجهه أبدا وما أن عدلت له جسده برفق بمساعدته ليستوي

" رأسه على الوسادة همس بأنفاس متلاحقة متعبة " شكرا لك

ولا جواب أو أي تعليق منها ، انحنت للأرض تجمع أوراق الشاش

وقطع القطن ثم وقفت على طولها ونظرت له ببرود حين قال

" كل هذا غاضبة مني أستريا ؟ "

بقيت محدقة بعينيه دون أن تعلق فنظر للسقف وتنفس بتعب وكأنه

يجبر رئتيه وأضلعه على إخراج الكلمات وقال بصوت ضعيف متعب

هل يرضيك أن تتزوجي رجلا تعلمي أن امرأة أخرى غيرك وقبلك "

تكشف أمامها ولم يكن لك وحدك ؟ ولست أنتي أول امرأة تختص

" بأمور ليست لغيرها ؟

نظرت له باستغراب قبل أن تهمس في أول حديث منها " اعتبرني

ممرضتك وأنا كذلك لما تفهمون الأمور بشكل خاطئ هكذا أنتم

" المسلمين ؟

نظر جهتها وقال بابتسامة متعبة " نحن لا نفهم ذلك بشكل خاطئ

" ذلك هو ديننا الرجل ملك لزوجته فقط كما الزوجة أيضا

شعرت بغصة في حلقها لم تعرف سببها ولا مصدرها وهمست

" بصعوبة " لك زوجة ؟

عاد بنظره للسقف وتحرك صدره بصعوبة ساحبا الهواء لرئتيه

وخرج مع كلماته الخافتة " لا لكن سيكون لي يوما ما بالتأكيد "

تنقلت بنظراتها في ملامحه وقالت بمكر " يالا تعاسة حظك يا رعد

لن تستطيع أن تخبرها أنها المرأة الأولى التي رأتك عاريا "

لم يستطع كتم تلك الضحكة ولا إمساكها مما أخرج أنينه مرتفعا مع

انتفاض صدره فقفزت ناحيته ووضعت كفها عليه وثبتته للخلف ببطء

كي لا يتحرك أكثر قائلة بخوف " رعد ما مناسبة الضحك الآن

هل تريد حقا أن يصيبك مكروه وألوم نفسي حتى أموت ؟ "

ثم عدلت الغطاء لكتفيه قائلة بضيق " لا بأس اكذب عليها وأخبرها أنها

الأولى لأني أيضا سأكذب على زوجي مستقبلا كي لا يدق عنقي ، هذا

إن كان ثمة من سأتزوجه فالجميع بات يعلم أني من يعتني بجميع

أمورك وبأنك عاجز عن الحركة "

أغمض عينيه بقوة وعض شفته بتألم يعدل من وضع رأسه على

الوسادة وهمس بصعوبة " لن أتزوج إذا حتى تتزوجي أنتي

لأكون عادلا معك بما أنني السبب هل اتفقنا ؟ "

لوت شفتيها وتمتمت بعبوس " تكذب عليا يا ابن صنوان ما سيدريك

أني تزوجت بعد عودتك لأهلك وما يدريني أنا إن كنت عند كلمتك ؟ "

قال بابتسامة صغيرة متعبة " وإن وعدتك بذلك ؟ فهل تثقين بوعود

المسلمين يا أستريا أم جميع ما فيهم لا يعجبك "

هزت رأسها بلا فورا وقالت " والدي يقول أن الرجل المسلم الأصدق

وعدا فهو إن وعد أوفى مهما كانت النتائج والدليل الزعيم مطر "

وتابعت بشك " وكيف ستعلم متى سأتزوج ؟ "

عاد بنظره للسقف وقال " لا تقلقي لن أتزوج حتى أعلم هل

يرضيك هذا ؟ "

ضحكت ولوحت بيدها أمام وجهها قائلة " أجل يرضيني على

" الأقل سأكون متأكدة من أني لست وحدي الخاسرة

نظر لملامحها لعينيها العسلية الواسعة لشعرها الذي تخلله تلك

الخصلات الذهبية مموجا حتى خاصرتها ثم عاد بنظره للسقف

وتمتم دون أن تسمعه " جيد أنكم لا تسكنون الحدود معنا يا

" التينانيين لذهب باقي نصف عقول جنودنا

نظرت له باستغراب وقالت " بماذا تهذي ! هل أصابتك الحمى

" وحرارتك منخفضة ؟

نظر لها وقال مبتسما " أريد هاتفا يا أستريا هل يمكنك إحضار واحد

" لي ؟ عليا أن أطمئن على شقيقي فقد دخلت الحدود بحثا عنه

" نظرت له بصدمة وأمسكت فمها بيدها قائلة " ألست تعلم أنه مات ؟

شحب لون وجهه حتى اختفى الدم فيه وهمس بصدمة أشد من صدمتها

" رماح مات ؟ "

لوحت بيدها بسرعة قائلة " لا ليس هذا قالوا أن اسمه الكاسر ابن

شراع صنوان توفي في حادث داخل الحدود "

نظر للسقف بحزن وبرقت عينيه وقال متنهد " لا ليس الكاسر أعني

ذاك دفنته بيداي ، كدت تقتلينني آستريا رفقا بي يا فتاة أرجوك "

لوحت بيدها قائلة بضيق " وما يدريني أنك تتحدث عن شقيق آخر

وأنكم جميعا تتسللون لحدودنا ؟ من بقي منكم لم يدخل هنا بعد ؟ "

ثم ضحكت فجأة وقالت " سحقا كيف نسيت "

نظر لها باستغراب فلفت حول السرير تبعد شعرها قائلة " شقيقتك

تلك زوجة الزعيم مطر لقد زارتنا هنا وحضرت زواج شقيقي "

قال ونظره يتبعها " غسق جاءت هنا !؟ "

هزت رأسها بنعم وقد استقرت في الطرف الآخر من السرير

وقالت بحماس " دعاه والدي لحضور زفاف شقيقي الأصغر ولقد

أحضرها معه وألبسناها ثوب العروس الخاص بنا وكانت ملاكا

" لا يمكن وصفه

ثم ضمت يديها لصدرها وأغمضت عينيها قائلة بحالمية " كاد قلبي

يتوقف حين رأيتها به وحين رآها الزعيم مطر ... كم كان مشهدا

" لا ينسى ، آه ابتسامته نظرته لها كيف حملها وذهب بها

ثم فتحت عينيها قائلة بضحكة " وحين أفقنا صباحا لم نجدهما

" لقد سرقها من نفسه وفر بها ، لم أرى حياتي زوجين مثلهما

سرح مبتسما فيما قالت ، ياااه إنها صغيرتهم تلك مدللتهم روح الأنثى

في ذاك المنزل الذي غلب عليه الطابع الذكوري الخشن ، كم اشتاق لها

لابتسامتها لرقتها لصوتها وطريقة حديثها الأنثوي الرقيق وضحكتها

العذبة ، ضحكتها التي كم وبخها عليها كلما سمعها وأحدهم يقف معه

في الخارج ولاحظ نظرات الواقف أمامه وهو يبحث عن مكان تلك

الضاحكة ، وما أن يوبخها ويتركها حتى يرجع ويبحث عنها ليجدها

تبكي في غرفتها ويجد نفسه يغرقها باعتذاره وأسفه ، نظر للواقفة أمام

سريره ولنظرتها المستغربة لشروده وابتسامته وقال بضحكة مكتومة

" إن أصاب حياة شقيقتي مكروه يكون بسببك "

" عبست ملامحها فجأة وقالت بضيق " أحمق

أمسك ضحكته بصعوبة يعض شفته كاتما أنفاسه ثم همس

" بصعوبة " ماذا بشأن الهاتف آستريا ؟

تنفست متنهدة بقلة حيلة منزلة كتفيها وقالت " لا أعدك بشيء

رعد والدي من يملك واحدا وأن أحضره وأعيده دون علمه

" مخاطرة كبيرة لي ولك

نظرت لعينيه المعلقة بعينيها بنظرة حانية فضربت قدمها

" بالأرض قائلة " لا تنظر لي هكذا سأحاول حسنا

هز رأسه بلا وهمس " لم أعد أريده لا تعرضي نفسك للمشاكل من

" أجلي

طرقات على الباب الخارجي للمنزل جعلتها تتحرك من هناك قائلة

ووجهتها باب الغرفة " لابد وأن العشاء أصبح جاهزا سأحضر لك

" الطعام فورا

*

*

أطلت برأسها من باب الغرفة حيث قابلتها أولا والدتها الجالسة

منشغلة بغزل الصوف ثم نظرت مبتسمة للجالس بقربها يتناول

طعام العشاء في صمته المعتاد وقالت بذات ابتسامتها

" تيمو تعال قليلا "

رفع رأسه لها وضحكت والدتها قائلة " لو سمعك ابن خالك لقطع

" لسانك ، ألا يكفيك توبيخه لك عن الباب

جاءهم حينها الصوت الرجولي من خلفها قائلا بضحكة وهو يدخل

دافعا لها للداخل " لا خوف منه فهو سبقتي وتزوج قبلي وليس

" لها فيه شيء ، هيا تعالى يا تيم

نظرت له عمته بصدمة بينما التي تمسكت بكم قميصه كي لا تقع

" !! وقفت على طولها وقالت بصدمة لا تقل عن والدتها " متزوج

وقف حينها المعني بالأمر ونفض يديه من بقايا الطحين الذي كان

عالقا بالخبز الذي يأكله وخرج على نظراتهما المصدومة التي

لازالت تتبعه وهمس ما أن مر بذاك " أنت ألا تتوقف عن نشر

" الأخبار ، لمن أوصلت القصة أيضا ؟

ضحك ودفعه من ظهره قائلا " ستعلم الآن قصتك إلى أين

" وصلت

ثم نظر للخلف حيث الواقفة عند الباب وقال " وأنتي لا تتحركي في

" تلك الجهة ، إن سمعت صوت حدائك قطعت ساقيك تفهمي

أخرجت له لسانها واختفت داخل الغرفة فضحك وسار يدفعه براحة يده

أمامه حتى وصلا الباب الذي كان بالقرب من باب المنزل فوقف

" تيم ونظر له فوقه وقال بتوجس " من هنا ؟

همس ذاك منحن له " عليك أن تدلي بأقوالك يا تيم الأمر ليس

" سهلا كما تضن

نظر له بريبة وعلامات الخوف بدأت تظهر على ملامحه فربت

على كتفه وقال يحدثه على الدخول " هيا يا تيم لن ترى أسوء

" مما مر عليك

دفع عمير باب الغرفة ودخل وقد دخل هو خلفه وما أن تنحى ذاك جانبا

وظهر له الجالس على الكرسي هناك حتى تيبست عظامه وجف حلقه ولم

يستطع ولا إزاحة حدقتيه عن تلك العينين السوداء الحازمة لينظر لعمير

رآه مرة واحدة سابقا وعن بعد لكنه لم ينسى ملامحه أبدا ولم يتخيل أن

يراه هنا الآن وأن يصل الأمر له تحديدا ، شعر بالرهبة من هيبته أكثر

من خوفه من محاسبته له على فعلته فلم يشعر يوما بمثل هذا الشعور أمام

أي رجل آخر ، تحدث الجالس هناك كاسرا كل ذاك الصمت والجو المشحون

في تلك الغرفة الضيقة وقال بحزم ميزته تلك البحة الواضحة " تيم شاهر

" كنعان هل تريد أن أنصفك أنا أم أن تختار ذلك بنفسك ؟

لم يستطع استيعاب ما قال ولا وجوده هنا فهمس من بين صدمته

" هل مات ؟ "

هز ذاك رأسه بلا دون كلام فتنهد بارتياح تنهيدة وصلت لسمعهما ليس

لأنه خائف من مواجهة الأمر بل لأنه لا يريد أن يحمل ذنب إنسان وإن

كان ذاك الرجل ، قال مطر " وإن كان مات ما كنت سأسجنك والدية

سأدفعها من جيبي وغيره لا يستحقه ذاك الرجل وإن كان ميتا

" فأخبرني الآن ماذا اخترت

" قال من فوره " بنفسي

ظهرت ابتسامة ساخرة على طرف شفتي الجالس هناك وإن بقيت

ملامحه محتفظة بجمودها وهذا ما توقعه منه فليكشف الغطاء الآن

عن تيم كنعان الرجل ويراه يستحق ما يفعل لأجله أم لا وإن صدق

" حدسه أم كذب ، قال بجدية " أرض والدتك ترجع لك أم لا ؟

لم يستطع تيم إخفاء الصدمة في ملامحه فهو لم يخبر عمير عن

المهر والأرض وكل تلك التفاصيل فمن أين علم ؟

لكن الجالس أمامه فهم فورا ما دار في خلده ويعلم جيدا ما الذي حكاه

لعمير فقال " شيخ القبيلة في حجور أخبرني ومن قبل أن ألتقي بعمير "

" ! قال بصدمة " لكنه وافق ما فعلوه

قال مطر من فوره " لأنك لم تنكر يا تيم واعترفت على نفسك بأمر فيه

شرف وسمعة فتاة ستتحول مع الأيام لامرأة سيلحقها ما حدث طوال

حياتها فما كان أمامه من خيار ، إن أنكرت لكان دافع عنك ونجت

" هي من ألسن الناس ، لقد برر لي أنه كان في موقف صعب

قال مبتسما بمرارة " إن أنكرت وأنكرت هي ما رحمها عمها من

" هنا حتى تموت فأيهما أرحم لها ؟

هز مطر رأسه بالإيجاب فلم يفهم هل يوافقه كلامه أم يشير لأنه فهم

ما يريد شرحه ، قال بذات جديته مشبكا يديه مسندا لمرفقيه على ركبتيه

" تطلقها أم تبقى زوجتك ؟ "

كان سؤال آخر صدمه ولم يتوقع أن يكون له فيه الخيار ، نظر لعمير

الذي كان محتفظا بصمته مكتفا يديه لصدره وينظر له ثم عاد بنظره لتلك

العينان السوداء الواسعة القوية الواثقة الحاذقة ، يعلم أن هذا الرجل إن قال

فعل وإن فعل لن يعارضه أحد ، لا يستغرب فقط وقوفه بجانبه بل ومشاورته

في كل شيء ! صفة لم يعرفها عنه أحد أبدا فكل ما يُعرف عنه أنه يأمر وإن

أمر أطاع الجميع دون نقاش ولا تلكؤ ، همس بخفوت لم يتخيل أن يسمعاه

" لن أطلقها "

علت الابتسامة شفتي مطر وملئت ضحكة عمير الغرفة الضيقة وقال

ضاربا يديه ببعضهما " فعلها يا رجل ، حمدا لله أننا لم نتراهن لكنت

خسرت الرهان "

نظرة حادة غاضبة كانت ما تلقاها من الواقف قريبا منه وقال مطر

معيدا نظره جهته " ومالها ؟ "

قال تيم من فوره " اتركه لهم "

سوى جلسته حينها متكئا بظهره على ظهر الكرسي الخشبي وكتف

يديه لصدره قائلا " قل ما لديك يا تيم "

لم يستغرب هذه منه بعد الحديث القصير الذي دار بينهما ولم يفهم فيه

مطر فقط الرجل داخل ذاك الفتى بل وفهم فيه تيم من يكون الرجل

الجالس أمامه بكل هيبته تلك وسطوته وحضوره القوي ، قال أولا

" أنت تصدق براءتي أليس كذلك ؟ "

هز رأسه له بالإيجاب ونظرته كلها تأكيد بأن الشك لم يدخله أبدا فقال

إن أخذت منهم المال آذوها وكل غرض عمها الوصول له وهذه "

ستكون النتيجة حتى إن نقلتها لعم آخر من أعمامها فهم نبذوا والدتي

المريضة وحرموها الطعام والدواء لأجل سرقة حصتها فلن يتوانوا

" عن فعل أي شيء لسلب مال ماريه مهما طال بهم الزمن

" هز رأسه له بالإيجاب هامسا " ومستقبلكما يا تيم

أخفض نظره عن عينيه وقال " هل سأكون مجبرا على تطليقها لو

" حكم البلاد قانون واحد ؟

لم تخلو نظرة ذاك من الإعجاب به فهذا فوق ما تخيل في أول لقاء

بينهما ، قال بجدية " في القوانين الوضعية دائما ثمة حلول

" وثغر يقتنصها المحامون

رفع نظره به مجددا وقال " إذا تبقى زوجتي حتى تكبر كي لا

يزوجوها أحد أبناء عميها مرغمة لأن هذا ما سيحدث لسلب

" المال من عمها ذاك وسيتقاسمونها كقطعة اللحم

" قال مطر مركزا نظره على عينيه " وحين تكبر ماريه يا تيم ؟

هز رأسه ونظره لازال في عينيه المركزة نظرها عليه وقال ما

" يتوقعه منه تماما " لها أن تختار

وقف حينها مطر وقال " رجل ابن رجل أنت يا فتى ، وما أفهمه

" من كلامك أنك لن ترجع لهم الآن ؟

هز رأسه بنعم فقال مطر " ستكون وعمير في مركز حدود الشرق

سيتكفل بإكمال تدريبك وتنهي دراستك وبالنسبة لتلك الطفلة لا تقلق

لن يمسوها بسوء حتى ترجع لها وتقررا ما تريدان وسأترك لهم

المال كما اخترت أنت رغم أني كنت أنوي تجريدهم حتى من

منزل جدهم ووضع كل شيء في خزينة الوصاية لولا اخترت

" أنت العكس

ثم تحرك مجتازا له دون أن يضيف أي كلمة بعدما سأله عما يخص

ماريه ومالها وماله أما الباقي كان هو من قرر فيه دون حتى أن يسأله .

" سيدي "

وقف مطر مكانه والتفت له بنصف وجه وقد قال تيم " ثمة دين لك

عندي أريد تسديده بأي طريقة تراها مناسبة "

التفت له بكامل جسده وقال " الرمان تعني ؟ "

نظر له بصدمة لم يجتزها بسهولة ثم أرخى نظره خجلا من فعلته التي لم

يفعلها من قبل وهمس بمرارة " أقسم لك لم يدخل من حبوبها لجوفي ولا

نصف حبة ، كانت والدتي تحتاج لقوت تعيش به باقي يومها وأعلم أن

ذلك ليس من حقي لكنه كان حلي الوحيد فحتى شيء أعمله من

" أجل المال لم أجد

تقدم منه خطوتين ونظره على شعره الكثيف مطأطأ رأسه للأسفل

وضع يده على كتفه وشد عليه بقوة قائلا " هل أفهم من كلامك

" أنك كنت تعمل لدى ذاك الطبيب وليس تساعده

شد قبضتيه بقوة يشعر بكل تلك الذكرى تنتزع من قلبه وقال يكابد

دموعه " كان ثمنا لعلاج والدتي ، كنت سأفعل أي شيء لتبقى

" لي لكنها رحلت في النهاية

" شد على كتفه أكثر وقال بجدية " ارفع رأسك يا تيم

رفع رأسه ومسح عينيه بظهر كفه بقوة ونظر له فوقه وقد قال مركزا

نظره على عينيه " أنت في رعايتي يا تيم لن يمسكني عن ذلك شيء

وحتى إن مت غيري سيتكفل بك أولهم عمير وثلاثة غيره ورابعهم

سألني عنك صباح اليوم يريد أخذك لخارج البلاد لديه لكنك لست

" من حق أحد سوى نفسك يا تيم ، تيم شاهر كنعان رجل نفسه فقط

ثم هز له كتفه بقبضته الممسكة له وتابع بحزم " تيم شاهر كنعان

" وزيزفون إسحاق ضرار لا يحتاجان لأحد لم يجداه سابقا

رغم أنه لم يفهم معنى ما قال ولا أسم تلك الذي ذكره لكنه هز رأسه موافقا

كلامه فلطالما رأى نفسه هكذا وقرر أن يكون أيضا (رجل نفسه) لا

يتبع أحدا لا يحمل اسم أحد ولا يحتاج لكل من لم يجدهم قربه يوم احتاجهم

راقبه يغادر محدثا عمير السائر خلفه لخارج المنزل يشعر بامتنان ناحيته

لن يكفيه عمره كله ليرد له هذا الدين ، وحمد الله أنه لم يسلمه لمن قال

أنه خارج البلاد ويريد أخذه وقد خمن أن من تحدث عنه سيكون عمه

أو عمته أو عم والده ولم يتخيل أن الحقيقة أكبر وأقسى من ذلك

*

*

نظرت مبتسمة لجوزاء وغيهم وهو يمسك لها أبان وهي تدغدغه

وضحكهما الثلاثة ملأ المكان تشعر بالحزن من الآن على فراق

تلك الأم لهما ولا تتخيل كيف يكون شعورها لو كانت مكان جوزاء

وقد أوشكت الأيام السبعة أن تنقضي ولن تراهما قبل قرابة الخمسين

يوما هذا إن لم تتغير ظروف البلاد وعادا حلما في قلب تلك المرأة

لتتحول هذه الأيام لذكرى لن تتكرر ، صرخ أبان ضاحكا

" غسق أنقذيني ، جدة نصيرة أرجوك أخبريهما يتوقفا "

قالت غسق مبتسمة " أنت اخترت هذا العقاب وتراهنتما عليه

لا دخل لي "

بينما قالت نصيرة ضاحكة " يكفي يا جوزاء سيمرض ابنك من

" كثرة الضحك وسيؤلمانه جنباه

توقفت جوزاء وتركه غيهم فنزل جالسا على الأرض وقال بتنفس

" متقطع " سأخبر عمي صقر وستريان كليكما

قالت جوزاء " هذا إن رايته ، لغرفتكما حالا لتغسلا أسنانكما

" وتناما لقد تأخر الوقت

" كان أبان سيتحدث لولا قفز صارخا " خالي مطر

وركض جهته لتتجه الأنظار جميعها جهة باب المنزل والداخل منه

بلباسه الرسمي يحدث أبان منزلا رأسه له وقد لحق به غيهم تحيطهم

ابتسامة جوزاء المحبة ثلاثتهم وضحكة نصيرة الهامسة تشاكس التي

" تعلق نظرها به " لعلنا نسمع ضحكتك الآن ها هو بخير أمامك

نظرت لعمتها وعضت طرف شفتها تهددها أن يسمع ما تقول فضحكت

واكتفت بالصمت بينما عادت له بتلك النظرات المشتاقة التي تكابد
لتتكسر

أي شك قد يراودها اتجاه ذاك الرجل صاحب ذاك الطول والجسد الذي

لم تزده تلك البذلة السوداء الفاخرة إلا تميزا ، كان نظره وتركيزه مع ابني

شقيقته حتى وصل مكان جلوسهم ونظراتها تتبعه تلتهم ملامحه التي لا

تعلم لما اشتاقت لها بقدر لم تعرفه من قبل رغم أنه غاب سابقا لوقت أطول

من هذا واحترق قلبها عليه وهو في جبهات القتال عند الحدود أكثر من

اختفائه هذه المرة لكنها لم تشتاق له كما الآن لعينيه لملامحه لابتسامته

وضحكته ولصوته وبحته المميزة ، قبّل رأس عمته وسألها عن حالها

وكان دور جوزاء بعدها سلم عليها وسألها عن حالها رغم جمود

ملامحه وانخفاض صوته الجاد وتجاهل تلك العينين التي لم تتركه

لحظة ... لم يسلم عليها ولم يكلف نفسه ولا بالنظر لها ، أمر ضنت

أنها وحدها من لاحظه وهي تشعر بقلبها يتمزق لأشلاء وهو يغادر من

هناك جهة السلالم لكنها اكتشفت غير ذلك حين عادت بنظراتها للعينين

التي كانت تحدق بها باستغراب وكأنها هي من تجاهلته وليس العكس

حمحمت عمتها وقالت تغير من ذاك الجو المشحون " غسق انظري

" لزوجك ما يريد قد يكون جائعا

نظرت ليديها في حجرها وتمنت أن ماتت لحظتها ، لا تذكر أنها أخطأت

في شيء وحين غادر رغم غضبها لم يكن منزعجا منها ! وحتى إن كان

كذلك ما كان عليه معاملتها كنكرة أمامهم وإن مجبرا نفسه أمامهما ، خرجت

الحروف منها بصعوبة وهي تنظر ليديها اللتان تضغطهما بقوة " هو

" لا يأكل حين يقود لمسافة طويلة لقد أخبرني بذلك سابقا

" ....قالت متجاهلة ملاحظتها " قد يكون يريد شيئا غيره عليك أن تـ

قاطعتها جوزاء قائلة " عمتي هي زوجته وأعلم الناس بطباعه ، إن

" كانت ترى أنها تريد اللحاق به لفعلتها من نفسها

وقفت حينها تنظر للأسفل وتحركت من هناك فأهون عليها أن تصعد

وتقابل غضبه الذي تعلم أنه يكبته وتجهل السبب من أن تكون مدعاة

للشفقة أكثر من ذلك وواحدة تحاول إقناعها باللحاق به وفهم الأمر منه

والأخرى تحاول أن تُفهم عمتها أن ذلك يجرحها وملاحظتها ليست في

وقتها ، صعدت السلالم تحاول في كل خطوة تخطوها فوق عتباته أن

تفسر أو تجد سببا لما فعل رغم أنها من يجب أن تتصرف كذلك بسبب

تلك المرأة في غرفته في ذاك الفندق تناديه باسمه دون أي كلفة بل

وتسأله إن خرج من الحمام ، قبضت يدها بقوة تضمها لصدرها

" وهمست بحروف متقطعة " لا تخـ طئي مجددا يا غسق

وصلت باب الغرفة الشبه مفتوح وأمسكت بمقبضه وفتحته ببطء ليكشف

لها عن الواقف عند مرآة التزيين هناك فاتحا درجها الأول ويفتش في

الأوراق ويده داخله ، أغلقت باب الغرفة ووقفت مستندة بظهرها عليه

ويديها خلف جسدها تنظر للذي لازال يعاملها كشيء لا وجود له وقد

فك ربطة عنقه ورماها على السرير ولازال يبحث في تلك الأوراق

المكومة في الدرج ، رفعت غرتها عن وجهها لترجع وتتساقط عليه تباعا

تمسك دموعها بصعوبة عن النزول وهي تراه يوليها ظهره وقد نزع

سترته ورماها حيث ربطة العنق ثم بدأ بفك أزرار قميصه وقد لاحظت

حركته العنيفة في فعل كل ذلك ، رمى القميص وخلع الداخلي أيضا ثم

بدأ بفك حزام بنطلونه فتحركت من هناك فهو في العادة لا يخلعه في

الغرفة أمامها ، توجهت للخزانة فتحتها وأخرجت مناشف الاستحمام

الخاصة به فانتفض جسدها بقوة وقفزت ملتفتة للخلف ويدها على

صدرها تسترجع أنفاسها ونظرها على باب الحمام الذي ضربه خلفه

بقوة بعد دخوله دون حتى أن يأخذ منشفة معه ، نزلت بنظراتها التائهة

لبنطلونه وباقي ملابسه الداخلية المرمية أرضا وسرعان ما سمعت

صوت المياه المتدفقة في الحمام ، لم تستطع الحراك من مكانها ولا

لجمع ملابسه فقد تجمد كل شيء فيها مثل تفكيرها الذي توقف لعجزها

عن فهم ما يحدث ! كم تمنت لحظة دخولها أن ركضت جهته وضمته

من ظهره تدفن وجهها بين كتفيه ويداها تطوق خصره ، أن قابلها

بابتسامته ذاتها التي ودعها بها رغم غضبها منه فهذا الوجه لم تعرفه

! منه ولا حتى حين غضب منها ليلة رجوعهم من قرى الثنانيين

كان غضبه ذاك واضحا وعبر عنه لكن الغضب الصامت هذا أمر لم

تعرفه ولا في والدها وأشقائها ، انفتح باب الحمام بعد وقت قصير وخرج

منه يلف إحدى مناشف الحمام متوسطة الحجم حول خصره وشعره يتقاطر

منه الماء وتحرك من دون أن يقف ولا لبرهة واجتازها وكأنها جزء من

الخزانة الموجودة خلفها وفتح الباب الآخر وأخرج بنطلونا قصيرا ينام

فيه ونظراتها التي اكتسبت بريقا قويا بسبب تلك الدموع الحبيسة لازالت

تتبعه ، همست تنظر لوجهه وهو يغلق زر البنطلون ونظره عليه

" مطر ما بك ؟ "

التفت للجهة الأخرى نصف التفاتة وضرب باب الخزانة بيده ضربة

أرجفتها مجددا وتوجه جهة السرير وجلس في طرفه وقد رمى المنشفة

على رأسه يجفف بها شعره بعشوائية وعنف متجاهلا الواقفة هناك وقد

تدحرجت الدمعة الأولى من عينها ، الدموع التي كانت تختار أن تموت

ولا تسكبها أمامه وإن لم يكن هو السبب ، مسحت عينيها بظهر كفها

بقوة حين اضطجع على السرير ولازال موليا ظهره لها وشد اللحاف

السميك على جسده ، سحبت نفسا قويا كي لا تخونها عبرتها حين

" تتحدث رغم أن صوتها لم يخرج إلا همسا " مطر

" أطفئي النور "

كانت كلماته الجافة القاسية تلك كفيلة بجعلها تعذل عن أي فكرة

للتحدث معه وسؤاله وعملت بنصيحة عمتها جويرية حين كانت

تقول (اتركي الرجل حتى يهدأ ثم افهمي منه كي لا تكوني متنفسا

لغضبه ذاك) وليست تعلم أن غضبه أخمده لخمسة أيام هناك قبل أن

يرجع لها به لعلمت أنه في أهدأ حالاته ذاك الوقت ، توجهت لملابسه

جمعتها تمسح دموعها الصامتة وكأنه لا وجود لها كحركتها في تلك

الغرفة وأغلقت النور واندست مثله في السرير مولية ظهرها له أيضا

تعزي نفسها بأنه قد يكون مستاءً من أحدهم أو أن أحد المقربين له

مريض أو مات وقد لا تكون هي السبب فهي متأكدة من أنها لم تفعل

شيئا يغضبه بل متى رأته ليحدث ذلك ؟ تلك الأفكار بدلا من أن تطمئنها

وترتاح وتنام جعلتها تلتفت جهته وقلبها يحثها على التقرب منه وتبديد

ضيقه أو حزنه ذاك ، نظرت بتردد لظهره وكتفه العاري المكشوف من

الغطاء ولتنفسه الذي لم يدل على أنه نام ، نقلت نظرها لشعره الأسود

ورغم الإضاءة الخفيفة في الغرفة كانت ترى كل تفاصيله حتى لمعان

ذاك الشعر الرطب ، رفعت يدها بتردد بطيء حتى شعرت بملمس

بشرته وأناملها تمسح على كتفه نزولا لذراعه فابتعد جالسا ورمى

اللحاف من عليه لترتد يدها وقد ضمتها لصدها تنظر له بصدمة وهو

يقف مغادرا السرير في صمت وحركة عنيفة فخبئت وجهها في الوسادة

بقوة حين ضرب باب الغرفة بعد مغادرته منها ونزلت دموعها مجددا

وقد رافقتها عبرتها التي لم تجاهدها لتخنقها في حنجرتها وقررت

سجنها في برودة تلك الوسادة

*

*

" أمي "

" فتحت عينيها ومسحت على شعره بحنان وقائلة " نعم يا عيني أمك

" ابتسم وقال " وغيهم ما سيكون إن كنت أنا عينيك ؟ لابد أنه أنفك

ضحكت رغما عنها وقال النائم بجانبه بضيق " بل قلبها وابق أنت

" في عينيها

تجاهله ونظر للنائم في حضنها وقال " إذاً هو ليس صحيح أن خالي

" مطر سيقتلنا جميعا في صنوان

تنهدت بيأس من هذا السؤال الذي لا يتوقف عن طرحه مهما طمأنته

وشرحت له فجدته تلك عرفت كيف تزرع هذه الأفكار في عقليهما

الصغيران ، قبلت جبينها وضمته لصدرها قائلة " خالك مطر يحب

جميع من في هذه البلاد يا أبان وحتى الهازان فأنظر كيف يعاملهم

" وضمن لهم الأمان ولا يحارب إلا من أراد الحرب

" قال غيهم هذه المرة " وإن أرادت صنوان الحرب هل سيحاربهم ؟

أغمضت عينيها بقوة ، تكره هذا السؤال والجواب عليه لكن لا حل

أمامها سوى إجابتهما كلما سألاه " لن نستبق الأحداث بني وتأكدا

" من أن آخر ما يريده خالكما هو إراقة الدماء لكن ابن راكان أجبره

وتابعت من قبل أن يتحدث أي منهما " هيا ناما ألم يوصيكما والدكما

" بألا تسهرا كثيرا

ضم أبان خصرها بيديه بقوة يدفن نفسه في حضنها وقال بحزن

" اقترب وقت رحيلنا سأشتاق لك أمي لا أريد أن أتركك "

لم تستطع إمساك دمعتها وغيهم يقترب منهما ويحضنها أيضا في

" إحدى مبادراته القليلة قائلا " أجل أمي ليتك تكونين معنا للأبد

ضمتهما بذراعيها بقوة وقالت بعبرة لم تستطع إخفائها " لنطلبها

" من الله يا حبيباي فلا شيء يصعب عليه

*

*

جلست من نومها ما أن سمعت أذان الفجر لكي تصلي كما كانت

علمتها ابنة عم والدها فهي في سن لا يعلمونهم الصلاة في المدرسة

حتى تصبح في الثامنة ، وقد أخبرتها أن أشد صلاتين على المنافقين

صلاة الفجر والعشاء كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام فتعلمت أن

تحرص على أن تؤذيها كلما سمعت الأذان وهي نائمة أو شعرت بإغلاق

عمها لباب المنزل وقت مغادرته للصلاة فتستيقظ من نومها تتوضأ وتصلي

بما أن الموجودة في المنزل لم تراها أدت فرضا في يوم ولا صلت ولا

ركعة وكان ابنها مثلها حتى مات لم يعرف الصلاة ولا في المنزل وهي

رغم صغر سنها كرهت أن تموت مثله أو تكبر مثلها ، اقتربت من الباب

الغرفة ووقفت جانبا ما أن سمعت حديثا في الخارج بين عمها وزوجته

وهو كما يبدوا يتجهز للذهاب للصلاة فهي لم تدرك أول الحديث وكل ما

كانت تسمعه صوت عمها قائلا بضيق " معك حق تقولي هكذا فأنتي لم

تكوني مكاني مساء أمس حين دخلت مجلس شيخ القبيلة بعدما أرسل في

طلبي ووجدت الزعيم مطر جالسا معه هناك لقد كاد غمى عليا ما أن وقع

نظري عليه ولم أستطع قول حرفين على بعضهما وقد ألقى أوامره وغادر

دون حتى أن يسمع تعليقي على ما قال فاحمدي الله أنه لم يقرر أخذ

" ! المال وأستغرب كيف تركه لنا

قالت زوجته بضيق " وما الفائدة والخيار في بقاء كل ذلك

" لتلك الطفلة

استدنت بالجدار ووصلها صوت عمها الجاد " قال إن اختارت في

أي يوم الذهاب لأي من عميها الآخران تذهب بمالها وشيخ القبيلة

سيزورها أسبوعيا ويسألها بنفسه ووحدهما أي أنها إن طاب لها

" المقام معنا لن تطلب ذلك أبدا

علا صوت تلك قائلة بحدة " وأكون خادمة لتلك الفتاة طوال

عمري لتبقى راضية عنا ولا تغادر ؟ "

تأفف زوجها وقال " ما أغباك من امرأة ، ستكون ثمة خادمة تخدمك

أنتي وهي وسنترك هذا المنزل أخيرا لنسكن في آخر أفضل منه بكثير

كل ما عليك فعله معاملتها بأفضل مما كنت عليه أو تجاهلها وإن

رايتها تقف على رأسها لا تسأليها لماذا "

قالت تلك ببرود " الخيار الثاني أفضل ، وماذا إن عاد ذاك

المدعو تيم كنعان "

ضحك بسخرية قائلا " سنرى وقتها ، هذا إن عاد طبعا "

خرجت حينها الواقفة هناك ونظرت لعمها من عند الباب لوجهه

ولرأسه الملفوف بالشاش وليست تعلم كيف فعلتها لكن حديثهما

الأخير كان على قلبها أعظم من أن تتجاهله ، ابتسم عمها ما

أن رآها وقال " ماريه لدي خبر سيعجبك ، سننتقل لمنزل أكبر

" وأجمل من هذا

لم تعلق على ما قال فهي تعلم أنه ليس سوى منزل والديها الذي كان

تحت الوصاية وسيصبح لهما جورا وظلما وتستغرب كيف أن ذاك

الرجل العادل مطر شاهين من يعرف عدله القاصي قبل الداني

" رضي بكل هذا ، همست ونظرها معلق بعمها " أين ذهب تيم ؟

نظر لها بحنق من تفكيرها الذي يراه سطحيا وهو يخبرها أنهم سينتقلون

من هذا المنزل القديم ، قال بضيق " ذهب للجحيم ما علاقتنا نحن به ؟ "

امتلأت عينيها بالدموع فورا فتأفف موبخا نفسه وقال بهدوء " الزعيم

مطر قال أنه لم يراه أحد وما أن يجده سيرجع ليكون معنا هو وعد

" بالبحث عنه

تركتهما وعادت للغرفة وارتمت على الفراش الذي تنام عليه على الأرض

تخفي دموعها في تلك الوسادة ، فهذا كل ما كانت تخشاه أن تفقد تيم أيضا

أن تعيش وحيدة من دون والدته ثم هو ، هي من طلبت منه أن يهرب وهي

من قالت له بأنه قتله وأن عمها مات وأرادت حقا أن يبتعد عن ظلمهم له

لكن قلبها الصغير لم يحتمل فكرة أن لا تراه مجددا أن لا تتحدث معه وأن

لا يلعبا معا في الحديقة ، هي لم تجتز فقدانها لوالدته حتى الآن لتفقده هو

أيضا ... الفقد الذي كان أعظم من فقد ابنة عم والدها تلك رغم أنها كانت

تراها أكثر مما تراه فهي موقنة من أنه أخذ معه كل لون جميل في عالمها

الكئيب ليصبح بلا ألوان وليست تعلم متى ستراه مجددا هذا إن عاد والتقيا

وليست تعلم حتى متى سيدوم هذا الأمان الزائف الذي يمثله مطر شاهين

من قد يأخذه أي شيء بعيدا ويذهب أمانها معه

*

*

جلس متأففا ومرر أصابعه في شعره وبعثره بعنف وعشوائية ، لقد

فاته وقت الفجر ولم يحضا بنوم أسوء من هذا من قبل ، كره عدم

سيطرته على نفسه وهروبه منها ، كره ضعفه وهو من قرر النوم

مكانه وتجاهلها ، وكره أكثر نومه في هذا المكان لتطارده رائحتها

طوال الليل وهو ينام في سريرها في الأسفل وقد ضن أن هذه الغرفة

المهجورة لوقت لن تحمل بقاياها ليكتشف أنه حتى رائحتها عالقة في

كل مكان فيها (هي من اختارت ذلك وأصرت عليه) جملة ضربت

ذكراها صدغيه كالمطرقة بصوت ذاك الرجل وهو يقولها له بكل ثقة

جعلت كل ما كان يفكر فيه يتلاشى كالضباب ، شد على قبضته بقوة

وفكرة أخرى يتقاذفها عقله (هل اختارت الزواج بأحد أبناء شراع

حين علمت أنها ليست من تلك العائلة وبذلك تضمن أنها لن تخرج

من عائلة الزعيم ؟ ولأجل ذلك أيضا لم تعارض زواجه بها فهي

(ربحت أكبر من مخططها السابق ؟؟

وقف متأففا بحنق وهمس مستغفرا الله ومتعوذا من الشيطان الذي

أصبح يتلاعب بأفكاره كالكرة في ملعب خالٍ تماما فلا هو استطاع

أن يجد تفسيرا يصدق به أو يكذب ما قال ذاك ولا يستطيع سؤالها

وإجبارها على الاعتراف ويشعر بيديه مكبلتان تماما عن إيجاد جواب

يريحه ، توجه للباب مبعدا تلك الفكرة من دماغه رغم أنه لا ينكر أنها

انضمت لمجموعة تحليلاته تلك وسيصعب عليه نسيانها ، ما أن خرج

حتى قابله آخر شخص كان يتمنى رؤيته هنا ولم يتوقعه أبدا ليرتجف

جسدها من صدمتها وحيائها وخجلها فالتفتت من فورها

" عائدة أدراجها ليوقفها صوته الحازم " حبيبة

وقفت مكانها تغمض عينيها بشدة تتمتم بالدعاء على نفسها فلم تتوقع

رؤيته هنا وهي من قررت الهرب من مقابلته حتى تنسى ذاك الموقف

والمشهد الذي يعلم أنها رأته لتجد نفسها أمامه الآن ... لا وفي أي هيئة

ومن أين يخرج ؟ ولم يخبرها عقلها أنه في تلك الغرفة لم يكن أحدا معه

أمسكت فمها بيدها تمنع شهقتها من الخروج وحنجرتها تنبؤها بالسوء

فمشهده هكذا لا يلبس سوا بنطلونا قصيرا لأقل من نصف ساقيه فقط

لا شيء معه كان كفيلا بجعل وجهها يتساقط على الأرض لقطع من

الخجل فكيف إن تجمعت كل تلك المصائب معه ، وصلها صوته

الجاد الثقيل المتأثر بنومه " من الذي اتصل بالفندق من هاتف

المنزل ومتى كان ذلك ؟ "

أبعدت يدها عن فمها بصعوبة وحركت شفتيها المرتجفة تقاوم

" ليخرج صوتها " السيدة غسق

غضن جبينه ينظر لقفا الواقفة هناك مستغربا وقال

" متى ذلك ومن كان معها ؟ "

أراحت كفها على صدرها تنظم أنفاسها وقالت " صباح أمس وكنت

" أنا فقط معها وغادرت ما أن فتحت أنت الخط

تحرك من هناك ومر مجتازا لها فلم تجد نفسها إلا هاربة في الجهة

الأخرى بينما تابع هو طريقه حتى وصل السلالم وصعد وفكرة واحدة

تدور في ذهنه (ستكون سمعت صوت تلك المرأة وكلامها بالتأكيد

(!! فكيف لم يظهر ذلك عليها فليست عادتها

فتح باب الغرفة ودخل مغلقا له خلفه ونظر للنائمة مكانها تغطي نفسها

بالغطاء حتى رأسها ولا يظهر منه شيء ، نظر باستغراب للباس الصلاة

الخاص بها وقد تغير مكانه عن البارحة ثم بحث سريعا عن مصحفها

وكان أيضا بالقرب من رأسها عند وسادتها وليس في حاملته على الطاولة

توجه لطاولة التزيين رفع ساعته ونظر للتاريخ فيها يتأكد منه ثم رماها

عليها مجددا ونظر للتي لازالت منكمشة على نفسها تحت ذاك الغطاء

السميك ومرر أصابعه في شعره وعقله يحسب ذاك اليوم في مثل هذا

من ذلك الشهر حين عاد من الحدود مصابا وكانت لا تصلي ، نزل بيده

وأصابعه عبر شعره الكثيف لعنقه حتى نزل بها لصدره وهمس ممررا

" ! لها عليه ونظره لم يفارق تلك " حامل يا غسق

اقترب منها بخطوات سريعة حتى جلس في طرف السرير قرب خصرها

ومد يده لجهتها الأخرى منحن فوق جسدها الذي تنبعث منه رائحتها التي

تميزها عن الجميع ، استند بساعده مقتربا منها حتى شعر بأنفاسه تخترق

ذاك الغطاء الذي تختبئ تحته وأصبح يسمع أنفاسها القوية الغير

منتظمة

وسرعان ما ابتعد ووقف مجددا وتوجه للحمام وما أن أغلق الباب خلفه

انسحب الغطاء عن رأس تلك النائمة هناك التي لم يغب عنه أنها كانت

مستيقظة ولم يغب عنها اقترابه وجلوسه بجانبها حتى أنها شعرت به وهو

يوشك على احتضان جسدها ودفن رأسه في صدرها ومن ثم تراجعه

السريع مبتعدا ، سحبت المصحف جهتها وضمته لصدرها بقوة وبكت

لا تعلم ماذا ولماذا وما هذه الدموع التي لم تعرفها سابقا وتعجز عن إيقافها

الآن ! كل ما تعرفه أن كل ما كانت تخشاه أصبح يحدث الآن وأصبحت

تفقده شيئا فشيئا وإن جهلت السبب ، غادرت السرير وفي نيتها الخروج

من الغرفة قبل خروجه من الحمام لكنها فوجئت به يفتح الباب ويخرج

فهربت من النظر له وتوجهت للخزانة فتحتها وانشغلت بإخراج ثوب

طويل تلبسه بينما جميع حواسها كانت تتبعه من خروجه متمتما بالتشهد

يمسح ساعديه بالمنشفة لوصوله لسجادتها فعضت طرف شفتها توبخ نفسها

على أنها لم تبحث عنه وتتأكد من استيقاظه للصلاة وهي من تعلم وأخبرها

سابقا أنه حين ينام متعبا إن لم يوقظه أحد يفوته الفجر غالبا ولا يستيقظ على

الأذان ، نظرت له من خلف باب الخزانة وكان يقف على السجادة وقد رفع

يديه مكبرا فنزعت قميصها ذاك بسرعة لتلبس الفستان وجمدت مكانها والقميص

في يدها حين بدأ بتلاوة سورة الفاتحة وملأ الغرفة الساكنة صوت تجويده بذاك

الصوت الجهوري الفخم تشوبه تلك البحة المميزة يتلو الآيات بتأن وإتقان وصوت

لم تسمعه من قبل ، رمت القميص من يدها ولبست الفستان سريعا تحمد الله أنه

يصلي لما كانت ضمنت نفسها وما قد تفعل إن فعلتها واقتربت منه كما يطلب

قلبها الغبي الآن ، أغلقت الخزانة وجمعت الثياب وخرجت من الغرفة قبل أن

ينهي صلاته وليست تعلم ما يحدث معها ! لماذا لا تسيطر على مشاعرها

اتجاهه رغم نفوره الواضح والغير مبرر منها ؟ نزلت السلالم تلف حجابها

فهي تلبسه منذ جاء ابني جوزاء فهما تجاوزا العاشرة ، سلمت الثياب لحفصة

وتوجهت جهة غرفة الطعام حيث تسمع أصواتهم هناك فقد أصبحت عادة

العائلة الإفطار هذا الوقت منذ استخدموا تلك الغرفة لأنه وقت إفطار عمتها

من أجل علاجها والجميع يكون مستيقظا حتى ابنا جوزاء معتادان على ذلك

دخلت الغرفة فضحك أبان وقال مشيرا عليها من قبل أن تتحدث

" أرأيت أمي لم تتناول الفطور معه في الغرفة بل معنا "

توجهت ناحيتهم مبتسمة وسحبت الكرسي وجلست فما لا يعلموه أنها كانت

تنوي الهرب منهم ومنه ومن كل شيء متظاهرة بالنوم ثم لم تجد مفرا سوى

بالهرب منه لهم ، سحبت طبق التمر من أمام عمتها فهو يوضع لها خصيصا

مع الحليب لانخفاض السكر فقالت تلك ضاحكة " ما بك مع طبقي بتي كل

" يوم تسرقيه مني ؟

قالت مبتسمة وهي ترفع إحدى حباته اللامعة " لا أعلم لما يسرق نظري

" هو تحديدا ولا أشبع منه

قال أبان من فوره مبتسما " والدي يملك عشر نخلات ستأتي إذا للعيش

" معنا والأكل منها

" ضحكت جوزاء وقالت " يقدم لك جميع المغريات لتذهبي

" صباح الخير "

كادت تغص بحبة التمر التي أكلتها للتو ما أن سمعت صوته من خلفها

من لم تتوقع أن ينضم لهم لتناول الفطور ولا أي وجبة ! خاصة وأنها

هي من وضع ذاك القانون وإن كان رحب به الجميع فهي تعلم أنه لم

يعتد عليه ولا يهتم لتلك الأمور ، رفعت كوب الماء وشربت منه لتدفع

ما علق في حلقها ووضعت الكوب لحظة جلوسه مكانه السابق وكان

بجانبها فلا مكان شاغر غيره فجوزاء وابنيها يأخذان الطرق الآخر من

تلك الطاولة وحمدت الله أنه لم يختر الكرسي الذي يلي الكرسي بجانبها

وجعل منهما موضع شبهة اليوم أيضا رغم أن جمود ملامحه ووجومها

هي وشرودها هربا من النظر له كان يوضح ما بينهما دون عناء تفكير

كانت جوزاء تقنع ابنها بشرب المزيد من الحليب وهو يرفض بينما

عمتها انشغلت مع غيهم تسأله عن أمور دراسته فهو كعادته يلوذ

بالصمت وهم يحاولون حثه على الحديث بسؤاله عن أي شيء ولم

يبقى للصمت سواها والجالس بجانبها فشغلت نفسها بحبة تمر أخرى

تنزع النوى منها فلم تشعر بها إلا وقد اختفت من بين أصابعها بسبب

اليد التي امتدت لها ورمتها في الصحن ثم دفعه بعيدا عنها هامسا ببرود

" توقفي عن تناول المزيد منه "

أنزلت يديها لحجرها وقبضتهما ببعض بقوة تقاوم الرغبة الغبية في البكاء

بسبب أسلوبه وطريقة كلامه ولا تفهم ما المانع في أكله ! حمدت الله سرا

أنه لم ينتبه أيا منهم لما حدث بينما عاد هو للأكل وكأن شيء لم يحدث

فمدت يدها لإبريق الشاي ، سكبت في الكوب حتى امتلأ ولم تشعر به

فوضعت الإبريق ورفعته لشفتيها ببطء فلا رغبة لها في شربه ولا تعلم

لما سكبته أساسا فهي لا تفضل شربه كثيرا ويبدوا أنها لم تجد غيره

تشغل به نفسها كي لا تنفجر باكية ، ارتجف جسدها بقوة حين أمسك

بالكوب ولامست أصابعه أصابعها وسحبه منها قائلا بضيق " ألست

تعلمي ما في هذا الشاي ووصلتك رائحته أم تجهلين وضعك ؟ "

ووضعه على الطاولة بقوة تناثرت معها قطرات كثيرة منه وأصبحا

مرمى لنظرات من حولهم مستغربين ما يجري فوقفت وغادرت المكان

راكضة فلم تعد تتحمل معاملته لها بهذا الشكل أمامهم أكثر من ذلك

وليست تفهم ما الخطأ فيما تفعل ؟ تبادلتا جوزاء وعمتها النظرات

مبتسمتين ثم نظرتا للجالس أمامهما ينظر للخلف حيث اختفت التي

غادرت للتو وما أن نظر أمامه وجد تلك النظرات مسلطة عليه

وقالت عمته مبتسمة " ما أسعده من خبر يا مطر ، مبارك

لكما بني "

نظر للطعام تحته وهمس ببرود " باركك الله عمتي ولتنتبه لنفسها

" أراها مهملة جدا

قالت جوزاء مبتسمة " ليس كل ما يقال عنه يضر فأنا سبق وجربت

بنفسي "

" وقف وقال مغادرا " وإن يكن فهو شهرها الأول

وما أن خرج حتى انفجرت جوزاء ضاحكة وكأنها تكتم تلك الضحكة

" منذ دخل وقالت عمتها مبتسمة " أعانها الله عليه

قالت جوزاء وضحكها لم ينتهي بعد " لا أصدق أن من كان أمامي مطر

" لا غيره ! كاد يلقي عليها محاضرة عما لا يصح أكله أمامنا

لم تستطع نصيرة إمساك ضحكتها وقال أبان ناظرا لهما يشاركه

" غيهم تلك النظرات المستغربة " ما بكما ؟ وما بها غسق ؟

نظرت له والدته وقالت تكتم ضحكتها " عروسك شبيهة زوجة خالك

قد تكون في طريقها إلينا أو شقيقها الذي قد يقتلع عينيك قبل أن

يزوجك بها "

نظر لها بعدم فهم فصفقت يديها قائلة " هيا أغسلا أيديكما وأجدكما

" في الغرفة

خرجا من فورهما يتحدثان مع بعضهما وقالت مبتسمة " وما بهما

" ! مستعجلان هكذا ؟ كلها شهران وحملت

نظرت نصيرة جهة الباب وقالت بشرود " فرحتي بذلك لا تضاهى

" لكني أشم رائحة شيء غريب بينهما ! هل لاحظته معي ؟

قالت تلك مستغربة " شعرت بذلك منذ عاد بالأمس لكني خمنت

أنه بسبب سفره أو أي أمر خارج هذا المنزل ، لا أضن أن ثمة

" ما سيزعجه منها وهو كان مسافرا

" همست عمتها متراجعة بكرسيها للخلف " أتمنى ذلك

*

*

مررت يدها على أسفل بطنها تجلس على السرير في غرفتها مولية

ظهرها للباب تفكر فيما قاله ... حامل !! هل هي حامل حقا ؟ وهل

يلاحظ هو ذلك قبلها وكأنه ينمو بداخله وليس بداخلها ؟ فكرت في أي

أيام من الشهر الهجري هم الآن وأدركت فورا أنه منتصف الشهر من

اكتمال القمر ليلة البارحة أي أنه مر أربعة أيام على موعد دورتها

الشهرية وهي غائبة تماما لكن الذي لم تفهمه كيف علم هو إن كان لا

يعلم أساسا موعدها والأوقات التي كان فيها موجودا وقريبا منها حد

النفس الواحد كانت بعيدة عن موعدها ذاك ! تحسست أسفل بطنها مجددا

وعضت طرف شفتها مغمضة عينيها وابتسامة نقية ارتسمت على تلك

الشفتين فلم تصدق حتى الآن أن طفلها منه ينمو في داخلها وأنها هنا تحمل

ثمرة كل ما جمعهما في هذا المكان ... طفل ! طفل لها هي وهو والده !!!

شعور لم تعرف تفسيره ولم تفهمه وليست تعلم سوى أنه تغلب على كل

تعاستها اليوم وعلى جميع الدموع التي سكبتها ، أنزلت رأسها ونظرت

حيث لازالت أصابعها تتحرك بنعومة فوق ذاك الجزء من جسدها

وهمست مبتسمة " لم أشعر بك بني هل تصدق ! علم عنك والدك

" قبلي لكني وحدي من سأشعر بك من الآن فصاعدا

ماتت ابتسامتها فجأة وقبضت على فستانها بقوة حين انفتح باب الغرفة

وانغلق وشعرت بخطواته خلفها لتعود تلك المشاعر تصارعها مجددا

وكانت تمسك نفسها بصعوبة عن الالتفات له والاكتفاء وإن بالنظر لوجهه

ولحركته وتصرفاته وإن كان غاضبا ورافضا لها ، لم تكن لتتمنى أبدا أن

يكون أمر حملها عاديا بالنسبة لهما وكأن شيئا لم يكن ، لم تكن تتوقع منه

الكثير لكن ليس هذا ، تمنت أن عبّر عن سعادته بالأمر وإن بقبلة

صغيرة

بخيلة لخدها وهو يبارك لها على ما أكرمهما الله به فلم يكن يبخل عليها

بالقبلات سابقا ، وبقدر ما تمنت كل ذلك أرادت الآن أن لا يقترب منها

فهي لن تضمن نفسها وما قد تفعل وهو ينفر منها بهذا الشكل ولا تريد

لعباراته القاتلة أن تكرر على مسمعها مجددا لن تحتمل ذلك منه أكثر ولا

تريد أن تنهار أمام لأن هذا ما سيحدث حينها ، أغمضت عينيها بقوة حين

خرج ضاربا الباب خلفه وفي صمته الذي دخل به ، مررت يدها في غرتها

رافعة لها للأعلى وقد لمعت عينيها السوداء الواسعة بدموع قهرها وحسرها

الحبيسة وهمست بأسى " ليتك تترك عنك التعبير بضرب الأبواب

وتتحدث وترحمني يا مطر ، لأعلم ما يكون هذا الجرم الذي

اقترفته يجعلك هكذا ؟ "

ارتمت على السرير بجانبها وخبئت وجهها فيه تقبض على ملاءته بقوة

ونزلت دموعها مجددا ، الدموع التي تودعه بها في كل مرة ، الدموع

. التي تغسل بها قسوته لتعود وتتوق له بلهفة ما أن تراه مجددا

ليست تعلم كم مر عليها من وقت وهي في تلك الحال حتى أخرجها مما

هي فيه صوت طرقات على باب الغرفة وصوت أبان يناديها فجلست

تمسح عينيها بقوة ووقفت وتوجهت للباب تلف حجابها على شعرها

وما أن فتحت له حتى قال مغادرا يركض عبر الممر

" جدة نصيرة تريدك في الأسفل "

واختفى خلف السلالم من قبل حتى أن تتحدث أو يعطيها فرصة لتسأل

دخلت الغرفة مجددا وتوجهت للحمام غسلت وجهها عدة مرت وجففته

بالمنشفة عل أثر الدموع يخف ولو قليلا عن عينيها المنهكة ، وما أن

نظرت للمرآة حتى اكتشفت أنها عبثا تحاول وأن منظر عينيها كان مريعا

فهي بكت لوقت طويل لم تحاول فيه ولا إجبار نفسها على التوقف ، عادت

للف حجابها مجددا وغادرت الغرفة ونزلت لها فلن تستطيع التهرب منها

فلم يسمح لها أبان بقول أي عذر تتهرب به بل لو رأى هو وجهها وعينيها

لكان الخبر وصلهم من قبل أن تنزل ، وصلت للأسفل وسمعت أصوات جوزاء

وابنيها جهة باب المنزل المفتوح أي أنهم في الخارج فحمدت الله أنهم هناك

على الأقل تواجه عمتها فقط بذاك الوجه المنهك من كثرة البكاء ، طرقت باب

غرفتها ما أن وصلته ثم فتحته ودخلت ملقية السلام هامسة تنظر للأسفل هربا

من عينيها فمدت تلك يديها لها وقالت مبتسمة " تعالي يا غسق لأبارك لك

" بنيتي ، ما أسعده من يوم يومي هذا ومن صباحه

توجهت نحوها حيث تجلس في سريرها وارتمت في حضنها تجاهد نفسها

كي لا تبكي مجددا ومسحت عمتها على رأسها قائلة بسعادة " هكذا إذا

" تخبئين الخبر عنا حتى يسمعه هو أولا ؟

دست وجهها في حضنها وقالت ببحة " لا ليس كذلك عمتي فأنا أيضا

" علمت اليوم

أبعدتها عنها مستغربة ونظرت لوجهها لتشهق بصدمة وقالت بقلق

" غسق ما به ووجهك هكذا ! هل كنت تبكي ؟ "

أرخت نظرها منزلة رأسها للأسفل ولم تتحدث فقالت تحثها بإصرار

" غسق هل تشاجرتما ؟ هل قال شيئا أغضبك "

هزت رأسها بلا وقالت وقد غلبتها عبرتها " لم نتشاجر ولست أفهم

" ما به عمتي وما يغضبه

ضمتها لحضنها مجددا حين نزلت دموعها وعادت للبكاء وكأنها لم

تبكي كل ذاك الوقت ، ضمتها لها أكثر وقالت بتوجس " كيف لا

" تعلمين ما به يا غسق ! هل سيغضب بدون سبب ؟

ابتعدت عنها تمسح خديها وقالت من بين عبراتها المتلاحقة " أقسم لست

أعلم عمتي ! حين عاد كان يرفض الحديث معي ولا حتى النظر لي

وسألته ولم يجب ، لو أخبرني عن جريمتي لكان أراحني من التفكير

" فيها على الأقل

مسحت تلك على خدها المحتقن من بكائها وقالت " هوني عليك بنيتي

ولا تنسي أنك حامل وهذا سيضرك وسيغضب منك حينها أكثر

" فقد أوصى بنفسه أن تعتني بنفسك

لم تزدها تلك الكلمات إلا بكاءً وهي تسمع عن اهتمامه بها وبطفله

من غيره بينما بخل عليها بكلمة واحدة ، تنهدت للجالسة أمامها

" متمتمة " لا حول ولا قوة إلا بالله

ثم قالت بهدوء " يكفي يا غسق فالبكاء لم يكن يوما حلا ولم تكوني

" هكذا سابقا

عادت لمحاولة مسح دموعها تمسك عبراتها لعل بكائها يخف قليلا

ووصلها صوت عمتها الحنون الهادئ قائلة " عليك سؤاله وفهم الأمر منه

يا غسق فلا يوجد شخص لا يخطئ ثم يكون عليه الاعتذار عن خطئه

والرجل مهما غضب من زوجته سيسامحها وينسى كل شيء إن علمت

كيف تكفر عن خطئها وتعتذر عنه فلا كرامة بين الزوجين يا غسق وستري

بنفسك كيف ستتغير الأمور ما أن يشعر بأن رضاه عنك يعنيك وأنتي

" أعلم في تلك الأمور وما الذي يرضي زوجك وما يغضبه

هزت رأسها بحسنا ولازالت تنظر للأسفل وتمسح عينيها وهمست ببحة

" سأفعل ذلك عمتي "

وهو ما رأته عين الصواب فعليه إخبارها وعليها أن تعلم ما يغضبه منها

شدتها تلك لحضنها مجددا لتتكئ على كتفها وقالت ماسحة على ذراعها

بحنان تحاول تغيير مزاجها " أخبريني الآن ما الذي تشتهينه

" طوال الوقت فتلك عادة الحوامل

" وتابعت بضحكة " عدى طبق التمر الخاص بي كل صباح طبعا

ارتسمت ابتسامة على شفتيها وإن كانت باهتة حزينة وهمست وقد خبأت

وجهها في حضن عمتها الدافئ " لا شيء سوى رؤية والده طوال

" الوقت والبكاء لأبسط الأسباب

عادت نصيرة للضحك وقبلت رأسها قائلة " إذاً وحمك عليه هو فأعانه

" الله وأعانك

فدست وجهها في حضنها أكثر وكانت هذه أكثر مرة لم تشبع فيها من

حضنها وحنانها ، وجدت فيه والدتها التي لا تذكر حضنها ووالدها

الذي لم تعرفه يوما ويئست من معرفته ، وحتى والدها الذي رباها بل

وحضن عمتها جويرية الذي لطالما نامت فيه وأشعرها بالدفء والحنان

شعرت بنفسها تهرب من كل شيء باللجوء له حتى من قسوة ذاك عليها

فرفضت تركه وأصابع عمتها تمسح على شعرها بحنان تحدثها عن كل

تلك الأمور التي لطالما عشقت سماعها منها وزرعت الابتسامة على

شفتيها الحزينة بل وضحكت كم مرة وإن كانت ضحكة صغيرة تغلبت

على بؤسها بالقوة وقد نجحت في جعلها تشاركها حديثها وإن بكلمات

بسيطة ولم تملا كليهما لا التي تتكئ على كتفها ولا التي تمسح على

ذاك الشعر الحريري بحنان وتتحدث بحب دون كلل ليقطع كل تلك

اللحظات الحانية صوت الطرقات الخفيفة على الباب فابتعدت عنها

وأعادت لف حجابها لحظة ما انفتح الباب بعدما أذنت تلك له ودخل

صقر مبتسما ومقتربا نحوهما ، صبّح على شقيقته وقبل رأسها

يسألها عن صحتها ثم نظر للجالسة على الطرف الآخر للسرير

" وقال مبتسما " وكيف حال عروسنا ؟

" ابتسمت هامسة له " بخير عمي شكرا لك

" وضحكت نصيرة قائلة " عروس بعد كل هذه الأشهر ؟

قال مبتسما وهو يجلس على الكرسي قرب السرير

" هي عروس ما لم تنجب أبناء "

نظرت لها عمته مبتسمة فعضت طرف شفتها تهددها وقد احمرت

خداها خجلا وأنقدها وقتها الباب الذي انفتح دون طرق واندفع منه

أبان راكضا حتى وصل عندها وسحبها من يدها قائلا بحماس

" تعالي هيا بسرعة "

وخرج بها لا تكاد تجاري خطواته الراكضة ولم يترك لها فرصة

ولا لتسأله أين سيأخذها حتى وجدت نفسها خارج المنزل ولازال

" يسحبها قائلا " تعالي لتسمحي لي بتجربته

ووقفت مكانها متسمرة حين رأت الواقف هناك مع غيهم وجوزاء ، بل

ما راعها في ذاك المنظر هو الحصان الذي يمسك بحبل لجامه ، علا

تنفسها تدريجيا حتى كاد يتحول لشهقات وهي تنظر لتفاصيله ... هو ذاك

الحصان لن تخطئه أبدا ذات اللون وبياض ساقه اليمنى الخلفية ولجامه

والابيضاض في نهاية شعر ذيله ، عادت بها كل تلك الذكرى وعصفت

بمشاعرها كأمواج عالية تضرب بقوة ودون رحمة ، تذكرت دخولها

للحالك وتركها لصنوان خلفها للأبد وهي من ضنت أنها سترجع لها

في غضون ساعات ، تذكرت جبران وجليلة وجدتها ووالدها والكاسر

ورعد ورماح بل وحتى الحقول التي مرت بها وذاك العجوز يناديها

لترجع ، ملأت الدموع عينيها وغصت العبرة في حلقها والذكرى تأخذها

لمطاردتهم لها والرصاصة التي أصابتها ورمي الحصان لها من على

ظهره لتعلق في هذا المكان للأبد ولتعرف ذاك الرجل الذي بدأ بسلبها كل

شيء تدريجيا منذ وقعت في قبضته ابتداءً بحريتها حين جلبها هنا وسجنها

في منزله وانتهاءً بجسدها الذي أصبح يشاركها فيه ابنه ، لم تفهم سبب

وجود هذا الجواد هنا ولا وجودها هي أيضا ! نقلت نظرها منه للواقفين

حوله لجوزاء وابنيها الناظرين لها ليستقر على الواقف يمسك حبل اللجام

تلعب أصابعه بشعر ذاك الجواد ونظره عليه ووحده من يتجنب النظر

جهتها لتزداد غصة الألم داخلها وهي تشعر بكل ذاك الكم من النبذ

وهي من باتت تراه وحده بقرب ذاك الكائن الرائع في كل تلك الصورة

ووحده من يليق به الوقوف قرب ذاك الجمال العربي الأصيل ليكمله

أبعدت نظرها عنه مشيحة بوجهها فلتمنع نفسها عن النظر بلهفة له

وإن بالقوة ولتجبر نفسها خيرا من أن تكسرها ، اقترب منها أبان

مجددا وسحبها من يدها جهتهم قائلا " هل ستسمحين لي بركوبه

" يا غسق ؟

وقفت عن الحركة تماما تنظر له بصدمة وقد أصبحت على بعد

" خطوات قليلة جدا منهم وقالت مستغربة " ولما سأسمح أنا لك ؟

" تحرك جهته يمسك بالحبل مع خاله قائلا " لأنه لك طبعا

نظرت من فورها للواقف بجانبه ووجدته هذه المرة ينظر لها وكأنه

يختبر ردة فعلها فقالت بشبه همس وعينيها في عينيه " لكنه ليس

" لي هو ملك لصاحبته وعليه أن يرجع لها فهي لا تملك غيره

أبعد حينها نظره عنها ونظر لأصابعه التي لازالت تلعب بشعر

عنقه وقال بجمود " صاحبته تلقت ضعف ثمنه وبرضا منها

" ولم يعد ملكا لها

زمت شفتيها تنظر له بأسى وكرهت عدم قدرتها وقتها على التحدث

والتعبير عما يخالج نفسها ولم تفهم أيقصد بهذا تذكيرها بما حدث

أم ماذا وهو من يرفض حتى النظر لوجهها ليحضره اليوم ويخبرهم

" أنه لها ؟ همست تنظر لجانب وجهه " إذاً هو لك أنا لا أريده أكرهه

نظر لها بسرعة نظرة لم تفهمها شعرت بها اخترقتها كسهم من نار

قبل أن تدرك أن المعنى الذي وصله منها أنها تكرهها لأنها سبب وجودها

هنا ، كانت حاستها السادسة تستشعر انفجارا وشيكا لشفتيه القاسية الغاضبة

تلك ليحولها أمامهم لأقل من ذبابة تطير حولهم لولا انتقل نظر الجميع

هناك للخطوات المقتربة من خلفها وصوت عمها صقر قائلا بضحكة

" إذا صاحبة الهدية آخر من رآها "

نظرت له بصدمة وهو يمر من جانبها قائلا ونظره على ابن شقيقه

" كنت أتسأل عن سبب جلبك له اليوم لكن الآن فهمت "

واقترب منه ونظراتها لازالت تتبعه فاغرة فاها الصغير الممتلئ حتى

وصل عنده وربت على كتفه وهمس له بجانب أذنه بصوت كان

" يعلم بأنه سيصل الجميع لقربهم منهما " مبارك يا زعيم الحالك

لتظهر أول ابتسامة على طرف شفتي الناظر للأرض ويد عمه لازالت

ترتاح على كتفه وأبعدت هي نظرها منزلة رأسها للأسفل وعضت شفتها

بقوة من الإحراج المتكرر ، إحراج اختلط بشعور قاسي بالألم لسعادة

الجميع ومشاركتهم بهذا الخبر وهما لما يتشاركا فيه ، بارك الجميع له

بينما هو لم يبارك لها بل حتى أمر حملها لم تعلمه إلا منه وبطريقة قاسية

وأمامهم ، تمنت لحظتها أن ابتعدت عن كل شيء هناك أن رماها الزمن

في بعد مغلق لوحدها تبكي فيه وحيدة وبعيدة عن الأعين ، أن تعبر عن

رفضها واستيائها وجميع رغباتها المكبوتة ، رفعت يدها مرتجفة لعنقها

وفكت حجابها قليلا من حوله لشعورها القوي بالاختناق والهواء بات

يدخل لرئتيها بصعوبة ، غادر عمها وغيهم يتبعه يتحدثان معا عن وعد

ما قطعه له ورفعت هي نظرها وعينيها الممتلئة بالدموع تلمع بوهج أسود

قاتم لتقع على العينان التي تماثلها سوادا وجمالا تحدق بها بنظرة لازالت

فارغة خالية من أي تعبير ليست كما عرفتها سابقا أبدا ، أبعدت هي نظرها

هذه المرة تكابد تلك الدموع كي لا يطعنها بسكين تجاهله لها مجددا ونظرت

لأبان الذي كان يشد حبل اللجام حتى دار وجه الجواد ليقع نظرها على المنديل

الصغير المربوط في لجامه ولم تتخيل أن يكون لازال موجودا به حتى الآن

وكانت تلك هي الضربة الأكثر إيلاما لقلبها ونقطة ألا عودة لذرف تلك

الدموع التي تساقطت تباعا وقد أمسكت فمها بيدها تمسك العبرات التي

غلبتها تشهق فيها كالغريق لتتجه الأنظار لها فورا ونظرها لازال على

ذاك المنديل ودموعها تجري على وجنتيها دون توقف وتلك العبرات

تتحول لأنين وسط نشيجها الباكي وقبل أن يستوعب أي منهم ما يحدث

معها اقتربت بسرعة وسحبت ذاك المنديل ودفنت فيه شفتيها رأسها تكتم

بكائها الموجع فيه وقبل أن تتحرك جوزاء ناحيتها لأنها كانت في الطرف

الآخر سبقتها خطوات الواقف جهتها ومد يده قائلا وهو يحاول

" سحبه منها " لمن هذا المنديل يا غسق ؟

كانت تمسك به بقوة متجاهلة نبرة الاتهام القاسية في كلماته والواقفة

هناك تنظر له بصدمة ثم لها تريد الصراخ به ليتريث وهو يرى حالتها

هكذا لكنها لازالت تخشاه وتعلم ما يكون غضب شقيقها جيدا وتلك ترفض

" تركه من بين أصابعها رغم شده له وكلماته العنيفة " لمن تكلمي ؟

شدته منه بقوة جعلت حجابها ينزل حتى كتفيها لازالت تنزل رأسها للأسفل

ودفنته في صدرها قائلة بعبرة وسط بكائها " للكاسر ... أقسم أنه

لشقيقي

" الذي لن تعوضني الحياة عنه بشقيق

كانت عبارتها تلك ما كسر كل ذاك الجو المتوتر المشحون فنزلت دمعة

جوزاء ومسحتها بكفها سريعا أما الواقف أمامها ودون شعور منه أمسك

بذراعها وسحبها لحضنه وطوقها بذراعيه ، لم يفهم هل بسبب فهمه

الخاطئ واتهامه أم بسبب بكائها الموجع الذي جعلته نيران غيرته من

ذاك يتجاهله منذ البداية وإن مكرها !! دفنها في صدره أكثر يخبئ عبراتها

فيه وهي لا تزداد إلا خروجا وبوجع ، طوقها أكثر بذراعيه مخبأ وجهه

في شعرها متجاهلا كل ما في نفسه اتجاهها تلك اللحظة لأنه يعلم كم هي

ضعيفة وهشة وقتها وكم تحتاج لمن يسندها وهي ترى نفسها غريبة في

ذاك المكان فهو من بات يفهمها أكثر من غيره ، تحركت جوزاء حينها

ساحبة ابنها معها وإن مكرها تهمس له من بين أسنانها بضيق أنهما

سيرجعان لاحقا حتى غابت عن ذاك المكان تاركة صوت ذاك البكاء

الرقيق يتلاشى خلفها وتلك الذراعان تزيدان من دس ذاك الجسد في

تلك الأضلع وكأنه يبالي أساسا بوجودهما ومغادرتهما ، مسح بكفه على

ظهرها وقبل شعرها وهمس بخفوت " يكفي بكاء يا غسق سوف أبعده

عن هنا إن كنت لا تريدين رؤيته "

تمسكت بحضنه أكثر ويدها تقبض على قميصه بقوة ولم يخف بكائها شيئا

فكل ما كان يعنيها حينها أمان حضنه ودفئه والشعور به بعد كل ذاك النفور

منه ولهفتها عليه ، كانت كتائه وجد وطنه أخيرا وشعرت وكأنها لأول مرة

تختبر حضنه وقربه ورائحته فهو من كان يمثل بالنسبة لها كل ما فقدته في

عالمها ... هو والديها اللذان لم تراهما وشقيقها الذي فارقها باكرا بل ووطنها

الذي تغربت فيه فكم شعرت بالوحدة والغربة منذ شعرت بابتعاده وهو قربها

وبأنها تفقده أيضا من عالمها ، بقيت سجينة ذاك الحضن حتى خف بكائها

تدريجيا فسار بها جهة المنزل يحضن كتفيها بذراعه ويدفن وجهها في كتفه

بيده الأخرى لازالت لا تتحكم في شهقاتها التي تخرج متقطعة بسبب بكائها

ذاك ، سار بها في صمت لم تستطع قراءته وكلما رفعت رأسها ونظرت

لوجهه كان ينظر لوجهتهما وملامحه عادت تتمسك بجمودها الذي لم يعد

يخيفها شيء مثله ، دخلا المنزل ووصلا السلالم فعادت دموعها لملئ

مقلتيها المحدقة به ولم تفهم سبب تقلبه هكذا ! نظر لها ما أن كانا

أمام عتباته وفي لحظة رفعها بين ذراعيه وصعد بها السلالم

" ....فتمسكت بعنقه تدس وجهها فيه وهمست بأسى " مطر أ

" .... أششششش "

همسة خافتة منه بتلك الكلمة جعلتها تعذل عما كانت تود قوله وشدت

ذراعيها على عنقه أكثر تخفي دمعتها فيه حتى أوصلها الغرفة وأنزلها

على السرير برفق وتركت ذراعها عنقه ببطء ونظرها على وجهها ونظره

البعيد عنها وتنفسها المضطرب يلفح قسمات وجهه وعلق نظرها عليه

وهو يبتعد جهة الباب بخطواته الثابتة الواسعة وكأنه يهرب من كل شيء

هناك حتى اختفى خلفه مغلقا له تتبعه دمعتها العالقة من وقت في

" رموشها وهمست بحرقة " تحدث يا مطر أرجوك وارحمني

*

*

راقبت ابنها الخارج من الباب راكضا ثم نظرت لعمتها التي قالت

" ضاحكة " لو تركته غادر من البداية لما تسجنينه هنا ؟

قالت جوزاء بضيق " أردت أن ندخل ونترك مطر وزوجته وحدهما

" لكنه ما أن رأى ذاك الجواد حتى جن والتصق به

تنهدت عمتها وقالت بقلق " ليجبر الله كسرهما كانا لا أروع منهما

" لا أعلم ما قلب حاله فجأة ؟

" نظرت لها جوزاء وقالت " هل سألتها وتحدثت معها ؟

هزت رأسها بنعم وقالت بهدوء " ولم أخرج بنتيجة وترفض أن أتحدث

معه ومعها حق فقد يلقي باللوم عليها ، لا أعلم ما يمنع الرجال حين

" يغضبون من المرأة أن يخبروها أن ذاك وذاك ما أغضبهم ؟

تذكرت الجالسة بجانبها ما حدث أمامها منذ قليل وقالت مبتسمة " لا

أعتقد أن غضبه سيطول ، لقد وقع ابن والدي وظهر ما يجعله

" ضعيفا أمام نفسه وما لم يعلمه والدي كيف يقتله في داخله

هزت تلك رأسها بموافقة وهمست " كان الله في عونها عليه فبقدر

" مميزاته الكثيرة عيوبه شديدة

" ثم نظرت لابنة شقيقها وقالت " هل سيأخذ عمك ابنيك اليوم ؟

نظرت جوزاء ليديها في حجرها وماتت ابتسامتها وقالت بحزن

أجل ... لم أشعر أنها سبعة أيام مرت على وجدهما معي وما "

" يعزيني أني سأراهما بعد أقل من شهرين

تنهدت عمتها متمتمة " جمع الله شملكم يا ابنتي لترجعوا عائلة

" كما كنتم سابقا

أبعدت وجهها عن نظراتها وهمست بصوت كسير " لأجتمع أنا وابناي

" هذا يكفيني والدهم فقدت الأمل فيه من يوم خرجت من منزله

قالت تلك من فورها " ولما وهو لم يفقده بدليل أنه لم يتزوج حتى

" الآن وزرع حبه لك في ابنيه

وقف وقالت وظهرها لها " ليس لأنه لم يتزوج سأعلق آمال عليه

" ثم أنفجع في واقع مختلف ، يكفيني ما رأيت كل حياتي

وغادرت من فورها تحت النظرات الحزينة لعمتها وقد همست ما أن

خرجت وأغلقت الباب " معك حق يا ابنتي لا تعلقي أملا على شيء

قد لا تحصلين عليه لكني أجزم أن قلبك يقول غير ذلك ولولا

" الأمل لمات الناس

*

*

كان جالسا على السرير يحضن ساقيه ينظر للذي يلبس قميصه ويغلق

أزراره واقفا عند الخزانة الحديدة المفتوحة فنظر له ذاك وقال مبتسما

" وقد عاد بنظره لما تفعل أصابعه " أرى الوضع هنا لم يعجبك

أنزل نظره للأسفل وقال ببرود " وهل لي أن أعترض أو أختار ؟

ثم ما الفرق بينه وبين مقر حجور ؟ بل هو أفضل من العيش

مع ذاك الرجل المدعو قيس وزوجته "

نظر له عمير وقال وهو يدس قميصه في بنطلونه " أشعر أنه ثمة

كلام في خاطرك لم تخبر به فلما لم تقل كل ما يزعجك الآن أمام

الزعيم مطر ؟ "

أشاح بوجهه جانبا وقال بعبوس " لماذا سألني لأختار في كل تلك

الأمور ولم يجعل الخيار لي في مكان سكني ؟ وماذا بشأن ماريه ؟ "

تأوه عمير بصوت مسموع وقال وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة " في

الأمر ماريه إذاً ؟ لهذا أنت منزعج "

نظر له بضيق وقال " أجل فهو لم يتحدث عن شيء بشأنها ، والدتي

أوصتني بها وقطعت وعودا لها لن أنقضها أبدا "

هز عمير رأسه بلا مبتسما وقال " بل سألك بشأن مالها وبشأن عقد

ذاك الزواج ولن أقول زواجك منها كي لا تغضب ، أم تريده أن

" يجلبها هنا معنا

" أرخى نظره للأسفل وهمس " من في وضعي وعمري لا خيارات له

وكل ما فكر فيه حينها ما كانت والدته تخشى أن يحدث له وهو معهم

هناك أن يدمروا شخصيتها ويحولوها لنسخة عنهم رغم يقينه من أن براءة

تلك الطفلة سيصعب عليهم تحطيمها ، رفع نظره بالخطوات التي اقتربت

منه حتى جلس أمامه على السرير وقال بجدية " أنت لا تعرف الزعيم مطر

يا تيم هو لن يترك مستقبل تلك الطفلة وكما ضمن مستقبلك حتى بعد موته

أو غيابه لأي سبب كان سيضمن مستقبلها ، هو لا يحب الظلم ولا يترك

غيره يطبقه على أي كان إلا إن غفل عنه ، لا يمكن لرجل أن يكون في

عدله وبعد نظره وحدة ذكائه وتقديره للأمور فكن مطمئنا وإن عاشت

ماريه بينهم وأهملوها وكانت وحيدة وتعيسة لكنهم لن يؤذوها أما مالها

" فبإرادتك تنازلت لهم عنه حين سألك

وتابع بعد ضحكة صغيرة " وجِد لك جوابا لها يوم تكبر وتسألك

" لما أعطيته لهم

غاب بنظره بعيدا عنه وهمس " ويوم تتزوج أنت من قريبتك تلك هل

" سأبقى أنا وحدي هنا أم سأنتقل عند رجل آخر من رجاله ؟

شد يده ووقف وسحبه معه قائلا " لن أتركك ولو تزوجت من أربع

" نساء يا تيم حتى يقرر مطر ذلك أو تقرر أنت

وتابع خارجا به من الغرفة " لا تفكر في الغد يا رجل اتركنا في اليوم

ولنتعرف على مسكننا الجديد فأمامي الكثير لأجمع مهر تلك المدللة

" لا أوقعك الله في عشق النساء

وما أن وصلا الساحة حتى ركض وأشار له بيده وهو يركض للخلف

" مقابلا له " هيا لنأخذ دورتين حول الساحة قبل الغداء

*

*

وضعت لها قشور البصل والطماطم والخيار والخس ما استطاعت

جمعه من قمامة المنزل بعد الغداء وجلست قربها تحضن ساقيها

ومتكئة بذقنها عليهما تراقبها وهي تخرج رأسها وتأكل بشهية لتزرع

الابتسامة على تلك الشفاه الصغيرة الحزينة بعدما فقدتها لأيام ، الشفاه

التي لم تعرف إلا الضحك والابتسام علمتها الحياة مبكرا أن تذبل وتفقد

رونق بسمتها تلك ، انطفأت تلك الابتسامة وخيم مكنها حزن عميق وهي

تحدث ذاك المخلوق الصغير الذي لا يفهم شيئا " لقد رحل تيم ولن نلعب

معا مجددا ، لقد غادر وهو من وعدني أن يأخذني معه لكنه رحل وحده "

ترقرقت الدموع في تلك العينين العسلية الواسعة وقالت تمسك عبرتها

" رحل مثل والداي ووالدته ، رحلوا جميعهم وتركوني وحدي هنا "

خبئت وجهها في ذراعيها وسافرت في بكاء صامت طويل تحت أشعة

الشمس الباهتة ولفح ذاك الريح البارد لجسدها الصغير وثيابها الخفيفة

أمام الطقس في الخارج ، ومر الوقت عليها وهي في بكائها الحزين ذاك

لم يسأل أحد أين تكون هذا الوقت أين اختفت وماذا قد يحل بها وإن كان

ذاك الطقس يناسب طفلة في عمرها لتخرج فيه أم لا ، وجل ما كان يؤلمها

أنهم سيغادرون من هناك وحين يرجع ذاك الغائب قريبا لن يجدهم ولن

يعلم أنهم رحلوا لمنزل والديها البعيد وليست تعلم إن احتاج أن يعلم

ذلك أم لا وإن كان ذاك الرجوع قريبا بالفعل كما تخيلته

*

*

وقفت منتصف الطريق وهي ترى الرجلان اللذان يقفان عند باب

المنزل ثم عادت أدراجها فورا حتى كانت في منزلهم ، بحثت في

الغرف حتى وجدت ولادتها وقالت بنفس لاهث من ركضها

" أمي لما يضعون حراسة على غرفة الفتى المريض "

طوت تلك آخر قطعة ثياب ووضعتها في الصندوق وأغلقته ووقفت

قائلة " وما يدريني أنا لما ؟ "

صغرت عينيها تنظر لها وتمتمت تتبعها بنظرتها وهي تخرج من

الغرفة " ومنذ متى يقوم والدي بعمل لا يخبرك عنه "

وقفت ونظرت لها وقالت " هل قلت شيئا آستي ؟ "

" تحركت من هناك قائلة ببرود " لا شيء أمي وأسمي آستريا

وخرجت على نظرات والدتها المستغربة وهي من كانت تصر على

تغيير اسمها من كثرة ما كان البعض ينتقده ، خرجت مغلقة الباب

خلفها على كلمات والدتها تتبعها " لا أحد لي غيرك هنا فتذكري ذلك

" واقتسمي لي قليلا من وقتك الذي تعطيه لذاك الشاب

فغادرت متجاهلة ما سمعت وعادت حيث كانت ذاهبة حتى وصلت

ذاك المنزل ونظرت لأحد الواقفين عند الباب وقالت " ما سبب

" حراسة منزله وهو عاجز عن الحراك

حرك كتفيه قائلا بابتسامة تفهمها جيدا " لا علم لي قد يكون

" لحمايته من الدخلاء

تجاهلته وفتحت الباب ودخلت مغلقة له خلفها وتوجهت لباب غرفته

النصف مفتوح وقررت أن لا تخبره بالتحركات الجديدة تلك كي لا

يعرض نفسه للخطر محاولا المغادرة فقد يكون كما قال ذاك الحراسة

لحمايته فقط خاصة وأنه ابن شراع صنوان ، أطلت برأسها للداخل

وابتسمت ما أن وقع نظرها على وجهه وعينيه المعلقة بالسقف شارد

الذهن كأغلب أوقاته ، تنحنحت بصوتها الناعم فنظر جهتها فورا

وابتسم فدخلت قائلة بابتسامة " لو أعلم ما الذي تفكر فيه طوال

الوقت ! هل هي حبيبتك ؟ "

خرجت ضحكته مختلطة بسعال خفيف وهمس بصوت متعب ونظراته

تتبع حركتها مقتربة منه " لا حبيبة لي أستريا أفكر فيها "

جلست قرب سريره وقالت مستغربة " لا زوجة لك ولا حبيبة كم

عمرك أنت ؟ "

قال متنفسا بتعب " أكبر منك بثمان سنين "

حسبت بأصابعها فورا ثم نظرت له وقالت " ثلاثة وعشرون عاما

شقيقي ! سنمار كان لديه ابن في مثل عمرك "

قال مبتسما " شقيقاي اثنين أكبر مني ولم يتزوجا بعد ، جبران في

" السابعة والعشرون الآن أي أني أعد صغيرا أمامهما

" تمتمت بعبوس " متى سينجب أبنائه ويكبروا أمامه ياله من غبي

نظر للسقف وقال بهدوء " وهل لك أنتي حبيب ؟ لابد وأنك مخطوبه

" وأنتي ابنة زعيم التنانيين

حركت كتفيها قائلة بلامبالاة " والدي زوّج شقيقتي في مثل عمري

الآن لكنه سألها وهي وافقت أنا لا أريد أن أتزوج في مثل عمرها

" كي لا أتعب مثلها فهي كالدابة تلد وتربي الأطفال

" نظر لها وقال مبتسما " وهل سيوافق والدك على رأيك هذا ؟

وقفت وقالت متوجهة للخزانة " هو وعدني أن لا يزوجني حتى

" أريد أنا ذلك رغم أن والدتي اعترضت وقالت أنت تدللها كثيرا

أحضرت معها كتابا من هناك وجلست قائلة بابتسامة " أخبرني

الطبيب أنه قال لك بأنك خلال أسبوع يمكنك تحريك يديك

" وفي أقل من شهر ستستطيع الجلوس

ثم فتحت الكتاب وقالت وهي تورقه " وحينها لن تحتاجني وستتخلى

" عني في أمور كثيرة لذلك علينا أن ننهي قراءة قصتنا قبل ذلك

قال مبتسما ونظره على ملامحها وجفونها المسدلة للأسفل تنظر لصفحات

ذاك الكتاب " يبدوا أني سأحتاجك طويلا أستريا وإن كنت بقدماي " ويداي

نظرت له باستغراب وما أن فتحت فمها لتسأل قال مقاطعا لها وبذات

" ابتسامته " هيا أريد أن أعلم ما سيحدث مع ذاك المحارب

فعادت بنظرها فورا للكتاب واسترسلت في القراءة بانسجام وحماس

وكعادتهما تتوقف عند نقاط وأحداث كثيرة يتحدثان عنها ويتناقشان

فيها وإن كانت تراعي أن لا يتحدث كثيرا

*

*

كانت جميع أعين المحلقين حوله محدقة به بتركيز تام فهذا هو اللقاء الذي انتظروه منذ عودتهم من سفرهم منتظرين رجوعه بعد الاجتماع الأخير في في لندن وهو من قرر أن يسبقوه إلى هنا وقطع أي طريق للاتصال به وترك كل شيء معلق ينتظر رجوعه ، كان يطرح عليهم جميع أفكاره وما سيفعلون منذ صباح يوم غد يداه فوق الأوراق على الطاولة البيضاوية الكبيرة تحته وعينيه السوداء الواسعة تتنقل بينهم مشعرا الجميع حوله أن حديثه موجه لكل واحد منهم على حدا ، لم يستقصي أحدا منهم ولا يوجه اهتمامه لزمرة ويترك الأخرى وكانت أعينهم مركزة معه وأذهانهم صافية تماما لا يدور فيها شيء سوى كلماته المنسقة وأفكاره المطروحة بتفكير خبير ليشعر هو في المقابل أن الثلاثون رجلا الجالسين حوله يثقون فيه ثقتهم في أنفسهم وكلمتهم معه كلمة رجل واحد وأن كل ما يقول يزن عندهم بوزن الذهب كل

حرف فيه أهم من سابقه ، وضع القلم من يده على الأوراق وقال

بجدية " وحين ننتهي من كل ذلك سيكون علينا ضمان اتفاقنا مع

رؤوس القبائل في الهازان فابن راكان سيصله خبر ما يحدث إن

عاجلا أو آجلا ، لا أريد أن تتم بنود اتفاق ذاك الاجتماع وأي قبيلة

منهم رافضة تماما للتسليم ، لا أريد مشاكل وإراقة دماء سنضع

الخطط ونعقد الهدن ونصوغ الشروط معهم قبل التسليم تجنبا لأي

طارئ يكون مفاجئ لنا وقتها ويتزعزع تبعا له استقرار وأمن

المناطق ونخسر ثقة حتى من تحت لوائنا الآن ، الهازان متعبون

من الحروب ومن التشتت ومن موت أبنائهم في حرب يرونها خاسرة

وتسليمهم سيكون نصفه مكرهين فنريد كسب هذا النصف لصالحنا كما

حدث مع القبائل التي سلمت لنا سابقا ، سمعة ابن راكان وسطهم نزعت

الثقة منه لكن علينا أن لا نتجاهل أن يفكروا في تنصيب غيره ومحاربتنا

من جديد وهذا أهم بند نوقش في الاجتماع وعلينا مناقشته هنا خارج إطار

ما قالوه وأن لا نتق في أي أحد أكثر من أنفسنا مثلما كنا نعتمد على أنفسنا

أكثر من غيرنا فالغرب كما عرفناهم لا يقدمون إلا ما يريدون هم والتبعات

" لن تكون إلا على حسابنا نحن

نظر بعدها لساعته ثم وقف وقال وقد تبعه الجميع واقفين " غدا نجتمع

" ونناقش أكثر كل ما تحدثنا عنه اليوم ثم نبدأ فيما سنتفق عليه

قال أحدهم " عشاء الجميع عندي سيدي لا تغادر حتى نكرمك

" ولن تردني هذه المرة كالسابق

هز رأسه بحسنا وكأن عقله وافق الفكرة فورا ليمدد وقت مكوثه بعيدا

عن المنزل فإن غادر الآن سيصله وقت العشاء ، انتقل الجميع لمنزل

أحد رجاله ودخلوا مجلسه الواسع حيث رتب بعناية لاستقبالهم وملأت

أباريق القهوة وأطباق التمر والشطائر المحلاة أركانه وتوزع الرجال

فيه وانضم لهم بعض الرجال من أقارب صاحب ذاك المنزل وأحد

رجال زعيمهم المقربين وتعالت الأصوات والأحاديث والضحكات

فذاك الوقت مستقطع من أعمالهم واجتماعاتهم ، بينما انزوى من تصدر

ذاك المجلس على نفسه نظره على المنديل في يده بعدما أخرجه من

جيبه ينظر للحرف الكبير الذي نقش عليه وهو يخص الابن الأصغر

لشراع صنوان وللكتابات الموزعة على قماشه بعشوائية كتبت بقلم

الحبر وكانت لخطان مختلفان علم فورا لمن سيكونان ، ركز على تلك

الجملة وسط بعض التواريخ (اليوم عيد ميلادي الخامس عشر

والكاسر يسبقني بعام دائما ولا أمل أن ألحق به)

وتبعا لتلك انتقل لجميع الجمل التي كتبت بذات الخط (أتمنى أن

تتوقف الحروب والقتال في بلادي) (أريد وطنا واحدا ليله ليس

قاتما ونهاره ليس مدججا بالدماء)

وكانت جميعها أمنيات مرفقة بنفس التاريخ مع اختلاف رقم السنة فيها

أي أنها أمنية واحدة في كل ذكرى ليوم ميلاد أحدهما ، لفت نظره

عبارة كان فيها (يا رب أحفظ لي والدي وأخوتي جميعهم) وكانت

بمحاذاة تاريخ ذكرى ميلادها الثامن عشر أي بعد عام من معرفة

تلك العائلة بأنها ليست ابنتهم من علم منهم ومن جهل وحتى هي

وإن لم يكن يعلم هل كانت تعلم من صغرها أم لا وذكرت الجميع

على أنهم إخوتها ولم ستثني أحد أو تخصص أحدا ، نزل بنظره

للتاريخ الآخر تحته وظهرت ابتسامة خفيفة على طرف شفته ما

(أن قرأ ما كتب هناك (أتمنى ذات تلك الأمنية العام الماضي

قلب طرف المنديل وركز نظره على الكتابة عند حافته المثنية

والمطرزة بخيط من ذات لون المنديل (يا رب أخبر ابن شاهين

(لا يقتلني في والدي أو أحد أشقائي

قبض على المنديل في يده ثم وقف ودسه في جيبه وأشار بيد للأعين

التي حدقت به وخرج من المكان ركب سيارته وغادر من هناك

تشق أنوارها حلكة الليل يقبض على المقود وذاك المنديل في يده

*

*

كان كل شيء حولها باردا كالجليد الهواء المكان والظلام فضمت

نفسها بقوة ونظرت حولها تسير ولا ترى لطريقها ذاك نهاية مثلما

لم ترى له بداية ، أشباح أشجار عالية وأصوات مخيفة تجعلها

تلتفت لكل مكان حولها ولم يلمسها شيء سوى ذاك البرد الذي

تسلل لعظامها ولم يعد بإمكانها ولا تدفئة نفسها فكل شيء فيها كان

باردا حد التجمد ، اصطدمت فجأة بشيء صلب ضخم لم تتبين ما

يكون وسط ذاك الظلام فالتصقت به أكثر تلتمس منه الدفء لكنه لم

يزدها إلا بردا فوق برودة أطرافها فنزلت دمعتها التي لم ترحمها

هي أيضا وتنزل حارقة حارة كما عرفتها فقد كانت كقطعة جليد

تدحرجت على وجنتها ولحقتها أنفاسها القوية الباردة وكانت

عاجزة حتى عن رفع يدها لمسحها عاجزة عن الصراخ ومناداة

أحد أو قول أي شيء ، أغمضت عينيها بقوة وخرج همسها أخيرا

" مناجية " يا رب .... يا رب

حتى شعرت بشيء ناعم دافئ يتسلل ملامسا لخدها حتى وصل لعنقها

فشهقت بقوة لذاك الشعور الذي أولده ذاك الدفء داخلها حتى تمنت

أن غمر جسدها بأكمله ، اضطربت أنفاسها المتلهفة لذاك الهواء

الساخن الذي باتت تشعر به يدخل مجرى أنفاسها وأصبحت تسحبه

لداخلها وتتنفسه بنهم وكأن الهواء كان مقطوعا عنها ووصلها أخيرا

تنفسته وتنفسته دون أن تتساءل عن مصدره حتى شعرت بذاك

الملمس الناعم الساخن على شفتيها والذي كان كفيلا بإرجاعها

لعالم الواقع فقفزت جالسة ويدها على صدرها وتنفسها يخرج

قويا تنظر فوقها حيث الواقف ينظر لعينيها بصمت فنظرت حولها

باستغراب لوجوده وكيف أنها لم تشعر بوصوله وتغييره لملابسه

وتشغيله لنور الغرفة ولم تشعر حتى بنفسها حين نامت وهي تنتظره

وكيف تحولت الغرفة الدافئة فجأة لكل هذا البرد الصقيعي وهي من

كانت تلبس قميص قصير بدون أكمام ، عادت ونظرت له فوقها

وأناملها تلامس شفتيها فلم تفهم أكان هو سبب ذاك الشعور بالدفء

في نومها أم أنها مجرد أحلام ووهم صوره لها عقلها بسبب كل

ذاك البرد ، أبعد نظره عنها ونظر للغرفة حوله وقال ببرود يعادل

برودها بأضعاف " كم مرة أخبرتك أن تتغطي جيدا في

الليل ولا تنامي هكذا ؟ "

ثم عاد بنظراته لعينيها المعلقة به وبنظرته التي كانت تنطق قسوة

وصلابة وتابع وقد تحولت لهجته للضيق " لن أسخر العمال لخدمتنا

طوال الليل للتأكد من أن التدفئة تعمل وكأنهم عبيد لدينا وأخبرتك سابقا أنها قد تتوقف في أي وقت "

كابدت بقوة رغبتها في البكاء وهمست بصوت باهت وكلمات

متأنية حزينة " لم أشعر بنفسي حين نمت ، كنت أنتظرك لقد

تأخرت وشغلتني عليك "

لاحظت هروبه من النظر لعينيها بسرعة تلك اللحظة وكان سيتحرك

من ذاك المكان لولا وقوفها فجأة وإمساكها بيده فنظر لعينيها المحدقة

به وقد همست برجاء وأصابعها تقبض على أطراف أصابعه بقوة

" لن تنام حتى نتحدث يا مطر "

التزم الصمت ولم يعلق ولم يبعد نظراته الباردة الصامتة عن عينيها

فهمست مجددا " أخبرني ما بك ؟ "

سحب أصابعه من يدها وتحرك مجددا فلفت ساعدها حول كتفه تمنعه

من الحراك وأجبرته بحركتها تلك على النظر لعينيها مجددا وظهرت

الجدية في صوتها وهي تحثه على التحدث " اخرج من صمتك يا

مطر ولا تظلمني وأنت من يكره الظلم ، أخبرني على الأقل ماذا

" فعلت تغضب مني هكذا وتعاملني كنكرة أمام نفسي وأمام الجميع

امتلأت عينيها المحدقة بعينيه بالدموع تلمع بوهج أسود غريب

ومثير وقد همست بأسى " أنا آسفة إن أخطئت في شيء لا أعلم

" عنه فقط توقف عن إيذائي بصمتك وتجاهلك مطر أرجوك

رفع يده وحضن بها خدها وعادت تلك التناقضات للعبث بمشاعره

ولا يجد حلا لكل هذا سوى الصمت لن يستطيع سؤالها ولن يستطيع

تجاهل كلام ذاك المدعو جبران ولا أفكاره السوداء ناحية الأمر ، كل

ذلك فوق طاقته فهو في النهاية رجل شرقي التملك والغيرة مشاعر

متأصلة فيه حتى النخاع ويصعب معها تحكيم العقل حين تطفو بقوة

على السطح ، هو تحديدا لا يريد امرأة إلا له فقط ملكه خلقت له

عاشت له وأصبحت له لا أحد لمسها ولا اقترب منها غيره ولن ينكر

أن ذاك الشعور تعاظم لأضعاف مع هذه المرأة تحديدا ومنذ رآها لأول

مرة ، رفعت يدها ليده المحتضنة لخدها وحضنتها بها وأمسكتها مزيحة

لها عن مكانها جهة شفتيها وقبلت باطنها قبلة طويلة وعيناها مغمضتان

قبل أن تفتحهما وتحدق بعينيه مجددا وهمست وهي تنزلها وتضمها

لصدرها " أعطني ولو فرصة لأبرر أو أدافع عن نفسي يا

" زعيم الحالك

كانت نظرتها له كلها أمل ورجاء تعلم أنه يقرأه في عينيها بوضوح بينما

عجزت هي عن فهم ما تقوله عيناه وما تحاول إخفائه ، لم تعد ترى فيهما

تلك القسوة وذاك البرود المميت لكنها عجزت تماما عن فهم نظرته تلك

وكأنه يغوص في داخلها لنقطة لم يصل لها بعد ويبحث عن شيء تجهله

وتعجز عن معرفة ما يكون ، سحب يده ليقتل بتلك الحركة آخر أمل لها

في إخراجه من صمته الغاضب ذاك وراقبته بعينان دامعة وقد لف حول

السرير وجلس في طرفه الآخر موليا ظهره لها ثم اضطجع وسحب

الغطاء فوقه وقد خرج صوته مرتخيا جافا " أطفئي النور

" إن كنت لا تريدينه

مسحت عينيها بقوة ووضعت ظهر كفها على شفتيها تمنع عبرتها

من الخروج ونظرها لازال معلقا بظهره ، تحركت بآلية لا تشعر

بشيء سوى قهرها وغيرتها التي عادت لنهشها بلا رحمة ولولا

أنها سمعت اعتذاره منها في أكثر من موقف سابقا لندمت الآن أشد

الندم على تأسفها ذاك عن خطأ لا تعلم حتى ما يكون وفي النهاية

لم يقبله ، أطفئت النور ولم يبقى سوى تلك الإضاءة الخفيفة تعم

أرجاء الغرفة بنور أصفر خفيف يحمي المكان من الغرق في

الظلام الدامس ولا يضايق من أراد النوم فيه ، عادت جهة

السرير واندست في جهتها وسحبت الغطاء على جسدها حتى

صدرها وتركت يدها خارجه تنظر للفراغ بشرود حزين تقاوم كل

رغبة في البكاء وهي تستمع لأنفاسه التي لم تنتظم بعد وحركته

الخفيفة رغم أنه لم يغير طريقة نومه ، عطست فجأة تخفي فمها

في كف يدها فشعرت حينها بثقل جسده وهو يجلس وقبل أن يوبخها

توبيخا تعرفه جيدا دست ذراعها وكتفها تحت الغطاء السميك

ووصلها صوته المحتفظ ببروده حتى اللحظة " هل تشعرين

بالزكام ؟ هل أنزل وأشغل التدفئة بنفسي ؟ "

شدت الغطاء أكثر وأوصلته حتى ذقنها وشفتيها وهمست بوجع

" لا يلزم ذلك فألمي ليس في بدني "

يده هو من قبضت على الغطاء هذه المرة وخرج صوته قاسيا

حازما ينظر لقفاها وشعرها الذي تبعثر ورائها حتى وصله

لا أريد التحدث يا غسق لأن ذلك سيؤذيك ويؤذيني معك "

فاتركيني في صمتي ولا تلحي على ما قد يوجعك لآخر

" عمرك

رمت اللحاف من عليها وجلست والتفتت له حتى قابلته وقالت بحرقة

تكابد دموعها التي بدأت بالتغلب عليها " قلها يا مطر وإن كان فيها

" موتي فهو أرحم لي من عذاب صمتك وجفائك هذا

هز رأسه بلا ونظره على عينيها الدامعة ولم يتحدث بشيء فرفعت

قبضتها ولكمت بها صدره بقوة قائلة بعبرة مكتومة " لم تكن جبانا

يوما أنا من كنت تناديني بالجبانة ماذا تغير يا مطر ؟

" ما بك ارحمني أرجوك

تركها تعبر عن كل ذلك الألم المكبوت وهي تضرب صدره باكية

حتى تعبت يدها فطوقت عنقه بذراعيها ودست وجهها فيه تشعر بيديه

على ظهرها وهي تتمتم من بين شهقاتها " وأنت تؤذيني الآن بصمتك

" فكر في طفلك على الأقل إن كان أمري لا يعنيك

شد ذراعيه حول جسدها فدست وجهها في عنقه أكثر وزادت من تعلقها

به ولم تصدق نفسها وهي تشعر بقبلاته على كتفها فعنقها صعودا لشعرها

ودفاعاته تنهار تباعا أمامها ، لم يتخيل أن دخول امرأة لحياة الرجل يوصله

لكل هذا أن تتغلغل في عالمه حد أن الابتعاد عنها لأيام يجعله يتلهف لها

أكثر ، لم يتوقع ولا في خياله أن الحرب ضد المشاعر المتقدة أعظم مئات

المرات من حروب المدافع والصواريخ ، ابتعدت وأمسكت وجهه بيديها

تنظر لعينيه وأصابعها تتغلغل في شعره الناعم الكث حتى عادت لتطويق

عنقه وارتد الهواء في رئتيه بشكل غريزي وأنفاسها تعبر مع أنفاسه

مستسلما لقبلتها المتلهفة المشتاقة تلك يشدها له أكثر لا يعلم أي مشاعر

تلك التي تولدها قبلاتها الملتهبة لشفتيه !! كانت تشاركه الأمر سابقا

لكنه لم يعرفه منها بهذا الشغف والاندفاع سابقها بقبلاته يشدها له

وقد أنهكت دفاعاته فوق تحطيمها وتلاشى كل ما كان أمام عواطفهم

المشبوبة وقد أحناها للخلف حتى شعرت بالوسادة ورأسها يرتاح

عليها بهدوء لازالت متعلقة به ترفض ابتعاده عنها مثلما يرفض

هو إبعاد شفتيه يختبر اندفاعها الذي لم يعتده سابقا ويده تقبض

على فستانها حتى شعرت بهواء الغرفة البارد على خصرها

العاري بسبب شده لفستانها مع حركة قبضته

(هي لي من قبل أن تعرفك وأنت لست أول رجل في حياتها)

هي من طلبت ذلك وأصرت عليك وأجبرت والدي على)

المواففة)

جملتان كانتا كفيلتان بجعل جسده يتصلب وقد شعرت بكتفيه أصبحا

مشدودان تحت ملمس يديها وتبعته بنظراتها المستغربة وأنفاسها

المتلاحقة وهو يبتعد عنها مشيحا بنظره بعيدا وأصابع يده تتخلل

شعره وقد شده بقوة تكاد تراه يتقطع بين يديه وتنفسه يخرج متقطعا

فشدت فستانها للأسفل وهمست بأسى ودمعتها تنزل على طرف

" وجهها " مطر

قفز واقفا خارج السرير وابتعد يغلق أزرار قميصه يشعر بأضلعه تنطبق

على قلبه وكأنها جبال وحروف اسمه الخارجة من شفتيها سكين انغرس

في ذاك الصدر الذي كتمت عليه ذكرى كلمات ذاك الرجل حتى عجز عن

أخذ أنفاسه فخرج ضاربا الباب خلفه متجاهلا التي دفنت وجهها في الوسادة

تحتها تبكي بوجع ونزل السلالم يفك الأزرار التي كان يغلقها للتو وبحركة

عنيفة عبر فيها عما يحبسه داخله ويكاد يقتله ، وصل لغرفتها في الأسفل

والقميص في يده وقد رماه بقوة على الأرض وجلس على طرف السرير

في كل ذاك البرد دون قميص لا يعلم يعاقب من بذلك هي أم نفسه ؟

دفن رأسه بين يديه وأغمض عينيه بقوة يسترجع عقله كل ما حدث

منذ قليل ووجوده في تلك الغرفة لم يزده إلا ضياعا وهو يهرب لها

لثاني مرة ولليلتان متعاقبتان وهو من لم يعرف الهرب يوما من أي

شيء ، مرر كفه على صدره وفكرة واحدة تدور في رأسه جعلته

يقف على طوله وتحرك جهة الباب متمتما " عليا أن أعلم منها

" منها هي قبل أن احرق كل شيء وأحترق معه

وكان ذاك فراره الوحيد مما هو فيه بسؤالها وإن لم يذكر لها اسماً

معينا لكي تبرر وتدافع عن نفسها كما طلبت وهو يعلم جيدا أنها

لا تكذب وأقل ما قد تفعله أن تصمت عن قول الحقيقة، وصل

منتصف المنزل ليوقفه رنين الهاتف الذي علا في صمته المميت

فوقف ينظر له باستغراب وللتوقيت الذي قد يتصل فيه أي أحد

وإن كانت الاتصالات مقطوعة أغلب الوقت ! توجه له فورا

ورفع السماعة وما أن وضعها على أذنه حتى وصله الصوت

الرجولي الهامس برجاء " غسق هذه أنتي أليس كذلك ؟

" أجيبي أنا جبران

قبض على سماعة الهاتف بقوة يشعر بكل شيء في داخله تحول

لإعصار من نار وقد تابع ذاك من فوره " كلامنا لم ينتهي بعد

غسق أجيبي وإن بكلمة ، أقسم أن أخرجك من هناك لا تخافي

" من ذاك الجبان المغرور لا سلطة له عليك

فلم يشعر بنفسه إلا وهو يستل الهاتف بأسلاكه ويرميه بكل قوته

" على الجدار وصرخ بعنف " غـــــــسسسسسسسسسق

وركض جهة السلالم لا يرى شيئا أمامه سوا السواد والنيران

المشتعلة في جوفه

،،،،،،،،

المخرج ~

بقلم الغالية : همس الريح

.. اهداء لمطر

دعوني لاصنع هذا الوطن
ساجعله المبتدأ و الخبر
و اجعله غصة في الحلوق
لدى المعتدين بشتى الصور
دعوني و لا تمسكوا ساعدي
و لا تعدوني بوعد هذر
سئمت الدعاوى لسلم ذليل
و نصف الحلول لدى مؤتمر
دعوني و عيشوا كما شئتموا
جنب النساء و ضرب الوتر
و لكن حياتي انا اخترتها .... فاما وطن حر ابي
و اما ممات يغيظ الكُفر

*****

بقلم الغالية : أنة غريب

هذه الأبيات المتواضعة على لسان اختنا الغالية برد واتمنى ان تقبلها مني كاتبتنا مشكورة جزاء ماستفدته من خبرتها تحت مقولة: من لا يشكر الناس لا يشكر الله...

فشكراً جزيلا لك اختي برد وأتمنى أن تعجبك الأبيات ولو انها لاتفيكِ حقك...

1- ظمأت بحار الفنِّ بين مواهبي
فغدوت أرويها بشهد شرابي

2- انا بردُ التي من دفءِ مشاعري
أهديتكم عطراً كغيث سحابِ

3- وأنا التي من حِبر قلبي أبدعت
ستٌّ رواياتٍ تسحرُ الألبابِ

4- ملامحٌ خلف الظلام اختفتْ
وأشباه ظلالٍ شفت جرح مصابِ

5- ومنازل القمر التيِ من عذبها سقتْ
صحراء قاحلةً فارتوت بشرابي

6- وحصونٌ من جليدٍ قسى
ليذوب إذا مالقى الأحبابِ

7- وعاصفةٌ هبّت بأوجاعها
ليرشفوا شهد الوصل بعد طول عذابِ

8- هذي أنا برد المشاعر فافرحوا
بسحر أناملي وادعواْ لي بثوابِ

9- 'ولكم جزيل الشكر منّي 'أنةٌ
لكلّ اعضاء المنتدى الخلّابِ

وسلامتكم...

نهاية الفصل ..... موعدنا القادم مساء الجمعة إن شاء الله

جنون المطر (الجزء الأول)

(الفصل السابع والعشرون والأخير (الجزء الثاني)

المدخل ~

بقلم الغالية: نجـ"مـ"ـة المسـ☆ـاء

..على لسان زعيم الحالك

..تقتلني سكين الغيرة
افكاري تنهشني حيرة

..تحرقني نيرانٌ شبّتْ
في قلبي زادت وانتشرت

..تلك الحسناءُ هوى عمري
لن يسكن خافقها غيري

..لن يلمس احدٌ فاتنتي
غسق..وحدي..لي انتي

..لم أُهزم يوماً لم اهربْ
لكن معترفٌ اني..صبْ

..دعوني فالقلب تمـزّقْ
!مجنونٌ حقاً من يعشق

******

بقلم الغالية : bella snow

معي خربشات كتبتها مع اختي الصغيرة .. بتمنى تعجبكم ولو شوي
أحببتكِ طفلة منذ أن رأتكِ عيني أيا .... جمال قمرٍ في ظلام قدرٍ أعمى
أخذكِ ابن شاهين مني وصرتِ له .... وزاد شوقي لكِ وأنيني علا

قلبي يهتف باسمك أيا ... حبا سكن عروقي و دمي ولم يزدني إلا شقاء
تأبى روحي تحتمل بعدكِ ففيه... شقائي و عذابي لذا
سامحيني اذا ارتكبتُ حماقة .. فما أنا إلا عاشق وما على العاشق حرج
أحترقُ بنار شوقي لكِ أيا .... حبا سكن ضلوعي و أبى الرحيل بعيدا لذا
اغفري لي خطيئة ستزيدكِ كرها لي وأنا
احترق بنار حبكِ أيا .. بدرا ساطعا في ليلة ظلماء
غسقٌ أنتِ وما أنا إلا جبران عشقكِ حتى الفَناء
سامحي قلبي وخذيني فداء ... أيا نورا ابتسم اي و انزوى

من جبران إلى غسق

،،،،،،،،،،،،،،

اتكأت برأسها للأعلى على جذع الشجرة خلفها وأغمضت عينيها

ليلفح هواء الشتاء البارد قسمات وجهها وشعرت به كلسع النار

عليه من شدة برودته ليشتد وهج خديها وتطايرت خصلات شعرها

التي تحررت من حجابها حين انزلق للخلف ، عضت طرف شفتها

تحضن ساقيها أكثر وسالت دموعها تعبر فوق قسمات ذاك الوجه

الذي تحول لقطعة جليد لجلوسها تحت تلك السماء الملبدة بالغيوم

السوداء القاتمة ولا شيء تحتها سوى الأرض التي لازالت

. مبللة من أمطار البارحة

شهران مرا على تلك الليلة التي لازالت تشعر وكأنها البارحة في

كل يوم مر بعدها حتى اليوم واللحظة ، الليلة التي تعلمت أن تكره

فيها كل شيء حولها وأولهم نفسها ، شهران لم ترى فيهما ذاك الذي

خرج مخلفا دمارا في كل ناحية من دواخلها ووضعها أمام حقيقة

كانت غائبة عنها تمنت أن ماتت وما علمت بها ، أن سمعت من

شفتيه أي شيء إلا ما سمعته لحظتها ، أن قتلها بيديه قبل أن يغادر

ورحمها للأبد وهو يذبح روحها ويتركها جسد خاوي فارغ وقد

اختار منفاه الدائم والوحيد .... حدوده التي تجهل أن اتساعها فاق

خيال الجميع وفاجئ كل فرد في تلك البلاد ورجاله قد أصبحوا

يقفون عند الحدود الأخيرة للهازان لتصبح تحت حكمه من

. أقصاها لأقصاها

رفعت أطراف أناملها المرتجفة من شدة البرد وثقل كل تلك الذكرى

ومسحت بهم دمعتها التي زادت وجهها تجمدا ثم فتحت عينيها وقد

شعرت بخطوات تقترب من مكانها فدست وجهها في ذراعيها حين

وصلت عندها ونزل صاحبها أمامها وشعرت بتلك اليد على رأسها

تمسح على شعرها برفق ووصلها صوت جوزاء الهادئ " غسق

هل سأجدك هنا كلما غبتِ لوقت طويل ؟ هل تريدين قتل نفسك

بهذا البرد ! أنا لم أتحمله مسافة سيري حتى هنا فكيف

تجلسين فيه كل هذا الوقت ؟ "

شدت ذراعيها على ساقيها أكثر ولم تعلق فتنهدت تلك وقالت

" عمتي تسأل عنك ستمرضين إن بقيت هنا أكثر ثم جلوسك

بهذه الطريقة يضرك فلا تنسي أنك حامل "

خرج حينها همسها الخافت مبحوحا " سأدخل بعد قليل "

وقفت تلك وقالت بإصرار " إذا لن أدخل إلا معك "

وبقت مكانها ذاك تنظر بأسى وقلة حيلة للجالسة تحتها منكمشة على

نفسها تحار كيف تتحمل الجلوس هكذا في هذا الطقس ! تنهدت قائلة

" تعاقبين نفسك أم تعاقبيه بهذا يا غسق ؟ لن تضري إلا نفسك

وطفلك معك "

شدت ذراعيها أكثر وخرج همسها المختلط ببكائها " لم أعد أريد

البقاء معه ، أخبروه يطلقني ويرجعني لوالدي ، لم أعد أريده "

تنهدت بأسى ونزلت عندها مجددا وأمسكت يدها وأبعدتها قائلة

" ادخلي يا غسق وإن من أجل عمة زوجك التي تعجز عن

الوصول لك بحالتها هذه وبالها منشغل عليك ، إن كان

خاطري أنا لا يعنيك فمن أجل خاطرها "

وقفت معها تمسح خديها بظهر كفها وهمست ببحة

" أنتي وهي عندي سواء "

سحبتها معها قائلة " إذا ادخلي هيا لقد تجمدت مفاصلي

" من البرد

وما أن وصلتا للداخل تركتها وتوجهت جهة غرفتها في الأسفل

الغرفة التي عادت للعيش فيها منذ شهرين ولم تعتب قدماها ذاك

السلالم أبدا فهزت جوزاء رأسها بيأس وتوجهت جهة غرفة عمتها

" وما أن دخلتها حتى قالت تلك بقلق " ماذا حدث معك يا جوزاء ؟

اقتربت منها وجلست على الكرسي ونظرت لها قائلة " دخلت أخيرا

الجو في الخارج تفر منه الحيوانات وهي هناك منذ أكثر من ساعة

" ولولا ذكرت اسمك في الأمر ما كانت دخلت

" قالت من فورها " هل تحدثت معها ؟ ما سبب عزلها لنفسها هكذا ؟

حركت رأسها بأسى ضاربة كفيها ببعض ولم تستطع إخبار عمتها

أنها ليست المرة الأولى التي تخرج فيها في ذاك الطقس وتعتصم

فيه ، قالت بأسى " لازالت تكرر ذات الجملة أن يطلقها ويرجعها

" لوالدها ولا يبدوا لي أنها تقول ذلك عبثا

تنهدت عمتها بعجز متمتمة " هداك الله يا مطر ، هل هو مقتنع

حقا بأن ما يفعله صحيح ؟ "

حرجت الكلمات مندفعة من الجالسة أمامها " لو كنت مكانها ما

فعلت أقل من ذلك ، أقسم أني أنا التي كنت معهما في الغرفة تلك

الليلة ولا دخل لي بشيء كادت أحشائي تنزل للأرض فكيف بها

هي وهي حامل أيضا "

قالت تلك بحزن " وهل تري أن الذي حدث معها قليل ؟ كادت

تفقد جنينها وحياتها معا لولا لطف الله بها وبنا وكان عمك

موجودا تلك الليلة "

غابت جوزاء بنظرها للأرض وهمست بحيرة " سألتني غسق يوم

اتصلت بالفندق عن خيانة الزوج وضننت أنها أوهام يصورها لها

عقلها وما ضننت أن الأمر قد يكون حقيقيا حتى سمعت صراخه فيها

تلك الليلة وحديثه عن امرأة وعن خيانة له من أحدهم ورجل آخر ظهر

في الحكاية ولم أفهم شيئا من حديثه ذاك سوى أن حديث غسق يومها

كان مبنيا على واقع وليس وهما وبدليل أن حبيبة أكدت لي أن

" هاتف الفندق فتح الخط يوم اتصالها

قالت نصيرة بجيرة أشد " ومن تكون المرأة التي قد يتحدث

" عنها أمامها وما علاقة غسق بالأمر ؟

هزت جوزاء رأسها بعدم فهم وهمست " لا أعلم عمتي كان غاضبا

بطريقة لم أرى فيها مطر هكذا ولم أتوقع أن يعترف يوما بعشقه

لامرأة ولست أفهم عمن كان يتحدث وقتها ولازالت عبارته تلك

مدفونة في عقلي حتى اليوم وهو يقول (لي أنا ليست له حتى

دمائها التي تجري في عروقها ملكي) لم أفهم عمتي من تكون

" وعمن كان يتحدث

" قالت بضيق " والآن تقولي كل هذا ! بعد شهرين يا جوزاء

حركت يديها قائلة بعجز " قلت لنفسي أن الأمر لا يخصني وزوجان

ويجدا لمشكلتهما حلا دون تدخل كي لا تكبر أكثر ولم أتخيل أن

يصل الأمر لأن يفر من هنا ولا يلتفت وراءه وكأنه لا أحد له

" وأن تصر هي على الطلاق هكذا

قالت عمتها بذات ضيقها " على عمه أن يذهب له بنفسه ويجلبه

هنا وعلى جنونه هذا أن يتوقف ، إن كان يريد غيرها فعليه تركها

" تذهب في حال سبيلها لما يكرهها على الزواج منه ثم البقاء معه

ضربت جوزاء كفيها ببعض قائلة بأسى " قلبي يتمزق أشلاء عمتي

من جهة على ابناي اللذان عددت الأيام بالدقائق أنتظر لأراهما ولم

يحدث شيء من ذلك ومن جهة على حياة شقيقي التي أصبحت تنهار

وما صدقت أن رأيته يتغير ... لا وبينهما طفل لم يفكرا في مصيره

" إن افترقا وهي ابنة صنوان وهو ابن الحالك

قالت عمتها من فورها " نادي لي عمك بسرعة أنا من ستتصرف

هذه المرة وعلى شقيقك ذاك أن يأتي ويجد لمشكلتهما حلا أو أنا

بنفسي من سأخرجها من هنا وأرجعها لوالدها وليجد طريقة

وقتها لإعادتها منهم "

وقفت جوزاء وقالت باعتراض " ترسليها لوالدها كيف وصنوان

محاطة بجنودنا من كل جهاتها وأوضاعها في اضطراب ملحوظ ؟ "

قالت بجمود " أقسم أن أفعلها إن لم يضع زوجها ذاك عقله في

رأسه وستري ما يمكن أن تفعله هذه العاجزة العجوز "

تحركت جوزاء جهة الباب متمتمة " لا أعلم ما هذا النحس

الذي لا يفارق منزلنا أبدا "

*

*

فتحت الباب وأطلت برأسها مبتسمة بحزن لم تستطع إخفائه وهي

تنظر للجالس على السرير يمسك آخر كتاب أحضرته له وقد

رفع نظره لها فورا وقال مبتسما " أستريا تعالي يا مشاغبة

أين أنتي لم أعد أراك ؟ "

دخلت وأغلقت الباب خلفها واقتربت منه حتى جلست على طرف

منتصف السرير جهة قدميه وقالت " كيف أنت اليوم يا رعد ؟ "

وضع الكتاب جانبا وقال ناظرا لعينيها " أستريا هل ثمة ما

يغضبك مني ؟ ما بك تتهربين مني من أيام ! "

هزت رأسها بلا دون جواب ثم نظرت ليديها في حجرها

وقالت بهمس حزين " حصلت على هاتف والدي أخيرا

واتصلت بهاتف شقيقك "

عدل جلستها ناظرا لها بلهفة وقال " رماح !! هل حقا

أجاب عليك ؟ "

رفعت نظرها له وهزت رأسها بنعم فرفع رأسه للأعلى وأغمض

عينيه وتنهد براحة هامسا " حمدا لله ، الحمد والشكر لك يا رب "

ثم نزل بنظره لعينيها المعلقة به تنظر له بشوق تشعر به من الآن

" ومن قبل مغادرته وقال " ماذا حدث أستريا هل عرفت أين هو ؟

حركت كتفيها وقالت ببرود تهرب بنظرها بعيدا عنه " ما أن أجاب

وأخبرته أن شقيقه رعد بخير حتى انهال عليا بالأسئلة ولم يترك

لي مجالا لا لأسأل ولا لأقول شيئا وحين شعرت بالخطر أخبرته

أن لا يتصل على هذا الرقم أبدا كي لا يكتشف والدي الأمر

" وفصلت الاتصال

قال بحيرة ونظره يتنقل بين ملامحها " وما الذي يحزنك هكذا

" أستريا ! ضننت أن شيئا سيئا حدث في اتصالك به

رفعت نظرها به وتنهدت قائلة " حالتك تحسنت كثيرا والطبيب

" قال أنك ستسترد كامل عافيتك خلال هذا الشهر

ثم قبضت على طرف الغطاء الذي يغطي ساقيه بيدها بقوة وتابعت

وقد ترقرقت الدموع في عينيها العسلية الواسعة " سترحل من هنا

حينها ، لقد اعتدت على وجودك بيننا ، على رؤيتك كل يوم وعلى

التحدث معك ، أنت مختلف كثيرا عن كل الرجال هنا ، كنت تعاملني

كامرأة وليس طفلة كما يفعلون رغم أنهم يتزوجون ممن هم في سني

ويزيد قليلا ، أنت مختلف عنهم في كل شيء في أمور كثيرة

" وأكره أن ترحل وأن لا أراك مجددا

وتدحرجت دموعها تباعا فتحرك ببطء بمساعدة يديه حتى وصل عندها

ومسح بكفه على خديها مكفكفا دموعها التي ترفض التوقف وقال

" بحنان " أستريا يكفي بكاء ، لم أرك تبكي قبلا ولا أريد هذا

فاجأته بأن ارتمت في حضنه وتمسكت بقميصه الصوفي بقوة وتحول

بكائها لنشيج وعبرات قصيرة متلاحقة فتنهد بعجز وضمها بذراعيه

يعلم معنى ما تشعر به الآن ويحسدها على مقدرتها على التعبير عنه

دون أن تقيد نفسها ، أبعدها عنه وقال ناظرا لوجهها الذي تنزله

" للأسفل تمسح وجنتيها بظهر كفها " أستريا يكفي بكاء أرجوك

مسحت عينيها بقوة ونظرت له وقالت هامسة ببحة " ليت الزعيم

" مطر يحتجزك لدينا لآخر عمرك

لم يستطع إمساك ضحكته وقال مبتسما " هل يرضيك أنتي

" أن نأخذك من عائلتك ونحتجزك في صنوان ؟

" قالت من فورها " نعم

نظر لها بصدمة قبل أن ينفجر ضاحكا فوقفت وقالت بضيق

أحمق ما الذي يضحكك ؟ أنا لا أعرف الكذب ولا أكرهك "

" مثلما أنت تكرهني وتريد الذهاب بسرعة

نظر لها فوقه وقال " أنا لا أكرهك أستريا من أين جاء عقلك

" بهذه الكذبة ؟

قالت بعبوس " بلى ولا يعنيك الذهاب وتركي وأنت لن

" تراني مجددا

هز رأسه بلا وهمس " مخطئة آستريا وكذب عليك عقلك أيضا

" أنا لا يمكنني أن أكون صادقا مثلك

" قالت من فورها " ابق معنا إذاً

قال بهدوء محدقا بعينيها الدامعة " لا يمكنني ذلك والدي يحتاجني

" يكفيه ما فقد حتى الآن ... غسق جبران والكاسر ثم أنا

" قالت دون تراجع " أهرب معك إذاً

هز رأسه بلا وقال بجدية " لا تظهري لي عكس ما ظننت بك

أستريا ولا تكوني طفلة وتفكري كالأطفال ، تفكيرك هذا عواقبه

" سيئة جدا عليك وعلى التنانيين في الحالك وحتى على صنوان

غادرت تنفض يدها قائلة بغضب " كاذب تقول بأنك لا تكرهني

" وأنت تكذب أكرهك رعد تسمع

وخرجت من الغرفة والمنزل وصوتها لازال يصله حتى ضربت

الباب خلفها فمرر أصابعه في شعره متنهدا بعجز وتمتم ناظرا لمكان

خروجها " ليته بإمكاني فعلها آستريا لما توانيت عن ذلك لحظة

لكن الواقع سيء جدا وما أتعسني حين رماني هنا لديكم

" لأتعرف عليك

*

*

نزل من السيارة ضاربا بابها خلفه بقوة وتوجه لذاك الباب الزجاجي

المفتوح وما أن دخل حتى استقبله صوت الموسيقى الصاخبة فنظر

حوله ثم توجه يمينا ودخل ذاك المكان الواسع بأنواره المتغيرة قد

وزعت حوله الطاولات وتعالى فيه الصراخ والصخب والرقص

حتى شعر به يضرب في رأسه ، جال بنظره طويلا حتى وقع على

الواقفة مع فتاة وشاب منسجمون في الحديث والضحك فتوجه نحوهم

فورا وأمسك بمعصم التي لم تنتبه لوجوده هناك وسحبها معه بالقوة

رغم رفضها ومقاومتها حتى كانا خارج ذاك المكان وما أن شعرت

بالهواء البارد يلفح وجنتيها وذراعيها العاريان ووجدت نفسها في

ظلام ذاك الشارع الذي زينته الأنوار المنتشرة فيه بترتيب سحبت

يدها من يده بقوة وصرخت فيه بعنف " ماذا تريد مني أنت ؟ "

ركز نظره على عينيها وقال ببرود " ماذا تفعلين هنا غيسانة ؟

أعتقد أن مطر شاهين حذرك جيدا من قبل ولا يعلم عن

كل هذا لكان قطع ساقيك "

رمت طرف شعرها الأسود الطويل المموج للخلف وقالت بغضب

" مطر ... مطر ، لا علاقة لك بي ولا به ولا أحد له سلطة علي

ثم وإن فرضنا ذلك فما دخلك أنت ؟ لما تخرج لي في كل

مكان كالأشباح ؟ "

" غـ.... "

قاطعته صارخة من قبل أن ينهي كلامه الحاد " جيسي أسمي

جيسي افهم وغادر من هنا حالا أو أحضرت لك الأمن "

أمسك وسطه بيديه وقال بسخرية " جميل أجبرت الجميع حولك

على مناداتك غيسي ثم الآن خطر لك خاطر جديد وتريدينه

" جيسي ! يالك من مدعاة للسخرية

التفتت عائدة أدراجها متجاهلة له فأمسك يدها موقفا لها وقال وقد

أدارها ناحيته مجددا " أعتقد أن شقيقك إن علم عن كل هذا سيعود

لسجنك في منزل الجزيرة مجددا ووقتها لن ينفعك أحد ولا

" والدتك تلك

استلت يدها منه مجددا وهمست من بين أسنانها " لا تهددني

أيها الهمجي البربري أو أقسم أن أختفي مجددا ولن يجدني

" لا مطر ولا غيره هذه المرة

وصرخت وقد أبعدت يدها التي حاول إمساكها بها مجددا

لا أريد أن أرى عربيا مسلما مجددا أخرجوا من حياتي "

" أنا ووالدتي كنا في نعيم حتى عرفناكم

أمسك ذراعها بقوة ساحبا لها جهته حتى كان وجهه في وجهها

وقال من بين أسنانه " لو كنت مكان شقيقك ما تساهلت معك

هكذا بحجة سنك ، زوجته في مثل عمرك وعقلها يزن

" جسدك بأكمله

حاولت سحب ذراعها منه تثبت قدميها على الأرض قائلة بحقد

وأنت في عمره وليس لك ولا ربع عقله بل لا عقل لك أبدا "

ثم إن كانت زوجته امرأة كهف تنتظره كل ليلة فأنا لست مثلها

" ولا أحد له سلطة علي والقانون هنا يحميني وأقسم أن أبلغ عنك

ترك ذراعها بعنف وقال بغضب مكتوم " قسما يا غيسانة إن لم

ترجعي لمنزلك الآن أن أحملك على كتفي وأضربك أيضا إن

" لزم الأمر

دفعته من أمامها وفتحت باب سيارته الخلفي وركبتها وضربته خلفها

فركب هو أيضا ضاربا الباب بقوة وتحرك من هناك يسمع تأففها

وتمتمتها الغير مفهومة طوال الطريق حتى وصل بها أمام باب

منزلها ففتحت باب السيارة وقالت من قبل أن تنزل " توقف

" عن ملاحقتي أو بلغت عنك ولا تقل أني لم أحذرك

قال ببروده الذي لا يزيدها إلا قهرا وغيظا " تفاهمي ليس

" معك بل مع من أكبر منك

فنزلت ضاربة الباب بقوة بعدما رمت عليه شتيمة تعلم أنه إن أدركها

بعدها لقطع عنقها قبل لسانها وتوجهت لباب منزلها قائلة بحنق

أخرق وتافه لا تُقارن بمطر ولا في العمر ، ليت لك نصف "

" ربع عقله فقط

ورغم ابتعادها كان يعلم ما تكيله له من شتائم حتى دخلت المنزل

وضربت الباب خلفها فتحرك من هناك متأففا وأخرج هاتفه وطلب

رقما معينا لم يجب صاحبه حتى زاده غضبا فوق غضبه وما أن

فتح الخط حتى اندفع قائلا بضيق ونظره على الطريق " هذه آخر

مرة ترسلني خلف تلك الساقطة ، تصرف أنت مع ابنة شقيقك

أو أخبر شقيقها يأتي ويجد لها حلا فهو من رفع شعار التعامل

معها باللين كي لا تزداد تمردا وعنادا ولست أرها إلا

" أسوء من ذلك

ضحك ذاك من فوره وقال " الله أكبر هل أشعلت غضب

" ابن كنعان حقا !! هي كما قيل عنها إذا

حرك المقود يمينا وهمس من بين أسنانه " هذه آخر مرة أدخل ملهاً

ليلياً لأخرجها منه ، ضع من يراقبها أو افعل ما يحلو لك

" وأخرجوني أنا من كل هذا .... وداعا

*

*

دخل المنزل وما أن تخطى عتبة بابه حتى سمع ذاك البكاء الذي

كان يقترب من هناك وما أن تقدم نحو الداخل حتى ظهرت عمته

من أول الممر تمسك ابن الكاسر الذي كان في بكاء متواصل

" فتوجه نحوها ونظر له قائلا " ما به عمتي ؟

نظرت له بين ذراعيها وقالت وهي تهزه دون توقف " لا أعلم يا

رماح فهذا حاله منذ ليلة أمس ، جلب والدك الطبيب صباح اليوم

لمعاينته لكن حالته كما هي عليه حتى الآن ولست أفهم مما

" يشتكي ولم يسكت ولا دقيقة ليأخذ استراحة على الأقل

ابتسم من جملتها الأخيرة ومد يديه لها قائلا

" هاتي أعطني إياه "

وضعته له في ذراعيه وما أن رفعه حتى قالت تمسك يده

" الصغيرة " لا تمسكه هكذا يا رماح ستؤلمه

قال بضيق وهو يحاول تعديل وضعه " عمتي ما بك معي كلما

" أمسكته انتقدت طريقتي ؟ اتركيني أتعلم على مهل

ابتسمت مبعدة يديها لتتحول ابتسامتها لحزن ما أن ضمه لصدره

بقوة رغم بكائه ودفن وجهه في عنقه فمسحت دمعتها سريعا فالجميع

في ذاك المنزل باتوا يرون فيه ابنهم الذي فقدوه ... ضحكته التي كانت

تملأ المنزل مرحه حيويته وشبابه وكل ما افتقدوه مع فقدهم له ، فقرابة

الثلاث أشهر مرت منذ قدوم هذا الصغير وما خشيته من أن يكون سببا

لألمهم جميعا وهو يذكرهم بوالده الراحل تبدد تماما وهي ترى تعلقهم به

ولا يمر يوم على أحدهما إلا ويراه فيه وإن للحظات ويغادر ، أعاده لها

بعد سيل من القبلات التي وزعها على وجهه الناعم الصغير متجاهلا

بكائه وفمه المفتوح على اتساعه فأخذته منه وأرخته على كتفها تطبطب

على ظهره وقالت ناظرة للواقف أمامها يغطي ظهر الصغير الذي

انكشف من تحت قميصه " ما أخبار رعد يا رماح ؟ هل من جديد

" أو اتصلت بذاك الرقم ؟

هز رأسه بلا وقال " لا جديد ما لم يتصل والدي بابن شاهين

ويستعلم منه "

ثم قال وقد نقل نظره له مجددا " اطلبي من إحدى الخادمات

تحمله عنك قليلا يكفيك ليلة البارحة لم تنامي "

مسحت على رأسه وشعره الناعم الخفيف وقالت " الخادمات على

قدم واحدة من الصباح حتى آخر الليل ومجلس والدك يفرغ ويمتلئ

على مدار اليوم فلا ينقصهن تعب وسهر وهن يحتجن لكل واحدة

منهن طوال النهار ليدركن ضيوف والدك "

وتابعت متنهدة بحزن " ماذا بعد نهاية ابن راكان يا رماح ؟

الجميع في صنوان في ترقب وخوف "

أبعد نظره عنها وهمس بشرود " ما لم تقف دباباته وحاملات

الصواريخ على الحدود محاصرا لنا فلا شيء حتى الآن "

هزت رأسها بحسنا وقالت ناظرة لملامحه " الأخبار كثرت عن

رؤية جبران هنا ، يبدوا أنه أخرج من دماغه أخيرا فكرة الهرب

للحدود وهجر المنزل والمدينة ، هل رأيته وما قال ؟ "

" قال مغادرا " رأيته لكني لم أتحدث معه

وغادر جهة ذات الباب الذي دخل منه فتنهدت بأسى تراقب خروجه

تمسح على ظهر الصغير الذي لازال في بكائه المستمر وتحركت

به من هناك متمتمة وهي تطبطب على ظهره الصغير " يكفي بني

يكفي بكاء ستموت على هذا الحال يا قلب عمتك ، ماذا أفعل

لك أخبرني ؟ ما بك حبيبي ما بك ؟؟ "

*

*

" أمسكنا بالخامس سيدي "

سرقت تلك الجملة انتباهه ممن كان يتحدث معهم موليا لهم كل اهتمامه

وانتباهه ، يديه في جيوب معطفه الشتوي الطويل وقد رفع ياقته لتحمي

عنقه وأسفل فكيه من ذاك الهواء البارد القوي لوقوفهم قرب بحر
تيمور

وأمواجه الهائجة المرتفعة تضرب الصخور بقوة معلنة عن وجودها

وسطوتها ، تيمور حيث أقصى نقطة شمال الهازان وآخر مدينة فيها

ليشهد لهم منظر تلك المياه السوداء الثائرة تحت وهج خيوط الغروب

الضيقة المتسللة من بين الغيوم المتفرقة على أنهم تخطوا كل تلك

المسافة من ثلاثة أسابيع حين وضعوا أقدامهم فيها وحين وقّعوا آخر

ورقة مهادنة واستلموا آخر قطعة سلاح وبدءوا بمحاربة مجموعات

جديدة متمردة تبعت يوما لابن راكان وبقايا تلك الجماعات الإرهابية

المتحصنة في تلك المدن التي عانت مؤخرا من تزعزع كبير في

استقرارها وغاصت فيها بعض القبائل في مشاكل ومخلفات لبعض

الأعمال الفردية ليجد العقد الكثيرة المتشعبة في انتظاره تطالبه بالكثير

من الصبر والحكمة والحنكة التي طالما اشتهر وعرف بها هناك لحل

تشابكها فقضايا الثأر المتأصل كانت دائما نواة لأعظم المشاكل التي

واجهتهم ، وجد الكثير والكثير في انتظاره وهو يستلم باقي ثلثي ذاك

القطر من البلاد ... أموال نهبت قضايا علقت حتى تحولت لكوارث

راح ضحيتها الكثيرين ، أيتام سلبت حقوقهم جورا وعائلات عاشت

تحت خط الفقر لأنه لم يتم توزيع الأموال التي كانت تصلهم بعدل

أرامل ومطلقات وأسر تحتهم لم يوفروا لهم ما يقتاتون به يومهم

ومرضى أهملوا درجة الموت وأراض سلبت من أصحابها جورا

وظلما ليجد نفسه ورجاله يربطون ليلهم بالنهار ليس لإمساك كل

أولئك المتمردين ولا الإرهابيين ولا لإعادة هيكلة تلك المدن المدفونة

تحت الإهمال بل لمحاولة نصب ميزان العدل وسط أولئك الناس ليأخذ

كل ذي حق حقه ، وتفاجئوا بكم الأشخاص الذين توافدوا على كل مكتب

أنشأوه في كل مدينة وهم يتلقون الشكاوى ويسجلون أسمائهم ضمن من

لم يستلموا من زعيمهم وخزينته قرشا في يوم ، فكرسوا جهدهم ووقتهم

لانقاد باقي تلك العائلات من الفقر والجوع ونزلت الطائرات المحملة

بمختلف المؤن لتوزع على الناس في أول مرة بعد اتفاقية أولى موقعة

بخط يده بعد إمساكه تلك البلاد للغذاء مقابل النفط من قبل بعض الدول

المجاورة لأنه أغلق جميع تلك الحقول ما أن استلمها كما فعل في الحالك

ولم تعد تضخ البلاد إلا بقدر معين مقابل أشياء ينتفع بها الجميع حتى يتم

إنشاء منشئات نفطية داخلها وهو حلمه الأخير الذي يتمنى الوصول له

يوما لتسكب تلك الأرض خيراتها فيها فتنموا وتكبر وتزدهر كغيرها

. ومثيلاتها من البلدان بل ولتسبقهم بكثير

نظر له مركزا نظره على عينيه وقال " جيد وما يزال أمامنا الكثير

" أهم ما في الأمر أن لا نروع الناس ونفتح أبواب أخرى للشائعات

وبعد عدة أوامر منه غادر ذاك ونظره يتبعه وذهنه مع ما وكله

لتلك الزمرة ومدى نجاحهم فيما سيفعلونه

أنت تسير في الطريق الصحيح ، الأمور لا أراها إلا في "

" تحسن ملحوظ

عاد بنظره للواقف أمامه وقال بجدية " لا أريد أن نطمئن ونغفل

عن أمور صغيرة قد تسبب لنا مشكلات أكبر من حجمها مستقبلا

" فلن نستهن بالوضع أبدا

قال الآخر مبتسما " خطتك كانت ناجحة بشكل مبهر فاق توقعاتنا

جميعا مشايخ الهازان ونراها تسير في الطريق السليم ، وأيضا فكرة

دمج من انضموا تحت لوائك مؤخرا مع الناس هنا كانت صائبة جدا

وأفادت في طمأنة الكثيرين وهم يحدثونهم عما لقوه منذ دخلوا تحت

" حكمك وسلموا مدنهم لك ، لقد ساعد ذلك بشكل لم نتصوره

قال ونظره ينتقل بين ثلاثتهم " لازال أمامنا دمجهم مع الحالك فكم

أتوق لرؤية ذلك اليوم الذي تنسى فيه الناس عبارة هازان وحالك

وحتى صنوان وأن نكون بلادا واحدة تعريفنا بالقبيلة فقط وليس

" ثلاث أقطار ومسميات فوقها

قال أحد أولئك الواقفين أمامه وبإعجاب واضح " أكثر ما يعجبني

فيك أنك لم تفعل كما حاول الكثيرون فعلها حين ترأسوا بلادا كبلادنا

أول ما حاولوا فعله محو القبيلة ومحاولة دمج الناس في أحزاب
سياسية

ونسوا أن ذلك لن يسبب إلا دمارا لكل شيء وتتناحر القبائل في النهاية
"

ثبت ياقة معطفه بيده وقال بجدية " القبيلة نسيج قوي ورائع أيضا
ومن

السخف محاولة تفكيكه حتى يتلاشى ثم أنا لست رئيسا عليكم تذكر ذلك

جيدا وكل ما سنفعله الآن محاولة تسيير الهازان ، أريد كما لي أذرع

وأيدي قوية في الحالك تسيّر الأمور وقت وجودي هنا وأثق فيهم كنفسي

أن يكون كذلك هنا ومن رجال الهازان ذاتهم وبالتدريج حتى يخرج رجالي

من مدنكم لتقوموا أنتم بكل هذا الدور ، سنبدأ بقبول المجندين الجدد منكم

سننظم المقرات ونؤسس جهاز شرطة صغير مؤقت وهو مخططي القادم

للحالك أيضا ، سنجلب مدربين من الحالك لتدريب الجنود في الهازان

والعكس وبذلك سنبدأ أول عملية دمج ثم ننتقل للمدارس ونتبادل الأساتذة

فالأطباء والممرضين ، أريد أن يرى الناس أن من يخدمهم من القطر

الآخر ... من يعلم أبنائهم ويدربهم وحتى يداوي مرضاهم ثم ننتقل

للندوات المشتركة والحوارات الوطنية وسنبدأ بأهم نقطة وهي قانون

عقوبات لخرق الهدن وعمليات القتل الفردية سواء كان القاتل

" من الحالك أو الهازان

قال أحدهم " أرى أن كل هذا تفكير منطقي بل ورائع لكني

أخشى أن يأخذ وقتا طويلا "

نظر له الواقف بجانبه وقال " بل أراه سيكون أسرع مما نتخيل بكثير

فأهم ما في الأمر ثقة الناس بمطر شاهين وهذا ما أراه حدث وبقوة

خاصة مع ما قدمه لهم والباقي سيأتي بالتدريج وأتوقعه في

غضون أشهر قليلة "

قال مطر " هذا أمر لا يمكن فعله بسهولة فثمة من سيصعب عليه

نسيان الدماء والأحقاد لكنه سيحدث وإن بعد حين "

قال المقابل له مبتسما " فكرة التعويض وصندوق دفع الدية قلصت

من مشاكل الثأر بيننا وبينكم بشكل كبير ، لقد حسبت حساب كل

شيء وبدقة ، أرفع لك القبعة يا زعيم ، أمثالك لا أعرف كيف

يسيرون حياتهم الخاصة ! اجزم أنها خالية من الثغر

وهنيئا لأهلك بك "

ابتسامة ساخرة تغلبت على طرف شفته القاسية وأبعد نظره عنهم

قائلا " إذا غدا نلتقي في المقر الذي جهزتموه ، أريد جميع من ذكرتم

هناك لن نوقف اجتماعنا حتى ندرس جميع النقاط ونبدأ بعدها

" المرحلة الفعلية لتسيير الأمور هنا

هزوا رؤوسهم بالموافقة وتفرقوا بعدما تصافحوا بودية ولم يبقى غيره

هناك ورجاله المحيطين به على بعد خطوات قليلة يكثفون الحراسة حوله

بتشديد كبير وهو يتنقل داخل الهازان التي لم يضمنوا الأمان فيها بعد وما

كانوا ليتركوه دون حراسة حتى إن كان ليلها كنهارها وكانت أأمن عليه

من الحالك فبإصرار منهم تغلبوا عليه فيه وضعت تلك الحراسة المشددة

حوله وهم مجموعة رجال مدربين أفضل تدريب يرافقونه كظله أينما انتقل

داخل مدن الهازان التي أصبحت تحت حكمه من أدناها لأقصاها ويعمل

بجد على تسليمها لأبنائها ما أن يتم تسيير أمورها ويكون هو المتصرف

في كل شئونها وإن كان خارجها ، تحرك جهة تلك الصخور رافعا يده

في إشارة لمن تحركوا مع حركته فورا ليبقوا بعيدين عنه لكن ذلك لم

يمنعهم من مراقبة المكان بأعين لا تغفل شيئا ، اقترب أكثر حتى أصبح

رذاذ مياه ذاك الموج الغاضب يصل لحدائه الجلدي وأطراف بنطلونه

ومعطفه وغاب بنظره في الأفق البعيد يداه في جيوبه والهواء يحرك

خصلات شعره القصير ومرت تلك العبارة أمام عينه فور (أمثالك

لا أعرف كيف يسيرون حياتهم الخاصة ! اجزم أنها خالية من

الثغر وهنيئا لأهلك بك)

أخرج يده من جيبه ورفعها أمام وجهه ونظر للمنديل الذي يقبض

عليه فيها بقوة ووقع نظره تحديدا على تلك العبارة من كل ما

(كتبت عليه (أحب الكاسر أكثر من أي شيء

أبعده منزلا يده ونظر للأفق من جديد ولا يعلم كيف لم يفكر بمنطق

في كل تلك العبارات التي لم يكن اسم ذاك من ضمنها ولا حتى حرف

من حروفه ونعتتهم في كل مرة بأخوتي أو أشقائي ، شد قبضته على

ذاك المنديل أكثر ورحلت به الذكرى لأحداث تلك الليلة العاصفة الليلة

التي عرف فيها ذاك كيف يستغله ويستغل غضبه وحين دخل عليها

الغرفة ووجدها ملتصقة بالجدار تنظر له بجزع لم يرى منه شيئا

من شدة غضبه وهي تحاول التحرك جانبا قائلة بصوت مرتجف

" مطر ما بك ماذا فعلت لك ؟ "

فانفجر فيها كالبركان وهي تحتمي بذراعها على وجهها وتمسك بيدها

الأخرى أسفل بطنها خوفا على نفسها وجنينها منه ولا تعلم أنه قد

يرضى بقطع يده ولا أن يمدها عليها ، لن يسامح نفسه ما عاش إن

فعلها سابقا فكيف الآن وهي تحمل طفله ، كان غضبه أسودا لم

يرى معه شيء وتفوه بأمور ما كان عليه قولها وهو يحترق

. ولا يستطيع ذكر سبب غضبه الحقيقي ولا سؤالها

نظر فوقه للسماء التي ازداد لونها القاتم بسبب تجمع الغيوم فيها والهواء

يحرك شعره القصير للخلف متلاعبا بخصلاته كتلاعبه بياقة معطفه

حول وجهه ، كل ما يحاول فهمه واستيعابه سبب ما قاله جبران ذاك

وحقيقته ! لماذا قال ما قال وعلى ماذا استند وما سبب هلوستها باسمه

خصيصا وما سر المكالمة التي كانت بينهما وما ذكره عن إخراجها

من هناك واتفاقهما على ذلك ؟؟ أغمض عينيه برفق لتمر صورتها

أمام عينيه وأول ما تذكره قربها الشديد منه في تلك اللحظات القليلة

التي جمعتهما فوق سرير واحد ، تذكر فورا استيقاظه من نومه ليلا

بسبب قبلاتها لشفتيه وضحكتها الرقيقة ما أن يفتح عينيه ليعود

" ويغلقهما هامسا بابتسامة " توقفي عن هذا يا مشاغبة

ولا تستسلم حتى يفتحهما مجددا ويرعي سمعه وكل انتباهه لها وهي

تتحدث وأصابعها تداعب شعر مؤخرة عنقه لأن النوم جافاها وقد

استفاقت منتصف الليل ولن تتركه يعود للنوم حتى تغفى هي أولا

ليستلم مهمة تغطيتها جيدا ودسها في حضنه كطفلة اعتادت أن

. يهتم غيرها بجميع أمورها

قبض أصابعه بقوة وفتح عينيه ولازال نظره على تلك الغيوم السوداء

! وما يكاد يرسل عقله للجنون كيف أن تلك يكون في قلبها رجل آخر

تنفس بقوة وهمس من بين أسنانه " جبران شراع صنوان ليرميك

" القدر أمامي مجددا فقط

وغادر من هناك عازم على أمر واحد بخصوص ذاك الموضوع

*

*

دخل المنزل الساكن الصامت رغم أن الوقت كان منتصف المساء

أغلق الباب خلفه وتوجه جهة ممر غرفته التي لم يدخلها من أشهر

كما هذا المنزل الذي غادره كسير القلب والروح وأقسم على أن لا

يدخله إلا بعودتها وهذا ما بات متأكدا منه الآن ، ما أن سلك الممر

حتى توقف فجأة لظهور عمته أمامه تمسك في يدها زجاجة حليب

أطفال وقد فغرت فاها مصدومة تنظر لوجهه ثم سرعان ما

" !! أمسكت بكم سترته وقالت بابتسامة واسعة " جبران

وضمته لصدرها سريعا قائلة بحزن " ما أسعدها من ليلة هذه

" أين أنت بني لقد اشتقت لك يا جبران

مسح بكفه على ظهرها وقال بهدوء " أنا بخير عمتي وها

" أنا أمامك ولن أغادر مجددا

! ابتعدت عنه ونظرت له بمفاجأة وسعادة وقالت " حقا لن تغادر

" هل غيرت رأيك أخيرا ؟

" أبعد نظره عنها وقال " نعم سأبقى هنا

" ثم نظر ليدها وللزجاجة فيها وقال " هذه تخص ابن الكاسر عمتي ؟

" هزت رأسها بنعم وقالت بحزن " أجل لابنه

" نظر لعينيها وقال بلهفة " أين هو عمتي أريد أن أراه

قالت من فورها " غدا تراه بني فما صدقت أن نام أخيرا فهوا منذ

ليلة أمس في بكاء مستمر لم يجدي معه ولا علاج الطبيب حتى

أحضر والدك إحدى العجائز وعالجته بالأعشاب ولم أصدق

" أنه سكت ونام أخيرا

" هز رأسه بحسنا وقال ناظرا لعينيها " وما أخبار رعد ؟

تنهدت بحزن قائلة " لا أخبار تامة عنه حتى الآن سوى أنه

" موجود في الحالك وابن شاهين وعد بتسليمه لنا

" ابتسم بسخرية وهمس " كاذب هل تصدقونه حقا عمتي ؟

نظرت له بحيرة وقالت " وما يضطره للكذب ؟ إن لم يرد تسليمه

" لقالها ولن يجبره أحد ، وهو إن قال فعل وهذا ما عُرف عنه

" تمتم ببرود " لن يفعلها الآن عمتي وستري بعينك

سحبته من يده قائلة " أتركنا من كل هذا وتعالى لترتاح في غرفتك

حتى أحضر لك شيئا تأكله ، حمدا لله أن غيرت أفكارك المجنونة

تلك أخيرا "

وغادرت الغرفة متمتمه حامدة لله ونظره يتبعها حتى اختفت وقد همس

بابتسامة ساخرة " سأكون هنا وأنتظر عودتها فلن تتأخر كثيرا "

توجه للنافذة وفتحها ليتدفق الهواء البارد منها منتشرا في أرجاء تلك

الغرفة المهجورة من أشهر ووقف أمامها ونظر للسماء المتلألئة بالنجوم

مؤكد هو من أجاب على الهاتف تلك الليلة فغسق تنام باكرا طوال (حياتها

وهو عاد في ذاك اليوم من سفره ، وإن كان شخصا آخر من عائلته من

أجاب لكان تحدث ، كما وأن الأخبار حوله تقول أنه في الهازان منذ

شهرين لم يغادرها وأنا أكثر من يعرف معنى أن يدخل الشك عقل

رجل فكيف إن كان ذاك الرجل ابن شاهين تحديدا وفي مواجهته

(امرأة كغسق يخشى النسيم من جرح نعومة خدها

مرر أصابعه في شعره يرفع رأسه أكثر وابتسم بانتصار هامسا

توج انتصاراتك الحربية يا ابن شاهين لتختمها بفشلك المريع "

وأنت تطلق زوجتك وهذا ما سيحدث قريبا وقل جبران قالها

" وليرجع الحق لأصحابه

*

*

حركت المكعب بأناملها البيضاء الرقيقة أمام عينيها مرتمية فوق

سريرها تراقب الصور المتقاطعة فيه بشرود حزين ، اللعبة التي لم

تفارقها حياتها سوى فترة وجودها هنا وحتى حين دخلت الحالك
دستها

في سرج ذاك الجواد وضنت أنها اختفت معه كمنديل الكاسر وكشقيقها

. الحبيب ذاك وكجميع أحلامها الجميلة التي تلاشت مع مرور الأيام

مسحت دمعة تدلت من رموشها وأغمضت عينيها برفق لتهرب من

ذكرى لأخرى أقسى منها وما حدث تلك الليلة يمر أمامها كالشريط

صوت صراخه باسمها وهو يصعد السلالم ودخوله الغاضب للغرفة

وانفجاره فيها لحظة دخول جوزاء راكضة وهي كانت الشخص الوحيد

الذي هجره النوم تلك الليلة بعد سبع ليال نامت فيها وابنيها في حضنها

لتنام بعدها وحيدة في ذاك السرير الواسع الخالي وكانت هي من سمع

صراخه وهرعت مسرعة ولحقت به ودخلت الغرفة خلفه بلا تفكير

ووقفت بينهما ترفع يديها مانعة له عن الوصول لها تحاول التحدث

معه ودون جدوى لأنه لم يكن يسمع سوى صوت نفسه ولا

. يرى أحدا أمامه يرميها بتلك الحقائق كالرصاص

سالت دمعتها مجددا فأمسكت بطرف ملاءة السرير ودفنت وجهها

فيها وهي تتذكر كل تلك العبارات الغاضبة التي رماها بها (تريدين معرفة السبب يا غسق ؟ معرفة ما بي وما ذنبك أنتي ؟ تريدين فتح الجراح وكشف الحقيقة المرة ؟)

رمى يده بعنف وصرخ أكثر لا يفصله عنها سوى جسد جوزاء التي تمسك به بقوة ليبتعد (ما رأيك برجل طعن في كبريائه وكرامته ؟ ماذا تتوقعين من رجل انتظر امرأة لأعوام وعاش لها فقط لا ينظر ولا بطرف عينه لامرأة أخرى ليأخذها منه غيره ليكتشف أنها فضلت غيره عليه ، امرأة داس على كرامته من أجلها تنازل من أجلها ... عشقها سمعتي عشقها هي وحدها ليكتشف أنها لغيره أنها باعته بأرخص منه أنها تلاعبت به أنها تخطط للزواج من غيره وأنها لم تستحق عمره الذي أضاعه ينتظرها)

دفنت وجهها في اللحاف أكثر وزاد بكائها وعبراتها وهي تتذكر

صوت تلك المرأة التي أجابت عليها في الفندق ولم تجد غيرها لحل

كل تلك الألغاز فيما قال فمن ستكون المرأة التي عشقها وانتظرها

لأعوام وهي تخطط للزواج من غيره وقد أضاع عمره من

أجلها ؟ صرخت تلكم السرير بقبضتها بقوة " وأنا ما مكاني

من كل ذلك ؟ لماذا تزوجني إن كان ثمة امرأة أخرى من

" أعوام أضاع عمره من أجلها ؟

اشتدت عبراتها وهي تتذكر سؤال جوزاء له يوم كانوا قرب

ذاك الجواد عن أثر ذاك الجرح في عنقه وقد أجابها ببرود

" أمر لا أهمية له وتصفية حساب قديم "

ليربط عقلها الأمور مجددا بسفره وتلك المرأة وغدر امرأة به كما

ذكر فلم تجد سوى تحليلا واحدا وهو شجار بينه وبين من قال أنها

اختارته زوجا وتركته من أجله ، مر عليها الوقت وهي في بكائها

ذاك حتى سمعت صوت أذان الفجر فغادرت السرير بخطوات

واهنة حتى وصلت الحمام دخلته وتوجهت للمغسلة فورا وأفرغت

كل ما في جوفها رغم قلته ويدها تقبض على معدتها بقوة حتى شعرت

بروحها ستخرج من جسدها ولازالت تستغرب في ذاك الطفل الذي

لازال متمسكا بالحياة في أحشائها الميتة ، توضأت وخرجت

للغرفة صلت الفجر والصبح واتكأت على السرير مجددا تراقب

النافذة المغلقة وانبلاج الفجر من خلف زجاجها الواسع ، فكرت

في حياتها منذ كانت طفلة وفي تغيرها القاسي يوم علمت أنها

ليست ابنة من ضنت لأعوام طويلة أنه والدها ، أخوتها ليسوا

بأخوتها وعمتها امرأة غريبة لا قرابة تربطها بها سوى أنها

شقيقة زوج والدتها ، تذكرت كم كانت حياتها رائعة ومختلفة

كانت تشعر بأنها شخص موجود في هذه الحياة قبل أن تفجعها

الحقيقة وتتحول جميع مشاعرها تلك لفراغ وهي ترى نفسها بلا

هوية ، إنسانة عبارة عن علامة استفهام رميت في أرض الواقع

لتبقى لغزا فيها للأبد ، وانتهى بها الأمر أن وجدت نفسها في هذا

المكان في عالم ليس عالمها وأناس آخرون ليسوا أهلها ورجل

هابته طوال حياتها وجدت نفسها فجأة أسيرة حضنه تشاركه حتى

مضجعه ، رجل ضنت أنه بوجوده قربها قد حضت بكل ما خسرته

سابقا وأغناها عن معرفة حتى هويتها المجهولة لتكتشف أنه مجرد

جلاد ظهر في حياتها ليعلمها درسا آخر قاسيا من الدروس التي

لم تتعلمها بعد (لا تثقي في رجل ولا تسلميه قلبك ومشاعرك)

قبضت على قماش الملاءة أكثر وهمست بوجع " ليتني ما

عرفتك يوما يا مطر "

طرقات خفيفة على باب الغرفة عادت لربطها بذاك العالم مجددا

الفطور جاهز والسيدة سيدتي " ووصلها صوت حبيبة قائلة

نصيرة تسأل عنك "

قالت بعد برهة ونظرها لازال معلقا بتلك النافذة " لا أريد يا حبيبة

" لا رغبة لي في أكل شيء

سمعت خطواتها تبتعد وما هي إلا لحظات ووصلها صوت عجلات

كرسي عمتها فجلست ترفع شعرها عن وجهها لحظة ما طرقت تلك

الباب ثم فتحته ودخلت ونظرت لها قائلة بلوم " غسق لن أسمح لك

بإهمال طعامك وصحتك أبدا ، بالأمس لم تأكلي جيدا واليوم

ترفضين الطعام ، أنظري لوجهك في المرأة كيف أصبح

" أصفرا وباهتا وكئيب

قالت تكابد دموعها كي لا تنزل " أريد والدي عمتي ليرحمني

" ابن شقيقك ، لم أعد أريده أرجعوني من حيث أتيت

اقتربت من سريرها وقالت ما أن وصلت عندها " غسق ما هذا الذي

تقولينه ؟ هل بعد أن ربطكما طفل واستقرت حياتكما لفترة ترجعا

" للصفر ؟ ثم الخيار في رجوعك لوالدك لم يكن بيدك منذ البداية

لوحت بقبضتها في الهواء قائلة بحرقة " أجل فأنا سجينته منذ البداية

وكوني لم أعترض ليس معناه أني رضيت وقتها ، وحين استسلمت

لواقعي وظننته رجلا يستحق أن أضحي بكل شيء من أجله

" خذلني فيه

ضربت بقبضتها على قلبها وقالت ودموعها تتدحرج على وجنتيها

سلمت له هذا عمتي ، وثقت به منحته غسق بأكملها ثم ماذا ؟ جاء "

ليعترف لي بعشقه لامرأة أخرى ويحملني ذنب خيانتها له مع غيره

ماذا فعلت له يفعل بي كل هذا ؟ ما ذنبي أنا غير أني أخطأت خطأ

عمري ودخلت حدوده في تلك الليلة ولم يكن في نيتي إيذاء أحد

أقسم لم أنوي أن أؤذي ولا نملة في أرض الحالك لينتهي بي الأمر

هنا وهكذا ، من طلب منه أن يتزوجني ؟ من أجبره على ذلك

" إن كان يريد امرأة أخرى لم يستطع الوصول لها

مدت يديها لها فارتمت من فورها في حضنها تكمل بكائها الموجع

فيه وهي تمسح على شعرها بحنان وحزن تقرأ عليها ما تحفظ من

آيات حتى هدأت وخف بكائها واستسلمت للنوم بين ذراعيها وهي من

لم تنم طيلة تلك الليلة ولم يقرب النوم جفونها ، عدلتها على السرير قدر

استطاعتها وسحبت الغطاء فوقها وجلست عند رأسها تمسح على شعرها

تراقب ملامحها الجميلة الشاحبة بحزن وعجز عن إيجاد حل يريحها ولو

قليلا ، وما أن انتظم تنفسها وغرقت في نوم عمق قبلت جبينها وعدلت

لها الغطاء أكثر وتحركت بكرسيها وخرجت من الغرفة وأغلقت الباب

خلفها وعادت أدراجها جهة غرفة الطعام ودخلتها فقالت جوزاء

" ما أن رأتها " ألن تأتي ؟

اقتربت تحرك عجلات كرسيها حتى وصلت للطاولة وقالت

" نامت وذاك أفضل لها الآن وسنجبرها على الأكل فيما بعد "

" ثم نظرت لشقيقها الذي قال ناظرا لها " وكيف هي صحتها ؟

هزت رأسها بأسى وهمست " ستضر بنفسها على هذا الحال فلن

" يتحمل جسدها ولا الجنين بداخلها الضغط النفسي الذي تمر به

" وتابعت متسائلة " يبدوا أنك لم تتصل به كما طلبت منك

عاد بنظره لطعامه وقال " بلى ومنذ البارحة أحاول معه وإما هاتفه

" مقفل أو لا يجيب عليه ، أنتي تعلمي الوضع هناك وانشغاله

قالت بضيق " انشغاله بماذا ؟ هل الهازان تحتاجه أكثر من زوجته ؟

" هل اهتمامه بمشاكل الناس هناك أهم من حل مشاكله المعلقة هنا

بسط كفيه قائلا بنفاذ صبر " وما في يدي أنا وما ذنبي أتلقى

" توبيخك كلما رأيتني ؟

قالت بذات ضيقها " ذنبك أنك عمه والوحيد الذي يمكنه الوصول

له فاتصل بأحد رجاله يعطيك إياه أو اذهب له بنفسك هناك أو

" قسما تصرفت بنفسي

أخرج هاتفه متأففا وأجرى اتصالا أجاب صاحبه بعد برهة فقال

" ما أن فتح الخط " أين زعيمك لا يجيب على هاتفه ؟

سكت لبرهة ونظراتهما معلقة به وهو يعقد حاجبيه قائلا

" ومتى ينتهي اجتماعهم هذا ؟ "

... هز رأسه بحسنا وقال " حين تخرجوا من هناك أخبره يتصـ

" لا لا تخبره شيئا بل اتصل بي لأكلمه مفهوم

ثم أبعد هاتفه وقال وهو يدسه في جيبه " قال أنه في اجتماع مع

" كبار رؤوس قبائل الهازان وما أن يخرج سأتحدث معه

ثم وقف وقال مغادرا " وأنا من سيقتلع عينيه حين يرجع

" لأني من تلقى عقاب أفعاله

*

*

تابع حركة التي كانت ترتب الغرفة في صمت حتى انتهت

وحملت سلة الغسيل لتأخذ ثيابه المتسخة وملاءات السرير

" فقال قبل أن تخرج " أين أستريا لم تأتي ؟

التفتت له وسندت السلة على وركها وقالت " تساعد والدتي في

المنزل وأخبرتني أن أقوم بكل شيء بدلا عنها ، هل من شيء

" تريد أن أسالها عن مكانه

" قال من فوره " أريدها هي ، هي من تعرفه جيدا فأخبريها تأتي

حركت كتفيها وغادرت من هناك ونظره يتبعها حتى اختفت ثم نظر

للنافذة ولتلك السماء البعيدة المغيمة بشرود وأخذته أفكاره وسبحت

به في كل ما مر عليه منذ دخل هذه الحدود فأكثر من شهرين مرا

على وجوده هنا سجين هذه الغرفة والسرير لا يعلم عن عائلته شيئا

وليس يعلم فهم رماح رسالة أستريا ومكالمتها أم ضن أنها مجرد

كذبة ؟ ما يريحه أنه علم أن شقيقه بخير وهذا أكثر ما كان يؤرقه

ويتعبه فوق تعبه ، حالته أصبحت في تحسن مستمر وبقي أمامه

أسابيع قليلة ويسمح له الطبيب بمغادرة السرير كما أخبره ، لا

يصدق أنه نجا من ذاك الحادث المريع وأنهم تمكنوا من إنقاذه

وهم يضعونه في هذا المنزل واكتشف أنهم يتقنون طب الأعشاب

بشكل مبهر قد أذهله وقد وجدوا لأنفسهم حلولا كثيرة لنقص المعدات

الطبية ، نزل بنظره للكتاب بجانبه ثم رفعه وفتحه حيث توقف آخر

مرة وقد اكتشف هنا سر انجذاب غسق ورماح سابقا للكتب ولمكتبة

منزلهم فقد وجد في كتب التاريخ متعة لم يتوقعها أبدا ، انسجم سريعا

في القراءة وانفصل عن العالم حوله ولم يشعر بمرور الوقت حتى

سمع صوت خطوات تقترب من غرفته ثم انفتح باب الغرفة فنظر

بترقب ينتظر التي ستدخل منه وتحولت نظرته للاستغراب وهو

ينظر للتي دخلت وكانت أول مرة يراها فيها وقد نزعت القميص

الصوفي عن جسدها فورا لتبقى بفستانها عاري الأكتاف والصدر

كاشفا عن بشرتها الناصعة الصافية ، كانت بجمال ملفت للنظر

وشعر بني فاتح مموج لكن في نظرتها شيء ما لمحه وكأنها

تحكي عن سواد قاتم في قلبها وبشاعة غريبة داخلها عكس ما

يظهر على خارجها ، استغرب دخولها هنا ومن تكون ولا أحد

يدخل ذاك المنزل غير ابنتي الزعيم كما أخبرته أستريا سابقا

وأنه ثمة حراسة عند الباب كي لا يتعرض له أحد أو يدخل

!! له ومن أجل حمايته فمن تكون هذه ومن أدخلها

نظرت لكل شيء حولها قبل أن تنظر جهته وقالت بسخرية

" إذا أنت هو مريض آستي ؟ "

نظر لها من أسفل صعودا حتى وجهها وقال

" من أنتي ؟ "

حركت كتفها مميلة رأسها وأصابعها تتخلل شعرها قائلة بنعومة

" اسمي جوانا ... حسنا ما اسمك أنت ؟ "

عاد لتقييمها بنظراته ولم يجبها فقالت بضحكة رقيقة وتغنج

" ألن تتوقف عن تعريتي بنظراتك ؟ تكفيك واحدة "

نظر لها بصدمة من كلامها فاقتربت منه وجلست على طرف السرير

" وقالت تنظر للغرفة " لم تجبني أنت مريض آستي أليس كذلك ؟

ابتعد لطرف السرير الآخر رغم ضيق مساحته وقال ببرود

" أجل أنا من تعتني به آستريا وشقيقتها فماذا تريدين "

ضحكت برقة ومدت يدها جهة كتفه قائلة " ما بك مذعور مني

" هكذا ؟ اعتبرني آستي ألا ينفع ذلك ؟

أمسك معصمها ليبعد يدها لحظة ما انفتح باب الغرفة كاشفا عن

الواقفة خلفه وقد نظرت جهتهما بصدمة فاستلت تلك معصمها

من يده ووقفت تنظر لها بابتسامة ساخرة فدخلت وتوجهت نحوها

بخطوات غاضبة ودفعتها مبعدة لها من هناك قائلة بغضب " ما

" الذي أدخلك هنا أنتي ؟ ابتعدي عنه فورا فهو ليس من شاكلتك

مسدت تلك ذراعها حيث أمسكتها وسحبتها منها وقالت بذات

" سخريتها اللاذعة " جميل .. هو من شاكلتك إذا يا سارقة

وقفت بينها وبين سريره وقالت رامية يدها جانبا " سارقة أفضل

من فـ ... أنا أنزه من أن أقول كلمة مثلها فابتعدي عنه لأنه

" أصغر منك وأعتقد أنه ليس من النوع الذي يعجبك

كتفت تلك يديها لصدرها وقالت ناظرة له من فوق كتف الواقفة

" أمامها " آه أجل فهو النوع الذي يعجبك أنتي

رفعت كلى يديها جانبا وكأنها حاجز بينهما وقالت " لا دخل لك

بهذا المهم أنه ليس النوع الذي يمكنك التلاعب بعقله مثل الواقفان

عند الباب وغيرهم ، هو عربي مسلم وأعتقد أنك سبق وجربت هذا

النوع وأتاك منه ما تستحقين فلا تقتربي منه كي لا تهاني مجددا

" أمامي

رمت سترتها الصوفية على كتفيها وقالت بسخرية " المهم أن لا

" يكون أهانك أنتي وتركك تقتربين منه آستي الصغيرة الحمقاء

وتابعت مغادرة " كانت فرصة سعيدة يا عربي ولا أوصيك

" على قلب ابنة زعيمنا لا تجرحه وأنت تغادر وتتركها

وابتعدت ضاحكة حتى خرجت فالتفتت تلك للجالس على

السرير خلفها وقد قال من فوره " من هذه ؟ "

أمسكت وسطها بيديها وقالت بضيق " هذه التي تصطاد الرجال

لتتركهم ضحايا معذبين خلفها ولم يكسر أنفها سوى الزعيم مطر

فلا تكن أنت جروا مثلهم تلهث خلفها لسانك في الخارج ولعابك

يسيل من فمك "

لم يستطع إمساك ضحكته ولم يتوقف عن ضحكه الهستيري رغم

ضربها له بالوسادة فأمسكها منها وسحبها بقوة أوقعتها في حجره

فابتعدت عنه لحظة خروج أنينه المتألم من وقوع جسدها على جسده

المتعب تعدل شعرها وقالت بضيق " أهذا ما كنت تحاول فعله

معها ؟ تسحبها من معصمها وتوقعها عليك "

نظر لعينيها وقال بضيق مماثل " آستريا لا تكوني غبية فأنا لم

أقصد فعل ذلك معك لأفعله معها ، هي من مدت يدها نحوي

" وأردت إبعادها

" قالت ببرود " آه أجل صدقتك

قلدها في نبرتها الباردة الجافة قائلا " أجل صدقي فأنا كنت

مكاني هنا في السرير وهي من كانت مقتربة مني فما

" المنطق فيما حدث ؟

نظرت له ولجلوسه في الطرف البعيد للسرير على غير عادته

وما أن فكرت قليلا وجدت أن ما قاله صحيح فقالت بريبة

" ماذا قلتما ؟ "

تنهد بضجر وقال بعدم اهتمام " لم نقل شيئا كانت فقط تسألني

" عن اسمي

وتابع بمكر زاحفا ليعود مكانه " ولم تتركي أنتي لنا طبعا

" أي مجال لنقول

أمسكت وسطها وقالت بغضب " أجل اظهر على حقيقتك ، أعلم

أنـها تعجبك وأنك أحمق كباقي الرجال الذين يتغاضون عن حقيقتـها

الظاهرة للعيان لكنكم الرجال جميعكم متشابهون وأنا من ظننت

" أن العرب المسلمين كلهم كالزعيم مطر لكني أخطأت

اتكأ برأسه على الجدار خلفه وقال ناظرا لها بابتسامة على انفعالها

هي لم تعجبني آستريا ، نظرتها تقول أنها امرأة سيئة جدا وأنا "

" لا أحب هذا النوع ولست أعلم كيف دخلت هنا

قالت ببرود " أنا أعرف وسأخبر والدي ليعاقب الأحمقان اللذان

" في الخارج على لعبها بعقليهما ليدخلاها

وتابعت ويداها لازالتا تمسكان خصرها " وما النوع الذي

" يعجبك إذا ؟

عض طرف شفته يمسك ضحكته ثم قال ناظرا لعينيها

" النوع الذي تراه هي غبيا وصغيرا "

احمرتا وجنتيها بشدة وأبعدت نظرها عنه قائلة بابتسامة تغلبت

على خجلها " سأخبر والدي عنك أيضا "

خرجت منه ضحكة صغيرة وأبعد رأسه عن الجدار وقال

بهدوء " آسف تجاوزت حدودي حقا "

جمعت كفيها وقالت مبتسمة بحماس " لا ماذا آسف هذه ؟ ما

صدقت أن نطقت أخيرا ، أقسم لو كنت تنانيا لقفزت لحظنك

الآن وقبلتك "

نظر لها بصدمة فعضت شفاها بإحراج وأمسكت خديها وقالت

" آسفة لا أعرف كيف قلت ذلك "

عقد حاجبيه قائلا بحزم " أستريا هل هذا ما تفعلونه أنتم "

شهقت بقوة وقالت بصدمة " ما قصدك بهذا ! أنا لم أفعلها يوما مع

رجل ، يفعلها الخاطبان والحبيبان وهناك من لا يلتزم بشيء فتوقف

عن اتهامي بأمور لا نفعلها "

قال بهدوء محاولا تهدئة غضبها " لم أقصد يوما اتهامكم آستريا

أنا فقط لا أريد أن تكوني من ذاك النوع فالاستهتار موجود حتى

لدينا فلا تفهمي كل ما أقوله خاطئا "

كانت ستتحدث فقاطعها " آستريا لا تغضبي مني ككل مرة أقسم

لم أقصد ما فهمته أنا فقط .... كيف أشرحها لك الآن "

تحول غضبها لابتسامة وقالت وقد جلست على الكرسي قرب سريره

" عرفتها وحدي لا تقلها إنها الغيرة "

نظر لها بصدمة فلوحت بيديها أمام وجهها قائلة بضحكة

" لم أقل شيئا .. لا .. لا .. لا .. لننسى كل ذلك "

وتابعت وقد ضمت يديها لحجرها " هيا حدثني أكثر عن الإسلام

لقد أحببت حديثك تلك المرة عنه وبقيت طوال الليل أفكر فيما

قلته لي "

*

*

أزاحت نظرها من على التلفاز ورفعت هاتفها ولوت شفتيها ما

أن رأت الاسم الذي ظهر على شاشته وهمست وهي تفتح

" الخط " فعلها ذاك البربري كما توقعت

عادت بنظرها للفيلم المعروض على شاشته وقالت مبتسمة لمن

" في الطرف الآخر " مرحبا مطر كيف حالك ؟

" قال من فوره " هل صحيح ما سمعته ؟

" تنهدت وقالت ببرود " وما الذي سمعته ؟

وصلتها نبرته المدججة بالتهديد والتي تعلم عواقبها جيدا " ماذا

" قلنا عن النوادي الليلية يا غيسانة وعلى ماذا اتفقنا ؟

أغمضت عينها متنهدة بضيق وقالت " قلنا لا أذهب لها مجددا

ولا أغادر المنزل ليلا ولا أستقبل رجالا فيه وأمور كثيرة

" تنتزع الروح من الجسد

وتابعت بضيق وقد فتحت عينيها " لكني مللت من هذا الوضع

واختنقت من التقييد وما كنت أريد الذهاب له لكن صديقتي أصرت

عليا حتى أتعبت لي رأسي ، ثم أنا ذهبت برفقتها وليس برفقة

" ...رجل وكلها دقائق وكنت سأخرج من هناك و

قاطعها بضيق " والرجل الذي كان معكما والساعة وقتها ؟ لا

" تشعريني في كل مرة أنك طفلة أكثر من سابقتها

نفضت يدها الحرة قائلة بضيق أكبر " ماذا ترك ذاك الهمجي لم

يخبرك عنه ؟ كنت أعلم أنه سيضخم الأمر فهو من يوم خرج

" في حياتي جعلها سوداء كشعره

قال بحزم قاطع " يوم قلت لي أنك تكرهين فرض الأمور عليك وأنك

ستقتنعين بدمائك وانتمائك وبالإسلام يوما لكن دون ضغط ولا إكراه

ضننت أني أستمع لكلام من امرأة عاقلة تعرف ما تقول وليس لإسكاتي

بتلك الكلمات حتى أبتعد وتفعل ما في رأسها ، قلنا لا خروج مع رجال

ولا ملاهي ليلية ولا رحلات لوحدك ولا بقاء خارج المنزل بعد مغيب

الشمس وكان كله برضاك وحضور والدتك والمقابل أن أترك لك حرية

اتخاذ قرارك في الوقت الذي تريه مناسبا وأن لا أتعامل معك بقسوة

كتلك المرة التي تذكرينها جيدا وأن لا آخذك من والدتك ولا أخرجك

من بلادك إلا برضاك ، وخرقك لشروطي سيكون معناه خرقا

" لشروطك أيضا ولن يكون ذلك ظلما مني لك كما أعتقد

أنزلت كتفيها متنهدة بقلة حيلة وقالت بهدوء ميزته نغمة صوتها

" الرقيقة " حسنا آخر مرة أفعلها فقط لا تغضب

ثم شدت على أسنانها قائلة " وأخبر ذاك البربري المتوحش

أن يبتعد عن طريقي ويتوقف عن مقارنتي بغيري وعن

" مراقبتي أو قسما بلغت عنه الشرطة

قال بحزم أشد " بل سأوكل بنفسي من سيتحقق من تطبيقك

" للشروط فلم أعد أثق بكلامك ووعودك .... وداعا

أبعدت الهاتف عن أذنها حين انقطع الاتصال فجأة ثم رمته على

الأريكة بجانبها متأففة بحنق ورفعت جهاز التحكم تضغط أزراره

تغير القنوات دون تركيز ولم تنتبه ولا للتي جلست بقربها حتى

" قالت " غيسي هل كنت تحدثين شقيقك ؟

رمت جهاز التحكم ونظرت لها وقالت بحنق " أجل ، كنت أحاول

الاتصال به من أيام ولا أحصل عليه وها قد اتصل بنفسه ولم

يترك لي مجالا ولا لطلب المال منه ولن يوافق أبدا بعد الذي

" أخبره به ذاك النكرة

نظرت لها باستغراب وقالت " مال ماذا هذا الذي تريدينه ؟

" أين المال الذي أرسله من وقت قريب ؟

" وقفت وقالت بضيق " انتهى فما تضنيه أنتي مليون يورو ؟

وتابعت مغادرة وبذات ضيقها " عليا البحث عن عمل آخر الآن

فليهنأ بها ذاك البربري "

*

*

دخل مغلقا باب الجناح خلفه فرن هاتفه موقفا له وسط ردهته

فتوجه جهة الأريكة وأخرجه من جيبه وجلس وأجاب قائلا من

فوره " حتى الليل لتتصل ؟ ألم أخبر ذراعك اليمين ذاك أن يتصل

بي ما أن تخرج من الاجتماع أم لا يستطيع إلا إطلاعك على

كل شيء ؟ "

وصله صوت تنهده الواضع وقال ببرود " خرجنا في وقت متأخر

وحتى الطعام تناولناه في الداخل ثم انتقلنا لعدة أماكن معا وما أن

وجدت وقتا ها أنا اتصلت بك بنفسي ، ما كان ليفعل لك تميم

شيئا وأنا مشغول "

ضرب بمقدمة حدائه على الأرض قائلا ببرود مماثل " ولأنك

متعب لن أطيل عليك ، متى ستأتي أم قررت أن تهجرنا للأبد

" وأعجبتك الهازان ؟

قال متجاهلا تعليقه الأخير " سأزور الحالك خلال أيام ثمة أمر مهم

" عليا القيام به في الشرق ، هل من مشكلة تواجهك هناك ؟

صر على أسنانه قائلا بنفاذ صبر " ثمة مصائب تركتها أنت خلفك

بعيدة عن الحالك جميعها وعليك حلها ففكر في زيارة منزلك

" حين ستأتي لمشاغلك تلك

ساد الصمت من طرفه حتى ضن أنه أغلق الخط فقال

" مطر هل تسمعني ؟ "

" وصله صوته هادئا " هل من مكروه أصاب أحدهم ؟

" قال عمه من فوره " أحدهم من تعني تحديدا ؟

" اختفى صوته لبرهة قبل أن يقول " غسق أعني طبعا

" تمتم ببرود " جلف كوالدك

" وصله صوته مباشرة " ماذا قلت فلم أسمعك ؟

" قال ببرود " قلت احضر فورا إن كانت حياة زوجتك تعنيك

وفصل الخط ما أن أنهى كلامه كي لا يسمع رده وتجاهل اتصاله

بعدها ولم يجب عليه وما أن وقف ليتوجه لغرفته حتى رن هاتفه

مجددا وكان رقما آخر فتح له الخط فورا فقال من في الطرف

" الآخر مباشرة " السلام عليكم

قال مبتسما ووجهته باب غرفته " وعليك السلام مرحبا يا

" أيوب ما هذه المفاجأة ؟

" ضحك ذاك وقال " مفاجأة منتصف الليل

دخل غرفته وقال مغلقا الباب خلفه وبابتسامة " مرحبا بمفاجأاتك

" يا رجل متى ما جاءت ، كيف الحال وما أخبار الولدين ؟

قال بضحكة " بخير جميعا والولدين بقربي الآن وأعينهم محدقة

" بي كالصقور

ضحك وجلس على السرير قائلا " قل ما شاء الله يا رجل لا تقطع

عنق أحدهما ، هل أعطيهم والدتهم ليتحدثا معها لقد ذبلت ما أن

" علمت أنها لن تراهما

وصله صوت ذاك وكأنه يهمس خشية أن تخرج الحروف من

" الأبواب " لا بأس عليها هل هي متعبة ؟

قال صقر مبتسما " لا وكما أنت تعلم كانت تتوقع رؤيتهما وتعد

الأيام منتظرة والظروف الأخيرة وإلغاء الأمر كان قاسيا

" على قلب الأم

ثم ابتسم لصوت أبان الذي سمعه ثم والده قائلا

" انتظر سأخبره "

ثم قال محدثا له " سأضمن إيصالهما للحدود فهل تستقبلهما

" بنفسك وتأخذهما ؟

قال بسعادة " وهل تحتاج هذه لسؤال ، أخبرني فقط عن وقت

حضورك بهما وستجدني هناك قبلك "

غدا صباحا هل يساعدك كي يرجعا سريعا ؟ أنت تعرف "

حال البلاد "

قال من فوره " وهو كذلك وإن أردته يوما واحدا أعدتهما لك بعد

غد ولا تقلق فمطر سيؤمن عودتهما لك مهما ساءت الأمور

ولنتمنى أن لا يحدث ذلك "

وصله صوته هادئا " إذا اتفقنا وسنخرج بعد ساعتين ونكون عند

الحدود مقربة الفجر "

ضحك لسماعه صرختهما الحماسية وسعادتهما وقال " يبدوا

أنهما أزعجاك وأجبراك على هذا "

قال ذاك مبتسما " بل وهدية نجاحهما هذا الفصل اتفقا عليا وطلبا

زيارة والدتهما ، ما كنت أريد أن أمنعهما أبدا لكن الظروف

" الأخيرة جعلتني أتريث قليلا

قال صقر بتفهم " وأنا معك في ذلك ولا تقلق عليهما سيكونان في

أيدي أمينة حتى يرجعا لك ، سأتركها مفاجأة لوالدتهما أقسم أن

" تجن من سعادتها ، هل تأمرني بشيء آخر يا أيوب ؟

قال بهدوء " لا شكرا ، إذاً موعدنا غدا وسأتحدث مع الزعيم شراع

" لتأمين عبوري كما اتفقنا سابقا وأراك عند الحدود

*

*

ما أن سلمت من صلاتها حتى نظرت للتي جلست من نومها تفرك

عينيها فتوجهت نحوها فورا ضمتها لحضنها وقبلت خدها قائلة

" صباح الخير لأجمل زيزفون في العالم "

تعلقت تلك بحضنها وكأنها ستعود للنوم فيه وهي تمسح على شعرها

بحنان تسألها بتأني عما تريد أن تأكل إفطارا لها فمن عادتها الاستيقاظ

فجرا كما اعتادت مع جدتها لذلك هي أيضا أصبحت لا تنام بعد الفجر

كي تكون تحت ناظريها ولا يصيبها مكروه خاصة وأنها لم تستوعب

بعد كل الأمور التي تشكل عليها خطرا وفي كل الأحوال لن يطمئن

قلبها لتركها وحيدة ، أوقفتها وسارت بها جهة المطبخ الصغير للمنزل

ووضعت إبريق القهوة على النار تحاول دمجها في أي حديث كما

طلب منهم الطبيب وتلك تركض حول الطاولة بنشاط طفولي

ركضت خلفها وأمسكتها ضاحكتين وخرجت بها من هناك وأنزلتها

وسط المنزل تنظر لبابه الذي انفتح ببطء وابتسمت بحب وشوق

لرؤية من دخل منه وأغلقه خلفه وترقرقت الدموع في عينيها سريعا

وهي تتوجه نحوه وقد استقبلها في حضنه الذي تعلقت به وقالت

باكية " حمدا لله على سلامتك يا عكرمة ما هذا الغياب

الذي لم نعرفه يوما "

شدها لصدره أكثر وقبل رأسها قائلا بحنان " كان رغما عني

" اشتقت لكما يا فاطمة كيف أنتما ؟

" همست متعلقة به " بخير مادمت أنت بخير

ثم ابتعدت عنه تمسح دموعها حين انحنى ليرفع التي تعلقت بساقه

وضمها لصدره يقبلها بحنان قائلا " مرحبا بزيزفونتي الجميلة

" كيف حالك يا شقية ؟

ضحكت تلك وقالت تعدل فستانها الذي يبعثر بسبب رفعه لها

ليت كل الأطفال في شقاوتها إنها ملاك ، لست أعلم كيف "

" كنت سأقضي الشهران المنصرمان لو لم تكن معي ؟

ضم كتفيها بذراعه وسار بهما نحو الداخل وجلس على الأريكة

وزوجته بجانبه وأجلس من يعدها ابنته على فخذه وضحك لسيل

الأسئلة الذي بدأت تلك بطرحها عليه فنظرت له بطرف عينها

وقالت ببرود " الحق علي ، في كل مرة أقول أني لن أسالك

" عن شيء فعلته وأرجع وأعيد ذات الخطأ

أنزل زيزفون ودس يده داخل معطفه وأخرج شيئا ما أن رأته

تلك الصغيرة حتى ابتسمت ابتسامة واسعة وهمست بدهشة

" دمية جميلة "

ومدت يديها فورا لأخذها فأخرجها من غلافها الشفاف وحركها

" أمام وجهها قائلا " دمية بلاستيكية حقيقية لأجمل طفلة في الهازان

أخذتها منه فورا وهي من لم ترى سوى الدمى المصنوعة باليد وابتعدت

بها تمسح على شعرها الأشقر تتفحص جميع أجزائها فقالت الجالسة

بجانبه مبتسمة ونظرها على تلك الصغيرة " من أين أحضرت هذه

" الدمية والهازان حالها كحالنا وأردى ؟

خرجت منه ضحكة صغيرة ونظر لها وقال " شحنة أنزلتها طائرة

فوجئنا بأن نصفها ألعاب أطفال ولك أن تتخيلي وجه الزعيم مطر

" حين رآها ونحن من يدفع ثمن كل ما نزل هناك

أمسكت فمها تكتم ضحكتها وقالت " وكيف يرسلون لكم شيئا

" لم تطلبوه ؟

ضحك من فوره وقال " أول عبارة صرخ بها ابن شاهين ما أن

" (رأى ذاك المشهد (من أخبر أولئك الحمقى أننا نأكل هذه الأشياء

فانطلقت ضحكتها وقالت " كان أخذ له شيئا منها فبما أنه تزوج

سيأتيه أبناء وسيحتاجها لما يرى أنه لا أهمية لها وسيفرح بها

" الكثير من الأطفال

وقف وقال يفتح أزرار معطفه " لا أتخيل أن الزعيم مطر يفتش

وسط تلك الكومة من الألعاب ويأخذ منها !! ذاك المشهد لا

" يليق به أبدا

وقفت أيضا وقالت تنزع المعطف عنه " وما المختلف فيه

" أليس بشرا مثلكم ؟

طوت المعطف الثقيل على ساعدها ونظرت مبتسمة حيث

نظر للجالسة على الأرض تمسح على شعر تلك الدمية

" متمتمة " جميلة ... جميلة

نظر لها وقال مبتسما " اخترتها خصيصا دمية شقراء

" وعينيها زرقاء مثلها

قالت بضحكة " هل فتشت في كومة الألعاب يا عكرمة ؟

" ياله من مشهد يا رجل زعيم الحالك

انطلقت ضحكته رافعا رأسه للأعلى ثم نظر لها وقال " كل

غضب الزعيم مطر من إهدار المال على تلك الألعاب كما

قال تبدد حين رأى فرحة أطفال الهازان ونحن نوزعها عليهم

لقد تهافتوا علينا يريدون شكرنا وتلقينا من القبلات الصغيرة

" ما يكفينا دهرا

" نظرت له بطرف عينيها وهمست " يكفيك دهرا ها ؟

خرجت ضحكته رغما عنه وشدها من يدها قائلا

" تعالي أخبرك كم تكفيني "

سحبت يدها منه مبتسمة وتوجهت جهة التي انشغلت تماما

بدميتها قائلة " لا يمكنني ترك زيزفون وحدها إلا نائمة

" فاستحم لتتناول الفطور معنا

راقبهما مبتسما وقد جلست أمامها تسألها عن الدمية التي كانت

في عينيها كحلم لم تتصور أن له كيان حقيقي ، قال يفتح أزرار

" قميصه " كيف وضعها خلال هذان الشهران ؟

قالت ونظرها مشغول معها " أراها تحسنت وإن تحسنا طفيفا

" وفي بعض الأمور كان التحسن ملحوظا ... إنها تتطور

أبعد طرفي القميص وأمسك خصره قائلا بابتسامة " جيد هذا يعني

أن العلاج أعطى مفعولا ، لقد حرص الزعيم مطر على توفيره لها

وكان يسألني عنها طوال الوقت وقال بأنه سيقدمها للفحص من جديد

وقت دخول الأطقم الطبية للهازان ، لقد حرص أن أكون من ضمن

أول مجموعة ترجع هنا ضمن المغادرين البارحة لأن إجازاتنا

" ستكون بالتناوب لرؤية عائلاتنا

مسحت على شعرها ونظرها على ملامحها وعينيها المنشغلة

بدميتها وقالت " كيف تغادرون البارحة وتصلون فجر اليوم ؟

" المسافة من آخر الهازان لهنا تأخذ مسيرة يوم كامل

قال مبتسما " الزعيم مطر اتخذ خيارا أسهل بالخروج لإحدى الدول

المجاورة لحدود الهازان ثم الطيران للدولة المجاورة لنا ودخلنا من

حدودها وكانت الطريق أيسر بكثير ، لحسن حظنا أن إجازتنا

" توافقت مع مغادرته من هناك لنكون معه في رحلته القصيرة

نظرت له وكانت ستتحدث فعقدت حاجبيها وقالت بضيق " ما هذا

يا عكرمة ؟ كم مرة حذرتك أن لا تنسى أنه ثمة طفلة هنا ولا

" تنزع شيئا من ثيابك وإن كان قميصا

ضحك وتحرك من هناك جهة غرفتهما قائلا " قد أكون ضننت

" أني سأجذبك لي هكذا ، لقد نسيت فعلا ولن تتكرر

*

*

تسلق الحاجز الصخري يسرق نظره للذي يقلده في صعوده متمسكا

بالنتوءات البارزة فيه حتى وصلا للأعلى وقفز عمير في الجانب

الآخر أولا وتبعه تيم فورا فرفع له يده وضرب ذاك كفه بها فورا

" وقال عمير ضاحكا " رائع أنت تتقدم بشكل كبير يا فتى

" ركض تيم من فوره حول الحاجز قائلا " لنفعلها مجددا

ولحقه ذاك من فورا واستمرا في الصعود والقفز لعدة جولات حتى

تغلب التعب على ذاك الجسد الصغير النحيل المنهك وانهار جالسا

على الأرض فجلس عمير بجانبه مستندان بيديهما خلف جسديهما

على الرمال التي عكست نور انبلاج الفجر وقال عمير مبتسما

سننتقل للحاجز الثالث غدا وأتمنى أن يأخذ منا وقتا قصيرا "

" كالسابقيْن

" نظر له تيم وقال " وما سيكون بعده ؟

ضحك ذاك من فوره وقال " لما أنت مستعجل هكذا دائما ؟ بعد

ذلك سنتعلم شيئا مختلفا تماما وسندخل على الشفرات وفك الرموز

المعقدة ، تلك الدروس سترافقك لأعوام يا تيم وإن أتقنتها

" تكون اجتزت أكثر من نصف المسافة

هز له رأسه بحسنا ونظرته كلها إصرار رغم جهله عما كان

يتحدث عنه فهو لم يسبق وأن قال له عن تلك الأمور شيئا ولا

من باب المعرفة ، وقف عمير وقال نافضا يديه من الرمال

" العالقة بها " لقد سألت اليوم صباحا عن ماريه ؟

" نظر له تيم فوقه وهمس " اليوم ؟

" هز رأسه بنعم وقال " لقد انتقلوا لمنزل والديها كما توقعت أنت

وقف أيضا ينفض ثيابه ويديه ولم يعلق على الأمر فقال عمير

وزرت منزل عمها الآخر وأخذت مفتاح منزل جدهم "

" وأحضرت ما طلبت مني سابقا

" نظر له وقال من فوره " أحضرتها هنا ؟

هز رأسه بنعم مبتسما وتحرك بخطوات واسعة قائلا

" الحق بي هيا إنها في الغرفة "

فركض خلفه حتى لحق به ووصلا المقر وعبرا ممرات المبنى

حتى وصلا لغرفتهما ودخلها فورا ووقف ناظرا للصندوق الذي

أخرجه ذاك من تحت السرير وقد قال مبتسما وناظرا له عند

" الباب " خشيت أن تعلم عنها من كثرة ما كانت تتحرك داخله

اقترب منه ونظر لصندوق ثم مد يديه فورا ورفع السلحفاة الصغيرة

الموجودة فيه فنظر له عمير فوقه وقال وقد س يده في جيبه

" ووجدت شيئا يخصك كان مربوطا في صدفتها بإحكام "

نظر له مستغربا وهو يخرج ورقة من جيبه ومدها له قائلا بضحكة

لم أفهم من الرسالة سوى اسمك ، يبدوا أنها تركتها تخبرك أنهم "

" سيغادرون من هناك

سحب الورقة منه بقوة وقال بضيق " ومن سمح لك بفتحها ؟

" يالك من فضولي ومزعج

رمى رأسه للخلف ودوت ضحكته الجهورية في الغرفة ثم وقف

" قائلا بضحكة " وما المانع وهي شفرة لا يمكن لأحد غيرها فكها

وتابع متوجها للخزانة ليخرج ثيابه ويستحم " كان عليها أن ترسمها

" رسما لكان الأمر أسهل لتفهمه

أخرج ثيابه والتفت ناحية الذي لم يعلق على ما قال وكان جالسا على

طرف السرير ينظر للسلحفاة الصغيرة وقد أعادها للصندوق فأغلق

" الخزانة وقال ونظره عليه " تيم الألسن تتقاذفها هناك

رفع نظره به فورا وقد تابع بجدية " أنت لن تتخلى عنها مستقبلا

يا تيم أليس كذلك ؟ حين تكبر سيكون الأمر أشد عليها بكثير

" هل ستكون عند كلمتك ؟

عاد بنظره للصندوق وقال " لن تسلم منهم في كل الأحوال وأنا سبق

" وأخبرت الزعيم مطر وقبله والدتي بأني لن أتخلى عنها وسأفعل

*

*

نظرت لها بعبوس وقربت حاجبيها قائلة برجاء " عمتي يكفي

" أقسم لا رغبة لي

أشارت لها بإصبعها على الصحن وقالت بأمر " بل ستأكلينه كله

" أو غضبت منك يا غسق وعليك أن تحذري من غضبي

ضحكت جوزاء وقالت " أنا أعرف غضب عمتي جيدا فبقدر

" ما أنها لا تغضب بسهولة فغضبها أسود مخيف

نظرت لها عمتها وقالت بضيق " وصوريني لها غول بسبعة

" رؤوس أيضا فتجهض لنا الآن

خرجت ضحكة غسق رغما عنها تكتمها بظهر أصابعها ، ضحكة

صغيرة بخيلة ما ضنت أن ستسمعها مجددا فنظرت لها عمتها

وقالت مبتسمة " الله أكبر كم اشتقنا لهذه الضحكة المميزة ، سقا

" الله أيام كانت تملأ المكان الذي تكونين فيه ، قتل الله من قتلها

وقعت حبة التمر من يدها التي ارتجفت وماتت ابتسامتها الطفيفة

الحزينة تلك فعضت جوزاء شفتها تحذرها وقالت بضيق

عمتي لا قدر الله ذلك انظري لنفسك وأنتي ترفعين يديك "

" بالدعاء من تصيبين بها

عضت تلك طرف لسانها وتمتمت " أنا هكذا دائما في أول

" الصباح ... ويحي أستغفر الله

نظرت جوزاء للتي غابت بنظراتها الحزينة للصحن تحتها ثم نظرت

لعمتها متنهدة بأسى وقالت تغير مجرى الحديث " عمي صقر خرج

من قبل أذان الفجر وهو من قال أنه سيذهب لقيقوان بعد أن يتناول

" الفطور معنا ! ما غير مخططه هكذا فجأة ؟

كانت عمتها ستتحدث لولا انفتح باب الغرفة وكشف عن الذي كان

خلفه ، من لم يتوقعوا رؤيته اليوم وفي هذا الصباح المبكر تحديدا

وأن يدخل عليهم ولازال بالثياب التي جاء بها وبمعطفه الشتوي

الذي وصل طوله لركبتيه وقد همس ونظره عليهم

" السلام عليكم "

أجابتا شقيقته وعمته وقد انتقل نظرهما المعلق به باستغراب للتي

وقفت على طولها منتفضة وتحركت من مكانها حتى كانت خلف

كرسي عمتها تنظر لعينيه المركزة نظرها على عينيها وفي حركة

لم يفهم كانت لا إرادية أم دفاعية منها أمسكت بقبضتها على ثوبها

أسفل بطنها فتغاضى عن إجفالها الملحوظ منه وتقدم بخطواته

للداخل وما أن وصل عند عمته حتى تراجعت الواقفة خلف

كرسيها للخلف مبتعدة حتى كانت عند الجدار القريب من تلك

الطاولة فقبّل رأس عمته وسألها عن
حالها هامسا وهي أجابته

ونظرها معلق به وانتقل نظره لجوزاء التي وقفت وقبلت

كتفه قائلة " حمدا لله على سلامتك يا مطر ، ما كل

هذا الغياب عنا ؟ "

همس بهدوء " سلمك الله "

ونظره على التي تحركت من هناك بمحاذاة الجدار حتى خرجت

راكضة فتحرك من مكانه خطوة ملتفتا ليوقفه صوت عمته قائلة

" لا تذهب خلفها يا مطر ... اتركها "

نظر لها وقال عاقدا حاجبيه " ولما لا ؟ لن آكلها ولن أضربها

" لا تصوروني ذاك الهمجي المتوحش

قالت بحزم " لا أحد صورك متوحشا لكن علينا التحدث أولا

" وليس وقت حديث معها يا مطر وإن كان وديا

وقفت جوزاء حينها وغادرت ونظره يتبعها حتى خرجت مغلقة

الباب خلفها ثم عاد به للجالسة خلف الطاولة تجمع كفيها فوقها

وقالت فورا " أعلم ما ستقوله جيدا يا مطر وبأنك لا تحب أن

يتدخل أحد في حياتك ومن يسألك ويملي عليك ما تفعله لكن الأمر

هذه المرة لم يعد في يدك وحدك لقد خرج عن السيطرة يا

" ابن شقيقي

" غضن جبينه هامسا " خرج عن السيطرة ؟

ضغطت قبضتيها وقالت بضيق " أهذا ما وعدتني به يا مطر ؟

أهذا ما كنت قررت أن تفعله فور عودتك من سفرك ؟ أن تراضيها

وتفعل ما تريد ؟ لم أرى شيئا من ذلك حدث وأنت تعاملها بقسوة

وأمامنا ، آخر ما كنت أتصوره أنك أنت مطر شاهين زعيم الحالك

لا تفصل بين خصوصياتك وحياتك اليومية ، لقد قتلتها بذلك إن

" كنت لا تعلم وأنت تعاملها كنكرة أمامنا

كان سيتحدث والضيق باد على ملامحه فسبقته قائلة بضيق لا يزداد

إلا شدة " سألتها ولم تقل شيئا سوى أنها لا تعلم سبب تغيرك عليها

أنت يا مطر !! أنت يا من ترفض الظلم وتحاربه ومن اشتهرت بعدلك

في كل منزل من البلاد تظلم الضعيفة المسكينة التي تحت جناحك لا

أحد لها غيرك ، كنت تركتها كنت أعدتها لوالدها إن كنت لا تريدها

قسما لو كانت ابنتي ما رضيت بها لها ولو كنت ابني ولن يكون

" أغلى منك عندي ما وافقته فيما يفعل

وتحولت لهجتها للقسوة وهي تتابع قائلة " تنفث نيران غضبك بها

وتهجر المنزل مخلفا ورائك امرأة حامل لا تعلم عن حالها كادت

تفقد حياتها وابنك تلك الليلة ثم تهجرها كنكرة لا تسأل

" ... ولا عن حالها وكـ

" قاطعها بضيق " يكفي عمتي

نظرت له بضيق وكانت ستتحدث فضرب بأطراف أصابع يديه

على صدغيه قائلا بحدة " أقسم أن هذا سينفجر فتوقفوا عن

معاملتي كآلة فأنا بشر مثلكم "

ثم ضرب بقبضته على يسار صدره قائلا بغضب " هنا يوجد قلب

وليس قطعة من حديد ، ألا أخطئ كغيري ؟ ألا أمر بضغط كبير يشوش

حتى تفكيري ؟ لما عليا أن أكون ملاكا لا يغفل ولا يزل ولا تدخل أي

هواجس لعقله ولا يتوقف دماغه عن التفكير مرة ؟ أنا لست آلة

فارحموني ولا تتوقعوا مني أن لا أزل أبدا أو أن يبذر مني

ما لا تتوقعونه "

نظرت له بصمت ولم تعلق بشيء وهو يخرج من الباب ضاربا له

خلفه فتنهدت هامسة بأسى " ارحم نفسك يا مطر وتعلم أنت

" أن لا تعامل نفسك كآلة

لحظة دخول جوزاء التي اقتربت منها قائلة بتوجس " ماذا

" حدث بينكما ؟ صراخه يسمع من بعيد

" تحركت بكرسيها بعيدا عن الطاولة قائلة " أين ذهب ؟

" قالت بحيرة " صعد لغرفته ووجه كان لا يمكن وصفه

تنهدت تلك بأسى قائلة " ستصفو روحه بعد ما قال ويبدوا أن الأمر

أكبر من معرفتنا به فلنتركه لهما يتصافيا فيه بمعرفتهما فيبدو

"أنه بدأ يعترف لنفسه أنه تسرع في التفكير وتقدير الأمور

كانت ستتحدث لولا أوقفها ذاك الصوت من خلفها

" أمييي "

فالتفتت وقد شهقت بصدمة غير مصدقة ما تراه أمام عينيها ونزلت

دموعها فورا وهي تستقبل الراكضان جهتها في حضنها لا تصدق

أنها تراهما أمامها بعدما يئست من ذلك بعد وقوع الهازان جميعها

وتذبذب أحوال صنوان المتوجسين ترقبا ، استمرت في ضمهما لها

لوقت ثم نزلت لهما تحضن كل واحد منهما على حده وتقبل وجهه

تستمع مبتسمة لحديث أبان الذي لا يتوقف عن سبب قدومهما الآن

وكيفيته قبل أن يتوجها راكضين لحضن عمة والدتهما التي

استقبلتهما بذراعين مفتوحتين وابتسامة واسعة محبة

*

*

دست وجهها في ركبتيها محتمية بالسرير الذي تجلس خلفه لازالت

تلملم ارتجاف جسدها وجوارحها تكابد الدموع كي لا تتسرب رغما

عنها الواحدة بعد الأخرى رافضها لضعفها الجديد ذاك تكتم ألما في

قلبها تخشى أن يتحول لشهقات يسمعها الجميع ، تصورت جرحها

منه كبيرا تصورته غائرا ولا يمكن مداواته لكنها لم تتخيل أن يكون

ألم رؤيتها له بكل ذاك الحجم ، أن تشتاق له وأن يتحول شعورها

بالشوق في ذات اللحظة لتمزق في قلبها وألم لا يمكن تحمله ، لم

تتخيل للحظة أن كل ذاك الأمان الذي كان يشكله بالنسبة لها يتحول

لشعور بالخوف من جوره وظلمه وقسوته ، رفعت رأسها للأعلى

متكئة به على حافة السرير خلفها ونظرت للسقف وقد رفعت شعرها

ممررة أصابع يديها فيه لتسيل تلك الدمعة من طرف عينها ، كم تمنت

أنها لم تعرف تلك المشاعر وتجربها معه سابقا ، لو أنها لم تحمل له

شعورا رائعا في قلبها ما كان جرحها منه بهذا الحجم وهو يعترف

أمامها بعشقه لامرأة أخرى ، طوال الشهرين الماضيين وفي كل دقيقة

وثانية فيهما كانت تسترجع كل ما مرت به هنا من يوم عرفته ورأته

أول مرة ، تذكرت كلماته ابتساماته ضحكاته وشغفه وقبلاته ، تذكرت

حتى نبرة صوته في كل موقف جمعهما ولم تجد جوابا لما يحدث وما

اعترف به أمامها وأمام شقيقته وهو من سبق وأكد لها بأنه لا يريد

الزواج بأخرى وعجزت عن تفسير الأمر متسائلة إن كانت ماض

عاد للظهور في حياته ، أغمضت عينيها بألم لتتسلل الدمعة الثانية

من بين رموشها وهي تتذكر أقسى عبارته الغاضبة تلك على قلبها

(هي لي منذ ولدتها أمها وسيبتعد عنها رغما عن أنفه)

عشقها تسمعي عشقها هي وحدها ليكتشف أنها لغيره أنها باعته)

بأرخص منه أنها تلاعبت به وأنها تخطط للزواج من غيره

(ولم تستحق عمره الذي أضاعه ينتظرها

وقفت من فورها والتفتت جهة الباب تمسح عينيها بقوة حين طرق

أحدهم عليه طرقات مرتفعة ليست كطرقة عمتها ولا جوزاء ولا

حتى حبيبة فسحبت حجابها المرمي فوق السرير ولفته حول

شعرها لحظة ما انفتح الباب ببطء وتحدث من كان لازال

" خلفه " غسق هل أدخل ؟

ارتسمت ابتسامة حزين على شفتيها وقالت تمسح

" دموعها مجددا " تعالى يا أبان

فدخل من فوره راكضا جهاتها حتى وصل عندها فمدت يدها

لشعره وحركت أصابعها فيه قائلة " ما هذه المفاجأة الرائعة ؟

" كيف حالك يا أبان ؟

هز رأسه بمعنى جيد وقال مبتسما " والدتي قالت أنك متعبة

" وعلينا تركك ترتاحين لكني أخبرتها أني سأسلم عليك فقط

جلست على طرف السرير وقالت بابتسامة صغيرة " لست

" متعبة وسعيدة حقا برؤيتك ووجدك معي هنا

ابتسم بسعادة لجملتها تلك ثم نظر حوله للغرفة وقال " لما أنتي

" هنا ولست في غرفتك وخالي مطر في الأعلى ؟

نظرت ليديها في حجرها فلم تتصور أبدا أن يوجه لها هذا السؤال

كرهت أن تكذب عليه لكن الحقيقة يصعب قولها أحيانا لأنها أكثر

وجعا من تزييفها ، رفعت نظرها حيث النافذة بعيدا وهمست

خالك لم يكن موجودا وهو من شهرين عند الحدود فنزلت "

" هنا لأكون قريبة من الجميع

" !! قال بحيرة " لكنه عاد الآن كما قالت أمي

ضغطت قبضتيها ونظرت له وقالت تغير مجرى الحديث بأكمله

أخبرتني والدتك أنكما لن تأتيا هذا الشهر من الجيد أن الأمور "

" تغيرت ، لقد كانت حزينة جدا

جلس مثلها قائلا بسعادة " سيسمح لنا والدي بالبقاء لأيام هنا بما

" .. أن خالي مطر لن يهاجم صنوان الآن بعدما وقعت الهازان جميـ

وأغلق فمه بيده لانتفاضها واقفة ونظرة الصدمة التي علت ملامحها

وتذكر تنبيه والدته له أن لا يتحدثا أمامها عما أخفوه عنها طيلة المدة

الماضية كي لا تتأثر نفسيتها أكثر وبما أنها عزلت نفسها ولم تخرج

لمجلسهم لم تعلم بالأمر ولم تكن تتخيل أن سبب غيابه طيلة المدة

الماضية سببه سقوط الهازان دفعة واحدة ، قال ناظرا لها بتوجس

" غسق لن تخبري والدتي أني أخبرتك أليس كذلك ؟ "

لكنها لم تجب عليه ولم تنتبه أساسا لما قال وهي تتركه جالسا

هناك وخرجت من الغرفة راكضة

*

*

رمى المشط على الطاولة بقوة بعدما سرح به شعره الرطب ثم عدل

أطراف قميصه السميك رصاصي اللون بأكمامه الطويلة على حزام

بنطلونه الجينز الفاتح وتنفس بقوة مستغفرا الله بهمس ثم نظر يسارا

حيث السرير الواسع ووقع نظره على جهتها الخالية منه وهو متأكد

من أنها لم تنم هناك من تلك الليلة مثلما اختفت ثيابها جميعها من

الخزانة وأغراضها من درج طاولة التزيين ، تذكر تلك اللحظات

قبل نزوله ومكالمة المدعو جبران ذاك له ، تذكر اللحظات الحميمة

التي بات يراها تتحول لفراغ لن يمتلئ مجددا بسهولة ، مرر

أصابعه في شعره ناظرا للأعلى وهمس مغمضا عينيه

" تهورت يا مطر تهورت بما فيه الكفاية "

ثم نظر خلفه بسرعة حيث الباب الذي فتح بقوة فالتفت بجسده ينظر

للواقفة أمامه تمسك يدها بطرفه ، نظر فورا لعينيها الدامعة الناظرة

لعينيه نظرة تشبه ليلة ماطرة تاه فيها ولم يعرف طريقه أين ، كان

حجابها منزلقا لكتفيها وخصلات شعرها القصيرة حضنت وجهها

الدائري تزم شفتيها وكأنها تقاوم ذاك الجو العاصف في عينيها كي

لا يعصف خارجها ، كان مشهدا لم يراه لها من قبل كانت مختلفة

رغم اليأس والأسى والحزن والقهر الواضح في نظرتها الغريبة تلك

وتنفسها الذي يخرج قويا ليثبت كم من عواصف هوجاء تعتمر ذاك

الصدر وتلك الأضلع حد وشوكها على الانفجار ، توجه نحوها دون

حتى أن يتساءل عن سبب قدومها له وهي من هربت منه قبل قليل

وكأنه وحش كاسر سيلتهمها ولم يسأل نفسه حتى عن سبب تلك

. النظرة التي قد يحتاج لأعوام ليفهم ما تحمله من معاني

ما أن وصل عندها بخطواته الواسعة تلك مد يده ليدها وسحبها

لداخل الغرفة مغلقا الباب وأوقفها عليه وأمسك وجهها ناظرا

لعينيها التي هاج بحرها الأسود حد الغرق فيه وهمس

" غسق لا تبكي لا تفعليها أمامي "

وهذا ما كانت تريده هي وما كانت عازمة عليه لكنها ما أن

" أبعدت شفتيها هامسة مثله " لا تقتل أهلي يا مطر

حتى تناثرت تلك الدموع متدحرجة فوق وجنتيها المتوهجة فاتكأ

بجبينه على رأسها وإبهاميه يمسحان دموعها وقال " لا تبكي

" يا غسق لا تفعليها مجددا

رفعت يديها المرتجفة وأبعدت يديه عنها فابتعد وقد قالت بصوت

" مرتجف " لا تقتلهم لا تلحقهم بالهازان مطر حلفتك بالله

هز رأسه بلا وقال وقد عقد حاجبيه " لم أقتل الهازان يا غسق

" فتوقفي عن اتهامي بالدموية

علا بكائها ودموعها تعود للجريان على خديها وضربت صدره

صارخة بعبرة " اقتلني قبلهم أو معهم ، لا أريد حياة هم ليسوا

" فيها ، لا أريد أن أفقد الكاسر في كل مرة ... أقسم أني اكتفيت

أمسك رسغيها لتتوقف عن ضربه وقال بحدة " غسق يكفي أنا

" لن أقتل أحدا فتوقفي عن إيذاء نفسك

صرخت تحاول فك يديها منه " أنت آذيتني أكثر من ذلك

" فلعلي أموت وأرحمك مني

أنزل يديه ولازال رسغيها في قبضتيه وقال بحزم ناظرا لعينيها

" يكفي قلت يكفي ولا تتمني الموت "

اتكأت برأسها على الباب خلفها وعضت طرف شفتها بقوة قبل أن

تنظر لعينيه الناظرة لها بحزم قوي وكأنها تستل تلك الكلمات من

عروقها وقد همست " طلقني يا مطر لم أعد أريد البقاء معك

" فكن عادلا وطلقني

رأت ذاك السواد في عينيه يتحول لبحر علته الغيوم السوداء وقد

ترك رسغيها وأمسك ذراعيها بقوة آلمتها وقال بحدة " أكون

" ! عادلا كيف ومع من وقتها ؟ أي عدل ذاك يا غسق

هربت من النظر لعينيه وأنزلت رأسها للأسفل وحاولت دفعه بيدها

من صدره وخرج صوتها المختلط ببكائها ملئه أسى " عادلا معي

" ولو لمرة وعادلا مع نفسك

هز رأسه بلا وكأنها تره وقال بهدوء " غسق ارفعي رأسك وانظري

" لي ولنوضح الأمور جيدا ولا نتهور أكثر

دفعته بقوة أكبر قائلة بغضب " لا أريد سماع شيء منك لا أريد

تبريرا يقتلني أكثر لا أريد ، ستقتلني بالبطيء إن تركتني

" هنا أقسم أن أموت قريبا

ضغط قبضتيه على ذراعيها أكثر قائلا بحزم

" غسق يكفي واستمعي إليا الآن ودعيني أشرح لك "

رفعت يديها وأغلقت بهما أذنيها بقوة صارخة بعبرة " لا أريد

سماع شيء خذني لوالدي وأخوتي واقتلني معهم هناك أخرجني

" من هنا الآن ، لا أريد أن أعلم عنك شيئا

ترك إحدى ذراعيها وسحب الكرسي القريب من الباب وجلس عليه

أمامها ناظرا لها للأعلى ولوجهها الذي تخفيه عنه لازالت تغلق أذنيها

بيدها ولازالت في بكائها الموجع ، قال بهدوء ناظرا لوجهها ولرموشها

التي تتقاطر منها الدموع المسدلة للأسفل " غسق فلنتحدث علينا

" توضيح الكثير ، توقفي عن البكاء ولنتحدث بروية

لكنه كان يعي جيدا أنها لا تستمع له بسبب بكائها ورفضها لسماعه

إن رفع صوته لتسمعه لن يزيد ذلك الأمر إلا سوءا وإن تحدث بروية

لن يجني شيئا وهي في هذه الحالة ولا تراه إلا عاشقا لامرأة غيرها

قد دمره ابتعادها عنه يصعب عليه قول كل الحقيقة لها ويصعب

عليه أكثر تركها هكذا تكرهه ، طوق خصرها بذراعيه ودفن وجهه

فيه فأبعدت إحدى يديها وأمسكت بها فمها تكتم شهقاتها الباكية وهي

تشعر بقبلاته حيث ينمو ويكبر طفله الذي لم يجتز شهره الرابع بعد

وكانت تلك أول بادرة منه تشعرها بذاك الرابط بينهما بالذي ينمو في

داخلها قبل أن يقف ويفتح الباب ويغادر المكان في صمت تاركا خلفه

عبراتها التي تبكي كل شيء فيه قد ضنت يوما أنه لها وتبخر

في لحظة غضب منه دمرت كل تلك اللحظات

*

*

مسحت على طرف وجهه مبتسمة بحنان وهو يقول مبتسما

وأخذنا عمي صقر للقصر العثماني في طريقنا لقد كان "

" رائعا رغم أن بعضه مهدما

ثم ضحك متابعا " أبان سقط من فوق الحجارة التي حاول

" تسلقها وغضب لأننا ضحكنا عليه

خرجت منها ضحكة صغيرة وسعادتها لا توصف وهي ترى انفتاح

ابنها الأكبر للحديث أكثر من المرة السابقة وخف تحفظه ذاك كثيرا

رغم أنه لا يقارن بشقيقه الأصغر الذي لا يسكت أبدا ، نظرت

جهة الباب ثم نظرت له وقالت " اذهب ونادي شقيقك ، أخبرته

أن لا يتأخر وهو قال سيسلم عليها فقط ويرجعها ، سيزعجها

" بكثرة حديثه الذي لا يتوقف

" وقف وقال بهدوء " ونخرج للخارج أمي ؟

قالت مبتسمة " أخرجا أعلم أن ذاك الحصان يشغل

" تفكيركما وانتبه لشقيقك يا غيهم حسنا

هز رأسه بحسنا وكان سيخرج لحظة ما ظهر من كان مختبئا خلف

الباب يخشى من عواقب فعلته بإخبار ما حذرته من قوله واستقبل

شقيقه من فوره خارجا معه ووجده مهربا ومسلكا جيدا له ، غادرا

على نظراتها المحبة المشتاقة لهما وإن غابا للحظات ثم نظرت

لعمتها الشاردة بنظرها في الفراغ وقالت " عمتي لا أراك بخير

منذ حديثك مع مطر "

نظرت لها تلك وقالت تحرك عجلات كرسيها متوجهة

جهة الباب " عمك صقر لم يغادر ؟ "

وقفت وتوجهت نحوها وساعدتها في دفعه قائلة " مؤكد في

جناحه وسيكون قرر النوم قليلا فهو غادر قبل الفجر بوقت

ولم يرجع إلا الآن "

هزت رأسها بحسنا وفي نيتها الذهاب له وإن كان يريد النوم

فعليها أن تفهم كل تلك الأمور التي أصبحت تقودها لهاجس

تخشى حتى من التفكير فيه ، وصلتا لباب الجناح فنظرت تلك فوقها

" وقالت " يمكنك الذهاب واللحاق بإبنيك يا جوزاء لن أعطلك أكثر

قالت ضاحكة " لا أعلم لما يخبرني قلبي أنك تريدين التخلص مني

" كي لا أعلم فيما ستتحدثان

وما أن التفتت لتغادر حتى وقفت مكانها وقد نظرتا كليهما جهة

السلالم وللنازلة منه تركض باكية بنحيب فوضعت جوزاء يدها

على صدرها بخوف وقالت عمتها منادية " غسق تعالي ما

" بك بنيتي ؟

وما أن وصلت تلك للأسفل ركضت جهتها حتى جثت على ركبتيها

عند ساقي الجالسة أمامها وارتمت في حجرها تخفي وجهها بين

ذراعيها تبكي بمرارة ويد عمتها تمسح على شعرها قائل بقلق

غسق ارحمي نفسك يا ابنتي وتوقفي عن البكاء ، ماذا قال "

" لك أبكاك هكذا يا غسق ؟

لم تجبها بشيء ولم تتوقف عن البكاء ولا عن النحيب وقد نزلت

جوزاء عندها تمسح على ظهرها تحاول التحدث معها وفهم ما بها

فابتعدت عن حجر عمتها جالسة على الأرض ونظرها معلق بها

عيناها مجهدة من البكاء وخصلات من غرتها علقت في وجنتيها

المبللة بالدموع وقالت بعبرات متلاحقة " سيقتل عائلتي عمتي

سيضرب صنوان أليس كذلك ؟ سيبدأ بتوز حيث عائلة والدتي

وينتهي بوالدي وأشقائي سيذبحني عمتي سيذبحني "

مدت تلك يديها وأمسكت وجهها قائلة بحزم " غسق ما هذا الذي

تقولينه ؟ هو لم يقتل ولا ابن راكان وعائلته ليقتل والدك ، مطر

يسعى للسلم أكثر من الحرب صدقيني ، لا تستبقي الأمور يا

غسق فهو لم يفكر في ذلك حتى الآن "

ضربت على فخذها براحة بيدها قائلة ببكاء " لكنه قالها سابقا الدم

مقابل الدم والدم مقابل الحرية ويريد توحيد البلاد وإن بالقوة ، أخذ

الهازان والدور الآن على أهلي هناك ، لماذا أمسكني عنهم ؟ لما لم

يرجعني لهم ؟ أعيدوني لأهلي عمتي أرجوكم أتركوني

" أموت هناك معهم

مسحت على خديها بكفيها الدافئتان وقالت " يكفي يا غسق لن

" ...يموت أحد يا ابنتي يكفي ولا تنسي وضعك وأنـ

وقفت وقالت مقاطعة لها بغضب باكي " هذا كل ما يعنيكم ابنه

" وما يحدث له ولا تفكرون في أحد غيره

وغادرت من هناك قائلة ببكاء " أرجعوني لأهلي أو سأموت

" ويموت ابنه معي ، أرجعوني لهم إن كنتم تخافون عليه حقا

نظرت لجوزاء التي وقفت على طولها تنظر لها حيث اختفت خلف

ذاك الممر ثم نظرت لها وقالت " لا أحد حسب حساب هذا

" ! اليوم وفكر فيه عمتي فما الحل في كل هذا

هزت تلك رأسها بحيرة ثم نظرت لمكان اختفائها هناك وقالت

" هو يعلم أن هذه ستكون النتيجة منذ البداية ومنذ تزوجها "

والتفتت جهة باب جناح شقيقها وفتحته ودخلت متمتمة

" عليا معرفة الأمر منهما وعليهما التحدث فورا "

*

*

نظر ببرود للذي فتح الباب ودخل وتوجه نحوه فورا قبل يده

ورأسه وقال " كيف أنت يا أبي ؟ "

فنظر له شراع فوقه وقال ناظرا له بحزم " أين كنت يا جبران ؟ "

لم يعرف سؤاله هذا لعلمه أين كان منذ شهرين أم لسبب آخر أم

سؤال عفوي فقط ؟ قال ينقذ نفسه من الموقف " كنت حيث تعلم

جيدا أين أكون "

وقف على طوله مقابلا له وقال بحزم " وما أرجعك الآن ؟ "

قال ذاك بضيق " ما ظننت أن رجوعي سيزعجك ! لما تحمل

في قلبك عليا كل هذا الغل وأنا من خسر وسُلب حقه ؟ "

قال شراع بحدة " أي حق هذا الذي تتحدث عنه ؟ حق غيرك

الذي لم يكن يوما لك ! ولعلمك فقط فاختفاء رعد أنت السبب

فيه وإن علمت أنك آذيت حياة شقيقتك أو زوجها خرجت

من صنوان من ليلتها أتفهم "

قبض على يديه بقوة وقال بحنق " هي ليست شقيقتي وتركت

الأمر لله هو يعيد الحق لأصحابه ويعدل في حكمه "

وخرج من هناك من فوره خطواته الغاضبة تسمع وهو خارج المكتب

فوقف رماح وتوجه لوالده وأجلسه قائلا " أبي لا تنسى ما مررت

به وما قال الأطباء ، الانفعال ليس جيدا لك فاهدأ لا شيء يستحق

أن نخسرك بسببه "

مسح وجهه بيديه مستغفرا الله بهمس وقال رماح ويده على كتفه

بما أنه عاد فعلينا أن لا ندفعه للرحيل مجددا ليرجع جبران "

" الذي نعرفه فلا شيء يؤكد لنا أنه تصرف بحمق حتى الآن

فك شراع ربطة عنقه قائلا بضيق " لن يكون إلا فعلها وكلام

" ابن شاهين منذ يومين يؤكد ذلك

" نظر له بصدمة وقال " تحدثت معه ؟

نظر للفراغ وقال بجدية " قال أن رعد لديه وأنه لم يقرر بعد

تسليمه لنا وهو من صرح سابقا بإخراجه للحدود ما أن يجده

وقال أنه إن دخل ابن آخر لي عنده فأعتبر دمه مهدورا لأنه سيقتله

" فمن عنى بذلك غير جبران أو أنت اللذان لم تدخلا حدوده سابقا

! قال رماح بحيرة " وما الذي سيجعله يغير كلامه وليس ذاك طبعه

" قد يكون شعر بالقوة بعد انتصاره الأخير وتطويقنا من الجانبين

همس شراع بحزم " كان موضع قوة طوال الوقت وليست تلك

سياسته وأقسم أن أمرا ما حدث مؤخرا فحتى غسق نعتها بابنة

" عمي وليس ابنتك كما كان يقول سابقا

ثم وقف وقال متوجها جهة الباب " أقسم أن أتبرأ منه وأهدر

" دمه بنفسي إن علمت أنه حاول فقط فعلها

*

*

نظرت للتي توجهت نحوها تحمل صينية الطعام في يديها وما أن

وصلت عندها حتى هزت رأسها بالنفي وقالت " رفضته مجددا

وقالت أنه لا رغبة لها في أكله ويبدوا لي أنها لم تتوقف عن

" البكاء لحظة

" تراجعت بكرسيها هامسة " لا حول ولا قوة إلا بالله

وتحركت من هناك وحبيبة تتبعها قائلة " أين السيد مطر قد يجد

" طريقة لجعلها تأكل فهي لم تتناول فطورها جيدا ولا الغداء

قالت نصيرة متابعة طريقها " عمه قال أنه خارج حوران ولم

" يرجع بعد

وتوجهت جهة الممر الشرقي لذاك المنزل الواسع حيث غرفة تلك

التي ضنت طوال الوقت أنها غريبة عنهم ، من اعترفت أنها بغباء

كبير لم تلاحظ كل ذلك وقت وجودها هنا ولم تتخيل أن الحقائق

فضيعة بذاك الشكل ، فتحت باب الغرفة ودخلت وتوجهت جهة من

يبدوا أن النوم تغلب على بكائها المستمر ذاك مرتمية على السرير

دموعها لم تجف من وجهها بعد وشعرها قد تناثر على جسدها

وصلت عندها وسحبت الغطاء عليها وأوقفت كرسيها عند رأسها

تمسح على شعرها بحنان وهمست بحزن ونظرها على وجهها

الفاتن الشاحب المتعب " ظلمك الجميع يا غسق ، ظلمك

" الجميع من يوم ولدتِ ومن قبلها يا ابنتي

واستمرت في المسح على ذاك الشعر الحريري وقد غابت بنظرها

للنافذة البعيدة بشرود تراقب ارتطام حبات المطر بها وغاب فكرها

لما حدث حين دخلت غرفة شقيقها صباح اليوم وكان قد خرج

من حمامه للتو فقالت ناظرة له " علينا التحدث عن أمر مهم

" يا صقر

قال وهو يلبس قميصه الصوفي " ألا ينتظر ذاك الأمر حتى

" أنام قليلا ؟

" قالت من فورها " لا ينتظر وستنام بعدها حتى تشبع

جلس على طرف السرير مقابلا لها ومرر المنشفة على عنقه

ليتجنب قطرات الماء النازلة من شعره وقال " حسنا لنرى ما

" لديك أهم من نومي وراحتي

" قالت مباشرة " مطر عاد اليوم

نظر لها باستغراب لبرهة قبل أن ينفجر ضاحكا فقالت بضيق

" ما المضحك فيما قلت ؟ "

قال بعدما أنهى ضحكه " لم أتصور أن يأتي فور مكالمتي له بل

" لم أتصور أن قلبه متعلق بها هكذا

قالت المقبلة له بضيق " أي تعلق هذا وهو عاملها بتلك الطريقة ؟

" ! عقل ابن شقيقك ذاك كيف يعمل

هز رأسه بحيرة وقال " ولي توجهي هذا السؤال وأنا لا أجد له جوابا "

ثم أمسك طرفي المنشفة وتابع بضيق " يوم سألته عن سبب طرده

لحفصة وجلب أخرى غيرها قبل ذهابه للحدود قال بكل برود (أنا

لم أطردها بل وفرت لها عملا آخر ولتشكر الله أني لم أعاقبها)

وحين أصررت على معرفة السبب قال أنه يرفض وجود

" جواسيس في منزله

تنهدت الجالسة أمامه بضيق وقالت " جواسيس ماذا هذه

التي يقول عنها ولم يخرج شيئا مما يحدث داخل المنزل لخارجه

ولست أعتقد أن الخادمات يعرفن أسراره الحربية أو يرينه من

" أساسه ولا يدخلن لا غرفته ولا مكتبه

حرك كتفيه قائلا " قلت له كل هذا فقال أنها تتجسس لمن هي تعرف

" جيدا من يكون وما تنقل له ولست أفهم شيئا من كل ذلك

" حركت رأسها بعدم اهتمام قائلة " المهم الآن ذاك ليس موضوعنا

" تثاءب وقال " وما موضوعنا ذاك ؟ اختصري يا نصيرة

" قالت بضيق " لن أختصر ولن تنام حتى أعلم وتشرح لي

. " وتابعت بجدية " غسق ليست ابنة شرع صنوان فابنة من تكون ؟

*

*

*

مسحت بيدها على طرف وجهها بحنان وقبلت جبينها برفق

هامسة " قلبي أخبرني منذ رأيتك أنك لست غريبة عني يا

" قطعة من شقيقي الراحل يا ابنتنا يا غسق

مسحت على شعرها برفق ونظرها لا يفارق ملامحها الحزينة حتى

في نومها توبخ نفسها كيف لم تفكر في كل ذلك سابقا وهو أمامها

بوضوح الشمس ... قبيلة والدتها وإن جهلت اسمها الأول ، دخولها

للحالك وحيدة واختلاف ملامحها الكبير عن صنوان وإن كانت والدتها

من قبيلة غزير ، والذي كان أوضح من كل ذلك زواج مطر بها وهو

من كان رافضا الأمر جملة وتفصيلا بل وهي ابنة صنوان متجاهلا ما

ترتب على ذاك الزواج ، ورضوخ والدها وعدم اعتراضه أبدا ، لا تصدق

أنها لم تلاحظ كل ذلك وشكت الآن فقط من جملته التي قالتها جوزاء والتي

قالها لها تلك الليلة وفي أوج غضبه (هي لي منذ ولدتها أمها دمائها ملكي

ولا أحد له حق لمسها ولا مجرد اللمس) لم تصدق أن يكون حديثه ذاك

عن امرأة أخرى وفكرت بما أنه ستكون المعنية بكلامه هي النائمة الآن

أمامها سيكون ثمة سر كبير جزء منه أنها تقرب له وأقرب مما قد

يتصور الجميع والجزء الآخر كان الكارثة وهو ما علمته من صقر بعد

إلحاحها الطويل عليه حتى أخبرها بكل شيء حين علم أنها علمت لا

محالة مهما أنكر فقال مستسلما " تزوجها يا نصيرة ، هو زوجها

منذ كانت ابنة الثامنة وهو في الثالثة والعشرين حينها "

فشهقت في وجهه قائلة بصدمة " يتزوجها طفلة !! كيف وبأي

حق وإن كان ابن عمها ؟ "

وكان جوابه المختصر بضيق " بالحق الذي لا أعلمه المهم أنها

زوجته من أعوام وانتهى "

وكانت الحقيقة الأكثر قسوة حين شرح لها سبب إخفاء نسبها عن

الجميع وعنها هي خصيصا وذاك الرجل والثأر بينه وبين والدها

وبمجرد علمه بوجودها سيكون له كل الحق للمطالبة بها حسب

اتفاقهم مع شقيقها شاهين وحسب أعراف قبائل أولئك في الثأر .

قبلت جبينها الصغير مجددا ومسحت على شعرها هامسة

ما أقوى صبرك يا صقر أنا الآن لا أتحمل فكرة أن أخفي "

أنها ابنة شقيقي قطعة مني من دمي وعليا أن أتصرف

" وكأنها ليست منا

واعترفت لنفسها حينها بأن عين الصواب كان في عدم إخبار أحد

وأولهم غسق نفسها بما أنه لا حل مع ذاك المدعو شعيب غيلوان

ارتجف قلبها لمجرد فكرة أن تكون ملكا له وثمنا لثأر لا ذنب لها

فيه وهي من سبق ورأته مرة بشعره الأشعث المخيف ذاك وهيئته

المزرية ، وزيادة على ذلك سمعته التي لا تبشر بخير أبدا ، ضمت

يديها في حجرها وتمتمت ونظرها على وجه النائمة أمامها وتنفسها

لازال يخرج قويا " حماك الله منهم يا صغيرتي وحفظ لك

" والدك شراع وابن عمك كي لا تصلي له يوما

*

*

أبعدت المرآة التي تمسكها بيديها تخفيه عنها لتنظر لوجهه وأين وصل

" فقال مبتسما " آستريا لم أعد أرى إلا وجهك أعيدي المرآة

ضحكت وأعادت وضعها أمام وجهها ليرى فيها وهو يحلق ذقنه

" حتى قال " انتهيت يمكنك إبعادها

رمتها جانبها على السرير وغادرته من فورها ورفعت عدة الحلاقة

للحمام من أجل تنظيفها وتركت له الماء والمنديل لينظف وجهه وما

أن خرجت أخذت المرآة من يده وقالت وهي تعيدها في الخزانة

" يكفيك نظرا لنفسك هل تريد أن يصيبك الغرور ؟ "

" قال ضاحكا " لست بوسامة التنانيين لأغتر وأنا بينهم

أغلقت الباب وأمسكت وسطها قائلة بضيق " أنت أفضل منهم بل

" وأجمل ، أقسم أني لم أعرف يوما رجلا مثلك بينهم

وتابعت ضاحكة من قبل أن يعلق " لا تنزعج من كلامي وأعتبره

" مديحا وليس غزلا يا مسلم

" خرجت منه ضحكة صغيرة وقال " سأعتبره مديحا إذاً يا تنانية

لحظة صمت سادت تلك الغرفة لحظة ما سمعا باب المنزل أغلق

وصوت خطوات تقترب جهتهما فهمست من بين أسنانها

" إن كانت أنجوانا تلك سأقتلها وأقتلك أيضا "

" همس مبتسما " وما ذنبي أنا تقتلينني ؟

توجهت للباب بخطوات غاضبة وفتحته على اتساعه قبل أن يدير

من كان خلفه مقبضه وشهقت بقوة حين رأت الواقف أمامها بكل

طوله ذاك وهيبته يديه في جيوب معطفه فهمست بصعوبة

" !! الزعيم مطر "

حرك نظره من عليها للجالس على السرير وكان بدوره ينظر له

" بصمت فعاد بنظره لها وقال بجمود " كيف حالك آستي ؟

" بلعت ريقها وقالت " بخير وسررت حقا برؤيتك

وما أن تحرك ليتقدم للداخل رفعت ذراعيها جانبا لا شعوريا

" وقالت مندفعة " أنت لن تأسره يا زعيم أليس كذلك ؟

نظر لها مبتسما بسخرية ولم يعلق فهمست بصوت خافت ملأه

رجاء " هو دخل بحثا عن شقيقه وأنت قلت أنك ستخلي سراحه

" أنت لن تؤذيه أليس كذلك ؟

ركز نظره على عينيها قائلا " لن أؤذيه آستي ، ثمة حديث

" بيننا علينا قوله وحدنا وسأغادر

" تنفست بقوة وقالت بصعوبة " عدني بذلك

أمال ابتسامته قائلا " آستريا ما قصتك مع ابن شراع لتفكري

" ! في حمايته من زعيمك

" عبست ملامحها وتمتمت " لست سوى ممرضته

" تقدم للداخل قائلا " إذا غادري يا ممرضته وأعدك أني لن أؤذيه

نظرت للخلف حيث الجالس هناك ينظر لها بصمت ثم نظرت لمطر

قبل أن تغادر مغلقة الباب خلفها وتركتهما وحدهما كما طلب فتحرك

جهة الكرسي الموجود عند الجدار بعيدا عن ذاك السرير وجلس عليه

فقال رعد من فوره " اتركني أحكي لك أسبابي ثم أنا راض

" عن حكمك مهما كان وإن أسري وسجني

شبك يديه مع بعضهما يسند مرفقيه على ركبتيه ونظره للأرض

" وقال " أي شقيق هذا الذي دخلت بحثا عنه يا رعد ؟

" قال من فوره " رماح

هز رأسه بحسنا دون أن يرفعه وينظر له وقال " وما أدخل

رماح هنا فلست أعتقد أن الكاسر السبب لأنكم كنتم تجهلون

" دخوله حتى وصلكم خبر وفاته

قبض بيده على الغطاء الذي وصل لنصف جسده وقال

" دخل ظنا منه أن جبران تسلل للحدود "

رفع حينها رأسه بسرعة ونظر له نظرة لم يستطع فهمها ، لم يتخيل

يوما أن يكون بمفرده معه في غرفة واحدة ، أن يواجهه وجها لوجه

فكل من يعرفه يهابه ورغم كل ما يكون من عداء بينهما لا يستطيع

إلا أن يعجب به بأفكاره وبطريقة انتقائه لكلامه بذكائه الحاد وبنظرة

السيطرة والقوة في عينيه ، ساد الصمت بينهما طويلا قبل أن يكسره

الجالس على الكرسي قائلا بنبرة صلبة " وما أدخل جبران هنا

وكم بقى داخل حدودي ؟ "

قال ذاك من فوره " لم أقل أنه دخل هو ظن أنه هنا وبعد اختفاء

رماح ظهر جبران وقال أنه لم يجتز خط الحدود أساسا وفقدنا

رماح فدخلت بحثا عنه فلم ينقصنا فقد أكثر ولا مخالفات معك

ونحن في هدنة لكنها الظروف من أجبرتني ولم يكن في

نيتي إيذاء أحد صدقني "

قال متجاهلا كل ما شرح من أسباب لدخوله لأنها لم تعنيه

" لماذا لحق به رماح ولما ظننتم أنه دخل ؟ "

لحظة صمت شعر بها كل واحد منهما أنها دهرا طويلا قبل

أن يهمس رعد قائلا " لنعده أمرا شخصيا يا ابن شاهين

وأنا أمامك افعل بي ما تشاء "

وقف من فوره وقال بحزم " بل كل ما أريده معرفة سبب دخوله

ولحاق رماح به وغيره لن يفيدني في شيء حتى إن عذبتك حتى

مت تحت يداي "

شعر بالقشعريرة تسري في جسده وقال محاولا ثنيه عن معرفة

كل تلك الحقيقة " أعفني من ذلك أرجوك وعذبني أرحم لي "

قبض على يديه قبل أن يرخيهما وتنفس بهدوء ليصل لما يصبوا

إليه أساسا وقال " غسق في الموضوع أليس كذلك ؟ "

نظر له ذاك بصدمة قبل أن يهمس " كيف علمت ! "

تحرك من مكانه حتى كان عند نافذة الغرفة وقال ناظرا من

" خلالها وظهره له " شقيقك الأكبر من أخبرني

ثم التفت له يراقب ملامحه المصدومة وقد حرك شفتيه

" !! بصعوبة قائلا " جبران فعلها

لم يعلق ولم يزح نظره عن عينيه وعظمتا فكيه كانتا بارزتين له

دليل كتمه لغضب قوي يتفجر داخله فهز رأسه قائلا " لا أصدق

" لقد جن ذاك الفتي ! لو علم والدي ما رحمه

كتف الواقف هناك يديه لصدره وقال بجدية " الحقيقة يا رعد

" أو لنقل القصة كاملة وستخرج بعدها من هنا كما دخلت

" نظر له وقال " ما الذي قاله لك جبران ؟

قال مباشرة " لا أريد ما قاله جبران بل ما ستقوله أنت وأريد

" الحقيقة لا شيء غيرها أو كثر هم من سيدفعون الثمن

قبض رعد على أصابعه بقوة وقال برجاء " لا تؤذي غسق يا ابن

" شاهين هي أرق من أن تعامل بقسوة ولا ذنب لها في شيء

ابتسم بسخرية أقرب للمرارة وهمس بخشونة

" أخشى أن الأوان قد فات "

هز ذاك رأسه برفض وقال " غسق عاشت مدللة بيننا عاملها الجميع

كأميرة وليس أي فتاة ، دمعتها كان يُحسب لها ألف حساب في منزلنا

لذلك كانت رقيقة وحساسة وهشة بشكل لا يمكن تصوره لكنها ذات

الوقت قوية حين يلزم الأمر وعنيدة حين تصر على شيء تريده ومنذ

طفولتها كانت حين تغضب غضبا قويا تسجن نفسها تحت سلالم المنزل

أو في الخارج ولا ينجح أحد في كسر غضبها ذاك سوى والدي وقد

كبر طبعها ذاك معها لكنها ذات الوقت طيبة قلب رقيقة وحنونة

" يسهل إرضائها مثلما يسهل جرحها وتكتمه

عاد للجلوس على الكرسي وقال ناظرا له " متى علمت غسق

" بأنكم لستم عائلتها ؟

قال دون مماطلة " منذ أكثر من عامين بقليل أي حين كانت في

" السابعة عشرة

نظر له باستغراب عاقدا حاجبيه الأسودان الطويلان فقد تصور

من حديث جبران ذاك أنها على الأرجح تعرف أنه ليس شقيقها

منذ طفولتها تقريبا ، قال بجدية " ما قصة زواجهما يا رعد فإن

كانا يريدان بعضهما أتركها له الليلة على أن تعيش مكرهة

" مع رجل لا تريده

قال ما قال وهو يعلم حينها أنه لن يقول إلا الحقيقة من أجلها وليس

من أجل أي منهما فقد استشف حبه الأخوي القوي لها ، وما توقعه

حدث وذاك قد قال من فوره " غسق لم تعرف جبران يوما إلا شقيقا

لها وكانت رافضة فكرة زواجها منه رفضا قاطعا وقد أخبرت والدي

بذلك لكن تصرف جبران الأناني وهجره للمنزل وعيشه في الحدود

ثم غضب عمتي منها لأنها رفضته جعلها توافق وتضغط على والدي

الرافض للأمر أيضا وكله من أجل العائلة التي عاشت بينهم كعائلة

لها وليس حبا لجبران أبدا ، لست أعلم حقيقة ما قاله لك فهو توعد

بإرجاعها منك وقد حاول رماح منعه فرفع سلاحه في وجهه واختفيا

عند الحدود ووالدي هدده بطرده من صنوان إن هو مسك بسوء أو

سعى لإفساد حياة غسق معك ويبدوا أن جنونه قد خرج عن

السيطرة وإن علم والدي لن يرحمه أبدا "

كان عليه قول كل ذلك ، أن يدلي بكل تلك الحقائق التي رفض قولها

في البداية بعدما علم أن جبران تحدث معه وبعد أن فهم مما قال أن

الأمور بينه وبين شقيقتهم تلك وصلت لمنحدر سيء جدا بسببه فعليه

أن لا يتركه يكمل ما فعل فهو هنا وطريح الفراش بسبب جنونه وحياة

شقيقته مع زوجها مهددة بالانهيار أيضا ولن يسمح بذلك مهما حدث

راقب الجالس هناك وهو يقف على طوله وفي صمت تام وقد توجه

للباب ووقف ممسكا لمقبضه ثم قال وهو يفتحه " الطبيب قال أنك

استرددت جزءا كبيرا من عافيتك وخلال أسبوع ستشفى تماما

" فسيوصلك رجالي للحدود صباح الغد

وغادر دون أن يضيف أي شيء آخر مغلقا الباب خلفه بهدوء

*

*

نزلت عتبات سلالم المنزل وتمسكت بشالها الصوفي حول كتفيها

بقوة ما أن لفحها الهواء البارد في الخارج وتحركت بخطوات

مسرعة حتى وصلت عند المتوجه نحوها وقالت ما أن

" وقفت أمامه " هل تحدثت معها ؟

" هز رأسه بنعم وقال " ورفضت الدخول

قالت من فورها " كنت أجبرتها ، على حالتها تلك ستموت

" في إحدى المرات

هز رأسه بيأس وقال " صرخت بهستيرية ما أن حاولت فقط فعل

ذلك ، على شقيقك ذاك أن يأتي هو من عقدها هو يحلها ، ولا

" أظنها سترضخ له أيضا فليست تطلب سوى العودة لعائلتها

كانت ستتحدث لولا صوت باب سور المنزل الذي فتح معلنا عن

دخول سيارة الغائب الوحيد عن المنزل فالتفتت لتلك الجهة التي

لا تظهر من خلف الأشجار قائلة " ها هو عاد أخيرا فلعله

" يجد أي حل ليدخلها

بقيا مكانهما ينظران لسيارته التي اقتربت من هناك وقد أوقفها

! حيث يقفان ونزل منها مستغربا وجود جوزاء هنا وعمه معها

أغلق باب السيارة ولف حولها متوجها نحوهما فقالت تلك ما

" أن وقف أمامهما ومن قبل أن يسأل " جيد أنك أتيت

" قال بقلق " ماذا حدث ! هل غسق بخير ؟

سبقها عمها قائلا بضيق " لا شيء بها سوى أنها جالسة مكانها

المعتاد في البرد منذ ساعتين ترفض الدخول والحديث وطلبها

" طبعا أن تطلقها وترجعها لعائلتها

كان سيتحدث فقالت جوزاء ممسكة بكم سترته ونظرها معلق

بعينيه " مطر بالرفق عليها فهي ليست أول مرة تفعلها بعد تلك

الليلة وكانت تدخل تحت ضغطي عليها أما اليوم فلم يشفع

" عندها ولا عمي صقر فتعامل معها باللين أرجوك

قال صقر بعد صمتها مباشرة " وإن كنت تعلم أن وجودك لن

يزيد الأمر إلا سوءا فلا تذهب لها فهي ستبكي بهستيرية

" وتؤذي نفسها إن حاولت إجبارها

رفع يده جانبا وقال بضيق " وما أفعل إذا ! أتركها تموت

" من البرد كي لا تبكي بهستيرية

صرخ فيه ذاك من فوره " قلنا تعامل معها باللين وليس تجبرها

" فهي بتلك الطريقة ستعيدها مجددا وبعناد أكبر

" أخرج هاتفه من جيبه قائلا " ادخلا أنتما وسأدخلها دون إجبار

كان عمه سيتحدث فسحبته جوزاء معها هامسة " قال أنه لن

يجبرها فلنتركهما وحدهما "

انصاع لها مكرها وهو يتأفف ونظره على الذي ابتعد وهاتفه على

أذنه يتحدث مع أحدهم ثم سار أمامها قائلا بضيق " لنرى طريقته

تلك وهوا يبتعد بهاتفه وكل ما يشغل باله مشاكله ورجاله "

*

*

أنزل الهاتف من على أذنه وتحرك من هناك حيث يرى من بعيد

الجالسة تحت تلك الشجرة تحضن ساقيها بذراعيها وتدفن وجهها

فيهما في جو لازال غائما بعد نهار ماطر وعلى أرض مبللة باردة

خصلات شعرها تتلاعب بها الرياح الباردة وحديث رعد الذي لم

يتركه لحظة وقت رجوعه من هناك يعود للمرور أمام عينيه الآن

وكأنه أمامه ويعلم أن مشواره معها عاد ليكون طويلا وعليه قول

وإن جزء من الحقيقة التي يخفيها عنها فهو من أخطأ وعليه تحمل

نتائج خطئه ذاك ، اليوم فقط اعترف ولأول مرة بغبائه وبتسرعه

واندفاعه وعدم سماعه لصوت عقله الذي كان يقدمه دائما على

انفعالاته ومشاعره وقلبه ، لا يصدق كم كان غبيا وهو يسمح

لذاك الرجل باللعب به تلك اللعبة التي أخسرته الكثير ، مطر

شاهين من عُرف بذكائه ومراوغته ورجاحة عقله وتفكيره

يفشل فشلا مخزيا أمام من يصغره بأعوام وبكل سهولة

. ومن مقابلة وحيدة معه

ما أن اقترب من هناك وقف ورفع نظره بالشجرة التي تجلس

تحتها وقد أكدت جوزاء وعمه أيضا أنه مكانها المعتاد من مدة

شجرة عمه دجى تحديدا ، شجرة والدها الذي لازالت تجهله وكأن

قلبها يخبرها أنها له وأنه من دخلت تلك الحدود بحثا وإن عن أسمه

وهويته ، تقدم بخطواته نحوها حتى جلس بجانبها ورفع يده ومسح

بها على غرتها مبعدا لها وقال بهدوء " غسق ثمة من يريد

" التحدث معك فارفعي رأسك

لم يصله أي رد منها ولم ترفع رأسها ولم تتحرك فقرب الهاتف

منها قائلا " غسق والدك يريد التحدث معك هل أخبره أنك

" ترفضين التحدث معه ؟

رفعت حينها رأسها تمسح وجنتيها المتوهجتان بشدة والمبللتان

بالدموع ترفض النظر له فوضع الهاتف على أذنها من قبل

أن تفكر في مد يدها والإمساك به فوصلها فورا صوت والدها

الحنون قائلا بعتب " غسق ستصبحين أم عما قريب ولازلتِ

" تتصرفين بعناد أطفال

" همست ودموعها عادت للنزول تباعا " أبي

رق صوته فورا ما أن سمع نبرتها الباكية وصوتها الحبيب لقلبه

وقال بحزن " غسق عصيان زوجك من عصياني ومن عصيان

الله قبلي ، لا توجد حياة بين زوجين تخلو من المشاكل فكوني

غسق العاقلة التي ربيتها وأفخر بها "

أبعدت خصلات غرتها المتطايرة عن وجهها وقالت ببكاء ونظرها

على الأرض أمامها " ثمة أمور يصعب غفرانها وثمة قلب بين

أضلعي لن يندمل جرحه بسهولة ، لا تطلب مني المستحيل أبي

أرجوك فلن أغادر هذا المكان إلا خارجة من هنا أو أموت

مكاني وأرتاح "

قال من فوره " إن كان له مكانة في قلبك فسيسهل عليك نسيان

ذاك الشيء مهما كان ، غسق لا تتصرفي بتهور وتنسي أنك

مسؤولة عن روح أخرى داخلك وما تفعليه لن ينفعك في شيء "

أمسكت قبضتها على قميصها بقوة وصرخت ببكاء " أسامح ماذا

وأغفر له ماذا ؟ بل لو لم يكن له في قلبي شيء كان سيكون

" الأمر أسهل ، لن يفهم أحد ما أشعر به لن تفهموا أبدا

أبعد الهاتف عنها وأمسك رأسها ودفنه في صدره يدفن بكائها

وعبراتها فيه وطوقها بذراعيه بقوة وقبل رأسها ودفن وجهه

في شعرها قائلا " غسق أعطني مجالا لأتحدث واستمعي

" لي ولو مرة

فتوقف بكائها حتى ضن لبرهة أنها وافقت أخيرا على سماع لولا

ارتخائها بين ذراعيه فجأة فأبعدها عنه فورا يضرب خدها

" قائلا بقلق " غسق ما بك ؟ غسق افتحي عينيك

ولا جواب منها ورأسها مرتمي للخلف ليست تعي شيئا حولها فمرر

يده فورا على نحرها يتحسس نبض عرقها ونبضات قلبه تتسارع

بجنون لم يعرفه من قبل ولم ترجع لمعدلها الطبيعي إلا حين شعر

بذاك النبض الخفيف تحت ملمس أصابعه فضمها لحضنه بقوة

حامدا الله بهمس ثم وقف حاملا لها بين ذراعيه ودخل بها للمنزل

وتوجه لغرفتها في الأسفل وجوزاء وابنيها وعمه وعمته جميعهم

يتبعونه حتى وضعها على السرير فقالت جوزاء بقلق

" ما بها يا مطر ؟ "

سحب الغطاء فوقها قائلا " مغمى عليها فقط سأتصل بالطبيب

فورا بعدما أغير لها ملابسها "

فخرجوا جميعهم حينها تاركين الأمر له واكتفوا بالجلوس في بهو

المنزل حتى حضر طبيب العائلة المعتاد من أعوام ولم يغادروا

مكانهم حتى غادر ودخلوا للاطمئنان عليها فلم يكن معه بالداخل

إلا الذي حملها للغرفة بل ولازمها هناك بعدها وقد طلب الطبيب

حقنها بثلاث قوارير مغذي متتالية تلك الليلة ومراقبة حرارتها

وضغطها حتى الصباح بما أن ذاك رفض أن تنام تلك الليلة في

المستشفى كما أشار الطبيب لتكون تحت المراقبة

*

*

جلست من نومها ونظرت بفزع للذي كان يجلس على طرف السرير

موليا ظهره لها ويسعل بشكل مخيف فقالت ناظرة له " عكرمة

" أرى سعالك يزداد سوءا ! ألم تعدني برؤية الطبيب لمعاينته

قال بصوت متقطع الأنفاس ويده على صدره " مجرد سعال

بسبب البرد لما تضخيم الأمور يا فاطمة ؟ عودي للنوم

" فالوقت ما يزال مبكرا

كانت ستتحدث لكنه دخل في نوبة سعال جديدة حتى ضنت أن

رئته ستخرج معه وراقبته بعينين قلقة وهو يقف مغادرا السرير

حتى دخل الحمام وأغلق الباب خلفه وتوجه للمغسلة فورا واستند

عليها بيده وسعاله ذاك لا يزداد إلا قوة وحدة يشعر معها بأضلعه

ستتهشم ليتلون رخام تلك المغسلة بالدماء التي تناثرت فيه ففتح

صنبور المياه فوقها فورا واستند بالجدار بيد ويغسل بالأخرى بقع

الدماء ثم مسح وجهه وخرج واندس في سريره مجددا متجاهلا

أسئلة التي لم تستطع لا النوم ولا حتى الاضطجاع فسحب

" الغطاء فوق رأسه وهمس " أنا بخير فنامي يا فاطمة قلت لك

فلم تجد حلا أمامها سوى النوم بجانبه وهمست بحزن وقلق تنظر

" لقفاه " يا رب أحفظه لي ولصغيرتنا يا رب

*

*

وقف ببطء بمساعدة العصا التي أعطاها له الطبيب يستمع لسيل

نصائحه

وأن عليه إجراء تمارين مكثفة ليعود للياقته السابقة وأن جسده مر بمرحلة

خطرة جدا وتعافى منها وأن لا يجزع من هبوط قدراته البدنية وأن يتحلى

بالصبر ليرجع أفضل مما كان ، وهو يستمع له في صمت تام يحاول جمع

حاجياته البسيطة بيد واحدة ولاحظ أن الطبيب يتعمد عدم مساعدته وعلم

أن هذا أول تمرين له لأن من كانت تعتني به طوال الوقت لم تكن تتركه

يفعل شيئا إلا إن أصر على فعله وتغلب على عنادها ، من لم يراها اليوم

أبدا طوال ساعات الصباح الأولى وتبدو قررت أن لا تودعه وهي من

صرحت له سابقا بكرهها لدنو هذه اللحظة ، رفع رأسه وقال ناظرا

للواقف قربه " شكرا لك أيها الطبيب لن أنسى ما فعلت من أجلي

" أبدا ، لقد أعدت جسدي الميت للحياة

ضحك ذاك وقال مادا يده له " اشكر آستريا فهي من كانت أحيانا حتى

" الأعشاب تبحث عنها بين صخور الجبال لتحضرها

ابتسم بحزن وهو يصافح يده الباردة لدخوله هناك قبل قليل ثم خرج يتبعه

حتى كانا في الخارج فأمسك بياقة المعطف الذي أحضرته له ابنة الزعيم

الكبرى ليلبسه ومن قالت أن والدها غادر منذ الفجر حين سألها عنه ولم

يتسنى له شكره وتوديعه ، نظر حوله ولحركة البعض هناك تبحث عيناه

عنها ولا أثر لها في كل مكان فنظر حيث الواقفان عند تلك السيارة التي

تنتظره وقال " ثمة من عليا توديعه قبل مغادرتي فهل تنتظرانني

" هنا قليلا ؟

قال أحدهما " هل أساعدك أو نوصلك بالسيارة ؟ أرى أنك تسير

" بصعوبة

" تحرك من هناك قائلا " لا شكرا يمكنني السير لمسافة لا بأس بها

وتحرك بخطوات بطيئة صعبة يسأل من يمر به عن مكان منزل

زعيمهم حتى وصل عنده وطرق بابه المغلق ففتحته له سيدة لم

يراها من قبل فقال بنفس متعب من جهده في السير كل تلك

" المسافة " هل آستريا موجودة ؟

هزت رأسها بنعم ونظرت للداخل ثم له وقالت " في غرفتها لم

تخرج منها منذ ليلة أمس ، قد تنجح أنت في إخراجها ، هيا

" تفضل

دخل خلفها نظره يتنقل في تفاصيل منزلهم بدقة وكأنه يحفرها في

ذاكرته ليختزلها هناك للأبد ويتخيلها كل يوم أين تجلس ماذا تفعل

وأين تعيش ، وصلت به لباب معين وطرقته قائلة " آستريا

" ثمة ضيف يريد رؤيتك

وحين لم يصل منها أي رد رفعت كتفيها بقلة حيلة وقالت

" يمكنك الدخول لها "

ثم غادرت من هناك وخرجت من المنزل فمد يده لمقبض الباب

وفتحه ببطء حتى كشف عن الجالسة فوق السرير الواسع الذي

توسط الغرفة تنظر له بصمت وعينان محمرة ومجهدة تؤكد أنها

بكت لوقت طويل ، قالت بعبرة لم تستطع إخفائها " لا أريد أن

" أودعك لماذا أتيت ؟

دخل بخطوات بطيئة قائلا " أتيت لأني أريد رؤيتك قبل مغادرتي

" ولأنه لا يمكنني أن أكون قاسيا مثلك

غادرت السرير مسرعة وركضت جهته وارتمت في حضنه تبكي

بمرارة فمسح على شعرها بيدها الحرة قائلا بحزن " لا أريد

" لآخر صورة أخزنها في دماغي لك وأنتي تبكي آستريا

تمسكت بمعطفه تدفن وجهها في صدره أكثر وقالت ببكاء " تعترف

" ! بأنها آخر مرة تراني فيها وتقول بأنك لست قاسي قلب

أبعدها عنه وأمسك وجهها بيديه راميا تلك العصا أرضا وهمس ناظرا

" لعينيها العسلية الواسعة الدامعة " آستريا هل تنتظرينني ؟

نظرت له بصدمة لم تستوعب معها ما قال فرطب شفتيه بلسانه

وهمس مجددا " هل تنتظرينني مهما طال بك العمر حتى تتغير

ظروف البلاد ويصبح واقعنا مختلفا ؟ فأنا لا يمكنني إلا أن

" أعيش على ذاك الأمل حتى أموت

هزت رأسها بنعم وابتسامة حزينة صغيرة تغلبت على ملامحها

الباكية وقالت ببحة " متأكدة من أنك سترجع يا رعد وسأنتظرك

" طوال عمري

قبل جبينها قبلة طويلة دافئة ثم نظر لعينيها وقال " وتدخلين

" الإسلام من أجلي وقتها ؟

" هزت رأسها بنعم فهمس مبتسما " إذا آستريا لرعد يوما ما

خرجت عبرتها الباكية لجملته تلك وتعلقت بعنقه تحضنه بقوة فطوق

خصرها بذراعيه وضمها له بقوة قائلا " لن تأخذ امرأة غيرك مكانك

" في قلبي آستريا فإما أن نكون معا أو أعيش وحيدا ما حييت

تعلقت بعنقه أكثر قائلة ببكاء " أقسم أن أنتظرك وإن لن تأتي

" أبدا لأني كنت سأفعلها في كل الأحوال

ابتسم بحزن وأبعدها عنه يمسح الدموع عن وجهها قائلا" أعلم

أنه غباء مني أن أربطك بوعد كهذا ولست أعلم ظروفنا

" ستتغير أم لا

أمسكت يده على خدها وقالت بحزن ناظرة لعينيه " قد تراني

" صغيرة وغبية ومتهورة لكني قسما أحبك يا رعد

ابتسم وضمها لحضنه مجددا وقبل رأسها قائلا " إن تزوجتِ يوما

مرغمة من غيري فلا تحاولي إخباري آستريا لأني لن أكون

" لامرأة أخرى في كل الأحوال

تمسكت بحضنه بقوة قائلة " لن أفعلها ، أقتل نفسي ولا أفعلها فعد

" سريعا يا رعد ، عد يوما مهما كان بعيدا

*

*

فتحت عينيها ببطء ثم غطتهما سريعا بظهر كفها تحجب نور

الغرفة القوي عنهما حتى اعتادت عليه عينيها ثم نظرت حولها

وكانت في غرفتها وسريرها فمر كل ما حدث بالأمس أمام عينيها

كالشريط وعلمت أن ما رأته البارحة ليس حلما وهي تستيقظ بين

الحين والآخر لتجد ذاك الجالس على الكرسي قرب سريرها لازال

في مكانه ويسألها فورا ويده تمسح على شعرها (غسق هل

تريدين شيئا ؟ هل تشعرين بشيء ؟)

فتحرك رأسها نفيا ويأبى صوتها الخروج لتعود سريعا لذاك الظلام

الذي يسرقها في كل مرة ، مررت أصابعها في غرتها ترفعها للأعلى

فتوقفت يدها مكانها حين شعرت بشيء ما شد شعرها فحركت أناملها

وأخرجته فورا فكان زهرة حمراء جميلة من الأزهار الموسمية التي

تنبث في الحديقة بل وزهرتها المفضلة في حديقة منزلهم الواسعة تلك

جلست بصعوبة بمساعدة يديها ليلفت نظرها زهرة أخرى تشبهها فوق

الوسادة قرب رأسها ولم تنتبه لها فرفعتها أيضا تنظر لهما لحظة ما

انفتح باب الغرفة ودخلت منه عمتها تدفع كرسيها وقالت مبتسمة

بحب " صباح الخير لأروع زهرة تمسك زهرتين ، من أحضر

هذه الزهور الجميلة لك ؟ "

نظرت لهما في يدها ثم نظرت لها وقالت باستغراب " ألست

أنتي من أحضرها أو حبيبة ؟ "

وصلت عندها وقالت " أنا لم أدخل غرفتك منذ ليلة البارحة ولا

حبيبة ولا غيرها فمطر غادر من هنا قبل قليل بعدما جاء أحد

" رجاله بنفسه وخرج معه

نظرت للزهرتين في يدها ثم وضعتهما على الطاولة فقالت عمتها

ناظرة لوجهها " لا أعتقد أن ثمة من يحب امرأة أخرى يحضر

" كهاتين الوردتين صباحا خاصة إن كان ذاك الرجل مطر ؟

نظرت لها وكانت ستتحدث والدموع ترقرقت في عينيها فسبقتها

قائلة " غسق عليك فهم الأمر منه بنيتي فدائما ثمة حقائق نجهلها

" علينا البحث عنها أو السؤال

هزت رأسها برفض وهمست بعبرة " ما الذي سيشرحه لي

" وسأسمعه منه عمتي ؟ يكفيه قتلا لي

اقتربت منها أكثر وأمسكت يديها قائلة برجاء " بلى ثمة ما لديه

بما أنه يريد ذلك ، لقد أمضى البارحة هنا بجانبك ولم ينم لحظة

أعطه فرصة يا غسق ، إن كنت تحبينه فأعطه فرصة ولو

" ليشرح لك وتريثي ولو هذه المرة فقط يا ابنتي

حركت رأسها بحيرة ولم تعرف بما تجيب ودموعها تتقاطر من

رموشها فشدت على يديها أكثر وقالت بإصرار " مطر ليس من النوع

الذي يفعلها ويظلم امرأة معه وهو يريد أخرى فاستمعي له يا غسق

وافهمي منه معنى ما قال وتأكدي من أنه لن يكذب عليك أبدا وأنه

ليس من النوع الذي يخاف من الحقيقة ومن قولها فاسأليه وافهمي

منه قبل أن تحكمي على كلامه الغاضب ذاك "

رفعت يدها ومسحت بها دموعها وشيء ما داخلها يريد الرضوخ لما

قالت لها ، حاولت محاربته حاولت قتله لأنها موقنة من أن قلبها هو

السبب فيه لكن ذلك فشل سريعا وفشل كثيرا ما أن تذكرت وجوده

هنا قربها وما حدث بينهما يوم أمس وإصراره على أن تسمعه

وأن تعطيه فرصة ليشرح لها فهزت رأسها بحسنا هامسة

" سأتحدث معه وأفهم منه "

ابتسمت الجالسة أمامها براحة وقالت " بارك الله فيمن رباك يا

غسق ، وتذكري أمرا مهما بنيتي أنه ثمة رجال ليس من السهل

عليهم كشفه مشاعرهم خاصة إن كانت مشاعر صادقة وقوية

" فصدقيه في كل ما سيقول مهما كان ناقصا ومبهما

" نظرت للأسفل بحيرة من معنى جملتها وهمست " سأحاول عمتي

ثم رفعت رأسها تراقب خروجها من الباب وحارت في نفسها كيف

هدأت هكذا بعد ليلة البارحة ، أمسكت قلبها وهمست بحزن " هذا

" هو السبب فما أن رآه ونام في حضنه حتى لان

*

*

فتح له أحدهما الباب فتمسك به وأنزل العصا أولا رافضا مساعدته له

وشاكرا إياه بهمس ثم أنزل إحدى ساقيه متبعا لها الأخرى وانتصب

واقفا يغضن جبينه يكتم ألمه فلم يتصور أن تتعبه الطريق هكذا ولازال

أمامه طرق صنوان ، وعزائه رؤية أهله ومعهم يمكنه أن يطلب منهم

أن يتوقفوا لمرات عدة في الطريق ليمدد ساقيه ويرتاح فقد رفض ذلك

وهو في سيارة رجال ابن شاهين كي لا يعطلهم ، تحرك بخطوات

أصعب من السابق حتى كاد يقع فساعدته اليد التي أمسكت بذراعه

والأخرى تمسك بخصره حتى عاد لتوازنه ونظره على السيارتين

هناك خارج الحدود وما أن رأى الباب الذي انفتح ونزول والده منه

شعر بأن الحياة ذبت في عروقه بالفعل وهو يراه يقف على طوله

بدون مساعدة العصا التي غادر وتركه يرتكز عليها ، نقل نظره

لرماح ثم جبران الذي نزل من السيارة الأخرى فتحرك بخطوات

متعثرة ليصل لهم فوحده المسموح له حاليا باجتياز ذاك الخط

الحدودي ولا يستطيعون هم الدخول له ، اجتاز ذاك الخط الوهمي

الذي قسمت به البلاد من أعوام طويلة وسُكب من دماء أبنائه الكثير

فوقه وشُنت حروب ومعارك لسلب أي شبر من خلفه من كلا

الجهتين قبل أن يظهر قانون الهدن على عهد مطر شاهين من تسعة أعوام أو منذ استلام ابن شاهين زعامة الحالك ليسعى كل جهده لإيقاف صنبور الدماء المتدفق على مر أعوام فعُقدت الهدن المشروطة واتفاقيات تبادل الأسرى بدلا من قتلهم بدماء باردة وتقلصت مشاكل الحدود بشكل كبير رغم خروقات الهازان التي طالت أقرب رجاله ورغم المشاكل المتفاقمة داخل كل قطر ليقتصر الأمر وإن عليها فقط ، ما أن وصل عندهم حتى استقبله حضن والده وضرب على ظهره هامسا " حمدا لله على سلامتك

" يا رعد وأن رأيتك سالما

ربتت يد رماح على كتفه وعلق ضاحكا " قل نصف سالم وهو

" كاد يوصل لنا مغيب الشمس بخطواته تلك

ضحك رعد مبتعدا عن والده وحضن رماح بقوة قائلا " لو رأيت حالتي منذ أكثر من شهرين لقلت أني الآن حصان ، حمدا لله

" على سلامتك أنت أيضا ضننت أني لن أراك مجددا

مسح بكفه على ظهره قائلا بابتسامة " لا تفعلها مجددا وتدخل

" خلفي وإن كنت دخلت حقا أتفهم

خرجت منه ضحكة صغيرة وابتعد عنه وكان دور جبران الآن

فتبادلا حضنا طويلا لاحظ جبران فورا جفاء شقيقه فيه وقد همس

" له في أذنه " لولا وجود والدي ما سلمت عليك يا جبران

ثم ابتعد عنه ونظرا لبعضهما نظرة يفهمها كل واحد منهما .. نظرة

غضب ولوم كبير من رعد ونظرة توجس من جبران الذي كل ما

كان يخشاه أن يكون تحدث مع ابن شاهين وأوضح له الحقيقة وذاك

صدقه ، وما أراحه أن رعد يبدوا أنه لا يفكر في كشف كل ذلك أمام

والدهم ، ربتت يد شراع على كتفه قائلا " هيا يا رعد أمامك رحلة

" أخرى طويلة لن نتركك واقفا أكثر من هذا

قال رماح " إن كنت متعبا نقضي أنا وأنت الليلة هنا في توز

" ونغادر غدا

هز رأسه برفض قائلا " أريد أن أرجع للمنزل معكم وارى

" عمتي لقد اشتقت لها كثيرا

قال جبران مبتسما " وترى ابنها الجديد الذي يبكي طوال الليل

وترفض إلا لف المنزل به وكأنها تتعمد إزعاجنا جميعنا كي

" لا ننام

نظر له باستغراب ينقل نظرته تلك بينهم ثلاثتهم حتى استقرت

على رماح الذي قال مبتسما بحزن " ابن الكاسر وعمره ثلاثة

" أشهر الآن

نظر له بصدمة ونزلت دمعته فورا وهمس يمسحها بطرف كمه

" حمدا لله على عدله أن ترك لنا شيئا منه نراه فيه "

طبطب شراع على ظهره يحثه على السير معهم قائلا " بل

جميل في عنقي لابن شاهين أحمله له حتى أموت وقد

" أضاف له اليوم جميلا آخر

تحرك معهم ولاحظ ابتعاد جبران وركوبه سيارته ضاربا بابها

بقوة معلنا رفضه لما قاله والده فهز رأسه بيأس منه ومن جنونه

الذي لم يتوقع أن يصل لذاك الحد ، ما أن وصل السيارة حتى التفت

خلفه حيث تلك الحدود ونظر جهة الشرق تحديدا نظرة ملأها شوق

وحزن وحنين تدفق عبر شرايينه من الآن فهمس ونظره لازال

" هناك " لن أنساك أستريا لن أنساك يا صغيرتي ما حييت

*

*

" تلفينها هكذا ثم تخرجين أصابعك من هنا ثم .... ياااا انتهيت "

ابتسمت الجالسة أمامه ابتسامة صغيرة هامسة " جيد تبدوا لي

" سهلة سأجرب

مد لها السلك المطاطي فورا وبدأت بلفه حول أصابعها محاولة

تقليد ما فعله منذ قليل فقال ضاحكا " لن تستطيعي فعلها يا

غسق أخبرتك منذ البداية "

جلس غيهم على الكرسي الآخر قائلا " ثمة طريقتين لها يا غسق

وهو يتعمد أن يريك المعقدة فثمة خدعة في الأمر "

رمت السلك عليه قائلة " مخادع أرني الطريقة الصحيحة فورا "

" غسق تعالي "

حولت نظرها سريعا حيث عمها صقر عند باب جناحه الذي

يمسك مقبضه بيده لفتحه له للتو ثم وقفت متوجهة نحوه وما

أن وصلت عنده مد هاتفه لها قائلا " مطر يريد التحدث

معك والاطمئنان عليك "

نظرت للهاتف في يده ثم رفعت نظرها لعينيه فحرك رأسه يحثها

على أخذه منه فمدت يدها له بتردد حتى أمسكته فدخل جناحه

" قائلا " اتركيه لديك سآخذه منك فسأخرج بعد قليل

راقبته بصمت حتى أغلق الباب خلفه ثم نظرت للهاتف في يدها

وتحركت من هناك حتى جلست على الأريكة في طرف بهو المنزل

جهة السلالم ووضعت الهاتف على أذنها فعلت نبضات قلبها بتسارع

رهيب ما أن وصلها صوته الهادئ بنبرته المبحوحة التي تسمعها

" عبر الهاتف لأول مرة " غسق هل تسمعينني

ملأت الدموع عينيها فورا واكتشفت أن مشاعرها ناحيته أكبر

وأعظم من كل ما حدث لذلك جرحها منه غائر وفوق تصورها

" رفعت كفها المرتجف ومسحت عينيها قائلة " أجل

قال من فوره " كيف أنتي الآن ؟ إن كنت تشعرين بشيء

" اخبر عمي يحضر الطبيب

" سالت دمعتها مجددا وقالت ببحة " أنا بخير

وصلها صوته القلق " بخير كيف وصوتك هكذا ! قد أتأخر في

العودة ويخرج عمي من حوران فإن كنت متعبة أطلب منه

" البقاء أو أرجع أنا

عادت لمسح دموعها وهي تسمع نبرة الاهتمام في صوته وتخليه

عن كل شيء من أجلها ، أمور احتاجتها طيلة الشهريين الماضيين

ولم تجدها مثلما لم تجده هو وليست تفهم سبب تغيره ما أن رجع

الآن فزاد إصرارها أكثر لمعرفة الحقيقة منه ، همست بخفوت

" أنا بخير مطر أقسم لك "

قال من فوره " سأرجع الليلة وإن متأخرا فانتظريني علينا أن

" نتحدث يا غسق حسنا

عادت لمسح الدموع التي غلبتها مجددا وهمست بصوت مرتجف

إن كان عما قلته قبل ذهابك تلك الليلة فلا أريد فأحيانا يكون "

" شرح الحقائق أقسى منها هي نفسها

قال بإصرار " بل سنتحدث فثمة أيضا حقائق شرحها يغيرها

" جذريا يا غسق

سمعت صوت أحدهم يكلمه فقال بصوت منخفض

" أراك الليلة .... وداعا "

وانقطع الاتصال معه فأنزلت يدها والهاتف فيها حتى استقرت في

حجرها تمسح بكف يدها الأخرى عينها وبقايا الدموع العالقة في

رموشها وهمست بحزن " ليت تلك الحقائق تتغير جذريا ، ليتك

تفعلها حقا يا مطر "

*

*

دس هاتفه في جيبه عاقدا حاجبيه يستمع بتركيز لأحد أقرب رجاله

الواقف أمامه وهو يتحدث بانفعال كبير حتى تحول لصراخ واقترب

البقية منهما وقد صرخ أكثر يشد ثيابه من على صدره يكاد يطير من

الأرض والسماء لا يصلها " أقسم أن ندمرهم قبل أن يفكروا في تدمير

" كل ما صنعناه ، ليتني مت قبل أن أدرك هذا اليوم يا ليت

لفه تميم جهته وأمسك بسترته العسكرية قائلا بحدة وهو يهزه بقوة

" ما هذا الذي تقوله ! من أين لك بهذا الكلام "

أخرج جهازا من جيبه ومجموعة أوراق مدها فورا للواقف أمامه

وشغل ذاك الجهاز ليكشف عن تسجيل لمكالمات متعاقبة جعلت

جميع من كان حوله يبهت في صمت ووجوههم لا يمكن وصفها

يتبادلون نظرات مصدومة بأعين شاخصة تكاد تخرج من مكانها

حتى استقرت على الواقف وسطهم يقلب تلك الأوراق في يده

ويستمع لذاك التسجيل ذات الوقت حتى توقف ذاك الجهاز

مصدرا صوتا لسحب شريط التسجيل فرفع حينها نظره بالذي

لازال يمسكه في يده وقال بصوت فارغ " كيف وصلت لكل هذا ؟ "

ضغطت أصابعه على ذاك الشيء مربع الشكل وخرج صوته تائها

مشتتا ونظره معلق بتلك العينين السوداء التي كانت تنظر له بنظرة

لم يروها يوما في عيني زعيمهم وقائدهم الحربي ذاك " غيابي

" السري الشهر الماضي كان من أجل هذا

أمسك بشر رأسه بيديه قائلا بضياع " حسبنا حساب كل شيء

إلا هذه ، وضعنا تقديرات وحلول بديلة لأي خرق إلا

" هذا ! ليفهمني أحدكم ما الذي يجري بحق الله

خرج صوت تميم هامسا ضائعا " يكيدون لنا بل للبلاد بأكملها

هل كان هذا مخططهم من البداية وينتظرون هذه اللحظة ! لحظة

سقوط الهازان وتطويقنا لصنوان ؟ ينتظرون ساعة الصفر لتوحيد

البلاد ليرجعوا ويدمروها أسوأ من السابق بأضعاف ! أقسم أن

" تُدمَر على هذا المخطط تدميرا لن تجبره الأيام مهما طالت

تبعت نظراتهم الذي ابتعد عنهم واعتزلهم جهة شرفة ذاك المبنى

الذي اجتمعوا فيه اليوم عشرتهم لمناقشة بعض الأمور الطارئة قبل

أن تحل عليهم هذه الكارثة ، وقف عند سياج الشرفة الحديدي مسندا

مرفقيه عليه ومرر أصابعه في شعره يدفن رأسه بين يديه ، منظر لم

يروه له من قبل وهم من اعتادوا على تصرفه في الأمور فورا وإيجاده

للحلول لها في وقت قياسي دون أن يحتاج لعزلة وتفكير ، وهم موقنون

أن الأمر هذه المرة أكبر من أن يتصرف فيه لحظتها بل وأعظم مما قد

يتخيل أي أحد فيهم .

أخرج أصابعه من شعره ورفع رأسه ونظر لكفه وللخاتم الفضي

في نهاية بنصره ثم قبض أصابعه بقوة ورفع قبضته لشفتيه وقبل

ذاك الخاتم مغمضا عينيه ثم أنزله لذقنه هامسا بأسى

" سامحيني يا غسق "

ودخل بعدها عائدا للواقفين مكانهم أعينهم محدقة به حتى وقف أمامهم

قائلا بجدية " اجمعوا لي مشايخ الهازان وقادتنا جميعهم ، أريد

الجميع

عندي هنا صباح الغد ولنتحرك سريعا فلن يحدث ما يدبرون له وإن

" دفعت عمري ثمنا لذالك

تحرك أغلبهم من هناك فورا ولحقهم البقية تباعا بأوامر منه فلم يبقى

غيره وبِشر الذي أمسك كتفه بقوة ناظرا لعينيه نظرة فهمها كليهما

وهو أكثر من كان يفهمه دائما من بينهم جميعا ، قال ناظرا لعينيه

" لن تفعل ما أفكر فيه يا زعيم ؟ "

ربت على كتفه وغادر من عنده قائلا " كسرة ظهر لي يا

" بِشر وخسارة لا تقدر بثمن لكنها حلي الوحيد

المخرج ~

بقلم : الغالية سما23

صبراً يا عمي شراع

خبرٌ وصل إلى الأسماع
أحرق ما بين الأضلاع
صبراً يا شيخاً ملتاع
لوعتك لهيبٌ يشتعلُ
نارٌ تحرِقُ لا تُحتَمَلُ
راح الكاسر (قلبُ أبيه)
أصغرُ اخوته أرثيه
أرثي فيه خصالَ حميده
أبكيه سنيناً وأزيده
رجلٌ مغوار وشجاع
صبراً يا عمي شراع
عوّضك الله برماح

ورجالٍ صُلبٍ أقحاح
ولأجله باعوا الأرواح
(وطنٌ تقسمه الأطماع)

صبراً يا عمي شراع

****

بقلم الغالية : نداء الحق

خاطرة مطر لغـــــــــــــــــــسق

أغار عليك من عيني
ومن نسيم يلامس منك
الغرة والمبسم
أغار واحترق بنيران شرقيتي
ورجولتي التي اغتالتها وشايات
حاسدِ
على قدر العشق والهيام الذي أعيشه
لك وبك

كانت نيران غيرتي
يحاورني ويجادلني بأنك كنت قد أحببته
وانك تريدينه مثلما يريدك
وأنك تتحرقين شوقا الى حبكم
وانا المخدوع في حكاية عشقنا
يخبرني قلبي ويلح عليً ان لا اصدق
ترهات حاقد متجبر
ولكن عقلي يصر على الحنث بكل قسم
غليظ كنت قد أقسمته
في انني سأضع كفي فوق جرحي النازف
واعض على صرخة الالم
واكبت براكين نيراني وحمم جنوني الاحمق
انا من كنت مثال للجليد في الصقيع بل واكثر
بحبك اصبحت كموج البحر
موج تضرب موجة
لااعرف طريقا لاطفئ حرقتي
وكل سبيل اليك يقتل
وكل سبيل اليك يقتل

،،،،،،،،،

نـهاية الفصل ..... موعدنا القادم مساء الثلاثاء إن شاء الله مع

الخاتمة ومقتطفات من الجزء الثاني ودمتم بكل خير جميعا

كنت ناوية أنزلهم اليوم كلهم لكن ظروفي كانت أقوى مني

والفصل طويل جدا فألتمس من قلوبكم الغالية العذر

الخاتمة

خاطره بقلم الغالية : سما 23

يا زعيم الحالك .... اليوم كيف حالك
هل طاب كتفك .... هل التأم جرحك

مطر
جرح جسدي ... جرح وطني
(أنا لا أشعر بجرح جسدي .. لأنه يحتويني جرح أعمق (جرح وطني
متى أستطيع تحقيق حلمك يا وطني ... بأن تكون واحداً .. بأن تكون آمناً
من أجل ضيغم وتضحيته .... من أجل جيشي وبطولته
ستلتأم الجراح ... ستعم الأفـــــراح
سنوحد الهازان والحالك وصنوان

ستكون وطني قوياً يهابك الأعداء .... ستكون وطني عصياً بأبنائك الأوفياء
بشر وحيدر وتميم .... وعكرمة بقلبه الرحيم
اعدك يا وطني ويا أبناء وطني .... فادعوا الله أن يحقق حلمكم وحلمي

******

آخر ما تذكره ضرب تلك المرأة لها على خدها بقوة صارخة

" لا تفقدي وعيك يا ابنتي وادفعي أكثر ... لا تقتلي طفلك "

ثم دموعها وأنينها المتواصل وأخيرا صوت ذالك البكاء يملأ

الغرفة حولها ... صرخة طفلها الذي عاش في أحشائها تسعة

أشهر وأسبوعين ... من بقدر ما انتظرت رؤيته تمنت أن

لا تراه كي لا تبدأ مأساتها الجديدة بعد رؤيته .

شعرت غريزيا بالحنان لذاك الصوت وابتسمت رغم كل ما

تشعر به حينها وليست تعلم فرحا باستقباله أم حزنا لأنها تودعه

بخروجه من أحشائها ؟؟ وعند ذاك الصوت غابت عن الواقع

وما حولها تماما ، لم ترى شيئا بعدها ولم تسمع شيئا ولم تشعر

سوى بأن ذاك الألم الذي لا يمكن وصفه يختفي من جسدها

بالتدريج لتنتهي لعالم النوم وكأنها لم تنم من سنوات طوال

حتى أن الممرضات من حولها ضنوا أنها غابت عن الوعي

أو حتى ماتت لولا ضحكة تلك القابلة التي لفت الطفلة جيدا

قائلة " والدتك حرمت نفسها من رؤية هذا الوجه الجميل

ونامت يا حفيدة شراع صنوان ، يا حفيدة رئيس البلاد

" الجديدة

*

*

لم يصدق أنه سمع صوت بكاء الطفل أخيرا مما يعني أن كل

تلك المرحلة من العذاب انتهت وكل ذاك الترقب والقلق اختفى

كانت الأعين الستة محدقة بالباب بترقب حين فتح جزء بسيط

" منه وخرجت التي تلقتها أسئلتهم فورا " كيف حالها ؟

فضحكت قائلة " مهلكم اسألوا ما أنجبت على الأقل ألا يعنيكم

" إلا والدة المولود ؟

" قال المقابل لها بلهفة " ماذا أنجبت وما حالتهما ؟

قالت مبتسمة " ابنة لا أجمل منها سوى والدتها ، حمدا لله

" على سلامتها يا شراع

*

*

قالوا أن الكثرة تغلب الشجاعة وأن البقاء للأقوى وأن عقل

رجل واحد قد يهزم جيشا بأكمله لكن يبقى ما هو فوق

(كل ذلك ونسوه (قدر الله وما شاء فعل

فمخطئ من ظن أن مطر شاهين بشر لا يمكن أن يُهزم ، لا

يحلم حلما لا يدرك تحقيق أغلبه ولا تنقلب الطاولة على من

. كان يديرها بذكاء وثبات

* * * * * * * * مـــــاضي يحكي ما كان * * * * * * * *

ركضت جهة أنوار السيارة من قبل أن تتوقف تنظر بعينين وجلة

للذي نزل منها ضاربا بابها واقترب حتى وقف أمامها قائلا

غسق ما يخرجك من المنزل هذا الوقت المتأخر "

" وما يوقظك حتى الآن ؟

أمسكت يده وقالت بصوت مرتجف وعينان ممتلئة بالدموع

أين مطر يا عمي ؟ هو أكد لي أنه قادم الليلة فلما تأخر لكل "

" هذا الوقت ؟ اتصل به أرجوك فالفجر اقترب

لم تسمع منه أي رد وقد علت نبضات قلبها بجنون وهي تراقب

ملامحه ونظراته لعينيها وكأنه يحمل فاجعة ما سيلقيها عليها

ولا يعلم من أي جهة يرميها بها ، همست بصعوبة

" ...عمي صقر قل شيـ "

قاطعها ناظرا للأرض يشد قبضتيها بقوة " جهزي جميع

أغراضك يا غسق سآخذك للحدود آذان الفجر والدك

" في انتظارك هناك

*

*

وقف على طوله يحدق بالجالسين حول تلك الطاولة البيضاوية

الكبيرة وقال ناقلا نظره بينهم " ليلة غد تبدأ ساعة الصفر وتنفذون

باقي الخطوات تباعا ولا تشرق عليكم شمس الصباح إلا وأنتم في

صنوان ، سيتم الاتفاق مع شراع فخمسة من رجالي على اجتماع به

الآن ، لا أريد لتعبي أن يضيع هدرا ولا أريد لما عاناه شعب بلادي

أن يتكرر وبأضعاف هذه المرة ، هم خبثاء لكننا لسنا جبناء ولن

نخضع لهم وجميع الخيارات التي سيقدمونها سيكون نهايتها دمار

البلاد ، أريد أن أعتمد عليكم أن تحتووا غضب الناس أن تقلصوا

رفضهم فالمهم هو تحقيق الهدف ، أمامنا مشوار طويل جدا

" لن أكون معكم فيه لكني سأكون حولكم لا تنسوا ذلك أبدا

ثم قبض أصبع يده ورفع صوته الجهوري القوي الثابت ليملأ

أرجاء تلك القاعة التي يجتمع فيها بكبار رؤوس قبيلتي الحالك

والهازان " الوطن يحتاجنا يحتاج عزيمتكم ووقفتكم يدا واحدة

ويحتاج أن نثبت له الآن حقا أننا نفديه بأي شيء وبكل شيء

حتى أرواحنا أحبائنا ومستقبلنا ، لن نسمح لأحد باللعب بنا

ثم الضحك علينا ونحن نقاتل بعضنا البعض ، قفوا اليوم

معا يداً واحدة لتجدوا الغد والمستقبل "

*

*

أبعد نظره عن عينيه وقال بجمود نطقت عيناه التي يخفيها

عنه بعكسه تماما " أعلم ما تود قوله فوفره رجاءا وقدم

" مصلحة الجميع على عواطفك

تنفس صقر بقوة وقال " قرارك ولك فيه الخيار ولن أسامحك

لحرماني من ابنة شقيقي وإرجاعها لصنوان حتى إن أصبح

" يمكنني العيش في المنزل المجاور لمنزلهم هناك

رفع الواقف أمامه نظره به وكان سيتحدث فسبقه قائلا بضيق

لعلمك فقط يا مطر أني أخبرتها وأخرجتها من هناك وأنزلتها "

عند الحدود واستقبلها شراع وأخذها معه ولم تنبس شفتاها بكلمة

" ولا دمعة ولا سألت لماذا وكيف ولم تهتم للأمر

رمى باقي كلامه في وجهه كالقذائف ينظر لعينيه المحدقة فيه

" قتلت نفسك في داخلها إن كان ذاك يعنيك حقا يا ابن شاهين "

وغادر من عنده قائلا وهو يبتعد " أعلم أن ما تفعله عين الصواب

لكنك لم تظلم أحدا بذلك إلا هي يا مطر فلا تفكر في الرجوع

" والبحث عنها يوما

وابتعد لا يسمع سوى خطوات قدميه يعصر قبضتيه داخل جيبي

معطفه بقوة ويشعر بقلبه يعتصر معهما فبقدر ما يكره ما حدث لابنة

شقيقه يحزن على ما وجد ابن شقيقه نفسه فيه ويعلم أن التضحيات

ليست بالأمر السهل وأنه لا يسعى خلفها أحد إلا مكرها وقد

. داس على قلبه وآلمه ألف مرة قبل أن يفكر فيها

*

*

قفز من خلف الطاولة قفزا وهرول جهة الباب صارخا بالذي

" تركه خلفه " مصيبة يا رماح مصيبة

فركض ذاك خلفه صارخا " رعد والدي من وافق كل ذلك

" وبجمع من مشايخ القبائل عد ولا تتهور

التفت له واقفا وسط بهو ذاك المنزل الواسع وصرخ بعنف

هل تعي معنى ما فعله ابن شاهين ووافق والدي عليه ؟ هل "

فكرت في تبعات كل ذلك يا رماح ؟ فكر الجميع في البلاد

وما سيحدث لها وتجاهلوها هي ... تجاهل ابنة عمه

" زوجته وأم طفله وتركها ورحل

أنهى جملته تلك وصعد السلالم فلحقه ذاك راكضا خلفه

انتظر سأخبرها أنا ، مهد الأمر لها يا رجل يكفيها ما "

" وصلت له

تجاهل كلامه وندائه وهو يصعد ليقف مكانه ما أن رأى التي

كانت تقف على رأس السلالم في الأعلى تحضن الشال الصوفي

المنسدل على كتفيها وقالت ناظرة لعينيه " لا تخبرني بشيء يا

" رعد فأنا أعلم منكم بأن ذلك كان سيحدث

وتابعت وقد عادت أدراجها " لا أحد يموت لأن أحدهم تركه

" خلفه وكأنه أمر لا يعنيه

*

*

أمسكت وجه الجالسة أمامها بيديها المرتجفة تكابد دموعها التي

فشلت في إخفائها وهي ترى دموع ابنة شقيقها تتساقط كالمطر

قائلة بعبرة وشفاه مرتجفة " عمتي ليشرح لي أحدكم ما ينوي

مطر فعله ، عمتي هو شقيقي الوحيد ومن لي في هذه الحياة

" كيف يقتلنا جميعا معه عمتي ؟

ضمتها لحضنها بقوة تشاركها تلك العبرات بنشيج باكي عجزت

عن إخفائه قائلة بعبرة " ليلهمنا الله صبرا على فراقه يا جوزاء

هو اختار هذا وما كان ليستمع لرأي أحد وهو يترك حتى

" زوجته الحامل حبيبته وأم طفله

*

*

" أمسك بيده وقال بحزم " لن تدخل لها يا جبران

" استل ذاك يده منه بقوة وقال بضيق " ولما وغيري بلى ؟

دفعه من صدره قائلا بحدة " إن جهل غيري ما فعلت وما حاولت

فعله مع ابن شاهين فأنا لا وما سكتُّ عن ذلك إلا كي لا نخسرك

وأنت تعلم أن والدي عند كلمته وقسمه مهما كلفه الثمن ، ويوم فقط

أعلم أنك اقتربت منها وحاولت الضغط عليها كالسابق لتوافق عليك

أو اتخذت أي أسلوب ملتوي معها أقسم أن أخبره بكل ما حدث

وما فعلت وأن أخبرها هي قبله وسيكون ذاك كفيلا

" بجعلها تكرهك مدى الحياة

قال ذاك بسخرية " هه كرهته هو قبلي وذاك وحده ما سيجعلها

توافق وسأعوضها عن كل يوم أساء لها فيه ذاك المغرور النكرة

فهو لم يعرف يوما أن يحبها ويقدر قيمتها ومن الجيد أنها علمت

" ذلك الآن ومقتنعة به تماما وهي ترفض حتى سماع اسمه

كانت ابتسامة رعد لا تقل سخرية عنه وهو يرميه بالحقيقة التي لا

يمكنه نكرانها " يبدوا لي أنك تعرف حقا معنى الحب يا جبران

" وأن يسكن أحدهم قلبك فلا يمكنك أن تكرهه ما حييت

همس ذاك من بين أسنانه " بلى أعلم وأعلم أيضا معنى خذلانه

" لها وتركها هنا واختفائه المبهم وأعرف قلب غسق ورقته

صاح فيه رعد بعنف " وتعرف أن اجتماعه بوالدي كان سريا و

لم يصرح منه عن شيء وثمة حقائق مخفية خلف اختفائه يا

" جبران يرفضون إظهارها للعلن فلا تنسى ذلك

تجاهل كل ما قال وغادر من هناك متمتما بكره " لم يستحقها

" يوما لعرف قيمتها

وابتعد ونظرات رعد تتبعه وقد همس بإصرار " لن أسمح لك

بإتعاسها فوق تعاستها يا جبران فيكفيها كل ما أكرهت

عليه حتى الآن "

*

*

أمسكه من كتفيه يمنعه من التحرك وقال ونظره مركزا على

عينيه " لا تفقد سيطرتك على نفسك يا تميم فالجميع يحتاجنا

ولا تنسى ما وعدنا به الزعيم مطر يوم جعلنا الزمرة

المقربة له "

أبعد يديه عنه بعنف قائلا بقهر المغبون " وقال أنه لن يتركنا

إلا ميتا ، قال أننا سنحقق الحلم معا وقال أنه سيكون أمامنا

دائما يا بِشر "

هز ذاك رأسه برفض وقال بلمحة حزن عجز عن إخفائها " أنت كنت

معنا يوم وصلتنا تلك الأخبار المفجعة وتقول هذا فما سيقول غيرك ؟

اللعبة أكبر مما تصورنا يا تميم ولطالما قال الزعيم مطر أن الغرب

لا مأمن لهم وكان يتوخى الحذر في كل شيء لكنهم يلعبونها بدقة

ولولا كشف داوود لما يحدث في بدايته لكانت المياه تجري من تحت

أقدامنا ولسنا نعلم حتى يوجهوا لنا الضربة التي لن نستطيع تفاديها

كما الآن مهما حاولنا ومهما فعل الزعيم مطر "

أمسك رأسه بيديه وقال بضياع " لن يستوعب عقلي كل ما قرره

يا بِشر ! كيف يترك كل شيء ويختفي في لحظة ؟ من هذا

الذي يحتاجه أكثر من الوطن ؟ "

أمسك كتفه وقال بإصرار " يحتاجه الوطن يا تميم هو من

يحتاجه وفعل ما فعل من أجله تأكد من ذلك "

*

*

فتح الباب بقوة فارتفعت الرؤوس ناظرة له فورا وقد قال بجزع

" الحالك تنتفض رفضا لانسحاب الزعيم مطر والهازان تتخبط

بسبب خوفها من عواقب تركه لهم والناس جزعت عند الحدود

من توجيه صنوان ضربة لهم "

وقف من كان خلف الطاولة وركض جهته مقصده الباب صارخا والبقية خلفه " لا تدمروا ما صنعه الزعيم مطر لا تتركوهم يهدمون ما حلم به دائما ومات الكثير من أجله "

*

*

كان جبران من وقف ليغادر فقال شراع بحزم " اجلس فهناك ما على الجميع سماعه "

جلس على مضض كارها جلستهم تلك بما فيها ونظر الجالس خلف طاولة المكتب لأبنائه الثلاثة وشقيقته الجالسين أمامه ومن اجتمعوا بأمر منه وقال يمسك بيديه ذاك المغلف الذي فتحه قبل قليل وأطلعهم على محتواه " هناك شروط على الجميع التقيد بها وقد وضعها ابن شاهين كشروط أساسية لما فعله من أجل توحيد أقطار البلاد وتسليمها لي وتأسيس مجلس الشورى من أقطارها الثلاث ، كل تلك البنود التي تركها والخطط التي يعجز عقل بشري عن فعلها في مدة قصيرة وتقيد الجميع بشروطه

" وعلينا نحن فعل ذلك كالبقية فثمة بنود تخص عائلتنا فقط

حدق الجميع فيه بترقب وهو يتابع بجدية " أولها غسق لا تعلم

عما وصلنا عن عائلتها وابنة من تكون حتى تُحل قضية

الثأر وذاك لمصلحتها قبل الجميع "

لم يعلق أي منهم فتابع " ثانيا وكتبها بالحرف الواحد (امرأة

نامت في حضن ابن شاهين لا تنام في حضن غيره) "

سقوط قوي لذاك الكرسي جعل الجميع ينتبه جهة صاحبه الذي

وقف بعنف وقد تابع شراع دون أن يكترث لردة فعله " ثالثا طفله

من حقه ما أن يولد ، وهذه الشروط مسلم بها من خالفها

سيواجهني أنا قبله "

*

*

سحبت الكرسي وصعدت عليه حتى وصلت النافذة وتسلقتها

وجلست فيها تلعب بقدميها الصغيرتان في الهواء تراقب السماء

التي تزهوا بألوانها بعدما استقبلت تلك البلاد بداية أشهر الصيف

وانصرمت تلك الأشهر القاسية بكل ما حملت من تقلبات وأحداث

جديدة شهدوها فيها ، سندت يديها على حافة النافذة بجانبي جسدها

ولازالت تراقب السماء وحركت رأسها تغني فلا أحد لها مع كل

هذه الوحدة في هذا المنزل الواسع الذي لا أحد يكترث لها فيه حتى

إن غابت ليوم كامل داخل غرفتها ما سألا عنها وقد تولت الخادمة

جميع أمورها من طعامها لملابسها لنومها ولم تكن سوى تمثال

جليدي آخر تشبه سيداها في كل شيء فلم تجد فيها الأنيس ولا

الملجئ فاعتادت أن تصاحب السماء عبر نافذتها لتتحدث عن كل

ما يؤلمها يزعجها ويحزنها وكانت صديقتها التي لم تهتم حتى

أنها لا تجيب عليها بشيء فالمهم لديها أنها لن تتركها يوما كما

فعل جميع من أحبتهم ومهما تكلمت وغنت لها لن تضجر

منها وتسأم ولن تشعر هي أنها وحيدة .

أنزلت رأسها وقد توقفت عن غنائها الطفولي البريء حين رأت

الحجر الصغير الذي وقع قرب نافذتها وجالت بعينيها في المكان

ولم تجد أحدا فحركت كتفيها بعدم اكتراث ورفعت نظرها مجددا

لتلك الصفحة الزرقاء وتابعت غنائها ليوقفها الحجر الذي

" ضرب قدمها هذه المرة فقالت بفزع " من هنا ؟

وعيناها تتنقلان في كل مكان حولها حتى خرج ذاك الصوت

من خلف السور الذي يفصل منزلهم عن منزل الجيران

" هذه أنا ما أسمك ؟ "

نظرت فورا لأعلى الجدار ولليدين الصغيرتان التي ظهرت أعلاه

تمسك به بقوة حتى ظهر لها ذاك الوجه الدائري والعينان السوداء

الواسعة والشعر الأسود المقصوص حتى أذنيها لفتاة بلغت من

العمر حوالي سبع سنين وقالت مبتسمة " صوتك جميل أنا

أحب هذه الأغنية كثيرا "

نظرت لها بريبة وقالت " من أنتي ؟ "

قالت تلك مبتسمة " اسمي زهور وأعيش هنا مع والدتي

وزوجها "

وتابعت بحزن " والدي مات في الحرب عند الحدود مع

الهازان "

قالت بحزن شاركتها فيه " واسمي ماريه أعيش مع عمي

وزوجته ولا أب ولا أم لي وحتى تيم تركني ورحل "

قالت تلك مبتسمة " ومن يكون تيم هل هو شقيق ؟ "

" هزت رأسها بلا وقالت " هل أنتي وحيدة أيضا ولا أشقاء لك

هزت تلك رأسها بنعم فقالت مبتسمة " هل نكون صديقتين إذا

" ولا أتحدث مع السماء مجددا لأنها لا تجيب

*

*

مسحت بيدها على كتفه فانتفض ونظر لها فقالت مبتسمة

لو أعلم ما سر شرودك دائما جهة مشرق الشمس هناك "

" !! يا رعد

" قال مبتسما يشاكسها " أفكر حين تغيب الشمس أين تذهب

تغلبت عليها تلك الضحكة الصغيرة فوضعت يدها على

" بطنها قائلة " قل شيئا يصدقه العقل

عاد بنظره هناك وهمس بشرود حزين " أفكر في المكان الذي

انفصل وحده عن البلاد ... في القرى التي وكأنها اتفقت عليا

يا غسق واختارت استقلالها مهددة بنزع الاستقرار معها

" وأحرقت آخر أمل لي فيها

ثم نظر لبطنها البارز وقال مبتسما قبل أن تسأل " بقي شهر

" واحد ونرى المنتظر ما يكون

أنزلت رأسها بخجل خالطه الكثير من الحزن ولم تعلق فشعرت

بيده على كتفها ووصلها صوته الهادئ " جميعنا لنا أحلام لم

نحققها يا غسق ، قد يضننا البعض تخلينا عنهم لكن ذلك لم

" يحدث ونتمنى فقط أن يلتمسوا لنا العذر

أشاحت بوجهها جانبا وهمست بجمود " لا عذر لمن لم يقدم

عذره يا رعد ، ثم أنا ما يحزني فراق صغيري الذي لم

" أراه بعد وليس لسبب آخر

كره فتحه لذاك الموضوع من أساسه وقلبه لمزاجها الذي تحاول

تعديله من أجلهم متسلحة بتلك القوة التي استغربها الجميع حولها

وقال محاولا تغيير ذاك الجو المشحون " إن كانت فتاة أنا

" من أسميها

رفعت نظرها له وقالت تجبر نفسها على الابتسام وإن من أجله

" ونعرف اسم المجهولة التي تحدث الشمس عنها كل يوم ؟ "

ضحك من فوره فلم يتوقع أن تقول ذلك وقال ما أن أنهى ضحكه

لن ترضي باسمها أبدا يا غسق ووالدي أول من سيضربني "

" على رأسي لأني فكرت فقط في نطقه

قالت تبحث في عينيه " ما قصتك يا رعد ؟ لما أشعر أن حلمك

" ذاك صعب المنال وأنت الآن ابن الرئيس المؤقت للبلاد

نظر حيث الأفق البعيد وهمس بحزن " اتركي ما في القلب في

القلب يا غسق فليس كل ما يتمناه المرء يدركه وإن كان

" الرئيس نفسه

*

*

" أريد ابنتي "

لم تكن تلك المرة الأولى التي تقول فيها تلك الجملة لكنها في

كل مرة ترى ملامح وجهه وكأنها أول مرة تقولها له ، صرخ

بعنف " وما تريديه بابنتك ؟ لا نفع من ورائها ولا بعد أن

" انقشع ابن شاهين من الوجود فما نصنع بها ؟

قالت بضيق " ابنتي وأريدها لا أريد أرضا ولا منزلا

" بل ابنتي

تأفف وقال من بين أسنانه " وما الذي رقق قلبك عليها

الآن ها ؟ لم تذكريها من قبل "

قالت تكابد حسرتها " كانت لحظة تهور وكنت أضن أني أحتاج

زوجا فقط وأنها ستكون عائقا لسعادتي لكني أخطأت "

أمسك وسطه بيديه وقال بحدة " وقولي أنك ضننت أنك ستنجبين

أبناء أصحاء معي وتكونين عائلة وتنسيها وحين لم يحدث ذلك

وظهر أن هذا الزوج عقيم تذكرتها ، لما تلفقين الحقائق ؟ "

قالت باعتراض " لا تتهمني بأفكارك وما يقول عقلك أنت

ابنتي أريدها وإن كان لي عشرة أبناء غيرها "

تحرك من هناك قائلا بغضب " إن تركوها لك أحضريها يا أم

ابنتك وتذكري فقط أني لست مسؤلا عنها ولا بقرش "

وضرب باب الغرفة خلفه بقوة أرجفتها فتحركت أيضا متمتمة

" اصنع ما شئت فلن أرتاح حتى ترجع لي زيزفون من جديد "

* * * * * حـــاضر يتحدث * * * * *

ملأ صوته الجهوري الواثق الحازم بنبرته المبحوحة التي

زادته قوة أرجاء تلك الغرفة خارجا من ذاك الجهاز

شعب بلادي العظيم ... مطر شاهين ليس المجد ليس المستقبل بل)

أنتم ... أنتم اليوم وأنتم الغد ، وقفتكم معا تبنيه حجرا حجرا وتشتتكم

يدمره ، تركت فيكم رجالا كانوا سبب ما وصلنا له اليوم ، تركت مطر

شاهين في قلب وعقل كل واحد منهم ، لا تجعلوا منا سخرية للعالم من

جديد ، مدو أيديكم وتعاونوا فالحرية أثمن شيء في الوجود ، والعيش

بكرامة كنز لم تجربوه لفعلتم كل شيء من أجله ، لن تحكم هذه البلاد

الحالك ولا الهازان ولا حتى صنوان بل سيحكمها الجميع يدا واحدة

وعين شراع صنوان ترعاكم لأنها عين والد لكل واحد منكم لن يحب

أبنائه أكثر من كل فرد في البلاد ، كونوا يدا واحدة ليس من أجل مطر

بل من أجل البلاد فهي الآن تحتاج منك للكثير لتسير خطواتها الأولى

للأمام ، لن نسمح لأحد بتدمير حلمنا ونحن ندنو من تحقيقه فالأرض

أرضنا والحلم حلمنا والمستقبل لنا ومن أجلنا فلا تجعلوه دماءا ودمار

أكثر مما كان ، لا تخذلوني فيكم وأنهوا ما بدأه مطر شاهين ولا

تسألوا أين يكون لأنه بينكم معكم وفي كل مكان طالما تسلحتم

بمبادئه وسرتم على ما خطط لكم....)

و رفع نظره بصاحب اليد التي ضغطت الزر وأوقفت ذاك الصوت

من لم ينتبه لدخوله واقترابه ، جلس أمامه وقال " ألن تكتفي من

سماع هذا الخطاب ؟ أجزم أنك بت تحفظه "

نظر لآلة التسجيل بشرود وقال " أريد أن أفهم ما الذي قاله

جعل فورة الناس تلك تخمد ؟ ما السحر الذي يلقيه ذاك

الرجل على قلوب الناس وعقولها "

ابتسم الجالس أمامه وقال " الثقة يا رماح إنها ثقتهم القوية به ، ذاك

الشعور الذي غرسه فيهم على مدى أعوام جعلهم يفعلون ما يقول

وأعينهم مغمضة ، لن ينساه أحد ولن تتوقف الناس عن ذكره

والتساؤل عن سبب تركه لكل شيء واختفائه لأنه عرف

كيف يدخل قلوبهم ويستوطن فيها "

همس رعد بشرود " غريب حقا ذاك الرجل وغريب ما

يفكر فيه ويقرره "

*

*

رفع حقيبة الطفل الجاهزة بعدما ألقى نظرة على النائمة فيها بسلام

ونظر خلفه نظرة تمنى أن لا تكون أخيرة وجملة واحدة مرت أمامه

وقتها قالها له شاهر كنعان نفسه ذاك اليوم في لندن ((لو كان الأمر

بيدي ما تركت ابني ولا زوجتي ، أحيانا تضطرك الحياة لأمور

تكرهها وتتمنى ألف مرة أن مت قبلها ، أتمنى أن لا تجرب ذلك

يا مطر شاهين لكني أتمنى أن تفهم معنى ذاك الشعور لتعذرني

فلا أحد يتخلى عن شيء يسري كالدماء في عروقه إلا وهو

مكره وقد كره حتى نفسه ولن يجد حلا غيره مهما حاول))

ابتسم بمرارة وأدار ظهره لكل شيء تركه ورائه وتحرك بخطوات

سريعة ثابتة ورفع معصمه ينظر للساعة فيه ووقف حيث وصل

والتفت حوله حتى ظهر له الاثنان الواقفان هناك وما أن رأياه

حتى توجها نحوه ووقفا عنده وقال أحدهما مبتسما ويده على

رأس الواقف بجانبه " وصلتك الأمانة ؟ "

نظر للأسفل حيث الذي يرفع رأسه ونظره به وقال

" نعم وصلت شكرا لك يا عمير "

ضرب له ذاك التحية وقال متراجعا للوراء " أراك قريبا

يا زعيم ولن أقول وداعا أخير "

ابتسم له بحزن وهو يبتعد حتى توارى خلف تلك الأعمدة ثم

نظر للواقف أمامه وقال " جاهز للرحيل يا تيم ؟ "

هز ذاك رأسه بنعم فوضع يده على رأسه ماسحا بها على

شعره وتحرك دافعا له معه وقال " البلاد تحتاجنا يا تيم

ولن نخذلها أليس كذلك ؟ "

نظر له فوقه سائرا بجانبه وقال " أجل لن نخذلها لكن ما

الذي سأفعله أنا لأجلها ؟ "

نظر له مبتسما ثم عاد بنظره لطريقهما وهمس" ستخدمها يا تيم بل

وكثيرا فحربنا بدأت الآن الحرب الحقيقية التي لا تحتاج لسلاح"

قال من فوره ونظره لازال معلقا به " سنسافر لكنك لن تأخذني

لأحد أقاربي أليس كذلك ؟ "

نظر له وهز رأسه بلا فابتسم ذاك برضا ونظر للذي يحمله

السائر بجانبه في يده الأخرى وقال " من يكون ذاك الطفل ؟ "

" نقل نظره لها بدوره وهمس " ابنتي ... هذه ابنتي تيما

* * * * * * * * * * * * * *

لن نقول عند هنا انتهت قصتنا ولن نقول أنها نهاية تعيسة

ولن نقف في صف أحدهم ضد الآخر فللحكاية فصول أخرى

وحقائق أخرى مخفية وسنعلم إن كانت هزيمة تلك لمطر

شاهين أم نصرا وإن انتهى دوره أم لم يغب عنهم يوما

مطر شاهين) شخصية بنيتها وجسدت فيها أحلامي أحلامكم)

وحلم كل شخص شعر يوما بتشتت وطنه وضياعه ، حلم كل

عربي عانى الظلم في بلاده ، حلم كل من هاجر وخرج منها

مكرها ، وحلم كل من رأى وطنه يتشتت ويقسم والوحوش

البشرية تنهشه كالفريسة

مطر شاهين) ليس مجرد شخصية في رواية ولم يكن شخصية)

فيها أكثر من كونه تجسيد لذاك الحلم الذي نغمض أعيننا كل

ليلة نتمناه ونحلم به قبل أن ننام فهل ينتهي الحلم هنا ؟

هل سيتحقق الحلم بعده أم هل سيرجع يوما لتحقيقه ، من

خسر في كل هذا ومن الكاسب ومن الذي كان جلادا للآخر

حقائق سيكشفها الجزء الثاني من روايتنا

* * * * * * * * * * * * *

(مقتطفات من الجزء الثاني من (جنون المطر)

* * * * * * * * * *

ماريه &تيم

تثبت السماعة في أذنه بأطراف أصبعيه يستمع لمن في الطرف الآخر ونظره على كل ما يتحرك حوله ، أدخل يده الأخرى تحت سترته يضغط بأصابعها على الجرح النازف الذي بدأ ألمه يفتك به ، لن يتركه يضعفه ويتوانى في تنفيذ المهمة عليه أن يخرج من هنا بوعيه بعدما ينفذ ما طلب منه ثم يتفرغ لتلك الرصاصة التي اخترقت كتفه ، همس من بين أسنانه يحدّث من يسمعه على بعد أميال بواسطة تلك السماعات " كل شيء يسير على ما يرام سأتحرك الآن فالوضع مطمئن وهي فرصتي الوحيدة "

* * * *

أبعدت نظرها عن عينيها فهي تكره حديثها عن ذاك الأمر وفي

كل مرة تعيد على مسمعها ذات العبارة " حتى متى يا ماريه ؟

" إنها أربعة عشرة عاما منذ توحدت البلاد وغادر

تنهدت بعجز وأبعدت خصلة شعرها البني عن وجهها خلف أذنها

وقالت " أخبريني يا زهور من الذي يوثق عقد زواجنا كل أربعة

أعوام كي لا يلغى حسب قوانين البلاد الوضعية ؟ من الذي من

مصلحته أن أبقى زوجته بل ومن غيره يستطيع فعلها وإن

لم يظهر ولم يأتي ؟ تيم وعدني يوما وسيفي بوعود ذاك

أنا أكيدة "

* * * *

قال بريبة " متأكد أنت من ذلك ؟ "

نقل نظره للواقف بعيدا متكئا بمرفقيه على سياج الجسر يتلاعب الهواء بشعره الأسود الكثيف ونظره شارد للأفق وقال بثقة " لا تقلق سنوكل المهمة للرجل المناسب ولا تنسى أنه أفضل فرد في مجموعة العمليات بأكملها ، إن صوب سلاحه جهة ذبابة تطير أصابها مباشرة ، ولا يهاب ولا الموت "

* * * *

نظرت غير مصدقة للواقف هناك من كان الزمن كفيلا بتغييره وصنع منه رجلا لم تتصوره أبدا ، لم تتخيل أن ذاك الفتى يتحول للشاب الواقف عند الباب ينظر لعمها ولم تتحرك عيناه لتنظر لغيره ولا لها هي الواقفة بعيدا ، كل شيء فيه تضاعف كحجمه وبنيته وملامحه فحتى نظرة عينيه التي يرمق بها الواقف أمامه ازدادت أضعافا في حدتها وقوتها وصوته ازداد برودا يوازي جهورية وخشونة نبرته حينما سأله عمها " ما الذي جئت تريده ؟ "

" وأجاب بكل ثقة " زوجتي

* * * *

رمى يده بعيدا وأمسك بياقته وشده منها قائلا من بين أسنانه " قد أسامحك على كل ما فعلته لي ولوالدتي وليس من أجلك بل من أجلها لأنها طلبت مني ذلك قبل موتها بساعات أما ما حدث لماريه لن أسامحك عليه أبدا ومالها سآخذه منك وتنتهي للشارع وقل تيم كنعان قالها "

* * * *

رمت ما كان على تلك الطاولة صارخة " من قال أني أريد

أن يخرجني من البلاد ويأتي بي هنا ويتركني ، إن كان

الخيار لي كما يقول فلما لم يسألني لأختار "

* * * *

شدها من يدها ناحيته ونظر لحدقتيها العسلية الواسعة وهمس

ماريه ستبقي معي هنا لا خيار لك في هذا وتنسي العبارة "

تلك فهي لا تعنيني "

* * * *

فغرت فاها مصدومة وهي تنظر للبالون الذي انفجر فوق رأسها

والزينة التي تطايرت منه ونظرت لصرخات من حولها حين

تحولت لفريسة للرقص حسب عادات احتفالهم ذاك وشهقت

بفزع حين شعرت باليد الذي سحبتها بعيدا عن ذاك المكان

قبل أن تتلقفها أيدي أولئك الرجال

* * * *

مرر إصبعه على الكلمات فوق تلك الورقة الصغيرة المفرودة

على فخذها ونظر لعينيها قائلا بابتسامة ساخرة " ما رأيك أن

ألبي لك طلبا مقابل كل ترجمة لكل كلمة كتبتها هنا سابقا "

* * * *

قرب وجهها من وجهه وهمس ببرود " قد أكون كل ما نعتني

به ماريه لكني لن أتركك تبتعدي عني افهمي هذا "

* * * * * * * * * * * *

زيزفون &وقاص

قال بشيء من البرود " تعلم كما يعلم شقيقك ذاك أني لم

أكن راض عن كل ما فعلتموه وما خطط له "

قال الجالس بجانبه مباشرة " لكنك لم تعترض يا وقاص والصمت

يعني الموافقة وأنت أكثر من يعلم ذلك "

علت ملامحه ابتسامة متهكمة ساخرة وقال " لو كنت تحدثت لضن

شقيقك الأحمق ذاك أني أفعلها عمدا لأخسره جولة قد ترفع مكانته

كما يتخيل ، منذ البداية أخبرتكم أن تنسوا أمر تلك الفتاة وتتركوها

في غرفتها وعالمها المجهول لكن نجيب كعادته دائما لا يرتاح

ما لم يعكر مزاج جميع سكان المنزل "

* * * *

مرر ذراعيه حول خصرها في حركة جعلت جسدها تيبس مكانه بين تلك الذراعين القوية التي شدتها لذاك الجسد الصلب ومال برأسه داسا وجهه في عطر وشاحها القوي الغريب عنه كعادتها تعشق تغيير كل شيء ويراه هذه المرة أروع من كل سابقاتها برائحة الزهور وليس عطرا فاخرا كعادتها ، همس ولازال تحت وقع خدره باستنشاق عطرها وتحسس جسدها الطري " جيد فعلتها في غيابي وكنتِ عاقلة ، أرأيتِ أن الأمر لا يحتاج لتلك العملية لتنحفي هكذا "

تجمدت بعدها أطرافه وأنفاسه حين لم يرى منها أي استجابة ولم يسمع صوتها ولا شيء سوى أنفاسها المتلاحقة التي تحولت لأنين خافت يشبه البكاء أو هو بكاء مكتوم بالفعل فأرخى ذراعيه وفكرة واحدة تعصف بعقله وكادت تدمره (من تكون هذه إن لم تكن زوجته تلك ؟؟)

* * * *

رمته بسخرية لاذعة " لا تنسى أنك متزوج يا وقاص

" وأنها زوجة شقيقك

* * * *

رفعت ذقنها وواجهته قائلة بثبات " مرحا يا رجل القانون تدافع

" عن قاتلة ستقدم للعدالة ! لا تنسى ما درست وتفوقت فيه

وجه لها ضربة أقسى من ضربتها ومباشرة " ولا تنسي أنتي

يا زوجة والدي أن القانون لا يقاضي مجنونة خرساء أم

" ستنكرون هذا

* * * *

قفز جالسا من نومه حين رأى اسمها في شاشة هاتفه وأجاب

فورا لترتسم تلك الابتسامة على شفتيه ما أن وصله صوتها

" الناعم المنخفض " وقاص أين أنت الآن ؟

نظر للأعلى وعض طرف شفته يمسك تلك الابتسامة ثم همس

" لا يا زيزفون ليست صحيحة لا تقوليها هكذا "

أغمض عينيه لبرهة وهو يستمع لأنفاسها وصمتها الذي يقرأه

" جيدا ثم قال " زيزفون أين أنتي ؟

" وصله صوتها الرقيق " ما أقول إذا ؟

اتسعت ابتسامته أكثر وهمس مجددا " قولي افتقدتك قولي

" أحتاجك لا تقولي أين أنت فهي تقتل المشاعر

عادت للصمت الذي يقتله في كل مرة فقال " زيزفون قولي

" أي شيء

" وصله همسها هذه المرة " أريد أن أراك الآن وقاص

" yes " همس بحماس وهو يرمى الهاتف

وقفز خارج السرير

* * * * * * * * * * * *

قاسم &تيما

تمسكت بحقيبتها بقوة ولم تستطع إزاحة نظرها عن الواقف هناك

رغم التحرك البطيء للقطار ، شعرت بنبضات قلبها تتسارع بجنون

بسبب نظرته الغريبة تلك لها وعيناه لم تنزاح عن عينيها أبدا ، لم

يغير مكانه ولا وقفته واتكاءه على العمود خلفه يداه في جيوبه

لم تتوقع أن تقابله مجددا بعد تلك الليلة التي جل ما تتمناه أن

تمحى من ذاكرتها ورؤيته الآن أعادت لها كل تلك الصور

في ذاك الملهى الليلي وإنقاذه لها من ذاك الرجل

انكمشت على نفسها ما أن تحرك القطار مسرعا وهمست تخبئ

وجهها في تلك الحقيبة القماشية " لابد وأنه عرفني وسيستغرب

أني بالحجاب الآن ، يا إلهي لما ألتقي به مجددا ؟ "

* * * * * * * * * * * *

" لا يمكن يا رجل أنت لم تدخل مملكة الغسق بعد وتراها إنها

أقوى جمعية نسائية في البلاد وفي أجمل مدينة فيها ، النساء

داخلها يشعرنك أنك لا شيء "

* * * *

لم تستطع الحراك ولا التنفس وهي ترى الفتاة التي خرجت من

خلفه واقتربت منها مسرعة تهمس بشفاه مبتسمة وعينان

دامعة " أمـــي "

لا تصدق أنها هنا أمامها طفلتها التي لم تراها أبدا ولا بعد ولادتها

ورفضت أن تتعلق بها وهي لن تكون لها ، رفضت رؤيتها وقلبها

يتمزق عليها أشلاء وتمنت مع مرور الأيام لو فقط خزنت لها

صورة في ذاكرتها لأنها كانت تتعذب في الحالتين ، وصلت عندها

وحضنتها بقوة وهي لازالت جامدة مكانها يداها مرميتان جانبها

" وما أن سمعت همسها الباكي " أمي كم اشتقت لأن أراك

سالت تلك الدمعة من عينيها المغمضتان بقوة ، لا تصدق هذا

أيعقل أنها ابنتها فلذة كبدها ! لا لم تتخيلها هكذا امرأة ناضجة

وكأنها ابنة العشرين عاما وليست في بداية الخامسة عشرة

* * * *

صرخت بغضب " لا لن أسمح بذلك أبدا لن يزوج ابنتي

وهي في هذا السن من رجل يكبرها بكثير ، أنا والدتها

" أيضا ولي رأي في ذلك

* * * *

نظرت لعينيه بحزن وأشارت على قلبها وقالت بوجع

انكسر هذا يا كاسر انكسر شيء هنا يصعب تجبيره "

" مهما طالت السنين بني

* * * *

قال مبتسما " إن رأيتها رأيت أمامك تقف أجمل امرأة لبست

السواد كاملا على وجه الأرض ، تخيلت ابنتي في كل الصور

لكني لم أتخيلها هكذا جمعت حسن والدتها وجدتها معا

وكأني لا أرى أمامي امرأة قاربت منتصف الثلاثين

" من العمر بل وكأنها شقيقة ابنتها

* * * *

أحذرك مطر شاهين فالمرأة التي تركتها هنا من أربعة عشر "

عاما ليست من توجد في تلك المملكة البيضاء الآن ، إنها

" أقوى وأصلب من مملكتها تلك بكثير

* * * *

أنت لم ترجع من أجلي أنت عدت لأن الوطن يحتاجك "

" يا مطر مثلما غادرت لأنك لم تعد تحتاجه

* * * *

قالت بحزن " غسق عليك أن تنزعي هذا السواد فالحزن لم

يرجع ميتا يوما يا ابنتي "

* * * *

كل ما كانت تحاول تجنبه النظر للجالس عند يمين الطاولة تُرسَل

له جميع أوراق ما يناقشونه وكأن الرأي الأول والأخير له وحده

هي من بنت هذه المملكة ومن جعلتها قوية راسخة ولن ترضى

أن تكون تحت إمرته مهما كلف الأمر ، ستلغي كل ما نوقش

في هذا الاجتماع الذي اكتسحه بلا استئذان وتعيد صياغة

القرارات من جديد وليفعل ما يحلو له

* * * *

أمسكت يدها وقالت برجاء " أمي جربي فقط أن تفكري في

" الأمر ، أنني لست بحاجة لأحد غيره

تجاهلتها وقد سحبت يدها وسرعان ما نظرت لها بصدمة

" حين قالت ببرود " أريد أشقاء لي لن أعيش وحيدة هكذا

كادت تصفعها على ما قالت لولا جمدت مكانها من الصوت الذي

" جاء من خلفها قائلا " وأنا أيضا فلا أحد غيرك سينجب لي شقيقا

نظرت خلفها للكاسر الذي يكتف يديه لصدره ثم وقفت وقالت مغادرة

من هناك " كلاكما شقيق الآخر وهذا يكفيكما ، إن سمعت حديثا

" في الأمر مجددا طردكما كليكما من هنا هل فهمتما

~~~~~~~~~~

~~~~~~~~~~

وعند هنا كانت آخر أسطر فصول الجزء الأول من روايتنا (جنون المطر)
رواية لم أتعب في الكتابة كتعبي في كتابتها استنزفت كل مجهود عندي وأرهقتي
حد الارهاق لكن كل ذلك كان يتلاشى ما أن أرى أسمائكم وأقرأ تعليقاتكم
وحماسكم كنتم نعم الأخوات وكان لي عظيم الشرف بمعرفتكم

. أول وخالص وعظيم شكري لأختي الغالية (فيتامين سي) من مهما شكرت
وكتبت لن أوفيها حقها إنسانة بصدر رحب وقلب واسع محب تأخذ من نفسها
لتعطي غيرها وبلا حدود ، هي شريكتي في هذه الرواية شاركتني كل شيء فيها
دعمتني وشجعتني وساعدتني لتكون كما هي الآن أسأل الله أن يجازيها أجرا
واحسان .

كما وأشكر الغاليتين (لامارا وبلومي) لما قدمتاه للرواية والأخت (بحر الندى)
على الغلاف الرائع للرواية تستحق لقب ملكة التصميم .

كما وأشكر كل من خطت أنامله كلمة شكر أو تعليق أخوات غاليات كنتم أكبر
داعم لسفينتنا للمضي في سيرها لبر الأمان .

لن أطيل الكلام ولن نقول أنه الوداع الأخير فثمة لقاء قريب يجمعنا إن شاء الله
وإن لن يكون قريبا جدا لأني أحتاج لفترة راحة واستجماع لأفكاري ولكتابة قدر لا
بأس به من فصول الجزء كي لا أكرر خطأ السابق فأتعب وتتعبوا معي.

إن شاء الله على أول فبراير إما أن أنزل أول فصل أو أكتب لكم عن الموعد في
قسم المواضيع الجانبية

أعتذر إن قصرت يوما أو أخطأت في حق أحد منكم فأنا في النهاية بشر أخطئ بقدر ما أصيب ولا تتوقعوا من روايتي الكمال لأني لم أصل لذاك المستوى بعد .

اخترت أن يكون الفترة ما بعد اختفاء مطر على هيئة مقتطفات كي لا يطول الشرح والسرد الممل أما الجزء الثاني فسينقلنا للمستقبل فورا لذلك اخترت عرض شخصيات أبطاله كأطفال في هذا الجزء كي لا نرجع للوراء ولكي يجدوا في قلوبكم المكانة التي حضو بها الآن وأتمنى أن يكون جزأها الثاني فاق الأول جمالا وأن تقل فيه الأخطاء السابقة ..... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته




روايتي